مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة للُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة عِلميَّة دَوْريَّة مُحكَّمة

العدد
12

أبريل - يونيو
2024م

١٣٨١
١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

معلومات الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

النسخة الورقية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٣ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٧٦

النسخة الإلكترونية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٤ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٨٤

الموقع الإلكتروني للمجلة

http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة إلى البريد الإلكتروني:

asj4iu@iu. edu. sa

البحوث المنشورة في المجلّة تعبّر عن آراء الباحثين

ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

جميع حقوق الطّبع محفوظة للجامعة الإسلامية

هيئة التحرير

د. تركي بن صالح المعبدي
(رئيس هيئة التحرير)
أستاذ النحو والصرف المشارك بالجامعة الإسلامية
د. خليوي بن سامر العياضي
(مدير التحرير)
أستاذ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها المشارك بالجامعة الإسلامية
أ.د. عبد الرزاق بن فراج الصاعدي
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية
أ.د. عبدالرحمن بن دخيل ربه المطرفي
أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية
أ.د. الزبير بن محمد أيوب
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية
د. مبارك بن شتيوي الحبيشي
أستاذ البلاغة المشارك بالجامعة الإسلامية
د. محمد بن ظافر الحازمي
أستاذ اللسانيات المشارك بالجامعة الإسلامية
د. عبد المجيد بن عثمان اليتيمي
أستاذ أصول اللغة المشارك بالجامعة الإسلامية
أ.د. عبدالله بن عويقل السلمي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك عبدالعزيز
أ.د. علي بن محمد الحمود
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
أ.د. عبد الرحمن بن مصطفى السليمان
أستاذ اللّغات والآداب السامية والترجمة بجامعة لوفان – بلجيكا
أ.د. علاء محمد رأفت السيد
أستاذ النحو والصرف والعروض بجامعة القاهرة – مصر
أ.د. سعيد العوادي
أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاضي عياض – المغرب
د. الزبير آل الشيخ مبارك
(رئيس قسم النشر)

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد بن يعقوب التركستاني
أستاذ أصول اللغة بالجامعة الإسلامية
أ.د. محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر
أ.د. تركي بن سهو العتيبي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
أ.د. سالم بن سليمان الخماش
أستاذ اللغويات بجامعة الملك عبدالعزيز
أ.د. محمد بن مريسي الحارثي
أستاذ الأدب والنقد بجامعة أم القرى
أ.د. ناصر بن سعد الرشيد
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود
أ.د. صالح بن الهادي رمضان
أستاذ الأدب والنقد ـ تونس
أ.د. فايز فلاح القيسي
أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة الإمارات العربية المتحدة
أ.د. عمر الصديق عبدالله
أستاذ التربية وتعليم اللغات بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم
د. سليمان بن محمد العيدي
وكيل وزارة الإعلام سابقاً

قواعد النشر في المجلة (*)

- أن يكون البحث جديداً؛ لم يسبق نشره.
- أن يتّسم بالأصالة والجدّة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- ألا يكون مستلاً من بحوثٍ سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.
- أن يشتمل البحث على:

– عنوان البحث باللغة العربية وباللغة الإنجليزية.
– مستخلص للبحث لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
– كلمات مفتاحيّة لا تتجاوز (٦) كلمات؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
– مقدّمة.
– صلب البحث.
– خاتمة تتضمّن النّتائج والتّوصيات.
– ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية.
– رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.

- في حال (نشر البحث ورقياً) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نُشر بحثُه فيه، و (١٠) مستلات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤول حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقيّاً أو إلكترونيّاً، ويحقّ لها إدراجه في قواعد البيانات المحلّيّة والعالمية – بمقابل أو بدون مقابل – وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحقّ للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنّشر في المجلّة – في أي وعاء من أوعية النّشر – إلاّ بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة: http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

محتويات العدد

م	البحث	الصفحة
١)	**أثر عاملي النفي والقصر على التحاجج في قصص القرآن الكريم - معجزة صالح عليه السلام أنموذجا** د. نوال بنت سعود بن صالح الفرهود	٩
٢)	**التعريف بضمير الرفع المنفصل في سورة الحشر مواقعه وأسراره البلاغية** د. منيرة بنت مرعي بن راشد الزهراني	٤٩
٣)	**خطاب المرأة المسلمة في الحديث النبوي في ضوء إستراتيجيات الخطاب** د. علاء دسوقي أحمد علي	٩٩
٤)	**مزاعم قصور اللغة العربية بين اللسانيات الشعبية واللسانيات العلمية -دراسة تحليلية نقدية لمفهوم الكمال اللغوي** أ. د. عزمي محمد حمود عيال سلمان	١٤١
٥)	**ملامح التعريف المعجمي عند الأصمعي (ت ٢١٦هـ)** د. منى بنت محمد الشمراني	١٩٣
٦)	**النسق الناسخ قراءة في نسق العصبيّة في شعر الفرزدق** د. صغيّر بن غريّب بن عبد الله العنزي	٢٤٥

م	البحث	الصفحة
٧)	**الْقَهْوَةُ وَالْمَقْهَى فِي شِعْرِ مَحْمُوْد دَرْوِيش (مُقَارَبَةٌ نَقْدِيّةٌ فِي ضَوْءِ نَظَرِيّةِ الِاتّصَال)** د. نورة بنت سعد بن محمّد الشَّهراني	٣٠٧
٨)	**المجاز وتعدد النسق -دراسة تطبيقية في قصيدة (اللحن الحزين) لرهف المبارك** د. علي بن محسن مشعوف	٣٦١
٩)	**تمثلات الحضور البيئي في رواية (الوسمية) لعبد العزيز مشري -مقاربة في ضوء النقد البيئي** د. تهاني بنت قليل أحمد الجهني	٤٠٧
١٠)	**تقنياتُ السَّردِ وجمالياتُ غَزْلِ الذكريات في القصَّةِ القَصيْرةِ جدًا -مجموعة مَنْسِيَّة لشيمة الشمّري نموذجًا** د. وفاء أحمد جابر أحمد	٤٤٧
١١)	**سيميائية العنوان المركب في رواية (أرق النّار وقلق الماء حكاية مْرا ونصف لصالح بن رمضان)** د. عائشة بنت دالش بن حامد العنزي	٥٠١
١٢)	**قراءة تحليلية تقويمية للكتاب الثالث من سلسلة العربية للعالم في ضوء معايير إعداد كتب تعليم العربية لغة ثانية** د. مشاعل بنت ناصر آل كدم	٥٥٥

أثر عاملي النفي والقصر على التحاجج في قصص القرآن الكريم

(معجزة صالح عليه السلام أنموذجا)

Impact of the Factors of Negation and Exception on the Argumentation in the Stories of the Noble Qur'an

(The Miracle of Saleh, peace be upon him, as a case study)

د. نوال بنت سعود بن صالح الفرهود

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية، تخصص البلاغة والنقد بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

البريد الإلكتروني: nsalfarhoud@pnu.edu.sa

المستخلص:

تركز هذه الدراسة على العوامل الحجاجية الأكثر ورودا في سياق معجزة صالح عليه السلام، حيث وردت قصة الناقة في السور "الأعراف – هود – الإسراء – الشعراء– القمر– الشمس"، وقد كانت عوامل التحاجج الأكثر ورودا في الدراسة المنصوصة عليها عاملي النفي والاستثناء.

وجاءت الدراسة بعنوان "أثر عاملي النفي والقصر على التحاجج في قصص القرآن الكريم (معجزة صالح عليه السلام أنموذجا)"، واشتملت على تمهيد ومبحثين، المبحث الأول: العوامل الحجاجية (المفهوم والوظيفة والأنواع)، والمبحث الثاني: العوامل الحجاجية في معجزة صالح عليه السلام.

واعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي والتحليلي، وذلك بحصر الآيات الكريمة التي وردت فيها معجزة صالح عليه السلام، ثم حصر العوامل الحجاجية التي تضمنتها الآيات الكريمة، ومن ثم سعت إلى محاولة الكشف عن القيم البلاغية العميقة المضمنة في التوجيه الحجاجي وما يفضي إليه من نتائج.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج لعل من أبرزها: أنّ عامل التحاجج (النفي) يستخدم في نفي حقيقة مثبتة، والحقيقة المثبتة هنا هي وقوع نصح من صالح عليه السلام لقومه عن طريق نفي سماعهم للنصح. وكذلك أنّ عامل التحاجج (النفي + الاستثناء) يوجه لمن يجهل الأمر، لكن ورودها في سياق الآيات موضع الدراسة تنزيلا لقوم صالح عليه السلام منزلة الجاهل؛ لأنّ الدليل على ألوهية الله ظاهر أمامهم وهو الناقة الحية، والدليل على ذلك سرعة إبادتهم لها. ومن العوامل الحجاجية الواردة في سياق الآيات موضع الدراسة النفي والقصر بالنفي والاستثناء وإنّما والصيغ والتأكيد.

الكلمات المفتاحية: العوامل الحجاجية، معجزة صالح عليه السلام، بلاغة الحجاج، القصص القرآني.

Abstract

This study focuses on Argumentative factors most frequently mentioned in the context of the miracle of Saleh, peace be upon him, the story of the camel was mentioned in the surahs (al-Aʿrāf - Houd - al-Isrā - Al-Shuʿarā – al-Qamar – al-Shams), and the factors of argumentation that appeared in the stipulated study were the factors of negation and exception.

This study is titled "The Impact of the Factors of Negation and Exception on the Argumentation in the Stories of the Noble Qur'an (The Miracle of Saleh, peace be upon him, as a case study)", it included a preface and two sections. The first section: the argumentative factors, concept and function. The second section: the argumentative factors in the miracle of Saleh, peace be upon him.

The study adopted an inductive and analytical approach, by listing the verses of the noble Qurān in which Saleh's miracle was mentioned, then listing the argumentative factors that the verses played in directing the arguments and the findings they lead to.

The study findings included: that the factor of argumentation (negation) is used to deny a proven fact, and the proven fact here is the occurrence of advice from Saleh, peace be upon him, to his people by denying that they heard the advice. Likewise, the factor of argumentation (negation + exception) is directed at those who are ignorant of the matter, but its occurrence in the context of the verses under study is that the people of Saleh, peace be upon him, were given the status of the ignorant; Because the evidence of Allah's divinity is apparent before them, which is the living she-camel. The proof of this is how quickly they killed the she-camel.

Keywords: argumentative factors, Saleh's miracle, negation, argumentation rhetoric, Quranic stories.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، القائل في كتابه العظيم: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والصلاة والسلام على صاحب المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، وعلى آله وصحابته الغر المحجلين.

إنّ القرآن الكريم كتاب الله المحفوظ، ومعجزة رسوله صلى الله عليه وسلم الخالدة، الذي عجز العرب عن الإتيان بمثل بيانه وآياته البينات، ولو بآية أو سورة مفتراة.

ركزت الدراسة على العوامل الحجاجية في الآيات الكريمة التي سيقت في مقام معجزة صالح عليه السلام ولعل فيها إضافة للدراسات التطبيقية الحجاجية على السياق القرآني الكريم.

وقد عنونت هذا البحث بـ "أثر عاملي النفي والقصر على التحاجج[1] في قصص القرآن الكريم (معجزة صالح عليه السلام أنموذجا)".

وسيكون مجاله دراسة العوامل الحجاجية الواردة في سياق آيات معجزة صالح عليه السلام بطريقة استقرائية تحليلية، مستنيرة بكتب المعاجم والتفاسير والنحو والبلاغة.

أهمية البحث وسبب اختيار الموضوع:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول موضوعا من موضوعات كتاب الله تحاول فيه دراسة أبرز العوامل الحجاجية الموجودة في آيات معجزة صالح عليه السلام، ولعله يجيب عن التساؤلات الآتية:

(١) آثرت اختيار مصطلح التحاجج لما يتضمنه وزن تفاعل من المشاركة وهذا ما يمثل مضمون المفهوم لما فيه من عرض الحجج وما قابلها بحجج أخرى.

١- ما أثر التحاجج بالنفي على السياق في آيات معجزة صالح عليه السلام؟

٢- ما أنواع التحاجج بالقصر في سياق آيات معجزة صالح عليه السلام؟

٣- ما أثر التجاجج بالقصر في سياق آيات معجزة صالح عليه السلام؟

ومن الأسباب التي دفعتني لهذا الموضوع:

١) السعي إلى معرفة أكثر العوامل الحجاجية المستخدمة في قصة معجزة صالح عليه السلام.

٢) عدم وجود دراسة بلاغية مستقلة تناولت العوامل الحجاجية في آيات معجزة صالح عليه السلام.

أهداف البحث:

١- تقديم دراسة بلاغية تطبيقية على العوامل الحجاجية في القصص القرآني.

٢- توظيف المعنى النحوي للعوامل الحجاجية في إبراز القيمة الحجاجية البلاغية في السياق الكريم.

الدراسات السابقة:

لم أعثر على دراسة سابقة تطبيقية على الحجاج في الآيات التي تناولت معجزة صالح عليه السلام، ومجمل ما عثرت عليه دراسات حجاجية لسور متعددة من القرآن الكريم على سبيل المثال:

١- أساليب القصر وأدوات النفي في قصة صالح عليه السلام في القرآن الكريم، دراسة بلاغية تحليلية، فهد محمد العمار، مقال منشور في حولية كلية اللغة العربية بجرجا، وهذا البحث عبارة دراسة أسلوبية للقصر وأدوات النفي في قصة صالح عليه السلام مع قومه ولم تقتصر على آيات معجزة صالح عليه السلام

ولم تتطرق للحجاج فيها.

٢- الأساليب الإنشائية في قصة صالح عليه السلام في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية، فهد محمد فهد العمار، مقال منشور في حولية كلية اللغة العربية بجرجا، جامعة الأزهر مجلد ١٢ العدد ٦ ٢٠٠٨، واقتصر البحث على دراسة الأساليب الإنشائية من "استفهام، أمر، نهي، نداء" من غير تطرق للحجاج.

٣- الحجاج مفهومه وأنواعه (دراسة تطبيقية لنماذج قرآنية)، مسعودة بايزة، جامعة ابن خلدون، الجزائر، مجلة فصل الخطاب، المجلد ٢، العدد٤، ديسمبر ٢٠١٣.

٤- العوامل الحجاجية في آيات الأعراف والتقاليد، أ.د عبد علي حسن ناعور ورشا حسين عبد، المجلة الأكاديمية العالمية للغة العربية وآدابها، الراية الدولية الإلكترونية، ٢٠١٩.

٥- العوامل الحجاجية في قصص النساء في القرآن الكريم، أ.د. دلدار غفور، مجلة كلية المعارف الجامعة، المجلد٣٣، العدد٣، ٢٠٢٢.

٦- العوامل الحجاجية في القرآن الكريم – آيات القتال أنموذجا، عيسى قاسم حسن، أشواق محمد النجار، مجلة مركز بابا للدراسات الإنسانية، ٢٠٢٢، المجلد ١٢، العدد٤.

٧- العوامل والروابط الحجاجية في خطاب الشر عند الكافرين في القرآن الكريم، عبد الأمير حسن خيون، علي فرحان جوادن جامعة المثنى، كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلة أوروك للعلوم الإنسانية، المجلات العلمية الأكاديمية العراقية ٢٠٢٣م.

وكلها دراسات تطبيقية على العوامل الحجاجية، إلا أنّها لم تتناول آيات معجزة صالح عليه السلام.

هيكل البحث:

سوف يبنى البحث وفق الهيكل التالي:

مقدمة: يذكر فيها أهمية الموضوع، وأهم أسباب اختياره، والمنهج المتبع فيه والدراسات السابقة عليه.

تمهيد: القصة مفهومها وأنواعها في القرآن.

المبحث الأول: العوامل الحجاجية (المفهوم والوظيفة والأنواع).

المبحث الثاني: العوامل الحجاجية في معجزة صالح عليه السلام.

الخاتمة والنتائج والفهارس.

تمهيد: القصة مفهومها وأنواعها في القرآن

القصة في اللغة:

مأخوذة من (ق.ص.ص) يُقَالُ: قَصَصْت الشَّيْءَ إذا تتبّعْت أَثره شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، والقَصُّ والقَصَصُ والقَصْقَصُ: الصَّدْرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَقِيلَ: هُوَ وَسَطُهُ، وَقِيلَ: هُوَ عظْمُه، والقِصّة : الْخَبَرُ وَهُوَ القَصَصُ، وَقَصَّ عَلَيَّ خبَره يقُصُّه قَصّاً وقَصَصاً: أَوْرَدَه، والقَصَصُ : الخبرُ المَقْصوص، وتقَصّصَ كلامَه: حَفِظَه، وتقَصّصَ الْخَبَرَ :تَتَبَّعَهُ، والقِصّة :الأَمرُ والحديثُ، واقْتَصَصْت الْحَدِيثَ : رَوَيْته عَلَى وَجْهِهِ، وقَصَّ عَلَيْهِ الخبَرَ قَصَصًا ، الأثر يقال خرج فلان قصصاً في أثر فلان، وقصاً وذلك إذا أقتص أثره. وقيل لمن يقص القصص قاص لإتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقا. والقاص: من يأتي بالقصة علي وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظه، والقصة: الأمر والحديث، وقد اقتصصت الحديث رويته علي وجهه، والقصص الخبر المقصوص ، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، ويقول في موضع آخر من السورة نفسها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١][1] والْقَصُّ: تتبّع الأثر، يقال :قَصَصْتُ

(١) ينظر: محمد بن أحمد بن الأزهري. "تهذيب اللغة". المحقق: محمد عوض مرعب. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م). مادة (ق.ص.ص). ٨: ٢١٠؛ ومحمد بن مكرم، ابن منظور. "لسان العرب". الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين. (الطبعة: الثالثة، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ). ٧: ٧٤.

أثره، والْقَصَصُ: الأثر[١].

القصة في الاصطلاح: القصة قيل هي: الأمر – الخبر – الشأن – الحال، وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الغابرة، وشأن النبوات السابقة والحوادث الواقعة، وأمور كثيرة أخرى، وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من وقائع الماضي وتاريخ الأمم وذكر البلاد والديار وما حدث فيها. وتتبع آثار كل قوم، كما حكى القرآن الكريم عن الجميع صورة ناطقة كما كانوا عليه في عصورهم وحياتهم[٢].

وبما أن القصص في معناه اللغوي يشتمل على القص بمعنى تتبع الأثر، فقد آثرت أن أذكره هنا لربطه بقصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم؛ إذ في تبع هذا النوع من القصص، وبتأمل مآل الأقوام الغابرة أثر كبير في الاعتبار والاتعاظ والخوف من غضب الله تعالى شأنه وجل علاه وتقوية للإيمان به وحده دون شريك له في ملكه وخلقه وعظمته.

وبما أن الأشخاص – مع اختلاف عددهم باختلاف الأحداث وطول القصة – من أهم العناصر القصصية التي لابد أن تشتمل عليها القصة فالحوار الدائر بينهم يملأ النص القصصي بالأساليب والوجوه الحجاجية الموظفة لأجل التأثير في المتلقي وإقناعه، ويتمثل هذا فيما كان يدور بين الأنبياء وأقوامهم من أجل إقناع من حاد عن الطريق منهم بوجود خالق مالك مصور مدبر للسموات والأرض وما بينهما من خلال أسلوب حواري عقلي ينبغي – لولا ضعف العقول – أن يضفي إلى عبودية خالصة لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد.

(١) ينظر: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني. "المفردات في غريب القرآن". المحقق: صفوان عدنان الداودي. (الطبعة: الأولى، دمشق بيروت: دار القلم، الدار الشامية، ١٤١٢هـ). ٦٧١.

(٢) ينظر: محمد أحمد محمد معبد. "نفحات من علوم القرآن". (الطبعة: الثانية، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م). ١٠٦.

أنواع القصص القرآني:

للقصص القرآني أنواع ثلاثة وهي:

النوع الأول: قصص الأنبياء، ويتضمن هذا النوع دعوة الأنبياء لقومهم، والمعجزات التي أيدهم الله تعالى بها، وموقف المعاندين من قومهم لهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة كل من المؤمنين والمكذبين، ومن القصص الواردة في القرآن الكريم قصة نوح وإبراهيم وصالح وموسى وهارون، وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

النوع الثاني: قصص تتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم كقصة ابني آدم وطالوت وجالوت، وقصة السامري، وقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة قارون، وقصة أصحاب السبت، وقصة مريم، وقصة الفيل وغير ذلك من القصص لما حدث في أمم سابقة.

النوع الثالث :قصص تتعلق بالأحداث التي وقعت في زمن رسول الله صلّى الله عليه وسلم، كغزوة بدر وأحد وغزوة حنين وتبوك وغزوة الأحزاب وقصة الهجرة والإسراء ونحو ذلك مما حدث في زمن المصطفى صلّى الله عليه وسلم(١).

من فوائد القصة القرآنية في الحجاج:

للقصص القرآني فوائد نوجزها في الآتي:

١- الاقتداء بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[الأنعام: ٩٠].

٢- معرفة سلوكيات المجرمين والابتعاد عنها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥].

(١) ينظر: السابق نفسه .١٠٦-١٠٧

٣- التفكر وأخذ العظة والعبرة، قال تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقال أيضا: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

٤- أسلوب تربوي معروض بطريقة مشوقة؛ لبث القيم التربوية، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤][(١)].

خصائص القصص القرآني:

والقصة القرآنية تلتقي مع القصة البشرية في ملامح مشتركة هي من أساسيات القصص عامة: كالشخصيات، والأحداث والصراع والحركة والحوار، ومع ذلك فالقصص القرآني متفرد ومتميز، وما يمكن إجماله من خصائص القصة القرآنية ما يلي:

١- **التكرار**: حيث تكررت كثير من القصص في القرآن، فهناك تكرار بأسلوب تربوي لتاكيد المعنى وترسيخه كقصة موسى عليه السلام مع قومه، حيث تكررت لتأكيد طبيعة بني إسرائيل في العناد، وهناك تكرار للأسلوب الفني وهذا النوع يعد من جوانب الإعجاز البلاغي في أسلوب القرآن، إذ يضع المتلقي أمام الطاقة التعبيرية الهائلة التي يمتلكها هذا الكتاب، فكل أسلوب

(١) ينظر: خالد بن جمعة الخراز. "مَوْسُوعَةُ الأَخْلَاقِ". (الطبعة: الأولى، الكويت: مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م). ١١٧-١١٨.

تتكرر به القصة هو أسلوب متجدد لا يقل بلاغة عن غيره.

٢- **ارتباط القصة بالسياق الذي ترد فيه:** وهذه الخاصية تدل على ترابط سور القرآن الكريم وتماسكها.

٣- **طرح مالا حاجة إليه:** أي الاقتصار من القصة على ما يحقق الغرض فيأخذ من القصة أشرف مواضعها في المقامات التي تناسبها، ويعرض عما عداه؛ لذا فإن القصص القرآني لم يأت متتاليا ومتعاقبا في سورة أو سور لأنها لم تأت للتفكه والاستئناس بها.

٤- **تنوع طرق العرض:** فقد تبدأ القصة القرآنية من أولها ثم تتتابع على نحو متسلسل إلى الوسط ثم النهاية، وقد تبدأ القصة من الوسط وتمضي قليلا ثم تعود إلى البداية، وهذه طريقة القصص الحديث، كما قد تبدأ بذكر ملخص عام لها يكون مدخلا إليها ، ومن طرق العرض – أيضا – أن تذكر عاقبة القصة ومغزاها والحكمة من أحداثها(١).

(١) ينظر: أ. د. وليد قصاب. "في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم". (ط١، دولة الإمارات: دار القلم للنشر، ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م). ١٩٢–٢٠٠؛ وفاروق محمد عبد الرحمن. "القصص القرآني ودفع ما أثير حوله من شبهات". جامعة الأزهر، حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية. (دار الأندلس للطباعة، العدد٣٣، ١٤٣٥هـ–٢٠١٤م).

المبحث الأول: العوامل الحجاجية (المفهوم والوظيفة والأنواع):

اللغة عامة لها وظيفة حجاجية إقناعية، واللغة العربية خاصة مختزلة في معانيها، وتزخر بكم من العوامل والروابط التي تؤدي إلى هذه المعاني بما توظفه من حجج لغوية ومنطقية تؤدي فيما بعد إلى نتائج يُقتَنعُ بها.

والعوامل الحجاجية لا تربط بين متغيرات حجاجية أي: بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج ولكن وظيفتها ترتكز على الحصر والتقييد أي حصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما وإلا وأكثر أدوات القصر(١).

ويقوم الحجاج – كما هو عند ديكرو وأنسكومبر – على التوجيه؛ لذا فإن العوامل الحجاجية لها دور كبير في تقوية درجة ذلك التوجيه. إذن العوامل الحجاجية هي آلة تساعدنا على الوصول إلى النتيجة من الملفوظ؛ وذلك لأنها تقوي الحدث وتوجهه نحو نتيجة محددة مقصودة، فالنتيجة الحجاجية هي ثمرة العامل الحجاجي(٢).

وتعد العوامل الحجاجية المكون اللغوي الثاني بعد الروابط في الحجاج اللغوي، وتعد – كذلك – عماد عملية التواصل، أي تمثل محركا رئيسا من المحركات التي تقوم عليها عملية التخاطب(٣).

وهذا الترابط المفضي إلى قصد يرومه المتكلم هو ما عبر عنه الجرجاني حينما قال: (أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من

---

(١) ينظر: د. أبو بكر العزاوي. "اللغة والحجاج". (الطبعة الأولى، الدار البيضاء: العمدة في الطبع، ٢٠٠٦). ٢٧.

(٢) ينظر: عز الدين الناجح. "العوامل الحجاجية في اللغة العربية". (تونس: مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، ٢٠١١م). ٣١ و٤٠.

(٣) ينظر: السابق نفسه، ١٧.

بعض والكلم ثلاث :اسم، وفعل، وحرف. وللتعلق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام – تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهم)[١].

ويعرّف العامل الحجاجي –كما ورد في مقال لقيقليون[٢]– على النحو التالي:

١– العوامل الحجاجية في اللغة عناصر تساعد على تحقيق إحدى وظائف اللغة وإتمام البغية الحجاجية، وعلى هذا المعنى تكون العوامل عنصرا مساعدا لإظهار المنحى الحجاجي في اللغة وأداة لتحقيق جل وظائفها.

٢– اعتبار العوامل (أدوات) وذلك عند دراسته لتأثير الخطاب إذ يقول: (يمكن اعتبار كل خطاب ذا مدى تأثيري تضمنه أدوات لغوية تساعد المتقبل على اكتشاف ما يعتبره المتكلم واقعا وصحيحا).

٣– اعتبار العامل الحجاجي العماد في عملية التواصل إذ يقول: (وحسب هذه الخطة تمثل العوامل فيما نرى، محركا رئيسيا من ضمن المحركات التي تقوم عليها عملية التخاطب).

والملاحظ –كما يرى الناجح – في تعريف قيقليون للعامل بكونه عماد عملية التواصل أو محركها الرئيسي إنّما هو إلحاحه على أن غاية كل خطاب إنّما هو الإقناع فلا وجود لخطاب دونما غاية إقناعية منه؛ لذا فقيقليون كان مدركا لأهمية العوامل في عملية الإقناع عن طريق توجيه الخطاب وجهة يقصدها المتكلم المتمثلة في عملية التخاطب وانتقاء المتكلم للعامل المتناسب مع سياق ذلك الخطاب[٣].

---

(١) عبد القاهر الجرجاني. "دلائل الإعجاز في علم المعاني". المحقق: ياسين الأيوبي. (الطبعة: الأولى، المكتبة العصرية – الدار النموذجية). ٥٤.

(٢) رودولف قيقليون صاحب مقال ضمن مصنف (الحجاج والبلاغة).

(٣) ينظر: الناجح. "العوامل الحجاجية في اللغة العربية". ١٦–١٧.

مفهوم العامل ووظيفته:

فالعامل لغة: اسم فاعل من العمل، والعمل المهنة والفعل، واعتمل الرجل إذا عمل بنفسه(١)، والحرف العامل ضد الحرف العاطل، وهو ما يحدث إعرابا في آخر الكلمة وبعده(٢)، كما أن الحرف العامل ينقسم إلى قسمين؛ قسم يختص بالأسماء وهو حروف الجر والحروف المشبهة للأفعال مثل إن وأخواتها، وقسم آخر يختص بالأفعال وهو حروف الجزم والنصب(٣).

اصطلاحا: لقد اختلف النحويون في تحديد مصطلح العامل في النحو، ولم يقدموا تعريفا جامعا مانعا له، فعرفه ابن الحاجب أنه: "العامل ما به يتقوم المعنى المقتضي"(٤)، وعرفه الأزهري بأنه: "العامل ما أوجب كون آخر الكلمة مرفوعا أو منصوبا أو مجرورا أو ساكنا"(٥).

أما العامل في الحجاج اللغوي فهو ما تكمن وظيفته في تحديد التوجيه الحجاجي؛

(١) ينظر: ابن منظور. "لسان العرب". مادة (ع.م.ل) ١١: ٤٧٥؛ وأحمد بن فارس. "مقاييس اللغة". المحقق: عبد السلام محمد هارون. (دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م). ٤: ١٤٥.

(٢) ينظر: عزيزة فوال بابستي. "المعجم المفصل في النحو العربي". (ط١، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م). ٤٥٨.

(٣) ينظر: محمد سمير نجيب اللبدي. "معجم المصطلحات النحوية والصرفية ". (الطبعة ١، بيروت: مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م). ١٦٢.

(٤) عثمان بن عمر ابن الحاجب. "الكافية في علم النحو". ويليه: «الشافية في عِلمَي التصريف والخط». المحقق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر. (الطبعة: الأولى، القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٠م). ١١.

(٥) خالد الأزهري. "شرح العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية". تحقيق: البدراوي زهران. (القاهرة: دار المعارف). ١: ٢.

وذلك باختيارها صيغا ملائمة للسلسلة الحجاجية[١].

وظيفة العامل الحجاجي:

والعزاوي يحدد وظيفة العوامل الحجاجية بقوله: (أما العوامل الحجاجية، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي: بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما)[٢].

ويوجز الناجح وظائف العوامل الحجاجية بما يلي:

١- القضاء على تعدد الاستلزامات، وذلك بنقل المتقبل من التعدد والغموض إلى وحدة النتيجة والمقصد من الملفوظ، فيقوم العامل الحجاجي بحصرها لتقود إلى نتيجة محددة، وذلك بالانتقال بالملفوظ من الإبلاغية إلى الحجاجية.

٢- قدح المواضع وتنشيطها، إضافة إلى أن العامل يعد ضامنا لتسلسل الخطاب، وعنصرا مهما في تنسيقه.

٣- تقوية التوجيه نحو النتيجة وذلك على صعيد ما يسمى بالسلالم الحجاجية[٣].

إذن أبرز وظائف العوامل الحجاجية ضمان التوجيه الحجاجي للملفوظ وتقويته، وكذلك الحد من غموض الخطاب ومن تعدد نتائجه، وذلك بوضع المستقبل أمام نتيجة واحدة معنية، والقضاء على كل استلزام لا يقوي تلك النتيجة[٤].

---

(١) ينظر: نصيف جاسم محمد الخفاجي، وسامي حسين سراب. "العوامل الحجاجية في كتب مجالس العلماء وأماليهم". مجلة ديالي، كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة ديالي ٢٠١٢، عدد ٩.

(٢) العزاوي. "الحجاج في اللغة". ٣٠.

(٣) ينظر: الناجح. "العوامل الحجاجية في اللغة العربية". ٣٥.

(٤) ينظر: د. ألطاف إسماعيل أحمد الشامي. "العوامل الحجاجية في شعر البردوني النفي أنموذجا". مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد ٤٣، ١٤٣٦هـ -٢٠١٥م. ٤٢٤.

أهمية العوامل الحجاجية:

تتجلى أهمية العوامل في النسق الحجاجي أنّها تساعد في الربط بين الحجة والنتيجة برباط محكم إضافة إلى توجيه المتلقي نحو الوجهة التي يريدها المتكلم، وهذا مما جعل ديكرو يفرد لها اهتماما ويجعلها متساوقة مع الوجهة الحجاجية، فمتى ما ذكرت الوجهة الحجاجية ذكر العامل(١).

ويميز ديكرو بين نوعين من المكونات اللغوية التي بها تتحقق الوظيفة الحجاجية، النوع الأول: الروابط الحجاجية وهي: ما يربط بين الأقوال من عناصر نحوية مثل أدوات الاستئناف (الواو، الفاء، لكن، إذن...).

والنوع الثاني: العوامل الحجاجية وهي مايكون داخل القول الواحد من عناصر تدخل على الإسناد مثل الحصر والنفي أو مكونات معجمية تحيل في الغالب إحالة غير مباشرة مثل (منذ الظرفية، تقريبا، على الأقل...)(٢).

والمهم من هذا كله أن هذه المعطيات اللغوية تمثل تعليمات توجه استخلاص النتيجة؛ أي أنها تفرض ربطا معينا من الأقوال دون غيره(٣).

وأبرز العوامل الحجاجية الواردة في قصة معجزة صالح عليه السلام ما يلي:

١– النفي:

إنّ أدوات النفي في اللغة العربية (لا – لن – لم – ما – ليس) تعد عوامل

(١) ينظر: أ.د عبد علي حسن ناعور ورشا حسين عبد. "العوامل الحجاجية في آيات الأعراف والتقاليد". المجلة الأكاديمية العالمية للغة العربية وآدابها، الراية الدولية الإلكترونية. ٥٩.

(٢) ينظر: صمود "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم". جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، تونس، ٣٧٦–٣٧٧.

(٣) ينظر: شكري. "إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية". (تونس: كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٦م). ٣٧٦–٣٧٧.

حجاجية توجه القول والمتلقي في آن واحد. يقول ابن يعيش: (اعلم أن النفي إنّما يكون على حسب الإيجاب؛ لأنه إكذابٌ له، فينبغي أن يكون على وَفق لفظه لا فرقَ بينهما، إلَّا أن أحدهما نفيٌ، والآخر إيجابٌ)(١).

وقد ركز ديكرو على عامل النفي في نظرية السلالم الحجاجية معتبرا إياه أدق العوامل في تحديد منزلة الملفوظ من السلم الحجاجي وذلك لقوته في تحديد وجهة الخطاب الحجاجية(٢).

٢- القصر:

أ ـ (النفي والاستثناء):

يعد العامل الحجاجي النفي والاستثناء أحد طرق القصر التي تخصص الملفوظ بصاحبه دون سواه، فهي من الأدوات اللغوية التي تتحقق بها الوجهة الحجاجية، إذ توجه هذه الطريقة الحجاج نحو وجهة واحدة هي النتيجة المرجوة.

ومما يميز عامل الحجاج بالنفي والاستثناء أنه يستخدم في الأمر الذي ينكره المخاطب ويشك فيه يقول الجرجاني: (وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: "ما هذا إلا كذا"، و "إن هو إلا كذا"، فيكون للأمر يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه)(٣).

وتبرز قيمة الحجاج بالنفي والاستثناء في أنه يكثف ويقلص الإمكانات الحجاجية للمنجز القولي، ويوصل إلى النتيجة المحددة.

(١) ابن يعيش، "شرح المفصل للزمخشري". قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب. (الطبعة: الأولى، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م). ٥: ٣١.

(٢) ينظر: الناجح. "العوامل الحجاجية في اللغة العربية". ٤٩-٥٠.

(٣) الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ٣٣٢.

ب ـ (إنّما):

(إنّما) مركبة من إن وما، إن – بلا شك – تفيد التأكيد لكن بعد دخول ما عليها أفادت الحصر، فتغيرت دلالتها على التوكيد من كونه توكيدا عاديا إلى كونه توكيدا قاصرا أو حاصرا[١] ومما قيل في معانيها إنها تفيد معنى القلب أو العكس أو الخلاف[٢]، حيث إنّ (دخول لفظة إنّما يعلم أن ما عداه بخلافه)[٣].

والقصر بإنّما يختلف عن القصر بالنفي والاستثناء في أن من استعمالات إنّما كما ذكر ذلك البلاغيون أن إنّما تستعمل للشيء الذي لا ينكره المخاطب ولا يجهله، أما (ما – إلا ، إن – إلا) فتقال في الشيء الذي ينكره المخاطب ويجهله[٤]، وهذا ما أشار إليه الجرجاني في الدلائل بقوله: (اعْلم أنَّ موضوعَ "إنّما" على أن تجيءَ لخَبرٍ لا يَجهلُهُ المخاطَبُ ولا يَدفعُ صِحَّتَه، أو لا يُنزِّلُ هذه المنزلة، وتفسيرُ ذلك أَنكَ تقولُ للرجل :"إنّما هو أخوك" و "إنّما هُوَ صاحُبك القديمُ" لا تقولُه لِمَنْ يَجْهلُ ذلك ويدفَعُ صحَّتَه، ولكنْ لِمَن يَعْلَمُه ويُقِرُّ به، إلاَّ أنَّك تُريد أن تُنَبِّهَهُ للذي يجبُ عليه من حقِّ، الأخِ وحُرْمةِ الصاحب)[٥].

(١) ينظر: مهدي المخزومي. "في النحو العربي نقد وتوجيه". (ط٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م). ٢٣٨.

(٢) ينظر: ناعور ورشا. "العوامل الحجاجية في آيات الأعراف والتقاليد". ٦١.

(٣) علي بن الحسين الشريف المرتضى. "الذريعة إلى أصول الشريعة". تحقيق أبو القاسم. كرجين طهران. ١: ٤١١؛ وينظر: مصطفى جمال الدين. "البحث النحوي عند الأصوليين". (الطبعة ٢، إيران: منشورات الهجرة، ١٤٠٥هـ). ٢٨٧.

(٤) ينظر: د. فضل عباس. "البلاغة فنونها وأفنانها". (ط٤، أربد: دار الفرقان، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م). ٣٧٢-٣٧٣.

(٥) الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ٣٣٠.

ويذهب عز الدين الناجح إلى ربط المكون اللغوي بسياقه لما له من مزية بإتمام لبنة المعنى، والعامل اللساني "إنّما" يكون في الخطاب دليلا على مقامات عديدة مختلفة، فـ "إنّما" لها خصوصية عن بقية العوامل اللسانية اللغوية الخاصة بالعوامل الحجاجية، فهي مع وظيفتها في تضييق الاحتمالات للنتيجة المرادة؛ إلا أنّها تخرج عن ذلك، وتوحي بتعدد الاستلزامات لارتباطها بالمقام الذي ترد فيه، ووظيفة إنّما الإفضاء بالملفوظ إلى نتيجة واحدة لا غير(١).

(١) ينظر: الناجح. "العوامل الحجاجية في اللغة العربية". ٩١؛ وناعور ورشا. "العوامل الحجاجية في آيات الأعراف والتقاليد". ٦٢.

المبحث الثاني: العوامل الحجاجية في معجزة صالح عليه السلام.

١– النفي:

النفي في جل الدراسات والنظريات النحوية والبلاغية قديما وحديثا يحمل على الإثبات[١]، حيث إن من الأصول التي يمكن افتراض أنها أصول كلية اعتبار الإثبات أصلا فرعه النفي، فالإثبات لا يحتاج إلى دليل من اللفظ ليدل عليه فهو يوجد بمجرد عراء صدر الجملة من الواسمات[٢]، أما النفي فهو كغيره من ضروب وسم العمل اللغوي داخل على الكلام الموجب وإن كانت علاقته بالإثبات أقوى كقوة علاقة النهي بالأمر[٣]. وهذا ما ذهب إليه سيبويه من قبل حينما قال: (لأنَّهنَّ نفيُ واجبٍ يُبتدأ بعدهنّ ويُبنَى على المبتدأ بعدهنّ)[٤].

ومجمل القول إن النفي يدخل في العربية على معنى مثبت قبله صراحة أو ضمنا، ومما ورد فيه النفي قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٩] في سياق قصة صالح مع قومه والتي وردت فيها معجزته، وهذه المعجزة أرسلها الله تعالى مع نبيه صالح عليه السلام لتكون إثباتا وبرهانا على صدق رسالته عليه السلام، وحتى تكون هذه المعجزة

(١) ينظر: المبخوت. "إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية". ٤٩.

(٢) تهدف الواسمات اللغوية إلى الكشف عن البعد التأثيري للغة ضمن بنيتها في مجالها التداولي. ينظر: بالخير زين العابدين، وناعوس بن يحي. "آثر العوامل الحجاجية في الخطاب اللغوي– دراسة تطبيقية في المثل العربي – دراسات معاصرة". الجزائر: مجلد ٧، العدد ١، ٢٠٢٣، ٢٢.

(٣) ينظر: المبخوت. "إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية". ٤٩.

(٤) عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه. "الكتاب". المحقق: عبد السلام محمد هارون. (الطبعة الثالثة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م). ١: ١٤٦.

صادقة جاءت متساوقة مع ما برع فيه قوم صالح، حيث كان أولئك القوم ينحتون من الجبال بيوتا لهم يسكنونها صيفا وشتاء، فخلق الله تعالى تلك الناقة من تلك الجبال التي ينحتون منها بيوتهم، وزادوا من تعنتهم أن طلبوها على أوصاف معينة، يقول السعدي: فَتَوَلَّى عنهم أي: صالح عليه السلام تولى عن أولئك القوم الذين أحل الله بهم العذاب، فقال مخاطبا لهم توبيخا وعتابا: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم جميع ما أرسلني الله به إليكم، وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم، ولكن رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم(١).

والمعنى المثبت في الآية هو نصح صالح – عليه السلام – لقومه، ويظهر لي أن السياق القرآني أكد هذا المعنى باللام وقد وماضوية الزمن لقد نصحت لكم، وما يعضد هذا المعنى – كما في التحرير – الاستدراك بـ"لكن" لتأكيد التبرؤ من التقصير في معالجة كفرهم، سواء كان بحيث هم يسمعونه أم كان قاله في نفسه، فذلك التبرؤ يؤذن بدفع توهم تقصير في الإبلاغ والنصيحة من نبي الله صالح عليه السلام؛ لانعدام ظهور فائدة الإبلاغ والنصيحة لأولئك القوم(٢). وقد جاء نفي قبول قوم صالح لنصحه عليه السلام حجة لإثبات نتيجة مثبتة وهي نصحه لهم عن طريق حجاجية النفي بـ"لا" الداخلة على صيغة المضارع الدالة على الاستمرار بيانا على تعنتهم وشدة عتوهم، كما أردف هذا التأكيد صيغة اسم الفاعل "ناصح" التي تفيد الإثبات، فهؤلاء القوم بلغ بهم الاستمرار على الكفر والتكذيب وعدم قبول النصيحة حتى قضى الله عليهم في عقر دارهم، وقد وجهت أداة النفي (لا+ لكن) المتلقي إلى نتيجة مفادها إثبات أنّ هناك

(١) ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. (الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م). ٢٩٥.

(٢) ينظر: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور. "التحرير والتنوير". (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ). ٨: ٢١٥- ٢٢٧.

نصحاً قد وقع من صالح عليه السلام لقومه[١].

ن= إثبات نصح صالح لقومه

عامل الحجاج = النفي لا

ح= نفي صالح لسماع قومه لنصحه[٢]

ومن مواضع عاملية النفي قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٥-٦٨].

والسياق الكريم كان في الحديث عن قصة نبي الله صالح – عليه السلام – مع قومه عندما دعاهم لعبادة الله وحده كذبوه وطالبوه بما يدل على صدق ما دعا إليه، فدعا صالح ربّه فاستجاب الله له فكانت معجزته ناقة عشراء هي عجب في خلقتها وكمالها تمخضت من جبل صلب فكانت آية وعلامة على وجود الله – تبارك وتعالى – وصدق ما دعاهم إليه صالح عليه السلام، ثم أمرهم أن يتركوها تأكل من نبات الأرض من المراعي العامة التي ليست لأحد ، وعدم الإمساس بها بسوء، غير أنهم كذبوه وعقروها فلما رأى صالح ذلك قال لهم بأمر الله: عيشوا فيها ذلك الوعد وعد صادق غير مكذوب، فحل عليهم أمر الله عز وجل وغضبه ونجى صالح ومن تبعه من المؤمنين

(١) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٨: ٢٢٧.

(٢) (ن) بمعنى نتيجة، (ح) بمعنى حجة.

من عذاب الله الذي حل بقومه المكذبين ،الذي نص عليه الذكر الحكيم في الآيات بعد هذه الآية فأخذتهم الصيحة وأصبحوا جاثمين في ديارهم كأنّهم لم يقيموا فيها ولم يغنوا من قبل(١).

وقد ورد النفي في السياق اللغوي مرتين في قوله تعالى ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ والآخر في قوله تعالى ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾، فالحجة هي نفي الكذب عن الوعد وتحقيق وقوعه وهي حجة موجهة لنتيجة مثبتة هي إثبات صدق وعد الله تعالى لنبيه بحلول العذاب على من كذب وعاند.

أما الموضع الآخر فالحجة نفي وجود القوم وغنائهم في ديارهم فلم يبق منهم بقية وهي حجة موجهة لنتيجة مثبتة وهي إثبات حلول وعد الله بزوال القوم المكذبين.

وتصاغ الإستراتيجية الحجاجية في هذا السياق وفق الآتي:

الموضع الأول:

ن= إثبات صدق وعد الله تعالى لنبيه بحلول العذاب على من كذب وعاند.

العامل= غير

ح = نفي الكذب عن الوعد وتحقيق وقوعه

الموضع الثاني:

ن= إثبات حلول وعد الله بزوال القوم المكذبين.

العامل= لم

(١) ينظر: جابر بن موسى أبو بكر الجزائري. "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ومعه (حاشية نهر الخير)". (الطبعة الخامسة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م). ٢: ٥٥٩-٥٦٠.

ح= نفي وجود القوم وغنائهم في ديارهم

ومن عاملية النفي، قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٨].

يتناول سياق سورة الشعراء الحوار الذي دار بين صالح عليه السلام وقومه ثمود بعد أن ذكرهم ووعظهم بترك عبادة غير الله ردوا عليه بما أخبر تعالى عنهم في قوله: قالوا إنّما أنت من المسحرين، أي: الذين سحروا وبُولغ في سحرهم حتى غلب على عقولهم فهم لا يعرفون ما يقولون، وما أنت – مع ذلك – إلا بشر تأكل الطعام وتشرب الشراب فأت بدليل قوي صادق يدل على أنك رسول الله حقاً، فأجابهم صالح بما أخبر تعالى به عنه، فانفلق الجبل وخرجت منه ناقة عظيمة فقال لهم صالح هذه ناقة لها نصيب من ماء البلد تشربه وحدها لا يرد معها أحد ولكم أنتم شرب يوم معلوم لكم تردونه وحدكم، وحذرهم أن يمسوها بسوء، فإنهم إن فعلوا ذلك حل بهم عذاب يوم عظيم لكنهم كذبوه وعصوه فعقروها، فحل بهم عذاب الله وبأسه، وأخذتهم الصيحة فأهلكوا أجمعين ونجى الله تعالى صالحاً ومن معه من المؤمنين، فكان في مصرعهم آية وعلامة كبرى على قدرة الله تعالى وعلمه وأنه واجب الألوهية، غير أنه مع وضوح الأدلة على قدرة الله ونفاذ سلطانه هناك فئة لا تعلم ولا تؤمن ولا تعي.

وموضع النفي في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإثبات العناد والاستكبار والإصرار عليهما، مع وجود دلائل وبراهين ألوهية الله ونفاذ سلطانه حجة أفضت إليها نتيجة نفي الإيمان عن أكثر الناس.

ن= نفي الإيمان عن أكثر الناس.

عامل النفي= لا

ح= إثبات العناد والاستكبار والإصرار عليهما، مع وجود دلائل وبراهين ألوهية الله ونفاذ سلطانه.

٢– القصر:

يعد القصر إستراتيجية من إستراتيجيات الحجاج حينما يريد المتكلم معنى ما أو قضية ما، وهو قبل ذلك أسلوب خبري من الأساليب العربية البليغة المستخدمة في السياق القرآني الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وفي كلام العرب عامة، وهو مقوٍّ لمعنى الحصر ونوع من الإيجاز، له طرقه المتنوعة من التقديم والتأخير والنفي والاستثناء وإنّما كل في مقامه وسياقه الذي يتطلبه. ولا تعارض في ذلك إذ يوظف الأسلوب على تنوعه وظيفة حجاجية تخدم المعنى. وقد ورد الحجاج بالقصر في سياق قصة معجزة صالح بطريقتين:

أ- النفي مع الاستثناء:

وهذا العامل الحجاجي من أداة النفي وأداة الاستثناء يعمل على تحديد إمكانات الملفوظ وتوجيهه إلى شيء بعينه مؤكدا ذلك الشيء(١).

وقد ورد النفي مع الاستثناء في سياق معجزة صالح عليه السلام في أربعة مواضع، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

(١) ينظر: د. عمر ذياب أبو هنية. "الروابط والعوامل الحجاجية في مقامات الهمذاني". المجلة العلمية الأولى على مستوى الوطن العربي للنشر العلمي– الأردن، العدد الحادي عشر، ٢٠١٩، ٢١.

والآية الكريمة بمعنى: لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا لما عبدوا الأوثان فقال لهم صالح عليه السلام يا قوم اعبدوا الله وحده ليس لكم من إله غيره فأخلصوا له العبادة، قد جئتكم بالبرهان على صدق ما أدعوكم إليه، إذ دعوتُ الله أمامكم، فأخرج لكم من الصخرة ناقة عظيمة كما سألتم، فاتركوها تأكل في أرض الله من المراعي، ولا تتعرضوا لها بأي أذى، فيصيبكم بسبب ذلك عذاب موجع(١).

فالحجة هنا هي التي تأتي بعد أداة الاستثناء، فالحجة أن الله تعالى هو المتفرد بالألوهية ونتيجة ذلك انتفاء الألوهية عن غير الله تعالى، فالنفي مع الاستثناء يوجه لمن يجهل الأمر، غير أن قوم صالح هنا لفرط عنادهم نزلوا منزلة الجاهل، فدلائل الله، والناقة الحية التي خرجت من جبل صلد أصم دليل قاطع على تفرد الله تعالى بالألوهية دون سواه.

ن= لا إله غير الله

العامل = ما+ إلا

ح= ألوهية الله وحده

والموضعان الثاني والثالث ففي سياق سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فهذه الآية خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم(٢)، بأن

(١) ينظر: نخبة من أساتذة التفسير. "التفسير الميسر". (الطبعة الثانية، السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م). ١: ١٥٩؛ وأبو بكر الجزائري. "تفسير الجزائري". ٢: ١٩٥.

(٢) ينظر: محمد بن جرير الطبري. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". (الطبعة، مكة المكرمة: دار التربية والتراث، بدون تاريخ نشر). ١٧: ٤٧٨.

سبب عدم إرسال الآيات لمحمد على شاكلة الأنبياء قبله مراعاة للرسول صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه له ومن ثم يحل بأمته ماحل بالأقوام السابقة من الاستئصال والإبادة. وقد خصت ناقة صالح في هذا الموضوع من بين سائر آيات الأنبياء السابقين(١)لشهرة أمرهم بين العرب، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكة يبصرها صادرهم ووارديهم في رحلاتهم بين مكة والشام.

ثم يعلل الله تعالى لإرسال الآيات في قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ لبيان أنّ الله تعالى أراد الإبقاء عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم، وكان التعويض تخويفهم بدلا عن إرسال الآيات التي اقترحوها(٢).

وقد ورد القصر بالنفي والاستثناء في الآية الكريمة في موضعين:

الأول: عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

ن= عدم تلبية طلب قوم قريش بإرسال الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

العامل الحجاجي= ما + إلا

ح= تكذيب الأقوام السابقة لأنبيائهم مع وجود الآية كالذي حدث مع صالح عليه السلام وقومه.

والآخر: عند قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

ن= عدم إرسال الآيات لقوم محمد صلى الله عليه وسلم

العامل الحجاجي= ما + إلا

---

(١) ينظر: محمود بن عمر الزمخشري. "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد. (الطبعة: الثالثة، بيروت: دار الكتاب العربي – القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م). ٢: ٦٧٤.

(٢) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ١٥: ١٤٢ و١٤٧.

ح= تخويف أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأحوال الأمم السابقة ومصيرهم

والقصر في قوله: إلا تخويفا؛ لقصر الإرسال بالآيات البينات على علة التخويف، وهو قصر –كما نص ابن عاشور على ذلك – إضافي[١] أي: لا مباراة بين الرسل وأقوامهم، أو لا طمعا في إيمان الأقوام فقد علمنا أنهم لا يؤمنون[٢].

والموضع الرابع الذي ورد فيه القصر بالنفي والاستثناء في سياق سورة الشعراء عند قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٤].

فالسياق يعرض لنا جانبا من الحوار الدائر بين نبي الله صالح وقومه، حيث عللوا عدم تصديقهم بأنه بشر مثلهم يأكل الطعام ويشرب الشراب، إلا أن يأتي بآية تدل على أنّه رسول الله حقاً[٣].

ن= أنك لست برسول من عند الله.

العامل الحجاجي= ما + إلا

ح= بشرية نبي الله صالح عليه السلام.

فحجة قوم صالح كانت في أنه بشر مثلهم وقد أدى العامل الحجاجي النفي والاستثناء إلى توجيه الحجة التي تعللوا بها إلى نتيجة واحدة وهي عدم الإيمان وتصديق

(١) القصر الإضافي: هو أن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين، لا لجميع ما عداه، نحو: ما خليل إلا مسافر، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كمحمود مثلا، وليس قصدك أنه لا يوجد مسافر سواه؛ إذ الواقع يشهد ببطلانه ينظر: أحمد الهاشمي. "جواهر البلاغة المعاني والبيان والبديع". (مؤسسة هنداوي، ٢٠١٩م). ١٨١.

(٢) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ١٥: ١٤٢ و١٤٧.

(٣) ينظر: الجزائري. "تفسير الجزائري". :٣: ٦٧٢-٦٧٣.

هذا النبي.

ب– إنّما:

يُعد العامل الحجاجي (إنّما) من العوامل المؤكدة والمقيدة للنتيجة، فهو يقوي الحجج ويرتبها داخل النص، ويزيد في الدرجة الحجاجية للمنجز القولي بعدها(١)، وهذا ما أشار إليه الجرجاني — سابقا – حينما قال: (اعلم أن إنّما تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء، ونفيه عن غيره، فإذا قلت إنّما جاءني زيد عقل منه أنك أردت أن تنفي أن يكون الجائي غيره، فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك: جاءني زيد لا عمر)(٢).

وقد ورد العامل (إنّما) في قصة معجزة صالح في موضع واحد فقط في سياق سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

سياق الآية يتحدث عن الحوار الذي دار بين صالح – عليه السلام – وقومه ثمود، حيث ذكرهم ووعظهم فردوا عليه بما أخبر تعالى عنهم في الآية من الذين سحروا وبُولغ في سحرهم حتى غلب على عقولهم فهم لا يعرفون ما يقولون(٣).

فقوم صالح – عليه السلام – أرادوا في هذا السياق قلب حقيقة أنه نبي مرسل إلى أنه من الذين سحروا، وبلغ منهم السحر مبلغه حتى سيطر على عقولهم، وتمكن منها ففقدوها وأصبحوا لا يعرفون ما يقولون، ويظهر أثر العامل الحجاجي "إنّما" السياق الكريم في توجيه الآية نحو وجهة حجاجية واحدة، حيث قامت أداة القصر "إنّما" بحصر

(١) ينظر: م. دلخوش رفيق محيي الدين و أ.د دلدار غفور حمد أمين. "العوامل الحجاجية في قصص النساء في القرآن الكريم". مجلة كلية المعارف الجامعة، العراق، مجلد٣٣، العدد (٣)، ٢٠٢٢، ٢٩.

(٢) الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ٣٣٥.

(٣) ينظر: الجزائري. "تفسير الجزائري". ٣: ٦٧٢.

كل الإمكانات الحجاجية في نتيجة واحدة وهي عدم تصديق صالح عليه السلام فيما يدعو إليه بدعوى أنه من المسحرين.

ن= عدم تصديق صالح عليه السلام فيما يدعو إليه.

العامل الحجاجي= إنّما

ح= من المسحرين

الخاتمة والنتائج

وبعد هذا التطواف في سياق معجزة النبي صالح عليه السلام توصلت الدراسة إلى نتائج لعل من أبرزها:

١- أنّ عامل الحجاج (النفي) يستخدم في نفي حقيقة مثبتة، والحقيقة المثبتة هنا هي وقوع نصح من صالح عليه السلام لقومه عن طريق نفي سماعهم للنصح.

٢- أنّ عامل الحجاج (النفي+ الاستثناء) يوجه لمن يجهل الأمر، لكن ورودها في سياق الآيات موضع الدراسة، تنزيلا لقوم صالح عليه السلام منزلة الجاهل؛ لأنّ الدليل على ألوهية الله ظاهر أمامهم وهو الناقة الحية، والدليل على ذلك سرعة إبادتهم لها.

٣- تستخدم (إنّما) لتأكيد نقطة النتيجة التي أفضت إليها الحجة، فلفرط إنكار قوم صالح أن يكون الرسول بشرا، أكدوا كونه مسحورا بل مبالغا في سحره.

٤- من عوامل الحجاج الواردة في سياق الآيات موضع الدراسة النفي والنفي والاستثناء وإنّما والصيغ والتأكيد.

توصية:

لعل دراسة جديدة تولد تستأثر بالتطبيق على موضوع توظيف الصيغ وتدرجها في السلم الحجاجي لإثبات القيمة الحجاجية لها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الأزهري، خالد. "شرح العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية". تحقيق: البدراوي زهران. (القاهرة: دار المعارف).

الأزهري، محمد بن أحمد. "تهذيب اللغة". المحقق: محمد عوض مرعب. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م).

بابستي، عزيزة فوال. "المعجم المفصل في النحو العربي". (ط١، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م).

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن. "دلائل الإعجاز". المحقق :محمود محمد شاكر أبو فهر. (الطبعة :الثالثة، القاهرة: مطبعة المدني -جدة: دار المدني، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م).

الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر. "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ومعه (حاشية نهر الخير)". (الطبعة الخامسة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية: مكتبة العلوم والحكم،١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).

ابن الحاجب، عثمان بن عمر. "الكافية في علم النحو". ويليه: «الشافية في عِلمَي التصريف والخط». المحقق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر. (الطبعة: الأولى، القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٠م).

الخفاجي، نصيف جاسم محمد، سراب سامي حسين. "العوامل الحجاجية في كتب مجالس العلماء وأماليهم". مجلة ديالي، كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة ديالي ٢٠١٢عدد٩

الخراز، خالد بن جمعة. "مَوْسُوعَةُ الأَخْلَاقِ". (الطبعة: الأولى، الكويت: مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م).

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. "المفردات في غريب القرآن". المحقق: صفوان عدنان الداودي. (الطبعة الأولى، دمشق بيروت: دار القلم، الدار الشامية، ١٤١٢هـ).

الزمخشري، محمود بن عمر. "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد. (الطبعة: الثالثة، بيروت: دار الكتاب العربي – القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م).

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. (الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م).

سيبويه، عمرو بن عثمان. "الكتاب". المحقق: عبد السلام محمد هارون. (الطبعة الثالثة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م).

الشامي، د. ألطاف إسماعيل أحمد. "العوامل الحجاجية في شعر البردوني النفي أنموذجا". مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد ٤٣، ١٤٣٦هـ –٢٠١٥م.

الشريف المرتضى، علي بن الحسين. "الذريعة إلى أصول الشريعة". تحقيق أبو القاسم. كرجين طهران).

صمود. "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم". جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، تونس.

الطبري، محمد بن جرير. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". (الطبعة، مكة المكرمة: دار التربية والتراث، بدون تاريخ نشر).

العابدين، بالخير زين، ناعوس بن يحيى. "أثر العوامل الحجاجية في الخطاب اللغوي- دراسة تطبيقية في المثل العربي – دراسات معاصرة". الجزائر: مجلد ٧، العدد ١، ٢٠٢٣.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. "التحرير والتنوير". (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ).

عباس، د. فضل. "البلاغة فنونها وأفنانها". (ط٤، أربد: دار الفرقان، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م).

العزاوي، د. أبو بكر. "اللغة والحجاج". (الطبعة الأولى، الدار البيضاء: العمدة في الطبع، ٢٠٠٦م).

ابن فارس، أحمد. "مقاييس اللغة". المحقق: عبد السلام محمد هارون. (دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م).

فاروق محمد عبد الرحمن. "القصص القرآني ودفع ما أثير حوله من شبهات". جامعة الأزهر، حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، (دار الأندلس للطباعة، العدد ٣٣، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م).

قصاب، أ.د. وليد. "في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم". (ط١، دولة الإمارات: دار القلم للنشر، ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م).

اللبدي، محمد سمير نجيب. "معجم المصطلحات النحوية والصرفية". (الطبعة ١، بيروت: مؤسسة الرسالة دار الفرقان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

المبخوت، شكري. "إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية". (تونس: كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٦م).

محمد أحمد محمد معبد. "نفحات من علوم القرآن". (الطبعة: الثانية، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م).

محيي الدين، م. دلخوش رفيق — أمين، أ.د دلدار غفور حمد. "العوامل الحجاجية في قصص النساء في القرآن الكريم". مجلة كلية المعارف الجامعة، العراق، مجلد ٣٣، العدد (٣)، ٢٠٢٢.

المخزومي، مهدي. "في النحو العربي نقد وتوجيه". (ط٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

مصطفى جمال الدين، "البحث النحوي عند الأصوليين". (الطبعة ٢، إيران: منشورات دار الهجرة،١٤٠٥هـ).

ابن منظور، محمد بن مكرم. "لسان العرب". الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين. (الطبعة: الثالثة، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ).

الناجح، عز الدين. "العوامل الحجاجية في اللغة العربية". (تونس: مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، ٢٠١١م).

ناعور، أ.د عبد علي حسن – رشا حسين عبد. "العوامل الحجاجية في آيات الأعراف والتقاليد". المجلة الأكاديمية العالمية للغة العربية وآدابها، الراية الدولية الإلكترونية.

نخبة من أساتذة التفسير. "التفسير الميسر". (الطبعة الثانية، السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩ م).

أبو هنية، د. عمر ذياب. "الروابط والعوامل الحجاجية في مقامات الهمذاني". المجلة

العلمية الأولى على مستوى الوطن العربي للنشر العلمي –الأردن، العدد الحادي عشر، ٢٠١٩.

ابن يعيش، "شرح المفصل للزمخشري". قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب. (الطبعة : الأولى، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م).

"الحجاج والمعنى الحجاجي"، سلسلة ندوات ومحاضرات منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط (التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه) تنسيق حمو النقاري، (الطبعة الأولى، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٤٢٧هـ).

الهاشمي، أحمد. "جواهر البلاغة المعاني والبيان والبديع". (مؤسسة هنداوي، ٢٠١٩م).

Bibliography

The Noble Quran

al-Azharī, Khālid. "Sharḥ al-‘Awāmil al-Mi’ah al-Naḥwīyah fī Uṣūl ‘Ilm al-‘Arabīyah". Investigated by: al-Badrāwī Zahrān. (Cairo: Dār al-Ma‘ārif).

al-Azharī, Muḥammad ibn Aḥmad. "Tahdhīb al-Lugha". Investigated by: Muḥammad ‘Awaḍ Mur‘ib. (1st ed., Beirut: Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, 2001).

Bābasty, ‘Azīzah Fawwāl. "al-Mu‘jam al-Mufaṣṣal fī al-Naḥw al-‘Arabī". (1st ed., Beirut, Lebanon: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, 1413h-1992).

al-Jurjānī, ‘Abd al-Qāhir ibn ‘Abd al-Raḥmān. "Dalā’il al-I‘jāz". Investigated by: Maḥmūd Muḥammad Shākir Abū Fihr. (3rd ed., Cairo: Maṭba‘at al-Madanī - Jeddah: Dār al-Madanī, 1413 AH -1992).

al-Jazā’irī, Abū Bakr Jābir ibn Mūsá ibn ‘Abd-al-Qādir. "Aysar al-Tafāsīr li-Kalām al-‘Alī al-Kabīr", with (Ḥāshiyat Nahr al-Khair)". (5th ed., al-Madīnah al-Munawwarah, Kingdom of Saudi Arabia: Maktabat al-‘Ulūm wa-al-Ḥikam, 1424 AH - 2003).

Ibn al-Ḥājib, ‘Uthmān ibn ‘Umar. "al-Kāfiyah fī ‘Ilm al-Naḥw". with: « al-Shāfiyah fī ‘Ilmay al-Taṣrīf wa-al-Khaṭṭ ». Investigated by: Dr. Ṣāliḥ ‘Abd al-‘Aẓīm al-Shā‘ir. (1st ed., Cairo: Maktabat al-Ādāb, 2010).

al-Kharrāz, Khālid ibn Jum‘ah. "Mawsū‘at al-Akhlāq". (1st ed., Kuwait: Maktabat Ahl al-Athar, 1430 AH-2009).

al-Rāghib al-Aṣfahānī, al-Ḥusain ibn Muḥammad. "al-Mufradāt fī Gharīb al-Qur’ān". Investigated by: Ṣafwān ‘Adnān al-Dāwūdī. (1st ed., Damascus - Beirut: Dār al-Qalam, al-Dār al-Shāmīyah, 1412 AH).

al-Zamakhsharī, Maḥmūd ibn ‘Umar. "al-Kashshāf ‘an Ḥaqā’iq Ghawāmiḍ al-Tanzīl wa-‘Uyūn al-Aqāwīl fī Wujūh al-Ta’wīl". Reviewed by: Muṣṭafá Ḥusain Aḥmad. (3rd ed., Beirut: Dār al-Kitāb al-‘Arabī – Cairo: Dār al-Rayyān, 1407 AH-1987).

al-Sa‘dī, ‘Abd-al-Raḥmān ibn Nāṣir. "Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī Tafsīr Kalām al-Mannān". Investigated by: ‘Abd-al-Raḥmān ibn Mu‘allā al-Luwayḥiq. (1st ed., Mu’assasat al-Risālah, 1420 AH - 2000m).

Sībawayh, ‘Amr ibn ‘Uthmān. "al-Kitāb". Investigated by: ‘Abd al-Salām Muḥammad Hārūn. (3rd ed., Cairo: Maktabat al-Khānjī, 1408 AH-1988).

al-Shāmī, Dr. Alṭāf Ismāʻīl Aḥmad. "al-ʻAwāmil al-Ḥijājīyah fī Shiʻr al-Baraddūnī al-Nafyu anmūdhajan". Journal of the College of Islamic Sciences, Issue 43, 1436 AH - 2015.

al-Sharīf al-Murtaḍá, ʿAli bin Ḥusain. "al-Dharīʻah ilá Uṣūl al-Sharīʻah". Investigated by: Abū al-Qāsim. (Karaj – Tehran).

Ṣamoud. “The most important theories of argumenttation in the Western tradition from Aristotle to today” (in Arabic). University of Literature, Arts and Human Sciences, Faculty of Arts, Manouba, Tunisia.

al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. "Jāmiʻ al-Bayān ʻan Taʼwīl āy al-Qurʼān". (1st ed. Makkah al-Mukarramah: Dār al-Tarbiyah wa-al-Turāth).

al-ʿĀbidīn, Bilkhair Zain, Nāʿous bin Yahya. “The effect of argumentative factors on linguistic discourse - an applied study in the Arabic proverb - contemporary studies” (in Arabic). Algeria: Volume 7, Issue 1, 2023.

Ibn ʻĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir ibn Muḥammad. "al-Taḥrīr wa-al-Tanwīr". (Tunis: al-Dār al-Tūnisīyah, 1984).

ʻAbbās, Dr. Faḍl. "al-Balāghah Funūnuhā wa Afnānuhā". (4th ed., Irbid: Dār al-Furqān, 1417 AH-1997).

al-ʻAzzāwī, Dr. Abū Bakr. "al-Lugha wa-al-Ḥijāj". (1st ed., Casablanca: al-ʻUmdah fī al-ṭabʻ, 2006).

Ibn Fāris, Aḥmad. "Maqāyīs al-Lugha". Investigated by: ʻAbd al-Salām Muḥammad Hārūn. (Dār al-Fikr, 1399 AH-1979).

Fārūq Muḥammad ʻAbd-al-Raḥmān. "al-Qiṣaṣ al-Qurʼānī wa-Dafʻu mā Outhīra Ḥawlahu min Shubuhāt". Al-Azhar University, Yearbook of the Faculty of Fundamentals of Religion and Daʼwah in Menoufia, (Dar Al-Andalus Printing, Issue 33, 1435 AH – 2014.

Qaṣṣāb, Orof. Dr. Walīd. "fī al-Iʻjāz al-Balāghī lil-Qurʼān al-Karīm". (1st ed., Emirates: Dār al-Qalam, 1421 AH-2000).

al-Labadī, Muḥammad Samīr Najīb. "Muʻjam al-Muṣṭalaḥāt al-Naḥwīyah wa-al-Ṣarfīyah". (1st ed., Beirut: Muʼassasat al-Risālah Dār al-Furqān, 1405 AH-1985).

al-Mabkhūt, Shukrī. "Inshāʼ al-Nafyu wa-Shurūṭuhu al-Naḥwīyah wa-al-Dilālīyah". (Tunis: Faculty of Arts and Humanities, Manouba, University Publishing Center, 2006).

Muḥammad Aḥmad Muḥammad Maʻbad. "Nafaḥāt min ʻUlūm al-Qurʼān". (2nd ed., Cairo: Dār al-Salām, 1426 AH -2005).

Muḥyī al-Dīn, M. Dilxoş Rafīq – Amīn, Prof. Dr. Daldār Ghafūr

Ḥamad. "al-ʻAwāmil al-Ḥijājīyah fī Qiṣaṣ al-Nisāʾ fī al-Qurʾān al-Karīm". Journal of the University, al-Maʿārif College, Iraq, Volume 33, Issue (3), 2022.

al-Makhzūmī, Mahdī. "fī al-Naḥw al-ʻArabī Naqd wa-Tawjīh". (2nd ed., Beirut: Dār al-Rāʾid al-ʻArabī, 1406 AH - 1986).

Muṣṭafá Jamāl al-Dīn, "al-Baḥth al-Naḥwī ʻinda al-Uṣūlīyīn". (2nd ed., Iran: Dār al-Hijrah publications, 1405 AH).

Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram. "Lisān al-ʻArab". Footnotes: by Yāzijī et el.. (3rd ed., Beirut: Dār Ṣādir, 1414 AH).

al-Nājiḥ, ʻIzz al-Dīn. "al-ʻAwāmil al-Ḥijājīyah fī al-Lugha al-ʻArabīyah". (Tunis: Maktabat ʻAlāʾ al-Dīn, 2011).

Nāʻūr, Prof. Dr. ʻAbd ʻAlī Ḥasan-Rashā Ḥusain ʻAbd. "al-ʻAwāmil al-Hijājīyah fī Āyāt al-Aʻrāf wa-al-Taqālīd". The International Academic Journal of Arabic Language and Literature, Al-Raya International Electronic Journal.

An elite group of professors of Quranic Exegesis. "al-Tafsīr al-Muyassar". (2nd ed., Saudi: King Fahd Complex for the Printing of the Noble Qurʾan, 1430 AH - 2009).

Abū Hanīyah, Dr. ʻUmar Dhiyāb. "al-Rawābiṭ wa-al-ʻAwāmil al-Ḥijājīyah fī Maqāmāt al-Hamadhānī". The first scientific journal in the Arab world for scientific publishing - Jordan, issue eleven, 2019.

al-Hāshimī, Aḥmad. "Jawāhir al-Balāghah al-Maʻānī wa-al-Bayān wa-al-Badīʻ". Muʾassasat Hindāwī, 2019.

Ibn Yaʻīsh, "Sharḥ al-Mufaṣṣal lil-Zamakhsharī". Forward by: Dr. Imīl Badīʻ Yaʻqūb. (1st ed., Beirut – Lebanon: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1422 AH 2001m).

Argumentative and Argumentative Meaning, Seminars and lectures, publications of the Faculty of Arts and Human Sciences, Rabat (argumentation, its nature, fields, and functions), coordinated by Hamou Al-Naqari, (first edition, Casablanca: Al-Najah New Press, 1427 AH).

التعريف بضمير الرفع المنفصل في سورة الحشر مواقعه وأسراره البلاغية

Defining Through the Separate Nominative Pronoun in Surat Al-Hashr, its places and Rhetorical Secrets

د. منيرة بنت مرعي بن راشد الزهراني

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها، تخصص البلاغة والنقد بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

البريد الإلكتروني: dr.munerah@gmail.com

المستخلص

تناول البحث الموسوم بـ: (التعريف بضمير الرفع المنفصل في سورة الحشر مواقعه وأسراره البلاغي)، مفهوم الضمير وأنواعه عند النحويين والبلاغيين، وخصت الدراسة بالتطبيق ضمير الرفع المنفصل في محاولة لتجلية المقاصد القرآنية والأسرار البلاغية له في سورة الحشر، وقد اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي، عن طريق رصد الآيات الشريفة التي ورد فيها الضمير، ومن ثم تتبع ما ورد حوله في كتب التفسير، وما أضافه البلاغيون من تحليلات لدلالات الضمير في سياقات سورة الحشر.

وقد استعان الباحث بالمعاجم العربية، والتفاسير المتنوعة وأمهات كتب النحو والبلاغة التي تناولت الضمائر، ووظيفتها في التركيب العربي.

واشتمل البحث على مقدمة وتمهيد يعقبه المبحث الأول: التعريف بالضمير في الدرس النحوي والبلاغي وأغراضه البلاغية، والآخر: بلاغة التعريف بضمير الرفع المنفصل في سورة الحشر، ثم يعقب ذلك خاتمة تتضمن أبرز النتائج التي رصدتها الدراسة وبعض التوصيات، ثم يليها ثبت المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: سورة الحشر، ضمير الرفع المنفصل، بلاغة، التوكيد، الاختصاص، ضمير الفصل.

Abstract

The study dealt with (Defining Through the Separate Nominative Pronoun in Surat Al-Hashr, its places and Rhetorical Secrets). The concept of the pronoun and its types according to grammarians and rhetoricians. The study specifically applied the separate nominative pronoun in an attempt to explain the Qur'anic purposes and its rhetorical secrets in Surah Al-Hashr. The research adopted the inductive and analytical approach, by monitoring the noble verses in which the pronoun was mentioned, and then going through what was mentioned about it in the books of interpretation, and the analysis of the Rhetoricians regarding the connotations of the pronoun in the contexts of Surat Al-Hashr.

The researcher used Arabic dictionaries, various Quranic exegesis, and major grammar and rhetoric books that dealt with topic of pronouns and their function in Arabic sentences.

The study included an introduction and preface, followed by the first chapter: Defining through the pronoun in the grammatical and rhetorical lesson and its rhetorical purposes, and the second: the eloquence of defining through the separate nominative pronoun in Surat Al-Hashr, concluded by giving the most prominent findings observed by the study and some recommendations, then followed by a list of sources and references.

Keywords: Surat Al-Hashr, the separate nominative pronoun, eloquence, emphasis, specification, the separate pronoun.

مقدمة

الحمد لله الرحمن، خلق الإنسان علمه البيان، القائل في محكم التنزيل: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ الواقعة (٧٧-٨٠).

والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة نبيه صلى الله عليه وسلم -الدالة على صدق تبليغه عن ربه -كتابا جمع بين دفتيه بيانا واضحا وإعجازا قاطعا وحججا ناصعة مستمرة على مر العصور والدهور، نزل بلغة العرب الفصيحة، وهم أهل الفصاحة والبيان، مما دفع بالعلماء منذ بداية التأليف إلى التنقيب في أفانينه، والتدبر في آياته؛ محاولة منهم في كشف شيء من إعجازه، ومقاصد سوره وآياته.

وكان مما استوقف العلماء الاستعمال القرآني للضمائر بأنواعها في سياقات تقتضيها، فرأوه يفخم بضمير المتكلم عند الحديث عن ذات الله - جل وتقدس - وعن نعمه وعظمته وجبروته، ويستخدم ضمير المخاطب لتبشير المؤمنين بالجنة ونعيمها، ولنذارة المكذبين المعاندين، كما يستخدم ضمير الغائب في حكاية أحوال الأمم السابقة لأخذ العظة والعبرة من حالهم، في أسلوب بديع ونظم جليل وفق السياقات ومقتضيات الأحوال.

ولعل في هذه الدراسة ما يحاول كشف جانبٍ من بلاغة البيان الخالد في استعمال الضمير، بسبر أغوار الآيات الكريمة للوقوف على لمحات من بلاغة القرآن الكريم، مستنيرة في ذلك بجهود السابقين من العلماء والباحثين في حقل الدراسات القرآنية، فأسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يمحصه من الزلل والزيغ وسوء الفهم.

وقد عنونت هذا الدراسة بـ (التعريف بضمير الرفع المنفصل في سورة الحشر مواقعه وأسراره البلاغية)، حيث سيكون مجالها بيان دور ضمائر الرفع المنفصلة في

تجلية المقاصد القرآنية في سورة الحشر، مستعينة في ذلك بالمراجع المتنوعة في اللغة والنحو والبلاغة، وبقلم القارئ الحذر – ما أمكن – وبما دونه المفسرون حول آيات الكتاب الكريم في تفاسيرهم على اختلاف توجهاتهم ومذاهبهم.

أهمية البحث وسبب اختيار الموضوع:

تتمثل أهمية هذا البحث في أنه يتناول موضوعا من موضوعات كتاب الله، أقدس كتاب على وجه الأرض، ولعله يجيب عن التساؤلات الآتية:

١– ما ضمائر الرفع المنفصلة الواردة في سورة الحشر؟

٢– ما سر استفتاح سورة الحشر واختتامها بضمير الرفع المنفصل "هو " فيما يقارب تسعة مواضع في التعبير عن ذات الله تعالى؟

٣– ما أهم الأغراض البلاغية التي حققتها ضمائر الرفع المنفصلة في السورة الكريمة؟

ومن الأسباب التي دفعتني لهذا الموضوع ما يلي:

١) عدم وجود دراسة بلاغية مستقلة تناولت ضمائر الرفع المنفصلة في سورة الحشر.

٢) تركز ضمير الرفع المنفصل المفرد في الجزء الأخير من سورة الحشر بشكل لافت.

أهداف البحث:

١– تقديم دراسة بلاغية تطبيقية لضمير الرفع المنفصل في سورة قرآنية.

٢– تجلية الأسرار البلاغية لضمير الرفع المنفصل وعلاقته بالسياق الوارد فيه.

الدراسات السابقة في مجال البحث والمتصلة به:

إن الدراسات في علوم البلاغة، وبخاصة بلاغة القرآن الكريم كثيرة جداً، غير أني لم أعثر على دراسة سابقة مستقلة تكشف عن مكامن البلاغة في اختيار ضمير الرفع

المنفصل في سورة الحشر، إذ ليس هناك – فيما أعلم – دراسة تناولت هذا الموضوع بالذات سوى إشارات موجزة متناثرة في كتب التفسير، وكتب النحو واللغة، أو بعض التطبيقات على سور أخرى غير سورة الحشر، ومن الدراسات البلاغية القريبة من هذا الموضوع والتي أفدت منها في هذا البحث ما يلي:

١- توكيد الضمير المتصل بالضمير المنفصل دراسة في بلاغة التعبير القرآني، للأستاذ الدكتور رياض عبود إهيون، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، مجلة الكلية الإسلامية بالجامعة، والبحث يختلف عن هذه الدراسة فهو شامل للضمير المتصل والمنفصل معا، وتطبيقه على نماذج من البيان الخالد.

٢- ضمير الفصل وتعريف المسند في القرآن الكريم ومقصدهما البلاغي، د. إسماعيل الحاج عبد القادر سيبوكر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد (١٥)، والبحث وإن كان قريبا من هذه الدراسة إلا أن التطبيق قد تناول آيات متفرقة من كتاب الله العزيز.

٣- من أسرار التعريف بالضمير في القرآن دراسة بلاغية. إعداد: د. أشرف حسن محمد حسن الدبسي أستاذ الأدب والنقد والبلاغة المساعد بكلية اللغات – جامعة المدينة العالمية ٢٠١٤م، وهي دراسة تطبيقية للضمير بنوعيه المتصل والمنفصل، إضافة إلى كونها تطبيق على القرآن كاملا وليست مختصة بسورة الحشر.

٤- ضمير الغائب في القرآن الكريم، دراسة نحوية تحليلية أسلوبية، عاطف عبد المجيد عبد النبي أبو جاجة، (أطروحة ماجستير)، ١٩٩٩م، يتناول هذا البحث ضمير الغائب في القرآن الكريم، وأثره في تحديد المعنى، وأهميته في الدراسات اللغوية من حيث الشكل والتركيب والمدلول والمضمون، وهذا

البحث يتناول ضمير الغائب بنوعيه المتصل والمنفصل، كما أنه ليس مختصا بسورة الحشر.

منهج البحث:

سوف يسير منهج البحث – بعون الله وتوفيقه – على المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك بحصر ضمائر الرفع المنفصلة في سورة الحشر، ثم تحليلها تحليلاً بلاغياً وأسلوبياً وفق السياقات الواردة فيها.

محتويات البحث:

يشتمل البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة ونتائج، إضافة إلى ثبت المصادر والمراجع التي أثرت البحث على النحو الآتي:

١) المقدمة وفيها بيان لأهمية الموضوع وأهدافه والدراسات السابقة وهيكل البحث ومنهجه.

٢) التمهيد: سيتناول حديثا عن سورة الحشر وسبب نزولها ومقاصدها.

٣) المباحث: أ– المبحث الأول: التعريف بالضمير في الدرس النحوي والبلاغي وأغراضه.

ب– المبحث الثاني: بلاغة التعريف بضمير الرفع المنفصل في سورة الحشر.

٤) الخاتمة والنتائج والتوصيات وثبت المصادر والمراجع.

تمهيد

سورة الحشر تسميتها وسبب نزولها ومقاصدها

سورة الحشر سورة مدنية، من سور المفصّل، عدد آياتها (٢٤) آية، نزلت بعد سورة البينة في بداية السنة الرابعة من الهجرة، بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب.

والسورة تحكي قصة غزوة يهود بني النضير، غير أنها جاءت على طريقة القرآن الكريم في حكاية القصص، حيث تسرد السورة الكريمة أحداث الغزوة، وتربي النفوس وتؤكد على معالم الإيمان؛ لاستنباط العظة والعبرة منها كهدف رئيس من أهداف القرآن الكريم في إيراد القصص القرآني.

أما بالنسبة لتسميتها بسورة الحشر؛ فلأن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعاها بهذا الاسم، وقد ورد للسورة اسم آخر وهو سورة بني النضير وفق ما ورد في بعض كتب التفسير.

وقد ورد أن سبب تسمية السورة بسورة الحشر لئلا يظن أن المراد بالحشر يوم القيامة، ولكونها ذكر فيها حشر بني النضير من ديارهم إلى بلاد الشام، وبعض بيوتهم خرجوا إلى خيبر، وبعضها خرجوا إلى الحيرة.

وأما وجه تسميتها بـ«سورة بني النضير» فلأن قصة بني النضير ذكرت فيها[١].

(١) ينظر: أحمد بن إسماعيل الكوراني. "الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري". المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية. (الطبعة: الأولى، بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م). ٨: ٣٠٢؛ وجعفر شرف الدين. "الموسوعة القرآنية، خصائص السور". المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٤٢٠هـ). ٩: ١٨٥؛ وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. "الدر المنثور في التفسير بالمأثور". (بيروت: دار الفكر). ٨: ٨٨.

وأما مقاصد السورة فتتجلى في الآتي:

١- الحديث عن إجلاء بني النضير من المدينة المنورة، وأمر المسلمين بتقطيع نخيلهم نكاية بهم ولإذلالهم.

٢- بينت حكم الفيء في هذه الحرب، وأنَّ النصيب كله للمهاجرين الفقراء الذين تركوا أموالهم في مكة، وليس للأنصار من ذلك نصيب، وذلك لأنَّها لا تعد معركة استخدم فيها المسلمون الكر والفر وما إلى ذلك من أساليب الحرب.

٣- الكشف عن نفاق المنافقين وفضحهم.

٤- إرشاد المؤمنين إلى التقوى بالإيمان والعمل الصالح، وأثر القرآن الكريم وفضله على قلوب المسلمين.

٥- ختم السورة بأسماء الله وصفاته[١].

(١) ينظر: فايز، السريح. " معالم السور". (الرياض: دار الحضارة، ٢٠٢١م). ٣١٢.

المبحث الأول: التعريف بالضمير في الدرس النحوي والبلاغي وأغراضه

الضمائر أحد المعارف التي لقيت عناية تامة من النحويين والبلاغيين على حد سواء، حيث وضحوا مفهومها وأشاروا إلى أقسامها ووظائفها في الجملة العربية والاستعمال اللغوي، وبينوا دلالاتها وفق السياق الذي ترد فيه، غير أنها لم تكن في بداية التأليف مقننة ومضبوطة في أبواب محددة، وإنما كانت متفرقة في غير واحد من الأبواب النحوية والبلاغية.

وقبل الوقوف على تلك الجهود يحسن بيان معنى الضمير في المعاجم العربية وكتب المصطلحات النحوية والبلاغية ثم – بعد ذلك – تتبع مواطن تناوله في مصنفات علماء العربية ما أمكن.

فالضمير في اللغة مأخوذ من الجذر (ض. م .ر) ومعناه السر وداخل الخاطر، والجمع الضمائر، والضمير الشيء الذي تضمره في قلبك، تقول: أضمرت صرف الحرف إذا كان متحركا فأسكنته، وأضمرت في نفسي شيئا، والاسم الضمير، والجمع الضمائر، والمضمر: الموضع والمفعول، وأضمرت الشيء: أخفيته، كما أن أكثر المضمر في العربية إن شئت جئت به وإن شئت لم تأت به[1].

وأما معناه في الاصطلاح فهو: (الموضوع لتعيين مسماه مشعرا بتكلمه أو خطابه أو غيبته)[2]. ويذكر التهانوي في تعريفه للضمير أنّه: (اسم كني به عن متكلم

(١) انظر: محمد بن مكرم بن منظور. "لسان العرب". (الطبعة: الثالثة، دار صادر، بيروت، – ١٤١٤هـ). مادة (ض. م. ر) ٤: ٤٩١-٤٩٢؛ ومحمد بن يعقوب الفيروزآبادى. "القاموس المحيط". تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. (الطبعة: الثامنة، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م). ٤٢٩.

(٢) حسن بن علي المرادي. "توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك". تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان. (ط١، دار الفكر العربي). ٣٥٩

أو مخاطب أو غائب تقدم ذكره بوجه ما)[١].

ومن خلال التعريف اللغوي والاصطلاحي للضمير نلحظ العلاقة المشتركة بين المعنيين، وهذا ما لفت إليه ابن هشام حينما قال: (وإنما سمي مضمرا من قولهم أضمرت الشيء إذا سترته وأخفيته، ومنه قولهم أضمرت الشيء في نفسي، أو من الضمور وهو الهزال؛ لأنّه في الغالب قليل الحروف، ثم إن تلك الحروف الموضوعة له غالبها مهموسة وهي التاء، والكاف، والهاء، والهمس هو الصوت الخفي)[٢]، فالاختزال والخفاء متجانسان بين بنية الكلمة ومعناها في الضمير[٣].

وحين ننتقل إلى جهود النحويين في تناولهم للضمائر نجدهم قد بينوا مفهومها وأنواعها ووظائفها، وعدوها أحد أنواع المعارف في العربية، كما أوضحوا أن وجه تسميتها بذلك لكثرة استتارها، فإطلاقها على البارز توسع، أو لعدم صراحتها كالأسماء المظهرة. والأمر الآخر – وهو الراجح – لأنك بالضمير تستر الاسم الصريح، فلا تذكره، فإنك إذا قلت أنا، فأنت لم تذكر اسمك وإنما سترته بهذه اللفظة. وكذا إذا قلت أنت وهو وهي، فأخذ مصطلح الضمير من هذا لأنه يستر به الاسم الصريح[٤].

(١) محمد بن علي التهانوي. "كشاف اصطلاحات العلوم والفنون". تحقيق: علي دحروج. (ط١، مكتبة لبنان). ١: ٢١٩.

(٢) عبدالله بن يوسف بن هشام. "شرح شذور الذهب". تحقيق: حنا الفاخوري. (ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨م). ١٥٢.

(٣) انظر: د. سالم خليفة حسين. "ضمير الفصل والشأن في الجملة العربية". مجلة الجامعة الأسمرية، المجلد ٢١، يونيو ٢٠١٤. ص ١٣٧.

(٤) ينظر: د. فاضل صالح السامرائي. "معاني النحو". (الطبعة: الأولى، الأردن: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م). ١:٤٢.

وإنّما صارت المضمرات مَعارِفَ؛ لأنّك لا تُضْمِر الاسم إلَّا وقد علم السامعُ على مَن يعود، فلا تقول: "ضربتُه"، ولا "مررت به" حتى يعرفه، ويدري مَن هو[١].

وفي قول ابن يعيش أعلاه في (إلا وقد علم السامع) ما يدل على أن مقياس إدراج الضمائر من جملة المعارف هو علم المخاطب، فإذا كان الاسم المضمر معلوما في ذهن المتلقي فهو معرفة وإلا فلا، وقد أشار سيبويه إلى هذا الفارق الدلالي عند حديثه عن الضمائر بقوله: (وإنما صار الإضمار معرفة لأنك إنما تضمر اسما بعد ما تعلم أنّ من يُحَدَّثُ قد عرف من تعني وما تعني، وإنك تريد شيئا يعلمُهُ)[٢]، وكذلك المبرد في المقتضب[٣]، وإلى ذات المقياس يذكر ابن يعيش في شرح المفصل أن القصد من التعريف إخبار المتلقي دون المتحدث، لأن المتحدث نفسه قد يكون عالما بما يتكلم به، أما المخاطب فجاهل؛ فيقصد المتكلم إلى إعلامه[٤].

غير أنّ مسألة علم المخاطب بالمضمر وعدم علمه هو ما يدرجه أو يخرجه من المعارف مسألة غير مطردة في كل الأحوال، والسياقات القرآنية وكذلك النصوص الشعرية حافلة بمواضع خارجة عمّا قعده أهل اللغة لنكات معينة ومقصودة، لذا تبقى السياقات ومقتضيات الأحوال هي الفيصل في هذه المسألة، وهذا ما يطلق عليه البلاغيون خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

---

(١) ينظر: يعيش بن علي بن يعيش. "شرح المفصل للزمخشري". قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م). ٣: ٣٤٨.

(٢) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر. "الكتاب". تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م). ٢: ٦.

(٣) ينظر: محمد بن يزيد المبرد. "المقتضب". تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة. (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٦م). ٤: ٢٨٠.

(٤) ينظر: ابن يعيش. "شرح المفصل ". ٢: ٣٥٢.

والضمير أعرف المعارف باتفاق النحويين، وله جانبان: أحدهما يتعلق بجانب الإعراب، والآخر يتعلق بجانب المعاني، والجانب الأخير هو حديث اهتمام البلاغيين(١).

وقد تناول النحاة الضمائر في باب التعريف والتنكير، فأورده سيبويه في باب علامات المضمرين للمرفوعين حيث يقول: (وأما المضمَر المحدَّث عنه فعلامتُه: هو، وإن كان مؤنثا فعلامته: هي، وإن حدّثتَ عن اثنين فعلامتُهما: هُما. وإن حدّثتَ عن جميع فعلامتهم: هُم، وإن كان الجميع جميع المؤنث فعلامته: هُنّ)(٢).

وعد النحويون الضمير أرفع المعارف في التعريف(٣)، وفاضلوا بينها في الأكثر تعريفا، فقدموا ضمير المتكلم لدلالته على المراد بنفسه وبمشاهدة مدلوله وبعدم صلاحيته لغيره وبتميز صورته، ثم ضمير المخاطب لدلالته على المراد بنفسه وبمواجهة مدلوله، ثم ضمير الغائب السالم عن إبهام نحو : زيد رأيته، فلو تقدم اسمان أو أكثر نحو: قام زيد وعمرو كلمته لتطرق إليه الإبهام ونقص تمكنه في التعريف(٤).

(١) ينظر: اللبدي، د. محمد سمير نجيب. "معجم المصطلحات النحوية والصرفية". (ط١، الأردن: دار الفرقان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م). ١٣٤-١٣٥؛ ود. أحمد مطلوب. "معجم المصطلحات البلاغية". (ط١، لبنان: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م). ٢١٨-٢١٩.

(٢) سيبويه. "الكتاب". ٢: ٣٥١-٣٥٢.

(٣) ينظر: ابن يعيش. "شرح المفصل". ٣: ٣٤٩؛ ويحيى بن حمزة العلويّ. "الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز". (الطبعة الأولى، بيروت: المكتبة العنصرية، ١٤٢٣هـ). ٢: ٨.

(٤) ينظر: محمد بن عبد الله. "شرح التسهيل". تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون. (ط١، مصر: هجر للطباعة والنشر،١٩٩٠م). ١: ١١٦؛ وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. "همع الهوامع في شرح جمع الجوامع". المحقق: عبد الحميد هنداوي. (مصر: =

وما قيل في مسألة علم المخاطب بالمضمر وعدم علمه هو ما يدرجه أو يخرجه من المعارف، كذلك يقال – هنا – في تدرجية الضمائر في المرتبة، فكل ضمير من تلك الضمائر له موقفه ومقامه الذي يصلح له ويقتضيه، فالسياق وقرائن الأحوال لها دور في خروج الكلام خلاف مقتضى الظاهر، وفي عملية الاختيار التي تقوم عليها البلاغة العربية، وهو ما كان معروفا بمعنى المعنى أو الوظيفة البلاغية – عماد نظرية النظم – عند القاضي عبد القاهر الجرجاني.

وحدد النحاة الوظيفة والدلالة التي تضطلع بها الضمائر في التركيب العربي، ومن وظائفها – وهي وظيفة أساسية عندهم – الإيجاز والاختصار في الكلام(١)، وتتجلى هذه الوظيفة من قلة عدد حروفها إذ هي مبنية على الحرفين والثلاثة، كما أنها تغني عن إعادة الاسم الظاهر وتكراره، وهذا غاية الإيجاز(٢).

ومن وظائف الضمير في الكلام العربي عند النحويين التعيين ورفع الالتباس، فيستعمل لتعيين مدلوله إما متكلما أو مخاطبا أو غائبا دون حدوث لبس في الكلام يقول ابن يعيش: (إنَّما أُتي بالمضمراتِ كلِّها لضربٍ من الإيجازِ واحترازا من الإلْباسِ)(٣).

ومن وظائف الضمائر عند النحاة الربط بين عناصر الجملة، فتربط الجملة

=

المكتبة التوفيقية). ١: ٢٢١.

(١) ينظر: ابن يعيش. "شرح المفصل". ٢: ٣٠٢؛ والسيوطي. "همع الهوامع". ١: ٢٢٧؛ وبدر الدين الزركشي. "البرهان في علوم القرآن". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (ط ٢، بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٢م). ٤: ٢٤.

(٢) ينظر: ابن يعيش. "شرح المفصل". ٢: ٢٩٢.

(٣) ابن يعيش. "شرح المفصل". ٢: ٢٩٢.

الواقعة خبرا بالمبتدأ، وتربط جملة الصفة بالموصوف، وتربط جملة الحال بصاحبها، وتربط جملة الصلة بالموصول وهكذا[١]. كما أن من وظائفها التوكيد، إذ يؤكد بها الضمير المنفصل نحو: أنت أنت الكريم، كما يؤْتى بضميرِ الرفعِ المنفصل لتوكيدِ الضميرِ المتَّصل نحو: قمت أنا ورأيتك أنت ومررت بها هي.

ويسمي سيبويه الضمائر الرابطة بين عناصر الجمل وصفا، والوصف هو التوكيد، يقول: (واعلم أن هذهِ الحروف كلَّها تكون وصفاً للمجرورِ والمرفوعِ والمنصوبِ المضمرين، وذلك كقولك: مررت بك أنت، ورأيتك أنت، وانطلقْت أنت، وليس وصَفا بمنزلةِ زيدٍ الطَّويلِ إذا قلْت مررت بزيدٍ الطَّويلِ، ولكنَّه بمنزلةِ نفسه إذا قلت مررت بهِ نفسه، وأتاني هو نفسه، ورأيته هو نفسه)[٢]. كما ويؤتى بالضمير لقصد المبالغة قبل التمييز بالنفس والعين[٣].

ومن دلالات الضمير عند النحاة –أيضا– التهويل والتفخيم عندما يتقدم الضمير على مفسره تمهيدا لذكره، يقول الرضي في شرح الكافية: (والسبب في مخالفة الوضع قصد التَّفخيمِ والتَّعظيمِ في ذكرِ ذلك المفسرِ بأن يذكروا أولا شيئًا مبهما، حتَّى تتشوق نفس السامعِ إلى العثورِ على المراد به، ثم يفسروه فيكون أوقع في النَّفسِ، وأيضا يكون ذلك المفسر مذكوراً مرتين، بالإجمالِ أولا، والتَّفصيلِ ثانيا، فيكون آكد)[٤].

ويدخل في هذه الدلالة ضمير الشأن أو القصة[٥] ، حيث يؤتى به لتعظيم شأن

(١) ينظر: السابق ١: ٢٣٠، ٢: ٧٧-٢١٤-٣٨٩.
(٢) سيبويه. "الكتاب". ٢: ٣٨٥.
(٣) ينظر: ابن يعيش. "شرح المفصل". ٢: ٢٢٤.
(٤) الرضي. "شرح كافية ابن الحاجب". ٣: ١٢.
(٥) سيأتي توضيحه في المبحث الثاني.

المتحدث عنه نحو قولنا: هو الأمير مقبل[١]، ويأتي للتعظيم في دلالة ضمير المتكلم ومن معه، يقول الرضي: (وقد يقول المعظم نفسه فعلنا ونحن وإيانا عادّاً لنفسه كالجماعة)[٢].

وحين ننتقل للدرس البلاغي فنجد البلاغيين قد تناولوا الحديث عن الضمائر في باب أحوال المسند والمسند إليه، وإن كانت قبل السكاكي غير مقننة أو منضبطة في باب بعينه كما كانت عند الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز والزمخشري في تفسيره الكشاف.

لقد تناول البلاغيون وظائف الضمائر ودلالاتها في مصنفاتهم مدرجين الأمثلة والشواهد على ذلك من منثور الكلام ومنظومه، وقد سار البلاغيون على خطا النحويين في إدراج الضمائر ضمن أنواع المعارف –كما مر–[٣].

ووظيفة الاسم المعرفة عند البلاغيين تتمثل في تقوية الحكم في التركيب وزيادة التوكيد والإيضاح، وما من شك في أن الضمير يفيد هذه الفائدة؛ لأن النفس تتفاعل مع ما سبق لها إدراكه[٤].

وأما الدلالات البلاغية للضمائر عند البلاغيين فقد ذكروا أنها تستعمل في مقام

(١) ينظر: ابن يعيش. "شرح المفصل". ٢: ٣٣٥؛ وابن مالك. "شرح التسهيل". ١: ١٦٣؛ والرضي. "شرح الكافية". ٣: ٦٩.

(٢) الرضي. "شرح الكافية". ٣: ١٦.

(٣) ينظر: كمال الدين الزملكاني. "البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن". تحقيق: خديجة الحديثي وأحمد مطلوب. (ط١، بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٤م). ١٣٣؛ والطيبي. "التبيان في علم المعاني والبديع والبيان". ٥٠؛ والعلوي. "الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز". ٢: ١١.

(٤) ينظر: ناجي. "الأسس النفسية للأساليب البلاغية". ١١٩.

التكلم للدلالة عل المتكلم نحو: أنا آتيك، وفي مقام الخطاب للدلالة على المخاطب نحو: أنت أتيتني، وفي مقام الغيبة للدلالة على مذكور سابق نحو: هو يأتيك[١].

والمتأمل في هذه الدلالات يجد أنها ليست إلا معانيَ نحوية مكرورة، الأمر الذي جعل البلاغيين ينقبون في دلالات بلاغية للضمائر في الاستعمال، فوقفوا عند ورودها في الكلام العربي بوجه عام، وفي السياق القرآني على وجه الخصوص، ووجدوا أن من دلالات استعمال ضمير المتكلم في الموروث العربي أنه يرد في مقامات الفخر والاعتداد بالنفس مدعمين أقوالهم بالشواهد المختلفة، فمن شواهد ورود ضمير المتكلم في سياق الفخر قول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَن به صمم[٢]

وأما ضمير المخاطب فكثيرا ما يستعمل في مقامات العتاب واللوم، فيذكر بسيوني فيود: (أنّه يكثر استعمال ضمير المخاطب في موضع العتاب واللوم حيث يحلو للمتكلم أن يخاطب من يعاتبه وأن يردد ضميره مسندا إليه ما يريده من لوم وعتاب)[٣] كقول ابن الدمينة معاتبا:

وأنت التي كلفتني دلج السري وجون القطا بالجهلتين جثومُ

(١) ينظر: السكاكي. "مفتاح العلوم". ١٧٨-١٨٠؛ والقزويني. "الإيضاح في علوم البلاغة". ٢: ١٠؛ والسبكي. "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح". ١: ١٦٥-١٦٦.

(٢) أحمد الطيب المتنبي. "ديوان أبي الطيب المتنبي". أبو ظبي: دار الكتب الوطنية،٢٠١٢م).٣٥٣.

(٣) فيود. "علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني". ٩٠.

وأنت التي أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضا داني الصدود كليمُ[١]

ومن دلالات استعمال الضمير في الكلام عند البلاغيين إرادة التعميم للتفخيم والتهويل، فيخرج الخطاب لغير معين لهذا القصد[٢] وكذلك عند العدول بالإضمار في مقام الإظهار في ضمير الشأن، وفي ذلك من التشويق لمعرفة المبهم ما لا يخفى[٣].

كذلك من دلالات الضمير التفخيم للاشتهار والوضوح حتى كأنه صار معروفا لا يخفى على أحد، ومنها أيضا ادعاء أن الذهن متعلق به لا يلتفت لغيره[٤]، يقول محمد أبو موسى: (وقد يأتي الإضمار من غير ذكر مفسر، وذلك اعتمادا على وضوح المراد، وادعاء أنه معروف حاضر في القلب لا يخطر بالبال سواه، كما ترى في مطالع القصائد التي تذكر الصاحبة بضمير عائد عليها مثل قوله: زارت عليها للظلام رواق، وموقعه من الملاحظة والعذوبة على ما ترى، وقد يكون الإضمار خاليا من هذه الإشارة، وإنّما اعتمد فيه على مجرد الوضوح فقط)[٥].

---

(١) ينظر: ابن الدمينة. "ديوان ابن الدمينة". تحقيق: أحمد راتب النفاخ. (القاهرة: مكتبة دار العروبة، ١٩٦٠م). ٤٢.

(٢) ينظر: السكاكي "مفتاح العلوم". ١٨٠؛ والقزويني. "الإيضاح". :١: ١١٤؛ والسبكي. "عروس الأفراح". ١: ٢٧٥؛ والتفتازاني. "المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم". ٧٩٢؛ ابن عربشاه. "الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم". ١: ٢١-٢٢.

(٣) ينظر: الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ١٠٢؛ والقزويني. "تلخيص المفتاح". ٩٠؛ العلوي. "الطراز". ١: ١٤٢؛ والتفتازاني. "مختصر المعاني". ٥٦؛ والسيوطي. "معترك الأقران". ٤٦٨/٣.

(٤) ينظر: التفتازاني. "المطول". ٢٨٣؛ والزركشي. "البرهان في علوم القرآن". ٤: ٢٤؛ اولهاشمي. "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع". ٣٩.

(٥) محمد أبو موسى. "خصائص التراكيب". ٢٢٤.

ويعتبر ضمير الفصل أحد الضمائر التي لقيت عناية من اللغويين، حيث أفردوه بحديث مستقل نظرا لأهميته في التركيب، وهو صيغة ضمير منفصل مرفوع[١]، يأتي لإزالة اللُّبس في الكلام، ويكون عادة بين المبتدأ والخبر[٢]، أو ما كان أصله مبتدأ وخبرًا – بعد دخول النواسخ عليه، وكان أول من أطلق عليه هذا الاسم الخليل بن أحمد الفراهيدي، يقول في باب الرفع بهل وأخواتها من حروف الرفع: (وتقول هم قوم كرام، فإذا جعلت هذه الحروف فصلا بين حروف الترائي وحروف كان لم تعمل شيئا وأجريت الكلام على أصله)[٣]، وتبعه في ذلك سيبويه فجعل في كتابه باباً عنوانه: هذا باب ما يكون فيه هو وأنت وأنا ونحن وأخواتهن فصلاً[٤]. كما تبعه البصريون في هذه التسمية، أما الكوفيون فسموه عماداً ودعامة. قال ابن مالك: من المضمرات المسمى عند البصريين فصلا وعند الكوفيين عمادا، ويقع بلفظ المرفوع المنفصل، مطابقا لمعرفة قبل)[٥].

ومن التسميات التي أطلقت عليه ضمير الواحد المطاع، يقول الزمخشري في معرض تفسيره للآيات"٥-٦" من سورة طه: (فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة منها عادة: الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة. ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة. ومنها أنه

(١) ينظر: الرضي. "شرح كافية ابن الحاجب". ٣: ٦٠؛ وأبو حيان الأندلسي. "ارتشاف الضرب من لسان العرب". تحقيق: مصطفى أحمد النماس. (ط١، ١٩٨٩م). ١: ٤٨٩.

(٢) ينظر: ابن يعيش. "شرح المفصل للزمخشري". ١: ٣٢٨.

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي "الجمل في النحو". المحقق: د. فخر الدين قباوة. (الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م). ١٨٨.

(٤) ينظر: سيبويه. "الكتاب". ٢: ٣٨٩.

(٥) ابن مالك. "شرح التسهيل". ١: ١٦٧.

قال أولا أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع)[١].

ولضمير الفصل فوائد أجملها البلاغيون في الآتي:

١ -الإعلام بأن ما بعده خبر لا تابع، ولهذا سمي فصلا؛ لأنه فصل بين الخبر والتابع، وعمادا لأنه يعتمد عليه معنى الكلام، وأكثر النحويين يقتصرون على هذه الفائدة[٢]، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) ﴾آل عمران :٦٢.

٢ -الاختصاص والقصر: فقد يأتي ضمير الفصل للدلالة على القصر، وإذا ذهب ذهب معنى القصر، جاء في الإيضاح): وأما توسط الفصل بينه وبين المسند إليه فلتخصصه به كقولك: زيد هو المنطلق، أو هو أفضل من عمرو، أو هو خير منه، أو هو يذهب)[٣]. فمعنى قولنا: زيد هو القائم – أن القيام مقصور على زيد لا يتجاوزه إلى عمرو، والمعنى هاهنا جعل المسند إليه من بين ما يصح اتصافه بكونه مسندا إليه مختصا بأن يثبت له المسند[٤].

٣ -التوكيد: ولهذا سماه بعض الكوفيين دعامة، لأنه يدعم به الكلام، أي يقوي ويؤكد كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة"٥"، وهم: (فصل وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون

(١) الزمخشري. "تفسير الكشاف". ٣: ٥١.

(٢) ينظر: السامرائي. "معاني النحو". ١: ٤٧.

(٣) ينظر: القزويني. "الإيضاح في علوم البلاغة". ٢: ٤٩.

(٤) ينظر: محمد بن عرفة الدسوقي. "حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني". المحقق: عبد الحميد هنداوي. (بيروت: المكتبة العصرية). ١: ٦٢٤؛ والهاشمي. "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع". ١٤٩.

غيره)[١].

تلك كانت بعضا من جهود اللغويين – النحاة والبلاغيين – في تناولهم للضمائر على اختلافها في البنية والوظيفة، وقد حاولت الدراسة تتبعها في مظانها قدر الإمكان، وسوف تقتصر الدراسة بالتطبيق على – الأكثر ورودا في سورة الحشر– ضمير الرفع المنفصل، بتتبع مواضعه في السورة الكريمة، ومحاولة سبر أغواره وكشف معانيه، وما أضافه من معانٍ ودلالات في النسق الكريم.

(١) الزمخشري. "الكشاف". ١: ٤٦. وينظر: السامرائي، "معاني النحو". ١: ٥٥-٤٧ الهاشمي. "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع". ١٤٩.

المبحث الثاني: بلاغة التعريف بضمير الرفع المنفصل في سورة الحشر

وردت ضمائر الرفع المنفصلة ومعها ضمير الفصل في سورة الحشر في ثلاثة عشر موضعا، اثنا عشر منها بصيغتي الغائب المفرد والجمع (هو، هم)، وموضع واحد بصيغة المخاطب الجمع (أنتم)، وبتتبع السياقات الواردة فيها تتجلى لنا الأسرار البلاغية من وراء ذلك، وسوف أستعرض هذه المواضع في سياقاتها المختلفة من السورة الكريمة.

١- الضمير الغائب " هو"

جاء الضمير الغائب "هو" في بداية سورة الحشر مرتين عند قول الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) هو الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر"١، ٢".

افتتح الله – عز وجل – سورة الحشر بالإخبار بتسبيح جميع ما في السموات والأرض، وتنزيهه عما لا يليق بعظمته، فهو العزيز الذي لا يمتنع عنه شيء، الحكيم في تدبير شؤون خلقه، ومن ذلك نصر الله – تعالى – لرسوله صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم(١).

(١) ينظر: محمد بن جرير الطبري. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة: الأولى، القاهرة – مصر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م). ٢٣: ٢٥٩؛ وعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". المحقق: عبد الرحمن بن معلا =

وقد ورد ضمير الفصل في الموضع الأول في قوله تعالى: (هو العزيز الحكيم)، وهو مسند إليه، والعزيز مسند وهو خبر أول والحكيم خبر ثان[١]. والموضع الثاني في قوله تعالى: (هو الذي أخرج الذين كفروا) والجملة مستأنفة أو حالية وهو مسند إليه، والذي مسند[٢].

والمسند إليه في الموضع الأول (وهو العزيز الحكيم) جاء معرفا عن طريق ضمير الرفع المنفصل "هو"، وتعريف المسند إليه بالضمير يفيد المخاطب إفادة كاملة[٣]. كما أن تعريف الخبر المسند باللام كما يذكر البلاغيون يفيد التأكيد والتقرير للمسند إليه وبيان أن ثبوته له أمر مقرر لا يشك فيه أحد، وأنه ظاهر ظهورا لا يخفى[٤].

يقول عبد القاهر الجرجاني في اللطيفة التي تشع من تعريف الخبر المسند: (واعلم أن للخبر المعرف "بالألف واللام" معنى غير ما ذكرت لك، وله مسلك ثم دقيق ولمحة كالخلس، يكون المتأمل عنده كما يقال "يعرف وينكر"، وذلك قولك: "هو البطل المحامي" و "هو المتقي المرتجي"، وأنت لا تقصد شيئا مما تقدم، فلست تشير إلى معنى قد علم المخاطب أنه كان، ولم يعلم أنه ممن كان، ولكنك تريد أن تقول لصاحبك: هل سمعت بالبطل المحامي؟ وهل حصلت معنى هذه الصفة؟ وكيف ينبغي أن يكون

=

اللويحق. (الطبعة: الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م). ٨٤٨.

(١) ينظر: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش. "إعراب القرآن وبيانه". (الطبعة: الرابعة، حمص - سورية: دار الإرشاد للشئون الجامعية، - دمشق — بيروت: دار اليمامة، دمشق — بيروت: دار ابن كثير، ١٤١٢هـ). ١٠: ٣٣.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣) ينظر: الدسوقي. "حاشية الدسوقي". ١: ٤٨٨-٤٨٩.

(٤) ينظر: محمد أبو موسى. "خصائص التراكيب". ٣٠٧-٣٠٨-٣٠٩

الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه؟ فإن كنت قتلته علما، وتصورته حق تصوره، فعليك صاحبك واشدد به يدك، فهو ضالتك وعنده بغيتك)[١].

وقد وصف الحق – تبارك وتعالى – نفسه بالعزيز الحكيم، والعزيز في اللغة: الممتنع الذي لا يغلبه شيء، وقال غيره: هو القوي الغالب كل شيء[٢]، والحكيم معناه: العالم المدبر للأمور المتقن لها[٣]. والصيغة المبنية عليها هذه الأسماء هي الصفة المشبهة التي تعطي معنى الثبات، يقول الشيخ ابن عثيمين: (أسماء الله تعالى وصفاته التي جاءت في القرآن وغير القرآن منها ما هو صفة مشبهة، ويعني العلماء بالصفة المشبهة: الصفة اللازمة للموصوف، التي لا ينفك عنها –وذلك مثل: العزيز، الحكيم، السميع، البصير، وما أشبهها)[٤].

وفي اقتران الاسمين في البيان الخالد كمال زائد على الكمال الذي يقتضيه كل واحد منهما حال إفراده، يقول الشيخ ابن عثيمين: (والحسن في أسماء الله يكون باعتبار كل اسم على انفراد، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.. مثال ذلك "العزيز الحكيم" فإن الله يجمع بينهما في القرآن كثيراً، فيكون كل منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز والحكمة في الحكيم والجمع بينهما دال على كمال آخر وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلماً وجوراً وسوء فعل كما يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيء التصرف، وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما

(١) الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ١: ١٨٢(بتصرف).
(٢) ينظر: ابن منظور. "لسان العرب". مادة (ع.ز.ز)، ٣٧٥.
(٣) ينظر: لسان العرب مادة (ح.ك.م) ، ١٤٠.
(٤) محمد بن صالح بن محمد العثيمين. "فتاوى نور على الدرب". ٤: ٢.

الذل)[١].

وقد جاء الضميرُ – كما قال أبو السعود – في الآية الكريمة؛ ليعطي معنى كمالِ ظهورِ اتصافه جل وعلا بهذين الوصفين[٢].

كما أفاد التعريف – والله أعلم – معنى القصر في الآية، بقصر العزة والحكمة على الله عز وجل. فهو وحده العزيز الذي يغلب كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء، والحكيم الذي أحاط بكل شيء[٣].

والتركيب الإسنادي المصَدّر بضمير الرفع المنفصل (هو) جاء في محل نصب حال من لفظ الجلالة[٤]، وجملة الحال المرتبطة بالواو –كما يقول البلاغيون –

(١) محمد بن صالح بن محمد العثيمين. "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى". (الطبعة: الثالثة، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م). ٧-٨.

(٢) ينظر: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى. "تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (بيروت: دار إحياء التراث العربي). ٨: ٢٢٥؛ ومحمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. "تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني". المحقق: علي عبد الباري عطية. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ). ١٤: ٢٣٣.

(٣) ينظر: إبراهيم بن عمر البقاعي. "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي). ١٩: ٤٠٦،٤٠٤؛ ومحمد الطاهر بن محمد بن عاشور. «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد". (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ). ٢٨: ٦٥-٦٦.

(٤) ينظر: محمود صافي. "الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، مع فوائد نحوية هامة". (الطبعة: الثالثة، دمشق: دار الرشيد – بيروت: مؤسسة الإيمان، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م).١٤: ١٩٠.

لاستئناف الإثبات، فلا تصل المعنى الثاني بالأول في إثبات واحد[١]. وفي ضوء ما ذكره البلاغيون فجملة الحال في الآية الكريمة استئناف لإثبات صفتي العزيز والحكيم لله تعالى. فأوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص لله الذي أحاط بجميع صفات الكمال[٢]، وموقع جملة الإسناد جاء تذييلا في الآية الكريمة لتأكيد مضمون الجملة قبلها، إذ التذييل في البلاغة العربية تعقيب جملة بأخرى تشتمل على معناها تأكيدا لها[٣].

وفي ضوء ما ذُكِر من تعريف طرفي الإسناد بالضمير وأل التعريف، وما يكسبانه في التركيب من دلالة التفرد والاختصاص، ثم الاستئناف بجملة حالية في إثبات الإحاطة بصفات الكمال ما يكسب التركيب معنى بلوغ المسند إليه العائد على لفظ الجلالة (الله) في الصفة حدا في الكمال فيتصورها الذهن؛ لتصل إلى النفس في أجلى عبارة وأكمل صورة[٤].

والموضع الثاني لضمير الرفع المنفصل (هو) في السورة الكريمة عند قوله تعالى: ﴿هو الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، وقد أفاد التعريف بالضمير معنى الاختصاص، فإخراج بني النضير مقصور عليه جل وعلا؛ لعدم الاعتداد بسعي المؤمنين في ذلك الإخراج لِعَدَمِ. وهو وحده الذي أخرج بني النضير من غير إيجاف خيل ولا ركاب[٥].

---

(١) ينظر: الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ١٥٣.

(٢) ينظر: البقاعي. "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ١٩: ٤٠٣.

(٣) ينظر: التهانوي. "موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم". ١: ٤٠٥.

(٤) ينظر: حسن بن إسماعيل الجناجي. "النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق". (الطبعة: الأولى، القاهرة – مصر: دار الطباعة المحمدية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م). ٣٩٤-٣٩٥.

(٥) ينظر: البقاعي. "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ١٩: ٤٠٤،٤٠٦؛ ومحمد الطاهر =

وخبر الجملة نجده قد جاء معرفاً بالاسم الموصول وما يتبعه من صلة (أخرج في الزمن الماضي).

وفي اختيار السياق الكريم لصيغة الفعل الماضي (أفعل[١] وماضويتها) ما يقوي مضمون الكلام، لتنبثق منه إشعاعات الهيمنة الإلهية والقدرة الربانية المتفردة على إخراج بني النضير عنوة دونما قتال في السياق الكريم. وقد بين الجرجاني وجه استعمال الذي خبرا في الكلام بقوله: (أنّك لا تصل "الذي "إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها، وأمر قد عرفه له)[٢]، فالمؤمنون على علم يقين أنه سيكون إخراج لليهود من المدينة، غير أن الذي لم يكونوا متيقنين منه هو كيفية ذلك الإخراج (ما ظننتم أن يخرجوا)؛ لحصانة ديار اليهود في المدينة ومنعتها.

ويذكر الجرجاني أن كلمة الذي تفيد معنى آخر فوق الاختصاص في مثل قولنا: أخوك الذي جاء، (فهذا ونحوه على أنك قدرت إنسانا هذه صفته وهذا شأنه، وأحلت السامع على من يتعين في الوهم دون أن يكون قد عرف رجلا بهذه الصفة، فأعلمته أن المستحق لاسم الأخوة هو ذلك الذي عرفه، حتى كأنك قلت:

=

بن محمد بن عاشور. «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد". (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ). ٢٨: ٦٥-٦٦.

١ ذكر النحاة من دلالات صيغة أفعل التعدية، يقول سيبويه في باب افتراق فعلت وأفعلت للمعنى: تقول: دخل وخرج. فإذا أخبرت أن غيره صيره إلى شيء من هذا؛ قلت: أخرجه، وأدخله، وتقول: فزع وأفزعته، وخاف وأخفته، وجال وأجلته. ينظر: سيبويه. "الكتاب". ٤: ٥٥. وأما دلالته الزمنية فهو (يفيد وقوع الحدث أو حدوثه مطلقا، فيدل على التحقيق لانقطاع الزمن في الحال) ينظر: الرضي. "شرح كافية ابن الحاجب". ٤: ٧.

(٢) الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ١: ٢٠٠.

أخوك زيد الذي عرفت أنك إن تدعه لملمةٍ يجبك)[1].

فمجيء خبر المسند إليه جملة موصولة فوق دلالاتها على الاختصاص قد أضاف إلى أن أمر إخراج اليهود من المدينة من غير قتال خروجا محققا مختص به تعالى جلت قدرته، فذلك الأمر الذي أشغلكم أيها المؤمنون، ووقع في ظنكم أنهم لن يخرجوا من ديارهم لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها، وما اعترى اليهود من إعجاب بها وغرور واعتقاد أنهم لن يُنالوا بها، لا يقدر عليه أحد إلا الله، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، فلا تغني عن ذلك الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع[2].

ومما أضفى معنى فوق المعنى، وتأكيدا فوق التأكيد أن الآية قد فصلت عن سابقتها (هو الذي أخرج) لمزيد العناية بمضمون القول، حيث جاءت الجملة استئنافا لإثبات وتأكيد قدرة الله تعالى في إخراج اليهود من المدينة مع ما كانوا فيه من المنعة والحصانة.

وذكر ابن عاشور ثلاثة وجوه لجملة (هو الذي أخرج الذين كفروا) فقد تكون:

١- استئنافا ابتدائيا لقصد إجراء هذا التمجيد والتنزيه لاسم الجلالة لما يتضمنه من باهر تقديره، ولما يؤذن به ذلك من التعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.

٢- كما يجوز أن تكون الجملة علة لما تضمنه الخبر من تسبيح من في السماوات والأرض لله تعالى على عظيم قدرته في إخراج يهود بني النضير من بلادهم من غير قتال. مع ما في ذلك من التذكير للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب والمنافقين.

---

(١) الجرجاني. "دلائل الإعجاز". ١٢٥. وينظر: محمد أبو موسى. "خصائص التراكيب". ٣٠٤-٣٠٥-٣٠٩-٣١٠.

(٢) ينظر: السعدي. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". ٨٤٨.

٣- أن تكون الجملة مبينة للجملة السابقة من قوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) لأن هذا التسخير العظيم من آثار عزته وحكمته.

وعلى كل الوجوه فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين، وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك، وتمهيد للمقصود من السورة وهو قسمة أموال بني النضير[١].

ومن مواضع مجيء ضمير الرفع المنفصل "هو" في سورة الحشر قوله تعالى: ﴿هو اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هو اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هو اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٤)﴾ الحشر"٢٢،٢٣،٢٤".

حيث جاءت ثلاث آيات متتاليات حافلة بالضمير (هو) في سبعة مواضع، عند قوله تعالى: (هو اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) وقوله (هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) وقوله (هو الله الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ) وقوله (هو اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّر) وقوله (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

والسياق الكريم تمجيد لله تعالى وثناء عليه حيث اشتملت الآيات الكريمة على كثير من أسماء الله الحسنى وصفاته العظيمة، فهو الله الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، عالم الغيب والشهادة. وهو رحمن الدنيا والآخرة، رحيم بأهل الإيمان به[٢].

ومحل ضمير الفصل (هو) في كل المواضع مسندا إليه فيما عدا ما جاء في قوله

(١) ينظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٢٨: ٦٥-٦٦.

(٢) ينظر: الطبري، "تفسير الطبري". ٢٣: ٣٠١-٣٠٢. ٣٠٤-٣٠٥.

تعالى (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُو)، حيث وقع بدلا من محل لا واسمها[١]. والمسند في المواضع هو لفظ الجلالة (الله)، وصفاته الحسنى المذكورة في الآيات تباعا[٢].

وفي ابتداء الآيات بضمير الرفع الغائب المنفصل (هو) والمؤكد بلفظ الجلالة بعده (الله) إشراقة لطيفة، إذ من المعلوم أن الأسلوب العربي لا يبتدأ فيه بالضمير ما لم يسبقه اسم ظاهر يدل عليه ويوضحه، غير أن الآية وردت على غير معهود العرب في هذا، ولعل السر في ذلك – والله أعلم – هو أن السياق سياق ألوهية ووحدانية، فالله – تعالى – حاضر في الأذهان والقلوب، وكل ما في هذا الكون يدل على ألوهيته، وكل هذا يفوق التصريح عنه باسم ظاهر، كما أن في التقديم بهذا الضمير تفخيماً من شأنه جل جلاله.

وقد تنوعت المعارف في التعريف بذات الله المستحق للتسبيح والتمجيد والثناء والتبجيل في الآيات الكريمة، حيث توالت الضمير (هو)، والاسم العلم (الله)، والاسم الموصول (الذي)، والتعريف بأل (في أسماء الله تعالى وصفاته).

وقد ذكر ابن عاشور أن مما أعطى السياق تأكيدا لألوهية الله وإثباتا لوحدانيته مجيء لفظ الجلالة (الله) بعد الضمير الغائب، وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير دون ذكر اسم الجلالة؛ لأن المقصود الإخبار عن الضمير بالذي لا إله إلا هو، وبما بعد ذلك من الصفات العلية، فالجمع بين الضمير وما يساوي معادة اعتبار بأن اسم الجلالة يجمع صفات الكمال لأن أصله الإله ومدلول الإله يقتضي جميع صفات الكمال[٣].

وفي سبق كلمة التوحيد (هو الله الذي لا إله إلا هو) بالضمير المنفصل (هو)،

(١) ينظر: درويش، "إعراب القرآن وبيانه". ١: ٣٨٢.

(٢) ينظر: السابق: ١٠: ٥٥.

(٣) ينظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٢٨: ١١٧ –١١٨– ١١٩.

وقفلها بالضمير المنفصل (هو) ما يؤكد حضور الذات الإلهية في الأذهان، وجميع ما في هذا الكون يدل على ذلك، وقد أكدت الألوهية في السياق الكريم بأكثر من مؤكد، يتجلى ذلك التأكيد في اسمية الجملة الدالة على الثبات، وبضمائر الرفع المنفصلة كما هو بين، وبالتصريح بالاسم الظاهر وبالاسم الموصول وما تتضمنه صلته التي اشتملت على أسلوب القصر المؤكد.

وقد تكررت الجملة نفسها مرة أخرى لإظهار مزيد العناية بشأن الألوهية، يقول أبو السعود: (كرر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد .... وهو البليغ في النزاهة عما يوجب نقصانا)(١)، ويقول ابن عاشور: (القول في ضمير هو كالقول في نظيره في الجملة الأولى .وهذا تكرير للاستئناف؛ لأن المقام مقام تعظيم، وهو من مقامات التكرير، وفيه اهتمام بصفة الوحدانية)(٢).

فلا يخفى أن في التكرار اعتناء بأمر التوحيد، فالله وحده الملك المتصرف بالأمر والنهي، أو المالك لجميع الأشياء، الذي له وحده حق التصرف فيها، أو الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويستحيل عليه الإذلال، وهو المتفرد بالخلق والسلطان(٣).

وفي نهاية الآية أعيد ذكر ضمير الغائب المنفصل (هو) في قوله تعالى: (هو الرحمن الرحيم)؛ لتأكيد الإخبار عنه تعالى بأنه الرحمن الرحيم، ويذكر ابن عاشور أن الضمير ضمير فصل يفيد قصر الرحمة على الله تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها. قال تعالى: (ورحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) الْأَعْرَاف :١٥٦(٤).

(١) ينظر: أبو السعود، " إرشاد العقل السليم". ٨: ٢٣٣.
(٢) ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٢٨: ١٢٠.
(٣) ينظر: الألوسي، "روح المعاني". ١٤: ٢٥٦.
(٤) ينظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٨: ١١٨– ١١٩.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن عاشور يقصد بـ(ضمير فصل) في تخريج الآية ضمير الرفع المنفصل وليس ضمير الفصل[1] الذي يفصل بين طرفي الإسناد المبتدأ والخبر.

وفي الموضع من قوله تعالى: (هو اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) أكد استحقاق الله تعالى للألوهية بتعريف طرفي الجملة (هو الله)، حيث أفاد قصر الألوهية على الله تعالى دون غيره، فهو وحده الخالق لجميع المخلوقات، وفي هذا ما يبطل ألوهية من يعجز عن الخلق، وهو وحده البارئ المنشئ والموجد، ومصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، ولم يشاركه فيه مشارك[2].

والمتمعن في بداية سورة الحشر ونهايتها يدرك تركز ضمير الفصل (هو)، فقد ورد تسع مرات في آيات متتالية، ولعل السبب في ذلك – والله تعالى أعلم – هو التناسب البديع بين السياق والمعاني التي تمثلها سورة الحشر، فالحدث الأكبر والأبرز في هذه السورة هو هزيمة بني النضير، وإجلاؤهم من ديارهم، حيث اعتاد البشر على أن مثل ذلك يتم من خلال العتاد والخيل والحروب وكل ما يستخدم في الحروب علانية، ولكن العجيب أن إجلاء بني النضير قد تم من غير ذلك، وإنما كان بسبب القدرة الإلهية الخفية، وهذا ما يتوافق مع التعريف بالضمير الغائب الذي من معانيه الخفاء والإبهام، وكذلك ما يتوافق مع وظيفة الضمير في غياب ما يعنيه ويمثله، على أن ظهور لفظ الجلالة بعد الضمير في قوله تعالى (هو الله) فيه رجوع وتأكيد لعظمة الله عز وجل التي لا تخفى على أحد، وهذا ما يتوافق مع الاسم الظاهر الذي يكون

(١) سبق الإشارة إلى تعريفه ومسمياته في المبحث الأول وسيأتي الكلام في مواضعه من آيات السورة الكريمة.

(٢) ينظر: محمد بن أحمد القرطبي. "الجامع لأحكام القرآن". تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. (الطبعة: الثانية، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م). ١٨: ٤٨؛ وابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٢٨: ١٢٣- ١٢٥.

صاحبه دائما حاضراً في الذهن .

٢– ضمير الفصل (هم)

ورد ضمير الفصل (هم) والمخصص لجماعة الذكور في سورة الحشر في أربعة مواضع، الأول: قول الله تعالى: ﴿للفقراء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الحشر "٨"، والثاني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر"٩"، والثالث قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الحشر"١٩"، والرابع: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ الحشر"٢٠".

وصف الله تعالى في الآية الأولى المهاجرين الفقراء من المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم فارين بدينهم، تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم بالصدق الخالص، حيثُ ظهرَ ذلكَ الصدق بما فعلوا ظهوراً بيناً، كل هذا رغبة فيما عند الله، ونصرة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فجاء المدح الذي يليق بتلك الأوصاف مذيلا به الآية الكريمة فهم الصادقون في كل أقوالهم وأفعالهم التي ذكرها الله تعالى(١).

وضمير الفصل في الآيات جاء مسندا إليه (هم)، وخبره (الصادقون، المفلحون، الفاسقون، الفائزون) وجملة ضمير الفصل مع خبره خبر لاسم الإشارة (أولئك)(٢)،

(١) ينظر: الطبري، "تفسير الطبري". ٢٣: ٢٨١؛ الزمخشري، "الكشاف". ٤: ٥٠٤؛ وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" ٨: ٢٢٨.

(٢) ينظر: درويش، "إعراب القرآن وبيانه". ١٠: ٤٤.

ويفيد ضمير الفصل في التركيب تخصيص وقصر المسند إليه على المسند؛ لأن معنى قولنا: زيد هو القائم – أن القيام مقصور على زيد لا يتجاوزه إلى عمرو كأنك جعلته من بين الأشخاص مختصا بالذكر؛ أي: منفردا به، والمعنى – هاهنا – جعل المسند إليه من بين ما يصح اتصافه بكونه مسندا إليه مختصا بأن يثبت له المسند(١). ويذكر العلوي أن تعريف الخبر باللام لمقاصد لعل من أولها أن تقصد المبالغة في الخبر، فتقصر جنس معناه على المخبر عنه، ففي قولنا: زيد هو الجواد وعمرو هو الشجاع تريد بذلك أنه هو المختص بالجود والشجاعة دون غيره(٢).

وفي إشارة الله تعالى إليهم باسم الإشارة البعيد في الآية (أولئك هم الصادقون)؛ للدلالة على رفعة منزلتهم عن غيرهم، ثم أعقب ذلك بالضمير (هم) ليعرف بهم، وليبين أنهم قد أخذوا الكمال في الأخلاق الفاضلة دون غيرهم؛ لما كانوا عليه من الأوصاف المذكورة لهم في الآية، يقول البقاعي (أولئك: أي العالي الرتبة في الأخلاق الفاضلة، هم أي: خاصة لا غيرهم، الصادقون: العريقون في هذا الوصف لأن مهاجرتهم لما ذكر، وتركهم لما وصف دل على كمال صدقهم فيما ادعوه من الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم)(٣).

ويوظف ابن عاشور هذا المعنى في تخريج الآية الكريمة، حيث يبين أن تعريف طرفي الجملة بالضمير (هم) وأل التعريف في (الصادقون) قد أفاد القصر، وهو عنده قصر ادعائي؛ للمبالغة في وصفهم بالصدق الكامل كأن صدق غيرهم ليس صدقا مقارنة بصدقهم(٤).

(١) ينظر: الدسوقي. "حاشية الدسوقي على التفتازاني". ١: ٦٢٢-٦٢٣.
(٢) ينظر: العلوي. "الطراز". ٢: ١٣.
(٣) البقاعي. "نظم الدرر". ١٩: ٤٣٦-٤٣٧.
(٤) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٢٨: ٨٩.

أما في الآية الثانية فالسياق ثناء ومدح للأنصار، وهم أهل المدينة، فيثني الله – تعالى ذكره – عليهم كما أثنى على إخوانهم المهاجرين في الآية السابقة، فيبين فضلهم ومنزلتهم، حيث وهبوا إخوانهم المهاجرين من مساكنهم وأموالهم لوجه الله تعالى مع حاجتهم لذلك، فكان جزاؤهم أن الله قد أشار إلى منزلتهم العالية وأنهم أهل الصلاح والفلاح(١). وضمير الفصل (هم) في الآية قد جاء مسندا إليه خبره قوله (المفلحون)(٢).

والقول في هذه الآية كالقول في سابقتها بأن التعريف في طرفي الجملة (هم المفلحون) قد أفاد القصر المكتسب من الضمير (هم) وأل التعريف في (المفلحون)، فالفلاح وصف ثابت مقصور على الأنصار؛ نتيجة لما قدموه وبذلوه لإخوانهم المهاجرين.

واسم الإشارة لتعظيمهم. والقصر بضمير الفصل للمبالغة بكثرة الفلاح الذي يترتب على وقاية شح النفس حتى كأن جنس المفلح مقصور على ذلك الموقى(٣).

وقد آثر النظم القرآني التعبير عن جواب الشرط (فأولئك هم المفلحون) بضمير الجمع المنفصل (هم) لفعل الشرط المفرد (ومن يوق شح نفسه) في سياق الحديث عن جماعة المؤمنين – المهاجرين والأنصار –، وتعداد صفاتهم في الآية الكريمة، ولعل النكتة البلاغية في ذلك هي الإيحاء بأن المؤمنين يأنسون بإخوانهم، كما أن في الجمع

(١) ينظر: الطبري. "تفسير الطبري". ٢٣: ٢٨٢؛ والقرطبي. "الجامع لأحكام القرآن". ١٨: ٢١ – ٢٠؛ وإسماعيل بن عمر بن كثير. "تفسير ابن كثير". المحقق: محمد حسين شمس الدين. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ١٤١٩هـ). ٨: ٩٨.

(٢) ينظر: درويش. "إعراب القرآن وبيانه". ١٠: ٤٥.

(٣) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٢٨: ٩٥.

تجسيدا لروح الجماعة والُّلحمة والترابط بين المؤمنين، فهم إخوة كالبنيان المرصوص، إضافة إلى الإشارة إلى تمكن الوصف فيهم جزاء ما قدموه لإخوانهم رغم حاجتهم(١).

وفي الآية الثالثة ينهى الله عباده المؤمنين من سلوك مسلك الذين نسوا الله، وخرجوا من طاعة الله إلى معصيته، الكاملون في الفسوق، فالفاسقون هم الآتون بفواحش السيئات ومساوئ الأعمال وأعظمها الإشراك(٢)، وقد جاء ضمير الفصل (هم) في الآية مسندا إليه خبره (الفاسقون)(٣).

وقد أفاد تعريف الطرفين (هم الفاسقون) في الآية القصر قصرا ادعائيا عن طريق الضمير (هم) وأل التعريف في (الفاسقون)؛ للمبالغة في وصفهم بشدة الفسق حتى كأن فسق غيرهم ليس بفسق في جانب فسقهم .واسم الإشارة للتشهير بهم بهذا الوصف، وقد أفادت اسمية الجملة، وصيغة اسم الفاعل في الوصف معنى ثبات تلك الصفة فيهم، فهم قد بلغوا بسبب ذلك منتهى الفسق في الأعمال السيئة حتى حق عليهم أن يقال: إنّه لا فسق بعد فسقهم(٤).

والآية الرابعة التي ورد فيها الضمير (هم) كانت تنبيها من الله للناس، وإيذانا لهم بأنهم بسبب غفلتهم، وقلة فكرهم في العاقبة، وإيثارهم للدنيا الفانية، واتباع الشهوات لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار، ولا بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وأن الفوز

(١) ينظر: د. محمد الأمين الخضري. "الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن". (ط١، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م). ٣٣.

(٢) ينظر: الطبري. "تفسير الطبري". ٢٣: ٣٠٠؛ وأبو السعود، "تفسير أبي السعود". ٨: ٢٣٣؛ وابن عاشور، "التحرير والتنوير". ٢٨: ١٠١-١٠٢ -١٠٣.

(٣) ينظر: درويش. "إعراب القرآن وبيانه". ١٠: ٥٤.

(٤) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٢٨: ١١٤.

والفلاح لأصحاب الجنة، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه[١]. وضمير الفصل في الموضع الكريم مسند إليه خبره (الفائزون)[٢].

وقد أفاد تعريف الطرفين (هم الفائزون) القصر قصرا ادعائيا لأن فوزهم أبدي، ففوز غيرهم ببعض أمور الدنيا لا اعتبار له[٣].

وقد وقع الفصل بين جملة الإسناد عمّا قبلها للاستئناف في ثلاثة مواضع منها (أولئك هم الصادقون)، (أولئك هم الفاسقون)، (أولئك هم الفائزون)، وهذا الاستئناف لإثبات مضمون ما قبلها، وأما قوله تعالى (فأولئك هم المفلحون) فقد وقعت جوابا للشرط، وارتباط جواب الشرط (الجملة الاسمية) بالفاء لتأكيد تحقق الجزاء بتحقق الشرط.

٣– ضمير الرفع المخاطب (أنتم)

جاء ضمير الرفع المنفصل للمخاطب (أنتم) مرة واحدة في سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحشر"١٣"، في سياق حديث الله تعالى مخاطبا المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مخبرا إياهم عن شدة بأسهم وقوتهم، والمعنى: فأنتم أيها المؤمنون أشدّ رهبة في صدور اليهود من بني النضير من الله، إذ هم يرهبونكم أشدّ من رهبتهم من الله، أعقب ذلك بإعلام المؤمنين بأن المنافقين وأحلافهم يخشون المسلمين خشية شديدة وصف شدتها بأنها أشد من خشيتهم الله تعالى، فإن خشية جميع الخلق من الله أعظم خشية، فإذا بلغت الخشية في قلب أحد أن تكون أعظم من خشية الله

(١) ينظر: الزمخشري. "الكشاف". ٤: ٥٠٨؛ وأبو السعود، "تفسير أبي السعود". ٨: ٢٣٣.
(٢) ينظر: درويش. "إعراب القرآن وبيانه". ١٠: ٥٤.
(٣) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٢٨: ١١٥.

فذلك منتهى الخشية. والمقصود تشديد نفوس المسلمين ليعلموا أن عدوهم يهابهم، وذلك مما يزيد المسلمين إقداما في محاربتهم، إذ ليس سياق الكلام الإخبار عن قلة رهبة المنافقين واليهود من الله، بل إعلام المسلمين بأن المنافقين قد بلغوا أشد أنواع الرهبة منهم(١).

وموقع الضمير المنفصل (أنتم) مسند إليه، ومسنده اسم التفضيل (أشد)(٢). وضمير الخطاب المنفصل عائد على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، والأصل أن يقال: لرهبتهم منكم في صدورهم أشد من رهبتهم من الله، وفائدة ذلك؛ للاهتمام به، فأسند النسق القرآني شدة الرهبة من ذوات المسلمين أنفسهم توقعا لبطشهم، وهذا التركيب القرآني مقصود؛ لبث الطمأنينة في نفوس المؤمنين، ولحاجتهم لمثل هذا التطمين في مثل هذا الموقف، يقول ابن عاشور: وإسناد أشد إلى ضمير المسلمين المخاطبين إسناد سببي بمعنى: لرهبتكم في صدورهم أشد من رهبة فيها(٣).

ومما زاد من تأكيد مضمون الجملة مجيء ضمير الرفع المنفصل مرتبطا بلام الابتداء، وبوصف الرهبة باسم التفضيل (أشد) فالرهبة والخوف قد تملكت قلوب المنافقين من المؤمنين، وفي خطاب الله تعالى للمؤمنين بالضمير تفخيم وتعظيم من شأن هيبة المؤمنين في صدور المنافقين.

(١) ينظر: الطبري. "تفسير الطبري". ٢٣: ٢٩١؛ وابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٢٨: ١٠٢.
(٢) ينظر: درويش. "إعراب القرآن وبيانه". ١٠: ٥١.
(٣) ينظر: ابن عاشور. "التحرير والتنوير". ٢٨: ١٠١-١٠٢.

الخاتمة والنتائج

بعد الوقوف على الأسرار البلاغية لتوظيف ضمائر الرفع المنفصلة بأنواعها في تجلية مقاصد سورة الحشر، أرصد بعض النتائج التي توصل إليها البحث، ومنها:

١- تنوع ضمائر الرفع المنفصلة في سورة الحشر، حيث ورد منها الضمير الغائب المفرد "هو"، وضمير الغائب الجمع "هم"، وضمير المخاطب الجمع "أنتم"، وكان هذا التنوع يستدعيه السياق ويتوافق معه.

٢- ورد ضمير الرفع المفرد المنفصل " هو" في مفتتح سورة الحشر وخاتمتها؛ لاقتضاء السياق في الموضعين إثبات الوحدانية لله – تعالى –، واستحقاقه للألوهية دون غيره، وهذا الإثبات بالتفرد يتناسب مع ضمير المفرد.

٣- حين كان السياق حديثاً عن جماعة المؤمنين – المهاجرين والأنصار –، وصفاتهم التي عددها الله في السورة آثر النظم القرآني التعبير عن جواب الشرط لفعل الشرط المفرد (ومن يوق شح نفسه) بضمير الجمع المنفصل "هم الفائزون"، ولعل في ذلك إيحاء بأن المؤمنين يأنسون بإخوانهم، كما أن في الجمع تجسيدا لروح الجماعة واللُّحمة والترابط بين المؤمنين، فهم إخوة كالبنيان المرصوص، إضافة إلى الإشارة إلى تمكن الوصف فيهم جزاء ما قدموه لإخوانهم رغم حاجتهم.

٤- ابتدأت السورة الكريمة وختمت بالضمير الغائب المفرد في تسعة مواضع، ولعل السبب في ذلك – والله تعالى أعلم – يعود إلى التناسب البديع بين السياق والمعاني التي تمثلها سورة الحشر، فالحدث الأكبر والأبرز في هذه السورة هو هزيمة بني النضير، وإجلاؤهم من ديارهم، ولكن العجيب أنّ هذا الإجلاء كان قدرة إلاهية خفية، وهذا ما يتوافق مع التعريف بالضمير الغائب الذي من معانيه الخفاء والإبهام.

٥- استخدمت السورة الضمير المنفصل "أنتم" مع المؤمنين للدلالة - والله تعالى أعلم - على التفخيم من شأن المؤمنين، وتعظيم هيبتهم في نفوس المنافقين.

التوصيات:

١- توصي الباحثة بسبر أغوار النص القرآني وتوجيه العناية بالدراسات البلاغية للقرآن الكريم، فالقرآن هو المعجزة الخالدة التي لا تنقضي عجائبه وأفانينه على مر العصور.

٢- العناية التامة بالبحث في بلاغة القرآن الكريم وتوجيه نصوصه بعين الباحث الحذر أثناء البحث، فبعض كتب التفسير تتناول النص القرآني بما يخدم أفكار مؤلفيها، وقد لا يبدو ذلك بصورة جلية وواضحة للباحثين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الألوسي، محمود بن عبد الله الحسيني. "تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني". المحقق: علي عبد الباري عطية. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).

البقاعي، إبراهيم بن عمر. "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي).

التفتازاني، سعد الدين. "المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم". تحقيق: عبد الحميد هنداوي. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م).

التهانوي، محمد بن علي. "كشاف اصطلاحات العلوم والفنون". تحقيق: علي دحروج. (ط١، مكتبة لبنان).

الجرجاني عبد القاهر. "دلائل الإعجاز". صححه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م).

الجناجي، حسن بن إسماعيل. "النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق". (الطبعة: الأولى، القاهرة – مصر: دار الطباعة المحمدية، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م).

حسن، عباس. "النحو الوافي". (الطبعة الخامسة عشرة، دار المعارف).

حسين، د. سالم خليفة. "ضمير الفصل والشأن في الجملة العربية". مجلة الجامعة الأسمرية، المجلد ٢١، يونيو ٢٠١٤.

أبو حيان الأندلسي. "ارتشاف الضرب من لسان العرب". تحقيق: مصطفى أحمد النماس. (ط١، ١٩٨٩م).

الخضري، د. محمد الأمين. "الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن". (ط١، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، ١٤١٣هـ –

١٩٩٣م).

درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى. "إعراب القرآن وبيانه". (الطبعة: الرابعة، حمص – سورية: دار الإرشاد للشئون الجامعية، – دمشق – بيروت: دار اليمامة، دمشق – بيروت: دار ابن كثير، ١٤١٢هـ).

الدسوقي، محمد بن عرفة. "حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني". المحقق: عبد الحميد هنداوي. (بيروت: المكتبة العصرية).

ابن الدمينة. "ديوان ابن الدمينة". تحقيق: أحمد راتب النفاخ. (القاهرة: مكتبة دار العروبة، ١٩٦٠م).

الرضي، أبو الحسن رضي الدين محمد. "شرح كافية ابن الحاجب". تحقيق: أحمد السيد أحمدن. (القاهرة: المكتبة التوفيقية).

الزركشي، بدر الدين. "البرهان في علوم القرآن". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (ط ٢، بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٢م).

الزمخشري، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد. (الطبعة: الثالثة، القاهرة: دار الريان للتراث — بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م).

الزملكاني، كمال الدين. "البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن". تحقيق: خديجة الحديثي وأحمد مطلوب. (ط١، بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٤م).

السامرائي، د. فاضل صالح. "معاني النحو". (الطبعة: الأولى، الأردن: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م).

السبكي، بهاء الدين. "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح". المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي. (الطبعة: الأولى، بيروت — لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م).

السريح، فايز. "معالم السور". (الرياض: دار الحضارة، ٢٠٢١م).
السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. (الطبعة: الأولى، مؤسسة الرسالة).
أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى. "تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي. "مفتاح العلوم". ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور. (الطبعة: الثانية، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر. "الكتاب". تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م).
السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "الدر المنثور في التفسير بالمأثور". (بيروت: دار الفكر).
السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "معترك الأقران". ضبطه وصححه أحمد شمس الدين. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م).
السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "همع الهوامع في شرح جمع الجوامع". المحقق: عبد الحميد هنداوي. (مصر: المكتبة التوفيقية).
شرف الدين، جعفر. "الموسوعة القرآنية، خصائص السور". المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٤٢٠هـ).
صافي، محمود. "الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، مع فوائد نحوية هامة". (الطبعة: الثالثة، دمشق: دار الرشيد – بيروت: مؤسسة الإيمان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).

الطبري، محمد بن جرير. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر – د عبد السند حسن يمامة. (الطبعة: الأولى، القاهرة — مصر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م).

الطيبي، شرف الدين. "التبيان في علم المعاني والبديع والبيان". تحقيق: كهادي عطية مطر الهلالي. (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٧م).

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد". (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ).

العثيمين، محمد بن صالح بن محمد. "فتاوى نور على الدرب".

العثيمين، محمد بن صالح بن محمد. "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى". (الطبعة: الثالثة، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

ابن عربشاه، إبراهيم بن محمد. "الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم". حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي. (بيروت — لبنان: دار الكتب العلمية، ١/٢١-٢٢).

العلويّ، يحيى بن حمزة. "الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز". (الطبعة الأولى، بيروت: المكتبة العنصرية، ١٤٢٣هـ).

الفراهيدي، الخليل بن أحمد. "الجمل في النحو". المحقق: د. فخر الدين قباوة. (الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م).

الفيروزآبادى، محمد بن يعقوب. "القاموس المحيط". تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. (الطبعة: الثامنة، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م).

فيود، بسيوني. "علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني". (ط٢، القاهرة:

مؤسسة المختار، ٢٠٠٤م).

القرطبي، محمد بن أحمد. "الجامع لأحكام القرآن". تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. (الطبعة: الثانية، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م).

القزويني، جلال الدين. "الإيضاح في علوم البلاغة". المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي. (الطبعة: الثالثة، بيروت: دار الجيل).

القشيري، مسلم بن الحجاج. "صحيح مسلم". (القاهرة: دار ابن الهيثم، ٢٠٠١م).

الكوراني، أحمد بن إسماعيل. "الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري". المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية. (الطبعة: الأولى، بيروت — لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. "تفسير ابن كثير". المحقق: محمد حسين شمس الدين. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ١٤١٩هـ).

اللبدي، د. محمد سمير نجيب. "معجم المصطلحات النحوية والصرفية". (ط١، الأردن: دار الفرقان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

ابن مالك، محمد بن عبد الله. "شرح التسهيل". تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون. (ط١، مصر: هجر للطباعة والنشر،١٩٩٠م).

المبرد، محمد بن يزيد. "المقتضب". تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة. (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٦٦).

المتنبي، أحمد الطيب. "ديوان أبي الطيب المتنبي". أبو ظبي: دار الكتب الوطنية،٢٠١٢م). ٣٥٣.

المرادي، حسن بن علي. "توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك". تحقيق:

عبد الرحمن علي سليمان. (ط١، دار الفكر العربي).

مطلوب، د. أحمد. "معجم المصطلحات البلاغية". (ط١، لبنان: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م).

ابن منظور، محمد بن مكرم. "لسان العرب". (الطبعة: الثالثة، دار صادر، بيروت، – ١٤١٤هـ).

ناجي، مجيد عبد الحميد. "الأسس النفسية للأساليب البلاغية". (ط٤، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١١٩٨م).

الهاشمي، أحمد. "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع". تحقيق وشرح: محمد التونجي. (ط٢، بيروت: مؤسسة المعارف، ٢٠٠٤م).

ابن هشام الأنصاري، عبد الله بن يوسف. "شرح شذور الذهب". تحقيق: حنا الفاخوري. (ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨م).

ابن يعيش، يعيش بن علي. "شرح المفصل للزمخشري". قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب. (الطبعة: الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م).

Bibliography

The Noble Quran.

al-Alūsī, Maḥmūd ibn ʻAbdullāh al-Ḥusainī. "Rūḥ al-Maʻānī fī Tafsīr al-Qur'ān al-ʻAẓīm wa-al-Sabʻ al-Mathānī". Investigated by: ʻAlī ʻAbd al-Bārī ʻAṭīyah. (1st ed., Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1415 AH).

al-Biqāʻī, Ibrāhīm ibn ʻUmar. "Naẓm al-Durar fī Tanāsub al-Āyāt wa-al-Suwar". (Cairo: Dār al-Kitāb al-Islāmī).

al-Taftāzānī, Saʻd al-Dīn. "al-Muṭawwal Sharḥ Talkhīṣ Miftāḥ al-ʻUlūm". Investigated by: ʻAbd-al-Ḥamīd Hindāwī. (1st ed., Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 2001).

al-Tahānawī, Muḥammad ibn ʻAlī. "Kashāf Iṣṭilāḥāt al-ʻUlūm wa-al-Funūn". Investigated by: ʻAlī Daḥrūj. (1st ed., Maktabat Lubnān).

al-Jurjānī ʻAbd al-Qāhir. "Dalā'il al-Iʻjāz". Verified and commented on its footnotes: Muḥammad Rashīd Riḍā. (1st ed., Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1988).

al-Janājī, Ḥasan ibn Ismāʻīl. "al-Nuẓum al-Balāghī baina al-Naẓarīyah wa-al-Taṭbīq". (1st ed., Cairo – Egypt: Dār al-Ṭibāʻah al-Muḥammadīyah, 1403 AH-1983).

Ḥasan, ʻAbbās. "al-Naḥw al-Wāfī". (15th ed., Dār al-Maʻārif).

Ḥusain, Dr. Sālim Khalīfah. "Damīr al-Faṣl wa-al-Sha'n fī al-Jumlah al-ʻArabīyah". *Journal of Alasmarya University*, volume 21, June 2014.

Abū Ḥayyān al-Andalusī. "Irtishāf al-Ḍarb min Lisān al-ʻArab". Investigated by: Muṣṭafá Aḥmad alnmās. (1st ed., 1989).

al-Khuḍarī, Dr. Muḥammad al-Amīn. "al-Iʻjāz al-Bayānī fī Siyagh al-Alfāẓ Dirāsah Taḥlīlīyah lil-Afrād wa-al-Jamʻ fī al-Qur'ān". (1st ed., Cairo: Maṭbaʻat al-Ḥusain al-Islāmīyah, 1413 AH - 1993).

Darwīsh, Muḥyī al-Dīn ibn Aḥmad Muṣṭafá. "Iʻrāb al-Qur'ān wa-Bayānih". (4th ed., Homs - Syria: Dār al-Irshād lil-Shu'ūn al-Jāmiʻīyah, - Damascus – Beirut: Dār al-Yamāmah, Damascus – Beirut: Dār Ibn Kathīr, 1412 AH).

al-Dasūqī, Muḥammad ibn ʻArafah. "Ḥāshiyat al-Dasūqī ʻalá Mukhtaṣar al-Maʻānī li-Saʻd al-Dīn al-Taftāzānī". Investigated by: ʻAbd al-Ḥamīd Hindāwī. (Beirut: al-Maktabah al-ʻAṣrīyah).

Ibn al-Dumaynah. "Dīwān Ibn al-Dumaynah". Investigated by: Aḥmad Rātib al-Naffākh. (Cairo: Maktabat Dār al-ʻUrūbah, 1960).

al-Raḍī, Abū al-Ḥasan Raḍī al-Dīn Muḥammad. "Sharḥ Kāfiyah Ibn al-Ḥājib". Investigated by: Aḥmad al-Sayyid Aḥmadan. (Cairo: al-Maktabah al-Tawfīqīyah).

al-Zarkashī, Badr al-Dīn. "al-Burhān fī ʻUlūm al-Qur'ān". Investigated by: Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm. (2nd ed., Beirut: al-Maktabah al-ʻAṣrīyah, 1972).
al-Zamakhsharī, "al-Kashshāf ʻan Ḥaqā'iq Ghawāmiḍ al-Tanzīl wa-ʻUyūn al-Aqāwīl fī Wujūh al-Ta'wīl". Revised, commentary and arranged by: Muṣṭafá Ḥusain Aḥmad. (3rd ed., Cairo: Dār al-Rayyān – Beirut: Dār al-Kitāb al-ʻArabī, 1407 AH - 1987).
al-Zamalkānī, Kamāl al-Dīn. "al-Burhān al-Kāshif ʻan Iʻjāz al-Qur'ān". Investigated by: Khadījah al-Ḥadīthī and Aḥmad Maṭlūb. (1st ed., Baghdad: Maṭbaʻat al-ʻĀnī, 1974).
al-Sāmurrā'ī, Dr. Fāḍil Ṣāleḥ. "Maʻānī al-Naḥw". (1st ed., Jordan: Dār al-Fikr, 1420 AH - 2000).
al-Subkī, Bahā' al-Dīn. "ʻArūs al-Afrāḥ fī Sharḥ Talkhīṣ al-Miftāḥ". Investigated by: Dr. ʻAbd al-Ḥamīd Hindāwī. (1st ed., Beirut – Lebanon: al-Maktabah al-ʻAṣrīyah, 1423AH -2003).
Al-Sariḥ, Fāyiz. "Maʻālim al-Suwar". (Riyadh: Dār al-Ḥaḍārah, 2021).
al-Saʻdī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Nāṣir. "Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī Tafsīr Kalām al-Mannān". Investigated by: ʻAbd al-Raḥmān ibn Muʻallā al-Luwayḥiq. (1st ed., al-Risālah foundation).
Abū al-Saʻūd, Muḥammad ibn Muḥammad ibn Muṣṭafá. "Tafsīr Abī al-Saʻūd = Irshād al-ʻAql al-Salīm ilá Mazāyā al-Kitāb al-Karīm". (Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī).
al-Suyūṭī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr. "al-Durr al-Manthūr fī al-Tafsīr be-al-Ma'thūr". (Beirut: Dār al-Fikr).
al-Sakkākī, Yūsuf ibn Abī Bakr ibn Muḥammad ibn ʻAlī. "Miftāḥ al-ʻUlūm". Reviewed and written its footnes: Naʻīm Zarzūr. (2nd ed., Beirut – Lebanon: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1407 AH-1987).
Sībawayh, ʻAmr ibn ʻUthmān ibn Qanbur. "al-Kitāb". Investigated by: ʻAbd al-Salām Muḥammad Hārūn. (1st ed., Beirut: Dār al-Jīl, 1991).
al-Suyūṭī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr. "al-Durr al-Manthūr fī al-Tafsīr be-al-Ma'thūr". (Beirut: Dār al-Fikr).
al-Suyūṭī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr. "Muʻtarak al-Aqrān". Reviewed and verified by: Aḥmad Shams al-Dīn. (1st ed., Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1988).
al-Suyūṭī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr. "Hamʻ al-Hawāmiʻ fī Sharḥ Jamʻ al-Jawāmiʻ". Investigated by: ʻAbd al-Ḥamīd Hindāwī. (Egypt: al-Maktabah al-Tawfīqīyah).
Sharaf al-Dīn, Jaʻfar. "al-Mawsūʻah al-Qur'ānīyah, Khaṣā'iṣ al-Suwar". Investigated by: ʻAbd al-ʻAzīz ibn ʻUthmān al-Tuwaijizy.

(1st ed., Beirut: Dār al-Taqrīb Bayna al-Madhāhib al-Islāmīyah, 1420 AH).

Ṣāfī, Maḥmūd. "al-Jadwal fī I'rāb al-Qur'ān wa-Ṣarfihi wa-Bayānihi, ma'a Fawā'id Naḥwīyah Hāmmah". (3rd ed., Damascus: Dār al-Rashīd – Beirut: Mu'assasat al-Īmān, 1416 AH-1995).

al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. "Jāmi' al-Bayān 'an Ta'wīl āyi al-Qur'ān". Investigated by: Dr. 'Abdullāh ibn 'Abd al-Muḥsin al-Turkī, In cooperation with: Center for Islamic Research and Studies at Dār Hijr - Dr 'Abd al-Sanad Ḥasan Yamāmah. (1st ed., Cairo – Egypt: Dār Hijr, 1422 AH - 2001).

al-Ṭayibī, Sharaf al-Dīn. "al-Tibyān fī 'Ilm al-Ma'ānī wa-al-Badī' wa-al-Bayān". Investigated by: Kahādy 'Aṭīyah Maṭar al-Hilālī. (Beirut: 'Ālam al-Kutub, 1987).

Ibn 'Āshūr, Muḥammad al-Ṭāhir ibn Muḥammad. "al-Taḥrīr wa-al-tanwīr ". (Tunis: al-Dār al-Tūnisīyah, 1984 AH).

al-'Uthaymīn, Muḥammad ibn Ṣāliḥ ibn Muḥammad. "Fatāwá Nūr 'alá al-Darb".

al-'Uthaymīn, Muḥammad ibn Ṣāliḥ ibn Muḥammad. "al-Qawā'id al-Muthlá fī Ṣifāt Allāh wa-Asmā'ihi al-Ḥusná". (3rd ed., al-Madīnah al-Munawwarah: Islanic University, 1421 AH / 2001).

Ibn 'Arabshāh, Ibrāhīm ibn Muḥammad. "al-Aṭwal Sharḥ Talkhīṣ Miftāḥ al-'Ulūm". Investigated and commented by: 'Abd al-Ḥamīd Hindāwī. (Beirut – Lebanon: Dār al-Kutub al-'Ilmīyah).

Al-'Alawī, Yaḥyá ibn Ḥamzah. "al-Ṭirāz li-Asrār al-Balāghah wa-'Ulūm Ḥaqā'iq al-I'jāz". (1st ed., Beirut: al-Maktabah al-'Unṣurīyah, 1423 AH).

Al-Fairūzābādī, Muḥammad ibn Ya'qūb. "al-Qāmūs al-Muḥīṭ". Investigated by: Heritage Investigation Office at Al-Resala Foundation. (8th ed., Beirut : Al Resala Foundation, 1426 AH - 2005).

Fayyoud, Basyūnī. "'Ilm al-Ma'ānī Dirāsah Balāghīyah wa-Naqdīyah li-Masā'il al-Ma'ānī". (2nd ed., Cairo: Mu'assasat al-Mukhtār, 2004).

al-Qurṭubī, Muḥammad ibn Aḥmad. "al-Jāmi' li-Aḥkām al-Qur'ān". Investigated by: Aḥmad al-Baraddūnī and Ibrāhīm Aṭṭfish. (2nd ed., Cairo: Dār al-Kutub al-Miṣrīyah, 1384 AH - 1964).

al-Qazwīnī, Jalāl al-Dīn. "al-Īḍāḥ fī 'Ulūm al-Balāghah". Investigated by: Muḥammad 'Abd al-Mun'im Khafājī. (3rd ed., Beirut: Dār al-Jīl).

al-Qushairī, Muslim ibn al-Ḥajjāj. "Ṣaḥīḥ Muslim". (Cairo: Dār Ibn al-Haytham, 2001).

al-Kūrānī, Aḥmad ibn Ismā‘īl. "al-Kawthar al-Jārī ilá Riyāḍ Aḥādīth al-Bukhārī". Investigated by: al-Shaykh Aḥmad ‘Izzū ‘Ināyat. (1st ed., Beirut – Lebanon: Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, 1429 AH-2008).

Ibn Kathīr, Ismā‘īl ibn ‘Umar. "Tafsīr Ibn Kathīr". Investigated by: Muḥammad Ḥusayn Shams al-Dīn. (1st ed., Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Muḥammad ‘Alī Bayḍūn’s publications, 1419 AH).

al-Labadī, Dr. Muḥammad Samīr Najīb. "Mu‘jam al-Muṣṭalaḥāt al-Naḥwīyah wa-al-Ṣarfīyah". (1st ed., Jordan: Dār al-Furqān, 1405 AH-1985).

Ibn Mālik, Muḥammad ibn ‘Abdillāh. "Sharḥ al-Tas′hīl". Investigated by: ‘Abd-al-Raḥmān al-Sayyid and Muḥammad Badawī al-Makhtūn. (1st ed., Egypt: Dār Hajar, 1990).

al-Mubarrid, Muḥammad ibn Yazīd. "al-Muqtaḍab". Investigated by: Muḥammad ‘Abdal-Khāliq ‘Uḍaymah. (Cairo: Supreme Council for Islamic Affairs, 1966).

al-Murādī, Ḥasan ibn ‘Alī. "Tawḍīḥ al-Maqāṣid wa-al-Masālik be-Sharḥ Alfīyat Ibn Mālik". Investigated by: ‘Abd-al-Raḥmān ‘Alī Sulaymān. (1st ed., Dār al-Fikr al-‘Arabī).

Maṭlūb, Dr. Aḥmad. "Mu‘jam al-Muṣṭalaḥāt al-Balāghīyah". (1st ed., Lebanon: al-Dār al-‘Arabīyah lil-Mawsū‘āt, 1427 AH - 2006).

Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram. "Lisān al-‘Arab". (3rd ed., Dār Ṣādir, Beirut, - 1414 AH).

Nājī, Majīd ‘Abd-al-Ḥamīd. "al-Usus al-Nafsīyah lil-Asālīb al-Balāghīyah". (4th ed., Beirut: University Foundation for Studies and Publishing, 1198).

Ibn Hishām al-Anṣārī, ʿAbdullāh ibn Yūsuf. "Sharḥ Shudhūr al-Dhahab". Investigated by: Ḥannā al-Fākhūrī. (1st ed., Beirut: Dār al-Jīl, 1988).

Ibn Ya‘īsh, Ya‘īsh ibn ‘Alī. "Sharḥ al-Mufaṣṣal li-al-Zamakhsharī". Introduction by: Dr. Imīl Badī‘ Ya‘qūb. (1st ed., Beirut : Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, 1422 AH - 2001).

خطاب المرأة المسلمة في الحديث النبوي في ضوء إستراتيجيات الخطاب

The Discourse of Muslim Women in the Prophet's Hadith in light of Discourse Strategies

د. علاء دسوقي أحمد علي

أستاذ النحو والصرف والعروض المشارك بقسم اللغة العربية بكلية الآداب والفنون بجامعة حائل

البريد الإلكتروني: dr.desouky73@hotmail.com

ملخص البحث:

جاء هذا البحث ليبين للقارئ الخطاب النبوي للمرأة المسلمة في ضوء إستراتيجيات الخطاب، وقد كان هدفه الرئيس بيان تنوع الأساليب المتبعة في ذلك، مع إبراز معاني الرحمة النبوية في هذا الخطاب، وقد اتبع منهجا وصفيا؛ حيث عرَّف – أولا – بمفردات هذا العنوان، ثم عرَّج – ثانيا – على أهم إستراتيجيات الخطاب، وعرض – ثالثا – لشواهد من الحديث النبوي تندرج تحتها. ثم جاءت الخاتمة متضمنة نتائج البحث، التي من أهمها: أن الخطاب النبوي للمرأة المسلمة قد اختار من الأساليب أحسنها، وأنسبها، وقد تنوعت أساليبه وتعددت وفقا لسياقها، ومراعاة للحال الواردة فيه، كما اعتمد الخطاب النبوي في بعض حالاته على التلميح بدل التصريح، وعلى الإشارة بدل العبارة، وعلى التشبيه والكناية والتعريض بالعبارة مكان التصريح المباشر والدلالة الظاهرة، كما كان يعرض حججه مستندا على بلاغة عالية، وحجج ساطعة، ومناظرة عقلية قوية.

الكلمات المفتاحية: الحديث النبوي – إستراتيجيات الخطاب – المرأة المسلمة.

Abstract

This research shows the reader the types of prophetic speech to Muslim women in light of discourse strategies and the diversity of methods employed in that regard, while highlighting the meanings of prophetic mercy in that discourse.

The author followed a descriptive approach; where he first defined the vocabulary of this title, then, the most important strategies of speech and thirdly, the evidence from the Prophet's hadith that falls under it.

The conclusion: mentioning the most important findings of the study, which included:

The Prophet's speech to Muslim women chose the best and most appropriate approach.

The methods of discourse have varied according to their context and taking into account the situation contained therein.

In some cases, the prophetic discourse relied on hinting instead of declaring, indicating instead of stating, on simile, metonymy, and exposure instead of direct statement and apparent meaning.

He also presented his arguments based on high eloquence, clear arguments, and strong rational evidence.

Keywords: Prophetic Hadith - Discourse strategies - Muslim women.

توطئة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ثم أما بعد، فقد جاء هذا البحث ليجلي الخطاب النبوي للمرأة المسلمة في ضوء إستراتيجيات الخطاب.

إذا كانت "الإستراتيجية" معناها: إتباع طريقة توصيل الفهم إلى المخاطب، بأقصر طريق وأفضله، وأنجع وسيلة وأحسنها"، فلا شك أن الحديث النبوي فيه مراعاة لهذا الجانب بغية الوصول إلى الهدف المطلوب، وهو الإفادة والإبلاغ؛ وفيه – كذلك – مراعاة لحال المخاطَب، سواء أكان ذكرا أم أنثى، صغيرا أم كبيرا، قريبا أم بعيدا؛ لأن الخطاب في بعض مراحله يحتاج إلى الانتقال من إستراتيجية إلى أخرى، مراعاة للمقام وللعلاقات التخاطبية.

وفي الحديث النبوي مراعاة لحال المرأة المسلمة؛ فقد أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن نستوصي بها خيرا، بالرفق بها، والعفو عنها، ومداراتها، والصبر على غيرتها، كما نهى أن يبغض الزوج زوجته، فإن كره منها خلقا، رضي منها آخر، كما كان يؤذيه بكاء طفل في الصلاة، فيخفف صلاته، مراعاة لمشاعر أمه، وعاطفتها تجاه ابنها، كما جعل الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو كالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر...إلى غير ذلك من وجوه العناية بها.

هذا، ولا يوجد بحث– على حسب علمي – قد تناول خطاب المرأة المسلمة نصًّا في ضوء إستراتيجيات الخطاب، وإن وجدت بعض الرسائل التي تناولت الإستراتيجيات في الحديث النبوي، ومن ذلك رسالة "إستراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي"، دليلة قسمية، ماجستير جامعة الحاج لخضر، باتنة، كلية الآداب واللغات،

٢٠١٢، وقد اعتمدت الباحثة في دراستها على الإستراتيجية التوجيهية والإقناعية، ولم تتعرض للإستراتيجيات الأخرى، كما لم تعرض للإستراتيجيتين محل الدراسة عندها في خطاب المرأة المسلمة.

وكذلك رسالة "لغة الحديث النبوي وفق إستراتيجيات الخطاب" كتاب اللؤلؤ والمرجان أنموذجا"، رضوان عبد الكريم الطاهر عمران، ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠١٦م. وهذه تناول الباحث فيها الإستراتيجيات بشكل عام، ولكنه لم يطبقها على خطاب المرأة المسلمة في الحديث النبوي.

وهناك دراسة ثالثة، وهي تحت عنوان "خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للمرأة المسلمة: دراسة حديثية موضوعية"، ماجستير، إعداد عزيزة بنت رحيل العنزي، جامعة القصيم، ٢٠١٧م، وهذه قد اعتنت بدراسة الأحاديث دراسة حديثية موضوعية، أكثر منها لغوية. وقد أفاد منها البحث في معرفة كثير من الأحاديث التي تم مخاطبة المرأة بها.

وهناك بحث بعنوان "الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية"، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد ٢/ ١٥، مجلد:٨، ١٤٣٥ هـ، ٢٠١٤م، وهو لإدريس مقبول، تناول هذه الإستراتيجيات بالدراسة، ووضع أمثلة من الأحاديث النبوية مما يندرج تحتها، لكنه لم يعرض لأحاديث المرأة المسلمة، ولا تعرض لها.

أما هذا البحث الذي بين يديك فقد صبَّ جهده على الأحاديث النبوية التي خاطب بها المرأة المسلمة، ودرسها في ضوء إستراتيجيات الخطاب، موضحا –في بيان ذلك – المقصود بهذه الإستراتيجيات، وأهم أنواعها، وما يندرج تحتها من الأحاديث النبوية المختارة.

هذا، وقد جاء هذا البحث الذي بين أيدينا وفق النقاط الآتية:

أولا: وقفة مع مفردات العنوان.

ثانيا: خطاب المرأة في الحديث النبوي في ضوء إستراتيجيات الخطاب.

١-الإستراتيجية التوجيهية.

٢- الإستراتيجية التضامنية.

٣- الإستراتيجية التلميحية.

٤- الإستراتيجية الحجاجية.

ثم جاءت الخاتمة متضمنة أهم نتائج البحث.

أولا: وقفة مع مفردات العنوان.

الحديث النبوي.

يعتمد الحديث النبوي الصادر من أفصح البشر – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – على المباشرة والمحادثة والمواجهة، وهو حديث موجَّه إلى الناس أجمعين، بكل فئاتهم وطبقاتهم وبيئاتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية كذلك؛ إذ لم تقتصر رسالته أو توجيهاته على غرض ديني أو دنيوي واحد، وإنما جاءت لغته بحيث تقابل كل هذه الأغراض وغيرها، فكان من الطبيعي أن تأتي كلماته وأساليبه مطابقة للظرف والحال والغرض الذي يقصد إرساله، أو التعبير عنه، أو توصيله إلى الناس بعامتهم، أو إلى فئة منهم لغرض معين في وقت معين، وإن كان مضمونه يمتد إلى الآخرين، وينطبق عليهم، بقطع النظر عن الزمان والمكان، بحكم أن رسالة الإسلام رسالة عامة لا تختص بقبيل دون قبيل، ولا تختص أحكامها ومبادئها بزمان ومكان محدد؛ وهذا يعني أن الحديث الشريف كان يلْقى بموقعه وظرفه وملابساته إلى البشر فيتفاعلون به ومعه(١).

وقد كان النبي – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – الغاية في الفصاحة والبيان؛ ذلك أن فصاحته: "لم تكن إلا توفيقا من الله وتوَقيفا"(٢)، وقد ساعده في ذلك نشأةٌ لغوية سليمة في بيئة عربية فصيحة، وفطرة لغوية سديدة، ومعرفة دقيقة بلهجات العرب(٣)؛ ومن ثمَّ "فليس إحكام الأداء، وروعة الفصاحة، وعذوبة المنطق، وسلامة النظم إلا صفات كانت فيه – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – عنده أسبابها الطبيعية، لم يتكلف لها عملا، وارتاض من أجلها رياضة، بَل خلق مكتمل الأداة فيها، ونشأ متوفّر الأسباب عليها،

(١) انظر: كمالمحمد بشر "علم اللغة الاجتماعي:مدخل". (ط١، القاهرة: دارغريب، ١٩٩٥ م): ٩١.

(٢) انظر: مصطفى صادق الرافعي، "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية". راجعه واعتنى به د .درويش الجويدي. (ط٣، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣م): ٢٢٨– ٢٢٩.

(٣) انظر: الرافعي، "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية": ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٥.

كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية"[1]، ولا ننسى قول الله – جل شأنه – في حق رسوله – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم –: " وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" النساء:١١٣.

ولا شك أنَّ مشاهدة المتكلم في أثناء الكلام تعين على فهم المقصود من حديثه؛ لأن لكل متحدّث معجمه الخاص، ومفرداته التي يتآلف معها، كما أن له مميزاته الصوتية التي تميزه عن غيره من المتكلمين بنفس اللغة، كما أن هناك مجموعة من الملامح اللغوية التي ترتبط بشخص معين، سواء أكان رجلا أم امرأة، وسواء أكان صغيرا أم كبيرا، وسواء أكان بمفرده أم كانت معه مجموعة.

وفي الحديث النبوي الشريف نجد أنَّ المتكلّم هو رسول الله – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم – أفصح العرب، وأفصح من نطق بالضاد قاطبة، فعن عروة، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: "ما كان رسولُ الله – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم –يسرد سردكم هذا، ولكنَّه كان يتكلَّم بكلام يبينه، فصلٍ، يحفظُه من جلَس إليه"[2]، أي: لو أردنا أن نعدَّ كلماته لعددناها؛ لأنه أُوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا؛ كما كان "يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه"[3]، وتحفظ منه.

يقول الجاحظ: "لم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمَّ نفعا، ولا أقصدَ لفظا، ولا أعدلَ وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم –"[4].

---

(١) انظر: السابق: ٢٣٩.

(٢) محمد بن عيسى الترمذي، " الجامع الكبير". حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه د بشار عواد معروف، (ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦م) رقم الحديث: ٣٦٣٩.

(٣) الترمذي، "الجامع الكبير": ٣٦٤٠.

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، "البيان والتبيين". تحقيق وشرح عبد السلام هارون، (ط٧، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م): ٢/ ١٧، ١٨.

خطاب المرأة المسلمة.

يعدُّ الخطاب من أسمى الوسائل لتبليغ الشخص حديثه ومراده للآخرين، ومن أكثر الوسائل تأثيرا وإقناعا للمخاطَب؛ إذا استعمل استعمالا صحيحا. وإذا كان الخطاب هو "الصيغة التي نختارها لتوصيل أفكارنا إلى الآخرين، والصيغة التي نتلقى بها أفكارهم... كما أن الخطاب يتجاوز هذا المفهوم الضّيق ليدل على ما يصدر من كلام أو إشارة أو إبداع فني"(١)، فإننا نقصد بالخطاب َالنبوي للمرأة المسلمة هو ذلك: "الكلام الصادر من النبي – صلّى اللَّه علَيْه وسلّم – الموجَّه للمرأة، حاملاً طابع التوجيه والإرشاد والأوامر والنواهي، لتبصير المرأة َبأمورها الدينية والدنيوية، والارتقاء بفكرها، وبناء شخصيتها بناء شاملا متكاملا"(٢).

وقد جاء خطاب النبي – صلّى اللَّه علَيْه وسلّم – للمرأة المسلمة، وقد تجلت فيه معاني الرحمة؛ حيث كان رفيقًا بها، يراعيَ حالها، حريصا على تعليمها أمور دينها، موجّهًا لها، معتنيا بطبيعتها، مراعيا لنفسيتها، ملائما لحالها من ناحية الحياء والحشمة، وَمناسبا للرقة والشفقة، وقد تنوعت إستراتيجيات الخطاب، وتنوعت أساليب هذا الخطاب، ما بين خطاب مباشر، وغير مباشر، واستخدام للسؤال مع تنوع أساليبه، وما بين حوار قصير وآخر طويل، وما بين ترغيب وترهيب، وما بين تعليل وتأويل، وكان يختار في تعليمه لها من الأساليب أحسنها، وأفضلها، وأوقعها في نفس المخاطَبة، وأقربها إلى فهمها وعقلها، وأشدها تثبيتا للعلم في ذهنها، وأكثرها

(١) سمير شريف إستيتيه، "اللغة وسيكولوجية الخطاب". (ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م): ١٥.

(٢) انظر: عزيزة بنت رحيل العنزي، "خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للمرأة المسلمة: دراسة حديثية موضوعية". (ماجستير، المملكة العربية السعودية: جامعة القصيم، ٢٠١٧م): ٢٢.

مساعدة على إيضاحه لها.

إستراتيجيات الخطاب.

تعني التداولية "Pragmatique" في أبسط تعريف لها "دراسة اللغة في الاستعمال"[١] دراسة وظيفية إنجازية، من أجل الإحاطة بمظاهر المعنى الذي يقصده المتكلم في سياق معين، فضلا عن دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال في إطار الأفعال الكلامية والاستلزامات الحوارية وما تتطلبه من افتراضات مسبقة، فالتداوليون يفسرون عملية إنتاج الكلام ويربطونها بالمخاطب والمتلقي الذي يفكك العبارة اللغوية، ليصل إلى مقصد المتكلم؛ ولذا فإن عملية إنتاج الكلام وفهمه مرتبطة ارتباطا وثيقا بسياق الحال الذي يؤطر هذه العملية[٢]، ومن ثم فإن إستراتيجيات الخطاب تندرج تحت الإطار اللغوي التداولي.

وتُعدُّكلمة "الإستراتيجية" وافدة على اللغة العربية، فهي مشتقة من كلمة "Stratigos"، وتعني "التخطيط الحربي"، وتعني في المجال العسكري "طرق الوصول إلى أهداف عسكرية بعيدة المدى"، ولكن انتقلت دلالاتها في مجال لسانيات الخطاب – وهذا الذي يعنينا في هذا السياق – فصارت تعني مجموعة عمليات معالجة موجَّهة إلى هدف، وتجري عن وعي عند إنتاج الخطاب، وتعتمد كلَّ محاولة إستراتيجية خطاب

(١) طه عبد الرحمن، "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام". (ط٢، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م): ٢٧.

(٢) انظر: سامية بنت يامنة، "سياق الحال في الفعل الكلامي: مقاربة تداولية". (دكتوراه، الجزائر: كلية الآداب واللغات والفنون، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م): ٧.

معينة للوصول إلى أهداف من خلال الخطاب"[١]؛ ومن ثَمَّ يمكن أن نعرف إستراتيجية الخطاب بأنها عبارة عن "المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه، من أجل تنفيذ إرادته، والتعبير عن مقاصده، التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه، من خلال استعمال العلامات اللغوية، وغير اللغوية، وفقا لما يقتضيه سياق التلفظ بعناصره المتنوعة ويستحسنه المرسل"[٢].

ولا شك أن المسلك المتَّبع في الحديث النبوي الشريف – مسلكٌ شريف مناسب لسياق الحال الوارد فيه، ودالٌ على المراد بأبين سبيل، وأقصر طريق؛ لأنه صادر عن النبي – صلَّى اللَّه عليْه وسلَّم – الذي لا ينطق عن الهوى.

هذا، وقد تم تصَنيف أنواع إستراتيجيات الخطاب في الدراسات التداولية بحسب معايير ثلاثة، وهي:

أولا: المعيار الاجتماعي: ويتعلق بالعلاقة بين طرفي التخاطب، وقد تفرع عن هذا المعيار إستراتيجيتان هما: الإستراتيجية التضامنية، والإستراتيجية التوجيهية.

ثانيا: معيار شكل الخطاب: ويتعلق بشكل الخطاب اللغوي، إذ يكون واحدا من صنفين: ما يدلُّ على القصد مباشرا، أي بالتصريح، أو ما يدل على القصد غير مباشر، أي بالتلميح، فيستعمل المرسل في الصنف الثاني الإستراتيجية التلميحية.

ثالثا: معيار هدف الخطاب: ويعد الإقناع من أهم الأهداف التي يسعى المرسل

(١) انظر: رضوان عبد الكريم الطاهر عمران، "لغة الحديث النبوي وفق إستراتيجيات الخطاب " كتاب اللؤلؤ والمرجان أنموذجا". (ماجستير، الأردن: كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠١٦م): ١٧.

(٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري، "إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية". (ط١، طرابلس، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤ م): ٦٢.

إلى تحقيقها في خطابه، وقد تفرعت عن هذا المعيار الإستراتيجية الإقناعية"[١].

خطاب المرأة في الحديث النبوي في ضوء إستراتيجيات الخطاب

١-الإستراتيجية التوجيهية

تعد هذه من الإستراتيجيات المباشرة، وتُعنى بتبليغ رسالة المرسل إلى المرسَل إليه بقصد مصلحته من خلال النصح والتحذير والإرشاد، وتتسم بالوضوَح، حيث يتطابق فيها قصد المرسل مع دلالة الخطاب الحرفي، فيهتم المرسل فيها بتبليغ قصده، وتحقيق هدف خطابه، وهو توجيه المتلقي إلى ما يعود عليه بالنفع، أو يبعد عنه الضرر[٢].ومن أهم الوسائل المستخدمة فيها الأمر بمختلف أدواته، والنهي، والتحذير، والاستفهام، والإغراء، وذكر العواقب، والأفعال الكلامية[٣].

ويمكن أن نتلمس هذه الإستراتيجية في الحديث النبوي عند مخاطبة المرأة المسلمة من خلال الآتي:

عن أنس – رضي الله – قال: بلغَ صفيَّةَ أنَّ حفصةَ قالتْ: بنت يهوديٍّ، فبكَتْ فدخلِ عليها النَّبيُّ – صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – وهي تبكي فقالَ: ما يبكيكِ؟ قالتْ: قالتْ لي حفصة: إنِي بنت يهودي. فقالَ النَّبيُّ – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم –:" وإنَّك لابنةُ نبيٍ، وإنَّ عمَّك لنبيٌّ، وإنَّك لتحت نبيٍ، ففيم تفخر عليك؟! ثمَّ قالَ:" اتَّقي اللَّه يا حفصة"[٤].

---

(١) انظر: مقبول إدريس. "الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية". مجلة كلية العلوم الإسلامية، ٢/ ١٥(٢٠١٤م): ٥٤٣.

(٢) الشهري، "إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية": ٦٢.

(٣) انظر: إدريس، "الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية": ٥٤٩، وانظر: الطاهر، "لغة الحديث النبوي وفق إستراتيجيات الخطاب: كتاب اللؤلؤ والمرجان أنموذجا": ٢٧.

(٤) الترمذي، "الجامع الكبير": ٣٨٩٤.

ففي هذا الحديث الشريف قد وجَّهت حفصة اتهاما مباشرا لصفية أنها بنت يهودي، فجاءت إلى النبي– صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – باكية شاكية، فما كان منه إلا أن ردَّ هذه التهمة عنها، وبيَّن مفاخرها، حتَّى تطيب نفسها وتهدأ، وليذهب عنها أثر البكاء، فبيَّن أنها بنت نبي، وهو موسى – عليه السلام – ولم يكتف بذلك، بل أضاف مواضع فخر أخرى، فذكر أن عمها "هارون" – عليه السلام – نبي، وأفضل من ذلك وأكبر أن زوجها "محمد رسول الله" – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – نبي، واستخدم أسلوب الاستفهام الدال على التعجب، ففيم تفخر عليك؟! أي: ليس لها أن تفخر عليك؛ فإنه ليس لها مثل هذه المنقبة والمزية التي لك؟! ثم وَجَّه أمرا مباشرا حازما لحفصة بتقوى الله، وذلك بترك هذا الكلام المنهي عنه، والخوف من الله بفعل أوامره وترك نواهيه.

ونلحظ هنا أن الحديث النبوي قد جمع بين ردّين مختلفين حجما ومقصدا، أحدهما: لطيف هادئ لصفية زوجته، بأكثر من جملة خبريَة مؤكّدة بـ "إن" واللام، مع أسلوب الاستفهام؛ حتى يزول عنها أثر البكاء والشكوى، والآخر جاء فيه بتوجيه الأمر المباشر الحازم بتقوى الله لحفصة زوجته، لكي لا تتهم صفية بداعي الغيرة بأنها بنت يهودي، كما نلحظ هنا أن الحوار جاء موافقا لسياق الحال، وقد استخدمت فيه إستراتيجية الأمر المباشر "اتقي الله"، كما نلحظ – كذلك – أن النبيَّ – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم – قد كان يميل في خطاب النساء عند توجيههن إلى الحزم تارة وإلى الملاطفة تارات.

ومن الملاطفة ما ورد عن أنس – رضي الله عنه – أنَّ أُمَّ سُلَيْم اتَّخَذَتْ يوم حُنَيْن خِنْجرا، فكان معها، فرآها أبو طَلْحَة، فقال: يا رسولَ الله، هذه أُمُّ سُلَيْم معها خِنْجر، فقال لها رسولُ الله – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – ما هذا الخِنْجر؟ قالت: اتَّخذْته إن دنا مني أحدٌ من المشركين، بقرت به بطْنه، فجعل رسولُ الله –صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – يضحك، قالت: يا رسولَ الله، اقتل من بعدنا من الطُّلَقاء انْهزموا بك؟ فقال رسولُ الله

– صلَّى اللَّه عليه وسلَّم –:" يا أُمَّ سلَيم، إنَّ اللَّه قدْ كَفى وأَحسن"(١). وهنا نلحظ أن الخطاب النبوي لم يسع من التقليل من شأن امرأة شجاعة، تريد الدفاع عن النبي، بل ضحك لها، ووجَّهها، وخاطبها بهدوء، قائلا: "يا أُمَّ سلَيم، إنَّ الله قدْ كفى وأحسن"، فناداها بالكنية إكراما لها، ثم بيَّن لها معنى العفو والتسامحً؛ فالله قد كفاه أمرهم، فكيف يقابلهم بالإساءة؟!(٢).

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: كان قرامٌ (٣) لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال النبيُّ – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم –: "أميطيَ عنَّا قرامك هذا، فإنَّه لا تزالُ تصاويره تعرض في صلاتي"(٤)، فالأمر هنا بإزالة القرام مَستلزَم للنهي عن الاستعمال؛ لأنه يَشغل عن الصَلاة وحضور القلب والخشوع؛ لأن الطمأنينة ركن من أركان الصلاة، وقد جاء الحديث متَّبعا الإستراتيجية التوجيهية بالأمر المباشر "أميطي..."، ثم بين العلة من هذا الحكم "فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي"؛ لأنه كان حريصا على أداء صلاته بكل خشوع، وفي قوله – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم –: "يا نساء المسلمات، لا تَحْقرنَّ جارةٌ لجارتها، ولو فرسن شاة"(٥)، أي: "لا تحقر أن

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، "المسند الصحيح ". تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (ط١، القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٣٧٤ هـ-١٩٥٥م)، رقم: ١٨٠٩.

(٢) انظر: العنزي، "خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للمرأة المسلمة: دراسة حديثية موضوعية": ٣٣٨.

(٣) القرام قيل: الستر الرقيق، وقيل: الصفيق من صوف ذي ألوان. انظر: المبارك بن محمد الجزري بن الأثير، "النهاية في غريب الحديث والأثر". تحقيق محمود محمد الطناحي، (ط١، القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٣م)، ٤/٤٩.

(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، "الجامع المسند الصحيح المختصر= صحيح البخاري". تحقيق محمد بن زهير بن ناصر (ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ): ٣٧٤.

(٥) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٢٥٦٦.

تهدي لجارتها شيئا، ولو أن تهدي لها ما لا ينتفع به في الغالب، ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء أمر بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد... وخصَّ النهي للنساء؛ لأنهن موارد المودة والبغضاء؛ ولأنهن أسرع انفعالا في كلٍ منهما"(١). فهنا جاءت الإستراتيجية التوجيهية بالنهي المباشر " لا تحقرن" موجها نساء المسلمات بعدم انتقاص جارة لجارتها.

وفي الحديث الشريف: "أنَّ عائشةَ – رضي الله عنها – قالت: دخل عليَّ سائل مرةً، وعندي رسولُ اللَّه – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم – فأَمرت لَه بشيء، ثمَّ دعوت به فنظرت إليه، فقالَ رسولُ اللَّه – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم –: أما تريدين أن لا يدخل بيتكَ شيء ولا يَخرج إلَّا بعلمك؟ قلت: نعم، قالَ: "مهلًا يا عائشة لا تُحصي فيحصي اللَّه – عزَّ وجلَّ –عليك"(٢)، فعندما تيقَّن رسولُ الله أن عائشة زوجته إنما نظرت إلى ما أعطته للفقير من أجل إحصائه ومعرفته، وأقرت بهذا بعد سؤالها، هنا استعمل معها الإستراتيجية التوجيهية حيث جمع بين أسلوبي الأمر والنهي؛ فهو ابتداء أمرها بالتمهُّل، ثم وجَّهها ونهاها عن إحصاء وعد ما تنفقه في سبيل الله؛ لأن منع الصدقة خشية النفاد من أعظم أسباب قطع البركة؛ لأن " الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء، لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أنَّ الله يرزقه من حيث لا يحتسب، فحقُّه أن يعطي ولا يحسب"(٣).

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، "فتح الباري شرح صحيح البخاري". رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف طبعه محب الدين الخطيب، عليه تعليقات عبد العزيز بن عبد الله بن باز، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩): ١٠/ ٤٤٥.

(٢) –محمد ناصر الدين الألباني، "صحيح النسائي"، (ط١، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ –١٩٩٨م) رقم: ٢٥٤٨.

(٣) ابن حجر، "فتح الباري شرح صحيح البخاري": ٣/٣٠٠.

وفي الحديث الشريف أنَّ رسولَ الله – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – كان إذا جلَس مجلسا تكلَّم بكلمات، فسألته عائشة – رضي الله عنها – عن الكلمات، فقال: "إنْ تكَلَّم بخيرٍ كان طَابعا عليهنَّ إلى يوم القيامة، وإنْ تكَلَّم بشر كان كَفَّارةً له: " سبحانَكَ اللَّهمَّ وبحمدَكَ، لا إله إلَّا أنت، أستَغفرُكَ وأتوب إليكَ"[1]. فهنا نجد أن السيدة عائشة – رضي الله عنها –قد سألته عن فائدة الذكر الذي يقوله، ولم يجب عن سؤالها مباشرة، ويسرده لها، بل ابتدأ جوابه بأسلوب تشويقي جميل، ذكر فيه فائدة هذا الذكر، حتى تشتاق إلى سماعه، وتدرك النفس عظمة ما تسأل عنه، ثم ختم توجيهه الحكيم بالذكر نفسه، حتى تحفظه؛ ومن ثم تداوم عليه.

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: "ألا أُرِيكَ امرأةً من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبيَّ – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشَّف ، فادعُ الله لي، قال: "إنْ شئت صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك"، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشَّف، فادع الله أن لا أتكشَّف، فدعا لها"[2].وهنا جَاءَت إستراتيجية التوجيه معتمدة على ذكر العواقب التي تنتظر المرأة إن هي صبرت، وهذا له أثر بالغٌ في تحفيز النفس في الجزاء الأخروي، حيث الجنة وما بها من نعيم، وكأنه يهتف بها أن اصبري، ولكن لم يقل هذا صراحة، بل خيَّرها بين الصبر مع دخول الجنة، أو الدعاء لها، مما حفَّزها لتطلب الصبر بنفسها، قائلة: "أصبر"، ولكنَّ هناك أمرا آخر يقترن بالصرع وهو التكشف، والإسلام جاء داعيا إلى ستر العورة، فطلبت المرأة أن يدعو لها النبي – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – ألا تتكشف، فدعا لها، وهنا نلحظ حرص المرأة على الستر والحشمة، حتى فيَ حال الصرع، مع أن الإنسان لا يدرك

(١) محمد ناصر الدين الألباني، "صحيح الترغيب والترهيب"، (ط١، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م). رقم: ١٥١٨.

(٢) البخاري، "الجامع المسند الصحيح المختصر": ٢٥٧٦.

وقتها ما يفعل، والقلم مرفوع عنه حينئذ؛ لأن الصرع قريب من الجنون. وهنا جاء أسلوب الترغيب الموجز؛ فقد علَّمها ابتداء الرضا بقضاء الله وقدره، وبيَّن لها فضيلة الصبر، ورغَّ بها في الثواب العظيم الذي ينتظرها في الآخرة، رفعا لهمتها، وتطمينا لها، فكان تأثير أسلوب الترغيب واضحا على حال المخاطبة، مما جعلها متشوقة للفوز بالجنة، والتفاني من أجلها(١).

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن خطاب النبي – صلَّى اللَّه عليْه وسلَّم – للمرأة المسلمة في ضوء الإستراتيجية التوجيهية جاء بطرق متنوعة، من أهمها استخدام أسلوب الأمر المباشر، سواء اقترن بعلة أم لا، واستخدام أكثر من أسلوب في التوجيه، كأسلوب الاستفهام، وأسلوب الأمر، وأسلوب النهي، وقد يجمع بين بعضها، وكان يختار في مخاطبته لها من الأساليب أحسنها، وأفضلها، وأنسبها، وأقربها إلى فهمها وعقلها، وأشدها تثبيتا للعلم في ذهنها، وأكثرها مساعدة على إيضاحه لها(٢).

٢– الإستراتيجية التضامنية.

وهي الإستراتيجية التي يحاول المرسل أن يحسّن علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبّر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليهَا، أو تطويرها بإزالة الفروق بينهما، وإجَمالا: هي محاولة التقرب من المرسل إليه وتقريبه(٣).

ومن مراعاة حال النساء أنَّ النبيَّ – صلَّى اللَّهُ عليْه وسلَّم –كان يخاطبهن ويختار الألفاظ التي تراعي حالهن؛ فقد غيَّر أسماء بعض النساءَ إلى أسماء حسنة مقبولة ترتاح لها الأذن؛ فقد غيَّر اسم عاصية بنت عمر – رضي الله عنهما – إلى اسم جميلة، وقال

(١) انظر: العنزي، "خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للمرأة المسلمة": ١٨٢.

(٢) انظر: أبو غدة، "الرسول المعلم وأساليبه في التعليم": ٦٣.

(٣) الشهري، "إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية": ٢٢٢.

لها: "أنت جميلة"[١]، وهو اسم محبَّب إلى الأنثى لفظا ومعنى وصورة[٢]،.

كما غيَّر اسم "برَّة" إلى "زينب"، كما روت زينب بنت أم سلمة – رضي الله عنها – قالت: كان اسمي برة، فسمَّاني رسولُ الله – صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – زينب، ودخلت عليه زينب بنت جحش، واسمها برة، فسمَّاها زينب، وقدَ جاء في الحديث سبب النهي عن هذا الاسم، فقال: "لا تُزَكُّوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم"[٣]، واختيار اسم "زينب" مستحسن عند المرأة؛ لأن معناه كما قيل: شجر حَسن المنظر، طيب الرائحة، و قيل: المرأة السمينة[٤]، وذكر الفيروزآبادي أن معناه: زين أب، فحذفت الألف لكثرة الاستعمال[٥].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قلت: يا رسولَ الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: " لكُنَّ أحسن الجهاد وأجملُه الحجُّ حجٌّ مبرور" وفي رواية: "لكُنَّ أفضل الجهاد حج مبرور"، فقالت – رضي الله عنها–: " فلا أدع الحجَّ، بعد إذ سمعت هذا من رسول الله – صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم –"[٦]. فالسيدة عائشة عندما علمت فضل الجهاد، تاقت نفسها إليه، فعرضتَ على النبي أن تجاهد مع المسلمين، فوجَّهها إلى الحج، وهو

(١) مسلم، "المسند الصحيح": ٢١٣٩.

(٢) انظر: يوسف عبد الله العليوي ، "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين: دراسة بلاغية تحليلية"، (دكتوراه، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٨-١٤٢٩هـ): ٩٩، ٢٨٣.

(٣) مسلم، "المسند الصحيح": ٢١٤٢.

(٤) انظر: محمد بن مكرم بن منظور، "لسان العرب". (بيروت: دار صادر، د. ت): ٤٥٣/١.

(٥) انظر: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، "القاموس المحيط". تحقيق مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، (ط٦، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م): ٩٥، وانظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين: ٢٨٤.

(٦) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ١٥٢٠، ١٨٦١.

جهاد المرأة المسلمة، واختار لهالفظي "الحسن والجمال" وهذا يناسب طبيعة المرأة، مما يدعوها للعمل(١).

وكثيرا ما كان يخاطب النبي – صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – السيدة عائشة – رضي الله عنها– بقوله: "يا عائش، على الترخيم، فقد قال لها ذات يوم: "يا عائش، هذا جبريل يقْرِئُك السَّلام ، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله، ترى ما لا أرى، تريد النبيَّ– صلَّى اللَّه عليه وسلَّم–"(٢)، وكثيرا ما كان يناديها بقوله: "يا موفَّقَةُ"، ويا بنت الصديق، يا بنت أبي بكر، كما كان يناديها يا حميراء، والحمراء في لغة أهل الحجاز هي البيضاء الشقراء، وهذا نادر فيهم(٣).

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قلت: يا رسولَ الله، كلُّ صواحبي لهن كُنى، قال: فاكتني بابنك عبد الله – يعني ابن أختها، عبد الله بن الزبَير – فكانت تكنَّى بـ : أمّ عبد الله"(٤). وهنا نلحظ أن النبي قد اختار لها الكنية التي تحبها وهي قريبة من قلبها، فعبد الله بن الزبير هو ابن أختها "أسماء"، وهي خالته، والخالة بمنزلة الأم، وذلك مراعاة لنفسيتها.

وعَنْ مُحَمَّد بن قَيْسِ بن مَخْرَمَةَ بنِ المطَّلب، أنَّه قالَ يوْماً: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وعَنْ أُمِّي؟ قالَ: فظَنَنَّا أَنَّه يريد أُمَّه الَّتِي ولَدتْه، قالَ: قالَتْ عائشةُ: أَلَا أُحَدِّثُكُم عني وعن رسَول الله – صلَّى اللَّه علَيه وسلَّم– ؟ قُلْنا: بلَى، قالَ: قالَتْ: لَمَّا كانتَ لَيلَتي الَّتي كان

(١) انظر: العليوي، "رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين: دراسة بلاغية تحليلية": ٩٩.
(٢) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٣٢١٧.
(٣) انظر: محمد علي قطب، "عائشة معلمة الرجال والأجيال". (د. ت، مكتبة القرآن): ١١.
(٤) محمد ناصر الدين الألباني، "صحيح سنن أبي داود". (ط١، مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م): ٤٩٧٠.

النَّبِيُّ - صلَّى اللَّه عليه وسلَّم - فيها عندي، انْقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع، فلم يلبث إلَّا ريثما ظنَّ أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدا، وانتعل رويدا، وفتح الباب فخرج، ثمَّ أجافه رويدا، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنَّعت إزاري، ثمَّ انطلقت على إثره، حتَّى جاء البقيع فقام، فأطال القيام، ثمَّ رفع يديه ثلاث مرَّات، ثمَّ انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلَّا أن اضطجعت فدخل، فقال: ما لك يا عائش؟ حشيا رابية؟[1] قالت: قلت: لا شيء، قال: لتخبريني، أو ليخبرني اللَّطيف الخبير، قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فأخبرته، قال: فأنت السَّواد الذي رأيت أمامي؟

قلت: نعم، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثمَّ قال: أظننت أن يحيف اللَّه عليك ورسوله؟! قالت: مهما يكتم النَّاس يعلمه اللَّه، نعم، قال: فإنَّ جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبته، فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إنَّ ربَّك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السَّلام على أهل الدِّيار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم اللَّه المستقدمين منَّا والمستأخرين، وإنَّا - إن شاء اللَّه - بكم للَاحقون[2].

فمما يندرج تحت الإستراتيجية التضامنية هي قوله - صلَّى اللَّه عليه وسلَّم -لما سألها: «ما لك يا عائش؟!» حيث رخَّم اسمها فناداها بحذف التَّاء تلطُّفًا وتودُّدًا، وتقريبا لها

(١) حشيا وهو التَّهيُّج الَّذي يعرض للمسرع في مشيه والمحتدّ في كلامه من ارتفاع النَّفس وتواتره، و "رابية"، أي: مرتفعة البطن!
فلأي سبب اضطرب جسمك وانقطع نفسك؟

(٢) مسلم، "المسنَد الصحيح": ٣٠٨٨.

ولطفا بها، ثم ذكّرها بمراقبة الله لها عند قوله: " لَتُخْبِرِينِي، أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الخَبِيرُ"، ثم عاتبها عتاب المحب المشفق عليها في قوله: " أَظَنَنْتَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْكَ ورسولُه؟! ثم ظهرت معاني الشفقة والرحمة منه لها، عندما علّل لها سببَ خروجه في هذه الساعة، بقوله: " فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكَ، وخشيتُ أَنْ تستوحشي"، وهنا ظهرت فطنة السيدة عائشة عندما حوّلت موقفَ العتابَ إلى موقف تعليمَي، عندما سألته كيف تقول إذا أتت أهل البقيع، فأجاب عن سؤالها بعد عفوه عنها وملاطفتها معها بقوله: "السَّلَام عَلَى أَهْلِ الدِّيار من المؤمنين والْمُسلمين..."[١].

٣- الإستراتيجية التلميحية.

الإ ستراتيجية التلميحية هي التي يعبّر بها المرسل عن القصد بما يغاير معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر مما يقوله؛ إذ يتجاوز قصده مجرد المعنى الحرفي لخطابه، فيعبر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ، مستثمرا في ذلك عناصر السياق"[٢]. ومعنى هذا أن المرسل لا يعبر فيها عن قصده عن طريق التصريح المباشر والدلالة الظاهرة، بل يختار أن ينقله عبر طرق دلالية غير مباشرة، كالتضمين أو الاقتضاء، وهي إستراتيجية تحتاج في فهمها إلى الانتقال من المعنى الحرفي للخطاب إلى المعنى المضمر الذي يدل عليه السياق بمعناه العام[٣]، ويدخل تحت هذه الإستراتيجية: الكناية والتورية والتعريض والأساليب الإضمارية في خطابات النبي – صلى الله عليه وسلم –[٤].

الكناية –كما عرفها قدامة بن جعفر – وقد سمّاها بعنوان آخر "الإرداف" –

(١) انظر: العنزي، "خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للمرأة المسلمة: دراسة حديثية موضوعية": ٣٣٨.

(٢) الشهري، "إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية": ٣٧٠.

(٣) انظر: إدريس، "الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية": ٥٥١.

(٤) انظر: السابق ص: ٥٥٣.

هي "أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له"(١).

والبعد الإستراتيجي في الكناية يتمثل في اللمحة الدالة، فمن خلالها يشعر المخاطب بأنه بحاجة إلى الوصول إلى المعنى الحقيقي، المستور وراء المعنى المجازي، وهذه تعطي قيمة إبلاغية تأثيرية للكناية، كما أن فيها بعدا آخر، وهو أنها "تسمو بالتعبير عن القول الفاحش والمبتذل"(٢) ؛ ولذا فنجاح العلمية التواصلية وتحقيق غايتها مرهون بمدى التزام الطرفين (المتكلم والمخاطب) في تعاونهما بمقاييس أخلاقية تهذيبية(٣).

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي – صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – فقالت: كنت عند رفاعة القرظي، فطلَّقني فبتَّ طلاقي، فتزوَّجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب! فتبسَّم رسول الله – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – وقال: "أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتَك"، قالت: وأبو بكر عنده وخالد بن سعيد بالباب ينتظر أن يؤذن له، فنادى: يا أبا بكر، ألا تسمع إلى هذه ما تجهر به عند رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –؟!(٤).

وهنا جاء استعمال الكناية "حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك"، حياء منه مما يستقبح ذكره، في حين أن المرأة استخدمت عبارة "وإنما معه مثل هدبة الثوب"،

(١) نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، "نقد الشعر". تحقيق عبد المنعم خفاجي، (بيروت: دار الكتب العلمية، دون تاريخ): ١٠٧.

(٢) انظر: سمير أبو حمدان، "الإبلاغية في البلاغة العربية"، (ط١، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩١م): ١٥٩.

(٣) طه عبد الرحمن، "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"، (ط١، المغرب: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨م): ٢٤٠.

(٤) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٣٩٨٢.

وتبسُّمه – صلَّى اللهُ عليه وسلَّم – كان تعجبا منها؛ إما لتصريحها بما يستحيي النساء من التصريح به غالبا، وإما لضعف عقل النساء، لكون الحامل لها على ذلك شدة بغضها في الزوج الثاني، ومحبتها في الرجوع إلى الزوج الأول، وقد جاء في الحديث الشريف أنَّ النبي – صلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – قال لزوجته السيدة عائشة – رضي الله عنها – "إنِّي لَأَعلَم إذا كُنت عني راضية، وإذا كُنت عليَّ غضبى، قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أمَّا إذا كُنت عني راضية، فإنَّك تقولين: لا ورب مُحَمَّد، وإذا كُنت عليَّ غضبى، قلت: لا ورب إبراهيم، قالت: قلت: أجل، واللَّه – يا رسولَ اللَّه – ما أهجر إلَّا اسمك"(١).

فهنا نجد أن السيدة عائشة – رضي الله عنها – آثرت التلميح بدل التصريح، أي أنها لم تستخدم عبارة صريحة تدلُّ على رضاها أو غضبها، بل لمحت مرة بالقسم بقولها "ورب إبراهيم" إذا كانت غضبى، و "رب محمد" إذا كانت راضية، مع أن كلا القسمين واحد، فربُّ محمد هو ربُّ إبراهيم، وهو ربُّ العالمين، وقد فطن النبي – صلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم –لهذا، وأخبرها به، وهنا أقرَّت السيدة عائشة بفهمه لمرادها ومعرفته لمقصد كلامها وما يدلُّ عليه.

وهنا نلحظ أن النبي – صلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – كان مستوعبا لما تقوله زوجته وما ترمي إليه من عبارة بين زوجين متحابين؛ كما نلحظفي كلام الصِّدِّيقة – رضي الله عنها– دقة في اللفظ، وبراعة في الجواب؛ ففي اختيارهاذكر إبراهيمَ – عليه السلام – دون غيره من الأنبياء، دلالة على مزيد فطنتها، وحدة ذكائها؛ لأن النبي – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – أولى الناس به، كما نصَّ القرآن الكريم على ذلكفي قول الله تعالى: "إنَّ أَوْلَى النَّاس بإبراهيم لَلَّذين اتَّبعوه وهذَا النَّبيُّ والَّذين آمَنُوا واللَّه وليُّ الْمُؤْمنين" آل عمران:٦٨ ، فلما لم يكنَ لها من هجر الاسم الشريف، أبدلته بما هو منه بسبيل، حتى

(١) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٥٢٢٨.

لا تخرج عن دائرة التعلق بالجملة. كما أن التعبير بقولها: ما أهجر إلا اسمك "دليل على بقاء أصل المحبة في القلب؛ فهي تترك التسمية اللفظية، أما حبُّه – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – ففي القلب؛ لأن هجرانه ليس كهجران أحد من البشر(١).

ومن ذلك ما جاء عن عائشة أنَّ امرأةً سألت النبيَّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – عن غُسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، قالَ: خذي فرصةً من مسك، فتطهَّري بها قالتَ: كيف أتطهَّر؟ قالَ: تطهَّري بها، قالت: كيفَ؟ قالَ: سبحانَ اللَّه! تطهَّري، فاجتبذْتُها إليَّ، فقُلتُ: تتبَّعي بها أثرَ الدَّم(٢). قال ابن حجر: "وفيه الاكتفاء بالتعريض والإشارة في الأمور المستهجنة، وتكرير الجواب لإفهام السائل، وإنما كرره مع كونها لم تفهمه أوَّلا، لأن الجواب به يؤخذ من إعراضه بوجهه عند قوله: "تطهَّري" أي: في المحل الذي يستحيي من مواجهة المرأة بالتصريح به، فاكتفى بلسان الحال عن لسان المقال، وفهمت عائشة – رضي الله عنها – فتولَّت تعليمها"(٣).

فهنا علَّم النبيُّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – النّساء كيفيَّةَ التطهُّر والاغتسال من الحيض والدَّم، وذكر كيفيَّة ذلك بأسلوب راق ومهذَّب مراعى فيه الحياء، فأمرها أن تأخذ قطعةً من صوف أو قطن عليها من طيب المسك، ثمَّ تطهر بها موضع الدَّم، ولكنَّ المرأة لم تفهم هذه الكيفيَّة، وسألت مرَّةً أخرى كيف تطهر بهذه القطعة المطيَّبة من القطن؟ فقال – صلَّى الله عليه وسلَّم –: "سبحان الله! تطهَّري"، فتعجَّب من عدم معرفتها كيف تتطهَّر بها، وهو أمر ظاهر لا يجهله أحدٌ، وعند ذلك اجتبذتْها عائشة – رضي الله عنها – وضمَّتها إليها، وقالت لها: تتبَّعي بها أثر الدَّم.

وهنا استخدم الحديث الشريف مبدأ "التأدب في الخطاب"، ابتعادا عن القول

(١) انظر: ابن حجر، "فتح الباري شرح صحيح البخاري": ٩/٤٠٨، وعمدة القاري: ٢٠/ ٢١٠.

(٢) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٣١٤.

(٣) انظر: ابن حجر ، " فتح الباري شرح صحيح البخاري": ١/٦٠٣.

الفاحش، فالمرسل – صلَّى الله عليه وسلَّم – قد نزَّه نفسه عن الفحش في القول، فلم يكن فاحشا ولا متفحشا، ونزَّه المرسل إليه المخاطب عن ذكر ما يستحيي منه.

وفي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: "صلَّى النبيُّ – صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – الظهر ركعتين ثم سلَّم...وكان في القومِ رجل يدعوه النبي – صلَّى اللَّه عَلَيهِ وسلَّم – ذا اليدين، فقال النبي– صلَّى اللَّه عَلَيه وسلَّم –: أصدق ذو اليدين؟"(١)، وقدَ بوَّب البخاري على هذا الحديث بقوله: "بابَ ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير". قال ابن المنير: "أشار البخاري إلى أن ذكر مثل هذا إن كان للبيان والتمييز، كما ورد في الحديث، فهو الجائز، وإن كان في غير هذا السياق كالتنقيص والتغييب، فهذا الذي لا يجوز، وإشارة عائشة في بعض الحديث إلى المرأة التي دخلت عليها، ثم خرجت فأشارت عائشة بيدها أنها قصيرة، فقال النبي – صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم –: اغتبتها؛ لأن عائشة – رضي الله عنها – لم تفعل هذا بيانا، وإنما قصدتَ إلى الإخبار عن صفتها خاصة ففهم التغييب، فنهيت"(٢). والقرينة الحالية التي اعتبرت في فهم النصين عائدة إلى قصد المتحدّث، التي تدرك من شواهد الحال؛ إذ إن معرفة قصد المتحدّث عنصر مهم في معرفة المراد من الحديث النبوي الشريف، فقد يخرج نصٌ من سياق الذم إلى سياق المدح، وفقا لمقصد المتحدث. فلم يكن – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – حال سؤاله لأصحابه قاصدا التنقص منه، وإن كان في كلامه كناية عن طولَ يدي الرجل، وأما إشارة عائشة – رضي الله عنها – فكانت شواهد الحال تدلُّ على أنها تريد التنقص منها.

هذا، ويعد التشبيه من الآليات الإستراتيجية المهمة في هذا السياق، ويعرف بأنه

(١) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٥٧٠٤

(٢) ناصر الدين ابن المنير، "المتواري على أبواب البخاري". تحقيق وتعليق علي حسن علي عبد الحميد، (ط١،المكتب الإسلامي: دار عمار، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م)، ١/٣٥٧.

"الدلالة على مشاركة أمر لآخر في المعنى"(١)، والغرض منهتوكيد المعنى، فالبعد الإستراتيجي التداولي للتشبيه يظهر جليا من خلال استهدافه لتوكيد المعنى المراد (المقصدية بمصطلح تداولي) وترسيخه في ذهن المتلقي(٢)، فالتشبيه كما يقول أبو هلال العسكري: "يزيد المعنى وضوحا، ويكسبه تأكيدا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحدٌ منهم عنه"(٣). ولو أظهرنا هذه الإستراتيجية المعتمدة على التشبيه في الحديث النبوي، لوجدنا ما يأتي:

عن أبي موسى الأشعري، عن النبي – صلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم –: قال: "كَمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام"(٤).وهنا شبه السيدة عائشة بالثريد، وقد أجيب بأن الثريد أفضل الطعام عند العرب، فلا يرون في الشبع أغنى غناء منه، فكأنها فضلت على النساء كفضل اللحم على سائر الأطعمة، والسر فيه أن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤونة في المضغ وسرعة المرور في المريء، فضرب به مثلا ليؤذن بأنها أُعطيت مع حسن الخلق والخلق حلاوة المنطق وفصاحة اللهجة، وجودة القريحة، ورزانة الرأي، ورصانة العقل، والتحبب إلى النبي – صلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – فهي تصلح للتبعل، والتحدث، والاستئناس بها، والإصغاء إليها، وحسبكَ أنها عقلت من النبي – صلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – ما لم يعقل غيرها من

(١) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة". وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م): ١٦٤.

(٢) انظر: واضح أحمد ومسلم خيرة، "إستراتيجية الخطاب في البلاغة العربية". (مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية ٢، (٢٠١٩م): ٩١.

(٣) أبو هلال العسكري، "الصناعتين الكتاب والشعر". تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (ط١، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦م): ٢١٦.

(٤) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٣٧٦٩، ومسلم، "المسند الصحيح": ٢٤٣١.

النساء، وروت ما لم يرو مثلَها من الرجال"(١).

وقد كان النبي – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم – رحيما، كأن الرحمة كلها قد وجدت فيه؛ فقد أرسله ربه رحمة للعالمين، وقد تجلت هذه الرحمة في خطابه الشريف عندما أمر أنجشة أن يرفق بالنساء، وذلك عندما كان يحدو بهن، خوفا عليهن، ولضعفهن، وقال له "يا أَنْجشة، رويدكَ سوقًا بالقوارير"(٢). فهنا نلحظ استعمال أسلوب النداء، ليقبل عليه "أنجشة"، ثم الأمر بقوله " رويدك"، أي تمهَّل، وهنا نجد تشبيه عزائم النساء بسرعة تأثير الصوت فيهن بالقوارير في إسراع الكسر إليها؛ لأن النساء تشبه القوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية، فخاف عليهن من سماع النشيد؛ لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واشتدت، فأزعجت الراكب وأتعبته، فخشي أن يقع في قلوب النساء شيء من حداء أنجشه؛ ولذا أمره بالكف عن هذا(٣).

وفي الحديث أنَّ رسولَ الله – صلَّى اللَّه عَلَيْه وسلَّم – دَخَلَ علَى أُمِّ السَّائب – أَوْ أُمِّ المسيب – فَقالَ: ما لَكَ يا أُمَّ السَّائب – أَو يا أُمَّ المسيب – تزفزفين؟ قَالَت: الحمَّى، لاَ بارَكَ اللَّه فيها، فَقالَ :لا تسبِّي الحمَّى؛ فإنَّها تُذْهب خطَايا بنِي آدم، كَما يُذْهب الكير خبثَ الحديد"(٤) . فهنا جاء النهي المباشر للمَرأة المسلمة مَقترنا بالعلة، لتطَيب نفَس المخاطبة وتأنس، وتعلم أنها مأجورة إن صبرت، وجاء الخطاب هنا عن تشبيه إزالة الحمى للخطايا بإزالة النار خبث الحديد، ووجه الشبه "أن الحديد إذا انصهر

(١) انظر: محمد رفعت زنجير، "دراسات في البيان النبوي"، (ط١، دمشق: دار اقرأ، ١٤٢٨هـ ت٢٠٠٧م): ٥٩.

(٢) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٦١٤٩، ومسلم، "المسند الصحيح": ٢٣٢٣.

(٣) انظر: ابن حجر، "فتح الباري شرح صحيح البخاري": ١٠/ ٥٤٥، ٥٤٦.

(٤) مسلم، "المسند الصحيح": ٢٥٧٥.

على النار زال خبثه، وبقي صافيا"[١] ، فكذلك الحمَّى تذهب الذنوب والخطايا، فبيانه – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – ببيان وجه الشبه، يجعل المرأة تتحمل الآلام من أجل عظيم الأجر، وجزيل الثواب[٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنها – قالت: "جاءت إلى النبي – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – امرأةٌ فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ لي ضَرَّةً فهل عليَّ جناح أن أتشبَّعَ من زوجي بما لم يعطني؟ فقال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: "المتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور"[٣] . فهنا نجد أنه شبَّه فعل هذه الزوجة التي تريد إظهار أن زوجها يفضّلها بالعطاء عن زوجته الأخرى بصورة قبيحة تنفر منها النفس، وحكم التثنية في قوله: "كلابس ثوبي زور" للإشارة إلى أن كذب المتحلّى مثنى؛ لأنه كذب على نفسه بما لم يأخذ، وعلى غيره بما لم يعط، وكذلك يظلم نفسه، ويظلم المشهود عليه[٤]. وهنا استخدم أسلوب الترهيب لهذه المرأة التي تريد أن تتظاهر على ضرتها بما لم يعطها زوجها، فتبين مكانتها عنده، فجاء الخطاب ترهيبا لها من فعل ذلك، لكونه سببا للبغضاء وفساد الحياة الزوجية[٥].

٤– الإستراتيجية الحجاجية.

يستعمل المرسل إستراتيجة الحجاج إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمرسل إليه، ومسوغ استخدامها يعود إلى قوة تأثيرها، واحتياجها في بعض

(١) محمد بن صالح العثيمين، "شرح رياض الصالحين". (الرياض: دار الوطن للنشر، ١٤٢٦هـ): ٦/ ٤٦٨.

(٢) انظر: خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للمرأة المسلمة: دراسة حديثية موضوعية: ١٧٥.

(٣) البخاري، "الجامع المسند الصحيح": ٥٢١٩، ومسلم، "المسند الصحيح": ٢١٢٩، ٢١٣٠.

(٤) ابن حجر، "فتح الباري شرح صحيح البخاري": ٣١٨/٩.

(٥) انظر: السابق الصفحة نفسها.

السياقات والمناظرة العقلية والمجادلة الكلامية(١).

ويمكن تقسيم تقنيات الحجاج إلى:

الأدوات اللغوية الصرفة، مثل: ألفاظ التعليل، بما فيها الوصل السببي، والتركيب الشرطي، وكذلك الأفعال اللغوية، والحجاج بالتبادل، والوصف، وتحصيل الحاصل.

الآليات البلاغية: مثل: تقسيم الكل إلى أجزائه، والاستعارة والبديع، والتمثيل.

الآليات شبه المنطقية، ويجسدها السلم الحجاجي بأدواته وآلياته اللغوية(٢).

ومما يندرج تحت إستراتيجية الحجاج ما جاء في الحديث الشريف أنَّ رسولُ اللَّه – صلَّى اللَّه عليْه وسلَّم – خرج في أضْحى أوْ فطْر إلى المصلَّى، فمرَّ علَى النِّساء، فقالَ: يا معشر النِّساء تصدَّقْن، فإنِّي أُريتكُنَّ أكْثر أهلِ النَّار، فقُلْن: وبم يا رسولَ اللَّه؟ قالَ: تُكْثرْن اللَّعنَ، وَتكْفُرْن العشير، ما رأَيت من ناقصات عقْلٍ ودينٍ أذْهب للُبِّ الرَّجلِ الحَازمِ من إحْداكُنَّ، قُلْن: وما نُقْصانُ دِيننا وعَقْلنا يا رسولَ اللَّه؟ قالَ: أليْس شهادة المرأَة مثْل نصْف شهادة الرَّجلِ؟ قُلْن: بَلَى، قالَ: فذَلك من نُقْصان عقْلها، أليس إذا حَاضَت لَم تصَلِّ ولم تصَم؟ قُلْن: بلَى، قالَ: فذَلك منْ نُقْصان دينها(٣).

فهنا نلحظ أن الخطاب النبوي استخدم أسلوب التعَميَم، فهو قد خاطب النساء عامة، ولم يحد د امرأة معينة قامت بالفعل ذاته؛ ليسهل التلقّي، ويعمَّ النفع، وقد استخدم هنا إستراتيجية الحجاج في إقناع النساء بنقصان العقل والدين لديهن، ودار الحوار بين النبي والنساء، حيث خاطبهن ابتداء مراعيا حالهن بقوله: يا معشر النساء، ثم أمرهن بالصدقة؛ لأن ثوابها عظيم، وأمرها يسير، خوفا عليهن من النار؛ فالصدقة تطفئ غضب الرب سبحانه، وذكر أنه أُريهن أكثر النار، وهنا فزع النسوة، فسألن عن السبب، وقُلْن:

(١) انظر: إدريس، "الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية": ٥٥٥، ٥٥٦.

(٢) انظر: الشهري، "إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية": ٤٧٧.

(٣) انظر: ابن حجر، "فتح الباري شرح صحيح البخاري": ١/١٩٣، و٢/ ٤٦٨.

وبمَ يا رسولَ اللَّه؟ فأرجع هذا إلى أمرين: كثرة اللعن، وكفران العشير، وتحدث عن تأثيرهن في الرجال الحازمين، مع أنهن ناقصات عقل ودين، وكأنَّ النساء هنا أقررن ضمنا بكثرة اللعن وكفران العشير؛ ومن ثم فقد انتقلن إلى السؤال عن سبب نقصان الدين والعقل، حيث قلن: وما نُقْصانُ ديننا وعَقْلنا يا رسولَ اللَّه؟ ولم تأت الإجابة مباشرة أن سبب نقصان الدين كذا، وسببَ نقصانَ العقل كذا، بلَ جاءت عن طريق استخدام أسلوب الاستفهام الذي يقتضي إجابة منهن، يقررن فيها بهذا النقصان، وهذا آكد في إثبات الأمر عليهن؛ ومن ثم فقد جاء أسلوب الاستفهام في هذا الحديث ليجسد التواصل الفعلي بين المتكلم والمخاطَب، فيصبح كلاهما فاعلا حيًّا في بناء النص.

وهنا نلحظ أن الحديث الشريف قد استخدم أسلوب التعليل، كأداة لغوية، فقد أمرهن بالصدقة، وعلل ذلك بأنه رآهن أكثر أهل النار، كما استعمل الاستفهام التقريري، في قوله: أليس شهادةُ المرأة مثْل نصف شهادة الرَّجُل؟ وفي قوله: أليس إذا حاضت لم تصلِ ولم تصم؟ وهنا أقررنَ بهذا، وقلن: بلى؛ وذلكَ لأن "الاستفهام من أنجع الأفعال اللغوية حجاجا"(١)، كما نلحظ أن النساء قد تدرجن في السلم الحجاجي من الأعلى إلى الأدنى، حيث سألن أولا عن سبب نقصان الدين ثم سبب نقصان العقل؛ لأنَّ نقص الدين للإنسان أشدُّ عليه من نقصان العقل.

وعن خويلة بنت مالك بن ثَعلَبَة – رضي الله عنها – قالت: ظاهر مني زوجي أوس بن الصَّامت، فجئت رسولَ اللَّه – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – أشكو إليه، ورسولُ اللَّه – صلَّى اللَّه عليه وسلَّم – يجادلُني فيه، ويقول: "اتَّقي اللَّه"؛ فإنَّه ابن عمك،فما برحت حتَّى نزل القرآن: "قد سمع اللَّه قولَ الَّتي تُجادلُك في زوجها" المجادلة:١، إلى

(١) انظر: الشهري، "إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية": ٤٨٣.

الفرض[١]، فقال: يعتقِ رقبةً، قالت: لا يجد. قال: "فيصوم شهرين متتابعين". قالت: يا رسولَ الله، إنَّه شيخ كبير ما به من صيام، قال: "فليطعم ستين مسكينًا". قالت: ما عنده من شيء يتصدَّق به. قالت: فأُتِي ساعتئذ بعرق من تمر، قلت: يا رسولَ الله، فإني أعينه بعرق آخر. قال: "قد أحسنت، اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينا، وارجعي إلى ابن عمك". قال: والعرق ستُّونَ صاعا[٢].

وتظهر هنا إستراتيجية الحجاج والمجادلة واضحة؛ فهي امرأة قد ظاهر منها زوجها، ورفعت شكواها إلى رسول الله، ولأهمية موضوعها نزل القران الكريم بسورة تحمل اسم "المجادلة"، وكانت هذه المرأة حكيمة في تصرفها؛ حيث ذهبتإلى النبي تستشيره في قضيتها، ولتعرف حكم الشرع فيها، فصيحة في عرض حجتها، كما جاءت في روايات أخرى "يا رسولَ الله، إنّ زوجي فقير ضرير البصر سيء الخلق، وإني نازعته في شيء، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي، ولم يرد الطلاق، فرفع النبيُّ ﷺ رأسه، فقال: ما أعلم إلا قد حرمت عليه، قال: فاستكانت وقالت: أشتكي إلى الله ما نزل بي وبصبيتي قالت: وتحوَّلت عائشة تغسل شقَّ رأسه الآخر فتحوَّلت معها، فقالت: مثل ذلك، قالت: ولي منه عيل أو عيلان"[٣].

وهنا نلمس شفقة النبي– صلى الله عليه وسلم –في حواره مع المرأة المسلمة، وحرصه على سماع شكواها، وعلى بقاء البيوت محمية برابط الزوجية، ونصحها بقوله:"

(١) أي: إلى ما فرض الله تعالى من الكفَّارة في قوله تعالى: "فتحرير رقبة من قبل أن يتماسَّا"، المجادلة: ٣ وما بعدها.

(٢) سليمان بن الأشعث أبو داود،" سنن أبي داود" (ط١، بيروت: دار الجنان، ١٤٠٩هـ): ٢٦٧/٢، ٢٢٢٠، وقد أخرجه في كتاب الطلاق، باب الظهار، من طريق هشام بن عروة.

(٣) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، "السنن الكبرى". تحقيق د محمد عبد القادر عطا، (ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م):٧/ ٢٨٥.

اتَّقي اللَّه؛ فإنَّه ابن عمك"؛ ومن ثمَّ فقد لجأت المرأة إلى إستراتيجية الحجاج والمجادلة، فحاورت وجادلت، وَاستَعملت آلية بلاغية مهمة، وهي تقسيم الكل إلى أجزائه، فزوجها" فقير، ضرير البصر، سيء الخلق، ولها منه عيل أو عيلان"، ولذا فهو تشكو إلى الله ما نزل بها وبصبيتها، فكل جزء مَن هذه الأجزاء دليل عَلىَ دعواها، حتى يرأف النبي – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم –بحالها وحال صبيتها وحال زوجها. وعندما نزل الوحي بالحكم، أخذت– أيضًا– تجادل عن زوجها، بأنه لا يجد عتق رقبة، ولا يستطيع صيام شهرين، وليس معه ما يطعم به ستين مسكينا، وهنا أعطاها النبي عرقا من تمر، فوضعت عرقا آخر تساعد به زوجها في إخراج الكفارة، وفي نهاية هذا الحوار كان خطابه– صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – معها مليئا بالتشجيع والثناء على مساعدتها زوجها؛ فقد أثنى على فعلها، وَأمرها بالإطعام، ثم الرجوع إلى ابن عمها بقوله:" قد أحسنت، اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينا، وارجعي إلى ابن عمك"، وهذا الحوار من أهم الأساليب التي اعتمدها النبي في التعليم، لما يترتب عليه منَ جذب الاهتمام، وتركيز الذهن، وإثارة المشاعر"(١).

وعن عائشة – رضي الله عنها– أَنّ رسول اللّه– صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – قَالَ: "أَلَمْ تري أَنّ قومك، حين بنوا الْكعبة، اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟، قَالَت: فقلْت: يا رسول الله، أَفَلا تردها علَى قواعد إبراهيم، فقال رسولُ اللّه– صَلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم –: "لولا حدثَانُ قومك بالْكُفر لفعلْتَ"(٢).

فإستراتيجية الإقناع هنا واضحة في ترك النبي– صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم –إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم؛ ولم يكن ذلك زمن الفتح، ولكن كان زمن الدعوة الأولى،

(١) سعيد إسماعيل علي، " السنة النبوية رؤية تربوية"، (ط١، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م):٣٤٨.

(٢) مسلم،" المسند الصحيح": ١٣٣٣.

ولم يكن ذلك منه إلا بسبب أن الوقت لا يناسب ذلك؛ وحتى لا يؤلّب قريشا عليه؛ ولأن كثيرا من الناس كانوا حديثي عهد بالإسلام، وهذا واضح في قوله: "لَولاَ حدْثَانُ قَومك بالْكُفْر لَفَعلْت". وقد علقالإمام النووي – رحمه الله – على هذا الحديث بَقوله: "وفِي َهذَا الحَديث دليل لقواعد من الأحكام... ومنها: تألف قلوب الرعية وحسن حياطتهم، وأن لا ينفروا، ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي"(١)، وهذه الحادثة تدلُّ على مدى معرفة رسول الله– صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – بحال الزمان وأهله، فهو يتحرك بحذر وحيطة ودراية تامة بأوضاع الناس ومستوَى وعيهم، ودرجة استعدادهم لقبول الحق أو الإعراض عنه أو مناوئتهم له.

(١) محيي الدين يحي بن شرف النووي، "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج"،(ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ):٨٩/٩.

نتائج البحث:

١-خطاب النبي – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – للمرأة المسلمة في ضوء الإستراتيجية التوجيهية جاء بطرق متنوعة، مَن أهمها استخدام أسلوب الأمر المباشر، سواء اقترن بعلة أم لا، واستخدام أكثر من أسلوب في التوجيه، كأسلوب الاستفهام، وأسلوب الأمر، وأسلوب النهي، وقد يجمع بين بعضها.

٢-جاء خطابه- صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – للمرأة المسلمة في ضوء الإستراتيجية التضامنية منحازا إلى الرحمة النبوية العامة، التي أرسله الله بها للعالمين، وقد تجلت معاني الرحمة عنده – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – في خطابه للنساء حيث غيَّر بعض أسماء النساء غير المقبولة إلى أسَماء حسنة مقبولة ترتاح لها الأذن، وليس فيها تزكية للنفس ؛ كما كان مثالا حيا للتقرب من زوجاته، خاصة أم المؤمنين عائشة، حيث كان يناديها بأحب الأسماء إليها، ويكنّيها بكنية قريبة من قلبها، وهي أم عبد الله، حتى في سبيل التعليم عند سؤاله عن أفضل الأعمال للمرأة المسلمة، اختار لها الحج، واختار في بيانه لفظ الحسن والجمال.

٣-تجلَّى الخطاب النبوي للمرأة المسلمة في ضوء الإستراتيجية التلميحية في اعتماده على التلميح بدل التصريح، وعلى الإشارة بدل العبارة، وعلى التشبيه والكناية والتعريض بالعبارة مكان التصريح المباشر والدلالة الظاهرة، كما ظهر في ضوء هذه الإستراتيجية ما يطلق عليه مبدأ" التأدب في الخطاب"، ابتعادا عن القول الفاحش والعبارة التي قد تخدش الحياء.

٤- جاء الخطاب النبوي للمرأة المسلمة في ضوء الإستراتيجية الحجاجية مراعيا لسياق الحال، معتمدا على بلاغة عالية، وحجج ساطعة، ومناظرة عقلية قوية، بحيث تحدث تأثيرا في الموقف الفكري للمتلقّي، فيستجيب لها، ويقر من خلالها.

كما استخدم الحديث الشريف في هذه الإستراتيجية أسلوب التعليل، كأداة لغوية

مفيدة، كما استعمل الاستفهام التقريري، لأن" الاستفهام من أنجع الأفعال اللغوية حجاجا"، كما استعملت في بعض الأحاديث آلية بلاغية مهمة، وهي تقسيم الكل إلى أجزائه.

٥- في خطاب النبي – صلَّى اللَّه علَيْه وسلَّم – للمرأة المسلمة كان يختار لها من الأساليب أحسنها، وأفضلها، وأنَسبها، وأقربها إلى فهمها وعقلها، وأشدها تثبيتا للعلم في ذهنها، وأكثرها مساعدة على إيضاحه لها، كما كان يميل إلى الأسلوب المشوق؛ لتطيب نفس المخاطبة وتأنس به، وكان يميل إلى الحوار، سواء كان قصيرًا أو طويلا؛ حتى يعزز ثقة المرأة بنفسها، ويحقق لها الأمن النفسي، كما كان يستخدم أساليب متنوعة في خطابه لها، فتارة يميل إلى الحزم، وتارات يميل إلى الملاطفة، كما كان ينوع بين أسلوب الترغيب والترهيب في مخاطبته لها وحواره معها، وهذا له أثر بالغ في تحفيز النفس في الجزاء الأخروي.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

"اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"، (ط١، المغرب: المركز الثقافي العربي، الدار

"صحيح النسائي". (ط١، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م)

"صحيح سنن أبي داود". (ط١، مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م).

ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري." النهاية في غريب الحديث والأثر". تحقيق محمود محمد الطناحي، (ط١، القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٣م).

ابن العثيمين، محمد بن صالح. "شرح رياض الصالحين". (الرياض: دار الوطن للنشر، ١٤٢٦هـ).

ابن المنير ناصر الدين . "المتواري على أبواب البخاري". تحقيق وتعليق علي حسن علي عبد الحميد،(ط١،المكتب الإسلامي: دار عمار، ١٤١١هـ — ١٩٩٠م).

ابن حجر، أحمد بن علي." فتح الباري شرح صحيح البخاري". رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف طبعه محب الدين الخطيب، عليه تعليقات عبد العزيز بن عبد الله بن باز، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩).

ابن منظور، محمد بن مكرم. " لسان العرب" .(بيروت: دار صادر، د. ت).

أبو داود، سليمان بن الأشعث." سنن أبي داود" (ط١، بيروت: دار الجنان، ١٤٠٩هـ).

أبو هلال العسكري، "الصناعتين الكتاب والشعر". تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (ط١، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦م).

إستيتيه سمير شريف إستيتيه. "اللغة وسيكولوجية الخطاب". (ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م).

الألباني، محمد ناصر الدين. "صحيح الترغيب والترهيب". (ط١، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م).

البخاري، محمد بن إسماعيل." الجامع المسند الصحيح المختصر= صحيح البخاري". تحقيق محمد بن زهير بن ناصر (ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ).

بشر، كمال محمد. "علم اللغة الاجتماعي :مدخل" . (ط١، القاهرة: دارغريب،١٩٩٥م).

البيضاء، ١٩٩٨م).

البيهقي، أحمد بن الحسين. "السنن الكبرى". تحقيق د محمد عبد القادر عطا. (ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣م).

الترمذي، محمد بن عيسى. " الجامع الكبير". حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه د بشار عواد معروف، (ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦م).

الجاحظ، عمرو بن بحر. "البيان والتبيين". تحقيق وشرح عبد السلام هارون، (ط٧، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م).

الرافعي،مصطفى صادق." إعجاز القرآن والبلاغة النبوية". راجعه واعتنى به د .درويش الجويدي.(ط٣، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣م).

زنجير، محمد رفعت. "دراسات في البيان النبوي". (ط١، دمشق: دار اقرأ، ١٤٢٨هـ ت٢٠٠٧م).

سامية بنت يامنة، "سياق الحال في الفعل الكلامي: مقاربة تداولية". (دكتوراه، الجزائر: كلية الآداب واللغات والفنون، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

سعيد إسماعيل علي، " السنة النبوية رؤية تربوية"، (ط١، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٣هـ –٢٠٠٢م).

سمير أبو حمدان. " الإبلاغية في البلاغة العربية"، (ط١، بيروت: منشورات عويدات،

١٩٩١م).

الشهري، عبد الهادي بن ظافر. "إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية". (ط١، طرابلس، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤ م).

الطاهر. رضوان عبد الكريم." لغة الحديث النبوي وفق إستراتيجيات الخطاب" كتاب اللؤلؤ والمرجان أنموذجا". (ماجستير، الأردن: كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠١٦م).

عبد الرحمن، طه عبد الرحمن. "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام".(ط٢، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م).

العليوي، يوسف عبد الله . رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين: دراسة بلاغية تحليلية". (دكتوراه، السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٨-١٤٢٩ هـ).

العنزي، عزيزة بنت رحيل. " خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للمرأة المسلمة: دراسة حديثية موضوعية". (ماجستير، المملكة العربية السعودية: جامعة القصيم، ٢٠١٧م).

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب ." القاموس المحيط". تحقيق مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي،(ط٦، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م).

القزويني، محمد بن عبد الرحمن. "الإيضاح في علوم البلاغة". وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).

قطب، محمد علي." عائشة معلمة الرجال والأجيال".(مكتبة القرآن، د. ت).

مسلم بن الحجاج النيسابوري، " المسند الصحيح ". تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. (ط١، القاهرة:عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٣٧٤ هـ-١٩٥٥م).

مقبول إدريس." الإستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية" . *مجلة كلية العلوم الإسلامية*،

٢/ ١٥(٢٠١٤م).

النووي،يحيى بن شرف."المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج". (ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ).

واضح أحمد ومسلم خيرة،" إستراتيجية الخطاب في البلاغة العربية". (مجلة *سياقات اللغة والدراسات البينية*٢ ، (٢٠١٩م).

Bibliography

Ibn Al-Atheer, Al-Mubarak bin Muhammad Al-Jazari. "al-Nihāyah fī Gharib Al-Hadith wa al-Atharr". Investigated by: Mahmoud Muhammad al-Tanāhi. (1st ed., Cairo: Issa al-Babi al-Halabi, 1963).

Ibn Al-ʿUthaymeen, Muhammad bin Saleh. "Sharḥ Riyadh al-Sāliheen". (Riyadh: Dar Al-Watan Publishing, 1426 AH).

Ibn Al-Munir Nasir Al-Dīn. "al-Mutawārī ʿalā Abwāb al-Bukhari". Investigation and commentary by: Ali Hasan Ali Abd al-Hamid. (1st ed., Al-Maktab Al-Islami: Dār Ammar, 1411 AH - 1990).

Ibn Hajar, Ahmad bin Ali. "Fath Al-Bāri, Sharḥ Sahih Al-Bukhari". numbered its chapters and hadiths: Muhammad Fuʾād ʿAbd al-Bāqī, extracted its hadiths, authenticated and supervised by: Muhibb al-Din al-Khatib, with comments by: ʿAbd al-Aziz ibn ʿAbdillah ibn Bāz. (Beirut: Dār al-Ma'rifa, 1379).

Ibn Manzur, Muhammad bin Mukarram. Lisan al-ʿArab. (Beirut: Dar Sader).

Abu Dawud, Suleiman bin Al-Ash'ath. “Sunan Abi Dawoud” (1st edition, Beirut: Dar Al-Jinan, 1409 AH).

Abu Ghudda, ʿAbd al Fattah Abu Ghudda, "al-Rasoul al-Muʿallam – Sallal Lāhu alaihi wa Sallam – wa Asālībuhu fi al-Taʿlīm". (1st edition, Dar Al-Bashaer Al-Islamiyyah, 1417 AH - 1996).

Abu Hilal Al-ʿAskari. "al-Ṣanāʿatain fi al-Kitāb wa al-Sheʿr". investigated by: Ali Muhammad al-Bajawi and Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim. (1st edition, Beirut: Modern Library, 2006).

Asteeh Samir Sharif Asteteh. "al-Lugha wa Saikolojiyat al-Khiṭāb". (1st edition, Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing, 2002).

Al-Albani, Muhammad Nasir al-Din. "Ṣaḥiḥ al-Tarrghīb wa Tarrhib" (1st edition, Riyadh: Maktabat Al-Maʿārif, 1421 AH - 2000).

"Sahih Sunan Abi Dawoud". (1st edition, Maktabat al-Maʿārif, 1419 AH - 1998).

"Sahih Al-Nasāʾī." (1st edition, Riyadh: Maktabat Al-Maʿārif, 1419 AH - 1998).

Al-Bukhari, Muhammad bin Ismail. "Al-Jami' Al-Musnad Al-Sahih Al-Mukhtasar = Sahih Al-Bukhari". investigated by: Muhammad bin Zuhair bin Nasir (1st edition, Dar Touq Al-Najat, 1422 AH).

Bishr, Kamal Muhammad. "ʿIlm al-Lughat al-Ijtimāʿī - Madkhal". (1st edition, Cairo: Dār Gharib, 1995).

Al-Bayhaqi, Ahmad bin Al-Husain. "Sunan al-Kubrā". Investigated by: Dr. Muhammad ʿAbd al Qadir ʿAtta. (3rd edition, Beirut: Dār Al-Kutub Al-ʿIlmiyyah, 1424 AH - 2003).

Al-Tirmidhi, Muhammad bin Issa. "al-Jāiʿ al-Kabir". Investigated by: Dr. Bashār ʿAwad Maʿrouf. (1st edition, Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami, 1996).

Al-Jahiz, ʿAmru bin Bahr, « al-Bayān wa al-Tabyīn ». investigated by: Abd al-Salam Haroun (7th edition, Maktabat Al-Khanji, 1418 AH - 1998).

Al-Rafiʿī, Mustafa Sadiq. "Iʿjāz al-Qur'an wa al-Balāghat al-Nabawī". revised by: Dr. Darwish Al-Juwaidi. (3rd ed., Beirut: Modern Library, 2003).

Zanjeer, Muhammad Rifʿat. "Dirāsāt fī al-Bayān al-Nabawī". (1st edition, Damascus: Dar Iqra, 1428 AH 2007).

Samiya Bint Yamna. " The context of the situation in the speech act: a pragmatic approach" (in Arabic). (PhD, Algeria: Faculty of Arts, Languages and Arts, 1433 AH - 2012).

Saʿeed Ismail ʿAli. "al-Sunnah al-Nabawiyyah, Ruʾyah Tarrbawiyyah" (1st edition, Cairo: Dar Al-Fikr Al-Arabi, 1423 AH - 2002).

Samir Abu Hamdan. “al-Iblāghiyat fī al-Balāgha al-ʿArabiyyah”, (1st ed., Beirut: ʿUweidat Publications, 1991).

Al-Shehri, ʿAbd al-Hādi bin Ẓafir. "Discourse Strategies: A pragmatic linguistic approach.” (1st edition, Tripoli, Libya: Dar Al-Kitab New United, 2004).

Al-Ṭahir, Ridwan ʿAbd al-Karim. “The Language of the Prophet’s Hadith According to Discourse Strategies” The Book al-Luʾluʾ wa al-Marrjān as a case study” (in Arabic). (MA, Jordan: Faculty of Arts, Yarmouk University, 2016).

ʿAbd al-Rahman, Taha ʿAbd al-Rahman. "Fī ʾUṣūl al-Ḥiwār wa Tajdīd ʿIlm al-Kalām" (2nd ed., Casablanca, Morocco: Arab Cultural center, 2000).

"al-Lisān wa al-Mizān aw al-Takawthur al-ʿAqlī" (1st ed, Casablanca - Morocco: Arab Cultural center, 1998).

Al-ʿUlaiwi, Yousuf ʿAbdullah. “Considering the addressee’s condition in the hadiths of the Two Sahihs: An analytical rhetorical study” (in Arabic). (Ph.D., Saudi Arabia: Imam Muhammad bin Saud Islamic University, 1428-1429 AH).

Al-ʿAnzi, Azizah bint Raheel. “The Prophet’s speech - may Allah bless him and grant him peace - to Muslim women: an objective hadith

study". (MA, Kingdom of Saudi Arabia: Qassim University, 2017).

Al-Fayrouzabadi, Muhammad bin Yaqoub. "al-Bahr al-Muḥīṭ". Investigation of Al-Resala Foundation, under the supervision of Muhammad Naeem Al-ʿAraqsusi, (6th edition, Beirut: Al-Resala Foundation, 1998).

Al-Qazwini, Muhammad bin ʿAbd al-Rahman. Al- Īḍāh fi ʿUlūm al-Balāgha". Footnotes by: Ibrahim Shams al-Din. (1st edition, Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1424 AH - 2003).

Qutb, Muhammad ʿAli, "Aisha, the teacher of men and generations" (In Arabic). (Qur'an Library).

Muslim bin Al-Hajjaj Al-Naysābouri, "Al-Musnad Al-Sahih". Investigated by: Muhammad Fuʾād Abd al-Bāqi. (1st edition, Cairo: Issa Al-Babi Al-Halabi an co, 1374 AH - 1955).

Maqboul Idris. "Communicative strategies in the Sunnah of the Prophet" (in Arabic). Journal of the College of Islamic Sciences, 2/15 (2014).

Al-Nawawi, Yahya bin Sharaf. "Al-Minhāj Sharḥ Sahih Muslim bin Al-Hajjaj." (2nd edition, Beirut: Heritage Revival House Al-Arabi, 1392 AH).

Wādih Ahmad and Muslim Khaira. "Discourse Strategy in Arabic Rhetoric" (in Arabic). (Journal of Language Contexts and Interface Studies 2, (2019).

مزاعم قصور اللغة العربية بين اللسانيات الشعبية واللسانيات العلمية

(دراسة تحليلية نقدية لمفهوم الكمال اللغوي)

Allegations of the Deficiency of the Arabic Language between Folk Linguistics and Linguistics (A critical Analytical Study of the Concept of Linguistic Perfection)

أ. د. عزمي محمد حمود عيال سلمان

أستاذ الدراسات اللغوية بقسم اللغة العربية بكلية العلوم والآداب بجامعة نجران

البريد الإلكتروني: amsalman@nu.edu.sa

الملخص

تهدفُ هذه الدراسة إلى الوقوف على مزاعم القول بـ(قصور العربية)، وهو حكم نقدي قد انبنى عليه ادّعاء بصرامة بنيتها وصعوبتها وعدم نضجها. وخطة البحث تقتضي مبدئيًّا تشكيل تصوّر نظريّ دقيق عن مفهوم (الكمال اللغوي) المقتضي لمفهوم (القصور) أو (النقص)، فهما مفهومان عامّان يقترنان بتصوّرات غامضة وفضفاضة عن تقييم اللغات وتفضيل بعضها على بعض، ولذلك بُنيت عليهما تصورات وهمية مرتبطة بأحكام نقدية مقولبة ومختصرة. فغالبًا ما وَجدتْ تلك التصورات مداخل لها في أشهر المنعطفات التاريخية للدرس اللساني الغربي. وهو ما جعل تتبُّع مفهوم الكمال اللغوي يسلك بتسلسله الزمني مسالك متعددة يُمكن إجمالها في جوانب أربعة على النحو الآتي: الجانب الفكري، والجانب الشكلي، والجانب النظامي، والجانب الشعبي. واللغة العربية، وإن كانت هي المعنية هنا بدرجة أولى، إلا أنها لا تُمثِّل حالة خاصة للمسألة، فهناك لغات كثيرة لا تزال عُرضة للانتقاد والاتهام بالنقص. ومسألة النقد اللغوي برمّتها لا تزال مُشبعة بقدر كبير من الآراء والمعتقدات الشعبية غير المتخصصة.

كلمات مفتاحية: الكمال اللغوي، القصور اللغوي، النقد اللغوي، اللسانيات العلمية، اللسانيات الشعبية.

Abstract

This study aims at examining the allegations of the "deficiency of Arabic language", an allegation has been made of its rigid structure, difficulty, and immaturity. The research plan, initially, requires the formation of an accurate theoretical conception of the (linguistic perfection) term which requires the concept of (deficiency) or (imperfection), as they are two general concepts associated with ambiguous and loose visualizations about evaluating languages and preferring one over others. Therefore, illusionary visualizations linked to stereotyped and brief critical judgments were built upon them. These visualizations often found their entry points in the most famous historical turning points in the Western linguistic study. This is what made tracing the concept of linguistic perfection follows multiple paths in its chronological sequence that can be summed up in four aspects as follows: the intellectual aspect, the formal aspect, the systematic aspect, and the popular aspect. The Arabic language, although it is primarily concerned here, does not represent a special case of the issue, as there are many languages that are still subject to criticism and accusation of deficiency. The entire issue of linguistic criticism is still full of a large amount of popular, non-specialized opinions and beliefs.

Keywords: Linguistic Perfection, Linguistic Deficiency, Linguistic Criticism, Linguistics, folk linguistics.

المقدمة

إن تعدد اللغات وتنوّعها هو السبب الأساس لوجود ممارسات النقد اللغوي، فالتعدد ذو دلالة واضحة على الاختلاف، وقد أوهم ذلك بوجود تمايز يُبيح وضع مقاييس لحدود تراتبية وتفاضلية بين اللغات، فبما أن اختلاف اللغات يُحدِّد المجموعات البشرية، فإنه يرتبط إذًا بأحكام تقييمية تُحدِّد مكانة كل لغة وطابعها ومستواها بحسب مكانة المجتمع الذي يتكلّمها.

فالمجتمعات البشرية أبنية طبقية بطبيعتها، وهو ما يعني ضمنًا أن انعكاسها على اللغات يرتبط بأحكام نقدية، فالقول بالحرمان اللغوي عادة ما يكون ملازمًا للحرمان المجتمعي. وبحسب كشف البحث في المواقف اللغوية، فإن الأحكام التقييمية للتنوعات اللغوية طبقًا للمقاييس العملية (الوضوح والإبهام) أو الجمالية (أناقة الأصوات النطقية) تضم في العادة تحيّزات غير موضوعية، فالأحكام النقدية وتقييم الاختلاف اللغوي هي أحكام مزاجية؛ أي ليست ثابتة في الزمن أو عند جماعات البشر.

والمثال الذي تنطبق عليه الحالة هنا هو اللغة الإنجليزية، فهي وإن كانت اليوم اللغة العالمية الأولى ولغة العلم! فقد وُصفت في القرن السادس عشر بأنها الأكثر هُجنَة وتحريفًا بين اللغات، حيث يعود أصلها إلى مزيج من البريطانية القديمة مع السكسونية، ويُضاف إلى ذلك استعارات معجمية من لغات أخرى. فقد واجهت الإنجليزية خلال قرونٍ قليلة ارتقاءً دراماتيكيًّا لقيمتها من أكثرها ازدراء وسُخرية إلى

أعلاها مكانة ورفعة[١].

والنقد اللغوي في الواقع هو نشاط مألوف جدًّا منذ آلاف السنين، ولا يُمارسه علماء اللغة وحدهم، بل يُمارسه الفلاسفة والمفكرون والأدباء وكبار المثقفين وكتاب الصحف والإعلاميون والمدرسون، ويُمارسه أيضًا مصنفو المعاجم ومحررو الصحف ومراقبو المطبوعات ...إلخ. واللسانيون في القرن العشرين قد اتخذوا موقفًا مُتحفِّظًا من مسألة النقد اللغوي، فبينما كان الكمال اللغوي وتفاضل اللغات في العصور المبكرة أحد الاهتمامات الرئيسة لهؤلاء المتعاملين مع اللغة بشكل علمي، فإنه لم يعد مناسبًا علميًّا للسانيين المعاصرين أن ينشغلوا بمثل هذا المسعى[٢].

ولكن عدم نظر اللسانيات في مسألة النقد اللغوي يحكم على المسألة بأن تبقى جُزافية تعسُّفيّة، وبالتالي فإن التصدي لما يجب أن تُسهِم به اللسانيات المعاصرة هو أمر ذو أهمية بالغة في تناول الآراء والمعتقدات الشعبية.

والتفاتُ فئة من اللسانيين المعاصرين إلى مسألة النقد اللغوي جعلها تتخذ موقفًا جدّيًّا وجريئًا منتصف ستينات القرن العشرين عندما اجترحت مصطلح (اللسانيات الشعبية) ليكون تيارًا لسانيًّا يتصدَّى لآراء ومعتقدات غير المتخصصين في المواقف اللغوية، فاللسانيون لديهم المنهج الأعمق والعُدّة الأقوى لفهم الطبيعة غير العلمية

(١) يُنظَر: لو فيفن، "اللغة ودارسوها (تاريخ اللغويات)". ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، (ط١، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ)، ص٨١٢.

(٢) يُنظَر: كولماس فلوريان، "اللغة والاقتصاد". ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٣)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٠م)، ص٢٧٣.

للأحكام النقدية. ولذلك فقد وجد اللسانيون أن عليهم تحمّل المسؤولية المترتبة على معرفتهم العلمية.

إن ما يُثير مسألة النقد اللغوي هنا هو ما يُشاع تداوله اليوم من أحكام تقييمية تنتقص من لغات كانت ولا تزال تُعد لغات عالمية، واللغة العربية هي من تلك اللغات التي تتعرَّض للهجوم في وقتنا الحالي. فهنالك ادّعاء وزعم معاصر يقول بقصور العربية وجمودها، وقد انبنى عليه القول بصرامة نحوها وصعوبته وعدم نضجه، وهو ما يُشكِّل قيدًا على فكر العربي(١).

فبالرغم من أن كل لغة تمتلك في بنيتها أنحاء كاملة في إجراءاتها التشغيلية، فإن فئة من الناس ترى أنه حين تُقارَن العربية بالإنجليزية أو الألمانية، وهما لغتان تتميَّزان بكثرة قواعد التحويل والدمج والجمل المعترضة، فإن العربية لا تبدو غنية بأنواع الجمل. فقد تغلَّبت اللغات الأوروبية على فقرها بتطوير ذاتها تطويرًا كبيرًا، بخلاف العربية التي يمنعها قصورها التركيبي من التقدّم والتطوير(٢).

ولا يعلم المرء من أي مكان جُلِب هذا النقد، وعلى أي أساس بُني، فمعظم من درس بنية العربية من غير العرب، رأى أن شبكة العلاقات بين قواعدها قوية البنيان وشديدة الوضوح، وهو ما يُتيح لمستعمليها التعبير بها عن أي فكرة على نحو دقيق، وبشكل يُميِّزها من الأفكار الأخرى. وقد انعكس ذلك على الدرس النحوي العربي الذي يتميز بشهادة بعض الدارسين الغربيين باستقصاء وإتقان أكثر شبهًا بالدرس الذي

(١) يُنظَر: جستس ديفيد، "محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية". ترجمة: حمزة قبلان المزيني، (ط١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٥هـ)، ص٦١.

(٢) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٦١.

أُنجز في اللغة السنسكريتية منه بما حدث في اللغات الرومانسية[١].

وقد ارتأتْ الدراسة الوقوف على مسألة مزاعم القول بقصور العربية في بُعدها النظري، وهو ما يُوجب البحث في مفهوم (الكمال اللغوي)، المقتضي ضمنًا لمفهوم النقص والقصور، وجوانبهما المتعددة. فالأحكام التقييمية المتعلقة بالتصنيف التفاضلي للغات ليست وليدة هذا العصر، وإنما هي مسألة قديمة ترجع بأصولها الأولى إلى اليونان الذين لم يروا لغة أكمل من لغتهم. وبقيت تلك الأحكام – على تفاوت في اختياراتها واصطفاءاتها – مستمرة منذ ذلك الحين. وهكذا فقد كانت هنالك أربعة جوانب أساسية لمفهوم الكمال اللغوي، وضعتْها الدراسةُ مرتبة وفق التسلسل التاريخي لأشهر منعطفات البحث اللساني.

وجدير بالذكر أن الباحث – بحسب اطّلاعه – لم يقف على أيّ دراسة علمية سابقة تتناول هذا البُعد التأصيلي للمسألة، فهنالك إشارات للأحكام النقدية المتعلقة بقصور العربية على نحو ما هو ماثل في كتاب: (محاسن العربية في المرآة الغربية) لديفيد جستس، وكذلك في بحث: (التحيز اللغوي: مظاهر وأسبابه) لحمزة بن قبلان المزيني[٢]. فهذان بحثان مُهمّان في بابهما، وقد أفادت الدراسة منهما في رصد مزاعم القول بقصور العربية؛ فتلك المزاعم، بشواهدها وأدلتها، كانت هي الباعث الأساس لتناول أصول المسألة وجوانبها المتعددة على نحو لم يُسبَق إليه.

وقد وَضعتْ الدراسة ضمن هدفها المحدد بالبُعد النظري الإجابة عمّا يلي: ما

(١) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص١٩.

(٢) يُنظَر: المزيني حمزة بن قبلان، "التحيز اللغوي مظاهره وأسبابه". مجلة جذور ٥، (٢٠٠١م): ص: ٥٣ – ١٤٠.

هي جوانب مفهوم الكمال اللغوي في تاريخ البحث اللساني؟ وكيف نُظِر لقصور اللغات من منظور تلك الجوانب؟ وهل حدّ ظهور اللسانيات العلمية المعاصرة من إطلاق الأحكام التقييمية التعسفية؟ وكيف يتعاطى اللسانيون اليوم مع الأحكام النقدية المشبعة بالآراء والمعتقدات غير المتخصصة؟ وللإجابة عن ذلك فقد اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي في معالجة المادة العلمية التي يقوم عليها البحث. وتأملُ الدراسة أن يكون فيما تُقدِّمه إضافة علمية إلى حقل اللسانيات العربية.

وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة هي من ضمن دراسات مشروع بحثي يحمل الرمز (NU/RG/SEHRC/12/16)، وهو من المشاريع البحثية المدعومة للمرحلة الثانية عشرة في جامعة نجران، ولهذا فإنني أتحيّن الفرصة لأُزجي جزيل الشكر وعظيم الامتنان لوزارة التعليم ولعمادة البحث العلمي في جامعة نجران/ المملكة العربية السعودية، للدعم المالي والتقني الذي حظيتُ به طيلة إعداد المشروع.

جوانب الكمال اللغوي

هنالك جوانب متعددة لبحث مفهوم الكمال اللغوي، بوصفه المفهوم الأساس لإطلاق أحكام نقدية وتوليد مصطلحات زائفة تحمل تصورات وهمية عن تقييم اللغات وتفضيل بعضها على بعض. فقد خُيّل لكثير من الناس وجود مراتب للكمال اللغوي تصلها لغات وتقصر دونها لغات أخرى، وهكذا فإن مفهوم الكمال اللغوي يقتضي مفهوم القصور والنقص وعدم النضج وغير ذلك من المصطلحات.

ويُمكن إجمال جوانب مفهوم الكمال اللغوي الذي يستتبع ضمنًا جوانب مفهوم القصور اللغوي فيما يلي: الجانب الفكري، والجانب الشكلي، والجانب النظامي، والجانب الشعبي. وهذه الجوانب مجتمعة تكاد تختصر أشهر المواقف النقدية تجاه اللغات في تأريخ البحث اللساني، وهي على النحو الآتي.

١. الجانب الفكري:

تعود فكرة الكمال اللغوي بأصولها النقدية الأولى إلى عصر اليونان، حيث نُظِر إلى اللغة الإغريقية على أنها أكمل اللغات وأتمّها، والباعث على هذه النظرة هو التعصب العرقي، فالغرباء هم برابرة عند أهل أثينا؛ لأنهم لا يتكلمون الإغريقية. ويمكن أن نتصوَّر أن الناس حتى قبل ذلك الزمن كانوا دائمًا، في إدارة الاختلاف اللغوي، ميّالين إلى السُّخرية من عادات الآخرين، وإلى اعتبار أن لغتهم هم هي الأكمل، وهي الأجمل، وهي الأدق؛ أي أنهم كانوا دائمًا ميّالين إلى تحويل اختلاف الآخر إلى نقصان وقصور فيه؛ لأن من المعتاد أن يكون الآخر دائمًا هو صاحب الاختلاف، فما دُمتَ لا تتكلم مثلي، فإذًا أنت تتكلم بصورة ناقصة تُثير السخرية[١].

(١) يُنظَر: كالفي لويس جان، "حرب اللغات والسياسات اللغوية"، ترجمة: حسن حمزة (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨م)، ص٥٩.

يقول ابن حزم (٣٨٤ – ٤٥٦هـ): "وقد توهّم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له؛ لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، فتساوت اللغات في هذا تساويًا واحدًا... وقد غلط في ذلك جالينوس (١٢٩ – ٢١٦م) فقال: إن لغة اليونان أفضل اللغات؛ لأن سائر اللغات إنما هي تُشبه إما نباح الكلب أو نقيق الضفادع ... وهذا جهل شديد؛ لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق"(١).

ويرى سوسير أن كل أمة تعتقد بتفوّق لغتها وتُسرع في عدّ من يتكلمون لغة أخرى بأنهم عاجزون عن الكلام، فالكلمة اليونانية Barbaros (بربري) تعني: (الشخص الذي يتلعثم)، ومثلها الكلمة اللاتينية Balbus بالمعنى نفسه، أما في روسيا فإن الألمان يوصفون بأنهم Nemtsy أي: (بُكم)(٢).

وفي مطلع التواصل البشري كانت التعددية اللغوية هي المسيطرة، وقد قام التواصل بوضع البشر في موضع صراع لساني دائم، فالجماعات الأولى التي كانت تتواصل فيما بينها هي في مواجهة دائمة مع لغات الآخرين، في مواجهة الاختلاف النطقي، وفي مواجهة مشكلات التفاهم، في مواجهة تعدد اللغات واحتقار الشكل اللغوي الذي يأتي به الآخر. وكما هو معروف، فإن اليونانيين قرروا بكل بساطة أن جميع الذين لا يتكلمون اللغة الإغريقية لا يتكلمون لغات حقيقية، وإنما يُصدرون نباحًا أو نقيقًا أو مجرد قرقرة في أحسن الأحوال، وأنهم إذًا برابرة. وسواء أتعلَّق الأمر باحتقار أيديولوجي للغة الآخر أم بالرغبة في قتلها، فإن التعصب اللغوي محفور في تاريخ البشرية منذ عهودها

(١) ابن حزم علي بن أحمد (ت:٤٥٦هـ)، "الإحكام في أصول الأحكام". تقديم: إحسان عباس، (ط١، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م)، ١: ٣٢.

(٢) يُنظَر: المزيني حمزة بن قبلان، "التحيز اللغوي مظاهره وأسبابه"، ص٦٨.

الأولى[١].

وقد بدأت فكرة الكمال اللغوي تأخذ طابعًا فكريًّا فلسفيًّا بعد أن كانت ذا طابع عرقي، فتتبُّع الجانب الفكري لمقولة الكمال اللغوي يمكن رصده لدى أصحاب الاتجاه العقلاني الذين أكدوا العلاقة التي تربط اللغة بالعقل، فقد سُمُّوا هؤلاء بالعقلانيين، وهؤلاء العقلانيون لا ينحصرون في زمن معيّن، فهم يقعون على امتداد طويل يبتدئ بأفلاطون، ثم ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠م)، فنحاة بور رويال في القرن السابع عشر، ثم فيلهلم فون همبولت (١٧٦٧ – ١٨٣٥م)، فتشومسكي في الوقت المعاصر، وهكذا يستمرون عبر العصور.

فهناك إذًا تقليد عريق، يُمثِّله ديكارت وتُمثِّله بور رويال والنحو الفلسفي حتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، وأعادت القواعد التوليدية إحياءه في النصف الثاني من القرن العشرين، أو هي بالأحرى أعطت هذا الإحياء بريقًا جديدًا، فعندما وضع تشومسكي كتابه (اللسانيات الديكارتية) أراد أن يُحدِّد مجموعة من الأفكار والاهتمامات التي ظهرت في تقاليد النحو الكلي أو النحو الفلسفي الذي تطور عن كتاب (النحو العقلاني العام). والقول بأن النحو الكلي ينزع إلى أصل ديكارتي هو من المتفق عليه عند القدماء، فنظرية بور رويال للنحو هي فرع للنزعة الديكارتية[٢].

وهكذا شغل الفلاسفة أنفسهم طويلًا بأسئلة من مثل: في أي شيء يكمن جوهر اللغة؟ وكيف يمكن تعريفها تعريفًا دقيقًا؟ وكيف تُنجَز ظاهرة التفاهم المتبادل؟ وما عسى أن تكون طبيعة (اللغة الكاملة) من المنظور الفلسفي؟ وغير ذلك من الأسئلة.

(١) يُنظَر: كالفي، "حرب اللغات والسياسات اللغوية"، ص٥٨ – ٦٠.

(٢) يُنظَر: تشومسكي نعوم، "اللسانيات الديكارتية – فصل في تاريخ الفكر العقلاني". ترجمة: حمزة قبلان المزيني، (ط١، عمّان: دار كنوز المعرفة، ٢٠٢٢)، ص١٤٩، ١٥٠.

وقد اكتسب هذا الاهتمام حافزًا أقوى في الحقبة التي كان الناس فيها يواصلون بحثهم عن اللغة الكاملة. ولكي يُنظِّموا البنية المنطقية للغة الفكر بأقصى قدر مستطاع من الدقة لم يكن أمامهم سوى أن يوثِّقوا صلتهم ببنية اللغة الإنسانية التي هي أكمل أداة للتواصل ابتُكرت حتى الآن(١).

فأصل الحكم على اللغة بالكمال يتعلَّق بقدرتها على التعبير عن أدقّ الأفكار، ويؤكد ديكارت أنه لا يوجد إنسان يبلغ حدًّا أدنى من عدم الكمال حتى إنه لا يستعمل اللغة للتعبير عن أفكاره، ولا يوجد حيوان يبلغ من الكمال ما يجعله يستعمل إشارة لجعل الحيوانات الأخرى تفهم شيئًا لا صلة له بانفعالاته. ويستعمل البشر الكلام مهما كانوا عليه من الغباء أو الخلل العقلي، حتى إن لم يكن لديهم ألسنة أو أعضاء نطق. ومن هنا يمكن أن تؤخذ هذه الأشياء على أن البشر على اختلاف ألوانهم وأعراقهم يمتلكون لغات كاملة للتعبير عن أفكارهم، فالكلام الحقيقي الذي هو سمة للبشر عن باقي المخلوقات لا يكون إلا كاملًا(٢).

وبالرغم من القول بكمال اللغة البشرية، فقد شاعت آراء ترى أن أكثر اللغات تعجز عن التعبير عن أفكار معقدة؛ لفقدانها قواعد نحو منطقية بما فيه الكفاية، بعكس لغات قليلة تُعدُّ وسيلة مثالية لتشكيل أعمق الأفكار الفلسفية وأدقّها، ولكونها لغات منظمة تنظيمًا ملحوظًا قد يكون السبب في كون الناطقين بها منظمين فكريًّا، فبنيتها التركيبية هي أحد أسباب ميولاتهم الفلسفية إلى بناء الأنظمة الفكرية. بينما يكون فكر الناطقين بلغات قاصرة هو أكثر قبولًا للغموض وانعدام النظام، وذلك يعود إلى غرابتها

(١) يُنظَر: إفيتش مليكا، "اتجاهات البحث اللساني". ترجمة: سعد مصلوح ووفاء فايد، (ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م)، ص٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) يُنظَر: تشومسكي، "اللسانيات الديكارتية"، ص١٥٩ – ١٦٢.

وتسيّب بنيتها التركيبية التي أهلكت عقولهم(١).

لقد تغلغلت تقاليد الماضي في التراث النحوي للقرنين السابع عشر والثامن عشر، فظلت فكرة منطقية اللغة لزمن طويل هي الدعامة النظرية الأساسية للنحو. وقد مثّلتها في الغالب عن جدارة الأعمال التي أُنجزت في مركز الدراسات النحوية في بور رويال. وكان هذا المركز هو الذي نشر عام ١٦٦٠ الكتاب الشهير: (النحو العقلاني العام). وقد عبّر هذا الكتاب عن القاعدة الأساسية لنحاة بور رويال تعبيرًا صريحًا: فهم يرون أن النماذج النحوية ينبغي عليها أن تتطابق بقدر المستطاع مع متطلبات المنطق. ولمّا كان المنطق منطقًا واحدًا وجامعًا ومشتركًا بين البشر، كان من الممكن بناء نظرية نحوية جامعة تناسب جوهر كل اللغات في العالم. فقد استُخدم نحو بور رويال نموذجًا في القرن الثامن عشر لوضع نظريات نحوية فلسفية؛ أي وضع أنظمة نحوية جامعة مؤلفة وفقًا لأسس منطقية عامة(٢).

ولم ينشد نحاة بور رويال تفسيرًا عامًّا لكل قواعد اللاتينية، متجاهلين اللغات الأخرى، ولكنهم حاولوا أن يكشفوا عن وحدة القواعد التي ترتكز عليها القواعد المستقلة للغات المختلفة في دورها في التفكير الاتصالي الذي يشتمل هو نفسه على الإدراك والحكم والتعليل(٣).

فقد بدأت الأبحاث الأكاديمية بشأن (قواعد النحو العالمية) تروج منذ القرن

(١) يُنظَر: دويتشر غاي، "عبر منظار اللغة (لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟)". ترجمة: حنان عبد المحسن مظفر، سلسلة عالم المعرفة (٤٢٩)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٥م)، ص١٨، ١٦٦.

(٢) يُنظَر: إفيتش، "اتجاهات البحث اللساني"، ص٣٧.

(٣) يُنظَر: روبنز روبرت هنري، "موجز تاريخ علم اللغة في الغرب". ترجمة: أحمد عوض، (سلسلة عالم المعرفة (٢٢٧)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧م)، ص١٨٢، ١٨٣.

السابع عشر، بيد أن عالم تلك القواعد كان محدودًا؛ فعدد الألسنة الجديرة بالاهتمام كان تسعة: اللاتينية، والإغريقية، والإيطالية، والإسبانية، والفرنسية، والعبرية، والآرامية، والسريانية، والعربية(١).

فقد قام نحاة بور رويال بمحاولة أصيلة لكتابة قواعد عامة مستشهدين بأمثلة من اللاتينية واليونانية والعبرية واللغات الأوروبية الحديثة، أرادوا أن يرجعوا هذه القواعد العامة إلى الخصائص العمومية المزعومة للغة. إذ كان هدف أفكار فلاسفة حركة التنوير الفرنسية وأسلافهم التقليديين وأتباعهم هو استنباط الخصائص الكونية للغة، مما كان معروفًا أو من المفترض بأنه معروف بالخصائص الكونية للعقل البشري(٢).

إذًا هنالك بنى منطقية عالمية تُتيح لكل من لديه فكرة واضحة مهما يكن عمقها أن يُعبِّر بلغته ولو لم تكن لغته هي اللغة الإغريقية أو اللاتينية، بل إن إحدى المفارقات الواضحة هي أن الأعمال الأصلية الصادرة عن بور رويال قد كُتبت باللغة الوطنية، فقد عُدَّت اللاتينية لغة مشوهة ومصطنعة وضارة بعملية استخدام التفكير الواضح والفطرة السليمة(٣).

فهذا التصور لعقل إنساني ذي قوانين ثابتة لا تتحرك ومتماثل تمام التماثل في كل الأرجاء، كان محل تسليم الجميع في ذلك الحين. ويبدو أنه كان مرتبطًا بفكرة الانعتاق من اللغة اللاتينية، فإذا كان العقل متماثلًا لدى البشر، فإن مسألة التفكير بواسطة اللغة اللاتينية أو إحدى اللغات الرومانسية لا يعدو أن يكون أمرًا شكليًّا لا علاقة له

(١) يُنظَر: دويتشر، "عبر منظار اللغة (لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟)"، ص١٥٢.

(٢) يُنظَر: ليونز جون، "اللغة واللغويات". ترجمة: محمد إسحاق العناني، (ط١، عمّان: مؤسسة رلي للنشر، ١٩٩١م)، ص٢٧٦.

(٣) يُنظَر: أتكيسن جين، "اللغة والعقل (اللغويات النفسية)"، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب: (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثاني (مجال اللغة الأوسع)، (ط١، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ)، ص٢٤.

بجودة التفكير وقوته[١].

فنحن إذا علمنا أنه قد أمكن للغات أخرى من نوع آخر أن تُوفي بالحاجات المتنوعة التي تطلبتها أفكار لا تقل عن الأفكار الإغريقية ثراء وتعقيدًا، رأينا أنه من العبث أن نبحث عن المثل الأعلى للكمال اللغوي في نوع من اللغات دون سواه. وقد يكون من المُسلِّي أن يقوم إنسان بالبرهان على أن اللغة التي كتب بها هوميروس (القرن الثامن قبل الميلاد) وأفلاطون وأرخميدس (٢٨٧ – ٢١٢ق.م) تفوق لغة شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦م) ونيوتن (١٦٤٣ – ١٧٢٧م) وداروِن (١٨٠٩ – ١٨٨٢م) أو تتخلَّف عنها. فقد أمكن لكل هؤلاء أن يُعبِّروا تعبيرًا تامًّا عمّا أرادوا التعبير عنه، ولكن بوسائل مختلفة. وكلهم يتساوون في الفضل؛ لأن كلًّا منهم أمكنه أن يجد في لغته العبارة المساوية لفكرته. والواقع أنه لا توجد إطلاقًا لغة قد قصّرت عن خدمة إنسان سويّ عنده فكرة يُريد التعبير عنها[٢].

ويقول ديكارت في (حديث المنهج): "أولئك الذين يفكرون خير تفكير، ويهضمون أفكارهم خير هضم ليجعلوها واضحة مفهومة، يستطيعون دائمًا أكثر من غيرهم أن يُفهِموا الآخرين آراءهم، ولو لم يتكلَّموا غير البريتانية السُّفلى". فلا ننصت إذًا إلى أولئك المؤلفين العاجزين الذين يحمِّلون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في مؤلفاتهم؛ لأنهم هم المسؤولون على وجه العموم عن هذا النقص. فقد يكون من حُسن طالع الكاتب أن يجد أمامه تقاليد يسير عليها، وأن يستعمل لغة قامت بتحضيرها وصقلها سلسلة طويلة من الكُتّاب[٣].

(١) فندريس جوزيف، "اللغة". ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، (ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م)، ص١٥٣، ١٥٤.

(٢) فندريس، "اللغة"، ص٤٢٠، ٤٢١.

(٣) فندريس، "اللغة"، ص٤٢١.

فقيمة اللغات من الناحية النفعية أو الجمالية لا يصحّ أن يكون لها حساب في الكلام على تقدُّم اللغة، فموهبة الكُتَّاب تستطيع في حقبة من النشاط الأدبي القوي والرخاء الوطني والسيادة السياسية، أن تخلع على اللغة درجة من الكمال تكاد تكون مطلقة، وبالتالي حالًا من الهيبة تفرضها على الكون بأسره. فينبغي إذًا في الكلام عن مسألة كمال اللغة أن نغض النظر عن مثل هذا التقدُّم المؤقّت الذي قد تُصادفه هذه اللغة أو تلك(١).

فمثل هذه اللغات، وإن كانت لغات متقدمة في زمانها، إلا أن اختيارها لغة للفكر أو العلم لا علاقة له على الإطلاق بأيّ ميزة من ميزاتها البنيوية المتأصلة؛ إذ ليس هنالك توافق عجيب بين بنية لغة معينة وأشياء علمية أو فكرية. فمن الممكن أن تقوم أي لغة أخرى بما قامت به الإغريقية أو اللاتينية أو العربية أو الإنجليزية أو غيرها في مجال الفلسفة والعلم(٢).

ويترتب على هذا أنه يمكن لكاتب عظيم أو مفكر عظيم أن يُعدِّلا من (طابع) اللغة ويُغنيا طرائق التعبير فيها من غير أن يُؤثِّرا على بنيتها النحوية (شكلها). فطابع اللغة لا شكلها هو الذي يعكس الإبداع الحقيقي بمعنى أعلى؛ أي بالمعنى الذي يشهد بالقيمة والجدّة كذلك(٣).

وقد اقترح همبولت تمييزًا مهمًّا بين (شكل) اللغة و(طابعها). ويبدو من استعماله لهذا المصطلح أن طابع اللغة تُحدِّده الطريقة التي تُستعمل بها، لا سيما في الشعر والفلسفة، وهنا يجب تمييز طابع اللغة الداخلي من بنيتها التركيبية والدلالية اللتين تعودان

(١) يُنظَر: فندريس، "اللغة"، ص٤٢٢.

(٢) يُنظَر: مونتغمري سكوت، "هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية – اللغة الإنجليزية ومستقبل البحث العلمي". ترجمة: فؤاد عبد المطلب، سلسلة عالم المعرفة (٤١٩)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٤م)، ص٥٤.

(٣) يُنظَر: تشومسكي، "اللسانيات الديكارتية"، ص٢٠١.

إلى الشكل لا إلى الاستعمال. وسوف يُدخل الزمنُ في اللغة غالبًا ما لم يكن فيها من قبل، ويُدخل ذلك من غير إحداث تغيير في أصواتها، وأقل من ذلك في أشكالها وقوانينها، ويُنجز الزمنُ ذلك كله من خلال تنامي الأفكار التطورية وتصعيد قوى الفكر وقدرة أكثر عمقًا للتعبير عن دقائق الشعور(١).

فهنالك خصائص تنطبق على شكل اللغة (بنيتها التركيبية) ولا تنطبق على طابعها (أسلوبها وطرائق تعبيرها)، والعكس أيضًا صحيح، ومن ذلك أنه ليس بالإمكان تفسير الاختلافات بين (اللغات) بمصطلحات التراتبية، فمفهوم (اللغة الكاملة) أو (اللغة المتقدمة) لا يتضمن أي محتوى فعلي أو فكري، والأمر بخلاف ذلك في (الخطابات)؛ إذ يمكن أن تُفسَّر بمصطلحات التراتبية، والحالة الأوضح هي حالة (الحقيقة)، فهنالك خطاب يحمل قيمة الحقيقة، وهنالك خطاب يخلو منها، فالمتكلمون في خطاباتهم لا يقولون الشيء كما هو، وليس هذا بالأمر السهل، فكل متكلِّم يملك طبعه الخاص وميله وذوقه وأهواءه التي تحمله على المبالغة أو التلطيف.

فلا يكفي أننا نتلقَّى اللغة جاهزة كاملة كما هي، فنحن نوظِّف في خطاباتها أفكارًا مختلفة بحسب الأشخاص، فخطاباتنا تتغير معنا وأفكارنا التي تحملها قد تُصبح ملتبسة علينا، فلا نعود نفهم ما قُلناه، فالمتكلم يعيش هشاشة وقصورًا في طرائق التعبير وليس في اللغة، فانعدام الكمال جزء من الخطاب ومرتبط بممارسات التعبير، وليس جزءًا من اللغة. فهنالك إذًا جدوى من الحديث عن قيمة الحقيقة في الخطابات، ولكن لا جدوى من التحدُّث عن قيمة الحقيقة في اللغة. وبالطريقة ذاتها يمكن لخطاب ما أن يكون أكثر عقلانية من خطاب آخر، ولا معنى من تأييد فكرة أن لغة ما هي أكثر عقلانية من لغة أخرى.

فكل اللغات قد بلغت درجة عالية من الكمال، وهي ملائمة للقيام بالتحليلات

(١) يُنظَر: تشومسكي، "اللسانيات الديكارتية"، ص٢٠١.

الفكرية والعلمية، وإذا لم ترجع لغة ما بالفائدة إلى جميع العقول، فسبب هذا هو غياب المعرفة الجيدة بها. فهنالك إذًا موقف واضح الرؤية، وهو أن كل لغة بشرية هي لغة كاملة ومكتملة، وتَعِد بتوسُّع مستمر في إمبراطورية الحقيقة بفضل عقولٍ وطرائق تعبير تزداد منهجية أكثر فأكثر(١).

وهكذا فليس هناك أي لغة غير مؤهلة للتعبير عن الفكر الحقيقي أو عن أعمق الأفكار مهما تكن. ولا يوجد أي دليل على أن أي لغة قد تمنع متحدثيها من التفكير في أي شيء، فنحن لا نستطيع البحث عن التأثيرات التي تُسبِّبها اللغة الأم بما تسمح به اللغات العديدة من أفكار لمتكلميها. وأي قصور في قدرة اللغة على التعبير عن فكر ما، فإنما يعود إلى خلوّها من مصطلحات معينة، وتلك يمكن استعارتها، تمامًا كما فعلت جميع اللغات الأوروبية التي استعانت باللاتينية للتعبيرات الفلسفية، والتي من جهتها استعانت بالإغريقية بشكل أساسي(٢).

وكل ما سبق يقودنا للحديث عن مسألة العلاقة بين العربية والأفكار الحقيقية، فهي من حيث المبدأ مسألة طريفة، وهي مثال مُحيِّر للمسألة العويصة المتعلّقة بالعلاقة بين الفكر واللغة بصفة عامة. فمن الصعب أن يُقال شيء مُحدَّد عنها، وذلك لطبيعة الفكر غير المُحدَّد. فإذا كان المنتمون إلى جماعة لغوية واحدة يبدو الواحد منهم كأنه يُنكر امتلاك الآخر فكرًا حقيقيًّا، فمن الأوضح أن تحديد الفكر المتعدد المستويات عند مجموعة لغوية كاملة تُعد بالملايين وتنتمي إلى دول عديدة، سيكون ضحية لكثير من الصعوبات المنهجية(٣).

(١) يُنظَر: ديكرو أوزوالد وسشايفر جان ماري، "القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان". ترجمة: منذر عياشي، (ط١، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٣م)، ص٢٩٨.

(٢) يُنظَر: دويتشر، "عبر منظار اللغة (لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟)"، ص١٨، ١٩.

(٣) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٥٦، ٥٧.

وعدم التمييز بين شكل اللغة وطابعها قاد إلى افتراض أنه ما دام أن اللغة العربية ملائمة بقدر كبير للبلاغة (الخطابة)، فلا يستطيع العرب تبعًا لذلك أن يُفكِّروا تفكيرًا صادقًا وحقيقيًّا. ومهما يكن الموقف الذي قد يُسوّغ إطلاق مثل هذا الادِّعاء، فإنه لا يُعقَل أن نقول: إن لغة ما ملائمة للخطابة بأكثر من معقولية القول: إن لغة ما ملائمة للسوناتات (المقطعات الشعرية المعروفة في الشعر الإنجليزي)؛ ذلك أن من الصعب تخيُّل وجود لغة تتسم بالعجز والقصور حتى يصل بها الأمر إلى عدم إمكان استعمالها بطريقة خطابية أو بلاغية؛ إذ إن التطور المدهش للغات المولَّدة من بداياتها الهزيلة يوحي بأنه يمكن حتى عندما يكون الأصل متواضعًا أن تكون له القدرة على أن يغتني بسرعة. زيادة على ذلك فإن الخطابة مُلبِسة بشكل ضار، ومن الواضح أنه لا يمكن أن توصف لغة بهذه الصفة بمعناها غير اللغوي؛ أي بمعنى (الجعجعة)، وأما بمعناها اللغوي فتعني الكلمات المُجنّحة، وهي من الأشياء الممتازة إذا ما اقترنت بالأفكار الرزينة المهمة[١].

ويتهم شوبي العرب بالغرام بالتلعّب بالكلمات على حساب الفكر، ويذكر مثالًا على الاهتمام المبالغ فيه بالشكل اللغوي، القصة التي تُضرب مَثلًا على أدب التوقيعات، حيث يُروى في كُتب الأدب أن أحد الخلفاء وردته رسالة من قاضي (قُمّ) في بلاد فارس، فجلس يتفكّر ماذا يوقّع على رسالته، فكتب: (أيُّها القاضي بِقُمّ قد عزلناك فقُم). وكان هذا القاضي يقول إذا سئل عن سبب عزله: أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب[٢]. غير أنه ينبغي ألا نجعل من هذه النكت والطرائف النادرة دلائل على التلعب بالكلمات على حساب الفكر.

فكتابة بعض الناثرين العرب فقرة كاملة باستعمال حروف ذات أشكال معينة فقط، هو أمر يؤدي بالتأكيد إلى حجب الرسالة التي يُريد أن يوصلها، لكن هذا نفسه

(١) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٥٦.

(٢) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٦٢، ٦٣.

هو ما يحصل حين يُستعمَل الشعر السداسي الذي يُسمَّى: (sestina). غير أن وسائل التسلية مثل هذه، لا ينجم عنها الحد من قدرة المتكلم على التفكير. زيادة على ذلك لا يمكن أن نعد التلعب بالكلمات والتفكير الجاد أمرين لا يمكن الجمع بينهما، ولك أن تقارن بشكسبير أو هوبكنز(١).

ومقارنة شوبي للتلعّب بالكلمات بالجمل المفككة التي يقولها المصابون بانفصام الشخصية هو أمر يُضعف حجّته؛ ذلك أن السبب هنا هو أن العقل في هذه الحال هو الذي يؤثِّر على اللغة. فيُمكن في مثل هذه الحال أن ينتمي الفرد إلى لغة تتسم بالمنطقية والوضوح، ومع ذلك لا يزال من الممكن له أن يكون عرضة للإصابة بالجنون(٢).

ومن وجهة نظر لسانية فيُمكن نقض المقولة التي تربط الفكر ببنية لغات بعينها من خلال التمييز بين (لغة التفكير) و(لغة الكلام). فبني الإنسان لا يفكرون بالعربية أو الإنجليزية أو الصينية، بل يفكرون بلغة للتفكير، فلا تبدو أفكارنا التي نُعبِّر عنها سوى ملامح بسيطة لتفكيرنا.

وبالتالي فإن نقد شوبي للغة العربية واتهامها بالقصور التركيبي وشلّ فكر العربي، الذي يَتمثَّل من وجهة نظره في بُعد البنى التركيبية عن البنى العقلية، لا يُمكن قبوله في ضوء الدراسات الحديث التي تُثبت استقلال لغة التفكير عن لغة الكلام؛ إذ ليس هنالك مسافة قُربٍ أو بُعدٍ بين اللغتين يُقاس من خلالها كمال العربية أو قصورها.

ويُظهِر الناس الذين يُعانون من الحبسة، وهي عدم القدرة على الكلام بسبب آفة في الدماغ، استقلال الفكر عن الكلام؛ إذ كثيرًا ما يبدو من يُعاني من الحبسة كأنه يمتلك فكرة يحاول التعبير عنها، ولكن ينقصه الكلام الذي يُجسِّد به هذه الفكرة. وعلى

(١) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٦٢.
(٢) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٦٣.

النقيض من ذلك مناجاة المصاب بانفصام الشخصية لنفسه والمحاكمات الذهنية الخارجة عن السيطرة والتحليقات الغنائية المغالية، كلها تنتمي إلى المقول مثلها مثل أكثر الخطابات عقلانية وأكثر النصوص قابلية للتحليل(١).

فالأشخاص الذين تعطّلت قدراتهم الإدراكية إثر خلل دماغي يُمثِّلون عمومًا اضطرابات منفصلة، فبعض قدراتهم فحسب تكون معطلة، بينما يكون بعضها الآخر سليمًا. وهناك انفصال مذهل بين اللسان وميادين إدراكية أخرى قد أصبحت بدهية منذ زمن طويل. فبعض الرضوض الدماغية تستطيع أن تُحدث فقدانًا للسان من غير مساس بالملكات الأخرى؛ نجد بعض المرضى الذين انعطبت لغتهم، ولكن قدراتهم على معرفة الأشياء بصريًّا لا تزال سليمة، كما نجد، على العكس من ذلك، مرضى احتفظوا بلسان سليم بينما معرفتهم بالأشياء قد تعطلت، ويبدو أن أذهان كثير من المصابين في أدمغتهم بنوع من العطب تحوي قدرة نحوية على قدر لا بأس به من الكفاءة.

وكذلك، فإن القدرات الحسابية والاستدلالية أو حتى القدرات الموسيقية، تستطيع أن تبقى سليمة عند مرضى أصيبوا بالحبسة. وعلى العكس من هذا، فإن بعض المختلين عقليًّا ليستطيعون أن يُظهروا عجزًا إدراكيًا شديدًا، بينما قدراتهم اللسانية تكون نسبيًّا في معزل عن هذا. ومن هنا، فإن ملاحظة هذا الانفصال المزدوج ليدعو إلى النظر إلى اللسان بوصفه نسقًا لمعالجة مستقلة نسبيًّا ومتميزة عصبيًّا من الوظائف الإدراكية الأخرى ذات المستوى العالي(٢).

فقد أقنعتنا التجارب بأن لغة التفكير (اللغة العقلية)، يمكن أن يُنظر إليها لا على أنها كلام منقوص منه الصوت، بل ينبغي أن تُعد وظيفة كلامية منفصلة فصلًا تامًّا.

(١) يُنظَر: حجاج كلود، "إنسان الكلام (مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية)". ترجمة: رضوان ظاظا، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٣م)، ص٣٣٩.

(٢) يُنظَر: ديكرو وسشايفر، "القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان"، ص٣١٧.

وسمتها المميزة الرئيسة هي تركيبها النحوي الخاص، إلا أنها إذا قيست بالكلام الخارجي ظهرت لغة داخليّة غير مترابطة ولا مكتملة(١).

ويبدو أن اللغة العقلية شبيهة بهذه اللغات كلها؛ إذ يمكن أن تحوي رموزًا للمفاهيم، وترتيبات للرموز تُقابل من فَعَل ماذا بمَن. ويمكن القول هنا إن متكلمي اللغة العربية أو الإنجليزية يفكرون مستخدمين شكلًا مبسطًا ومفصلًا من لغة تُشبه العربية أو الإنجليزية. ولكي تتمكن هذه اللغات الصورية من القيام بالتفكير بصورة وافية فإنه يجب أن يُشبه بعضها بعضًا شبهًا أكبر من شبه أي واحدة منها بالشكل المتكلم لها، بل الراجح أن اللغات العقلية واحدة، وذلك ما يعني وجود اللغة العقلية الكلية. فمعرفة لغة ما تعني إذًا معرفة كيفية ترجمة اللغة العقلية إلى سلاسل من الكلمات والعكس(٢).

ولنا أن نسأل عند هذا الحدّ عن أثر هذا التصور للغة على مفهوم (القصور التركيبي) للغة العربية لدى شوبي وغيره، فبما أن الحياة العقلية تسير باستقلال عن اللغات المعيّنة فإن إنتاج اللغة العقلية وتوليدها سيستمر حتى إن لم تُترجم إلى لغة محكية وسيستمر توليد المفاهيم والأفكار حتى إن لم يكن لهما أسماء محكية تُميّزهما، ونستدل من هذا على أن قصور اللغة العقلية لا يكون بسبب من اللغة المحكية وإنما يكون فقط بسبب نقص في القدرات الذهنية، ونقص القدرات الذهنية لا يؤثّر دائمًا على اللغة المحكية، فالبشر، كما يقول ديكارت، يستعملون الكلام مهما كانوا عليه من الغباء أو الخلل العقلي حتى إن لم يكن لديهم ألسنة أو أعضاء نطق(٣).

(١) يُنظَر: فيكوتسكي ليف، "الفكر واللغة (النظرية الثقافية التاريخية)"، ترجمة: عبد القادر قنيني، (ط١، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣م)، ص٢٥٠.

(٢) يُنظَر: بنكر ستيفن، "الغريزة اللغوية (كيف يبدع العقل اللغة؟)"، تعريب: حمزة قبلان المزيني، (ط١، الرياض: دار المريخ للنشر، ٢٠٠٠م)، ص٩٨ – ١٠٤.

(٣) يُنظَر: تشومسكي، "اللسانيات الديكارتية"، ص١٥٩، ١٦٢.

٢. الجانب الشكلي:

لقد ندَّد لسانيو القرن التاسع عشر بالقواعد العالمية القائمة على الفلسفة (النحو الفلسفي)، فكانوا ميالين للشك فيها، وكان من الواضح في تلك الحقبة أن التباعد في البناء اللغوي والنحوي بين لغات العالم أكبر مما كان يفترضه الباحثون السابقون، بالإضافة إلى أن كلًّا من روح العصور والإنجازات الحقيقية التي حققتها اللسانيات التاريخية كانت تستند إلى تفسير تاريخي أكثر منه فلسفيًا. وكان هناك من بدأ يتساءل عمّا إذا كانت فئات المنطق التقليدية الأرسطية عالمية فعلًا[١].

ومنذ ذلك الحين بدأ التأسيس لظاهرة التعصب اللغوي التي تعود في العصر الحديث إلى طريقة اللسانيين التي تأسست بها تصنيفات اللغات منذ بداية المقارنة الحديثة عند جيل الرومانسية الألمانية وحتى النظريات التطورية في آخر القرن التاسع عشر. وتبدو هذه النظريات للمرء الآن مجرد نظريات تُعالج الفروق بين الأعراق البشرية، وربما يُعزَى إلى هذا التأثير أن هدف العلماء ليس تفسير مصدر الفروق بين العائلات اللغوية المختلفة وآثارها فحسب، بل إيجاد معايير تحديد موقع البنى في جميع اللغات على مقياس يتدرَّج من (اللغة الكاملة) إلى (اللغة الناقصة). فالطريقة التي يُحلِّل بها قوم من الأقوام تجاربهم ويبنون المفاهيم ويربطونها عند تكوين الفكرة، هي في حدّ ذاتها انعكاس لشخصيتهم القومية أو العرقية، وهي، وإنْ بشكل غير مباشر، مُحدَّدة في تلك الشخصية[٢].

كان اهتمام اللسانيات التاريخية بالتنوع اللغوي هو من أجل وضع تصنيف شكلي

(١) يُنظَر: ليونز، "اللغة واللغويات"، ص٣١٨.

(٢) يُنظَر: هاريس روي وتيلر تولبيت، "أعلام الفكر اللغوي (التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير)". تعريب: أحمد شاكر الكلابي، (ط١، بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م)، ص٢٢٧، ٢٣٢.

للغات يعكس بنية تفكير الناطقين بها، فالنموذج النحوي الذي تتبناه أي لغة محدد بالحس اللغوي الداخلي لدى المتحدثين بتلك اللغة، فكل أُمَّة مهيأة ذهنيًّا تجاه نوع معين من اللغات، فبالرغم من أن كل لغة لا بد أن تُنجِز المهام النحوية الشمولية إلا أن الوسيلة التي تُحقِّق بها لغة معينة هذه المهام ربما تكون أفضل أو أسوأ من الوسيلة التي تتبناها لغة أخرى، فالطريقة التي تتبناها اللغة تعتمد على التفرّد الذهني لدى الأمة التي تتحدث تلك اللغة. ولذلك فإن واحدة من بين تلك الطرائق ستكون أفضل من الطرائق الأخرى بلا منازع، وهكذا فإن الصيغة الأقل كفاءة نحويًّا ستعوق العمليات الفكرية عند مستعمليها، ولذلك فإن تبنّي الطريقة الأقل كفاءة في الإشارة إلى العلاقات النحوية سيكون له أثر مستديم لا يمكن تجاوزه. وهو ما أدَّى إلى الاعتقاد بأن هنالك ما يُسمَّى بـ(اللغة الكاملة)، وهي اللغة التي تُنجِز المهام النحوية الشمولية على وجه الكمال.

وهكذا ارتبط مفهوم الكمال اللغوي لدى لسانيي القرن التاسع عشر بالجانب الشكلي للغة ممتزجًا في البداية بالجانب الديني، فقد جعلوا المثل الأعلى للغات في العهد الماضي، وفي الماضي السحيق بطبيعة الحال، ويزعمون أنه كانت توجد في العصر البدائي لغة كاملة ذات اطّراد مطلق، هي لغة آدم(١).

فلغة آدم من هذا المنظور هي جذر لغات العالم كافة، ومفتاح المعرفة الكاملة والصحيحة لكافة الأشياء. لقد سمَّى آدم – وهو يدرك أعمال الكلمة الإلهية المبدعة في الطبيعة – كل المخلوقات وفق صفاتها الأساسية الخاصة بها، مستخدمًا لغة إنسانية وسيلة لذلك. وفي بابل ضاعت هذه المقدرة على قراءة لغة الطبيعة. ومنذ ذلك الحين وقعت اللغة في فخ المادة الخارجية الخام، حيث نجد أن كلماتها اعتباطية، وتفتقر لأي اتصال جوهري مع الطبيعة(٢).

(١) يُنظَر: فندريس، "اللغة"، ص٤١٨، ٤١٩.

(٢) يُنظَر: لو فيفن، "اللغة ودارسوها (تاريخ اللغويات)"، ص٨٢٠.

فمن حيث المبدأ، يمكن أن توضع جميع اللغات في معيار يعكس درجة قربها من اللغة الكاملة؛ اللغة التي استطاع الإنسان في مرحلة ما قبل التاريخ أن يهتم بها لذاتها، وهو الأمر الذي قاده إلى كماله الجوهري.

ولم يدم الحال طويلًا على امتزاج الجانب الشكلي بالجانب الديني لمفهوم الكمال اللغوي، فقد تخيّل فقهاء اللغة أنه توجد في تاريخ الإغريقية واللاتينية نقطة كمال وصلت إليها هاتان اللغتان بعد مجهودات طويلة. ومن المناسب أن نُحدِّد ماذا يُعنَى بعبارة (الكمال اللغوي)، فأولئك الذين يستعملونها لا يفعلون أكثر من إدخالهم في علم اللغة مصطلحات من تاريخ الأدب؛ إذ إن العادة قد جرت وقتًا طويلًا على اعتبار معنى التقدُّم في الأدب دينًا ومذهبًا، فكان الناس لا يرون في تطور الأنواع الأدبية إلا صعودًا نحو الكمال أو انحدارًا إلى الانحلال. وهذا هو الرأي الكلاسيكي الذي يذهب إلى أن الفن والذوق بعد أن يصلا إلى درجة كمالهما لا يسعهما إلا الانحدار والفساد. وهكذا فقد نقل فقهاء اللغة الكلاسيكيون هذه الفكرة إلى الدراسة اللغوية(١).

يرى فقهاء اللغة أنه إذا كان عليهم أن يختاروا من بين سائر اللغات تلك اللغة التي تستحق أن تُكلَّل بالغار، فمن يجرؤ على تضحية اللغة الإغريقية؟ فمن ذاق مَرّة حلاوة هذه اللغة ذات الجوهر الرباني، فإنه سيجد كل لغة عداها، إما تافهة وإما مُرَّة. وهم لا يتكلمون عن الأفكار التي جعلت تلك اللغة وعاء لها، ولا عن تلك الآداب التي تُعتَبر بحق مدرسة للحكمة والجمال؛ فاللغة الإغريقية في شكلها الخارجي دون أي اعتبار آخر، تُعدُّ متعة عقلية معدومة النظير. وليس ائتلاف النغم ورقّة الأصوات وثراء المفردات كل مزاياها، بل ليست أقوم ما فيها من مزايا، ففي ميدان النحو تمتاز الإغريقية من بين سائر اللغات بدقة دوال النسبة فيها التي ترهف تركيب الكلمات، وبالمرونة الخفيفة التي تُميِّز تنظيمها وتعمل على إظهار التفكير في كل قيمته وتُحيط بكل حناياه

(١) يُنظَر: فندريس، "اللغة"، ص٤١٧، ٤١٨.

ومنعرجاته وتكشف بشفافيتها عن كل دقائقه(١).

وعندما اكتُشفت اللغة السنسكريتية في الدراسات المقارنية، أُضيفت من حيث الكمال اللغوي إلى الإغريقية واللاتينية، بل فُضِّلت عليهما. فقبل ذلك لم يكن يُعلَم كما يُظن أن الوجود قد رأى أداة أكمل من الإغريقية واللاتينية في التعبير عن الفكر الإنساني، ولكن الأمر بعد ذلك لم يبقَ على هذه الحال، فقد أدرك السير وليم جونز (١٧٤٦ – ١٧٩٤م) أن اللغات السنسكريتية واليونانية واللاتينية كانت تربطها روابط وثيقة، وذهب في قوله الشهير إلى: "أن اللغة السنسكريتية، مهما أوغلتَ في القِدم، هي لغة ذات بنية رائعة، بنية أكثر كمالًا من اليونانية وأغنى حالًا من اللاتينية وأكثر إتقانًا من كلا اللغتين"(٢).

وقد أخذت مثل هذه المواقف التي تُحدِّد المثل الأعلى للكمال اللغوي في لغة بعينها تُسبِّب كثيرًا من الحَرَج لعلماء اللغة، وللخروج من ذلك تخلّى العلماء عن فكرة وجود لغة مثالية لجميع اللغات وأخذوا يبحثون عن المثل الأعلى لكل لغة على حدة، فهذا ما صار يعمله لسانيو القرن التاسع عشر، الذين يقررون أن لكل لغة مثلًا أعلى من الكمال(٣).

وهكذا غيّر اللسانيون المقارنيّون وجهة النظر السائدة التي تنسب الكمال اللغوي إلى لغات معينة، ورأوا أنه يوجد لكل أسرة لغوية أصل قديم بلغ أعلى درجات الكمال، فقد رأوا أن الغاية الرئيسة من عملهم هي إعادة بناء التركيب القواعدي الأصلي للغة التي أنتج تحللها التدريجي اللغات الموثقة للأسرة الهندو أوروبية. وقد فهموا التغير اللغوي باعتباره تحللًا لحالة اللغة الأصلية المتكاملة.

(١) يُنظَر: فندريس، "اللغة"، ص٤٢٠.

(٢) يُنظَر: ليونز، "اللغة واللغويات"، ص٢٥٢.

(٣) فندريس، "اللغة"، ص٤١٨، ٤١٩.

وهنالك نظرية أخرى معاكسة في التاريخ اللغوي تتوافق مع الأفكار السائدة عن التطور في النصف الأول من القرن التاسع عشر بمضمونها الغائي في التقدُّم نحو غاية الكمال التركيبي، فالكمال اللغوي لا يكون في أصل قديم، وإنما هو غاية تطمح كل لغة الوصول إليها(١).

وقد هاجم العلماء وجهة النظر التي تحملها مقولة: (إن التطور كمال يتبعه تراجع)، كما هاجموا الفكرة المضادة لها من كون الكمال اللغوي غاية تسعى إليها اللغات، مُفضِّلين عليهما القول بالانتظام اللغوي، فليس هنالك تراجع أو تقدُّم. ورأوا أنه لا يوجد في تاريخ اللغات سوى الانتظام. وهم بذلك يتّجهون بشكل واضح نحو علم الأحياء المعاصر باعتباره حجة تؤيّد وجهة نظرهم عن التبدل اللغوي؛ فقد تبنَّى علماء الأحياء مبدأ الانتظام، الذي يقول: إن التبدلات التي تثبت بالبراهين الجيولوجية هي نتيجة للعمليات نفسها التي تحدث في يومنا هذا. وهكذا أُيِّدت فكرة الانتظام في اللسانيات أيضًا؛ إذ ليس بوسعنا أن نمضي في تجاهل أن التمييز بين الارتقاء أو الاضمحلال (أو كما قيل أيضًا بين طبيعة اللغة وتاريخها) يقوم على خرافة، فلم يُلحَظ هناك سوى تطور ولم يُلحَظ سوى تاريخ(٢).

وإن طبَّقنا مبدأ الانتظام على الماضي أمكن لنا أن نصوغ أوّل فرضية تاريخية، وهي فرضية مُؤدَّاها أن البنيات الأولى للغات يُفتَرض فيها أن تكون منتظمة، وهذا يعني أن اللغات لم تُصبح أكثر تعقيدًا عبر التاريخ كما تراها بعض نظريات التعصب العرقي، ولم تُصبح أكثر بساطة، ولكنها صارت مُقنَّنة(٣).

(١) يُنظَر: روبنز، "موجز تاريخ علم اللغة في الغرب"، ص٢٦٠، ٢٦١.

(٢) يُنظَر: سامسون جفري، "مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)". ترجمة: محمد زياد كبة، (ط١، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٧هـ)، ص١٤.

(٣) يُنظَر: كالفي، "حرب اللغات والسياسات اللغوية"، ص٤٠، ٤١.

وهكذا فقد بدأت تشيع بعد منتصف القرن التاسع عشر فكرة انتظام الأنحاء الطبيعية، فليس هنالك توجّه غائي نحو الكمال أو النقصان، فنحو أي لغة هو نحو كامل ومنتظم في جميع المراحل والأطوار الزمانية، وبالتالي فليس هنالك نحو قاصر أو ناقص(١).

وقد نتج عن ذلك منطقيًّا موقف بودوان دي كورتني (١٨٤٥ – ١٩٢٩م) من تقويم اللغات إلى لغات أفضل ولغات أسوأ، ولغات أكثر تطورًا ولغات أقل تطورًا؛ فهو يرفض كل أساس يمكن من خلاله تقويم اللغات وتفضيل بعضها على بعض، فقد وصف افتراض أن اللغات الهندو أوروبية المتصرفة هي قمة الكمال بأنه فكرة متسرعة، كما أن وصف اللغة الصينية العازلة بأنها بدائية نسبيًّا لا يعدو أن يكون زهوًا هندوجرمانيًّا؛ إذ يمكن أن يُلاحظ الاختلاط المستمر للأنماط في كل مكان(٢).

فمثل هذه الأحكام التقييمية في التيار الرئيس للسانيات في القرن العشرين، قد تُخلّي عنها من أجل تخليص العلم في المقام الأول من ميراثه المتمركز حول أوروبا، والذي ميّز قبل كل شيء الأناسة الثقافية المبكرة من بين العلوم الاجتماعية، ولكنه امتدّ كذلك للسانيات. ولقد أظهر وصف عدد هائل ومتنوع من اللغات غير المكتوبة خاصة في أمريكا الشمالية أن اللغات لا يمكن التمييز بينها عن طريق مجمل تركيبها، وفضلًا عن هذا ليس هناك ارتباط بين تركيب اللغة وبين التطور الاجتماعي/الثقافي لمتكلميها كما يُقاس بالمعايير الغربية. ولذلك كان أمرًا مهمًّا أن تُدان مصطلحات مثل: (لغات ناقصة) و(لغات قاصرة) و(لغات بدائية) و(لغات جامدة) ...إلخ، هذه المصطلحات التي ظلت

(١) يُنظَر: كولماس، "اللغة والاقتصاد"، ص٦٩.

(٢) يُنظَر: بارتشت بريجيته، "مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي". ترجمة: سعيد بحيري، (ط١، القاهرة: مؤسسة المختار، ٢٠٠٤م)، ص٧٢ – ٧٦.

شائعة الاستعمال إلى بداية القرن العشرين، حتى بين اللسانيين[١].

فقد رأى أنطوان ماييه (١٨٦٦ – ١٩٣٦م) أن اللغات السامية وخصوصًا العربية هي لغات جامدة تفتقد لتلك المرونة التي يُمكن أن تتقدَّم بها نحو غاية الكمال التركيبي، فهو يقول: "على الرغم من طابع المرونة والتنوّع الذي تتميّز به الفصيلة السامية عن الفصيلة التركية إلا أنها بدت أقلّ قدرة من الفصيلة الأوروبية على توليد نوعيّات لغوية جديدة. لذلك لا نجد في العالَم العربي أي شيء يُقارب ذلك التنوّع الغني الذي يشهده عالَم اللغات الرومانسية: كالإيطالية والأسبانية والرومانية والقشتالية والبروفانسية والفرنسية. كما أن بنية العربية المعاصرة ظلّت شبيهة جدًّا ببنية لغات سامية يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة، وعلى الرغم من الاختلاف الكبير الذي بينها تبقى اللهجات العربية المعاصرة محتفظة بالبناء النحوي نفسه"[٢]. فقد يملؤك الرصيد المعجمي الغني في العربية بالدهشة، غير أن تركيبها لم يتطور إلا تطورًا متواضعًا[٣].

وهنا يمكن أن نتّفق مع مانسفيلد حيث كتب: "إن العرب من أكثر الشعوب شعورًا بتاريخهم"[٤]. فحين يُطلَق مصطلح (اللغة العربية) فإن ذلك يعني، حتى مع استثناء اللهجات، سيرورة تدخل فيها عربية العصر الجاهلي والإسلامي حتى نصل إلى العربية النموذجية المعاصرة، وليس على المتكلم أن يكون مقصورًا على طور واحد منها. بل حتى لو تجاهل المرء الكتابات العربية كلها التي تنتسب إلى الحقب القديمة، كما يفعل الطلاب عادة حين يتعلمون الفرنسية أو الألمانية، فإنه لا يمكنه الهروب من الماضي المُثقل بفنون القول والمعجم؛ ذلك أن العربية تتضمن كلمات استُعملت فيها عبر القرون

(١) يُنظَر: كولماس، "اللغة والاقتصاد"، ص٦٩ – ٧١.

(٢) جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٢٢.

(٣) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٣٩٠.

(٤) جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٧٤.

وكلمات جُمعت من عدد من القبائل والأماكن. واللغة العربية ذات تراث أدبي غني لا مثيل له، وهي لغة دين عالمي، كما أنها لغة إمبراطوريات عديدة. ويتمثَّل دورها جزئيًا في كونها سجلًّا ثقافيًّا حيًّا؛ إذ هي سجل ناطق: فإذا ما استُعملت كلمة في القرآن الكريم أو في الشعر القديم، فإنها تبقى حية ويمكن لها أن تُستعمَل في كل حين(١).

إن ما يُبطل استنتاج مايبه عن جمود العربية هو أن وظائفية لسان ما تتطلب نواة تركيبية متبنينة بدقة وثابتة نسبيًا، والمرونة التي يحتاجها اللسان تكون في الموارد المعجمية، فهي أكثر تنوعًا وجاهزة دائمًا كي تحاول أن تعكس الاختلاف اللامتناهي للتجارب الإنسانية. إن جوهر اللغة الإنسانية يتمثل في النواة المتبنينة والتي يصنع منها الطابع المتميز كليًّا الأصالة تجاه الاستمرارية والتنوع اللامحدود لتجربتنا عن العالم(٢).

فبينما تُعد المرونة في النظام المعجمي شيئًا ممتازًا فإن مفهوم نظام تركيبي قابل للتكيف بلا حدود هو مغالطة في التعبير، فالنوع الوحيد من نظم الوصف التي يمكنها أن تكيف نفسها لكي تصف أي شيء مهما كان هو اللغة الطبيعية نفسها التي يوسع المتكلمون جانبها الدلالي بدلًا من أن تكون أسيرة القواعد الشكلية(٣).

٣. الجانب النظامي:

إن كل محاولات ممارسة علم اللغة بوصفه علمًا دقيقًا قبل سوسير سرعان ما اصطدمت بحواجز لم تُتجاوَز(٤). ويجب أن يكون الهدف الأساس للباحث اللساني هو إيضاح نوع نشاطه، فبناء على معرفة أكثر دقة بنظام اللغة وطريقة عمله فقط يمكنه أن

(١) جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٢٨ – ٣٠.

(٢) يُنظَر: مارتنيه أندريه، "وظيفة الألسن وديناميتها". ترجمة: نادر سراج، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩م)، ص٣٥٨، ٣٥٩.

(٣) يُنظَر: سامسون، "مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)"، ص١٩٥.

(٤) يُنظَر: بارتشت، "مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي"، ص٥٣.

يُكوّن تصورًا عمّا هو ممكن لسانيًّا بوجه دقيق(١).

وعلى الرغم من أن اللسانيين يرون بصفة عامة في تطورات القرن التاسع عشر تقدُّمًا عظيمًا، فإن شيئًا ما كان من الواضح أنه فُقد في هذه النقلة في مجال الاهتمام. وعندما وصل الأمر بسوسير إلى معارضة أسلافه المباشرين، عاد إلى اهتمامات القرن الثامن عشر؛ لقد عاد إلى مشكلة العلامة، وتصور اللغة مرة أخرى على أنها نظام من التمثيل. وقد رأى أن المرء ما لم يتناول الوحدات اللغوية بوصفها علامات فلن يستطيع تحديدها.

ولكنه إذ وضع مشكلة العلامة في سياق بحثه المنهجي، تحاشى تجزيئية أسلافه من القرن الثامن عشر، حيث رأى العلامات لا تتشكل إلا من خلال علاقاتها بعلامات أخرى؛ أي من خلال نظام يجمعها، ومن ثم كان من المحتم الاستغناء عن مشروع دراسة العلامات المفردة بوصفها تمثيلات. كان من الضروري كسر الرابطة بين اللغة والعقل بعض الوقت، وكان لا بد من دراسة اللغة بوصفها موضوعًا في ذاتها؛ كان لا بد من تناولها على نحو مؤقت بوصفها نظامًا من الوحدات التي ليس لها تعلّق خاص بالعقل، وكان هذا هو دور لسانيي القرن التاسع عشر(٢).

وقد كانت المهمة المنوطة باللساني عند سوسير هي تحليل اللغة بوصفها منظومة من الوحدات والعلاقات، وأن العمل اللساني العلمي هو محاولة لتحديد وحدات اللغة والعلاقات التي تربط بينها والمبادئ التي تحكم ترابطها؛ أي محاولة لتحديد نظام اللغة. وهذا الشعور بالمهمة المنوطة باللسانيات لم يتمثّل لدى أسلاف سوسير، وإن كان بعضهم ربما أومأ إليه عَرَضًا. ولكن أصبح هذا منذ عهد سوسير هو التعريف الموثوق به إلى حد بعيد للبحث اللساني. وإن من يرغب في معارضة وجهة نظر سوسير الخاصة

(١) يُنظَر: بارتشت، "مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي"، ص٤٠، ٦٧.

(٢) يُنظَر: كلر جوناثان، "فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)". ترجمة: عز الدين إسماعيل، (ط١، القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠م)، ص١١٩، ١٢٠.

بالمهمة المنوطة باللسانيات فبوسعه أن يصنع هذا، لا بالهجوم على سوسير بل بالاعتراض على فكرة اللسانيات ذاتها. وبهذا المعنى أصبح من الممكن تسمية سوسير مؤسس اللسانيات الحديثة. والواقع أن وصف اللسانيات العلمية على نحو ما قدّمه سوسير يمكن أن يشتمل على المدارس الرئيسة في اللسانيات الحديثة(١).

والمقصود باللسانيات العلمية من حيث المفهوم السوسيري، هي اللسانيات النافعة التي تُعالج اللغة على أنها موضوع علمي قابل للوصف من حيث النظام والترابط. فعندما نقول إن اللساني مهتم باللغة، فإننا نُلمح في المقام الأول إلى أنه مهتم ببناء النظام اللغوي(٢).

وفي بداية (الدروس) يُحدد سوسير مهام اللسانيات العامة، وهو الاسم الذي أطلقه على العلم الجديد الذي ينبغي أن يحل محل اللسانيات التاريخية والنحو المقارن، يقول سوسير: ستكون مهمة اللسانيات أولًا، أن تبحث عن القوى الفاعلة بشكل دائم وكلّي في جميع اللغات، وإبراز القوانين العامة التي يمكن أن ترجع إليها جميع الظواهر الخاصة بتاريخ اللغات. وثانيًا، أن تُحدد موضوعها وتُعرِّف نفسها بنفسها(٣). ويُحرِّك هاتين المهمتين عند سوسير حافزان أساسيان هما: البحث عن التعميم، وتأسيس علم (نافع)(٤).

والواقع أن اللسانيات ستُصبح نافعة إذا ما قدّمت أدوات للملاحظة شاملة بما يكفي ودقيقة بحيث يستعملها جميع من لهم اهتمام باللغة. إن سوسير يريد تجاوز المقارنة

(١) يُنظَر: كلر، "فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)"، ص١٤٤، ١٤٥.
(٢) يُنظَر: ليونز، "اللغة واللغويات"، ص١٠٤، ١٠٥.
(٣) يُنظَر: دي سوسير فرديناند، "دروس في الألسنية العامة"، تعريب: صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، (ط١، تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥م)، ص٢٤.
(٤) يُنظَر: بافو ماري آن وسرفاتي جورج إليا، "النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية". ترجمة: محمد الراضي، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٢م)، ص١٠٧، ١٠٨.

الظرفية بين اللغات الخاصة التي دأب معاصروه من المتخصصين في النحو المقارن على القيام بها، من أجل دراسة البنية العامة للغة بوجه عام. ولتأسيس مثل هذا التخصص ينبغي قبل كل شيء تحديد موضوعه(١).

وعلى هذا بدا سوسير في الصورة كما لو كان يقول: إن اللغة كتلة مختلطة من حقائق متباينة المصادر، وأن الطريق الوحيد لجعلها شيئًا معقولًا هو فرض شيء يُسمَّى (النظام اللغوي) وطرح أي شيء آخر جانبًا(٢).

وهكذا يتعين على اللساني، وقد واجهته هذه الظواهر جميعًا وهذه المنظورات المختلفة، أن يتساءل عن الشيء الذي يحاول وصفه: إلى أي شيء على وجه الخصوص ينظر المرء، أو عن أي شيء يبحث؟ وفي إيجاز، ما اللغة؟(٣).

يقتضي تعريف اللغة بوصفها نظامًا ألا تُعتَبر وحداتها إلا في العلاقات التي تقيمها فيما بينها؛ إذ إن كل واقعة لغوية تتكون من علاقة ولا شيء غير العلاقة. فلا وجود لوحدات اللغة في ذاتها وإنما يحدد وجودها ما تنخرط فيه من تقابل مع وحدات أخرى سواها، ومن هنا كان إلحاح سوسير على كون اللسانيات تُركِّز على النظام اللغوي(٤).

إن لموضوع اللسانيات عند سوسير تعريفات عدة ستشكل مجموع نظريته؛ موضوع اللسانيات هو (اللغة) وليس (الكلام). يشمل الكلام البعد الفردي للإنتاج والتلقي معًا وعبارتهما الصوتية. بينما اللغة حُدِّدت فيه بكونها منتوجًا اجتماعيًّا يُتيح وجوده للفرد ممارسة الكلام. فاللغة بالنسبة لسوسير لا تختلط مع الكلام. والكلام في كليته متعدد الصيغ وغير متجانس، ويشمل مجالات عدة: فيزيائية ونفسية، في الوقت نفسه. كما

(١) يُنظَر: بافو وسرفاتي، "النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية"، ص١٠٨.
(٢) يُنظَر: كلر، "فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)"، ص٩٠.
(٣) يُنظَر: كلر، "فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)"، ص٧٢.
(٤) يُنظَر: بافو وسرفاتي، "النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية"، ص١٣٢، ١٣٣.

أنه لا يسمح بتصنيفه ضمن أي صنف من أصناف الوقائع البشرية؛ لأننا لا نعرف كيف نستخرج وحدته. بينما اللغة، على خلاف ذلك، هي كلّ في حد ذاتها ومبدأُ تصنيفٍ. وهذا (الكل في حد ذاته) هو (نسق دوال) خاصيته المميزة الأساسية هي استقلاليته و(نظامه الخاص به)، وهما شرطان ضروريان ليكون موضوعًا للسانيات، ولهذا فإن نظام اللغة هو بشكل من الأشكال نموذج صارم لتناول وقائع اللسان(١).

وقد حاول البنيويون وخاصة أصحاب الاتجاه الوظيفي تفسير التغير اللغوي بالرجوع إلى مفهوم اللغة باعتبارها نظامًا من العلامات التي تضبط ذاتها وتخضع لمبادئ مكملة من الجهد الأقل والوضوح الاتصالي. إن من أهم المنجزات التي قدمها البنيويون في ميدان اللسانيات التاريخية إصرارهم على أن كل تغير مفترض في نظام لغوي يجب تقييمه وفقًا لمضامينه بالنسبة للنظام ككل(٢).

وبذلك قدَّم سوسير نموذجًا لكل النظريات البنيوية اللاحقة. والحق أن هذا التمييز بين (اللغة) و(الكلام) هو تمييز أساسي إلى حدّ بعيد، فما يُشير إليه سوسير هو ضرورة التمييز بين النظام اللغوي والتكلُّم باللغة أو كتابتها، وذلك ضمن حقل الفعالية اللسانية الكاملة (اللغة). وقد اتّفق الجميع مع سوسير على ضرورة إيلاء دراسة الأنظمة اللغوية مكانة مركزية في اللسانيات.

فـ(اللغة) عند سوسير هي شيء اجتماعي ومُقيَّد في آن واحد؛ أي أنه مِلك لجماعة المتكلمين، وهذا الشعور بالاشتراك في وجدان المتكلمين يشي بوجود مَثَل لغوي أعلى يسعى كل منهم من جهته إلى تحقيقه، وهكذا فإن اللغة شيء ثابت بعكس (الكلام) الذي هو ميدان حرية، واللغة شيء كامل، بعكس الكلام الذي هو شيء

(١) يُنظَر: بافو وسرفاتي، "النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية"، ص١٠٩ – ١١١.

(٢) يُنظَر: ليونز، "اللغة واللغويات"، ص٢٦٦ – ٢٦٨.

ناقص وغير متجانس. وهذه النظرة البنيوية لا تقتصر على لسان ما دون غيره، فثنائية سوسير الشهير (اللغة/الكلام) صالحة بأبعادها وتمييزاتها لكل لسان، ومهمة اللسانيات العلمية لديه هي التركيز على النظام اللغوي لكل لسان، فلا يوجد لسان بلا نظام، فهنالك دائمًا علاقات تحكم وحدات اللسان وتربط بينها ضمن نسق لغوي متكامل.

وبما أن سوسير يعتبر أن اللغة متأصلة في المجتمع فقد عالجها بوصفها نظامًا من العلامات لا نظامًا من الجمل، حيث بدت الجمل على أنها قضية متعلقة باستعمال المتكلم الفرد للغته؛ أي أنها قضية مرتبطة بالأداء اللغوي لا بالمقدرة اللغوية. وبالمقابل، بما أن سوسير كان يعتبر اللغة نظامًا من العلامات فإنه كان مضطرًا للتفكير بها ضمن الإطار الاجتماعي.

إن تصنيف سوسير للنحو ضمن نطاق الأداء اللغوي وليس المقدرة اللغوية مرتبط بقضية البنية اللغوية كحقيقة اجتماعية. فالقول بأن اللغة حقيقة اجتماعية بالتأكيد إنكار لمعرفة المتكلمين بها معرفة كاملة، بمعنى المعرفة الكيفية. فسوسير يقول إن المقدرة اللغوية لا بد من أن تكون حقيقة اجتماعية على أساس أنه ليس من فرد واحد يعرف لغته الأم معرفة كاملة(١).

فالمعلومات الملموسة في الكلام تصدر عن كل متكلم على حدة، لكن المقدرة لا تكتمل لدى أي متكلم بعينه، بل تتجسد كاملة ضمن الجماعة. وهذا يعني أنه ما من مواطن واحد يمتلك معرفة كاملة بالنظام التشريعي لبلده، ومع ذلك فالنظام التشريعي موجود كحقيقة علمية بصورة مستقلة عن نقص انعكاسه في عقول المواطنين، وبالتالي، فليس هناك مواطن واحد يملك معرفة كاملة بلغة بلده التي لا علاقة لوجودها بانعكاسها الناقص في عقول الناطقين بها وفي سلوكهم(٢).

(١) يُنظَر: سامسون، "مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)" ص٤٨، ٤٩.

(٢) يُنظَر: سامسون، "مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)" ص٣٧، ٣٨.

ومهما تكن حقيقةُ اللغة، فإنها تبدو فعالية لسانية كاملة، وكمالها في حقيقتها الاجتماعية يبدو في الجماعة اللغوية ككل. ولتوظيف ذلك فيما نحن بصدد دراسته، فإنه يمكن الحديث عن المقدرة اللغوية التي هي دائمًا كاملة، كما يمكن الحديث عن الأداء اللغوي (أو الكلام بحسب عبارة سوسير) الذي يبدو ناقصًا في تمثيله للمقدرة اللغوية.

وهذا ما يستدعي أن يكون بين كمال المقدرة اللغوية ونقص الأداء اللغوي عملية علاجية تلقائية تُسهم في تطور اللغة ورفع كفاءتها التواصلية، فالتطور اللغوي والابتكار وخلق الأبنية والأنماط اللغوية وما أشبه ذلك هو بحد ذاته عملية علاجية تسري من (الكلام) إلى (اللغة)، ولكن بشروط اللغة وإمكانياتها. والعملية العلاجية هنا ليست خارجية؛ أي بفعل مؤسسة أكاديمية أو تخطيط لغوي، وإنما هي عملية داخلية طبيعية تجري دون وعي أو قصد، وفي ذلك ما فيه من حفظ لطاقة اللغة ومحافظة على نظامها.

فنظريًّا يكون تأثير (الكلام) لدى سوسير مهمًّا في نقطة واحدة تتعلّق بشرح العملية العلاجية، فكل ما هو تطوري في اللسان لا يكون كذلك إلا بواسطة الكلام، لكن سوسير يُضيف مع ذلك هذه النظرة الممتازة التي مفادها أن العملية العلاجية مشروطة بالإمكانيات الموجودة في نظام اللغة. فكل معالجة لا بد أن تكون مسبوقة بمقارنة لا واعية بين المواد الموضوعة في خزان اللغة(١). فسدّ النقص يكون بوجه عام دون قصد واعٍ. وكل ما يصل إلى اللغة بطريق اصطناعي يكون عرضة للعب بطاقاتها، ويعني ذلك أن العمليات العلاجية تخضع في اللغة المعينة للقواعد السارية(٢).

فتغير اللغات ليس تابعًا فقط لإرادة البشر الواعية، وذلك كأنْ يكون جهدًا تبذله مجموعة من الناس بغية أن يفهمها الأجانب، أو أن يكون قرارًا يتخذه القواعديون الذين

(١) يُنظَر: مونان جورج، "سوسير أو أصول البنيوية"، ترجمة وتقديم: جواد بنيس، (ط١، بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ٢٠١٦م)، ص٥٠، ٥١.

(٢) يُنظَر: بارتشت، "مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي"، ص٤٩.

يُطهِّرون اللغة، أو أن يكون خلقًا لكلمات جديدة للدلالة على أفكار جديدة. ولكنه تبع أيضًا لضرورة داخلية، فاللغة لا تتغير فقط، ولكنها تُغيِّر ذاتها كذلك، فهنالك حديث شائع منذ سوسير عن المبدأ الداخلي للتغير اللغوي(١).

إن الباحثين المؤيدين لمبادئ البنيوية يميلون إلى ربط التغير اللغوي بأسباب داخلية وبخاصة بالتكيفات والتطورات المستمرة التي تطرأ على النظام اللغوي وهو ينتقل من حالة توازن (أو شبه حالة توازن) إلى أخرى.

والمبدأ الأساس في بقاء اللغة كحالة لسانية كاملة لدى الجماعة اللغوية هو قدرتها التصحيحية على ترميم ذاتها في مسار تطورها المستمر، فمفهوم سوسير عن استغلال نظام اللغة يصدر عنه نتيجة نهائية واحدة وهي: تنقية اللغة عن طريق إضفاء مسحة من الكمال عليها بإضافة عناصر مرغوبة أو استبعاد عناصر أخرى غير مرغوبة، وذلك بهدف صيانة اللغة لاستعمالها في التواصل. فاللغة تتغير وتُعيد تنظيم نفسها من جديد(٢).

فاللغات تميل بوضوح نحو التنظيم، مما يؤكد أنها قد شهدت في الأساس قدرًا كبيرًا مما يمكن أن نطلق عليه اسم الإصلاحات الترميمية. ولدينا انطباع واضح بأن ممارسات التواصل قد اتجهت على مرّ العصور إلى (تزيين) بعض الأشكال اللغوية غير المكتملة(٣).

وبعد منتصف القرن العشرين، ذهب تشومسكي إلى أن الإشارة إلى كمال اللغة له علاقة بالأسئلة التي دخلت جدول أعمال البحث في وقت قريب، ولا تزال مفهومة

(١) يُنظَر: ديكرو وسشايفر، "القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان"، ص١٥٩، ١٦٠.
(٢) يُنظَر: سامسون، "مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)" ص١١.
(٣) يُنظَر: جون كالفيه، "إيكولوجيا لغات العالم". ترجمة: باتسي جمال الدين، (ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤)، ص٣٦، ٣٧.

على نحو هزيل، لكنه يعتقد بأنها ذات معنى تجريبي وربما مهمة(١).

٤. الجانب الشعبي:

يجب التأكيد هنا على أن اللسانيات هي مثل أي فرع آخر من فروع المعرفة تسعى لأن تكون علمية بقدر المستطاع، وذلك بالعمل على تطوير ذاتها وإعادة صياغة أسسها ومناهجها. فهناك تقدّم كبير حققته الدراسة العلمية للغة خلال المائة وعشرين سنة الماضية. ويجب ألا ننسى أن الاصطلاحين: (علم) و(علمي) أو أسلافهما من الاصطلاحات قد فُسِّرت بشكل مختلف في الأوقات المختلفة(٢).

ومع ذلك تعترف اللسانيات اليوم بأن القوانين العلمية الشاملة لا يمكن تقليصها إلى عمليات تجميع مقولات ومعتقدات شعبية عن ملاحظات منفردة؛ فالنظرية العلمية ليست اختصارًا لمجموعة من الآراء والمعتقدات. فما أن يسمح المرء للنظريات بأن تكون خاضعة لتأثير الرأي بدلًا من الملاحظة والتجريب حتى يفتح الباب على مصراعيه أمام الجدل الذي لا يُمكن أن يُحسَم إلا بالمهاترات من كلا الجانبين. فالخبرة ومباشرة الحقائق اللغوية أقوى من كل حماس نظري. وهذه مشكلة حقيقية في اللسانيات؛ إذ يحمل بعضهم أحيانًا معتقدات خاطئة إلى حد كبير حتى حول الخصائص البسيطة في لغتهم مثلما نلمس من السؤال عن جواز استعمال تركيب بسيط فيها. فقد يُبدي علماء التراث الشعبي اهتمامًا بمعتقدات مجتمع من المجتمعات حول لغته، أما اللساني فمن واجبه أن يُركّز جلّ اهتمامه على الكيفية التي يتكلَّم بها أفراد المجتمع عندما لا يُفكِّرون بأمر لغتهم(٣).

---

(١) يُنظَر: تشومسكي نعوم، "بنيان اللغة". ترجمة: إبراهيم الكلثم، (ط١، بيروت: جداول، ٢٠١٧م)، ص٩٠، ٩١.

(٢) يُنظَر: ليونز، "اللغة واللغويات"، ص٧٤ – ٧٦.

(٣) يُنظَر: سامسون، "مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)" ص٥٩ – ٦٢.

والواقع أننا البشر جميعًا لسانيون إن قليلًا أو كثيرًا، ولكن من المؤكّد أن ملكة استعمال اللغة لا تكفي لذلك؛ يمكن للمرء أن يتحكم بلسان من الألسن فيوفَّق في استعماله (على غرار الكُتّاب الكبار)، ويمكن أن يتكلّم بإتقان لسانين بل عدد من الألسنة، ولا يكون مع ذلك لسانيًّا، فاللساني هو الذي اكتسب معرفة عن الألسنة وعُني بوظيفة اللغة، ومع ذلك فإن نشاطنا اليومي يمتّ بصلة إلى نشاط اللساني؛ هذا هو الشأن عندما نفتح معجمًا أو عندما نرجع إلى كتاب نحو؛ ما معنى هذه الكلمة؟ كيف نعبّر عن الشيء الفلاني؟ هل يجوز هذا التعبير في العربية، أم هل هو تعبير منسوخ من الإنجليزية؟ هذا مما يُلقيه اللساني من الأسئلة.

فمن لم يصطدم أبدًا بعقبة لسانية؟ على أن بعض الناس (لسانيون) أكثر من غيرهم. لكن من الذي يحقّ له أن يعتبر نفسه (لسانيًّا)؟ السؤال أشد دقة مما يُظن، فالحدود هنا كما هو الشأن في مجالات أخرى شديدة الضبابية إلى أقصى حدّ. ومع ذلك فلا شيء يمنع من تعريف (اللساني) اعتمادًا على خصائص مقبولة اصطلاحيًّا، وليكن ذلك كما يُقال في الطبيب؛ فنحن جميعًا أطباء إن قليلًا أو كثيرًا، نعرف كيف نُعالج ما يُصيبنا من طفيف الآلام المتنوعة، وتختلف المعارف الطبية ككل المعارف من شخص إلى آخر اختلافًا لا يبرز للعيان. لكنّ المصطلح عليه أن الذي يُسمَّى طبيبًا هو الحامل شهادة في الطب، والمسجل بعمادة الأطباء. وكذلك شأن اللساني؛ إذ توجد هنا أيضًا شهادات مناسبة (بما فيها شهادة الدكتوراه)، ويعمل لسانيون محترفون في الجامعات (حيث تُدرّس اللسانيات بخاصة في أقسام اللسانيات والآداب). وباختصار، للسانيين وجود ولو كان حتمًا بتكلّف اصطلاحي[١].

إن معظم الثقافات في العالم قد أوجدت لدى بعض أعضائها فهمًا معيّنًا لمجال

(١) يُنظَر: مارتان روبير، "مدخل لفهم اللسانيات". ترجمة: عبد القادر المهيري، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧م)، ص١٨ – ٢١.

اللغة وقدرتها، كما أن الوعي بالذات اللغوية قد يكون أثاره في البداية الاحتكاك بمتكلمين أجانب، أو وجود الانقسام اللهجي وإدراكه داخل الجماعة اللغوية، أو قد تكون أثارته نزعة معيّنة من نزعات حب الاستطلاع الأصيل والخالي من الغرض عند الإنسان لمعرفة نفسه ومعرفة العالم من حوله. وقد نشأ عن هذا المصدر (علم لغة شعبي): وجهات نظر تخمينية أو آراء ومعتقدات دوجماتية عن أصل لغة المرء الخاصة وعن مكانتها في حياة الجماعة. وهذه الآراء قد تأخذ أشكال انتقاد يزدري اللهجات واللغات الأخرى(١).

ولذلك دعت الحاجة في حقول اللسانيات المعاصرة إلى أخذ تلك المعتقدات والآراء التخمينية مأخذ الجدّ؛ لما لها من آثار مُضلِّلة في الشعوب والمجتمعات. ولئن كان تيار (اللسانيات الشعبية)، الذي يدرس تلك المعتقدات والآراء، حديثًا نسبيًّا، فإن الممارسات الشعبية تجاه اللغات والحديث بشأنها قديم قِدم اللغات البشرية.

لا بد إذًا للبحث اللساني أن يُعيد تناول تلك المسائل وتقديم ما هو جديد في عُمقها، ومسألة قصور اللغة والعجز اللغوي من المسائل البارزة والمثيرة للجدل في وقتنا المعاصر، والواقع أن الذين تُحتَقر قدراتهم اللغوية دائمًا ليسوا من مجتمعات بدائية أو أمية، وإنما هم موجودون في المجتمعات الغربية ومتجذِّرون فيها، وسيظهر لنا هنا كيف أن اللسانيات التي تُسمَّى علمية لم تُنه تلك الممارسات الشعبية ولم تضع حدًّا لها.

وفيما يخص اللغة العربية، يمكن أن نسوق مثالًا على الممارسات الشعبية تجاهها والانتقاص منها واتهامها بالقصور وعدم النضج بمقال ي. شوبي: (تأثير اللغة العربية على نفسية العرب)، الذي نشره عام ١٩٥١م في مجلة الشرق الأوسط، وبما أنه كان يبدو مؤثِّرًا أو مثيرًا في الأقل فقد أُعيد نشره عام ١٩٧٠م في كتاب يحوي مجموعة من المقالات حرَّره عبد الله لطيفة وتشارلز تشرتشل، بعنوان: (قراءات في المجتمعات

(١) يُنظَر: روبنز، "موجز تاريخ علم اللغة في الغرب"، ص١٥ – ١٧.

والثقافات العربية في الشرق الأوسط). ويتضمن هذا المقال عددًا من الأحكام اللاذعة المختصرة التي تتمحور حول فكرة أن اللغة العربية هي لغة ناقصة وتؤدي إلى شلّ فكر العربي [١]. وبالرغم من أن هذا المقال يُمثِّل نوعًا من الكتابات الصحفية غير المنضبطة، فقد وُصفت المواضيع التي تناولها بأنها قد نوقشت بكفاءة منقطعة النظير[٢]!

وفي محاولة شوبي لتبيين الأثر السيئ المزعوم للغة العربية على نفسية العرب، سعى لتتبع الأسباب التي جعلت هذه اللغة على هذا النحو، وقد أجمل هذه الأسباب فيما يأتي: الازدواجية اللغوية والغموض والنقص النحوي واللعب بالكلمات ونظرة العرب الدونية إلى لغتهم وبشاعة أصواتها وكثرة المترادفات فيها. فإذا كانت اللغة تُسيطر على الفكر فإن لغة بهذه العيوب ستكون عبئًا على فكر متكلميها ومانعة لهم من التفكير السليم[٣].

فمن أسباب شل فكر العربي، من وجهة نظر شوبي أن اللغة العربية لا تحتوي على آلية تركيبية مطواعة. إذ يوجد في العربية الأدبية على سبيل المثال، وربما بقدر أكثر مما في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي، تركيب تضادي سطحي، وينبع هذا أساسًا من طريقة بناء الجملة غير المستساغ معرفيًّا؛ ذلك أن العربية ليست غنية بالمُسوِّرات، والأدوات المعرفية، والروابط المنطقية. فيمكن أن تسند الجملة، مثلاً، أوصافًا متعارضة، ثم يُترك للقارئ أن يُعمِل فكره ليقرِّر كيف يُقسِّم الأوصاف – فيمكن أن تتعلق هذه الأوصاف بتفريعات مختلفة لفاعلٍ جمع، أو بفاعل واحد عن طريق فواصل زمنية معينة أو بأي شيء آخر. وقد تُستعمل عبارات متعارضة ظاهريًّا لأنه ليس في العربية، مثلها مثل اللغات القديمة الأخرى، آلية تركيبية مطواعة للتعامل مع (أقسام الشيء الواحد)،

(١) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٥٩.

(٢) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٧٤.

(٣) يُنظَر: المزيني، "التحيز اللغوي مظاهره وأسبابه"، ص١١٨.

ومثل ذلك: "وما الناس إلا جاهل وحليم". حيث تجد أنه بدلاً من استعمال (أو) استعملت (الواو) ومعناها الأصلي العطف، لكنها قد تستعمل بمعنى الاستدراك(١). ويقول ريكندورف إنه: "لا يوجد في اللغة العربية عبارات ربط حقيقية بمفهومنا للمصطلح". ويقول كذلك: "لا توجد في الواقع كلمات ربط حقيقة في الجملة الرئيسة"(٢).

وهذا المستشرق جب يتكلم عن (تفكك التركيب السامي التقليدي)، فيقول: "يتسم تقديم الجملة بأنه متقلب بشكل فجائي أو (غنائي)، والأجزاء المكونة له مستقلة بعضها عن بعض بشكل أساسي، وقلما تترابط بشكل تبعي كما يحدث في التركيب الهرمي لتركيب اللغات الأوروبية"(٣).

وقد استنكر إدوارد سعيد (١٩٣٥ – ٢٠٠٣م) هذا المقال استنكارًا شديدًا في كتابه: (الاستشراق)، لكنه لم يدحضه في الحقيقة. أما المقال فيقوم على احتجاج ضعيف، بل ربما لا يستحق في الأحوال العادية أي نقد مفصّل، لكن بما أنه يُمثِّل حالة مدهشة معاصرة للمعالجة التي تنظر إلى اللغة كأنها سجن، واتسامه بافتراض بعض العلاقات الواضحة بشكل كاف، مما يجعل من الممكن إقامة الحجة ضدّها، وبما أنه ربما ساعد في إلباس هذه المعتقدات الزائفة ثوبًا من العلمية مما يجعلها عرضة للتصديق(٤).

فمثل هذا الزعم، وإنْ كان يُمثِّل نقدًا مُقولبًا ومختصرًا، إلا أنه يفتح الباب واسعًا لبحث العلاقة بين اقتصاد النظام اللغوي ومحدودية الدماغ البشري، وهي محدودية لا تنم عن شلل أو قصور بقدر ما تُشير إلى أن هنالك عملية توازن بين القدرة الذهنية

(١) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٣٢٨، ٣٢٩.
(٢) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٣٩٦.
(٣) جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٤١٥.
(٤) يُنظَر: جستس، "محاسن العربية في المرآة الغربية"، ص٥٩.

وعدد الفصائل النحوية للغة الواحدة، فهذا التوازن يضع التعقيد اللغوي في موقع وسط بين أنظمة التواصل، وهو اعتدال يُشكِّل سِمَة مُثلى لاشتغال النظام اللغوي. وبناء على ذلك يُمكن بسط الإجابة عن سؤال: لماذا لا تحتوي اللغة الواحدة على جميع الفصائل النحوية؟ وكيف أن هذه المحدودية في الفصائل النحوية لم تمنع الأنحاء الطبيعية من أن تكون أنظمة مكتملة، ولم تمنع كذلك اللغة البشرية من ترميم ذاتها لتلبية حاجات الناطقين بها وفق عملية علاجية تلقائية تواكب سير اللغة في تطورها المنتظم.

وهي مسائل تُشكِّل الإجابة عنها صعوبة كبيرة وتحدِّيًا بالغًا للسانيات المعاصرة. وبالرغم من ذلك فإن ربط تلك المسائل بظاهرة سهولة اللغات وتوسِّط تعقيد نظامها قد يكون فيه شيء من إثارة مسألة صعوبة اللغة العربية وتقديم إجابات وافية تدحض مزاعم قصورها، والأمر هنا لا يتعلَّق بالدفاع عن العربية فحسب؛ ذلك أن الأسس والمبادئ التي تستند إليها الدراسة هي من مُعطيات اللسانيات العلمية التي أمدَّت البحث اللساني الحالي بأدوات منهجيّة صالحة لكل لغة قد تتعرض للنقد غير الموضوعي، فهنالك أوصاف غير علمية كثيرة أُطلقت على كثير من اللغات البشرية وفق تمييزات مختلفة.

وامتلاكنا في هذا الزمان لكثير من الحقائق العلمية المتعلقة بالمعرفة اللغوية يُحتِّم علينا أن نُعيد النظر في كثير من مسائل النقد اللغوي والأحكام التقييمية التي ترفضها اللسانيات العلمية اليوم رفضًا باتًّا، وخصوصًا أن القول بصعوبة اللغة العربية وقصور تركيبها ما يزال يُثار إلى يومنا هذا، وفي كتاب (محاسن العربية في المرآة الغربية) – كما ظهر في عرض الدراسة – دلائل وشواهد معاصرة بما لا يدع مجالًا للشك في أخذ المسألة والتعاطي معها على نحو جدّي. والناظر إلى مقال شوبي، كأحد الشواهد الصارخة، يُثبت بما لا يدع مجالًا للشك كيف يُروَّج لمثل هذه الأطروحات ويُعاد إحياؤها من جديد كلما ظُنّ أن مسألة تقييم اللغات وتفضيل بعضها على بعض قد انتهت وعفا عليها الزمن.

فمثل هذه المعتقدات التي أتى بها شوبي وغيره ما تزال تتردد إلى اليوم، فليس غريبًا

في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين، أن تجد مقالًا لكاتب مشهور في صحفية عالمية سيّارة (الإندبندنت) يحمل عنوان: (هل يتعثّر تَقدُّم العرب بسبب لغتهم المتحجرة؟) فالعربية لدى (الكاتب الشهير!) مفروغ من تحجّرها، وموضع السؤال هو عن إمكانية تقدُّم العرب في ظل العربية (لسانهم الناطق)، والإجابة لديه هي أن "أحد أسباب تراجع العرب عن تفوّقهم العلمي هو اللغة العربية".

إن ظهور اللسانيات العلمية وترسُّخ أُسسها ومناهجها لم يقف حائلًا دون إطلاق أحكام تقييمية تصطلي بنار نقدها لغات كثيرة، فهنالك كثير من المعتقدات والآراء غير العلمية لا تزال تُمارس تأثيرها ونفوذها إلى اليوم. ومنذ منتصف ستينات القرن العشرين بدأ يظهر تيار لساني معاصر أُطلق عليه مصطلح: (اللسانيات الشعبية) Folk Linguistics[1]، وهو تيّار يُعنى بحديث غير اللسانيين عن اللغات وعن الشأن اللغوي، وهؤلاء غير المختصين ليسوا من العامّة أو ممن لا يُؤبه لأقوالهم، بل إن منهم الروائيين ونُقّاد الأدب ورجال الدولة والسياسة وكبار كُتّاب المقالات والصحف العالمية وغيرهم من كبار المثقفين وسادة المجتمعات.

(١) يُنظَر: روبنز، "موجز تاريخ علم اللغة في الغرب"، ص١٥؛ جون كالفيه، "إيكولوجيا لغات العالم"، ص١٩٢.

الخاتمة

وهكذا في نهاية هذه الدراسة نكون قد أتينا على ذكر أغلب جوانب مفهوم الكمال اللغوي في تاريخ الدرس اللساني، وقد دخلت فكرة (الكمال اللغوي) – كمصطلح مرتبط بمسائل الفن والذوق – من تاريخ الأدب، وهو ما أدخل في مناقشة مسألة قصور اللغات عنصرًا ذاتيًّا غير موضوعي من شأنه أن يُزيّفها من أساسها؛ إذ يجعلها مسألة من مسائل الذوق التي لا يمكن المنازعة فيها، فلا نزاع في الذوق كما يُقال. وقد تبيّن أن جميع اللغات الطبيعية من أي جانب تناولتها تجدها مكتملة، فجميع البشر يمتلكون لغات كاملة لتلبية احتياجاتهم، وأي قول بخلاف ذلك لا يعدو أن يكون قولًا زائفًا وحكمًا تعسفيًّا لا يملك أي دليل علمي يسنده. وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

١. إن تناول مزاعم القول بقصور العربية ودحضها يستند إلى أدوات منهجية وضوابط علمية تصلح لتكون مبادئ وأُسس عامة لإسقاط مقولة القصور عن جميع اللغات من أساسها، فدحضُ تلك الفرية عن العربية هو الباعث الأول لإنجاز هذه الدراسة، ولكن حق الرد وحقيقته يُمكن أن يُدفَع بهما لنقض مقولة القصور عن كل لغة قد تتعرَّض للانتقاص من كمالها.

٢. إن الحديث عن الجانب الفكري لمفهوم الكمال اللغوي، قد جاء بعد التعصب العرقي للغة الإغريقية زمن اليونان القديمة. وقد برز الاتجاه العقلي الذي يتزعّمه ديكارت ليدحض هذه المقولة، ويرى أن اللغات جميعها قادرة على التعبير عن أدق الأفكار، فليس هنالك لغة وصلت حدًّا من العجز والقصور بحيث لا تفي بمتطلبات الفكر، فاللغات كلها كاملة من هذا الجانب. فلغة التفكير واحدة لدى البشر، والتنوّع السطحي في لغة الكلام لا يؤثِّر في السمة الجوهرية للكمال اللغوي.

٣. ليس هنالك ارتباط لغوي بين مفهوم الكمال وأفكار التقدُّم والتراجع، فالكمال

اللغوي لا يرتبط بأصل قديم وليس هو غاية تُنشد في شكل جديد، وإنما يرتبط مفهوم الكمال بفكرة الانتظام والتوازن، فاللغة من حيث شكلها منتظمة في كل أطوارها وأزمانها، فليس هنالك ارتقاء وليس هنالك اضمحلال، هنالك الانتظام والتوازن فحسب.

٤. يقتضي الجانب النظامي لمفهوم الكمال اللغوي أن يكون هنالك نمطان أساسيان، هما (اللغة) و(الكلام)، فاللغة تُمثِّل ذلك النظام الذي يربط الوحدات اللغوية فيما بينها بعلاقات تُشكِّل بنية متكاملة، والكلام يُمثِّل الأداء الناقص غير المتجانس لممارسات الأفراد. وكون الكلام ممارسة ناقصة وغير متجانسة لا يؤثِّر في حقيقة أن اللغة نسق بنيوي متكامل. فالكمال اللغوي ليس خاصًّا بلغة معينة أو بأصل لغوي قديم أو جديد أو بثقافة دون أخرى، وإنما بجميع اللغات؛ فاللغة الواحدة هي كلٌّ في حدّ ذاتها، وهي نظام متكامل خاصيته الأساسية هي استقلاليته.

٥. لم تضع اللسانيات العلمية المعاصرة بمناهجها ومبادئها المتعددة حدًّا لانتشار المعتقدات الشعبية والآراء اللغوية غير المختصة، ولعل من أبرز أسباب ذلك هو انغلاق اللسانيين على أنفسهم وتجاهلهم للأثر الكبير الذي يُحدثه كلام عامة الناس عن اللغات، فالحديث عن كمال اللغات وقصورها أو صعوبتها وسهولتها أو وضوحها وتعقيدها ... إلخ، كلها أحاديث رائجة تجد هوى مستطابًا وسرعة انتشار تفوق أي حديث علمي مختص.

المصادر والمراجع:

أتكيسن جين، "اللغة والعقل (اللغويات النفسية)"، ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب: (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثاني (مجال اللغة الأوسع)، (ط١، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ).

إفيتش مليكا، "اتجاهات البحث اللساني". ترجمة: سعد مصلوح ووفاء فايد، (ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م).

بارتشت بريجيته، "مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي". ترجمة: سعيد بحيري، (ط١، القاهرة: مؤسسة المختار، ٢٠٠٤م).

بافو ماري آن وسرفاتي جورج إليا، "النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية". ترجمة: محمد الراضي، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٢م).

بنكر ستيفن، "الغريزة اللغوية (كيف يبدع العقل اللغة؟)"، تعريب: حمزة قبلان المزيني، (ط١، الرياض: دار المريخ للنشر، ٢٠٠٠م).

تشومسكي نعوم، "بنيان اللغة". ترجمة: إبراهيم الكلثم، (ط١، بيروت: جداول، ٢٠١٧م).

تشومسكي نعوم، "اللسانيات الديكارتية – فصل في تاريخ الفكر العقلاني". ترجمة: حمزة قبلان المزيني، (ط١، عمّان: دار كنوز المعرفة، ٢٠٢٢).

جستس ديفيد، "محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية". ترجمة: حمزة قبلان المزيني، (ط١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٥هـ).

حجاج كلود، "إنسان الكلام (مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية)". ترجمة: رضوان ظاظا، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٣م).

ابن حزم علي بن أحمد (ت:٤٥٦هـ)، "الإحكام في أصول الأحكام". تقديم: إحسان عباس، (ط١، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣م).

دويتشر غاي، "عبر منظار اللغة (لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟)". ترجمة: حنان عبد المحسن مظفر، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة (٤٢٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٥م).

ديكرو أوزوالد وسشايفر جان ماري، "القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان". ترجمة: منذر عياشي، (ط١، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٣م).

روبنز روبرت هنري، "موجز تاريخ علم اللغة في الغرب". ترجمة: أحمد عوض، (سلسلة عالم المعرفة (٢٢٧)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧م).

سامسون جفري، "مدارس اللسانيات (التسابق والتطور)". ترجمة: محمد زياد كبة، (ط١، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٧هـ).

فندريس جوزيف، "اللغة". ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، (ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م).

فيكوتسكي ليف، "الفكر واللغة (النظرية الثقافية التاريخية)"، ترجمة: عبد القادر قنيني، (ط١، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣م).

كالفيه جون، "إيكولوجيا لغات العالم". ترجمة: باتسي جمال الدين، (ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م).

كالفي لويس جان، "حرب اللغات والسياسات اللغوية"، ترجمة: حسن حمزة (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨م).

كلر جوناثان، "فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)". ترجمة: عز الدين إسماعيل، (ط١، القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠م).

كولماس فلوريان، "اللغة والاقتصاد". ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٣)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٠م).

لو فيفن، "اللغة ودارسوها (تاريخ اللغويات)". ترجمة: محيي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، ضمن كتاب (الموسوعة اللغوية)، المجلد الثالث (بعض المظاهر الخاصة باللغة)، (ط١، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ).

ليونز جون، "اللغة واللغويات". ترجمة: محمد إسحاق العناني، (ط١، عمّان: مؤسسة رلي للنشر، ١٩٩١م).

مارتان روبير، "مدخل لفهم اللسانيات". ترجمة: عبد القادر المهيري، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧م).

مارتنيه أندريه، "وظيفة الألسن وديناميتها". ترجمة: نادر سراج، (ط١، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩م).

مونان جورج، "سوسير أو أصول البنيوية"، ترجمة وتقديم: جواد بنيس، (ط١، بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ٢٠١٦م).

مونتغمري سكوت، "هل يحتاج العلم إلى لغة عالمية – اللغة الإنجليزية ومستقبل البحث العلمي". ترجمة: فؤاد عبد المطلب، سلسلة عالم المعرفة (٤١٩)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٤م).

هاريس روي وتيلر تولبيت، "أعلام الفكر اللغوي (التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير)". تعريب: أحمد شاكر الكلابي، (ط١، بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م).

Bibliography

Aitchison, Jean. "Language and Mind (Psycholinguistics)", translated by: Muhyiddin Hamidi and Abdullah Al-Humaidan, in the book: (Linguistic Encyclopedia), Volume Two (The Wider Field of Language), (1st edition, Riyadh: King Saud University, 1421 AH).

Ivic Milica. "Trends in Linguistic Research", Translated by: Saʿd Maslouh and Wafa Fayed, (1st edition, Cairo: Supreme Council of Culture, 2000).

Brigritte, Bartschat. "Linguistic Methods from Hermann Powell to Noam Chomsky", Translated by: Saʿeed Beheiry, (1st ed., Cairo: Al-Mukhtar Foundation, 2004).

Pavo Mary Ann and Sarfaty George Elia, "Major Linguistic Theories from Comparative Grammar to Pragmatics", Translated by: Muhammad Al-Radi, (1st edition, Beirut: Arab Organization for Translation, 2012).

Pinker Stephen, "The Linguistic Instinct (How Does the Mind Create Language?)", Arabized by: Hamza Qablan Al-Muzaini, (1st ed., Riyadh: Mars Publishing House, 2000 AD).

Chomsky, Noam. "The Structure of Language", Translated by: Ibrahim Al-Kaltham, (1st edition, Beirut: Jadaul, 2017).

Chomsky, Noam. "Cartesian Linguistics – A Chapter in the History of Rational Thought", Translated by: Hamza Qablan Al-Muzaini, (1st edition, Amman: Dar Treasures of Knowledge, 2022).

Justice, David. "The virtues of Arabic in the Western mirror or the significance of form in Arabic in light of European languages". Translated by: Hamza Qablan Al-Muzaini, (1st edition, Riyadh: King Faisal Center for Research and Islamic Studies, 1425 AH).

Hajjaj Claude, "Human Speech (A Linguistic Contribution to the Human Sciences)", Translated by: Radwan Zaza, (1st edition, Beirut: Arab Organization for Translation, 2003).

Ibn Hazm Ali bin Ahmed (d. 456 AH), "Al-Ahkām fi Usul Al-Ahkām". foreword by: Ihsan Abbas, (1st edition, Beirut: New Horizons House, 1983).

Deutscher Guy, "Through the Lens of Language (Why Does the World Look Different in Other Languages?"). Translated by: Hanan Abdel Muhsin Muzaffar, (Kuwait: World of Knowledge Series (429), National Council for Culture, Arts and Literature, 2015).

Decreux Oswald and Schaefer Jean-Marie, "New Encyclopedic Dictionary of Linguistics". Translated by: Mundhir Ayashi, (1st

edition, Beirut: Arab Cultural Center, 2003).
Robbins Robert Henry, "A Brief History of Linguistics in the West". Translated by: Ahmad Awad, (The World of Knowledge Series (227), Kuwait: National Council for Culture, Arts and Literature, 1997).
Samson Jafri, "Schools of Linguistics (Rivalry and Evolution)." Translated by: Muhammad Ziyad Kubba, (1st edition, Riyadh: King Saud University, 1417 AH).
Vendris, Joseph, "Language". Translated by: Abdel Hamid Al-Dawakhli and Muhammad Al-Qassas, (1st edition, Cairo: National Center for Translation, 2014).
Vygotsky, Lev. "Thought and Language (Historical Cultural Theory)", translated by: Abdelkader Qanini, (1st edition, Casablanca: Africa East, 2003).
Calvet John. "The Ecology of the World's Languages". Translated by: Patsy El-Din Gamal, (1st ed., Cairo: Supreme Council of Culture, 2004).
Calvi, Louis Jean, "The War of Languages and Linguistic Policies", translated by: Hassan Hamza (1st edition, Beirut: Arab Organization for Translation, 2008).
Collier, Jonathan. "Ferdinand de Saussure (The Origins of Modern Linguistics and Semiotics)". Translated by: Ezz El-Din Ismail, (1st edition, Cairo: Academic Library, 2000).
Colmas Florian. "Language and Economics". Translated by: Ahmad Awad, World of Knowledge Series (263), (Kuwait: National Council for Culture, Arts and Literature, 2000).
Le Viven. "Language and its Students (History of Linguistics)". Translated by: Muhyiddin Hamidi and Abdullah Al-Humaidan, in the book (The Linguistic Encyclopedia), Volume Three (Some Specific Appearances of the Language), (1st edition, Riyadh: King Saud University, 1421 AH).
Lyons, John, "Language and Linguistics". Translated by: Muhammad Ishaq Al-Anani, (1st edition, Amman: Rally Publishing Company, 1991).
Martin Robert, "An Introduction to Understanding Linguistics". Translated by: Abd al-Qādir Al-Muhairi, (1st edition, Beirut: Arab Organization for Translation, 2007).
Martinet Andre. "The Function and Dynamics of Tongues". Translated by: Nadir Siraj, (1st edition, Beirut: Arab Organization for

Translation, 2009).

Monan George, "Saussure or the Origins of Structuralism". translated and presented by: Jawad Bennis, (1st edition, Beirut: Al-Rehab Modern Foundation, 2016).

Montgomery Scott. "Does Science Need a Universal Language – English and the Future of Scientific Research". Translated by: Fouad Abdel Muttalib, World of Knowledge Series (419), (Kuwait: National Council for Culture, Arts and Literature, 2014).

Harris Roy and Tyler Tolbit, "Figures of Linguistic Thought (The Western Tradition from Socrates to Saussure)". Arabization: Ahmad Shakir Al-Kalabi, (1st edition, Benghazi: United New Book House, 2004).

ملامح التعريف المعجمي عند الأصمعي (ت ٢١٦هـ)

Features of Lexical Definition According to Al-Asma'i

د. منى بنت محمد الشمراني

أستاذ اللغويات المساعد، كلية العلوم والآداب بالمخواة، بجامعة الباحة

البريد الإلكتروني: malshomrani@bu.edu.sa

ملخص البحث

يهدف هذا البحث الموسوم بـ: (ملامح التعريف المعجمي عند الأصمعي) إلى عرض الطرق التي استخدمها الأصمعي في التعريف باللفظة المعجمية، وقد حاول إزالة اللِّثام عن هذه الطرق بعد استقراء مواضعها في مصنفاته، إضافة إلى جمعه كثيرًا من الفوائد الأدبية واللغوية النافعة والمتفرقة التي أودعها الأصمعي مصنفاته. وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يتبع المنهج الوصفي التحليلي، الذي يقوم على وصف الظاهرة، ثم تحليلها وتفسيرها. وقد جاء هيكله في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة تضمنت جملة من النتائج المهمة، ومنها: أن طرق التعريف المعجمي عند الأصمعي كانت تتفاوت من حيث القلة والكثرة، فكان كثيرًا ما يستخدم التعريف بعبارة مقاربة، ويليه من حيث الكثرة التعريف بالترجمة، كما أنه لم يخرج عن الطرق التي أوجدها من سبقوه، إضافة إلى أنه لم يدخر جهدًا في محاولة إزالة الإبهام عن المفردة اللغوية، وبما يجعل المعنى حاضرًا في ذهن المتلقي، وهذه مهمة المعجمي في المقام الأول. وقد أوصى البحث بتتبع التعريف المعجمي في مؤلفات اللغويين العرب؛ من أجل استخراج طرق الشرح المغايرة عما تطرق له، ومحاولة استنباط طرق جديدة. كما أوصى بدراسة الأبعاد الثقافية، والفلسفية، والاجتماعية الذي عكسها فكر الأصمعي ولغته في مصنفاته.

الكلمات المفتاحية: الأصمعي- التعريف- المعجمي- الألفاظ- الترجمة - المغايرة.

Abstract

The current research, entitled: *"Features of Lexical Meaning according to Al-Asma'i"*, aims to present the methods that Al-Asma'i used in defining the lexical word. It has tried to reveal these methods after extrapolating their positions in his works. Then it has also collected many useful literary and linguistic benefits in it that Al-Asma'i left for us which are scattered in his lexical works. Al-Asma'i used to explain the word in more than one of the famous lexical methods, as the study has shown in this research. The study adopted the descriptive and analytical approach to investigate this topic. The nature of this study required it to be divided into an introduction, a preface, two chapters, and a conclusion. The introduction included the importance of the research, its plan, the methodology, and the most prominent questions the research answers. It concluded that Al-Asma'i's methods of lexical definition varied in number and abundance. He often used the definition in a similar phrase, followed in terms of abundance by the definition of translation of both types. He also did not deviate from the methods created by his predecessors, in addition to that, he spared no effort in trying to remove ambiguity from the linguistic vocabulary, in a way that makes the meaning present in the mind of the recipient, and this is the task of the lexicographer in the first place. The research recommended following thoroughly the dictionary definition in the works of Arabic linguists in order to extract methods of explanation different from what he discussed, and to try to devise new methods. It also recommended studying the cultural, philosophical, and social dimensions reflected in Al-Asma'i's thought and language in his works.

Keywords: Al-Asmai - Definition - Lexical - Words - Translation – Variation.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن قضية التعريف المعجمي من أهم القضايا اللغوية التي شغلت كثيرًا من الباحثين؛ إذ المعنى هو شطر اللغة، وبدون إيضاح المعنى تكون اللفظة مبهمة غامضة؛ لذا اهتم به صنّاع المعجم العربي اهتمامًا بالغًا، وقد تفاوتت طرق المعجميين في شرح المعنى، واستخدموا ما أمكنهم من طرق لكشف غموض اللفظة المفردة وإزالة إبهامها، وقد وجدنا لهذه الطرق–على كثرتها– أساسًا في تراثنا العربي الأصيل قبل نشأة المعجم بصورته المعروفة، وقد برزت بوضوح في مصنفات الأصمعي، وهو لغوي فذ وبارع في مسائل اللغة الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، والمعجمية، وقد ترك تراثًا جمًّا من التصانيف الجياد، عدّتُها تزيد على الثلاثين مصنفًا، ومن أجلّ آثاره (الأصمعيات) وهو اختيارات شعرية انتخبها من عيون الشعر العربي، تصوّر الحياة الأدبية أدق تصوير في عاداتها وأفكارها وتقاليدها، وما يزال الأصمعي صاحب الإسهامات الكبيرة في علم اللغة مضرب المثل في الفصاحة وسعة الرواية حتى اليوم.

وتوجهت هذه الدراسة إلى قضية مهمة، وهي طُرق التعريف عن المعنى المعجمي عند الأصمعي؛ فجاء هذا البحث بعنوان: (ملامح التعريف المعجمي عند الأصمعي)، وقد ظهرت شخصية الأصمعي المعجمية في تعريفه المعجمي لبعض الألفاظ؛ إذ يشرح اللفظ بمرادف واحد، وبعبارة مقاربة، كما يشرح اللفظ داخل سياقه اللغوي، فيفسر الكلمة، ثم يبين المراد منها بقول شاعر، أو يعرض لها مثلاً يبين سياقها من هذا المثل، وهكذا...

وتهدف هذه الدراسة إلى توضيح المقصود بالتعريف المعجمي، وبيان طرق المعجميين في شرحهم وتعريفهم للألفاظ، وتسليط الضوء على معاجم الموضوعات التي

لم تلق الحظ الوافر من الدراسة كما لقيته معاجم الألفاظ، وإجلاء طرق الأصمعي في تعريفاته، ثم إظهار براعته اللغوية، ومعرفة مزاياه المعجمية، إضافة إلى الكشف عن مدى تأثر الأصمعي بمن سبقه من اللغويين.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

ينطلق هذا البحث من محاولة الإجابة عن بعض التساؤلات المهمة التي يمكن إجمالها فيما يلي:

_ما المراد بالتعريف المعجمي، وما طرقه؟

_هل كانت طرق التعريف المعجمي معروفة عند علمائنا أم لا؟

_ما الطرق التي استخدمها الأصمعي في تراثه المحفوظ والمنقول إلينا؟

_هل تختلف طرق التعريف المعجمي عند الأصمعي عما استقر عليه عمل المعجميين فيما بعد أم لا؟

أما عن المنهج المتبع في هذا البحث فقد اتبع المنهج الوصفي التحليلي؛ الذي يقوم على وصف الظاهرة اللغوية وتحليلها، حيث قام البحث برصد طرق التعريف المختلفة عند الأصمعي من خلال تتبعها في بعض مصنفاته التي وقفت عليها الدراسة، ثم صُنفت وعُرضت كل طريقة في مطلب خاص بها، ودُعّمت بنماذج توضح طرق التعريف عند الأصمعي.

أما الدراسات السابقة فمما يجلي أهمية الدراسة، أنها لم تقف على دراسة تناولت التعريف المعجميّ لدى الأصمعي، وبيان الطرق التي اعتمدها في شرحه للألفاظ، وهناك دراستان يمكن الإفادة منهما، إحداهما في معجم لفظي قديم للفيومي، والأخرى في معجم لفظي حديث لعبد الغني أبو العزم، وهي:

١- التَّعريف المعجميّ أنواعه ووسائله في المعاجم العربية "معجم المصباح المنير أنموذجًا"، الباحث: د. سناني سناني، من منشورات مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، العدد السادس، ربيع الأول ١٤٣٦هـ، ديسمبر٢٠١٤م.

٢- التعريف المعجمي في معجم الغني الزاهر، الباحث: د. سلوى راجح العبدلي، رسالة دكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، الناشر: دار المنظومة، ٢٠١٤م.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وبيان ذلك على النحو التالي:

أوَّلًا: المقدمة: وضمّت أهمية الموضوع، وخطة البحث ومنهج الدراسة فيه، وإشكالية البحث وتساؤلاته.

ثانيًا: التمهيد: وقد جاء بعنوان: (أضواء على حياة الأصمعي)، وفيه عرض موجز عن اسمه، ونسبه، ومولده، وصفاته، ومكانته العلمية والثقافية، وثناء العلماء عليه، ووفاته.

ثالثًا: المبحث الأوَّل: وقد حمل عنوان: (مدخل لدراسة المعجم)، وفيه بيان لمدلول كلمة المعجم في اللغة والاصطلاح، والْشعوب الَّتِي سبقت الْعَرَب فِي وضع المعجم، وحاجة العرب إلى المعجم، ونشأة المعجم العربي، ووظيفته، والمراد بالتعريف المعجمي وشروطه.

رابعًا: المبحث الثّاني: وقد جاء بِعُنوان: (طُرق التعريف المعجمي عند الأصمعي من خلال مصنفاته)، وقد تضمَّن أحد عشر مطلبًا:

- **المطلب الأول:** التعريف بالترجمة.
- **المطلب الثاني:** التعريف بالمغايرة.
- **المطلب الثالث:** التعريف بعبارة مقاربة.

- **المطلب الرابع**: التعريف بالمعنى الاجتماعي.
- **المطلب الخامس**: التعريف بالاشتقاق.
- **المطلب السادس**: التعريف بالسببية.
- **المطلب السابع**: التعريف بكلمة معروف.
- **المطلب الثامن**: التعريف بالسياق اللغوي.
- **المطلب التاسع**: التعريف المعجمي المحرر المفصل.
- **المطلب العاشر**: تعريف اللفظة بذكر ما يقابلها من لهجات العرب المشهورة.
- **المطلب الحادي عشر**: تعريف اللفظ بالنظير.

خامسًا: الخاتمة: وفيها أُجملت أهم النتائج والتوصيات.

سادسًا: ثبت المصادر والمراجع

التمهيد

أضواء على حياة الأصمعي (١٢٣ - ٢١٦ هـ)

الأصمعي -رحمه الله تعالى- عَلَمٌ كبير ورائد من رواد اللغة والأدب، ذاع صيته في المرحلة الأولى من مراحل الحضارة الإسلامية، وانتشرت مؤلفاته في ربوع الأرض، وقد استطاع أن يجمع بين الرواية والدراية؛ نظرًا لما تمتع به من قوة العلم، ومتانة الحفظ، وسرعة الاستحضار للنوادر والطرائف، وقد نبغ -رحمه الله تعالى- في فنون شتّى منها: القرآن الكريم، وعلومه، وقراءاته، والحديث النبوي الشريف، واللغة، والنحو، والشعر العربي، وقصص الأعراب، والنوادر، وقد تنوعت مصنفاته -رحمه الله تعالى- تنوعًا يُظهر جانب الإبداع لديه، وخلف لنا تراثًا ضخمًا شارك به في إثراء اللغة والآداب، وأخباره ونوادره كثيرة، وقد اهتم بها الدارسون والباحثون للوقوف على حياته، وآثاره حتى أُفردت له مؤلفات مستقلة بما يُغني عن التكرار هنا؛ وحتى لا يخلو البحث من فائدة، سيلقي الضوء على حياته بإيجاز.

هو عبدُ الملك بنُ قُرَيب[(١)] بن عبد الملك بن علي بن أصمع، ويكنى أبا سعيد، وعُرف بالأصمعي نسبة إلى جده أصمع، وقد أصيب الأصمع بالأهواز، وكان قد أدرك النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- وُلد في البصرة سنة: اثنتين، وقيل: ثلاث وعشرين ومائة من هجرة المصطفى -ﷺ-، وكان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة[(٢)].

---

(١) قيل إن اسم قريب عاصم، ويكنى بأبي بكر بن عبد الملك بن أصمع. ينظر: الحسن بن عبد الله السيرافي، "أخبار النحويين البصريين". تحقيق طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، (ط مصطفى البابي الحلبي، سنة: ١٣٧٣ هـ - ١٩٦٦م)، ٤٦.

(٢) يُنظر: الزُّبيدي الأندلسي، "طبقات النحويين واللغويين". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، =

كان الأصمعي صدوقًا في الحديث، وقد كان يتوقى تفسير شيء من القرآن والحديث على طريق اللغة، قال نصر بن علي: "حضرت الأصمعي وقد سأله سائل عن معنى قول الرسول –ﷺ–: "جاءَكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ وَهُمْ أَبْخَعُ أَنْفُسًا"، ما معنى أبخع؟ قال: يعني أقتل. ثم أقبل متندمًا على نفسه كاللائم لها، فقلت له: لا عليك، فقد حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**فلعلك باخع نفسك**﴾[١]، أي قاتل نفسك، فكأنه سُرِّيَ عنه[٢]، وحُكي عن الشافعي –رحمه الله تعالى– أنه قال: "ما رأيت بذلك المعسكر أصدق من الأصمعي"[٣].

وحظي الأصمعي –رحمه الله تعالى– بشهرة واسعة، ومكانة علمية وسياسية شهد له بها أهل عصره ومن تلاهم من المتأخرين، وهذا ما يظهر فيما وصل من أخبار تشهد بجلال منزلته، فقد رُوي عن أبي حاتم أنه قال للأصمعيّ: "إن الناس يحملون عنك أنك تَرْوي أربعة عشر ألف أرجوزة. فقال: أنا أروي ستة عشر ألف أرجوزة، إلا أن منها قصارًا وطوالًا"[٤]، ولكثرة حفظه يقال إن الرشيد كان يسميه شيطان الشعر،

=

(ط/ دار المعارف، ط ٢، دون تاريخ)،١٦٧. وأخبار النحويين البصريين، ٤٦. ابن خلكان، "وفيات الأعيان". تحقيق إحسان عباس، (ط/ دار صادر– بيروت، دون تاريخ)، ٣: ١٧٠.

(١) سورة الكهف، آية: ٦.

(٢) يُنظر: أخبار النحويين البصريين، ٤٦، وكمال الدين الأنباري، "نزهة الألباء في طبقات الأدباء". تحقيق إبراهيم السامرائي، (ط/ مكتبة المنار الزرقاء – الأردن، الطبعة: الثالثة، سنة: ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م)، ٩٢.

(٣) يُنظر: نزهة الألباء، ١٠٠.

(٤) السابق، ١٧١.

وجاء أن الأخفش كان يرى الأصمعي أعلم الناس في الشعر، وعلل ذلك بأنّه كان نحويًّا"[١].

وقد نبغ الأصمعي في علوم كثيرة كما سبق إلا أن اللغة كانت جُلَّ قصده في التحصيل؛ فتمهر وفاق أقرانه، وقد ذكر له ابن النديم أكثر من أربعين مصنفًا، منها: كتاب: (الإبل)، وكتاب: (الأضداد)، وكتاب: (خلق الإنسان)، وكتاب: (المترادف)، وكتاب: (الفَرق)، وكتاب: (اللغات)، وكتاب: (الاشتقاق)، وكتاب: (النوادر)، وكتاب: (أصول الكلام)، وكتاب: (القلب والإبدال)، وكتاب: (جزيرة العرب)، وغيرها[٢].

ويقال مات الأصمعي في سنة سبع عشرة ومائتين أو سنة ست عشرة والله أعلم[٣].

(١) يُنظر: نزهة الألباء، ٩١.

(٢) ينظر: أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، "الفهرست". (ط/ دار المعرفة – بيروت، سنة: ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨ م)، ٧٩.

(٣) يُنظر: أخبار النحويين البصريين، ١٧٤.

المبحث الأول: مدخل لدراسة المعجم

أولاً: حول مدلول كلمة المعجم في اللغة والاصطلاح

تدور مادة (ع ج م) في اللغة على الخفاء وعدم الإيضاح، ففي العين، قال الخليل (ت١٧٥هـ): "والأعجم: الذي لا يُفْصِحُ. وامرأة عجماء بيّنة العجمة. والعجماء: كلّ دابّة أو بهيمة."[١]، وقال الفيومي (ت ٧٧٠هـ): "الْعُجْمَةُ فِي اللِّسَانِ بِضَمِّ الْعَيْنِ لُكْنَةٌ وَعَدَمُ فَصَاحَةٍ وَعَجُمَ بِالضَّمِّ عُجْمَةً فَهُوَ أَعْجَمُ وَالْمَرْأَةُ عَجْمَاءُ...."[٢].

ويتضح من هذا التعريف أن مادة (عجم) تعني الغموض وعدم الفصاحة والإبهام، ولسائل أن يسأل: إن جميع ما قدمته يدل على الإبهام وعدم الوضوح، وليس هذا من صنيع المعجم، إنما المعجم لتفسير الألفاظ:

فالجواب: أن قولهم: أعجمت وزنه أفعلت، وأفعلت في غالب أمرها تأتي للإيجاب: نحو: أكرمت زيداً أوجبت له الكرامة. فكما تأتي (أفعلت) للإيجاب كذلك تأتي للسلب نحو: أعجمت الكتاب: أزلت عجمته، وَإِذا مَا زيدت الْهمزَة فَقيل أعجم دلّ ذَلِك على إِزَالَة الْإِبْهَام والخفاء[٣]، قال ابن جني (ت٣٩٢هـ): ".... ثمَّ إِنهم قَالُوا أعجمت الْكتاب إِذا بَينته وأوضحته فَهُوَ إِذًا لسلب معنى الاستبهام لَا

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي، "العين". [ع ج م]، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي،
(ط/ دار ومكتبة الهلال)، ١ :٢٣٧.

(٢) الفيومي، "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير". [ع ج م]، (ط/ المكتبة العلمية – بيروت، دون تاريخ)، ٢ :٢٩٤.

(٣) السيد محمد بن السيد حسن، "الراموز على الصحاح". تحقيق محمد علي عبد الكريم الرديني، (ط/ دار أسامة – دمشق، ط ٢، سنة: ١٩٨٦م)، ٧.

إثْبَاته..."[١]، فالهمزة في (أعجم) أزالت الإبهام والخفاء، فهي كما تستعمل للإيجاب تستعمل للسلب، فأعجمت الكتاب أزلت عنه إعجامه أو عجمته.

والمُعْجَمُ اسم مفعول[٢] من أعجم بمعنى: الكتاب الذي يزيل الغموض، ومن المعلوم أن اسم المفعول يصاغ من الثلاثي على زنة مَفْعُول كمَنْصور، وأما من غير الثلاثيّ، فيكون على زنة مضارعه مع إبدال حرف المضارعة ميمًا مضمومة، وفتح ما قبل الآخر، نحو: أَكْرَمَ: مُكْرَم، أَعْجَمَ: مُعْجَم.

أما المعجم في الاصطلاح فهو: كتاب يضم بين دفتيه أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها، وتفسير معانيها، على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً، إما على حروف الهجاء أو المعنى، والمعجم التام هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بتوضيح معناها واشتقاقها، وطريقة نطقها وشواهد تبين مواضع استعمالها[٣].

ثانيًا: الْشعوب الَّتِي سبقت الْعَرَب فِي وضع المعجم:

ذكر الرديني أنه لم يكن الْعَرَب أول من عرف تأليف المعجم بل كان قبلهم الآشوريون والصينيون واليونان والهنود فقد وضع الآشوريون معجماتهم خوفًا على لغتهم من الضياع، ووضع الصينيون معجمين لحفظ إرثهم اللغوي، وعرف اليونانيون

(١) ابن جني، "الخصائص". (ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة)، ٣: ١٧٨.

(٢) اسم المفعول: هو ما اشْتُق من مصدر المبنى للمجهول، لمن وقع عليه الفعل.

(٣) عمر المهديوي، "التعريف المعجمي بين المعجم الورقي والمعجم الإلكتروني". (مجلة الدراسات المعجمية، الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، العدد العاشر، ٢٠١٤م)، ١٠١، نقلاً عن مقدمة الجوهري، "الصحاح". أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الثانية ١٩٨٢م، وينظر: المعجمات العربية بين الأصالة والمعاصرة". (دار البشرى، الطبعة الأولى، سنة: ١٤٤٥ هـ – ٢٠٢٣م)، ١٩، نقلاً عن عبد الغفار هلال، "منهج البحث في اللسانيات وعلم المعاجم". ١٦٢.

المعاجم ووضعوها بكثرة، ومن أقدمها، معجم يوليوس بولكس وهو معجم في الموضوعات كصنيع ابن سيده في المخصص، ووضع الهنود معجمات الألفاظ في اللغة السنسكريتية مرتبة بحسب الحروف. أما العرب فلم تكن هناك حاجة إلى المعاجم لديهم حتى جاء الإسلام، فكان لا بد من مرجع لغوي يضم معاني الكلمات التي لا يعرفون معانيها باصطلاحها الجديد(١).

ثالثًا: حاجة العرب إلى المعجم، ونشأة المعجم العربي:

ارتقت العربية في العصر الجاهلي، وارتفعت لهجاتها التي تتكلم بها القبائل المختلفة، وتوحّدت في آخر العصر الجاهلي، ونشأت منها لهجة أدبية راقية؛ نُظم بها الشعر، ولهجت بها ألسنة الخطباء والفصحاء، واعتبرت الفصحى لانتشارها وسيادتها على ما عداها، وقد بلغت اللغة حد الكمال اللغوي حين نزول القرآن بها، وكان العرب يبعثون أبناءهم إلى البادية ليُلقنوا اللغة من منبعها الصافي، ورسولنا الكريم – ﷺ– أرسل في طفولته لهذا الغرض، فلم يعرف العرب المعجم؛ لاعتمادهم على التلقي من العرب الفصحاء في البادية، فضلًا عن أميتهم، وطبيعة حياتهم، وفي بداية الإسلام بدأ الفكر المعجمي، وقد كان النبي –ﷺ– يوضح لصحابته–رضوان الله عليهم– ما استغلق عليهم من ألفاظ القرآن الكريم ولم يعرفوا معناه، وكان شعر العرب بمثابة معجم شفوي يستعينون به على فهم غريب القرآن؛ فيقول ابن عباس –رضي الله عنهما–: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب"(٢)، ومع دخول الإسلام وكثرَةِ الفُتُوحات الإِسلاميةِ، اختَلطَ العربُ بالأَعاجِمِ، وظَهَرَ

(١) الراموز على الصحاح، ١٠.

(٢) الزركشي، "البرهان في علوم القرآن". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط/ مكتبة دار التراث، سنة: ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م)، ١: ٢٩٣.

اللَّحْنُ على أَلْسِنَةِ الكثيرين، وقد وجد العلماء كثيرًا من الألفاظ تستعمل في غير مواضعها، وتخالف صريح العربية، إضافة إلى أن القرآن الكريم، وكذلك السنة النبوية تضمنا كثيرًا من الألفاظ الغريبة والنادرة، وكثيرًا من الألفاظ التي استغلقت معانيها على الفصحاء، وأيضًا بعضًا من المظاهر اللهجية والألفاظ المعربة، وهذه الأمور كانت مدعاة للتساؤل؛ فلجأوا إلى تدوين اللغة خشية ضياعها وخفاء ألفاظها، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن، كما أن حياة البداوة كانت خلال القرن الثاني الهجري قد بدأت تزحف على الحواضر، ومعنى ذلك أن المعين المأمون الذي كان يستقي منه الرواة قد أوشك على النضوب، فكان لابد من تدوين الثروة اللغوية وحفظها في معاجم، تحفظ عادات العرب وتقاليدهم، وأنماط سلوكهم الاجتماعي، ولتخليد ذكرياتهم وآثارهم اللغوية [١].

وكان السبق في استعمال لفظ المعجم بمعناه الاصطلاحي لرجال الحديث اللذين أطلقوا هذا اللفظ على الكتاب المرتب هجائيًا، وجمعوا فيه أسماء الصحابة، ورواة الأحاديث، وأول من أطلق على كتابه معجمًا الإمام البخاري (ت٢٥٦هـ) ثم وضع أبو يعلى أحمد بن علي (ت٣٠٧هـ) (معجم الصحابة)، وتلاه البغوي (ت ٣١٧هـ) في (معجم الحديث) ومن المفارقات "أن اللغويين القدماء لم يستعملوا لفظ (المعجم) ولم يطلقوه على مجموعاتهم اللغوية...فهذا العين وذاك الجمهرة... أما إطلاقنا للفظ (المعجم) على هذه الكتب فإطلاق متأخر"[٢].

(١) ينظر: عبد المنعم النجار، "المعجم اللغوي العربي مادة ومنهجًا وتاريخًا". (ط/ دار الطباعة المحمدية- القاهرة سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م)، ٥٢. وعبد التواب مرسي حسن الأكرت، "معجمات العربية تاريخ وتعريف". (ط/ دار الأقصى – القاهرة سنة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، ١٧.

(٢) أحمد مختار عمر، "البحث اللغوي عند العرب". (ط/ الثامنة، دار عالم الكتب للنشر، =

رابعًا: وظيفة المعجم:

المهمة الرئيسة للمعجم هي إزالة الغموض والخفاء والإبهام الذي قد يعتري بعض مفردات اللغة، وأيضًا البحث عن مدى فصاحة هذه المفردة، وكونها عربية أو مُعَرَّبة أو دخيلة، إضافة إلى ضبط المفردة ضبطًا صحيحًا؛ ليكون نطقها بالأداء العربي الفصيح؛

إذ الضبط الصحيح هو السبيل إلى معرفة المعنى المراد؛ فالمعنى هو بؤرة اهتمام المعجمي في المقام الأول؛ لأنه يعد أهم مطلب لمستعمل المعجم، ثمّ وُجدت طرقٌ لشرح المعنى شرحًا دقيقًا، من أشهرها الشرح بالتعريف، ومعناه إعادة التعبير عن المعنى بألفاظ أخرى، فالتعريف والمعرَّف تعبيران عن شيء واحد أحدهما موجز والآخر مفصل(١).

خامسًا: المراد بالتعريف المعجمي وشروطه:

التعريف بمعناه العام، هو: "نوع من التّعليق على اللّفظ أو العبارة"، وهو كذلك: "شرح نص اللّفظ أو العبارة"(٢).

ونظرًا لتعدد طرق التعريف المعجمي، واختلاف المُعرِّفين في تناول الألفاظ بحسب فكرهم، وما يرونه في تفاصيل اللفظ، فإنه من الصعب حصر طرقه لدى اللغويين، وهذا ما أكدّه دكتور: زكي نجيب محمود(٣) لكن الدكتور حلام الجلالي–

=

٢٠٠٣م)، ١٦١.

(١) ينظر: أحمد مختار عمر، "صناعة المعجم الحديث". (ط/ دار عالم الكتب سنة ٢٠٠٩م)، ١١٧. ومعجمات العربية تاريخ وتعريف، ٣٦.

(٢) محمد رشاد الحمزاوي، "من قضايا المعجم العربي قديمًا وحديثًا". (ط/ دار الغرب الإسلامي– بيروت، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٨٦م)، ١٦٥.

(٣) ينظر: زكي نجيب محفوظ، " المنطق الوضعي". (ط/٤، مكتبة الأنجلو المصرية للنشر، =

رحمه الله- حاول تجميع أهم هذه الطرق، وصنفها في ثلاثة مناهج أساسية تندرج تحتها عدة أشكال للتعريف، وهي:

أ- التعريف المنطقي أو الحقيقي: وهو ذلك النوع من التعريف الذي يشرح الشيء ببيان ماهيته، وجوهره، وطبيعته الخارجية، لا من حيث الاسم الذي يُطلق عليه، ويسمى التعريف الشيئي أيضًا(١)، ويندرج ضمن هذا النوع من التعريف عدة طرق، ومنها:

١) التعريف الجامع الشامل: وهو يعتمد على طبيعة الشيء المعرَّف، وبيان جنسه وخصائصه الذاتية، نحو: تعريف القط بأنه حيوان سنوري صغير أليف من الثديات.

٢) التعريف البرهاني: وهو المستعمل في العلوم الطبيعية، كتعريف النقطة بأنها لا سُمك ولا طول ولا عرض لها، ونحو: تعريف الماء مثلًا في الكيمياء.

٣) التعريف التركيبي: كما في تعريف الأشكال الهندسية، نحو تعريف: المثلث بأنه شكل هندسي، مجموع زواياه ١٨٠درجة.

٤) التعريف القاعدي: كما في قواعد النحو العربي، فنقول في تعريف الفاعل: اسم مرفوع قبله فعل تام مبني للمعلوم(٢).

ب- التّعريف الاسمي: وهو صياغة المعنى بكلمات أخرى، ويشترط فيه أن يكون قادرًا على تقديم دلالة اللّفظ أو الرّمز اللّغوي لغير العارف به، بصورة واضحة،

=

القاهرة،١٩٦٥م)، ١٢٧.

(١) ينظر: حلام الجيلالي، "تقنيات التعريف بالمعاجم العربية المعاصرة". (ط/ اتحاد الكتاب العرب-دمشق، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٩م)، ٤٨.

(٢) ينظر: السابق ٥٣-٥٤.

دون لبس أو غموض[١].

ويعتمد هذا النوع من التعريف على مجموعة العلاقات بين الألفاظ كالترادف، والتضاد، والتقارب، ومثاله في الترادف علاقة (أسد وليث) وفي الاشتقاق (استنطقه أي جعله ينطق)، وفي الترجمة (تلفون أي هاتف) وفي التشبيه (النُّغر أي طائر غرِد يشبه الكناري)، وفي الضدّ (الطويل ضد القصير)، وفي الوصف (الوابل أي المطر الغزير) وغيرها من العلاقات[٢].

ت- التعريف البنيوي: وهو: "تعريف مفهومي لا منطقي ولا اسمي، ينبثق من اللسان ذاته، وهو تعريف مركب تتحد فيه كثير من النظريات الدلالية القديمة، والحديثة والمعاصرة"[٣] ومن أهم طرقه:

١) التعريف الإجرائي: ويقوم المُعرِّف من خلاله بتعريف اللفظ حسب آثاره التي يؤديها، نحو تعريف الصلابة بأنها صفة لجسم يؤثر في الأجسام الأخرى بالخدوش وغيرها وهو لا يتأثر.

٢) التعريف بالحقل الدلالي: وفيه يقوم المُعرِّف ببيان اللفظ حسب الحقل الدلالي الذي ينتمي إليه، كأن يعرِّف (الأخضر) بأنه لون من الألوان، فيجلي معناه بنسبته إلى حقله الدلالي، بل إن هناك ألفاظًا لا يظهر معناها إلا بذكر ألفاظ تشترك معها في ذات الحقل، "فلا يمكن تفسير (الحسُّون) إلا بعد إحضار كل من: الكناري، والبلبل، والنُّغر..."[٤].

٣) التعريف السياقي: وهو يُشرح اللفظ بإيراده في سياقات لغوية مختلفة تُظهر

(١) تقنيات التعريف في المعاجم العربية:٦٦.
(٢) السابق: ٥٢.
(٣) السابق: ٥٤.
(٤) السابق:٥٤.

معناه كما في تعريف النصف مثلًا، فنقول: قسمت التفاحة إلى نصفين.

٤) التعريف التوزيعي: ويقوم على العلاقات العمودية في الفكر اللساني (الإحلال والإبدال) حيث يُستبدل اللفظ بلفظ آخر فيحل محلّه في النص اللغوي[١].

ولتعريف الألفاظ لدى العلماء في المعاجم شروط، وهي ما يلي:

١) الإيجاز، والابتعاد عن كل ما هو غير ضروري من خصائص، وصفات اللفظ.

٢) أن يبتعد المُعَرِّف عن تكرار اشتقاق الألفاظ، مثل: شَرُف: صار شريفًا.

٣) تجنب تعريف الألفاظ بمعلوم أو معروف.

٤) بيان نوع الألفاظ في التعريف، فالاسم يعرّف باسم، والفعل بفعل.

٥) مراعاة تعريف الشيء بذكر شكله، ووظيفته، وخصائصه المميزة، كأن نقول في تعريف المرآة: سطح مصقول أملس، يعكس صورة الأشياء.

٦) أن لا يكون التّعريف شاملًا، كأن يُعرّف الباب بأنّه قطعة من خشب مسطّحة، لأنّه يدخل في هذا التّعريف الطاولة.

٧) أن تكون الكلمات المشروحة مفهومة، وواضحة لعامّة مستعملي المعجم.

٨) بيان معنى الكلمة بوضعها في سياق لغوي، كأن نقول في معنى أصفر: لون الكتاب أصفر[٢].

(١) ينظر: تقنيات التعريف: ٥٥.

(٢) ينظر: عبد القادر بعداني، "التعريف في المعجم ووظيفته في توضيح الدلالة". (جامعة حسيبة بن بو علي الشلف، الجزائر)، ٤.

المبحث الثاني: طُرق التعريف المعجمي عند الأصمعي من خلال مصنفاته

توطئة

مهمة المعجم الرئيسة هي كشف الإبهام والغموض الذي قد يعتري المفردة اللغوية، وبيان المراد منها في السياقات المختلفة؛ فيقوم المعجم بتحديد الدلالات التي تفيدها المفردة، ويفسر معناها، وطرق تفسير المعنى هي بؤرة اهتمام المعجمي؛ إذ هو عمله الرئيس، وتتفاوت عناية المعجميين بالمفردة، وبطريقة عرض المعنى من أجل توضيحه، وإبراز ما يحتمله من دلالات، وطريقة عرض المعنى إجمالًا وتفصيلًا هي التي تميز معجمًا عن آخر؛ وتعدُّ قضية التعريف من أهم الركائز التي تقوم عليها صناعة المعجم؛ إذ إن رفع الإبهام والغموض عن المفردة، وتفسيرها وشرحها هو أساس العمل المعجمي كما أسلفت، ولو لم يتم هذا التفسير بالدقة المطلوبة لصارت اللفظة مُبهمة، وقد كان الأصمعي –رحمه الله تعالى– من الرَّعِيلِ الأول من اللُّغَوِيِّنَ الذين هَبّوا لتدوين اللغة وجمعها من البوادي والفيافي، وكابد المشقات والمخاطر من أجل جمع أصول هذه اللغة، فوصل إلى الأعراب في مساكنهم في البوادي والصحراء، وقد كان له مع كل حي علامة ونادرة ذكرها في مصنفاته، وحاول تدوين الكثير من عادات العرب وألفاظها وإيضاح معانيها قبل ظهور المعجم بصورته المعروفة، ورسائله خير شاهد على ذلك، وفي هذا المبحث عرض لطرق متنوعة من التعريف المعجمي استطاع الأصمعي –رحمه الله تعالى– أن يستخدمها بدقة وبراعة، وهي إجمالًا ما يلي:

١)	**التعريف بالترجمة.**	٧)	**التعريف بكلمة معروف.**
٢)	**التعريف بالمغايرة.**	٨)	**التعريف بالسياق اللغوي.**
٣)	**التعريف بعبارة مقاربة.**	٩)	**التعريف المفصل.**
٤)	**التعريف بالمعنى الاجتماعي.**	١٠)	**التعريف بذكر المقابل من لهجات العرب المشهورة**
٥)	**التعريف بالاشتقاق.**	١١)	**التعريف بذكر المقابل من لغات أعجمية مشهورة.**
٦)	**التعريف بالسببية.**	١٢)	**تعريف اللفظ بالنظير.**

وسيعرض البحث -بمشيئة الله تعالى- لكل طريقة من هذه الطرق في مطلب مستقل، مع إيراد نماذج لها من مصنفات الأصمعي حتى تتضح الصورة في ذهن القارئ.

المطلب الأول: التعريف بالترجمة:

والمراد بذلك أن تُفسَّر الكلمة بكلمة أخرى، أو بأكثر من كلمة أخرى من اللغة نفسها[١]، أو تعريف اللفظ الأعجمي بلفظ عربي، والتعريف بالترجمة يشمل ثلاثة من أنواع التعريف:

الأول: شرح اللفظ بلفظ آخر يُرادفه أو يُقاربه من نفس اللغة.

الثاني: شرح اللفظ بأكثر من كلمة، أي شرح دلالته شرحًا قصيرًا يسيرًا [٢]، وفيما يلي تفصيل ذلك:

النوع الأول: شرح اللفظ بلفظ آخر يرادفه أو يقاربه دون توسُّع؛ حتى يُزال

(١) عبد الكريم جبل، "في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات". (ط/ دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى سنة: ١٩٩٧م)، ٥٢.

(٢) في علم الدلالة، ٥٢.

غموض المفردة، فيقال: "الأبَدُ: الدَّهر"[١] وجاء: "النَّفْنَفُ: الهواء"[٢] وغيرها كثير، وقد استخدم الأصمعي هذا في رسائله بصورة واسعة جدًّا، وقد لا يلجأ إلى غيره من الأنماط إلا إذا لم يكن للفظ مرادف موضح للمعنى، ومن النماذج على ذلك:

١) **قوله**: "الصِّرْمَةُ: الْقَليلُ "[٣]. ٢) **قوله**: "الرَّاعِفُ: السَّابِقُ"[٤].

٣) **قوله**: "مُزَيْنَةُ: تَصْغِيرُ مُزْنَة، وهي السَّحَابَة"[٥].

٤) **قوله**: "الخِرِّيتُ: الدَّلِيلُ" [٦]. ٥) **قوله**: "والرَّواغي: الْإِبِلُ" [٧].

٦) **قوله**: "والشُّومُ: السُّودُ"[٨]. ٧) قوله: "والحَبارُ: الأَثَرُ"[٩] وقريب من ذلك

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر– بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، أ ب د، ٦٨/٣.

(٢) الخليل الفراهيدي، العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة هلال للنشر، ن ف ف، ٣٧١/٨.

(٣) الأصمعي، "رسالتان في اللغة الفرق والشاء" تحقيق صبيح التميمي، (ط/ مكتبة الثقافة الدينية، سنة ١٤١٤هـ – ١٩٩٢م)، ١٣٣.

(٤) الأصمعي، "اشتقاق الأسماء". تحقيق رمضان عبد التواب، وصلاح الدين الهادي، (ط/ مكتبة الخانجي– القاهرة، ط ٢، سنة: ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م)، ٩٢.

(٥)رسالتان في اللغة، ١١٤.

(٦) اشتقاق الأسماء ،٨٥.

(٧) الأصمعي، "الشاء". تحقيق صبيح التميمي، (ط/ دار أسامة بيروت سنة: ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م)، ٥٩.

(٨) الأصمعي، "الإبل". تحقيق حاتم صالح الضامن، (ط/ دار البشائر، دمشق –، ط١، سنة: ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م)، ١٢٥.

(٩) الإبل، ٩٣.

كلّه تعريفه الجملة بمرادف كما في **قوله**: "ويُقالُ لِوَلَدِ الظَّبْيَةِ: الْغَزالُ"(١).

وغير ذلك في ثنايا رسائله، تجده يفسر اللفظ بمرادفه، ليكشف للقارئ ما غمض عنه، ثم إن الغالب في المرادف أنه يكون أكثر وضوحًا، وأشهر في الاستعمال؛ حتّى تتم الفائدة.

النوع الثاني: تفسير اللفظ بأكثر من كلمة، أي شرح دلالته شرحًا قَصيرًا يسيرًا(٢)، وقد يكون ذلك بذكر مرادفين للفظ واحد، ومن النماذج على ذلك في رسائل الأصمعي:

١) **قوله**: "نَهْشَل: اشْتقَّ مِن النَّهْشَلَةِ، وَهِيَ الْكِبَرُ وَالاضْطِراب"(٣).

٢) **قوله**: "الخَطْفُ: سُرْعَةُ الْمَشْي، وسُرْعَةُ الْمَرِّ، وَسُرْعَةُ الْأَخْذِ"(٤).

٣) **قوله**: "الْهُجَيْمُ: تصغير الْهَجْمِ، وَالهَجْمُ: الوُقُوعُ وَالْانْهِدامُ"(٥).

٤) **قوله**: "والرُّهْشُوشُ: الرَّقيقَةُ الغَزِيرةُ"(٦).

٥) **قوله**: "بُهْلُول: وهو الضَّحاكُ المُتَبَسِّمُ"(٧).

وغير ذلك، ولكن المتتبع لمصنفاته يجد أنه قلَّما يذكر للَّفظ الواحد أكثر من

(١) رسالتان، ٩٢.

(٢) عبد الكريم جبل، "في علم الدلالة"، ٥٢.

(٣) اشتقاق الأسماء، ٩٢.

(٤) السابق، ٨٣.

(٥) السابق ١١٦.

(٦) الإبل، ٧٩.

(٧) الأصمعي، "الاشتقاق". تحقيق محمد حسن آل ياسين، (ط/ المجمع العلمي العراقي، سنة: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م)، ٢٢.

مرادف، ويتضح من ذلك أنه يعلم أن اللفظ المرادف الواحد غني عن الاثنين في إرادة المعنى.

النوع الثالث: تعريف اللفظة بذكر ما يقابلها من لغات أعجمية مشهورة: ومن خلاله كان يستعين في التعريف بذكر لغة أعجمية مشهورة، واستعملها العرب كما كان يستعملها أصحابها، بعد خضوعها لقواعد التعريب، وهذا النوع من التعريف يختلف عن النوعين الأول والثاني من ترجمة اللفظ باللغة نفسها، وغالبًا تكون الألفاظ المعرّبة فارسية الأصل، حيث إنها من أكثر اللغات التي اتصلت بالعربية، وأخذت منها كثيرًا، وأشار أصحاب المعاجم إليها في كتبهم(١) وكذلك فعل الأصمعي، ومن ذلك على سبيل المثال قوله: "وَالْفِصْفِصَةُ بِالْفَارِسِيَّةِ اِسْبَسْتُ فَعُرِّبَ، وَالصَّفْصَافُ الخِلَافُ"(٢).

ومنه أيضًا قوله: "وَمِنَ الشَّجَرِ المُخَاطَةُ، وَهِيَ الّتي تُسَمّيها الْفُرْسُ السِّبِسْتَانَ لَهَا ثَمَرَةٌ لَزِجَةٌ تُؤْكَلُ"(٣).

المطلب الثاني: التعريف بالمغايرة

ويعنى بذلك أن الكلمة تفسَّر بذكر الكلمة التي تضادها؛ وذلك بأن يفسّر لفظ (الخير) بأنه ضِدُّ الشَّرِّ(٤)، أو هو: أن يشرح معنى الكلمة بأن تذكر أخرى

(١) ينظر: محمد أحمد أبو الفرج، "المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث". (دار النهضة العربية للنشر، ١٩١٦م)، ١٠٨.

(٢) النبات والشجر،٣٩.

(٣) السابق، ٣٩.

(٤) عبد الكريم جبل، "في علم الدلالة"، ٥٤.

تغايرها في المعنى فيتضح الضد بالضد"[١]، ويدرس المحدثون هذه الضدية تحت مصطلح (antonymy)(التضاد) ويعدونها إحدى العلاقات الدلالية... المهمة التي تربط بين كلمات الحقل الدلالي الواحد[٢].

فشرح المعنى بذكر ضده لم تؤدِ فيه الكلمات دورها في بيان معنى المفردات، فيبقى معنى الكلمة غامضًا يحتاج إلى توضيح، وقد ذكر بعض الباحثين أن هذا النوع يعلق فهم دلالة اللفظ المُفَسَّر بذكر ضده حيث قال: "ولعل مما يعيب هذا النوع من التفسير انعدام الدقة –أحيانا– في تحديد اللفظ المضاد، كما أنه يعلق فهم دلالة اللفظ المُفَسَّر على فهم دلالة ضده، وقد يكون هذا الضد غير معروف، أو غير واضح الدلالة لدى القارئ، فيكون اتخاذه معبرًا للتفسير أمرًا غير ذي جدوى"[٣].

والأصمعي لم يعرّف الكلمة في دلالتها المعجمية بذكر الضد في كثير من المواضع في مصنفاته، لكن ذلك لا ينفي استعماله التعريف بالضد وإن كان قليلًا، فيقول: "الذُّلّ ضِدُّ الصُّعُوبَةِ، والذُّلُّ والذّلة ضِدُّ الْعِزّ، والذّلول ضِدُّ الصَّعْبِ، والذَّليل ضِدُّ الْعَزِيزِ"[٤]، فقد عرف الأصمعي الذُّلّ بأنّه ضِدُّ الصُّعُوبَةِ، كما وقف على أن الذّلة ضِدُّ الْعِزّ، والذَّليل ضِدُّ الْعَزِيزِ، وقد شاركه في هذه الدلالة ابن فارس (ت٣٩٥هـ) فذكر أنّ الذُّلُّ: ضِدُّ الْعِزّ. وَعدّها مُقَابَلَةً صحيحةً في التّضادِ، وتَدُلُّ عَلَى الْحِكْمَةِ الَّتِي خصّ بِهَا الله الْعَرَبَ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ والشعوب، وذلك لِأَنَّ الْعِزَّ مِنَ

(١) خالد فهمي، "تراث المعاجم الفقهية في العربية دراسة لغوية في ضوء صناعة المعجم والمعجمية". (نشر: ايتراك، ٢٠٠٤م)، ٢٣٨.

(٢) ينظر: عبد الكريم جبل، "في علم الدلالة"، ٥٤.

(٣) السابق، ٥٧.

(٤) ابن فارس، "مقاييس اللغة". [ذ ل ل]، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (ط/ دار الفكر، عام: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ٢ :٣٤٥.

الْعَزَازِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ الشَّدِيدَةُ. وَالذُّلُّ خِلَافُ الصُّعُوبَةِ[١]، وقريب من ذلك استعماله لفظ (خلاف) في معنى الضدّ، كما في قوله: "العَرض: خِلاف الطُّول"[٢] وقوله في تعريف (ذَوَبَ): "هو من ذابَ نقيض جَمَدَ"[٣] وقد يستعمل لفظ (نقيض) في بعض التعاريف، كما في قوله: "الجَيّد: نقيض الرديء"[٤].

المطلب الثالث: التعريف المعجمي بعبارة مقاربة:

والمقصود بذلك وضع عبارة توضح المقصود وتفسِّر الغامض وتزيل الإبهام، وهذا كثير جدًا في مصنفات الأصمعي؛ إذ هو وظيفة المعجم التي من أجلها وُضع، ومن نماذج ذلك عند الأصمعي قوله: "التِّناء ممدودٌ: وهو أن تُؤْخَذَ ناقَتانِ في الصَّدَقَةِ مَكَانَ واحِدَةٍ"[٥]، **و** "الثُّعْلُ أيضًا: سِنٌّ زائدةٌ في الأسنانِ"[٦]، **و** "الغِرارُ: شَفْرَة

(١) الخطيب التبريزي، "مختصر تهذيب الألفاظ". (وهو متن كتاب الألفاظ لابن السكيت مع بعض الزيادات المختصرة) تحقيق الأب لويس اليسوعي، (ط/ المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين – بيروت، سنة: ١٨٩٧م)، ٣٧٧.

(٢) محمد بن أحمد الأزهري، "تهذيب اللغة". (ط/١، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي للنشر–بيروت، ٢٠٠١م)، ع ر ض، ٢٩٠/١.

(٣) إسماعيل بن حماد الجوهري، "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية". (ط/٤، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطّار، دار العلم للملايين للنشر– بيروت، ١٩٨٧م)، ذ وب، ١٢٩/١.

(٤) علي بن إسماعيل بن سيدة، "المخصص". (ط/١، تحقيق: خليل إبراهيم جفّال، دار إحياء التراث للنشر– بيروت، ١٩٩٦م)، ٦٤/٤.

(٥) السابق، ٦٦.

(٦) السابق، ٧١.

السَّيف والسَّهْمِ"[١]، و "النَّدَبْ: حَيٌّ مِنْ الْأَزْدِ"[٢]، و "الْهَيْصَمُ: الْغَلِيظُ الشَّدِيدُ"[٣]، و "الغِطْرِيفُ: السَّرِيُّ السَّخيُّ" [٤]، و "جَعْفَر: النَّهْرُ الصَّغِيرُ"[٥]، و "صَمَحْمَح: الصُّلْب الشَّديد"[٦]، و "الطِّرماحُ: الطَّويلُ المُشرِف"[٧]، و "السَّائِبُ: يُقالُ لِلْماء إِذا جَرَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْض: ساب يَسيب سَيبًا"[٨]، و "الْعَكُّ: رَدُّكَ الشَّيءَ"[٩]، و "الجُراشَةُ: ما وَقَع من الرَّأْسِ إذا جَرَشَه بالمِشْطِ، أو من الخشبة إذا جرشها بالحَديدَةِ"[١٠]، و "رُقَيشْ: تَصْغير الرَّقْشِ وهو تَنْقيطُ الخُطوطِ والكِتابِ"[١١]، و "الأَوْزاعُ: الْفِرَقُ المُتَقَطِّعَةُ"[١٢]، و "الرَّطيبُ: النَّاعِم الرَّيان"[١٣]، و "العَانَة: القَطيعُ مِن الحَميرِ"[١٤]، و "الأَجْلُ: القَطيعُ من الظِّباءِ"[١٥]، و "التَّغْرِيدُ: رَفْعُ الصَّوْت من كُلِّ

(١) السابق، ٧٦.
(٢) اشتقاق الأسماء، ١٠٢.
(٣) السابق، ٧٢.
(٤) السابق، ٧٢.
(٥) السابق، ٧٨.
(٦) السابق، ٨٦.
(٧) السابق،٩٠.
(٨) اشتقاق الأسماء، ٩٧.
(٩) السابق، ١٠٠.
(١٠) السابق، ٨٨.
(١١) السابق، ٩٠.
(١٢) السابق، ١٠٤.
(١٣) السابق، ١١٢.
(١٤) رسالتان، ٩٦.
(١٥) السابق، ٩٦.

شَيءٍ"[١]، **و** "الدَّرْدَقُ: الصِّغارُ من أَوْلادِ كُلِّ شَيءٍ"[٢]، **و** "السَّمَيدَعُ: السَّيِّدُ السَّهْلُ المُوَطَّأُ الْأَكْنافِ"[٣]، **و** "الزِّبْرِقَانُ: الخَفيفُ اللِّحْيةِ"[٤]، **و** "الْكَلْكَلُ: الصَّدْرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ"[٥].

وهو كثير جدًّا في مصنفاته، فيستعين على تعريف المفردة المعجمية بأكثر من كلمة؛ زيادة في التوضيح والبيان والتفسير، فلا يكتفي بمجرد شرح الكلمة بأخرى أو بمرادفها، وإنما يستعين بأكثر من لفظة لمزيد من التوضيح والبيان، ويُفسر المعنى تفسيرًا دقيقًا؛ حتى يتضح في ذهن القارئ؛ فيقول: "وَاللَّوِيُّ مِنْ البَقْلِ الَّذي قَدْ يَبِسَ بَعْضَ الْيُبْسِ وَفِيهِ نَدَاوَةٌ، وَيَكُونُ أَيْضًا بَعْضُهُ أَخْضَرَ"[٦].

المطلب الرابع: التعريف بالمعنى الاجتماعي:

وهو أن يشرح اللفظة مستندًا إلى الواقع الاجتماعي؛ فيذكر للكلمة معنى اشتهر في المجتمع، وتداول على ألسنة أبنائه[٧]، ومن النماذج قول الأصمعي: "والقَلَتُ: الهَلاكُ، قال: وَسَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ بَلْعَنْبَرَ يَقُولُ: (إنَّ ابنَ آدمَ وَمَتَاعَهُ لَعَلَى قَلَتٍ، إلَّا مَا وَقَى اللهُ)"[٨].

(١) السابق، ١٠٣.
(٢) السابق، ١٣٢.
(٣) السابق، ٨٤.
(٤) السابق، ٨٥.
(٥) السابق، ٦٦.
(٦) الأصمعي، "النبات والشجر". (جمع.أوغست هفنر، ط/ مجلة الشرق –بيروت، ط ٢ سنة ١٩٠٨هـ)، ٣٧.
(٧) ينظر: معجمات العربية تاريخ وتعريف، ٤٩.
(٨) الإبل، ٨٥، وأصله في غريب الحديث: "إنَّ المُسافر ومالَه لعلَى قَلَتٍ إلاَّ مَا وَقَى اللَّهُ" =

ومنه أيضًا قوله: "قُلتُ لِشَيخٍ مِن هُذَيلٍ: مَا فَعَلَ أَبوكَ؟ قال: رَفَعَ رَأْسَهُ فَفَقَّحَ، أَيْ: فَتَحَ عَيْنَيْهِ مِن الْمَرَضِ"(١).

ومنه قوله: "وَيُقالُ لسَنامِ الْبَعيرِ: السَّنامُ، والشَّرَفُ، والذِّرْوَةُ، والقَمَعَةُ، قالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَذْكُرُ الطَّعَامَ فِي الْيَوْمِ الْبارِدِ: "جَزُورٌ سنمة ومُوسَى خَذِمَةٌ، فِي غَداةٍ شَبِمَةٍ"(٢).

ومنه قوله أيضًا: "إذا نُتِجَتِ النّاقةُ في الصَّيفِ، قِيلَ: ناقةٌ مِصْيافٌ، وَقيلَ لولدِها: هُبَعٌ... وَحدَّثني عيسى بنُ عُمَرَ، قَالَ: سَأَلْتُ جَبْرَ بْنَ حَبيبٍ، أَخا عبدِ الله بنِ حبيبٍ، وهو أَخو امرأةِ العَجَّاجِ، فَقلتُ: ما الْهُبَعُ؟ قالَ: تُنْتِجُ الرِّباعُ في الرَّبْعِيَّةِ، وَيُنْتَجُ الْهُبَعُ في الصَّيْفِيَّةِ، فَتَقوَى الرِّباعُ قَبْلَهُ، فَإِذا ماشَاها أَبْطَرَتْهُ ذَرْعًا، أيْ: حَمَلَتْهُ عَلى ما لا يُطيقُ فَهَبعَ، وَالهَبْعُ من السَّيْرِ: أَنْ يَسْتَعْجِلَ وَيَسْتَعِينَ بِعُنُقِهِ في مِشْيَتِهِ"(٣).

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ والأصمعي من أشهر الرواة في هذا الباب.

المطلب الخامس: التعريف بالاشتقاق:

وهو أن يعرف الكلمة أو المدخل بأحد مشتقاته، ويكون ذلك بأن يذكر المشتق والمشتق منه عند تعريفه للفظ، ومن المعروف أن الأصمعي مؤلف بارع للاشتقاق اللغوي، فعند تفسيره للألفاظ يذكر المشتق والمشتق منه، وتارة يذكر المعنى الجامع بينهما، ومن ذلك ما أورده في قوله: "الشِّخِّيرُ: اشْتُقَّ من الشَّخِيرِ، وَهُو

=

والقَلَتُ: الْهَلَاكُ. وَقَدْ قَلِتَ يَقْلَت قَلَتاً: إِذَا هَلك" [النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٤٩٨].

(١) السابق، ٨٥.

(٢) السابق، ٨٧.

(٣) الإبل، ٧٥.

النَّخِيرُ، يُقال: حِمارٌ شِخِّير: إذا كان كَثيرَ النَّخِيرِ"[١]، وفي اشتقاق الاسم يقول في اشتقاق (نَوْفَل): "نَوْفَل: اشْتُقَّ مِن النَّافِلَةِ، يُرادُ به: ذو فَضْلٍ وَنَوافِلَ"[٢]، ويستشهد على هذا الاشتقاق بقول أعشى باهلة:

أَخو رَغائِبَ يُعْطاها ويُسأَلُها يأبى الظُّلامَةَ مِنْهُ النَّوْفَلُ الزُّفَرُ[٣]

كما يربط بين المشتق والمشتق منه في المعنى، فيقول: "عَدْنانُ: نرى أنه اشْتُقَّ من العَدْن: وهو أن تلزم الإبلُ مكانًا فَتَأْلَفهُ"[٤]، ومن ذلك قوله في تعريفه لقبيلة فَزَارَةَ: "فَزَارَةُ: اشْتُقَّ من الفَزْرِ، وهو قَطْعُكَ الشَّيءَ، يُقالُ: ضربه، فَفَزَرَ ظَهْرَه، ومن ثم قيل لِلْأَحْدَبِ: أَفْزَرُ"[٥].

ومنه أيضًا قوله: "اللَّدِيسُ: الَّتي قدْ لُدِسَتْ باللّحم، أَيْ: رُمِيَتْ به"[٦] و"الجَلْسُ: المُشْرِفَةُ. ونرى أنّها اشْتُقَّتْ من جَلْسِ نَجْدٍ، يُقالُ: غارَ، وجَلَسَ؛ فَغَارَ:

(١) اشتقاق الأسماء، ٧٧.

(٢) السابق،٨١.

(٣) السابق،٨١، والبيت من بحر البسيط لأعشى باهلة في الأصمعيات، ٩٠؛ وهو من شواهد الأضداد لابن الأنباري، ٢٥٢، وشرح المفصل لابن يعيش ١٣/١، وَالْأَخ في البيت بِمَعْنى الملازم للشَّيْء، والرغائب جمع رغيبة وَهِي العطايا الْكَثِيرَة، والظلامة بِالضَّمِّ مَا تطلبه عِنْد الظَّالِم، والنوفل الْبَحْر وَالْكثير الْعَطاء، والزفر الْكثير النَّاصِر. ينظر: عبد القادر البغدادي، "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب". تحقيق عبد السلام محمد هارون، (ط/ مكتبة الخانجي– القاهرة، طبعة ٤، سنة: ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م)، ١ :١٨٧.

(٤) اشتقاق الأسماء، ٩٣.

(٥) السابق، ١٢٨.

(٦) الإبل، ٤٨.

انْحَدَرَ فِي تِهامةَ، وَجَلَسَ: ارْتفَعَ فِي نَجْد"[١] وقوله: و "الصَّلَتان: مِنْ الانْصِلاتِ، وَهُوَ الانْجِرادُ من الغِمْد"[٢].

المطلب السادس: التعريف بالسببية:

وهذا النوع يستخدم غالبًا في السياق التحليلي لشرح المعنى؛ حيث يقوم بتعريف اللفظ بذكر سببه؛ لمزيد من إيضاح المعنى وكشف غموضه وإبهامه؛ حيث يذكر السبب الذي سُمي به الاسم وغيره من الألفاظ التي يُذكر معها سبب التسمية[٣].

ومن الأمثلة على تلك الطريقة قوله في سبب تسمية (الكثيب): "والكُثَبُ واحدتها كُثْبَةٌ، وَهي ما انْصَبَّ فِي شَيءٍ فصارَ فيه، ومنه سُمِّي الكَثيب من الرّملِ؛ لأنَّه انْصَبَّ مِنْ مَكانٍ فاجْتَمَعَ فيه، أَيْ: حوَّلَتْهُ الرّيحُ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ، فَصار في ذَلِكَ الْمَكان مُجْتَمِعًا"[٤].

وقال في سبب تسمية (الفصيل): "فإذا بَلَغَ الحُوارُ سَنَةً فَفُصِلَ، فهو فَصِيلٌ وَفَطِيمٌ، قال: وإنّما سُمِّيَ فَصيلًا؛ لأنّه فُصِلَ مِنْ أُمِّهِ. والجِماعُ: الفِصالُ. والأُمُّ: فاطِمٌ، لا تَدْخُلُها الهاءُ"[٥].

وقال في سبب قولهم (مُحْلِفٌ): "وَحدَّثنا أَبو عمرو بن العلاء، قال: يَطْلُعُ كَوْكَبٌ قبلَ سُهَيْلٍ يُقال له: ثورٌ أبيض يُسمَّى المُحْلِف، لأنّ النَّاسَ يَشكُّون فيه حَتَّى

(١) الإبل، ١٠٠.
(٢) اشتقاق الأسماء، ٧٤.
(٣) ينظر: معجمات العربية تاريخ وتعريف، ٤٩.
(٤) الشاء، ٥٤.
(٥) الإبل، ٥٩.

يَتَحالَفُونَ أَنّهُ سُهَيْلٌ، فَمِنْ ثَمَّ قِيلَ للشَّيءِ يَشُكُّونَ فيه: مُحْلِفٌ"(١).

المطلب السابع: التعريف بكلمة معروف:

وهذا النوع متداول في التعريف المعجمي، ويعتمد فيه الأصمعي على ذاكرة القارئ، ولكن بعض اللغويين يوجه إلى هذا النوع من التعريف بعض الانتقادات؛ لأن اللفظ قد يكون معروفًا عن قبيل بعينه، ولا يكون معروفًا عند غيرهم، أو يكون معلومًا في زمن، ومجهولًا في زمن آخر(٢)، ولم يكثر الأصمعي منه فقد أورد له مثالًا واحدًا، قال فيه:

" ثهلان: سمي بجبل معروف"(٣).

وهذا عيب في شرح اللفظة، فاللفظ قد يكون معروفًا عنده، وعند غيره يكون غير معروف؛ والملاحظ أن الأصمعي لم يذكر إلا مثالاً –والله أعلم–، ولعله مدرك لهذا الخلل بكلمة معروف، والذي تكرر عند كثير من المعجميين.

المطلب الثامن: التعريف بالسياق اللغوي:

مما لا يخفى أن هذا النوع يعتبر من العناصر الرئيسة والمهام الأساسية للمعجم، وقد أكثر الأصمعي منه فتارة يستخدم التعريف بالسياق اللغوي من خلال التعرض لآيات من الذكر الحكيم، وأحيانًا من الحديث النبوي الشريف، ويلجأ كثيرًا لديوان العرب وهو الشعر، وأيضًا قد يستخدم في ذلك الأمثال العربية الفصيحة، وفيما يلي

(١) الإبل، ٧٩.

(٢) سناني سناني، "التعريف المعجمي أنواعه ووسائله في المعاجم العربية (معجم المصباح المنير للفيومي أنموذجًا)". (الناشر: مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، مكة المكرمة، العدد السادس ٢٠١٤م)، ١٨٨.

(٣) الاشتقاق، ٨٥.

نماذج على كلٍّ استخدمها الأصمعي –رحمه الله تعالى–:

أوَّلًا: من القرآن الكريم:

فعند شرحه لمفردة لغوية، يستدل على معناها من القرآن الكريم، وينص على المعنى، ومن نماذج ذلك، قوله: "ويُقال: امرأةٌ مُثْقِلٌ، وَقَدْ أَثْقَلَتْ: إذا عَظُمَ بَطْنُها مِن الحَمْلِ، وَمِنْهُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾"(١).

ومنه أيضًا قوله: "وَيُقال: وَلَدَت المرْأَةُ، وَوَضَعَتْ، وَقَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ "(٢).

وفي تفسير معنى الخوار يقول: "وَيُقَالُ فِي البَقَرِ: قَدْ جَأَرَتْ أَيْضًا، وَخَارَتْ تَخُورُ خُوارًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾"(٣).

ثانيًا: من الحديث النبوي الشريف:

حيث يستدل على معنى المفردة من الحديث النبوي الشريف، ومن ذلك قوله: "وَيُقالُ لِلنِّكاحِ: الْبِعالُ، وَمِنْهُ الحَدِيثُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ: (أَنَّها أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَبِعالٍ)"(٤).

(١) رسالتان، ٨٦.

(٢) السابق، ٨٨.

(٣) رسالتان، ٩٩.

(٤) السابق، ٨٤، والحديث أخرجه الدراقطني في سننه، كتاب الصيام، باب: طلوع الشمس بعد الإفطار، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، (ط/ دار المعرفة – بيروت، ١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م). ٣: ٢٠٧، ح ٢٤٠٧.

ثالثًا: الشعر العربي:

فعند شرحه للفظ يذكر بيتًا من الشعر العربي؛ زيادة للإفهام، ويؤكد أن هذا المعنى هو المراد من الشرح، ومثال ذلك ما أورده في لفظ (الصِّرْمَة) حيث قال: "وَالصِّرْمَةُ قِطْعَةٌ خَفِيفَةٌ قَلِيلَةٌ ما بين العَشْرِ إلى بِضْعَ عَشْرَةَ، وَيُقال للرَّجُلِ إذا كَان خَفِيفَ المال إِنَّهُ لمُصْرِمٌ، قال الْمَعْلُوطُ:

يَصُدُّ الكِرامُ المُصرِمُونَ سَواءَها وذُو الحَقِّ، عَن أقرانِها، سَيَحِيدُ"(١)

حيث بين المقصود بالصِّرْمَة وبيّن ذلك المعنى من كلام العرب وهو الشعر، فالشعر كما هو معروف ديوان العرب، فاستعمل الأصمعي لفظ (المُصْرِمُونَ) في بيت الشعر ليدل بالكلام على أنه هو المقصود في السياق، كما تحدث أيضًا عن لفظ (الحَقْلَة) فقال في أدواء الإبل: "(الْمَغْلَة): وهو أنْ تأكلَ البَقْلَ مع التُّرابِ، فيُقال: مَغِل يَمْغَلُ مَغْلَةً شَديدَةً، وَمِنْ أَدْوائِها (الحَقْلَةُ) يُقال: حَقِلَ يَحْقَلُ حَقْلَةً شَدِيدةً، قال رؤبة:

(١) الإبل، ١٢٥، والبيت من الطويل للمعلوط، وهو من شواهد: ابن السكيت، "الكنز اللغوي في اللَسَن العربي". تحقيق أوغست هفنر، (ط/ مكتبة المتنبي – القاهرة)، ١١٥، وأبي علي القالي، "الأمالي". (ط/ دار الكتب العلمية–بيروت، دون تاريخ)، ١ :١٧٤، وابن سيده، "المخصص". تحقيق خليل إبراهيم جفال، (ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، سنة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، ٢: ١٩٩. والمصرم: قليل المال، والقرن الحبل يشد به القرينتان، فإذا قال يصد عن القرن علم أنه يصد عنها، وهذا الشاعر عيّرته امرأته قلّة إبله فقال لها: ربّ كثير الإبل يلؤم فيها ويضنّ بحقوقها فالناس منصرفون عنها وعن أمثالها من إبل البخلاء فيموتون مذمّمين، وربّ قليل المال آسي فيما ملكت يداه وأعطى مما يجده فمات حميدًا فقيدًا، وقوله سواءها: يريد قصدها. ينظر: أبو عبيد الله البكري، "سمط اللآلي في شرح أمالي القالي". تحقيق عبد العزيز الميمني، (ط/ دار الكتب العلمية– بيروت، دون تاريخ)، ١: ٤٣٥.

..... **ذَاكَ ونشْفي حَقْلَةَ الأَمْراضِ"**[١]

كما تحدث أيضًا عن وصف الناقة الحسناء التامّة بالعَيْطَمُوسِ، ودلل على ذلك من فصيح أقوال العرب فقال: "والنَّاقَةُ الْعَيْطَمُوسُ الْحَسْناءُ التَّامَّةُ، قال النَّابِغَةُ الجعدي:

سَدِيسٌ لَدِيسٌ عَيْطَموسٌ شِمِلّةٌ تُبارُ إِلَيْهَا الْمُحْصَنات النّجائبُ"[٢]

كما وقف الأصمعي على مَعْنى التَّزْنِيمِ مؤيدًا معناه بما ورد في بيت الشاعر، حيث قال: "والتَّزْنِيمُ أَنْ تُشَقَّ أُذُنُ الْبَعِيرِ ثُمَّ تُفْتَلُ حَتَّى تَيْبَسَ فَتَصيرَ مُعَلَّقَةً، قال المُسَيَّبُ بنُ عَلَسٍ:

رَأَوْا نَعَمًا سُودًا فَهَمُّوا بِأَخْذِها إِذا الْتَفَّ مِنْ دونِ الجَميعِ الْمُزَنَّمُ"[٣]

---

(١) الإبل، ١٣٣، وهذا عجز بيت للعجاج، وصدره: (يَبْرُق بَرْق العارِضِ النَّغَّاص) من مدح رُؤْبَةَ لِبلال، والبيت في: الجوهري، "الصحاح". (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م). [ح ق ل] ٤: ١٦٧١، وهو من شواهد: ابن سيده، "المخصص". ٢/٢٢٥.

(٢) الإبل، ١٠٣، والبيت من بحر الطويل للنابغة الجعدي، وهو من شواهد: ابن منظور، "لسان العرب". (ط/ دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة سنة: ١٤١٤هـ)، [ل س س] ٦: ٢٠٦، والسَدِيسُ: الذي نبتت له سنن سادسة بعد الرباعية، واللَّديس: السمين المكتنز من النوق، والعَيْطَمُوس: الناقة الحسناء التامة الخلق، والشِمْلَّةُ: السَّرِيعَة، تُبارُ أَي يُنْظرُ إِليهنّ وإِلى سَيْرِهنَّ بسَيْر هَذِهِ النَّاقَةِ يُختَبَرْن بسَيرها، والمُحْصَنات النَّجائبُ: اللَّوَاتِي أَحْصَنَها صاحِبُها أَن لَا يَضْرِبَها إِلّا فَحْل كَرِيم. ينظر: ديوان النابغة الجعدي، تحقيق واضح الصمد، (ط/ دار صادر–بيروت سنة١٩٩٨م)، ٢٢. لسان العرب [ل س س] ٦: ٢٠٦.

(٣) الإبل ،١٥٦، البيت من بحر الطويل للمسيّب بن علس يخاطب بها بني عامر بن ذهل في شيء صنعوه بحلفائهم، كما في: الكنز اللغوي في اللَسَن العربي، ٧٩، وهو من شواهد =

وبجوار السياق اللغوي الذي يُعَيِّن المعنى نجده يسبق هذا بالشرح المفصل الذي يبين المعنى، فيكون المعنى حاضرًا في ذهن المتلقي، وَيَتَّضِحُ هذا في لفظ (الإجْهاض)؛ حيث قال: "الإِجْهاضُ في كُلِّ شَيءٍ الإعْجَالُ، يُقال: أَجْهَضَ فُلانٌ فُلانًا، فإذا لَقِحَتْ النَّاقَةُ فَشَالَتْ بِذَنَبِها، قيلَ: شَالَتْ، وَشَمَذَتْ تَشْمِذُ شِماذًا، وَعَسَرَتْ وَعَقَدَتْ، وَهِيَ شائِلٌ، وَشامِذٌ، وعاقِدٌ، وَعاسِرٌ، قال أبو زُبَيْد:

شَامِذًا تَتَّقِي الْمُبِسَّ عَن الْمُرْ... يَةِ كَرْهًا بِالصَّرْفِ ذِي الطُّلَاءِ"(١)

رابعًا: من أمثال العرب:

اشتهر الأصمعي بذكر الأمثال، حتى تجده يذكر المثل، ويأتي بمضربه، وللأصمعي كتاب في الأمثال مفقود نقل عنه كثير من اللغويين مثل أبي عبيد القاسم بن سلام في (كتاب الأمثال)، والميداني في (مجمع الأمثال)؛ فقد نقلا عن الأصمعي جُلّ أمثالهم، فعند شرحه لمفردة لغوية يُبيِّن المعنى بذكر مَثَلٍ يستعمل بين العرب الأقحاح؛ رغبةً منه في إيضاح المعنى في ذهن القارئ، ومن ذلك قوله في معنى

=

السيوطي، في "شرح شواهد المغني". وقف على طبعه وعلق حواشيه أحمد ظافر كوجان، مذيل وتعليقات محمد محمود، (ط/ لجنة التراث العربي، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م) ١١٠:١:١١٠. والبغدادي، "خزانة الأدب". تحقيق عبد السلام محمد هارون، (مكتبة الخانجي- القاهرة، طبعة ٤، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م) ١٠: ٨٣.

(١) الإبل، ١٢٣، والبيت من بحر الوافر، لأَبي زُبَيْدٍ كما في الزَّبيدي، "تاج العروس". تحقيق مجموعة من المحققين، (ط/ مطبعة الكويت سنة: ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)، [ش م ذ] ٩: ٤٣٠. ولأبي رشد كما في ابن سيدة، "المحكم والمحيط الأعظم". تحقيق عبد الحميد هنداوي، (ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، سنة: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، [ش م ذ] ٨: ٣٨، وهو بلا نسبة في لسان العرب [ش م ذ] ٣: ٤٩٦.

(الشُّخْبُ): "وَمَثَلٌ مِن الأَمْثالِ يُضْرَبُ للرَّجُل يُخْطِئُ فَيُكْثِرُ: (شُخْبٌ فِي الإِناءِ وَشُخْبٌ فِي الأَرْضِ)، والشُّخْبُ: ما خَرَجَ عِنْدَ كُلِّ غَمْزَةٍ، وَالشُّخْبُ: الْعَمَلُ"(١).

وفي المثل: (رَجُلٌ أَصْيَدُ) يُضرب للرجل الذي به كِبْرٌ، وبيّن الأصمعي ذلك عند حديثه عن معنى (الأصيد) فقال: "الصَّيَدُ: داءٌ يَأْخُذُ الأَنْفَ فَيميلُ منه رأسُ الْبَعيرِ، وَيَسِيلُ مِنْهُ زَبَدٌ، فَيُقَال للرَجُل الَّذي بِه كِبْرٌ: أَصْيَدُ؛ فَلَمَّا كَثُرَ تَشْبِيهُهُمْ بِهِ، قالوا: رَجُلٌ أَصْيَدُ، وَقَوْمٌ صِيدٌ"(٢).

ومنه قوله: "ويُقال ناقةٌ عَيْهَمٌ، إذا كانَتْ صُلْبَةٌ شَديدَةٌ، وَناقَةٌ ضَجُورٌ: وهي الّتي ترغو عِندَ الْحَلْبِ، ويُقالُ في الأمثال: (الضَّجُورُ تَحلبُ العُلْبَةَ)"(٣).

وفي المثل الذي يُضرب للشؤم يقولون: (أَشْأَمُ مِن الْبَسُوسِ)، وقد ذكره الأصمعي في قوله: "وناقَةٌ بَسُوسٌ: وهي الّتي تَدُرُّ عَلى الإِبْسَاسِ(٤). وَيُقَالُ: أَبَسَّ

(١) الإبل، ٧٩.

(٢) السابق، ٨٤.

(٣) الإبل، ١٠٧، والمثل يضْرب للرجل المَنُوعِ إذا نيل مِنْهُ الشيء بعد الشيء، والضجور النَّاقة الَّتِي لَا تطيب نفسًا بالحلب فهى ترغو إذا حلبت، يَقُول إِنَّهَا مَعَ الضجر والتمنع تحلب العلبة أَي ملْء العُلبة. أبو هلال العسكري، "جمهرة الأمثال". (ط/ دار الفكر – بيروت)، ٢: ٨.

(٤) لا تَدُرُّ إلاَّ على الإِبْسَاسِ، أي: التَّلَطُّفِ بأن يقال لها بَسْ بَسْ، تسكيناً لها، والبَسُوسُ قيل هي امرأة مَشْؤُومةٌ، أُعْطِيَ زَوْجُها ثَلاثَ دَعَواتٍ مُسْتَجاباتٍ، فقالت: اجْعَل لِي واحِدَةً: قال: فَلَكِ، فماذا تريدِينَ؟ قالت: ادْعُ اللهَ أن يجْعَلَنِي أجْمَلَ امرأةٍ في بَنِي إسرائيل. فَفَعَلَ، فَرَغِبَتْ عنه، فأرادتْ سَيِّئًا، فدعا اللهَ تعالى عليها أن يجْعَلَهَا كَلْبَةً نَبَّاحَةً. فجاء بنُوها، فقالوا: ليس لنا على هذا قرارٌ يُعَيِّرُناها الناسُ، ادْعُ اللهَ أن يَرُدَّهَا إلى حالِهَا، ففعَلَ، فَذَهَبَت الدَّعَوَاتُ بِشُؤْمِهَا. الفيروزآبادي، "القاموس المحيط" (ط/ مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م)، [ب س س]، ٥٣٣.

الرَّاعي بِالنَّاقَةِ فَدَرَّتْ، ويُقال في الأمثال: (أَشْأَمُ مِن الْبَسُوسِ)"[١].

والأمثلة على ذلك كثيرة في التعريف بالسياق اللغوي من الأمثال، والأمثال يُسْتَعانُ بها في توضيح مراد العرب، وكان الأصمعي يقف عند مضرب المثل لفهم المراد، وهو السياق الذي يُعبّر عنه، دون غيره من الألفاظ.

المطلب التاسع: التعريف المعجمي المحرر المفصل:

وفي هذا النوع من التعريف المعجمي يكون بيان معنى اللفظ بتحريره وتفصيله، ولكن ما المراد بتحرير معنى اللفظ؟ إن هذه المادة وهى "حرر" لها أصلان كما ذكر ابن فارس أحدهما يدل على البَرَاءة والخُلوص من العيب والنقص[٢].

وبناءً على ذلك فإن تحرير معنى اللفظ يقصد به شرح دلالات الألفاظ شرحًا يحررها ويخلصها من غوائل الإبهام واللبس والتداخل[٣].

ومن ذلك ما ورد في رسائل الأصمعي من شرح اللفظ شرحًا يزيل عنه الغموض ويوضحه ومن ذلك: "الخَنَفُ: هو أن يَصْرِف الرّجل وجهه في إحدى الناحيتين، يقال: خَنِفَ يَخْنَفُ خَنَفًا"[٤]، و "الخَرْقَاءُ : المَرْأَةُ الَّتي لَيْسَت بالصَّنَاعِ مِن النِّساءِ، وَلا الرَّفِيقة"[٥]، و "السّعْدانَة: ما أحاطَ بالثَّدي، ممّا خَالفَ لَوْنُهُ لَوْنَ الثَّدْي"[٦]، و "الحَلَمَةُ: الهُنَيَّةُ الشَّاخِصَةُ مِن ثَدْي المرأةِ والرَّجُلِ، ويقال لها:

(١) الإبل، ١٠٨.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة [ح ر ر] ٢: ٦.
(٣) ينظر: عبد الكريم جبل، "في علم الدلالة"، ١٠٤.
(٤) اشتقاق الأسماء، ٧٨.
(٥) السابق، ١١٦.
(٦) رسالتان، ٦٨.

القُرادُ"[١]، و "العِقْيُ: أول ما يرمي به الصّبيُّ إذا خَرَجَ من بطن أُمِّهِ، وقد عَقَى الصَّبِيُّ يَعْقِي عَقْيًا"[٢]، و "الطِّلا: الوَلَدُ مِن ذوات الظلفِ ساعةَ تُلْقِيه أُمُّه، ويُثَنَّى: طَلَيان، ويُجْمَعُ: أَطْلاء"[٣].

وفي كتاب (الإبل) يشرح بعض الألفاظ شرحًا محررًا في دلالته المعجمية فيقول: "والمُناقَلَةُ: تَكُون في الخَيلِ والإبلِ، إذا عَدَا في الحِجارةِ ناقَلَ وَضْعَ رِجْلِهِ في موضعٍ ليسَ فيه حِجَارَةٌ، والمُوَاهَقَةُ: المُسايَرَةُ. يُقالُ: مرَّا يَتواهقانِ، والمُواغَدَةُ مثلُها"[٤]، وقال أيضًا في موضع آخر عند شرحه للخطام: "والخِطامُ: مَيسَمٌ عَلَى أَنْفِ الْبَعيرِ. يُقال: ناقةٌ مَخْطُومَةٌ، والمُحَلَّقُ الَّذي في عُنُقه حلقتان، قال الشاعر:

وَذَكَرتَ مِن لَبَنِ المُحَلَّقِ شَرْبَةً والخَيْلُ تَعْدُو بالصَّعيدِ بَدادِ[٥]

ومن ذلك قوله أيضًا: "والنُّفاصُ: وهو داءٌ يأخذُ الغنمَ؛ فَتَنْفِضُ إحداهنَ ببولها ثم تموت، والكُبادُ: داءٌ يأخذُ الغنمَ؛ فتحترق أكبادُها وتَسْوَدُّ، ويقال: إنّ هذه الشاة لمكبودة، والسُّلاق: بثر يخرج في ألسن الشاة حتى تمتنع من العلف"[٦].

---

(١) السابق، ٦٨.

(٢) السابق، ٨٠.

(٣) السابق، ٩٢.

(٤) الإبل، ١٤٤.

(٥) الإبل، ١٥٧، والبيت من الكامل للنابغة الجعدي في ملحق ديوانه، ٢٤١؛ وسيبويه، "الكتاب". تحقيق عبد السلام محمد هارون، (ط/ مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة: الثالثة، سنة: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م)، ٣: ٢٧٥. وابن منظور، "لسان العرب" [ح ل ق]١٠: ٦٤، ونسبه الأصمعي: لعوف بن الخرع التيمي في كتاب: الإبل، ١٥٧، وهو من شواهد ابن سيده في "المخصص" ٢: ٢١٥.

(٦) الشاء، ٧٩.

المطلب العاشر: تعريف اللفظة بذكر ما يقابلها من لهجات العرب المشهورة:

تختلف اللّهجات باختلاف البيئات، واختلاف طبقات النّاس، وأبرز نواحي الاختلاف في اللهجات تكون في الناحية النطقيّة المتعلقة بالأصوات، وأنواعها، وخصائصها، وعناصر أدائها من نبر وتنغيم، وغيره، وقد كان الأصمعي راوية رحالة، يفهم اللهجات العربية، ويعرف قوانينها، وفي بعض الأحيان كان يستعين في التعريف بذكر الإبدال فيها، ومن ذلك على سبيل المثال قوله: "البزاق: والبصاق، والبساق، ويقال له اللُّعاب"(١).

والإبدال بين الزاي، والسين، والصاد شائع يختلف باختلاف اللهجات، ومن ذلك ما يُرْوَى أن رجلين اختلفا في الصَّقْر، فقال أحدهما بالسين، وقال الآخر بالصاد، فتحاكما إلى أعرابي ثالث فقال: أما أنا فأقول الزقر بالزاي، قال ابن خالويه: فدلّ على أنها ثلاث لغات(٢).

ومن ذلك أيضًا قوله: "يَزَن: مكان نرى أنه ينسب إليه (ذو يَزَن)، كما قالوا: ذو كَلَاع، وذو نُواس، وللعرب في (يَزَن) أربعُ لغات؛ يقال: رمح يَزَنِيّ، وَأَزَنِيَ، وَيَزْأَنِيٌّ، وَأَزْأَنِيٌّ"(٣).

ومنه ما ذكره في العُمْروس بأنّه الحَمَلُ بِلُغَةِ أَهْلِ الشَّامِ(٤).

---

(١) السابق، ٧٥.

(٢) ينظر: ابن السكيت، "إصلاح المنطق". تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، (ط/ دار المعارف، دون تاريخ)، ١: ١٧٥. والسيوطي، "المزهر في علوم اللغة وأنواعها". تحقيق فؤاد علي منصور، (ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، سنة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م)، ١: ٣٨٤.

(٣) اشتقاق الأسماء، ٨٤.

(٤) الشاء، ٩٧.

ومما يدخل في هذا الباب أيضًا قوله: " وَيُقَالُ للذُّبابِ الأَزْرَقِ: الشَّعْراءُ، وَيُقَالُ لِلْخَوْخِ، في لُغَةِ أَهْلِ الحِجَازِ: الشَّعْراء"(١).

وقد ينص على اختلاف اللهجات عند الضبط ومن ذلك قوله: "ويقول أهلُ الحِجازِ: رَضَعَ يرضِعُ، وتقولُ قَيْسٌ وَتَمِيمٌ: رَضِعَ يَرْضَعُ"(٢).

المطلب الحادي عشر: تعريف اللفظ بالنظير:

ومن خلاله يشرح الأصمعي اللفظ بذكر نظيره في الكائنات الأخرى، وقد ألف كتابًا في ذلك سماه (الفرق) ومما جاء فيه: أن الصدر من الإنسان نظيره الزّور من البهائم والناس والطير. ويقال له من الشاة: القصّ، ويقال له البركة من الرجل والفرس، ويقال كركرة البعير وهي المستديرة في صدره(٣).

وجاء أيضًا أن شفة الإنسان نظيرها من البعير: المشْفَر، ومن ذوات الحافر: الجَحفَلَة، ومن ذوات الأظلاف: المقَمَّة والمرِمَّة، وهو في السباع: الخَطمُ، والخرطوم، وفي سباع الطير: المنقار، والمِنسَر(٤).

وورد أيضًا ظُفر الإنسان نظيره في سباع الطير: مِخلَب، وما لم يكن من سباع الطير فهو: بُرثُن للحمام والغراب وغير ذلك، وهو في البعير، المنسم، وهو في الشاء والبقر والظباء: الظِّلف(٥).

وذكر كذلك نظير جلس الرجل وقعد من الفرس والحمار وكل ذي حافر:

(١) الإبل، ١٢١.
(٢) الإبل، ٧٠.
(٣) ينظر: رسالتان في اللغة، الفرق، ٦٤.
(٤) نظر: السابق، ٥٧.
(٥) ينظر: السابق، ٦١.

ربَض، ونظيرها من البعير: بَرَكَ، وللطائر: جَثَمَ[١].

وعلى كل فقد كان الأصمعي عند شرحه يستعمل تعريف اللفظ بمرادف، أو بأكثر، أو بعبارة مقاربة، أو غير ذلك، كما كان يذكر كثيرا من الظواهر اللغوية كظاهرة الاشتقاق، وتعليل التسمية، والتأصيل اللغوي، وغير ذلك من الظواهر الأخرى، فكل هذه الظواهر تخدم المعنى المعجمي.

(١) ينظر: السابق، ٧٧.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج المهمة، يمكن حصرها فيما يلي:

أوَّلًا: تبين أن الأصمعي اللامع استعان بالتعريف المعجمي في شرحه لرسائله، ومؤلفاته فلا يكاد يخلو مؤلف من الصفة الموسوعية التي اتصف بها في تعريفه المعجمي.

ثانيًا: طرق التعريف التي استعملها الأصمعي في مصنفاته هي نفسها التي اتخذها علماء المعاجم نبراسًا حتى يومنا هذا.

ثالثًا: وصلت طرق التعريف المعجمي من خلال اطلاع الباحث على مصنفات الأصمعي إلى أحد عشر طريقة، وهي: التعريف بالترجمة، والتعريف بالمغايرة، والتعريف بعبارة مقاربة، والتعريف بالمعنى الاجتماعي، والتعريف بالاشتقاق، والتعريف بالسببية، والتعريف بكلمة معروف، والتعريف بالسياق اللغوي، والتعريف المعجمي المحرر المفصل، والتعريف بذكر المقابل من لهجات العرب المشهورة، والتعريف باللفظ النظير، وهذا يعكس حرصه -رحمه الله تعالى- على خدمة هذه اللغة العربية الشريفة.

رابعًا: تبين للباحث أن طرق التعريف المعجمي عند الأصمعي كانت تتفاوت من حيث القلة والكثرة، فكان كثيرًا ما يستخدم التعريف بعبارة مقاربة، والتعريف بالنظير، ويليه من حيث الكثرة التعريف بالترجمة، بينما لم يلجأ إلى التعريف بالضد إلا قليلًا، ومثله كلمة معروف، ولعله كان مدركًا لما سيوجه لهاتين الطريقتين من نقد فيما بعد.

خامسًا: لم تختلف طرق التعريف إجمالًا لدى الأصمعي عمّا جاءت عند من سبقه، كالخليل الفراهيدي مثلًا في معجمه العين، ولم تختلف عما استقرّ عليه وضع المعاجم فيما بعد، بل إنه كان منهلًا للكثير من المعجميين كما

مرّ في الدراسة.

سادسًا: قدم الأصمعي معجمًا لغويًّا يخدم ألفاظ الإبل، والشاة، كما يخدم الفرق بين الألفاظ.

سابعًا: تبين أن الأصمعي كان يسعى إلى إيضاح معنى الكلمة في سياقها اللغوي اعتمادًا على علاقتها بالكلمات الأخرى في الجملة.

ثامنًا: لم يدخر الأصمعي جهدًا في محاولة إزالة الإبهام عن المفردة اللغوية، وبما يجعل المعنى حاضرًا في ذهن المتلقي وهذه مهمة المعجمي في المقام الأول.

التوصيات: توصي هذه الدراسة الباحثين بتتبع التعريف المعجمي في مؤلفات اللغويين، العربي؛ من أجل استخراج طرق الشرح المغايرة عما تطرق له، ومحاولة استنباط طرق جديدة. كما توصي بدراسة الأبعاد الثقافية، والفلسفية، والاجتماعية الذي عكسها فكر الأصمعي ولغته في مصنفاته، وتوصي أيضًا بدراسة التعريف المعجمي عند الأصمعي من وجهة نظر علم اللغة الحديث، وعقد دراسات مقارنة حول ذلك.

المصادر والمراجع

الأصمعي، (١٩٠٨م)، النبات والشجر، جمع أوغست هفنر، مجلة الشرق – بيروت.

الأصمعي، (١٩٨٧م) الشاء، تحقيق صبيح التميمي، دار أسامة – بيروت.

الأصمعي، عبد الملك بن قُريب، (١٩٦٨م)، الاشتقاق، تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط/ المجمع العلمي العراقي.

الأصمعي، عبد الملك بن قُريب، (١٩٩٤م) اشتقاق الأسماء، تحقيق رمضان عبد التواب، وصلاح الدين الهادي، ط ٢، مكتبة الخانجي – القاهرة.

الأصمعي، عبد الملك بن قُريب، (٢٠٠٣ م)، الإبل، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط١، دار البشائر – دمشق.

الأصمعي، عبد الملك بن قُريب، (د.ت) الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط ٣، دار المعارف – مصر.

الأصمعي، (١٩٩٢م)، رسالتان في اللغة، الفرق والشاء، تحقيق صبيح التميمي، مكتبة الثقافة الدينية — مصر.

ابن الأثير، مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، (د.ت) تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

ابن الأنباري، أبو بكر، (١٩٨٧م)، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت.

ابن السكيت، (د.ت)، إصلاح المنطق تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف – مصر.

ابن السكيت، (د.ت)، الكنز اللغوي في اللَسَن العربي، تحقيق أوغست هفنر، مكتبة المتنبي – القاهرة.

ابن جني، (د.ت)، الخصائص، الطبعة: الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر.

ابن خلكان، (د.ت)، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر– بيروت.
ابن سيده، (١٩٩٦م)، المخصص، الطبعة: الأولى، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
ابن سيده، (٢٠٠٠م)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت.
ابن فارس، (١٩٧٩م)، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
ابن منظور، (١٩٩٤م)، لسان العرب، الطبعة: الثالثة، دار صادر – بيروت.
ابن يعيش، (٢٠٠١م)، شرح مفصل الزمخشري قدم له: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية – بيروت.
أبو الفرج، محمد أحمد، (١٩١٦م)، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية للنشر.
الأزهري، محمد بن أحمد، (٢٠٠١م) تهذيب اللغة، ط/١، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي للنشر – بيروت.
الأكرت، عبد التواب مرسي حسن، (٢٠١٠م)، معجمات العربية تاريخ وتعريف، دار الأقصى – القاهرة.
الأنباري، كمال الدين، (١٩٨٥م)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، الطبعة: الثالثة، مكتبة المنار الزرقاء – الأردن.
بعداني، عبد القادر، (٢٠/ ٢/٢٠٢٠م) التعريف في المعجم ووظيفته في توضيح الدلالة، جامعة حسيبة بن بو علي الشلف، الجزائر.-https://www.univ-chlef.dz/fla/wp-content/uploads/2020/02/H_hadj-hani.pdf
البغدادي، عبد القادر، (١٩٩٧م)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة ٤، مكتبة الخانجي – القاهرة.
البكري، أبو عبيد الله، (د.ت)، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق عبد العزيز

الميمني، دار الكتب العلمية – بيروت.
التبريزي، (١٨٩٧م)، مختصر تهذيب الألفاظ (وهو متن كتاب الألفاظ لابن السكيت مع بعض الزيادات المختصرة للخطيب التبريزي)، تحقيق الأب لويس اليسوعي، المطبعة الكاثولكية للآباء اليسوعيين – بيروت.
جبل، عبد الكريم، (١٩٩٧م)، في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، الطبعة الأولى دار المعرفة الجامعية.
الجعدي، (١٩٩٨م)، ديوان النابغة تحقيق واضح الصمد، دار صادر – بيروت.
الجوهري، (١٩٨٤م)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دارالعلم للملايين – بيروت.
الجيلالي، حلام، (١٩٩٩م)، تقنيات التعريف بالمعاجم العربية المعاصرة، ط/١، اتحاد الكتاب العرب – دمشق.
حسن، السيد محمد بن السيد، (١٩٨٦م)، الراموز على الصحاح، تحقيق محمد علي عبد الكريم الرديني، ط ٢، دار أسامة – دمشق.
الحمزاوي، محمد رشاد، (١٩٨٦م)، من قضايا المعجم العربي قديمًا وحديثًا، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي – بيروت.
الدارقطني، علي بن عمر، (١٩٦٦م)، سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة – بيروت.
الزُّبيدي، أبو بكر، (د.ت)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف – مصر.
الزَّبيدي، المرتضى، (١٩٦٥م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، مطبعة الكويت.
الزركشي، (١٩٨٤م)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،

مكتبة دار التراث.
الزمخشري، (١٩٩٣م)، الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق علي محمد البجاوي، وآخرين، دار الفكر – بيروت.
سناني، سناني، (٢٠١٤م)، التعريف المعجمي أنواعه ووسائله في المعاجم العربية، (معجم المصباح المنير للفيومي أنموذجًا)، جامعة بسكرة بالجزائر، مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، مكة المكرمة، العدد السادس.
سيبويه، أبو بشر، (١٩٨٨م)، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة: الثالثة، مكتبة الخانجي – القاهرة.
السيرافي، (١٩٦٦م)، أخبار النحويين البصريين تحقيق طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، ط/ مصطفى البابي الحلبي.
السيوطي، (١٩٩٨م)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت.
السيوطي، جلال الدين، (١٩٦٦م)، شرح شواهد المغني، وقف على طبعه وعلق حواشيه: أحمد ظافر كوجان، مذيل وتعليقات: الشيخ محمد محمود، لجنة التراث العربي.
العسكري، أبو هلال، (د.ت)، جمهرة الأمثال، دار الفكر – بيروت.
عفيفي، اعتماد عبد الصادق، (٢٠٢٣م)، المعجمات العربية بين الأصالة والمعاصرة، الطبعة الأولى، دار البشرى.
عمر، أحمد مختار، (٢٠٠٣م) البحث اللغوي عند العرب، ط/ الثامنة، دار عالم الكتب للنشر.
عمر، أحمد مختار، (٢٠٠٩م)، صناعة المعجم الحديث، دار عالم الكتب – الرياض.
الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (د.ت)، العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم

السامرائي، دار ومكتبة الهلال – مصر.
فهمي، خالد، (٢٠٠٤م)، تراث المعاجم الفقهية في العربية دراسة لغوية في ضوء صناعة المعجم والمعجمية، ايتراك للنشر.
الفيروزآبادي، (٢٠٠٥م)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة – بيروت.
الفيومي، (د.ت)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت.
القالي، أبو علي، (د.ت) الأمالي، دار الكتب العلمية – بيروت.
محفوظ، زكي نجيب، (١٩٦٥م)، المنطق الوضعي، ط/٤، مكتبة الأنجلو المصرية للنشر – القاهرة.
المهديوي، عمر، (٢٠١٤م)، التعريف المعجمي بين المعجم الورقي والمعجم الإلكتروني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمغرب، مجلة الدراسات المعجمية، الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، العدد العاشر.
الميداني، (د.ت)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت.
النجار، عبد المنعم، (١٩٩٨م)، المعجم اللغوي العربي مادة ومنهجًا وتاريخًا، ط/ دار الطباعة المحمدية – القاهرة.
النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، (١٩٧٨م)، الفهرست، دار المعرفة – بيروت.

Bibliography

al-Aṣma‘ī, ‘Abd al-Malik ibn Quraib. "al-nabāt wa-al-shajar". Compiled by: August Hafnir. (Beirut, Majallat al-Sharq, 1908).

al-Aṣma‘ī, ‘Abd al-Malik ibn Quraib. "al-Shā’". investigated by: Ṣubayḥ al-Tamīmī. (Beirut, Dār Usāmah, 1987).

al-Aṣma‘ī, ‘Abd al-Malik ibn Quraib. "al-ishtiqāq". investigated by: Muḥammad Ḥasan Āl Yāsīn. (al-Majma‘ al-‘Ilmī al-‘Irāqī, 1968).

al-Aṣma‘ī, ‘Abd al-Malik ibn Quraib. "Ishtiqāq al-asmā’". investigated by: Ramaḍān ‘Abd al-Tawwāb and Ṣalāḥ al-Dīn al-Hādī. (2nd edition, Cairo, Maktabat al-Khānjī, 1994).

al-Aṣma‘ī, ‘Abd al-Malik ibn Quraib. "al-ibil". investigated by: Ḥātim Ṣāliḥ al-Ḍāmin. (1st edition, Damascus, Dār al-Bashā’ir, 2003).

al-Aṣma‘ī, ‘Abd al-Malik ibn Quraib. "al-Aṣma‘īyāt". investigated by: Aḥmad Muḥammad Shākir and ‘Abd al-Salām Hārūn. (3rd edition, Egypt, Dār al-Ma‘ārif).

al-Aṣma‘ī, ‘Abd al-Malik ibn Quraib. "Risālatān fī al-lughah, al-farq wa-al-shā’". investigated by: Ṣubayḥ al-Tamīmī. (Egypt, Maktabat al-Thaqāfah al-dīnīyah, 1992).

Ibn al-Athīr, Majd al-Dīn Abū al-Sa‘ādāt, "al-nihāyah fī Gharīb al-ḥadīth wa-al-athar". investigated by: edited by: Aḥmad al-Zāwī and Maḥmūd Muḥammad al-Ṭanāḥī. (Beirut, Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī).

Ibn al-Anbārī, Muḥammad ibn al-Qāsim, "al-aḍdād". investigated by: Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm. (Beirut, al-Maktabah al-‘Aṣrīyah 1987).

Ibn al-Sikkīt, Ya‘qūb ibn Isḥāq. "Iṣlāḥ al-manṭiq". investigated by: Aḥmad Muḥammad Shākir, ‘Abd al-Salām Hārūn. (Egypt, Dār al-Ma‘ārif).

Ibn al-Sikkīt, Ya‘qūb ibn Isḥāq. "al-Kanz al-lughawī fī al-lasan al-‘Arabī". investigated by: August Hafnir. (Cairo, Maktabat al-Mutanabbī).

Ibn Jinnī, ‘Uthmān ibn Jinnī. "al-Khaṣā’iṣ". (4th edition, Egypt, al-Hay’ah al-Miṣrīyah al-‘Āmmah lil-Kitāb).

Ibn Khillikān, Aḥmad ibn Muḥammad. "wafayāt al-a‘yān". investigated by: Iḥsān ‘Abbās. (Beirut, Dār Ṣādir).

Ibn Sīdah, ‘Alī ibn Ismā‘īl. "al-mukhaṣaṣ". investigated by Khalīl Ibrāhīm Jaffāl. (1st edition, Beirut, Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, 1996).

Ibn Sīdah, ʻAlī ibn Ismāʻīl. "al-Muḥkam wa-al-Muḥīṭ al-Aʻẓam". investigated by: ʻAbd al-Ḥamīd Hindāwī. (Beirut, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 2000).

Ibn Fāris, Aḥmad ibn Fāris. "Maqāyīs al-lughah". investigated by: ʻAbd al-Salām Hārūn. (Dār al-Fikr, 1979).

Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram. "Lisān al-ʻArab". (3rd edition, Beirut, Dār Ṣādir).

Ibn Yaʻīsh, Yaʻīsh ibn ʻAlī. "sharḥ mufaṣṣal al-Zamakhsharī". foreword by: Imīl Badīʻ Yaʻqūb. (Beirut, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 2001).

Abū al-Faraj, Muḥammad Aḥmad. "al-maʻājim al-lughawīyah fī ḍawʼ Dirāsāt ʻilm al-lughah al-ḥadīth". (Dār al-Nahḍah al-ʻArabīyah lil-Nashr, 1916).

al-Azharī, Muḥammad ibn Aḥmad. "Tahdhīb al-lughah". investigated by: Muḥammad ʻAwaḍ Murʻib. (1st edition, Beirut, Dār Iḥyāʼ al-Turāth al-ʻArabī lil-Nashr, 2001).

al-Akart, ʻAbd al-Tawwāb Mursī. "muʻjamāt al-ʻArabīyah Tārīkh wa-taʻrīf". (Cairo, Dār al-Aqṣá, 2010).

al-Anbārī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Muḥammad. "Nuzhat al-alibbāʼ fī Ṭabaqāt al-Udabāʼ". investigated by: Ibrāhīm al-Sāmurrāʼī. (3rd edition, Jordan, Maktabat al-Manār al-Zarqāʼ, 1985).

Baʻdānī, ʻAbd al-Qādir. "al-taʻrif fī al-Muʻjam wa-waẓifatuh fī tawḍiḥ al-dilālah". (Algeria: Hassiba Ben Bou Ali University of Chlef, 2020) Retrieved on: 5/29/2024, https://www.univ-.chlef.dz/fla/wp-content/uploads/2020/02/H_hadj-hani.pdf

al-Baghdādī, ʻAbd al-Qādir ʻUmar. "Khizānat al-adab wa-lubb Lubāb Lisān al-ʻArab". investigated by: ʻAbd al-Salām Hārūn. (4th edition, Cairo, Maktabat al-Khānjī, 1997).

al-Bakrī, ʻAbdullāh ibn ʻAbd al-ʻAzīz. "Simṭ al-laʼālī fī sharḥ Amālī al-Qālī". investigated by: ʻAbd al-ʻAzīz al-Maymanī. (Beirut, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah).

al-Tibrīzī, Muḥammad ibn Malik Dād. "Mukhtaṣar Tahdhīb al-alfāẓ". investigated by: al-Ab Luwīs al-Yasūʻī. (Beirut, Catholic Press of the Jesuit Fathers, 1897).

Jabal, ʻAbd al-Karīm Muḥammad. "fī ʻilm al-dalālah dirāsah taṭbīqīyah fī sharḥ al-Anbārī lil-mufaḍaliyyāt". (Dār al-Maʻrifah al-Jāmiʻīyah, 1997).

Al-Jaʻdy, Qays ibn ʻAbdillāh. "Dīwān al-Nābighah" investigated by: Wāḍiḥ al-Ṣamad. (Beirut, Dār Ṣādir, 1998).

al-Jawharī, Ismāʻīl ibn Ḥammād. "al-ṣiḥāḥ Tāj al-lughah wa-ṣiḥāḥ al-ʻArabīyah". investigated by: Aḥmad ʻAṭṭār. (Beirut, dār al-ʻIlm lil-Malāyīn, 1984).

al-Jīlālī, Bū ʻAzzah Ḥalām. "Tiqniyāt al-taʻrīf be-al-maʻājim al-ʻArabīyah al-muʻāṣirah". (1st edition, Damascus, Ittiḥād al-Kitāb al-ʻArab, 1999).

Ḥasan, al-Sayyid Muḥammad ibn al-Sayyid. "al-rāmouz ʻalá al-ṣiḥāḥ". investigated by: Muḥammad al-Radīnī. (2nd edition, Damascus, Dār Usāmah, 1986).

al-Ḥamzāwī, Muḥammad Rashād. "min Qaḍāyā al-Muʻjam al-ʻArabī qadiman wa-ḥadithan". (1st edition, Beirut, Dār al-Gharb al-Islāmī, 1986).

al-Dāraquṭnī, ʻAlī ibn ʻUmar. "Sunan al-Dāraquṭnī". investigated by: al-Sayyid ʻAbdullāh Hāshim. (Beirut, Dār al-Maʻrifah, 1966).

al-Zubidī, Muḥammad ibn al-Ḥasan. "Ṭabaqāt al-naḥwīyīn wa-al-lughawiyyīn". investigated by: Muḥammad Abū al-Faḍl (2nd edition, Egypt, Dār al-Maʻārif).

al-Zabīdī, Muḥammad ibn Muḥammad. "Tāj al-ʻarūs min Jawāhir al-Qāmūs". investigated by: a group of investigators. (Maṭbaʻat al-Kuwayt, 1965).

al-Zarkashī, Muḥammad ibn Bahādur. "al-burhān fī ʻulūm al-Qurʾān". investigated by: Muḥammad Abū al-Faḍl. (Maktabat Dār al-Turāth, 1984).

al-Zamakhsharī, Maḥmūd ibn ʻUmar. "al-fāʾiq fī Gharīb al-ḥadīth wa-al-athar". investigated by: ʻAlī al-Bajāwī et el. (Beirut, 1993).

Sinānī, Sinānī. "al-taʻrīf al-muʻjamī anwāʻuh wa-wasāʾiluhu fī al-maʻājim al-ʻArabīyah, (Muʻjam al-Miṣbāḥ al-munīr lil-fayyoumy un-mūdhajan)". University of Biskra, Algeria, Arabic Language Academy on the World Wide Web 6, (2014).

Sībawayh, ʻAmr ibn ʻUthmān. "al-Kitāb". investigated by: ʻAbd al-Salām Hārūn. (3rd edition, Cairo, Maktabat al-Khānjī, 1988).

al-Sīrāfī, al-Ḥasan ibn ʻAbdillāh. "Akhbār al-naḥwīyīn al-Baṣrīyīn". Investigated by: Ṭāhā al-Zaynī and Muḥammad Khafājī. (Muṣṭafá al-Bābī al-Ḥalabī, 1966).

al-Suyūṭī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr. "al-Muzhir fī ʻulūm al-lughah wa-anwāʻhā". investigated by : Fuʾād Manṣūr. (Beirut, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1998).

al-Suyūṭī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr. "sharḥ shawāhid al-Mughnī". Reviewed its edition and commented on its footnotes:

Ahmed Zafir Kogan, appendix and comments: Sheikh Muhammad Mahmoud. (Arab Heritage Committee, 1966).
al-ʻAskarī, al-Ḥasan ibn ʻAbdillāh. "Jamharat al-amthāl". (Beirut, Dār al-Fikr).
ʻAfīfī, Iʻtimād ʻAbd al-Ṣādiq. "al-muʻjamāt al-ʻArabīyah bayna al-aṣālah wa-al-muʻāṣarah" (1st edition, Dār al-Bushrá, 2023).
ʻUmar, Aḥmad Mukhtār. "al-Baḥth al-lughawī ʻinda al-ʻArab". (8th edition, Dār ʻĀlam al-Kutub, 2003).
ʻUmar, Aḥmad Mukhtār. "ṣināʻat al-Muʻjam al-ḥadīth". (Riyadh, Dār ʻĀlam al-Kutub 2009).
al-Farāhīdī, al-Khalīl ibn Aḥmad. "al-ʻAyn". investigated by: Mahdī al-Makhzūmī and Ibrāhīm al-Sāmarrāʼī. (Egypt: Dār wa-Maktabat al-Hilāl).
Fahmī, Khālid. "Turāth al-maʻājim al-fiqhīyah fī al-ʻArabīyah dirāsah lughawīyah fī ḍawʼ ṣināʻat al-Muʻjam wa-al-muʻjamiyyah". (Ītrāk lil-Nashr, 2004).
al-Fīrūzābādī, Muḥammad ibn Yaʻqūb. "al-Qāmūs al-muḥīṭ". (Beirut, Muʼassasat al-Risālah 2005).
al-Fayyūmī, Aḥmad ibn Muḥammad. "al-Miṣbāḥ al-munīr fī Gharīb al-sharḥ al-kabīr". (Beirut, al-Maktabah al-ʻIlmīyah).
al-Qālī, Ismāʻīl ibn al-Qāsim. "al-Amālī". (Beirut, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah).
Maḥfūẓ, Zakī Najīb. "al-manṭiq al-waḍʻī". (4th edition, Cairo: Maktabat al-Anjlū al-Miṣrīyah lil-Nashr, 1965).
Al-Mahdīwy, ʻUmar. "al-Taʻrīf al-muʻjamī bayna al-Muʻjam al-Waraqī wa-al-Muʻjam al-iliktrūnī". Journal of Lexical Studies, Moroccan Association for Lexical Studies 10, (2014).
al-Maydānī, Aḥmad ibn Muḥammad. "Majmaʻ al-amthāl". investigated by: Muḥammad ʻAbd al-Ḥamīd. (Beirut: Dār al-Maʻrifah).
al-Najjār, ʻAbd al-Munʻim. "al-Muʻjam al-lughawī al-ʻArabī māddatan wa-manhajan wa-tārīkhan". (Cairo: Dār al-Ṭibāʻah al-Muḥammadīyah, 1998).
al-Nadīm, Muḥammad ibn Isḥāq. "al-Fihrist". (Beirut: Dār al-Maʻrifah, 1978).

النسق الناسخ
قراءة في نسق العصبيّة في شعر الفرزدق

The Duplicating Pattern: A Review of the Tribalism Pattern in Al-Farazdaq's Poetry

د. صغيّر بن غريّب بن عبد الله العنزي

أستاذ مشارك بكليّة التربية والآداب بقسم اللغة العربيّة بجامعة الحدود الشماليّة

البريد الإلكترونيّ: saga1428@hotmail.com

الملخّص

يندرج البحث في إطار الدراسات التي تروم استكشاف الأنساق الثقافيّة المُتحكّمة في الذهنيّة العربيّة من خلال خطاباتها الدالّة والمعتبرة، وهي إذ تتعامل مع هذه الخطابات؛ فإنّها تنظر إليها بما هي أحداث ثقافيّة ذات آثار اجتماعيّة ناتجة عن تأثيرات أعمق تطال الذهنيّة المُنتجة لها، والذهنيّة التي تتلقّاها وتروج عندها على حدّ سواء.

من هذا المنطلق، اتّجه البحث نحو قراءة شعر الفرزدق؛ لمدارسة حضور نسق العصبيّة فيه، بناء على فرضيّةٍ مُؤدّاها أنّ الجماليّ، ممثّلًا بالشعر، كان من أشدّ منابر ترويج العصبيّة خطرًا وفاعليّةً وخفاءً في ذات الوقت.

وتتأتّى أهميّة البحث في هذا المجال من كون الفرزدق ينتمي إلى العصور الإسلاميّة المُبكِّرة، فهو في عهدٍ لصيقٍ بعهد صدر الإسلام الذي كان حاسمًا في موقفه الرّافض والمُندّد بالعصبيّة، ومن ثمّ فإنّ البحث في هذا الجانب من شأنه أنْ يصل بنا إلى الحِيَل الثقافيّة التي استطاع بها الفرزدق الإسهام في إعادة تنشيط نسق العصبيّة الجاهليّة، والسعي إلى نسْخ النسق الإسلاميّ المضادّ لها.

في سبيل الكشف عن ذلك، استعان البحث بالأدوات التي يُقدّمها النقد الثقافيّ على وجه الخصوص، من حيث كونه نقدًا معنيًّا أساسًا بسُبُل الكشف عن الأنساق السلبيّة، ورصد علاماتها، وتقصّي حيلها في التخفّي والمراوغة.

بالإفادة من ذلك، حاول البحث تحقيق عددٍ من الأهداف، من أبرزها: الكشف عن دور الجمالي في تنشيط الأنساق وبعثها على نحوٍ خفيّ، يتجاوز بلُطْفِه أعين الرقباء، ورصد النقّاد.

ومن أهمّ النتائج التي يمكن تسجيلها في هذا الصدد أنّ الفرزدق أسهم، بواسطة المعبر الجمالي، من بعث نسق العصبيّة الجاهليّ، واستطاع أنْ يجعل الرافد الدينيّ خاضعًا للنّسق عِوَض أنْ يكون مُناهضًا له.

الكلمات المفتاحيّة: النسق، العصبيّة، الأنساق الثقافيّة، النقد الثقافيّ، الفرزدق.

Abstract

The research falls within the framework of studies that seek to explore the cultural patterns that control the Arab mentality through its significant and considered discourses. As it deals with these discourses, it looks at them as cultural events with social effects resulting from deeper influences that affect both the mentality that produces them and the mentality that receives and promotes them.

Based on this ground, the research focuses on perusing the poetry of Al-Farazdaq to study the presence of tribalism patterns within it. The hypothesis suggests that aesthetics, represented by poetry, was one of the most serious, influential, and simultaneously subtle platforms for promoting the tribal pattern.

The significance of research in this field stems from the fact that Al-Farazdaq belongs to the early Islamic era, a period closely associated with foundational Islam, which took a decisive stance on condemning tribalism. Therefore, studying this aspect can lead us to uncover the cultural tactics through which Al-Farazdaq was able to revive the pre-Islamic tribal pattern and reproduce the Islamic pattern that opposed it.

To reveal this, the research employed tools provided by cultural criticism particularly, because it is essentially concerned with ways to reveal negative patterns, identify their signs, and expose their strategies of concealment and evasion.

Drawing on that, the research aimed to achieve several objectives, including uncovering the role of aesthetics in reviving and disseminating patterns in a subtle manner that surpasses the scrutiny of authorities and observation of critics.

Of the most important findings in this regard is that Al-Farazdaq, through aesthetic expression, was able to revive the pre-Islamic tribalism pattern, and make the religious context subservient to this pattern instead of opposing it.

Keywords: pattern, tribalism, cultural patterns, cultural criticism, Al-Farazdaq.

المقدّمة

لا تعيش الأنساق بمعزلٍ عن الرقيب دائمًا، ولكنّها قد تنمو في كنفه ورعايته، فتتوسّل به لتقوية ذاتها، وتغنم من سلطته الرمزيّة ما تُسوّغ به وجودها، وترفع به حظّها في القُبُول والرواج، وليس ذلك لضعف في الرقيب، ولكنّه نتاج ما تتمتّع به الأنساق من دُرْبةٍ وقدرةٍ على الاختراق، ولذا فإنّ مقاربتها ومحاولة رصدها وتتبّع سبلها في ترويض عقباتها ليس بالمركب الهيّن، ويتطلّب أدواتٍ بحثيّة مُكرّسة للتنقيب عن الأنساق وكشفها، وذلك ما نتوسّمه في النقد الثقافيّ من حيث هو نقدٌ معنيٌّ بالكشف عن الأنساق كيفما تجلّت.

وفي هذا الإطار، يُقارب عملنا نسق العصبيّة الذي استطاع، منذ وقت مبكّر، أنْ يُحوّل المؤسّسات المُضادّة له إلى محاضن راعية له، أو نجح، على أقلّ تقدير، في تعطيل مواجهتها له. وذلك من خلال التركيز على مُدوّنة تُمثّل، في وجهة نظرنا، مرحلةً مفصليّةً في إعادة بعث نسق العصبيّة الجاهليّ، وإدراجه ضمن المجتمع الإسلاميّ، آنذاك، ونعني بذلك الإنتاج الشعريّ للفرزدق الذي كرّس جانبًا كبيرًا من شعره في نمذجة الموروث الجاهليّ، والعصبيّة واحدة من أبرز عناصر هذا الموروث. ولا نقصد أنّ شعر الفرزدق –وحده– السبب في استعادة هذا النموذج، وإنما مثّلنا به لكونه واحدًا من أهمّ من بعثوا هذا النسق، وأشدّهم قصديّةً في ذلك.

أهميّة الدراسة:

تكتسب الدراسة أهميّتها من معالجتها نسقَ العصبيّة في مُدوّنةٍ قريبة العهد من صدر الإسلام الذي كان مضادًّا لهذا النّسق، ومن شأن ذلك أنْ يُقرّبنا من فهم الكيفيّة التي جرت فيها استعادة نسق العصبيّة، والإمساك بالإحراجات التي ألمّت به حال قفزه على النسق الإسلاميّ الناسخ له أساسًا، وطُرُقه في التغلّب عليها.

إشكاليّة الدراسة، وفرضيّتها:

تتلخّص الإشكاليّة في مُباحثة مسألة عودة العصبيّة وهيمنتها فكرًا وسلوكًا في وقتٍ مُبكّر من تاريخنا، بالرغم من تعرّي قبحها ووضوح التنديد بها، ونفترض أنّ عودة نسق العصبيّة كانت عبر الجماليّ، الشعريّ على وجه الخصوص، لما للبلاغة من سلطةٍ نافذة على الناقد والرقيب، ومن خلالها أسهم الشّاعر –محلّ الدراسة– في إعادة تمكين نسق العصبيّة بما هو جزء من الهويّة العربيّة.

أهداف الدراسة:

ينشد العمل تحقيق جملة من الأهداف، منها:

- التعرّف على سُبُل تنشيط نسق العصبيّة في العصر الأمويّ.
- بيان دور الجماليّ في فرض قيمٍ تتنافى مع القيم والأخلاق الإسلاميّة.
- إيضاح الحِيَل التي يلجأ إليها النّسق في ترويض العقبات التي تحول دون مضيّه.
- الكشف عن دور نسق العصبيّة في ترسيم العلاقات بين أفراد المجتمع.

منهج الدراسة:

لمّا كان العمل منصرفًا إلى الكشف عن النسق، فإنّه مدعوٌّ إلى الإفادة من المُنجزات النظريّة التي جعلت وكدها تتبّع الأنساق، ومحاولة رصدها، وتبيان فاعليّتها واستحكامها في تصوّراتنا؛ ومن هنا تأتي استعانة هذا العمل بالنقد الثقافيّ الذي يباشر النصوص بما هي أحداثٌ ثقافيّة ذات أثرٍ فاعل، ويُنقّب عن الأنساق التي تمنحها صفة الفاعليّة والقابليّة الجماهيريّة.

الدراسات السابقة:

ومن الدراسات التي تبدو ظاهريًّا ذات صلة بموضوعنا:

رسالة ماجستير معنونة بـ: الأنساق الثقافيّة في شعر النقائض: نقائض الفرزدق وجرير نموذجًا، المقدّمة في جامعة قاصدي مرباح – ورقلة، في الجزائر، عام ٢٠٢١م،

للباحثة الزهرة سطارة. وقد كان التنظير فيها أكبر من التطبيق، والمادة المدروسة نزرة، وليست في صميم النقد الثقافي.

بحث: التنمّر في شعر الفرزدق، لوسن منصور الحلو، منشور في حوليّات آداب عين شمس بالقاهرة، مج٤٦، ع أكتوبر – ديسمبر ٢٠١٨م. وكانت الدراسة في ضوء علم الاجتماع وعلم النفس التحليلي، ولا تلتقي مع موضوعنا في منهجها ولا في جلّ مادتها المدروسة.

بحث: الإطار الإيقاعي لنبرة الاستعلاء في شعر الفرزدق، المنشورة في مجلة الدراسات العربية، مج٣٨، ع٣، ٢٠١٨م، بكليّة دار العلوم بجامعة المنيا، لنايف بن عبد العزيز الحارثي، وهي دراسة فنيّة كما يظهر من عنوانها، إضافة إلى أنّه لا يكاد يكون هناك التقاء في المادة التطبيقيّة.

وتتعدّد الدراسات التي تناولت شعر الفرزدق من وجهاتٍ خارج مجال عنايتنا المنصرفة صوب دراسة هذا الشعر من زاوية النقد الثقافيّ على وجه الخصوص، ومن هذه الزاوية التي ننشغل بها يمكن الاستئناس بما أنجزه عبد الله الغذّامي في كتابه: النقد الثقافيّ قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة، الصادر في طبعته الخامسة عن المركز الثقافيّ العربيّ، ٢٠١٢م في الدار البيضاء، وبيروت. فقد حرص المؤلّف، في هذا الكتاب، على دراسة الأنساق الثقافيّة العربيّة في عددٍ من النصوص الأدبيّة الشعريّة والنثريّة القديمة والحديثة.

وتُمثّل هذه التطبيقات بإطارها النظريّ مرجعيّة نظريّة وتطبيقيّة لبحثنا، وتكمن الإضافة التي ننشدها ومناط الجدّة الذي نزمع الولوج إليه في تكريس نقدنا الثقافيّ تجاه شاعرٍ بعينه في عصرٍ بعينه؛ بغية الإمساك بالنسق المُهيمن في مرحلةٍ انتقاليّة يتنازعها نسقان مُتضادّان، وصولًا إلى نتائج أقلّ عموميّة وأكثر تحديدًا وصرامة.

محاور العمل:

يبدأ العمل بمدخلٍ نظريّ يُعرّف بالنقد الثقافيّ، ويُبرز وجه الإفادة منه، يتلو ذلك الدراسة التطبيقيّة مُفتتحةً باستعراض إشكاليّة الدراسة المتمثّلة بوجود مُوقفَيْن من العصبيّة: إسلاميٍّ وجاهليّ، ثمّ ينصرف العمل إلى بيان مسلك الفرزدق وخياره من بينهما، وذلك باستعراض برامج العصبيّة على المستوى الدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ.

أوّلًا: مدخل نظريّ: النقد الثقافي cultural criticism:

ينبغي التفريق عند الحديث عن النقد الثقافيّ عن المعنَى العام الذي يتّخذ من الثقافة بشموليّتها موضوعًا له، ويعبّر عن مواقف إزاء تطوّرها وسماتها وهو المعنَى الذي عرفته ثقافات كثيرة[١]، وبين المعنَى المُتخصّص الذي يدرج هذا النقد ضمن دراسات ما بعد البنيويّة ويضع تحديداتٍ تُقلّص من اشتباكه بنظريّاتٍ نقديّة أُخرى وإنْ كان انبتاته الكامل عنها مازال محلّ نظر. ونعني بذلك في الإطار الغربيّ إسهامات ليتش (V. Leitch) تحديدًا، وهي إسهاماتٌ تأثّر بها النقد الثقافيّ لدينا، غير أنّها لم تفض إلى رفض النقد الأدبيّ أو القطع معه[٢]، وذلك على خلاف الحالة التي بدا عليها النقد الثقافيّ عند رائده، عربيًّا، عبدالله الغذّاميّ.

وسينصرف هذا العمل صوب النقد الثقافيّ الذي اختطّه الغذاميّ على وجه التحديد؛ لتقاطعه مع منحَى هذا البحث من حيث عنايته بالشعر بشكلٍ خاصّ، وهو المجال الذي شغل الغذامي في نقده الثقافيّ، وأفضى به إلى عدّ الشعرنة نسقًا

(١) ينظر: ميجان الرويلي، سعد البازعي، "دليل الناقد الأدبيّ: إضاءة لأكثر من سبعين تيّارًا ومصطلحًا نقديًّا معاصرًا" (ط٥، الدار البيضاء – بيروت: ٢٠٠٧م)، ص٣٠٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص٣٠٦، ٣٠٨.

ثقافيًّا مُهيمنًا على الثقافة العربيّة، وأُسًّا من أسس عللها[١].

يعرّف الغذامي النقد الثقافي بما هو "فرع من فروع النقد النصوصيّ العام، ومن ثمّ فهو أحد علوم اللغة، وحقول (الألسنية)، معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافيّ بكل تجليّاته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسميّ وغير مؤسساتيّ وما هو كذلك سواء بسواء"[٢].

يقيم هذا التعريف، بالضرورة، تعارضًا بين النقد الأدبيّ والنقد الثقافيّ مداره انصراف هذا الأخير نحو دراسة الأنساق لا النصوص فحسب[٣]، وبالرغم من هذه القيمة المركزيّة للنسق في مشروع الغذامي فإنّه لم ينشغل بتعريفه وترسيم حدوده على نحوٍ كافٍ، فقد كان عمله في كتابه "النقد الثقافيّ"، على سبيل المثال، أقرب إلى بيان سمات النسق وخطره من كونه تحديدًا له، وحتّى في أعماله ومقالاته اللاحقة لهذا العمل بدا تحديده للنسق مشوبًا بغير قليلٍ من الغموض، من ذلك تعريفه له بما هو "شيء" أثبت قدرته على تحويل أي خطاب مهما كان كليًّا وإنسانيًّا إلى نصٍّ مُجيّر لصالح النسق وحسب منطقه[٤].

وقد كانت مركزيّة النسق التطبيقيّة وتهميشها التنظيريّ ثغرةً أثارت على النظريّة

(١) ينظر: عبد الله الغذامي، "النقد الثقافيّ: قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة". (ط٥، الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، ٢٠١٢م)، ص٧، ٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣، ٨٤.

(٣) المرجع السابق، ص٨١.

(٤) ينظر: مقدمة عبد الله الغذامي على: نادر كاظم، "تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيّل العربيّ الوسيط". (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، البحرين: وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطنيّ، عمّان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م)، ص١٠.

انتقاداتٍ تبدو مُبرّرة، من ذلك انتقادات عبد النبي اصطيف على سبيل المثال(١). وقد عوّض الغذامي ذلك بالحديث عن علامات وجود النسق، إذ بيّن أنّ التكتّل الجماهيريّ حول خطاباتٍ بعينها آية من آيات وجود الأنساق التي تأتلف عليها ضمائر أبناء الثقافة، وتُمثّل عقدة تجمّعٍ واتّفاق بينهم(٢). ولذا يجعل النقد الثقافيّ وكده ووظيفته في "نقد المستهلك الثقافي"(٣)، من حيث إنّ لحظة الاستهلاك هي الدليل على فعل النسق، كما يقول الغذّاميّ(٤).

وقد حاولنا استحضار هذا الجانب في دراستنا بمقاربة شعر الفرزدق دون عزله عن حظوظه في التلقي والقبول والذيوع.

ثانيًا: الدراسة التطبيقيّة:

- **العصبيّة بين نسقَيْن:**

لا تكاد تشذّ دلالة (ع ص ب)، في أصلها، عن الالتحام والارتباط والإحاطة والشِّدَّة، أمَّا العصبيّة فتحتمل دلالةً ثقافيّةً مخصوصةً تتجلَّى في تواتر توظيفها في سياقات النّصرة والتألّب والمحاماة والمدافعة(٥)، وذلك يقتضي بالضرورة أنَّ التحام الجماعة وتواشجها لا تكتمل دلالته إلا بوجود طرفٍ آخر تعدّه ضدًّا لها، فالعَصَبيَّة

(١) ينظر: عبد الله الغذاميّ، وعبدالنبيّ اصطيف، "نقد ثقافيّ أم نقد أدبيّ". (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤م)، ص١٨٩.

(٢) ينظر: الغذامي، "النقد الثقافي"، ص٨٤، ٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٨١

(٤) ينظر: المرجع السابق، ص ٨١

(٥) ينظر: محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي، "تاج العروس من جواهر القاموس". تحقيق علي هلالي، (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١م)، مادة: "عصب".

تعني "أَن يَدْعُوَ الرجلَ إِلى نُصْرةِ عَصَبَتِه، والتَّأَلُّبِ مَعَهُمْ، عَلَى مَنْ يُناوِيهم، ظَالِمِينَ كانوا أَو مَظْلُومِينَ"(١)، ومن ثمَّ، فالمناخ الحاضن يجعلها منخرطة في نَسَق المنظومة القيمية للصِّراع والتشاحن القائم على الظُّلْم، والجهل، والأخذ بالقُوَّة دون وجه حق، وعدّ كلّ ذلك مبادئَ قيميّة تنضّد عليها الجماعة أمجادها، وهي في الوقت ذاته تتعارض مع نَسَق القيم التي أرساها الإسلام، فحرّمها في رؤيتها الجاهلية الضيّقة المتطرفة. وفي الحديث: "مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ"(٢). واتّفقَ "الْفُقَهَاءُ عَلَى حُرْمَةِ التَّعَصُّبِ لِلْقَبِيلَةِ، وَأَبْنَاءِ الْعَشِيرَةِ، وَالانْحِيَازِ إِلَى الْقَرَابَةِ، وَالْمُحَابَاةِ بِسَبَبِهَا، وَالاِقْتِتَال مِنْ أَجْلِهَا، أَوْ تَحْتَ لِوَائِهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْحَقِّ"(٣). وقد قام الإسلام بإجراءين رئيسين حيال العصبيّة:

الأول: إنزال المرتبة التي تحتلّها تلك العصبيّة في سلّم التفاضل والمفاخرة إلى منزلةٍ مُدنَّسة، فقد وصفها النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنها "مُنْتِنَة"(٤).

(١) محمّد بن مكرم جمال الدين ابن منظور، "لسان العرب". تحقيق أمين محمّد عبد الوهاب، محمّد الصادق العبيديّ، (ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، ومؤسّسة التاريخ العربيّ، ١٩٩٩م)، مادة: "عصب".

(٢) مسلم بن الحجاج القشيري، "صحيح مسلم". تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩١م)، ٣: ١٤٧٨. ومعنى عِمِّيَّةٍ: "هُوَ فِعِّيلَةٌ مِنَ العَماء الضَّلالِة كالقتالِ فِي العَصَبِيّةِ والأَهْواءِ". ابن منظور، "لسان العرب"، مادة: "عمي".

(٣) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، "الموسوعة الفقهية الكويتية". (الكويت: مطابع دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م)، ٣٢: ٣١٣.

(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: صحيح البخاري". تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، (بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ)، ٦: ١٥٤.

الثاني: إجراء تعديلٍ حضاريّ على مفهوم النّصرة؛ بناءً على وجهة نظر الحديث: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا"، ونصرته تكون بمنعه من أن يَظلم[١].

وأمام موقف الإسلام الحاسم من نبذ العصبيّة وتحريم تعاطيها، يُمكن لنا التساؤل عن سرّ عودة هذه العصبيّة جذعةً في العصر الأُمويّ، وقِلّة من ناقش مشكلتها من فقهاء ذلك العصر، أو على الأقلّ، كونها لم تُسَاءل مساءلةً توازي حجم بشاعتها.

لا شكّ أنَّ هناك أسبابًا عدّة كانت وراء حضور العصبيّة العنيف في عصر بني أُميَّة، وهيمنة فكرها وسلوكها. وإذا كان من بين هذه الأسباب ما هو سياسيّ يتعلق بالسّلطة الأُمويّة، فإنّ الجماليّ، أيضًا، كان يشتغل بكلّ طاقته في مساندة هذا الرأي السّياسيّ، ودعم رؤيته البراغماتيّة في بعث هذه العصبيّة. وكذلك كان هذا الجماليّ، في جانبٍ آخر، يعملُ بمعزلٍ عن السياسيّ، لصالح وجهة نظر جماعته. وبغضّ النَّظر عن الهدف الذي عمل من أجله الشاعرُ الأمويّ الذي كان ينطلق من مُنطلقاتٍ قبليّة عصبيّة أو كان يحطب في حبل الدولة، فإنَّ هذا الفنّ كان يملك من القُدرة الفائقة ما يُغطّي به قبح وجهة نظر العصبيّة المقيتة، فيُجمّلها، ويُسهم في تمريرها، عبر إدارته للسُّلوكيَّات المُنفعلة بسطوة هذا الجميل؛ حيث كانت البلاغة "تُوظَّف في قمع حاسّة النّقد لدَى المستمع والقارئ"[٢]؛ مما يجعله يستسلم لإمكانات تأثيرها[٣].

ولأنّ الفرزدق واحدٌ من أهمّ ثلاثة شعراء شُهِد لهم بالتقدّم والتأثير في المجتمع الأموي، فإنّ استقراء شعره –من الديوان وشرح الديوان[٤]– قد يصل بنا إلى نتائج

(١) ينظر: المرجع السابق، ٣: ١٢٨.

(٢) محمد عابد الجابري، "العقل الأخلاقي العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية)"، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١م)، ص١٣٥.

(٣) ينظر: المرجع السابق نفسه.

(٤) استعنت بالمصدرين؛ لأنّ بعض الأبيات تتوفّر في أحدهما، ولا تكون في الآخر.

مهمّة عن دور هذا الشَّاعر في هذه القضيّة، وهل أسهم شعره في تجميلها وترويجها أم كان محايدًا في موقفه منها؟ وكيف أثّرت العصبية على تكوين صورة الآخر (الذَّكَر) في شعره؟

- **برامج العصبيّة:**

١–العَصَبِيَّة والديني: اختطاف المُقدَّس:

من أبرز ما يمكن أنْ نُدلِّل به على قُوَّة النَّسَق في اختراق القيم الإسلاميّة والعبور عليها ومن خلالها، بتخدير الحاسَّة النَّقديّة، وربما تضليل الرُّؤية الفقهيَّة أيضًا – توظيف القداسة لصالح العصبيّة، وجعلها واحدةً من مُكتسباتها، وهذا ما يكشف لنا عن قُدرة النَّسَق على الاقتيات من كلّ ما يستجدّ من مُعترضات طريقه، فينتفع بمميّزاته كانتفاع الجسد بالقوت. في هذا الصَّدد نُسلّط الضّوءَ على عددٍ من نُصوص الفرزدق التي تكشف لنا عن التَّماهي بين المُقدَّس والعصبيَّة في مُتخيّله، وفيما يريد أنْ يُرسّخه. من ذلك قوله:

لَنا مَسْجِدا اللهِ الحَرامانِ وَالهُدَى ... وَأَصْبَحَتِ الأَسماءُ مِنَّا كَبِيْرُها

سِوَى اللهِ إنَّ اللهَ لا شَيْءَ مِثلَهُ ... لَهُ الأُمَمُ الأُوْلى يَقُوْمُ نُشُوْرُها

إذا اجْتَمَعَ الآفَاقُ مِن كُلِّ جانِبٍ ... إلى مَنْسِكٍ كانَت إلَيْها أُمُورُها

بَنى بَيتَنا بَانِي السَّمَاءِ فَنَالَها ... وَفي الأَرْضِ مِن بَحْرِي تَفيْضُ بُحُوْرُها[(١)]

يتجلَّى في هذا النص اقتران المُقدَّس بـ(نا) الملكيّة. ولنا، هنا، أنْ نقارن بين

(١) الفرزدق همّام بن غالب، "شرح ديوان الفرزدق". ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، (لبنان: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٩٨٣م)، ١: ٥٩٣–٥٩٤.

مجرور اللام في النّصّ القرآني "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ"(١)، والمجرور بها في بيت الفرزدق؛ لندرك أنَّ العصبيَّة في المجتمع الأُمويّ مُتورّطةٌ في اختطاف المُقدّس بنسبته إلى الجماعة القَبَليَّة. فقد بدأت القصيدة بأسلوب القَصْر البلاغيّ عبر تقديم الجار والمجرور (لنا) الذي يُفيد قصر مِلْكيّة الحَرَمَيْن الشَّريفَيْن، وكذلك الهُدَى، والنّطق باسم السَّماء، على القبيلة الخِنْدِفيّة أو المُضَريَّة التي لا تُقرّ بالعلوّ إلا لله، أما غيره فهم أسفل منها. ولأنَّها صيّرتْ الهَدْي فَضْلًا قَبَليًّا، فمن الطَّبيعيّ أنْ تصبح المناسك، كما تُشير القصيدة، بعضَ مُمتلكات القبيلة، ويصبح الخالق -عزّ وجلّ- مُعينًا لهم وحدهم، يبني أمجادهم ويُشيدها، ويُذلّ غيرهم ويجعلهم تبعًا لهم.

ولا يتوّرع الفرزدق عن أنْ يرتع في حِمَى المُقَدَّس الذي يحظر العصبيَّة، فيخترق هذه الممنوعات، ويجعل من النُّبُوَّة مفخرةً عصبيَّةً ناسبًا النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبيلتهم، كما يُنسب فرسان القبائل ووجهاؤها إليها، على الطريقة الجاهليّة في التفاخر(٢):

أَلَسْنَا بأَرْبَابٍ لِقَوْمٍ وأُمّةٍ خَلَايقُها مِنَّا ومِنَّا رَسُولُها؟

وينزل بالقُدْسيّ من عليائه إلى المُدَنَّس الدّنيويّ، زاعمًا أنَّ النبوّة نَسَبٌ قَبَليّ، وأنَّ قبيلة الشَّاعر الخِنْدِفية أو المُضريَّة هي سبب هداية النَّاس، ولولاها لكانوا أشباه البهائم في ضلالهم:(٣):

(١) سورة آل عمران: ٩٦.

(٢) الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص٤٨١. وقد كرر هذا المعنى في أكثر من موضع، ينظر، على سبيل المثال: أبو عبيدة معمر المثنى، "شرح نقائض جرير والفرزدق". تحقيق محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، (ط٢. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٨م) ٣: ١٠١٥.

(٣) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ٢: ٥٧١.

وَما كانَ هَذا الناسُ حَتَّى هَدَاهُمُ بِنا اللهُ إِلّا مِثْلَ شاءِ البَهائِمِ

وقد جاء باسم الإشارة للمفرد "هذا" لما دلَّ على المجموع "الناس" تحقيرًا لهم، وتشدّدًا في توحيدهم في التبعيّة للشّاعر ولقبيلة الشّاعر الكبيرة، مُنطلقًا من الرؤية العصبيّة التي تزدري الآخرين، وتجعلهم هامشًا دائمًا، وتنفي عنهم، غالبًا، القيمة والإنجاز، وتجعلهم تابعين أو في مقام تابعين، بل إنها في هذا البيت نَفَت آدميّتهم، فجعلتهم كالحيوانات السائمة.

وهذا النّزوع ذو النَّفَس القَبَليّ، بتنصيب أنفسهم طبقةً متميّزةً، بوصفهم الجماعة التي جاءت بالخَلَاص للآخرين، ونسبة الفضل إليهم، امتدّ أثرُه، فأحدث توتّراتٍ على مدَى أوسع بين العرب الفاتحين وبين المسلمين في الأراضي المفتوحة، وصنَعَ طبقيّةً كان لها أثرها في تشاحن الأمَّة، وخَلْق الطَّبقيَّات التي يُحاربها الإسلام(١)، لا سيّما أنَّ حديثه عن الاصطفاء الإلهي لهم لم يكن حديثًا عن محض خيريَّة أو هداية، وإنما هداية مُحمَّلة بدلالات الاستعلاء وازدراء الآخرين، والحطّ من قيمتهم، وقد جعلها كسائر معاني العصبيّة التي يستأثر بها هو وقومه، كالسَّلْب والنَّهْب وقتل رجال القبائل الأخرى وسَبْي النساء.

وفي ضوء هذه النّظرة العصبيّة للمُقدَّس لا يبدو غريبًا أنْ يتّخذَ الفرزدق من المواسم والأماكن المُقدَّسة مرتعًا لمفاخراته، يقول(٢):

وإذا أُخْندِفُ بالمنَازِل مِنْ مِنىً طارَ القبائلُ ثَمَّ كُلَّ مَطِيْرِ

(١) ينظر: فوزي منصور، "خروج العرب من التاريخ". ترجمة ظريف عبد الله، وكمال السيد، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٣م)، ص٥٧.

(٢) أبو عبيدة، "شرح نقائض جرير والفرزدق"، ٣: ١٠١٥.

فَرَقاً وإنّ رِقَابَهُمْ مَمْلوكَةٌ لِمُسَلّطٍ مَلكِ اليَديْنِ كَبِيْرِ

ومع أنَّ طقوس الحجّ ترمز، في مظاهر متعددة، إلى التَّساوي بين النّاس والتَّجرُّد من الخُيَلاء، لكنَّ الفرزدق لم يستنكف عن تصيير هذا الموسم الدينيّ مشهدًا إقصائيًّا تُفاخريًّا، بتحويل إمامة النَّاس والدِّين إلى عَمَلٍ عصبيّ بحت، وذلك في أدْعَى المواطن إلى التَّواضع، كقوله(١):

وَالنّاسُ يَعْلَمُ أنّنَا أرْبَابُهُمْ يَوْمَ التقَى حُجّاجُهُمْ بالمَشْعَرِ

يَقِفُونَ يَنْتَظِرُونَ خَلْفَ ظُهُورِنا حَتى نَمِيلَ بِعارِضٍ مُثْعَنْجِرِ

مُتَغطْرِفِينَ، وَخِندِفٌ من حَوْلِهِمْ كاللّيْلِ، إذْ جاءَتْ بِعِزٍّ قَسْوَرِ

وقوله أيضًا(٢):

إذا هَبَطَ النّاسُ المُحَصَّبَ مِن مِنًى عَشِيَّةَ يَومِ النَّحْرِ مِن حَيْثُ عَرَّفُوا

تَرى النّاسَ ما سِرْنا يَسِيْرُونَ خَلفَنا وَإنْ نَحنُ أَومَأنا إلى النَّاسِ وَقَّفُوا

وفي هذا يظهر أنَّ تصوّراته للمُقدَّس والعصبيّة تصدر عن خطابات قائمة على تعظيم العَصَبة، فهم الأعلَى والآخرون أسفل، وهم المُتقدّمون، والآخرون خلفهم، بالمعنَى القدحيّ للورائيَّة، فهو، هنا، جعل من إمامة النّاس في المشاعر، فعلًا قبليًّا صرفًا، يستدعي الغطرفة والخُيَلاء في موضعٍ وزمن هما أبعد ما يكون عن هذه السلوكيّات الجاهليّة. وفي ضوء هذا الفهم قد لا نُجانب الصَّواب إنْ قلنا: إنّ الفرزدق مُحمَّلٌ بذاكرةٍ جاهليَّةٍ للحجّ تكاد تذهله عن المعاني الجديدة له، ولهذا جاء تساؤله

(١) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٥٤٧.

(٢) المرجع السابق، ٢: ١٢٧.

لجرير كما لو كان في عصر جدّه الأوّل، فحين حَجَّ وافق "جَريرًا وهو مُحرِم فقال له:

إنّكَ لاقٍ بالمُحَصَّبِ من مِنَى فَخَارًا فَخَبِّرْنِي بِمَنْ أنتَ فاخِرُ

أَبِالقَيْسِ قَيْسٍ أَمْ بِأُمَّكِ تَعْتَزِي إذا هَدَرَتْ تلكَ القُرُومُ الهَوادِرُ(١)

ويمكن أنْ نخلص ممَّا سبق إلى أنَّ نَسَق العصبيّة يُحاول الالتصاق بالمُقدَّس لاستغلال ما يتمتَّع به من سُلطةٍ معنويّة، وذلك لإضفاء طابعٍ يقينيّ على القيم التي يُروّجها، ولا يقف الفرزدق عند حدّ هذه السُّلطة، بل يتوسَّل بالسُّلطة السِّياسيَّة أيضًا، وهذا ما سنقف عليه في المحور الموالي.

٢–العصبيّة والسياسيّ: قَبْلَنَة الدولة:

نعني بهذا العنوان تحديد مفهوم الدولة من خلال مفهوم القَبَليّة، وإسباغ مُواصفات هذه الأخيرة عليها، وتغييب ملامح الحنكة السِّياسيَّة لصالح العُصْبة القَرابيّة، وتأطير مُنجزات الدولة في حُدود القَبَليّة التي لا تقصر نفعها على أفرادها فحسب، بل تُحقّق منافعها من خلال طمس الآخرين ومحاولة تشويههم أو إلغائهم. وفي هذا الصَّدد يجد متأمّلُ مُدوَّنة الفرزدق أنَّ الدّولة تكاد تغيب أمام سطوة القبيلة، ونلمح ذلك في عدّة مظاهر، وسنسلّط الضَّوءَ منها على حديثه عن: جيش الدولة وقيادته، والحاكم الأُمويّ المجيَّر لصالح العصبية.

في قصائد الفرزدق يحضر الخليفة الأُمويّ بصفته القَبَليَّة في مواضع عديدة، يظهر فيها أنَّ خصم الشّاعر وقبيلته الكبيرة ينبغي أنْ يكونا خصمًا للخليفة كما تقتضي نواميس العصبيَّة؛ ولهذا يأمر الخليفة أمرَ القريب قريبه، ليقف مع قومه ضدّ

(١) أحمد بن يحيى البَلَاذُريّ، "جمل من أنساب الأشراف". تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ١٢: ٨٤.

اليمانية[1]:

فَغَيِّرْ أَمَيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فَإِنَّها يَمَانِيةٌ حَمْقَاءُ أنْتَ هِشَامُها

ولا تَقْطَعُوا الأَرْحامَ منَّا فإنها ذُنُوْبٌ مِن الأَعْمَالِ يُخْشَى أَثامُهَا

ويلاحظ أنّه يترتّب على عدم تمثّل الخليفة هذه العصبيّة ذنوب يُخشَى آثامها، فبدلًا من أنْ يكون ارتكابها إثمًا يضحي تجنّبها هو الإثم، حسب تلاعب الشّاعر باللغة والمعاني. وتطرد رؤيةُ العصبيّة الضيّقة غيرَها من القبائل والأجناس من حِمَى الدولة/ القبيلة، وتحتجُّ بدعوَى الأرحام التي يُوظّفها الشّاعر توظيفًا قبليًّا يفترض أنّه لا علاقة له بنظام الدولة الرّاعية ومُرتكزات سياستها.

والقصيدة طويلةٌ يتحدّث فيها حديثًا قبليًّا، وكأنما يتحدّث عن نظامٍ عشائري لا نظام دولة قائمة، تتساوَى رعاياها في حقوقها ومنزلتها. وهذا كثيرٌ في شعره، وقَلَّ مَنْ أنكر عليه ذلك[2].

وحين يمدح الحجّاج يرى أنه مُتَّكأ مُضَر[3]، ويقصر حضوره الإداري ومنفعته على

(١) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ٢: ٤٥٣، ٤٥٤.

(٢) وهذا المعنى كثيرٌ عند غيره من شعراء الأُمويين المُضريين، فإسماعيل بن عمار الأسديّ يقول:

ومُلُوكُ خِنْدِفَ أَسْلَمُونا للعِدَى لِلهِ دَرُّ مُلُوكِنا ما تَصْنَعُ

ينظر: محمد بن يزيد المبرد، "الكامل في اللغة والأدب". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط٣، القاهرة: دار الفكر العربي،١٩٩٧م)، ٣: ٦٣.

وجريرٌ في ملاحاته الأخطل التَّغلبيّ يفتخر بالخليفة المُضَريّ الذي يأتمر بمشيئته العصبية:

هَذَا ابنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفةً لَو شِئْتُ سَاقَكُمُ إلَيَّ قِطِينَا

ينظر: المبرد، "الكامل"، ٣: ١١٩.

(٣) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٥٦٥.

جماعةٍ قبليَّة دون أخرى، على طريقة مشيخة القبيلة الجاهليَّة. وموت الحجَّاج يفجع قبائل نزار وحدها، ويضرّ مصالحها[١]. أمَّا القبائل الأخرى، والمسلمون من الأمم الأخرى، فلا علاقة لها بفقده، ثم لا يجعل موته رزيَّةً للأمَّة وللخلافة وإنما لقومه ثقيف.

وهذا شأنه مديحًا وهجاءً ورثاءً مع كلّ المتنفذين في الدَّولة، فعلى غرار ذلك عندما يكون قائد جيش الدولة أو واليها تميميًّا، يتحدَّث الفرزدق عن جيش الدولة وكأنَّه جيش قبيلة تميم، ففي قصيدته التي أنشأها في قتل آل المُهلّب، يقول[٢]:

نَحْنُ أَرَيْنَا البَاهليَّةَ ما شَفَتْ بِهِ نَفْسَهَا مِنْ رَأسِ ثَأْرٍ مُعَلَّقِ

فنجد أنّ كلَّ مواضع (نَحْنُ) في هذه القصيدة عائدةٌ إلى بني تميم أو إلى خِنْدِف ومُضَر. وفي هذه القصيدة ليس جيش الدولة هو مَن ثَأَرَ للباهليّة المقتول زوجها، وإنما هو جيشٌ قَبَليٌّ قَصَره على قومه، وأغفل بقيّة أفراده وجماعاته، فنسي واقعَه نسيانًا تامًّا، وانطلق يغنّي غناءً قبليًّا جاهليًّا[٣]:

وذَاتِ حَلِيْلٍ أَنْكَحَتْها رِمَاحُنا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ

إذا خِنْدِفٌ بِالأَبطَحَينِ تَغطْرَفَتْ وَرائي وَقَيسٌ ذَيَّلَت بِالمُشَرّقِ

فَما أَحَدٌ إلّا يَرانا أَمامَهُ وَأَربابَهُ مَن فَوقِهِ حينَ نَلتَقي

هذه في قتل آل المهلَّب المسلمين، والغناء فيها قبليٌّ تميميٌّ مُضريٌّ ضدّ اليمنيين. والمرأة المنكوحة قهرًا التي لم تُطلَّق عربيَّةٌ مُسْلِمة، يتحدّث عنها أجرأ من

(١) المرجع السابق، ١: ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق، ٢: ١٣٥ وما بعدها.

(٣) الفرزدق همّام بن غالب، "ديوان الفرزدق". شرحه وضبط نصوصه وقدَّم له عمر فاروق الطبّاع، (بيروت: شركة الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٧م)، ص ٤٤٥-٤٤٦.

حديث الجاهليين عن سباياهم. وقد انتبه ابن رشيق إلى هذا، فقال: "وما أظنّ الفرزدق، والله أعلم، أراد الجهاد في العدوّ المخالف للشريعة"(١). وقد أصاب ابن رشيق، فقد أبان الفرزدقُ هذه القضيَّة في قوله عن الأزد (قبيلة المهلَّب): "وقَدْ سُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ واسْتُحِلَّتِ"(٢).

ويمدح الفرزدقُ أحد بني مجاشع لنصرته في حربٍ مع مَسْلَمَة بن عبد الملك ضدّ يزيد بن أبي المُهلَّب، ويُشيد بالمُقاتِل التميميّ، وكأنَّها حرب قبائل(٣)، بل تصبح تميم هي الدَّولة التي تُدفع إليها الزَّكاة، وتُجبَى لها الجزية(٤):

فَلَمْ يَبْقَ إلّا مَنْ يُؤَدِّي زَكَاتَه إِلَيْنَا ومُعْطٍ جِزْيَةً حَيْنَ حَلَّتِ

ووَفْقًا لنَسَق العصبيّة؛ فإنّ عقيدة الولاء لا تخضع لشرط الانتماء إلى الدَّولة أو الدِّين، وإنّما معيارها الانتماء إلى العَصَبة أو الاتّصال منها بسبب، ولم يشذ الفرزدق عن هذا النَّسق في موقفه من القائد الأُمويّ الشهير المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة، وهو أزديّ من عُمَان، إذ هدّده بنصرة عشيرته الموالية وقبيلته الكبيرة(٥).

وقد عمدنا فيما تقدّم، إلى أنْ نبرهن على أنّ العصبيّة، على نحو ما تبدو في إنتاج الفرزدق، ليست مسألةً اجتماعيَّة محضةً، وإنما مرتكز لرؤية الكون وإدراكه. وسلَّطنا الضّوء على تجليّات هذه الرُّؤية على مستوى الحياة الدينيّة والسِّياسيَّة، تمهيدًا لتعميق النظر في تشكّلاتها على مستوى الحياة الاجتماعيّة، وذلك بالتركيز على دورها

(١) الحسن بن رشيق القيرواني، "العمدة في محاسن الشعر وآدابه". تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط٥، بيروت: دار الجيل، ١٩٨١م)، ١: ٥٥.

(٢) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ١٩١. وينظر أيضًا: ١: ١٨٥ وما بعدها.

(٣) ينظر على سبيل المثال: المرجع السابق، ١: ٢٨٤-٢٨٥.

(٤) المرجع السابق، ١: ١٩٢.

(٥) ينظر: الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص ٣٩.

في رؤية الآخر والتعامل معه.

٣–العصبيّة والاجتماعيّ: العلاقة مع الآخر

بيّنّا، فيما سبق، أنّ العصبيّة تُعبّر، في جوهرها، عن موقفٍ مُستفَزٍّ من الآخر، لا لأجل صفاتٍ مخصوصة فيه، وإنّما من أجل وجوده أساسًا، ذلك أنّ الخطاب المُتعصّب لا يعكس وعيًا بالآخر، ولا معرفةً يكون بمقتضاها الوئام أو العداء، بل كلّما " كان الخطاب مُتعصّبًا ازداد جهل حامله بماهيّة الآخر ومعرفته، وأخطأ في تحديد الموقف الصحيح منه"(١). ونُحاول في هذا المبحث أنْ نفحص تصوير الفرزدق للعلاقة مع الآخر (الذَّكَر) دون الأُنثَى؛ وذلك لأنَّ العصبيَّة التي نحن بصدد بحثها قائمة على رباطٍ ذُكُوريّ قبَليّ، فعَصَبَةُ الرَّجل "بنوه وقرابته لأبيه"(٢). ونقصد بـ "الآخر الذَّكَر"، هنا، من هو خارج الذَّات الفرديَّة والقَبَليَّة، سواءً كان مُسْلمًا أم غير مسلم، وحُرًّا أم عبدًا، وأبيض أم أسود، وعربيًّا أم غير عربيّ. وسنُركّز على ثلاثة محاور مُتعاقبة ومتّصلة، يُعْنَى الأوّل منها بتبئير النَّظر في الأساس الذي تقوم عليه العصبيَّة في رسم العلاقة مع الآخر. أمَّا الثّاني، فيستقرئ جانبًا من ملامح العلاقة التي يرسمها المُتعصّب مع الآخر، والحدود التي يقيمها. ويشتغل المحور الثالث بما أفضَتْ إليه العلاقة مع الآخر من تصنيفاتٍ اجتماعيَّة تتّصل بالمِهَن وطلب الرِّزْق على وجه الخُصُوص.

٣–١ بَوْصَلَةُ العَصَبيَّة: المَجْدُ تَحْصِيْلٌ وِرَاثِيّ

ينهض نَسَق العصبيَّة على أساسٍ ماضويٍّ بالضّرورة؛ لأنّه قائمٌ على رباط الآباء

(١) حسين العودات، "الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين". (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٠)، ص٢٢–٢٣.

(٢) ينظر: الزبيدي، "تاج العروس"، مادة: "عصب".

والأجداد، ويسعَى الأفراد إلى توثيق أواصرهم بذلك المَحْتِد، ولا يفتؤون يُذكّرون به، ويحاولون استعادته، لا من حيث هو أَصْل، بل من حيث كونه حجر الأساس في سجلّ المفاخر/الوجود. ومن هنا انتُقد حسّان بن ثابت وفُضّلت المرأة/الخنساء عليه حين أضاع بوصلة الفخر والمجد، فافتخر بمن ولدَ ولم يفتخر بمن ولده(١). وفيما سيأتي سنُعْنَى بالنَّظر في هذا التَّعلُّق الماضويّ ودوره في العلاقة مع الآخر كما تتجلَّى في المُدونَّة موضع الدّراسة.

يتّكئ الفرزدق في موقفه من الذَّات والآخر على الفكرة المركزيّة القائمة على الإرْثِ والقِدَم، فمن لم يكن له حَسَب باذخٌ وأمجاد جاهلية، فلا قيمة لحاضره، مهما نال فيه بقدراته الفرديَّة، ومهما كانت مكانته في الحاضر. وهذا من هدر العصبيَّة التي لا تعتمد على الجدارة والكفاءة وحدها، فالفعل وراثة، والمجد وراثة، ومُنْجَز الشخص عالةٌ على مُنجزات أجداده. أمَّا فِعْل الحاضر الجيّد، فيُضاف إلى قيمة الحسب الجيّد ويُعزّزه، لكنّه، في الأغلب الأعمّ، لا يكفي وحده لصناعة المجد وتحقيق الوجود. ويصوغ الفرزدق هذا المبدأ صياغةً يقينيّةً تعميميّةً تُشْبه في نظمها الأمثال والحِكَم: "... فإنَّما لِكُلّ امْرِئٍ ما أوْرَثَتْهُ أَوَائِلُه"(٢). وعَيْنَا الفرزدق مشدودتان إلى الخلف، وحاضره لا ينفصل بأيّ وجهٍ من الوجوه عن ماضيه الموروث، وإيمانه به غير قابل للمُساءلة(٣):

وإنَّ ثِيَابَ المُلْكِ في آلِ دَارِمٍ هُمُ وَرِثُوْها لا كُلَيْبُ النَّوَاهِقُ

(١) ينظر: أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، "الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء". تحقيق علي بن محمد البجاوي، (القاهرة: دار نهضة مصر)، ص٦٩.

(٢) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ٢: ٣٤٠.

(٣) السابق، ٢: ١٦٢.

والوراثة عنده قيمةٌ عُلْيا حتى في الشِّعْر[١]، بل إنه يُصنِّف كتابَ الله وبيتَه ضمن مُتلكات إِرْثِهِ عن أجداده[٢]:

وَرِثنا كِتابَ اللهِ وَالكَعبَةَ الَّتي بِمَكَّةَ مَحْجُوْبًا عَلَيها سُتُوْرُها

وتُمثّل فكرة الإرث عماد مفاخره ومديحه وهجائه، يقول في إحدى قصائده[٣]:

أُوْلَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِم إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيْرُ المَجَامِعُ

نَمَوْنِي فأَشْرَفْتُ العَلايَةَ فَوْقَكمْ بُحُوْرٌ ومِنَّا حَامِلونَ ودافِعُ

بِهِمْ أَعْتَلي ما حمّلَتني مجُاشِعُ وأصرعُ أَقْراني الذينَ أُصَارِعُ

فيَا عَجَبِي حَتَّى كُلَيْبُ تسُبّني كأنّ أبَاها نَهشلٌ أو مجاشِعُ

والنصّ يُظهر تواشج لغة الفرزدق مع رُؤيته، فقد عمد إلى أنْ يكون "المسند إليه" في البيت الأوّل "اسم إشارة" للبعيد دون غيره من الخيارات اللغوية، وكأنّه بهذا يُري جريرًا موقع آبائه في الأفق الأعلى الذي ينقطع دونه نظره، فضلًا عن أنْ يُمكنه الوصول إليه، ثمّ جعله مجدًا ماضيًا لا يد لجرير فيه، مهما بلغ تفوّقه الشّخصيّ في حاضره، واختار فعل الأمر (فَجِئْنِي) الخارج عن صيغته إلى معنى التعجيز

(١) ينظر: صغيّر العنزي، "الشّاعر مُستعيدًا أباه: قراءة في تصورات الفرزدق للشعر". مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة ٤١، (٢٠٢٢م): ٢٠٩٥. وممّا ناقشه هذا البحث: دواعي استعادة الفرزدق للنموذج الجاهلي؛ لأسباب تتعلق بالقيمة الاعتباريّة للشاعر، والتي حجّمها الإسلام أو قلّل من سطوة نفوذها.

(٢) الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص٦٧١.

(٣) أبو عبيدة، "شرح نقائض جرير والفرزدق"، ٣: ٨٢٤– ٨٢٥.

والاستحالة[١]. وبهذا الإرث يقهر الأقران، ويسخر من خصمه الذي لا رصيد لآبائه.

ولأنَّ سجلّ المفاخر ماضويٌّ، وليس لجرير يدٌ في إعادة خَلْق مجدٍ قديم، يظلّ يحسّره، ويُقْسِم له على عجزه بمثل[٢]:

ولَسْتَ وإنْ فَقّأتَ عَيْنَيْكَ واجِدًا أبًا لَكَ إذْ عُدَّ المَسَاعِي كدَارِمِ

ومادام الإرث هو عماد القيمة في تصوّره، والماضي لا سبيل إلى استرجاعه وتغييره، فقد طلب من جرير، على سبيل السّخرية، أنْ يفتري وأنْ يدّعي ما لم يكن موجودًا[٣].

وإذا أمْعَنَّا النَّظَر في مسألة التَّعلُّق بالماضي في مثل سياقات المفاخرة، ربما بدا لنا جانب آخر، يتّصل بما يتميّز به هذا الزمن عن الحاضر والمستقبل من حيث الثّبات، أو اليقينيّة في المُعتقد السَّائد، ولذا يقول البلاغيّون عن الفعل الماضي إنّه يُعبّر عن المتحقّق وقوعه، أو المنزّل تلك المنزلة[٤]، وإذا صحّ ذلك فمن المتوقّع أنْ يكون الاعتداد بالماضي نوعًا من الإدراج في التَّاريخ والأسطرة. وما نسبة مجد العصبة إلى حُكْم الخالق من هذا ببعيد، فهي داخلة في إطار ادّعاء الثَّبات والخلود. ويتكّئ الفرزدق على هذا المعْنَى فينسب بناء قومه الموروث (حَسَبهم) إلى الله، ويرى تفوّقهم

(١) ينظر: أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي، "مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح". تحقيق خليل إبراهيم خليل، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ١: ٢٠٩.

(٢) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ٢: ٥٧٥.

(٣) أبو عبيدة، "شرح نقائض جرير والفرزدق"، ٣: ٧٨٠. وهذا يذكرنا بما قاله هاملت مخاطبًا أمّه: "ادّعي الفضيلة إنْ كنت منها عاطلةً، فالعادة مارد جبّار يلتهم العقل التهامًا". ينظر: إمام عبد الفتاح، "أرسطو والمرأة". (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م)، ص٣٦.

(٤) ينظر: بسيوني عبد الفتاح فيّود، "علم المعاني: دراسة بلاغيّة ونقدية لمسائل المعاني". (القاهرة: مؤسسة المختار، ٢٠١١م)، ص٢٧٥.

حُكْمًا إلهيًّا لا يُنْقَض ولا يتغيّر[١]:

إنّ الذي سَمكَ السّماءَ بَنى لنا بيتاً دَعائمُهُ أعَزُّ وأطوَلُ

بَيتاً بنَاهُ لنَا المَلِيْكُ وما بَنَى حَكَمُ السَّماءِ فإنّهُ لا يُنْقَلُ[٢]

بينما دونيّة كُلَيْبٍ إرادةٌ إلهيّة، جَرَتْ في الماضي، وستظلّ إلى الأبد[٣]. وحين يرى النُّبوَّة في قُريش أمرًا لا يمكنه مُدافعته، يقرّ بإرادة الله وعلمه في هذه القضيَّة، لكنّه مع هذا لا يُسلّم كلَّ التَّسْليم، وإنّما يحتجّ احتجاجًا غير مباشر، نفهمه من حديثه عن إرث بني تميم وإمكاناتها المختلفة، وتضاؤل قُريش أمامها وتبعيتها لها لولا أنَّ الإله خصَّهم بالنُّبوّة، لِسِرٍّ يجهله الفرزدق[٤]:

وَأُقْسِمُ أنْ لَوْلا قُرَيشٌ وَما مَضَى إلَيها، وَكانَ اللهُ بِالحُكْمِ أعْلَمَا

لَكَانَ لَنا مَنْ يَلْبَسُ اللّيلَ منهمُ وَضَوْءُ النَّهَارِ مِنْ فَصِيْحٍ وَأعْجَمَا

وفِكْرة وقوف الخالق مع عصبة ضدّ عصبة أخرى من المسلمين أنفسهم، في شعر الفرزدق وغيره من الأمويين، وقبله شعراء الخوارج، فكرةٌ قارّة، تَمكّنَ الجماليُّ من تمريرها إلى أنْ غَدَتْ مشاعةً بين الأحزاب الإسلاميّة، فصار الخالق –في تصوّراتهم– مُعاضدًا لـ"النحن" ضدّ الآخر، كما هو تصوّرهم لأفراد جماعتهم الفاعلين، وهذا الوهم جعل كلّ فرقةٍ ترَى نفسها مالكة الحقيقة، مثلما يرَى الفرزدق نفسه وقومه مُلّاك الحقيقة والمجد معًا، وحدهم، وكلّ من سواهم عالة على الحياة.

(١) أبو عبيدة، "شرح نقائض جرير والفرزدق"،١: ٣٥٤– ٣٥٥.

(٢) المرجع السابق، ١: ٣٥٤.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ١: ٣٥٥.

(٤) الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ٢: ٥٧٨.

لقد استطاع الفرزدق بقدرته الشّعرية الفائقة، أنْ يجعل من دعوَى الجاهلية التي أمر النبيّ –صلى الله عليه وسلم– أن يُعضّ من تَعَزَّى بها بِهَنِ أبيه[١] مرجعًا أوّلًا للقيمة، وأنْ يخفي، بإمكاناته البلاغية، قُبْحِيّاتها، لتعود مألوفةً تمرّ الأسماع فلا تنفر منها. ويتضاعف تأثيرها حين يكون "النَّاس مُبرمجين وراثيًّا"[٢] على مثل هذا التقبّل، كما هي حال ذلك العصر، فغدتْ العصبيَّة هي الأعزّ والأجمل، وغُضَّ الطَّرْف عن عُنفها الذي ينتهك كرامة الآخر وكينونته بما تمارسه اللغة الجمالية البليغة من "سُلطة على المُتلقّي فتحمله على الاستسلام، لا شعوريًّا، لما تقرّره"[٣].

والعُنف يرتكز على الآخريّة في تنفيذ برامجه، فهو "سُلوكٌ إيذائيٌّ قوامه إنكار الآخر كقيمة مماثلة للأنا أو للنحن، كقيمة تستحق الحياة والاحترام، ومرتكزهُ استبعادُ الآخر عن حلبة التَّغالب إمَّا بخفضه إلى تابع، وإمَّا بنفيه خارج السَّاحة، وإمَّا بتصفيته معنويًّا أو جسديًّا"[٤]. وجُلّ شعر الفرزدق يدور حول الذَّات مقرونة بالآخر، كما مرّ بنا، وكما سنرى في المبحث الآتي.

٣–٢ العَلَاقَةُ مَع الآخَرِ: العَصَبَيَّة وتَحْدِيْد المَرْكَز والهَامِش

نفترض أنَّ العصبيَّة تضمن وجودها، بوصفها قوّةً، بقدر ما تُوقعه على الآخرين

(١) ينظر: محمد ناصر الدين الألباني، "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه". (جدة: دار باوزير للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م)، ٥: ١١٩.

(٢) باربرا ويتمر، "الأنماط الثقافية للعنف". ترجمة ممدوح يوسف عمران، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، مارس ٢٠٠٧م)، ص٤٤.

(٣) الجابري، "العقل الأخلاقي العربي"، ص١٣٥.

(٤)خليل أحمد خليل، "المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع". (بيروت: دار الحداثة, ١٩٨٤م)، ص١٣٨.

من أذَى، وتُعَدّ رهبة الآخرين لها أمارة نجاح، وفي هذا الجانب، بالضَّبط، يتناصّ التعصّب مع العُنف، فمعنى "العنف الأساس هو عدم الاعتراف بالآخر، رفضه وتحويله إلى الشيء المناسب للحاجة العنفيّة"(١). وهذا التواشج بادٍ في نُصوص الفرزدق، إذْ يُقرّر أنَّ مناط الأفضليّة الذي تتفوّق به العصبة متمثّلٌ في القُدرة على العُنف والإخضاع، وهذا حاضرٌ في شعره، ومنه قوله(٢):

رأَيتُ لهُم عَلَى الأقْوامِ فَضْلًا بِتَوْطَاءِ المَنَاخِرِ والرِّقَابِ

ولا يقف الأمر على الإذلال والإرغام، فرغبة الإبادة، في أشعاره، لا تُواري نفسها، فقد أعلن الاقتدار عليها في واحدٍ من أهمّ نُصوصه، في نظر المُدوّنين القُدَامَى والمُحدَثين، حيث المجد والإنجاز، عنده، متمثّلٌ في الإفناء والاجتثاث، والبناء يكون في تقويض الآخر ومحو وجوده، يقول(٣):

فَما أَحَدٌ في الناسِ يَعْدِلُ دَرْأَنا بِعِزٍّ وَلا عِزٌّ لَهُ حينَ نَجْنَفُ
وَباللهِ لَولا أَنْ تَقُوْلُوا تَكاثَرَتْ عَلَينا تَمِيْمٌ ظَالِمِيْنَ وَأَسْرَفُوا
لَمَا تُرِكَتْ كَفٌّ تُشِيْرُ بِأُصْبُعٍ وَلا تُرِكَت عَيْنٌ عَلى الأَرْضِ تَطْرِفُ
تَرَى النَّاسَ ما سِرْنا يَسِيْرُوْنَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلى النَّاسِ وَقَّفُوا
فَهُم يَعْدِلونَ الأَرْضَ لَولاهُمُ اِستَوَتْ عَلى النَّاسِ أَو كادَتْ تَسِيْرُ فَتُنْسَفُ

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٥٨.
(٣) المرجع السابق، ٢: ١٢٥

وَلَو أَنَّ سَعْداً أَقبَلَت مِن بِلادِها جَاءَت بِيَبْرِينَ اللَّيَالي تَزَحَّفُ(١)

تبلغ "نا" الجماعة في هذا النَّصِّ أقصَى مَدَى في الانتفاخ، وامتلاك العالم، فعِزّها هو الذي يهب للآخرين العزّ، وهو الذي يسلبه(٢). وهذه الجماعة تتجاوز حُدود الآخريَّة البشريَّة، فتتحكم بالطَّبيعة، وتحفظ توازن الأرض، وتنتقل الأماكن معها إلى حيث تسعى. وهذه حالة من مثلنة الذات(٣) التي من خلالها " ترتفع العصبيَّة إلى مرتبة النّقاء والتَّنزُّه عن العيوب... وتستند هذه المثلنة إلى أسطورة من نوعٍ ما، أو بطولةٍ من نوعٍ ما تنسب إلى جدّها الأوّل في نوعٍ من إنجازات خارقة، أو إلى حالة اصطفاء من مثل العرق النقيّ...أو أمجاد الأجداد"(٤).

وقد تمادَى الشاعر في غلوائه، كما يقول شارح الديوان؛ إذ جعل بني تميم قادرين على إفناء العالم/الآخر، فلو أرادوا لاجتثّوا النّاس "من أصولهم، ولم يدعوا لهم أنملًا تشير وتتحرك، ولا تركوا لهم عينًا تطرف، ويخفق جفناها، أي أنهم كانوا يبيرون النّاس كلّهم"(٥).

والمسألة عندنا في تلك التَّراتبيَّة التي يُنشئها هذا النصّ بين إعلان التفوّق والفرادة من جهة، والتَّغنِّي بإبادة الآخرين وإذلالهم من جهةٍ ثانية، وكأنَّ هذه الأخيرة

(١) المرجع السابق، ٢: ١٢٧، ١٢٨.

(٢) ومثله: "وَلا عِزَّ إِلّا عِزُّنا قاهِرٌ لَهُ". المرجع السابق، ٢: ١٢٦.

(٣) يصف لابلانش مثلنة الذات بأنها "رفع الذات إلى مرتبة الأنا المثالي، أو النحن المثالي الذي يغرق في الإعجاب بذاته وتقدير ذاته في نوع من التضخّم النرجسيّ". مصطفى حجازي، "الإنسان المهدور: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية"، (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م)، ص ٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٧-٤٨.

(٥) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ٢: ١٢٥-١٢٨. وينظر: ص ١٢٦، هامش رقم ٩١-٩٢.

برهان على المقالة الأولى، وبينهما ارتباط شرطيّ في مُخيّلة الجماعة، وهذا ما نتحسّس دلائله في عددٍ من نُصوص الفرزدق، كحديثه عن أنّ إقبال الناس عليهم إنّما هو إقبال رهبة لا محبّة[١]:

فَما تُقْبِلُ الأَحْيَاءُ مِن حُبِّ خِنْدِفٍ وَلَكِنَّ أَطْرَافَ العَوَالِي تَصُوْرُها

بِحَقّي أُضيْمُ العالِمِيْنَ بِخِنْدِفٍ وَقَدْ قَهَرَ الأَحْيَاءَ مِنّا قَهُوْرُها

ويُموّج شعره بمثل هذه المعاني الدالّة على نَفْي أنْ يكون التقارب مع الآخر إنسانيًّا ونابعًا عن ألفة صادقة، وجعل الصِّلات قائمة على القسر والقهر وإرغام الأنوف، حتى إنّ المُتنّفذ في الدَّوْلة من قومه تذعن له القبائل وتقرّ له "بالفضل صُعْرًا خُدُودُها"[٢]. وكلُّ ذلك نتاج تَصَوُّرٍ يقضي بفوقيّة قوم الشَّاعر واستعلائهم، وكون الآخرين، بجملتهم، بمثابة الرَّقيق الذين مردّهم راغمين إليهم[٣]:

فَإِنّا وَإِيّاهُم كَعَبْدٍ وَرَبِّهِ إِذا فَرَّ مِنهُ رَدَّهُ بِرُغُوْمِ

وحين "يجتمع الشُّعور بالتَّفوُّق والشُّعور بالكراهية والاحتقار تجاه الغير...تسلك (هذه الجماعة) سبيل العدوان والظلم مُرتاحة الضمير"[٤]، ولا تجد غضاضةً في الفخر بذلك، بله الإعلان عنه، وهذا ما تُؤكّده قصائد الفرزدق التي تُجَرّد الآخرين، بلا استثناء، من القُدرة على مُقاومة بني تميم، وتُمعن في إهانتهم بتصويرهم عاجزين عن

(١) المرجع السابق،١: ٣٧٤.

(٢) المرجع السابق،١: ٢٨٥.

(٣) المرجع السابق،٢: ٥٢٢.

(٤) ناصيف نصار، "التعصب الفردي والتعصب الجماعي، ضمن مجموعة مؤلفين، أضواء على التعصُّب (من أديب إسحاق والأفغاني إلى ناصيف نصار)". مجموعة مؤلفين، (بيروت: دار أمواج، ١٩٩٣م)، ص٢١١.

الدِّفاع عن أُمّهم حوّاء لو أنها أغضبتْ تميمًا[١]:

وَلَو أَنَّ أُمَّ الناسِ حَوّاءَ حارَبَتْ تَمْيَمَ بنَ مَرٍّ لَم تَجِدْ مَن يُجيْرُها

بل إنَّ مَنْ يُغضِب الشّاعر لا يستطيع أنْ يُدافع عن أُمّه لو أراد الفرزدق أنْ يغتصبها على مرأى منه، وهذا أقصى مدَى لتعبيرٍ يُصرّح فيه شاعرٌ عن غاية استهتاره بآخر؛ إذ يسلب منه الكرامة والأنفة والقُدرة بل الشعور بالخزي، وكأنّه لطول إرغام الشّاعر وقومه له فَقَدَ الإحساس بإهانة هذه الجماعة له، فاكتفى بالفرجة الضّارعة[٢]:

ومُسْتَنْبِحٍ نادَى ولَوْ ... أُمَّهُ لأَغْضَى بِعَيْنَيَ خَاشِعِ الطَّرْفِ راغِمُ

والذي سيحدث، نتيجةً لإفراط المتعصِّب بشُعور الفوقيَّة، أنه سيتخيّل في نفسه قُوّةً كونيّةً لا مناص من الخضوع لها والموافقة عليها مُوافقةَ خُضوعٍ وتسليم، تمامًا كتسليم النَّاس بالنَّواميس الكونيَّة، وخوفهم من مواجهتها، واعترافهم بقهريّتها. ومن نتائج هذا الشُّعور ما نجده لدى الفرزدق خلال تقديمه للآخر، بما هو مرتاض النَّفس على الهزيمة، لا يُزعجه الخضوع لمركزيةً قوم الفرزدق، وفوقيّتهم[٣]:

فَمَا أحدٌ مِن الأَقْوَامِ عَدّوا عُرُوْقَ الأَكْرَمِيْنَ عَلَى انْتِسَابِ

بِمُحْتَفِظِيْنَ إنْ فَضَّلْتُمُونا عَلَيْهِم في القَدِيْمِ ولا غِضَابِ

وَلَوْ رَفَعَ الإلَهُ إلَيْهِ قَوْماً لَحِقْنَا بِالسّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ

والفحل حين يقول هذا يثق بتصديق المجتمع له، وإقراره صواب ما يقول، فليس

(١) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٣٩٤.

(٢) الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص٦١٨. واللفظة المحذوفة مكان النقاط تجنبّتُ ذكرها؛ لأنها لفظة جنسية.

(٣) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ج ١، ص ٥٩.

"من شأن النَّسَق أنْ يَرَى عيوبه ولا أنْ يُسائل عباراته ولا أنْ يبرهن على صدقه، إنَّ له أن يدّعي فحسب، والمؤسسة الثقافيَّة تحرس دعاواه وتُبرّرها، هذه هي التربية الشِّعرية النَّسقيَّة"(١).

وانطلاقًا من ثقة الفرزدق بقبول المؤسسة الثقافية هذا الخطاب، فقد جرّد القبائلَ الأُخرَى من أنفتها من تقدّم قومه عليها، ومن أنْ يهجسوا مرّةً واحدةً بمُنافستهم التي ليست ضمن المُفَكَّر فيه عند هذا الآخر، "فالنَّاس يُقرّون لهم بذلك، ولا يجدون ضيمًا في تساميهم عليهم"(٢)، بل إنَّ ضيمَ قومِ الفرزدق الآخرين حقٌّ متاحٌ لهم، وليس هو ما يُستغرَب، بل شعور الآخرين بالقيمة والاستحقاق هو الغريب، ذلك أنَّ مجد الذَّات التي تحتكر صفات الشَّرف والنُّبْل والقيمة لا يكتمل، بحسب منطق العصبيّة، إلا بسحب رصيد مجد الآخر وممتلكاته وربما وجوده كلّه(٣). وهذا هو

(١) الغذامي، "النقد الثقافي"، ص ١٩٥. وقد رحّبت أعلى المؤسسات الاجتماعية/الثقافية بهذا الخطاب، فقد راق قوله للسُّلطة السياسيَّة، فأقسم الخليفة سليمان بن عبد الملك، إثر سماعه هذه الأبيات، بأنْ يخرس الشعراء الحاضرون، ونصّ كلمة الخليفة: "لا تنطقوا، فوالله، ما ترك لكم مقالًا". وسلاطين بني أُميّة الأوائل بصيرون في مصادر الشّعر وموارده، ولا تخرج الكلمة من ألسنتهم إلا بحساب، ولهدف. ينظر: أبو الفرج الأصفهاني، "الأغاني". تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، محمود محمد غنيم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م)، ٢١: ٣٢٧.

(٢) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٥٩.

(٣) هذا كثيرٌ جدًّا في شعر الفرزدق في المديح والفخر والهجاء، وفي الأمثلة التي أوردناها في مبحث العصبيّة إشارات واضحة إلى هذا. وينظر على سبيل المثال إشاراته المتطرّفة إلى الاستمتاع بسبي نساء الآخرين، والتلذّذ بوصف مجامعتهم لهن. الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص٢٦٨، ٤٤٥، وأبو عبيدة، "شرح نقائض جرير والفرزدق"، ٣: ٧٥٧.

سمت العصبيَّة في "هدر الآخر الغريب الذي تتكون بنية العصبيَّة من خلال التَّنكُّر له، والصّراع معه"(١).

ويتّقدُ هذا الشُّعُور لدَى الفرزدق عند سماعه مُفاخرات بعض الشعراء، فلا يكتفي برفضها أو نَفْيها، وإنّما يسلبها ويدّعي امتلاكها، فهوسه بإرغام الآخرين جعل من بين أهمّ إغاراته المجهورة على أشعار غيره انتقاءَه الأبيات التي يجد أنَّها أوفتْ أداء هذا المعنَى، وأمعنت في تضخيم الأنا واستلاب الآخر وإلغائه، فحين سمع قول جَمِيْل بُثَيْنَة:

تَرى النَّاسَ ما سِرْنَا يَسِيْرُوْنَ خَلْفَنا وَإِنْ نَحنُ أَومَأنَا إِلى النَّاسِ وَقَّفُوا

قال له: "تجاف لي عنه، فأنا أحقّ به منك. متى كان المُلْكُ في عُذْرَة؟، إنما هو لمُضَر، وأنا شاعرها"(٢).

وهو، من بين كلّ الفحول، لا يسلب أشعارًا وحسب، وإنّما يسلب معها صفاتٍ لا يرَى الآخر، الدونيّ، في نظره، جديرًا بها، فعندما قال ابن مَيَّادة:

لَو انَّ جَمِيعَ النَّاس كَانُوا بِتَلْـعَةٍ وَجِئْتُ بِجَدّي ظَالِمٍ وَابْنِ ظَـالِمِ

لَظَلَّتْ رِقَابُ النَّاسِ خَاضِـعَةً لَنَا سُجُوْدًا علَى أَقْدَامِنَا بالجَمَاجِمِ

قال له: " أَنْت صَاحب هَذِه الصّفة؟ كذبتَ وَالله، وَكذبَ سامعُ ذَلِك مِنْك فَلم يكذبك، قَالَ: فَمَنْ يَا أَبَا فراس؟ قَالَ: أَنا أولى بِهِ مِنْك... وَمضَى الفرزدق وانتحلها"(٣).

(١) مصطفى حجازي، "الإنسان المهدور"، ص ٤٧.

(٢) عبد الكريم النهشلي القيرواني، "الممتع في صنعة الشعر". تحقيق محمد زغلول سلام، (الإسكندرية، منشأة المعارف)، ص ١٦٥.

(٣) عبد القادر بن عمر البغدادي، "خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب". تحقيق عبد السلام محمد هارون، (ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م)، ١: ١٦١.

ينطلق الفرزدق من مبدأ أنّ أيّ صفةٍ عُلْيا هي ملكهُ وملْكُ قومه، وأنّه ليس من حقّ الآخر أنْ يكون بهذه الصِّفة؛ لأنَّه أدنَى وأقلّ، وهو يُراهن على موافقة الجماعة له بذلك "كذب سامع ذلك منك فلم يكذبك"، خاصَّة تلك الصّفات التي يترتّب عليها إذلال الآخر وإرغامه على السّجود، ونَفْيه من القيمة والفعل، وحَصْره في التَّبعيّة المُطْلَقَة. فهذه الصفات حكرٌ لهذا الشَّاعر الطَّاغية ولقومه، "ففي النَّسَق الشِّعري يأخذ مفهوم الفُحُولة معنًى هو أقرب إلى العُنف والبطش، ومن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب، ومن لا يظلم الناس يظلم"(١). وليس بالمُستغرَب، إذن، أنْ تكون جُلّ الأبيات التي اغتصبها تتوجَّه إلى الفخر الذي يُلغي الآخر، ويلجّ في التَّعالي؛ ممَّا يتوافق مع روح هذا الشَّاعر ورؤيته للحياة والكون؛ ذلك أنّ الآخر عنده "هو الآخر النقيض وليس الآخر المخالف. العلاقة معه علاقة صراع وجود إمَّا/أو، والنظرة إليه نظرة تهديد للوجود. وهكذا فالتعصّب بمقدار ما هو تعصّب للوحدة الداخليّة للعصبيَّة، فإنّه تعصّب لتمايز الجماعة عن الآخر وإلغاء إمكانات اللقاء والقواسم المشتركة"(٢).

إنَّ الفعل في جُلّ شعر الفرزدق لا يقوم على إنجازٍ ذاتيّ مُنفرد، فلولا جُثَّة الآخر التي يتَّكئ عليها في تعداد مُنجزات مجموعته، ولولا كرامة الآخر التي ينتهكها ويُذلّها، لسقطَ جُلّ أمجاد قومه المرصودة في شعره(٣). وهذه إحدى مشكلات الفكر المُتعصّب الذي يُعطِّله انشغاله بالآخر عن التَّقدُّم؛ لأنّ المعنى عنده لا يتحقّق إلا على جُثمان المُختلف أو من رصيد كرامته.

(١) الغذامي، "النقد الثقافي"، ص١٩٥.

(٢) مصطفى حجازي، "الإنسان المهدور"، ص٥٠.

(٣) باستثناء بعض التمدّح بالكرم في الشّدائد ومُفاداة الموءودات، فهذه يحضر الآخر فيها حُضورًا وجوديًّا ضروريًّا، وليس الآخر المُرغَم المُذَلّ.

وقد ظلّتْ هذه الفكرة مُتوارثةً، يُروّجها الجماليّ، ويُمرّرها في غفلةٍ من رقابة النَّقد وفحص الأفكار، وبقي الصِّراع عليها –مع سعة المخرج منها، وتغيّر السّياقات التي أنتجتها–سليلَ التَّقاتُل على المرْعَى الضيّق الذي كانت الظروف لا تسمح به إلا لقبيلةٍ دون أخرى، وسجين مورد الماء الشَّحيح الذي كان التَّنافس عليه ضرورة حياةٍ لا تسمح بفُرصةٍ غيره. وهذا ما يُؤكّد أنَّ الفرزدق كان من بين أهمِّ مَنْ كانوا يجرّون المجتمع العربيّ، حينذاك إلى الخلف، وممّن كانت لهم القَدَم العُليا في تكريس النّموذج الجاهليّ وتجميله.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنَّ النتيجة هي شعور الجماعة المُتعصّبة بالاستحقاق المُطلق الذي لم يَعُدْ لمحض الماء ولا المرْعَى، بل للوجود بأكمله، وتلك حالة من حالات التَّمركز حول الذّات، والتَّمركز هو "صُورة من صُوَر مُقاومة العلاقة الحتميَّة بين الذَّات والآخر، تسعى الذات من خلالها للانغلاق على نفسها، وإقصاء الآخر وتُشكِّل بذلك تَصوُّرًا يجعلها تقتنع بأنَّ وجودها هو الأهمّ، وهو الحقيقيّ"(١)، وقولها هو الفصل، وكلمتها هي الحقّ المطلق(٢):

وَما قامَ مِنّا قائِمٌ في نَدِيِّنا فَيَنطِقَ إِلّا بِالَّتي هِيَ أَعْرَفُ

ولعلَّ احتفال الجماليّ بمثل هذا الخطاب الوثوقيّ هو ما أسهم في أنْ يعمّ هذا الفكر، فيداهنه النَّاقد أو يعجز عن أنْ يُبصره. ووثوقيَّة مُتحدِّث بني تميم الذي "يَنطِقَ بِالَّتي هِيَ أَعْرَفُ" "تُدْخِل كلّ الأمور في دائرتها، فتجبرها على الخضوع لمنطقها، مع ما

(١) أيمن علي القبيسي، "معارضة النسق في شعر أبي نواس: دراسة في ضوء النقد الثقافي". رسالة ماجستير غير مطبوعة، (قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الملك خالد، أبها، ٢٠١٥م)، ص١٢١.

(٢) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ٢: ١٢٢.

يقتضيه ذلك من آليَّة إكراهيَّة... فالوثوقيّ لا يخضع فكره للمنطق، بل إنّه يخضع كلّ شيء لمنطقه هو. من هنا ذلك الادّعاء بالإحاطة بكل شاذّة وفاذّة، إذ إنَّ أي تحفظ أو تردّد من شأنه أنْ يحطّ من مكانته ويُضعف سُلطته وهيبته"(١). ومما يلفت النَّظَر، في هذا السِّياق، أنّ الفرزدق قلّما يسمح، في شعره، للآخر أنْ يُحاوره، فهو يُصدر الأوامر والأحكام، والآخر صامتٌ، يُخْبَر عنه، ويُوصَف، ويُخاطَب ولا يُجيب؛ لأنّه هامش لا يرتفع إلى مقام الذات المُتعصّبة. أَمَّا في الأخبار الحافَّة بالأشعار، فالحوار الذي يجري غالبًا يكون لصالح الفرزدق، وتُظهره المرويّات فَحْلًا في نثره، مُلْجِمًا للآخر، مُتَمكِّنًا من الجواب اللقِن، وحين تُعرَض لنا جرأة أحد محاوريه، فكثيرًا ما تنقل لنا بعد ذلك ندم هذا المُجترئ وسُرعة اعتذاره، أو تسرد خبر مأساته التي خلفتها جرأته على التَّسامي إلى مقام الفحل ومواجهته(٢).

وهو بهذا، يُضيف إلى تهييجه للتعصّب الجماعيّ وترسيخه لمبادئه بُعْدًا آخر من التعصّب الفرديّ، فالفرد "الاجتماعيّ يُؤَكِّد شخصيّته كفردٍ مُتعصّب بقدر ما يتوسّل الفرض والمنع والقهر بصورةٍ تعسفيَّة؛ لإثبات آرائه وحمل الآخرين على اعتناقها أو الاقتناع بها. وفي الحقيقة لا يُميّز الفرد المُتعصّب بين الاعتناق والاقتناع. وإذا ميّز

(١) عبد السلام بنعبد العالي، "عنف الوثوقيّة". مجلة يتفكرون٥، (خريف ٢٠١٥م): ص١٠-١١.

(٢) ينظر –على سبيل المثال لا الحصر–:

– الأصفهاني، "الأغاني"، ٢١: ٣٠٢، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٤٨، ٣٥٧.

– عبد الله بن مسلم بن قتيبة، "الشعر والشعراء". تحقيق أحمد محمد شاكر، (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٦م)، ١: ٤٦٦.

ولهذا تجد عباراتٍ دوّنها الأصفهاني في سيرته، تُبيّن قدرته على الإفحام الخطابي من قبيل: "وكان قد نُهي عنه، فلم يقبل"، "فوجده لقنًا". وكذلك نجد عند ابن قتيبة عبارات مثل: "وكان الفرزدق معَنًّا مِفَنًّا...سريع الجواب"، أي أنه فصيح ذو أفانين في القول، وقدرة عليه.

فلكي يجعل من الاعتناق طريقًا إلى الاقتناع"[١].

وذلك ما يقودنا إلى التركيز على مسألة بالغة الأهميَّة في بنية العصبيَّة، ونعني بذلك قابليتها للانكماش وتوسيع دائرة الآخر في مقابل تكلُّس الذات. وفي هذا الصَّدد نلحظ أنَّ مناط الشرف في مُدوَّنة الفرزدق، عند تأمّل ما وراء سطورها، يكون الانتساب إليه، لا انتسابه إلى القبيلة، وإنْ جاء زَعْمُ انتسابه إليها ظاهرًا، فتَمِيْمٌ تكون مركز الكون حين تشملها (نا) أو (نحن) الفرزدق، أي: عندما يكون واحدًا منها، يُمثّلها ويتحدَّث باسمها، والأمر كذلك مع خِنْدِف، وهو ما ينطبق أيضا على مُضَر، ويكون الشرفُ لقبائل نزار حين تكون في مواجهة قحطان، والفرزدق مُنْتَمٍ إليها. فالفرزدق هو المركز الذي يدور حوله فَلَك القريب والبعيد. وانتسابه ظاهرًا إلى إحدى هذه القبائل يعني انتسابها هي إليه؛ لهذا تعلو، بالقدر الذي تسقط هي أو إحدى بطونها، في مواضع أُخرَى من شعره، حين يَنْسِل ثيابه من ثيابها، ويغضب عليها.

بل إنَّ ابنة الأمَة السُّوداء –المُنْتَقَصة في شعره وفي شعر غيره– تصبح ذات شأن حين تُنْسَب إليه، فلا يضيرها شيءٌ بعد هذا الانتساب[٢]:

فإلّا تَعُدُّوا أُمَّها مِنْ نِسَائِكُمْ فَإِنَّ ابْنَ لَيْلَى وَالِدٌ لا يشِيْنُها

وهي في ظلّ انتمائها إليه لا يضرّها ألَّا يلدها سادات تميم كقيس بن عاصم ومعبد بن زرارة، فأبوها أُمّةٌ وحده[٣].

ولا يقف الأمر لدَى هذا الشّاعر عند ممارسة العصبيَّة الفرديَّة أو القَبَليَّة، فالأكثر خطورةً من ذلك أنَّه يجعل من نفسه وصيًّا عليها، وحَكَمًا فَصْلًا، ورقيبًا

(١) ناصيف نصار، "التعصب الفردي والتعصب الجماعي"، ص٢٠٨.

(٢) البَلَاذُري، "جمل من أنساب الأشراف"، ١٢: ٩٠.

(٣) ينظر: الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٢٦٤.

اجتماعيًّا، فيُحاسب من يُخلّ بمقتضيات العصبيَّة المتطرِّفة، أو مَنْ يتنازل للآخر الأقلّ/ الدَّوْن عن بعض شُرُوطها، فيعنّفه ويُشنّع به، ويَلْقَى هذا الخطاب المُعنِّف قبولًا ورواجًا، فيؤثّر في مكانة المرسَل إليه(١).

وليس إلحاح الفرزدق على تقديم صورة الطِّفْل الجبّار والتَّغنّي بها من هذا ببعيد، فهي ضربٌ من تأكيد استمراريّة هذا النَّسَق، وقدرته على التّكاثر، فأفراده مهيؤون لهذه المُهِمَّة(٢).

إنّ طفلهم جبّارٌ من لحظة ولادته، لا يُرَبَّى بالتَّعاويذ والتَّمائم، وكأنَّ القابلات، وهو مولود، رَمَيْنَ به إلى أُسودٍ ضارية، فنشأ نشأة الجبابرة، وقد لبس لباسه وهو بين أيدي القابلات، واستعدّ من لحظتها لأنْ يكون عظيمًا، على طريقة طفل مُعلَّقة عمرو بن كلثوم. وفي مستوى آخر يُجْرِي تعديلاتٍ على ذلك الطِّفل ليوافق نسخةً أخرى تَحتلّ الصَّدارة في المجتمع الجديد، فيقول(٣):

أَرَى كُلَّ مَن صَلّى يُصَلّي وَراءَنا وَكُلُّ غُلامٍ يَنسِلُ العامَ قابِلُه

إماماً لَنَا مِنّا تَرى كُلَّ راغِبٍ مِنَ النَّاسِ مَنْبُوْطاً إِلَيهِ أَنامِلُه

فطفلهم يصبح إمامًا للقوم، ومثلما حازوا مجد الدّنيا استأثروا بالآخرة، حسب رأيه، فلا تكون صلاةً إلا بإمامة غلامهم، وطُلّاب الحاجات يفزعون إليه، ويمدّون نحوه أناملهم، وكأنَّه وحده مَنْ يُنقذ الملهوفين، وهو مقصد المضهودين. وهذا الشُّعور

(١) المرجع السابق، ١: ٦٦. ويتجلَّى هذا أكثر في أشعاره التشويرية التي خصَّ بها التحريض على الثأر حتى بين مَنْ هم خارج قبيلته، ومن لا صلة بهم. ينظر–على سبيل المثال لا الحصر–: المرجع السابق، ٢: ٢٦٦، ١: ٢٠٧، ٢١٢.

(٢) ينظر: الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ٢: ٥٦٥–٥٦٦.

(٣) المرجع السابق، ٢: ٢٥٤.

هو دين العصبيَّة، فالمُتعصّب "يعتقد بأنَّ الفئة التي ينتمي إليها أسمَى وأرفع من بقيَّة الفئات، واعتقاده بأنّ تلك الفئات أحطّ من الفئة التي ينتمي إليها"(١).

٣-٣ التَّصْنِيْف الاجتماعيّ للآخَرِ: المِهَنُ المَنْفِيَّة والعِرْق:

صاحَبَ المجتمعَ الإسلاميّ الجديد تغييراتٌ ثقافيّة على مستوى التَّمكين، فسنحتْ فرصة السِّيادة لأقوامٍ من خارج دائرة الأعرابيَّة(٢)، وكسبوا نفوذًا، بما حققوا من مُنجزات، وهذا الاستحقاق الجديد ترَى فيه الهُويّة المُتعصّبة تهديدًا لها، وعدوانًا عليها، وستعمل حينئذ على نَفْي أصحابه والتَّشكيك بهم، وهي لا تُدرك، بمنطقها المُضلِّل، ما يحقّقه ذلك المتمكّن من منافع لها. لكن ولاء الفرد المُتعصّب يكون لعصبته حيث حلّتْ، وكيف كانتْ، ولا شيء فوقها.

وفي مثل هذه الأزمات تنشط الأنساق الثقافيَّة المتّصلة بالتَّصنيف، وتمثيل الآخر بتقديمه في صُورةٍ مشوَّهة، وعدم الاعتراف بإمكاناته ولا استحقاقاته، و"عدم الاعتراف لا يعني عدم المعرفة، بل يعني معرفةً "مُقولبةً": هنا الفاعل العُنْفِيّ يُراقب القابلَ، يُصوّره، ويتصوّره بالطَّريقة المناسبة لرسم صورته (الضحيّة)، وللتحكُّم بصيرورته"(٣).

---

(١) حسن حنفي، "التعصب"، ص١٧٥.

(٢) أقصد بالأعرابية نظام تفكيرٍ مُغلق، يرَى الجماعة الخاصة أعلى من غيرها، ولا يرى الآخر مختلفًا، وإنما يراه مخالفًا، لا يكون مجد الذات إلا بتقويضه. ومن سمات هذا الفكر أنه يرفض التغيير، ويُندّد بكل جديدٍ، ويعدّه خطرًا عليه. وفكرها مُندَّدٌ به في فجر الإسلام، ومُحذَّر من الانزلاق إليها على حين غرّة، ودون انتباه من المرء، فقد "كَانَ أَبُو ذَرٍّ يَخْتَلِفُ مِنَ الرَّبَذَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ مَخَافَةَ الأَعْرَابِيَّةِ". ينظر: محمد بن جرير الطبري، "تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م)، ٤: ٢٨٤.

(٣) خليل، "المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع", ص ١٣٨.

ووَفْقًا لمنطق العصبيَّة فإنَّ الاستحقاق لا يكون بما يُحقّقه الفرد من مُنجزات وإنّما بالانتماء للعصبة، وهو انتماءٌ ماضويٌّ، كما بيّنا في مواضع سابقة من هذا البحث، ومن نتائج ذلك أنَّ العصبيَّة "تميل إلى الثَّبات والاستقرار الذي تجعل منه الحالة المُثلَى: تقاليدنا، قيمنا، عاداتنا...إنَّها نظام مُغلق يميل إلى التّكرار وإلى إعادة إنتاج ذاته كحالةٍ مثاليّة"(١).

وهذا يقودنا نحو الإشارة إلى السِّياق الثقافيّ والاجتماعيّ الذي شكّل مرجعيّةً مباشرةً للفرزدق وأمثاله في مسألة الموقف من الآخر وتصنيفه بناءً على مهنته. فقد مثّلت الشّجاعة أعلَى نماذج منظومة الصِّفات العُليا في الفكر الجاهليّ، وهي ليستْ صفةً وحسب، وإنّما نظامُ عَمَل، ومهنةٌ مُهمَّةُ صاحبِها الدفاع والحماية والهجوم والكسب والنَّهب، وهو ما يقتضيه سياق المجتمع الجاهليّ وظروفه؛ ولهذا تضاءلت أمامها كثيرٌ من أعمال القوم وصناعاتهم، فعدّوا الشّجاع طليعة المجتمع، وازدروا المِهَن التي تخلو من المغامرة والحركة، وصارت مثل هذه المِهَن مُلْحِقةً العار بمُمتهنيها.

والفرزدق في كثيرٍ مِنْ هجائه مَنْ يُغاضبونه، أو يمنعونه عطاءهم، أو مَنْ تكون مكافآتهم له دون توقّعه، أو مَنْ يحجبونه، يقوم بنفيهم من النَّسب العربيّ أو يُحيلهم إلى مِهَنِهم الفعليّة، أو التي يُلصقها بهم على سبيل التُّهَم، عامدًا في كلّ ذلك إلى إنزالهم إلى مرتبةٍ تصنيفيةٍ مُعيّنة من السِّلَّم الاجتماعيّ. ونوضح هنا أنَّ التَّصنيف ينطوي على أحكامٍ قيميَّة بالضَّرورة، وليس مُجرَّد توصيفٍ مُحايد؛ "إذْ يتحوّل الخصم بموجب هذا الوصف عن طبقته الاجتماعيَّة الرَّفيعة إلى طبقة أقلّ من طبقة الشَّاعر (هي طبقة الصُّناع وأصحاب الحِرَف)، وهي طبقةٌ لم تحظَ في الثَّقافة العربيَّة بالتكريم

(١) مصطفى حجازي، "الإنسان المهدور"، ص ٤٧.

والاحترام"[١]. ولم تتغيّر نظرة العصبيَّة إليها؛ لأنَّ العصبيّة "مدفوعة بدينامية الجمود والعادة والتَّقليد والحفاظ عليهما، ورفعهما إلى مرتبة القيم موضع التقدير والفخار"[٢].

وقد عَيَّرَ الفرزدق مهجوّيه بما يُعيّر الجاهليُّ به الجاهليَّ من حيث المِهْنَة أو النَّسَب[٣]، ولهذا فَأَوْجَعُ ما رآه ماسًّا بشرف محمد بن عبد الرحمن بن الأشعث الثائر على بني أُميَّة تهمته بـ"الحياكة"، هذه الحرفة التي رآها جديرةً بسحب كلّ امتيازات هذا المُتمرّد، وإخراجه من دائرة مُنافسة بني أُميّة[٤]:

وهُمْ مَائْتَا أَلْفٍ ولا عَقْلَ فيْهُمُ ولا رأيَ مِنْ ذي حِيْلةٍ لو تَفَكّرا

يَسُوقُونَ حَوَّاكًا لِيَسْتَفْتِحُوا بِهِ عَلَى أَوْلِيَاء اللهِ مِمّنْ تخيّرا

فجعل الحياكةَ عارًا لا يكون معه جدارة، وتوجّهَ بالاستنكار إلى أتباع ابن الأشعث الكُثُر المُنوَّمين الذين قبلوا بأنْ يسودهم هذا الحائك الغائب على مستوى القيمة والخطاب، آبيًا الاعتراف بقيادته لهم، فهو وإنْ تقدّمهم يتقدّم برتبة المفعول لا الفاعل "يسوقون حوَّاكًا". ثمَّ يُقابل الفرزدق هذا الثَّائر المنبوز مهنيًّا برفيعي المِهَن والنَّسَب الذين ذكر أنَّ اختيارهم أمرٌ إلهيّ، وكأنّما يزعم أنَّ اختيار الخالق وقع عليهم؛

(١) هند بن عبد الرزاق المطيري، "النفي في نقائض جرير والفرزدق (دراسة أسلوبية)". (الرياض: مركز حمد الجاسر الثقافي، ٢٠٠٨م)، ص ٥٩٤.

(٢) مصطفى حجازي، "التخلّف الاجتماعيّ: مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور"، (ط١٠، الدار البيضاء: المركز الثقافيّ العربيّ، ٢٠٠٧م)، ص ٤٧.

(٣) طرد الفرزدق لمَنْ يغضبه من أبناء القبائل وغيرهم من شرف النَّسب العربي، والتهمة باحتراف عملٍ غير الفروسية من الصِّناعات التي يعدُّها الفرزدق ساقطة كالصيد في البحر والحياكة وعصر الزيت، كثير في شعره. ينظر على سبيل المثال: الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص ٦٥، و"شرح الديوان"، ١: ٣٥٠-٣٥٢.

(٤) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٤٠٠.

بسبب هاتين الميزتين.

وعلى الطريقة ذاتها في الاستنكار المُتعالي، يتوجّه الفرزدق إلى المُهَلَّب بن أبي صفرة الأزديّ، وهو واحد من أظهر أبطال عصره، ومن أشدّ شجعانهم، وأحد كبار قادة الدولة الأموية، ويكاد يكون أهمّ من تصدَّى للخوارج، فمزّق شملهم، لكن كل ذلك لم يشفع له أمام عصبية الفرزدق الإقصائية(١).

والهجاء والمدح والفخر إنّما يكون بما تراه المُخيّلة الثقافيّة مظنّةً لذلك، والشَّاعر مُحفّزٌ لهذه المُخيّلة، ومُثيرٌ لها، وربّما يجوز لنا القول إنه وصيٌّ عليها يُوقظها من مرقدها كلما غفتْ؛ ولهذا جَعْل الفرزدق "الأعرابيَّة" المُنغلقة المُتطرِّفة في تصحّرها وجفائها، مرجع الفضيلة، وشرف الانتماء، وعلامة الإنسانيّة الحُرَّة(٢). وقد تناول هذا الشَّاعرُ النَّسَقيُّ جوانبَ سُلوك الأعراب في ملبسهم، ومأكلهم، وخُلُقهم الجافي، وعبادتهم، وجَعَلَ التبعيَّة والاستنساخ قيمةً وجودية(٣)؛ ولهذا فإنَّ نَفْيَه المُهلَّب منها يعني نَفْيَه من القيمة، ومن النَّسَب الشَّريف، وتجريده من النُّبْل. وحين طَرَدَ المهالبةَ من النَّموذج الأعرابيّ فإنّما طَرَدَهم من العربيَّة، فهو نَفْيٌ من الوجود في ذلك العالم الأُمويّ الذي يُعَدّ الانتساب فيه إلى هذا النَّموذج أعْلَى ما تبلغه همّة طالبِ مجد. والفرزدق متيقّنٌ أنَّه بفعله هذا يُمعن في قهر المهجوّ وإسقاطه وإيجاعه، فشاعرٌ كهذا الفحل الذي

(١) السابق، ص ٣٩-٤١.

(٢) كما في هجائه للمهلب وقومه، فقد كانت خطيئة قوم المهلب أنهم مجاورون للبحر في عمان لا منقطعين في الصحراء، وهذه تقرّبهم إلى أنْ يكونوا من ممتهني السفن والصيد.

(٣) ينظر: المرجع السابق نفسه. وعددٌ من هذه الصِّفات الأعرابية التي يُجمّلها الفرزدق كانت مادّةً دسمة لأبي نواس عيّر بها العرب، الأمر الذي يؤكِّد جناية بعض الشعراء من أمثال الفرزدق على الفكر العربيّ، وإسهامهم في تعطيل حركته، وشدّ المجتمع إلى الخلف، ومقاومة تعاليم الإسلام الدَّاعية إلى الخروج من ربق الجاهلية.

يُدرِّب خصمه جريرًا –في لحظة تعصّبٍ له أمام شاعر من خارج القبيلة– على طريقة الهجاء المُسقِطة للخصم: "إيتِ التَّيْمِيَّ من عَلُ كَمَا أصنعُ بك أَنا"(١)، لا يهجو بغير ما يثق بأنَّه يجد عند المتلقّي قبولًا، ويراه قولًا فصلًا.

وقد كان مفتاح التّهم التي تحطّ من قدر المُهلَّب، في نظر الشاعر، أنَّه من أهل السّفن والصَّيْد لا خيول الحرب –إضافة إلى نَفْيه من النَّسَب العربيّ– وهي تهمة كرّرها في هجائيّاته المُهَلَّب وأسرته وأقاربه، ولو لم يكن يراها عارًا ومنقصةً، ولولا أنَّه يعرف أنها في مُخيّلة الجماعة كذلك لما ركّز عليها.

بل إنّ المهجوين أنفسهم يشتركون مع الفرزدق في هذه المُخيّلة، ويُضمرون شُعورًا بدونيّة المهن التي يُنسبون إليها، فقد "أتى الفرزدقُ خالدَ بن عبد الله القسريّ يستحمله في دياتٍ حملها، فقال: إيه يا فرزدق، كأني بك قد قلت: آتي الحائك ابن الحائك فآخذ من ماله إنْ أعطاني، أو أذمّه أنْ منعني، فأنا حائك ابن حائك، ولست أعطيك شيئًا فاذممني كيف شئت، فهجاه بأشعارٍ كثيرة"(٢). وموطن الاستشهاد هنا قول القائد (فاذممني) مُعترفًا للفرزدق بأنّ هذه المهنة مدخلٌ للذمّ، ومادّةٌ صالحةٌ للهجاء، وقد استمسك بها الفرزدق.

ويشترك مع مهنة الحياكة في ذلك أيضًا رَعْي الإبل والشَّاء، فهو يهجو بها على طريقة طبقيّي العرب قديمًا وحديثًا، منها(٣):

(١) محمد بن سلّام الجمحي، "طبقات فحول الشعراء". تحقيق محمود محمد شاكر، (القاهرة: دار المدني، د.ت)، ٢: ٤٣٣.

(٢) الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص٤٦١

(٣) الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"،١: ١٠٩–١١٠. والخلايا: النوق. والوطب: سقاء اللبن. والعلبة: قدح ضخم من الجلد. السقاب: السقب: ولد النّاقة.

لَقَدْ كانَ فِي شُغْلٍ أَبُوْكَ عَن العُلَى ضُرُوْعُ الخَلَايَا صَرُّهَا وَاحْتِلابُهَا

وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا عَبْدُ وَطْبٍ وَعُلْبَة تَحِنُّ إِذَا ما النِّيْبُ حَنَّتْ سِقَابُهَا

وهو كثيرًا ما يربط بين الرّعي والعُبُوديّة، كما في هجائه الرّاعي النُّميريّ(١).

ويخصّ الفرزدق رَعْي الغنم بالعيب المُضاعَف على طريقة الجاهليين(٢):

رِعَاءُ الشَّاءِ زَيْدُ مَنَاةَ كانُوا بكَاظِمَةِ العِرَاقِ بَنِي لَكَاعَا

وَلَوْ شَهِدَتْ بَنِي ذُهْلٍ لحَامُوا عَلَى أَحْسَابِ ضَبَّةَ أَنْ تُضَاعَا

ولأنّ ذاكرته مُتخمة بالنموذج الجاهليّ، فلم يجد أوغل في هجاء زيد مناة من وصفهم برعي الغنم الذي يمثّل عنده القاع الاجتماعيّ، ويستصحب الإقرار بالذّلّ، وغياب المحاماة والنّخوة، مُتغافلًا عن النُّصُوص الدينيّة التي تحدّثت عن رعي الغنم، وإشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى أنه مهنة الأنبياء، وتطبيقه صلى الله عليه وسلم لذلك ممارسة على أرض الواقع(٣).

ويهجو الفرزدق كُلَيْبًا (قبيلة جرير) بأنّهم لئام النَّاس وشرارهم، فهم أهل حمير لا أهل جياد وفروسيّة(٤). وغالبًا ما يقترن باقتناء الحمير رَعْيُ الغنم؛ ولهذا يُستثار الشَّاعر حين يرَى صاحب الغنم مُتوشّحًا سلاحًا، فينتقل من الجدّ إلى السّخرية والتهكّم بهذا

(١) ينظر: المرجع السابق، ١: ٣٠٠. الضهد: القهر والغلبة. الحذف القهد: الغنم الصغيرة

(٢) ينظر، مثلا، المرجع السابق، ٢: ٥٢، ١٦٢.

(٣) عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ"، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: "نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ". البخاري، "الجامع المسند الصحيح "، ٣: ٨٨.

(٤) ينظر –على سبيل المثال لا الحصر، فهذا كثير في شعره–: الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص١٦٠.

الزّيّ غير المألوف، ويُمعن الهزء بهذه الصّورة النّشاز(١).

والمروءة عند الفرزدق والنّبل لا يكادان ينفصلان عن القُدرة على القُوَّة، وكأنَّ عدم القيام بالعُنْف عجزٌ ينفي الإنسانية، وهو في هذا يتحدّث كما يتحدّث الجاهليُّ إلى أنْ ألفَ القوم هذا الخطاب إلفًا جعلهم يذهلون عن التعديلات التي أجراها عليه الإسلام.

وحين غضب الفرزدق على مَنْ أشار بإنقاص جائزته، نفاه من القبيلة العربيّة التي ينتسب إليها، ورماه بتهمة امتهان عصر الزّيت في حوران(٢).

و"الأعرابيّة" المنقطعة في صحرائها -بحدودها المكانية وقيمها وفكرها- والتي لا تختلط بغيرها، ولا يمتّ إليها عرقٌ أجنبيّ هي علامة التّفوّق عند الفرزدق؛ ولهذا نفَى خصمه إلى الشّام، واختلق له مهنةَ عصر الزّيت. وإشارته إلى نفي الدّهناء، وزعم إنكارها للمهجوّ، ذات شأن في هذه القضيّة، فالدّهناء مقرّ الأعرابية المتفرّدة في مكانها التي لا تشوبها شائبة(٣).

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٥٦٦.

(٢) ينظر: الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٨١-٨٣.

(٣) يقول المُبرّد: "حدّثت أنَّ أعرابيًّا من بني العنبر سار إلى سوّار [القاضي] فقال: أبي مات، وتركني وأخًا لي -وخطّ خطّين في الأرض- ثم قال: وهجينًا -وخط خطًّا ناحية- فكيف نقسم المال؟ فقال: أههنا وارثٌ غيركم؟ قال: لا، قال: المال بينكم أثلاثًا، فقال: لا أحسبك فهمت عني! إنّه تركني وأخي وهجينًا لنا، فقال سوّار: المال بينكم أثلاثًا، قال: فقال الأعرابيّ: أيأخذ الهجين كما آخذ، وكما يأخذ أخي؟! قال: أجل! فغضب الأعرابي، قال: ثمّ أقبل على سوّار فقال: **تعلم، والله إنّك قليل الخالات بالدّهناء**، فقال سوّار: إذًا لا يضيرني ذلك عند الله شيئًا". فالأعرابيُّ يُشير إلى أنّ الدهناء أرضٌ خاصّة بمحض العرب، ومَنْ فيها حرائر ليست بينهن أَمَة، ومُراده أنّ سوّارًا لا ينتمي فكرًا ولا أصلًا صافيًا إلى تلك =

والتّهمة بالحرفة (عصر الزّيت) هي إذلالٌ لصاحبها، لأنّها نفي له عن الفروسيَّة أوّلًا، وعن العربيَّة ثانيًا، والجاني يصبح أقاربه كلهم جُناة، على طريقة القبيلة الجاهلية. والطّرد من القبيلة/العربية، عنده، طردٌ من الكرامة والقيمة والوجود. وعاصرو الزيت من أهل حوران –في نظر الشّاعر الفحل– قيمةٌ دُنْيا.

وإذا كان يكثر عنده رمي المنفيّ من القبيلة بامتهان هذه المهن، فإنّ موقفه من كلّ من ليس منتسبًا إلى القبيلة العربيّة أشدّ. وانطلاقًا من هذه التصوّرات، فإنَّ المختلف عرقًا ولونًا يمثّل، عنده، أدنى درجات السلّم الاجتماعي، فيزدري العِرْق الأسود؛ بناءً على لونه وأصله، ولا يقصر عدم أهليّة السُّود على الفعل فقط، وإنّما أيضًا يُجرّدهم من القُدرة على الإبداع، فالأسود ليس مُؤهَّلًا، في نظره، للفعل ذي القيمة ولا لبليغ القول(١):

وخَيْرُ الشِّعْرِ أَكْرُمُه رِجَالًا وشَرُّ الشِّعْرِ ما قَالَ العَبِيْدُ

وقد كان "الشِّعْر العربي هو السَّاحة الرَّئيسة لثنائيَّة الصِّراع/الاستعباد... حيث الشعر هو "الأروقة العربية" المطلقة في هذه الفترة، والشّاعر هو صوت القبيلة ولسان حالها، وهو مُثقّفها وفارسها. ولابد من أنْ نتصوّر ضرورة استبعاد السُّود عن هذه السَّاحة تمامًا حتى لو تسلَّل البعض إليها خلسة"(٢). وهذا ما يؤكّده شعر الفرزدق؛

=

البقعة. وكما ترى فذهنيّة الفرزدق لا تختلف –حين يغضب وينبز– عن ذهنيّة ذلك الأعرابيّ ومُنطلقاته. ينظر: المبرد، "الكامل"، ٢: ٣٨.

(١) ابن رشيق، "العمدة"، ١: ٧٤.

(٢) حلمي شعراوي، "صورة الأفريقي لدى المثقف العربي: محاولة تخطيطية لدراسة ثنائية قبول/استبعاد، ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه". تحرير الطاهر لبيب، (ط٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م)، ص٢٣٧.

لأنّ "الشّاعر الفحل يبذل الجهد كلّه في حماية السّموّ الطبقيّ للفئة الفاضلة... [فقد] استكثر على الشّعراء الصّغار قول أبيات هي أليق بالكبار"(١). وهو نفسه الذي احتكر تفسير الشّعر، وأبى أنْ يتطاول على نقد شعره مَنْ رآه " مَوْلَى مَوَالِيَا"..."(٢).

والسُّوْد، عند الفرزدق، مَنْفَى للمُخلّين بشُروط المُروءة العربيّة، ومَجْمَعٌ للنّقائص(٣)، وغاية ما يبلغه من إسقاط مهجوّه أنْ ينفيه إلى عالم السَّواد، وأنْ يُضفي عليه الملامح الغالبة على هذا العِرْق بعد أنْ يُلوّنها بمرسامه، فيُضخّمها تضخيمًا تقبيحيًّا،، ويُشكّلها تشكيلًا يختلط فيه الإنسانيّ بالحيوانيّ، فيجعل هذا المنفيَّ "زِنْجِيًّا غَلِيْظًا مَشَافِرُه"(٤)، أو أنّه ابنُ "زِنْجِيَّةٍ بَظْرَاء"(٥). وقد تمكّن الشّاعر الفحل –ممثّل الثقافة– من تمثيل الأسود تمثيلًا سلبيًّا في وقتٍ افتقد فيه أكثر السُّود إلى أدواتٍ تمكّنهم من تمثيل أنفسهم، وتقديم ذواتهم، ممّا جعل الفرزدق ورفاق رؤيته يبرزون هذا الأسود كما تتصوّره ثقافة البيض المُتعالية، لا كما هو في واقعه(٦).

وازدراء الفرزدق للمنفيّ إلى جزيرة السَّواد، مع حدّة موقفه منه، ليس أكثر من ازدرائه لمن ينتسب إلى هذا الجنس حقيقةً، فهو مُقتنعٌ اقتناعًا لا يُلابسه شكٌّ في أنّ هذا العِرْق وضيعٌ في أصل خلقته، وأنّه لا صلة بينه وبين معالي الأمور؛ ولهذا فهو يُسجّل ارتيابه من احتلال الأسود مكانًا في مُقدّمة المجلس، فجلوس هذا الأسود في

(١) الغذامي، "النقد الثقافيّ"، ص١٣٨.

(٢) ينظر: ابن قتيبة، "الشعر والشعراء"، ١: ٩٠. والبيت:

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللهِ مَوْلَىَ هَجْوَتُهُ وَلَكِنَّ عَبْدَ اللهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

(٣) ينظر: الأصفهاني، "الأغاني"، ٢١: ٣٣٢.

(٤) ينظر: المرجع السابق نفسه.

(٥) ينظر: المرجع السابق نفسه.

(٦) ينظر: كاظم، "تمثيلات الآخر"، ص١٦٥.

الصّدارة، وإنْ كان في مجلس شراب، "مَذَلَّةٌ" للحاضرين، و"رأسهُ في الإكْلِيْلِ إحدَى الكَبَائِر"(١).

والعُبوديّة، بشكل عامّ، مقرونةٌ في مُدوّنته الشِّعْرية بالرَّذائل واللُّؤم والدَّناءة والغباء، وإليها يطرد كثيرًا ممّنْ يغضب عليهم، فيُسقِط قيمتهم(٢):

والبَاهِلِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ حَلَّهَا عَبْدٌ يُقِرُّ عَلَى الهَوَانِ المُجْلِبِ

وكأنّما هذه الظاهرة ناتجةٌ عن الطِّبَاع الخسيسة، وليست وليدة سياقاتٍ ظرفيّة قاهرة أدّتْ إلى استعباد فئاتٍ من البشر تحت وطأة القُوَّة والغَلَبَة، ولهذا فالنُّبْل حليفُ "مَنْ لَمْ يَدْرِ مَا طَعْمُ ثَدْيَيْ أُمِّ أَوْلَادِ"(٣)، والمروءة قرينة الحُرِّيَّة، بينما العبودية لازمة الدناءة وعدم الغيرة، وضعف النّخوة(٤).

والعَبْد، في شعره، ليس قادرًا على حماية نفسه، ومن ثَمَّ فحمايته لغيره ملحقةٌ الهوان بهم، وغير مُستغرَب أنْ يكون اللائذ بحمَى العبد دونًا(٥):

غَضِبْتُم عَلَيْنا أنْ عَلَتْكُم مُجَاشِعٌ وكَانَ الذي يَحْمِي ذِمَارَكُمُ عَبْدَا

على أنّه لا يفوتني الإشارة إلى أنّ الفرزدق كغيره من شُعراء العرب القُدماء لا

(١) ينظر: الأصفهاني، "الأغاني"، ٢١: ٣٧٥.

(٢) ينظر، مثلا، الفرزدق، "شرح ديوان الفرزدق"، ١: ٦٢. المجلب: الملازم. وينظر، أيضًا، ١١٠، ٢٥٧، والفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص١٧٤. وهذا كثيرٌ في شعره.

(٣) الفرزدق، "ديوان الفرزدق"، ص١٨٨. يشير إلى أنَّ أُمّه حُرَّة وليست أَمَة، وكأنما هوان العبودية يجري مع حليب المرضعة، وهذا مبالغة في ازدراء العبودية، وتأكيدٌ لوضاعة المنتسبين إليها.

(٤) ينظر: المرجع السابق، ص٢٢٥. الحفيظة: الغضب من كلّ ما يمس الذات أو المحارم، والأنفة للنفس من الهوان.

(٥) المرجع السابق، ص١٧٠.

يكادون يفصلون بين العُبُوديّة والسّواد، ولا أنْ يضعوا بينهما أي حدود مُؤطِّرة، فالسَّواد، في تصوّراتهم، قرين العُبُوديّة، وحين يهجو شاعرٌ قديمٌ هذه الظاهرة، فإنّه يعيب السَّواد معها، فتحضر في ذهنه صُورة الأسود كلّما حضرت صُورة العبد، فهم يجعلون "السَّوادَ نقيضًا لكلّ قيم البياض، وضِدًّا لكلّ مُقوّمات الأبيض النَّبيل"(١). وهو ما أكّده الفرزدق في أكثر من موقف.

والفرزدق في موقفه من السَّواد/العبوديّة يتنكَّر للموقف الإسلامي من هذه القضيّة، فيستعيد النّظرة الجاهليّة، ويُذكِّر بمزاعم وجاهتها، ويجد خطابُه ترحيبًا يُرسّخ صُورة الأسود الدونيَّة التي مثّلته بها الثّقافة العربيّة، فتصبح هي الصُّورة المُهيمنة الغلّابة. وأفكار أي طبقة مُسيطرة تظلّ أفكارًا مُسيطرة حينما تُضفي على نفسها صفةَ الكونيّة(٢). ومن ثمَّ "تُقْبَل دون أنْ تُناقَش؛ لهذا لم يجد العربيّ الأبيضّ العنصريّ صُعوبةً في أنْ يقرنَ بنسَبه وقِيَمه كُلَّ فِعْلٍ ذي قيمة، ويربط بنقيضه الأسود قُبح اللون والمحْتِد والفعال"(٣).

واتّكاء الفرزدق على القيم الجاهليّة، ومجافاته للنَّسَق الإسلامي، في مثل هذه المواضع الخاصَّة بالعلاقة بين الذَّات والآخر، وتوجّهه بالاستنقاص والذمّ إلى قاداتٍ فاعلةٍ في المجتمع كالمُهلَّب وخالد القسريّ، يُبدي لنا، عند تأمّله، دلالاتٍ أخرى

(١) صغيّر العنزي، "خطاب العنف وعنف الخطاب: قراءة ثقافية في الأمثال العربية". (عمّان: دار كنوز المعرفة، ٢٠٢٣م)، ص٦٧.

(٢) ينظر: بول ريكور، "من النصّ إلى الفعل: أبحاث التأويل". ترجمة محمد برادة، حسان بن بورقية، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية العلمية والاجتماعية، ٢٠٠١م)، ص٣٠٣.

(٣) صغيّر العنزي، "خطاب العنف"، ص٦٧.

حافّة، ودوافع مُضمرة، تتّصل بثنائية الشّعر والفِعْل[١]، ونعني بذلك أنَّ فرار الفرزدق من الواقع إلى الإرْث ربّما كان له صلةٌ بأنَّه ليس فارسًا فاعلًا كما هو حال واقع المُهلَّب بمنجزاته الفخمة التي شهدها معاصرو هذا القائد، وكونه يُدرك جيّدًا أنّه لا يملك من قيمة الحاضر إلّا "لِسَانه" في مُجتمعٍ يُقدّر الفِعْل؛ لذلك فرّ إلى الماضي؛ لأنَّ منجز آبائه كان ضخمًا، فتمكّن أنْ يجعله مُنجَزًا له، وأنْ يضمَّ إليه مُنجَز قبيلته/ تميم، حاضرها وماضيها، وأنْ يُعمّي بهذا المسلك بذكائه وقدرته البلاغيّة، فيكون كأنّه هو الفاعل والمُنْجِز والمرجع كما وضّحنا في مبحث آخر[٢]. وهذا ما فعله مماثلون له في العصر الأُمويّ.

وإضافة إلى ذلك، يمكن أنْ يكون المناخ السياسيّ السّائد دافعًا لمثل هذا المنحَى القائم على التغنّي بمجد الأجداد الجاهليّين، وجعل النموذج الجاهليّ نموذجاً أمثلَ مرغوبًا فيه، فهذا ممّا يروق سلاطين بني أميَّة، فهم في الأجداد والعمل الجاهليّ مع بني هاشم كفَرَسَي رهان، كما يقولون، وإنما ميّز بني هاشم، في نظرهم، ظهورُ نبيٍّ منهم[٣]. وهذا مُهِمّ في تفاضل المتنافسين على الحُكْم (الخلافة)، خاصَّة إذا علمنا أنَّه

(١) ينظر: صغيّر العنزي، "الشّاعر مُستعيدًا أباه".

(٢) ينظر: المرجع السابق.

(٣) يروي الذَّهبي بسنده أنَّ "الأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ أَتَى أَبَا سُفْيَانَ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا، وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا، فَقَالَ الْأَخْنَسُ: وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتَ بِهِ، ثُمَّ أَتَى أَبَا جَهْلٍ فَقَالَ: مَا رَأْيُكَ؟ فَقَالَ: مَاذَا سَمِعْتَ؟ تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ، أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكَبِ، وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ. قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُدْرِكُ هَذِهِ، وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ". محمد بن أحمد الذهبي، "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام". تحقيق عمر عبد السلام التدمري، (ط٢، =

سيكون لأسبقيَّة الإسلام قيمتها في هذا الجانب، وعليّ رضي الله عنه، وعدد من بني هاشم سابقون، وعليه يُقاس أبناؤهم، والعودة إلى المحضن الجاهليّ تحجب هذه الفروقات، وتُساعد على وجاهة الحكم الأمويّ وقبوله وتوطيده من مُنطلقات تماثل السُّؤدد لا الموقع من الدّين.

=

بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣م)، ١: ١٦١.

وإذا كان هذا رأي سيّد مخزوم في منافستهم لبني عبد مناف، فرأي سادة أُميَّة، وهم الأشدّ تنافسًا مع بني عمومتهم من هاشم لن يكون مختلفًا.

الخاتمة:

انصرف البحث إلى قراءة نسق العصبيّة على نحو ما تجلَّى في شعر الفرزدق، آخذًا في حسبانه العلاقة بين هذا النسق والنسق الإسلاميّ المضادّ له، ومحاوِلًا بيان قوّة النسق في اختراق المؤسّسات القائمة على التنديد به أساسًا، وقد توسّل في ذلك بفرضيّةٍ تقضي بقدرة الجميل الشعريّ/البلاغيّ على تغطية القبيح الثقافيّ، وإعشاء النواظر عنه، حتى بات نسق العصبيّة، بكلّ ما يحفّ به من موبقات ثقافيّة/ اجتماعيّة، نسقًا مقبولًا ورائجًا.

وقد حاول البحث تجلية قدرة النسق على استغلال المُستجدّات التي تُقدّسها الجماعة وتتهيّبها، كالدين الجديد، والدولّة الجديدة، فوقف على الكيفيّة التي حوّل بها الفرزدق الديانةَ وإمامةَ الناس إلى عملٍ عصبيّ تفاخريّ محض، وكذا تصييره مشهد الحجّ الروحانيّ مشهدًا تفاخريًّا إقصائيًّا.

مثلما بدت مؤسّسات الدولة أيضًا، في شعره، منخرطة في خدمة معنى العصبيّة، فالحاكم، وجيش الدولة، والفتوحات، تظهر وكأنّها تعمل لصالح العصبة، عوض كونها لصالح الجموع المحكومة دون تفريق.

وقد سلّط البحث الضوء على دور نسق العصبيّة في بناء العلاقات الاجتماعيّة بناءً أساسه تقويض الآخر، ورفضه، ونبذه، وسوء تمثيله.

ويمكن إجمال أبرز النتائج التي انتهى إليها هذا العمل فيما يلي:

- حاول الفرزدق إعادة تنشيط نسق العصبيّة عبر الالتصاق بالمقدّس والغُنم مما يتمتّع به من سلطة رمزيّة، ورصيدٍ مكينٍ يدفع بالمتلقّين إلى التسليم والإذعان، وكان ذلك بمعاونة الجميل البلاغيّ.
- تعبّر العصبيّة في جوهرها عن موقف رافض للآخر، ومن ثمّ فإنّها تسعى جاهدة للتصنيف وسوء التمثيل الذي يفضي إلى النبذ والإقصاء.

- نسق العصبيّة يملك من المرونة والقوّة ما يُؤهّله لفرض ذاته عبر المنابر المناهضة له أساسًا.

وقد ركّزنا في قراءتنا لنسق العصبيّة على دوره في صياغة الموقف من الآخر الذّكَر دون الأنثى، لأنّ العصبيّة قائمة على رباطٍ ذكوريٍّ بالدرجة الأولى، ولأنّ قضيّة المرأة في شعر الفرزدق تستدعي بحثًا مستقلًّا، وعسى أنْ يكون ذلك قريبًا.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

المصادر:

الفرزدق، همّام بن غالب:

- "ديوان الفرزدق". شرحه وضبط نصوصه وقدَّم له عمر فاروق الطبّاع. (بيروت: شركة الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٧م).
- "شرح ديوان الفرزدق". ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي. (لبنان: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٩٨٣م).

المراجع:

أوّلًا: الكتب:

الألباني، محمد ناصر الدين. "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه". (جدة: دار باوزير للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م).

البخاري، محمد بن إسماعيل. "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: صحيح البخاري". تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. (بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ).

البغدادي، عبد القادر بن عمر:

- "خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب". تحقيق عبد السلام محمد هارون. (ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م).
- "شرح أبيات مغني اللبيب". تحقيق عبد العزيز رباح، أحمد يوسف دقاق. (بيروت: دار المأمون للتراث، ١٣٩٣هـ).

البَلَاذُريّ، أحمد بن يحيى. "جمل من أنساب الأشراف". تحقيق سهيل زكار ورياض

الزركلي. (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م).
الجابري، محمد عابد. "العقل الأخلاقي العربي (دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية)". (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١م).
الجمحي، محمد بن سلّام. "طبقات فحول الشعراء". تحقيق محمود محمد شاكر. (جدة: دار المدني، د.ت).
حجازي، مصطفى:
- "الإنسان المهدور: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية"، (الدار البيضاء- بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م).
- "التخلّف الاجتماعيّ: مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور". (ط١٠، الدار البيضاء: المركز الثقافيّ العربيّ، ٢٠٠٧م).
حسين العودات، "الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين". (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٠).
خليل، خليل أحمد. "المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع". (بيروت: دار الحداثة, ١٩٨٤م).
الذهبي، محمد بن أحمد. "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام". تحقيق عمر عبد السلام التدمري. (ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣م).
الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. "دليل الناقد الأدبيّ: إضاءة لأكثر من سبعين تيّارًا ومصطلحًا نقديًّا معاصرًا". (ط٥، الدار البيضاء – بيروت: ٢٠٠٧م)،
ريكور، بول. "من النصّ إلى الفعل: أبحاث التأويل". ترجمة محمد برادة، حسان بن بورقية. (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية العلمية والاجتماعية، ٢٠٠١م).
الزبيدي، محمّد مرتضى الحسيني. "تاج العروس من جواهر القاموس". تحقيق علي

هلالي. (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١م).

شعراوي، حلمي. "صورة الأفريقي لدى المثقف العربي: محاولة تخطيطية لدراسة ثنائية قبول/استبعاد، ضمن كتاب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه". تحرير الطاهر لبيب. (ط٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م).

الطبري، محمد بن جرير. "تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م).

عبد الفتاح، إمام. "أرسطو والمرأة". (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م).

العنزي، صغيّر. "خطاب العنف وعنف الخطاب: قراءة ثقافية في الأمثال العربية". (عمّان: دار كنوز المعرفة، ٢٠٢٣م).

الغذاميّ، عبد الله. اصطيف، عبدالنبيّ. "نقد ثقافيّ أم نقد أدبيّ". (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤م).

الغذامي، عبد الله. "النقد الثقافيّ: قراءة في الأنساق الثقافيّة العربيّة". (ط٥، الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، ٢٠١٢م).

أبو الفرج الأصفهاني، "الأغاني". تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، محمود محمد غنيم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م).

فيّود، بسيوني عبد الفتاح، "علم المعاني: دراسة بلاغيّة ونقدية لمسائل المعاني". (ط٣، القاهرة: مؤسسة المختار، ٢٠١١م).

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. "الشعر والشعراء". تحقيق أحمد محمد شاكر. (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٦م).

القشيري، مسلم بن الحجاج. "صحيح مسلم". تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. (القاهرة: دار الحديث، ١٩٩١م).

القيرواني، الحسن بن رشيق. "العمدة في محاسن الشعر وآدابه". تحقيق محمد محيي

الدين عبد الحميد. (ط٥، بيروت: دار الجيل، ١٩٨١م).
القيرواني، عبد الكريم النهشلي. "الممتع في صنعة الشعر". تحقيق محمد زغلول سلام. (الإسكندرية، منشأة المعارف).
كاظم، نادر. "تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيّل العربيّ الوسيط". (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، البحرين: وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطنيّ، عمّان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م).
المبرد، محمد بن يزيد. "الكامل في اللغة والأدب". تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. (ط ٣، القاهرة: دار الفكر العربي،١٩٩٧م).
المثنى، أبو عبيدة معمر. "شرح نقائض جرير والفرزدق". تحقيق محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص. (ط٢. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٨م).
المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران. "الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء". تحقيق علي بن محمد البجاوي. (القاهرة: دار نهضة مصر).
المطيري، هند بن عبد الرزاق. "النفي في نقائض جرير والفرزدق (دراسة أسلوبية)". (الرياض: مركز حمد الجاسر الثقافي، ٢٠٠٨م).
المغربي، أحمد بن محمد بن يعقوب. "مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح". تحقيق خليل إبراهيم خليل. (بيروت: دار الكتب العلمية).
منصور، فوزي. "خروج العرب من التاريخ". ترجمة ظريف عبد الله، وكمال السيد. (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٣م).
ابن منظور، محمّد بن مكرم جمال الدين. "لسان العرب". تحقيق أمين محمّد عبد الوهاب، محمّد الصادق العبيديّ. (ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، ومؤسّسة التاريخ العربيّ، ١٩٩٩م).
نصار، ناصيف. "التعصب الفردي والتعصب الجماعي، ضمن مجموعة مؤلفين، أضواء على التعصُّب (من أديب إسحاق والأفغاني إلى ناصيف نصار)". مجموعة

مؤلفين. (بيروت: دار أمواج، ١٩٩٣م).
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية. "الموسوعة الفقهية الكويتية". (الكويت: مطابع دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م).
ويتمر، باربرا. "الأنماط الثقافية للعنف". ترجمة ممدوح يوسف عمران. (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، مارس ٢٠٠٧م).

ثانيًا: المجلات العلميّة:

الحارثي، نايف بن عبد العزيز. "الإطار الإيقاعي لنبرة الاستعلاء في شعر الفرزدق". مجلّة الدراسات العربيّة ٣، (٢٠١٨م): ١٦١٩-١٦٤٢.
الحلو، وسن منصور. "التنمر في شعر الفرزدق". حوليّات آداب عين شمس بالقاهرة أكتوبر- ديسمبر (٢٠١٨م): ١-١٦.
بنعبد العالي، عبد السلام. "عنف الوثوقيّة". مجلة يتفكرون٥، (خريف ٢٠١٥م): ١٠-١٢.
العنزي، صغيّر. "الشّاعر مُستعيدًا أباه: قراءة في تصورات الفرزدق للشعر". مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة ٤١، (٢٠٢٢م): ٢٠٨٧-٢١١٩.

ثالثًا: الرسائل العلميّة:

سطارة، الزهرة. "الأنساق الثقافيّة في شعر النقائض: نقائض الفرزدق وجرير نموذجًا". رسالة ماجستير غير مطبوعة. (جامعة قاصدي مرباح- ورقلة، الجزائر، ٢٠٢١م).
القبيسي، أيمن علي. "معارضة النسق في شعر أبي نواس: دراسة في ضوء النقد الثقافي". رسالة ماجستير غير مطبوعة. (قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الملك خالد، أبها، ٢٠١٥م).

Bibliography

Al-Qur'ān al-Karīm.

Sources:

Al-Farazdaq**,** hammām ibn Ghālib:

- "Dīwān al-Farazdaq". Commentary, review and foreword by: 'Umar Fārūq al-Ṭabbā'. (Beirut: Sharikat al-Arqam ibn Abī al-Arqam, 1997).
- "Sharḥ Dīwān al-Farazdaq". Reviewed, commentary and completed by: Īliyā al-Ḥāwī. (Lebanon: Dār al-Kitāb al-Lubnānī wa-Maktabat al-Madrasah, 1983).

References

First: Reference Books

Al-Albānī, Muḥammad Nāṣir al-Dīn. "Al-Ta'līqāt al-ḥisān 'alá Ṣaḥīḥ Ibn Ḥibbān wa-tamyīz saqīmihī min saḥīḥihi, wa shādhihi min maḥfūẓih". (Jeddah: Dār Bāwazīr lil-Nashr wa-al-Tawzī', 2003)

Al-Bukhārī, Muḥammad ibn Ismā'īl. "Al-Jāmi' al-Musnad al-ṣaḥīḥ al-mukhtaṣar min umūri Rasūl Allāh ṣallá Allāh 'alayhi wa-sallam wa-sunanihi wa-ayyāmih = Ṣaḥīḥ al-Bukhārī". Investigated by Muḥammad Zuhayr ibn Nāṣir al-Nāṣir. (Beirut: Dār Ṭawq al-najāh, 1422H).

Al-Baghdādī, 'Abd al-Qādir ibn 'Umar:

- "Khizānat al-Adab". Investigated by 'Abd al-Salām Muḥammad Hārūn. (Third Edition, Cairo: Maktabat al-Khānjī, 1997).
- "Sharḥ Abyāt Mughnī al-labīb". Investigated by 'Abd al-'Azīz Rabāḥ, Aḥmad Yūsuf Daqqāq. (Beirut : Dār al-Ma'mūn lil-Turāth, 1393h).

Al-Balādhurī, Aḥmad ibn Yaḥyá. "Jumal min ansāb al-ashrāf". Investigated by: Suhail Zakkār and Riyāḍ al-Ziriklī. (Beirut: Dār al-Fikr, 1996).

Al-Jābirī, Muḥammad 'Ābid. "Al-'Aql al-Akhlāqī al-'Arabī (dirāsah taḥlīlīyah naqdīyah li-nuẓum al-Qayyim fī al-Thaqāfah al-'Arabīyah)". (Beirut: Markaz Dirāsāt al-Waḥdah al-'Arabīyah, 2001).

Al-Jumaḥī, Muḥammad ibn Sallām. "Ṭabaqāt Fuḥūl al-Shu'arā'". Investigated by: Maḥmūd Muḥammad Shākir. (Jeddah: Dār al-

madanī, W.D.).

Ḥijāzī, Muṣṭafá:

- "Al-insān al-mahdūr: dirāsah taḥlīlīyah nafsīyah ijtimāʻīyah". (Casablanca - Beirut: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 2005).
- "Al-Takhalluf al-Ijtimāʻī: madkhal ilá saikulogiyyat al-insān al-maqhūr". (10th edition, Casablanca: al-Markaz al-Thqāfī al-ʻArabī, 2007).

Ḥusain al-ʻAwdāt, "al-ākhar fī al-Thaqāfah al-ʻArabīyah min al-qarn al-sādis ḥattá maṭlaʻ al-qarn al-ʻishrīn". (Beirut: Dār al-Sāqī, 2010).

Khalīl, Khalīl Aḥmad. "al-mafāhīm al-asāsīyah fī ʻilm al-ijtimāʻ". (Beirut: Dār al-ḥadāthah, 1984).

Al-Dhahabī, Muḥammad ibn Aḥmad. "Tārīkh al-Islām wa-wafayāt al-mashāhīr wa-al-aʻlām". Investigated by: ʻUmar ʻAbd al-Salām al-Tadmurī. (2nd edition, Beirut: Dār al-Kitāb al-ʻArabī, 1993).

Al-Ruwaylī, Mījān. Al-Bāziʻī, Saʻd. "Dalīl al-nāqid al-Adabī: Iḍāʼah li-akthar min sabʻīn tayyāran wa muṣṭalaḥan naqdiyyan muʻāṣiran". (5th edition, Casablanca – Beirut: 2007).

Ricœur, Paul. "From Text to Action Essays in hermeneutics". Translated by: Muḥammad Barādah, Ḥassān ibn Būruqayyah. (Cairo: ʻAyn lil-Dirāsāt wa-al-Buḥūth al-Insānīyah al-ʻIlmīyah wa-al-Ijtimāʻīyah, 2001).

Al-Zabīdī, Muḥammad Murtaḍá al-Ḥusaynī. "Tāj al-ʻArūs min Jawāhir al-Qāmūs". Investigated by: ʻAlī Hilālī. (Kuwait: Ministry of Guidance and Information in Kuwait - National Council for Culture, Arts and Literature, 2001).

Shaʻrāwī, Ḥilmī. " The image of the African among the Arab intellectual: a planning attempt to study the duality of acceptance/exclusion, within the book The Image of the Other Arab, Looking and being Looked at" (in Arabic). Edited by: al-Ṭāhir Labīb. (2nd edition, Beirut: Markaz Dirāsāt al-Wiḥdah al-ʻArabīyah, 2008).

Al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. "Tārīkh al-Ṭabarī Tārīkh al-Rusul wa-al-mulūk". Investigated by: Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm. (Cairo: Dār al-Maʻārif, 1967).

ʻAbd al-Fattāḥ, Imām. "Arisṭū wa-al-marʼah". (Cairo: Maktabat Madbūlī, 1996)

Al-ʻEnazī, Sughair. " Discourse of violence and violence of speech: a cultural reading of Arabic proverbs" (in Arabic). (Oman: Dār Kunūz al-Maʻrifah, 2023)

Al-Ghadhāmī, ʿAbdullāh. Aṣṭīf, ʻAbd-ālnabī. " Cultural criticism or literary criticism?" (in Arabic). (Damascus: Dār al-Fikr, 2004).

Al-Ghadhāmī, ʿAbdullāh. "Cultural criticism: a reading of Arab cultural patterns" (in Arabic). (5th Edition, Casablanca, Beirut: al-Markaz al-Thqāfī alʻArabī, 2012).

Abū al-Faraj al-Aṣfahānī, "Al-Aghānī". Investigated by: ʻAbd al-Karīm Ibrāhīm al-ʻAzbāwī and Maḥmūd Muḥammad Ghunaym, (Cairo: al-Hayʼah al-Miṣrīyah al-ʻĀmmah lil-Kitāb, 1993).

Fayyūd, Basyūnī ʻAbd al-Fattāḥ, "ʻilm al-maʻānī: Dirāsah balāghiyyah wa-naqdīyah li-masāʼil al-maʻānī". (3rd Edition, Cairo: Muʼassasat al-Mukhtār, 2011).

Ibn Qutaibah, ʻAbdullāh ibn Muslim. "Al-Shiʻr wa-al-Shuʻarāʼ". Investigated by Aḥmad Muḥammad Shākir. (Cairo: Dār al-ḥadīth, 2006)

Al-Qushayrī, Muslim ibn al-Ḥajjāj. "Ṣaḥīḥ Muslim". Investigated by: Muḥammad Fuʼād ʻAbd al-Bāqī. (Cairo: Dār al-ḥadīth, 1991).

Al-Qayrawānī, al-Ḥasan ibn Rashīq. "Al-ʻUmdah fī Maḥāsin al-Shiʻr wa-Ādābih". Investigated by: Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʻAbd al-Ḥamīd. (5th Edition, Beirut: Dār al-Jīl, 1981).

Al-Qayrawānī, ʻAbd al-Karīm al-Nahshaly. "Al-Mumtiʻ fī Ṣanʻat al-Shiʻr". Investigated by: Muḥammad Zaghlūl Sallām. (Alexandria, Munshaʼat al-Maʻārif).

Kāẓim, Nādir. "Tamthīlāt al-ākhar : Ṣūrat al-Sūd fī almtkhyyl alʻrbī al-Wasīṭ". (Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing, Bahrain: Ministry of Information, Culture and National Heritage, Amman: Dār al-Fāris lil-Nashr wa-al-Tawzīʻ, 2004).

Al-Mubarrid, Muḥammad ibn Yazīd. "al-Kāmil fī al-Lughah wa-al-Adab". Investigated by: Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm. (3rd edition, Cairo: Dār al-Fikr al-ʻArabī, 1997).

Al-Muthanná, Abū ʻUbaydah Muʻammar. "Sharḥ Naqāʼiḍ Jarīr wa-al-

Farazdaq". Investigated by: Muḥammad Ibrāhīm Ḥūwar, Walīd Maḥmūd Khāliṣ. (2nd Edition. Abu Dhabi: Al-Majma‘ al-Thaqāfī, 1998).

Al-Marzubānī, Abū ‘Ubaydallāh Muḥammad ibn ‘Umrān. "Al-Muwashaḥ fī Ma’ākhidh al-‘Ulamā’ ‘alá al-Shu‘arā’". Investigated by ‘Alī ibn Muḥammad al-Bajāwī. (Cairo: Dār Nahḍat Miṣr).

Al-Muṭayrī, Hind ibn ‘Abd al-Razzāq. "Al-Nafyu fī Naqā’iḍ Jarīr wa-al-Farazdaq (Dirāsah uslūbīyah)". (Riyadh: Markaz Ḥamad al-Jāsir al-Thaqāfī, 2008).

Al-Maghribī, Aḥmad ibn Muḥammad ibn Ya‘qūb. "Mawāhib al-Fattāḥ fī Sharḥ Talkhīṣ al-Miftāḥ". Investigated by Khalīl Ibrāhīm Khalīl. (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah).

Manṣūr, Fawzī. "Khurūj al-‘Arab min al-Tārīkh". Translated by Ẓarīf ‘Abdullāh, and Kamāl al-Sayyid. (Cairo: Maktabat Madbūlī, 1993).

Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram Jamāl al-Dīn. "Lisān al-‘Arab". Investigated by: Amīn Muḥammad ‘Abd al-Wahhāb, Muḥammad al-Ṣādiq al-‘Ubaidī. (3rd Edition, Beirut: Dār Iḥyā’ al-Turāth al‘rbī, wa Mu’ssasat al-tārīkh al-‘Arbī, 1999).

Naṣṣār, Nāṣīf. "Al-Ta‘aṣṣub al-Fardī wa-al-ta‘aṣṣub al-jamā‘ī ḍimna majmū‘ah mu’allifīn, Aḍwā’ ‘alá al-t‘ṣṣub (min Adīb Isḥāq wa-al-Afghānī ilá Nāṣīf Naṣṣār)". Majmū‘ah mu’allifīn. (Beirut: Dār Amwāj, 1993).

Wizārat al-Awqāf wa-al-Shu’ūn al-Islāmīyah. "Al-Mawsū‘ah al-Fiqhīyah al-Kuwaytīyah". (Kuwait: Maṭābi‘ Dār al-Ṣafwah lil-Ṭibā‘ah wa-al-Nashr wa-al-Tawzī‘, 1995).

Whitmer, Barbara. "Cultural patterns of violence". Translated by: Mamdūḥ Yūsuf ‘Umrān. (Kuwait: Silsilat ‘Ālam al-Ma‘rifah, March 2007).

Second: Scientific Journal

Al-Ḥārithī, Nāyif ibn ‘Abd-al-‘Azīz. " The rhythmic framework of the tone of superiority in Al-Farazdaq’s poetry". Journal of Arabic Studies 3, (2018) : 1619-1642.

Al-Ḥulw, Wasan Manṣūr. "Al-Tanammur fī Shi‘r al-Farazdaq". Annals

of the Faculty of Arts, Ain Shams University in Cairo, Oct-Dec. (2018): 1-16.

Bin-ʻAbd al-ʻĀlī, ʻAbd al-Salām. "ʻUnf al-Wuthuqiyyah". Yatafkarūn Journal, 5, (Autumn 2015): 10-12.

Al-ʻEnazī, Sughair. " The Poet Reclaiming His Father: A Reading of Al-Farazdaq's Perceptions of Poetry" (in Arabic). Journal of the College of Arabic Language in Mansoura 41, (2022) : 2087-2119.

Third: Scientific Theses

Saṭārh, Al-Zahrah. "Al-Ansāq al-Thqāfiyyah fī Shiʻr al-Naqāʾiḍ: Nqāʾiḍ al-Farazdaq wa-Jarīr Namūdhajan". Unprinted master's thesis. (University of Kasdi Merbah - Ouargla, Algeria, 2021).

Al-Qubaysī, Ayman ʻAlī. "Muʻāraḍat al-Nasaq fī Shiʻr Abī Nuwās: Dirāsah fī Ḍawʾ al-Naqd al-Thaqāfī". Unprinted master's thesis. (Department of Arabic Language, College of Humanities, King Khalid University, Abha, 2015).

الْقَهْوَةُ وَالْمَقْهى فِي شِعْرِ مَحْمُوْد دَرْوِيش
(مُقَارَبَةٌ نَقْدِيّةٌ فِي ضَوْءِ نَظَرِيّةِ الِاتِّصَال)

A Critical Study of Coffee and Café in Mahmoud Darwish's Poetry in Light of Communication Theory

د. نورة بنت سعد بن محمّد الشَّهراني

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية في جامعة بيشة

البريد الإلكتروني: naldrani@ub.edu.sa

الملخص

يُعد محمود درويش واحدًا من أبرز شعراء العربيّة المعاصرين؛ إذ مرّت تجربته الشعريّة بتحولات كبرى، جعلت منها مادةً أدبيّةً ثريّة للدراسات النقديّة في جوانب عدة. وقد شكّلت القهوة والمقهى إحدى العلامات المهيمنة في شعر محمود درويش، فكان هذا البحث؛ لتناولهما وفق نظرية الاتصال اللغويّة للكشف عن عناصر الاتصال في بنيتها الشعرية، وأبرز السياقات التي أسهمت في رؤية الشاعر التكوينية، وفي البنى النصيّة لنصوصه، وأهم الوظائف اللغويّة التي تضمّنتها، ومدى قدرة الشاعر على صناعة نصوص شعريّة للقهوة والمقهى ذات كفاية اتصاليّة عالية. وقد توصّل البحث إلى عددٍ من النتائج، أبرزها: تعدد السياقات غير اللغوية المؤثرة في بنية القهوة والمقهى في شعر الشاعر، وأنهما ذواتا بُعدٍ دلالي واسع تجاوز المعنى المعجمي إلى الآخر الشعري، وأنَّ درجة الاتصال بين الشاعر والمتلقين في نصوص القهوة والمقهى عالية، تجلّت في نمطين من التلقي: المباشر، وغير المباشر.

الكلمات المفتاحية: محمود درويش، القهوة، المقهى، نظرية الاتصال، الكفاية الاتصاليّة، الوظائف اللغوية.

Abstract

Mahmoud Darwish is one of the most prominent contemporary Arab poets. His poetic experience has gone through major transformations, which makes it the target for many critical studies in various aspects. Coffee and café have formed one of the dominant symbols in Darwish's poetry. Therefore, this research aims to discuss the representation of coffee and café according to the communication theory to identify the elements of communication in its poetic structure, the most significant contexts that contributed to the poet's formative vision, the textual structures of his texts, the key linguistic functions they encompassed, and the poet's ability to create highly communicative efficient poetic texts about coffee and the café. Using the analytical approach and communication theory, the study revealed some findings. The multiplicity of non-linguistic contexts influenced the structure of coffee and café in Darwish's work. Furthermore, the study indicated that coffee and café shared wide semantic dimension that transcends the lexicographical meaning to the poetic meaning. Finally, the analysis showed a high level of communication between the poet and the audience in the verses about coffee and café, manifested in direct and indirect reception.

Keywords: Café, coffee, communicative competence, communication theory, language functions, Mahmoud Darwish.

المقدمة

شغلت القهوة مساحةً واسعةً في الشعر العربي، منذ عصر ما قبل الإسلام إلى المعاصر؛ لما تحظى به من مكانة، ورمزيّة في ثقافته العربيّة. وتعدّدت طرائق الشعراء في ذكرهم للقهوة، فمنهم من وصفها، ومنهم من وصف أثر شربها في نفسه ومخيلته، ومنهم من وصف أدواتها، ومنهم من تغنّى بمكان تقديمها (المقهى)، وطرق إعدادها، وأدوات تحضيرها وتقديمها، ومواقيت شربها، وساقيها، ومؤثثات مكانها، ووصف مجالسها، وجلسائها، "وقد لعب الشعر دورًا مهمًّا في إشاعتها، وانتشارها في المجتمع باعتبارها مشروبًا طهورًا مباركًا له فوائد كثيرة"(١).

ومرّت القهوة دلاليًّا وبنائيًّا بتحولات عديدة في الشعرية العربيّة، وكانت تلك التحولات انعكاسًا للمتغيرات السياقيّة في الثقافة العربية تجاه القهوة: تسميتها، وإباحتها، وطرق تقديمها، ومواقيت شربها...(٢)، فتعدد حضور القهوة في الخطاب الشعري العربي، فمنه ما وصفها، ومنه ما حرّمها، ومنه ما ذكر محاسنها، ثم اتسعت

(١) مشهور عبد الرحمن الجباري، "شعر القهوة البن في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، دراسة موضوعية"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، ع١، ٢٠٠٢م، ١٨٢، نقلًا عن: ماجد عدنان الأهدل، "ديوان القهوة شعر قهوة البن من القرن التاسع الهجري"، (دار صوفيا، الكويت، ٢٠٢٢م)، ٢٦. وصفها بالشراب الطهور والمبارك؛ لأن القهوة في بدايات انتشارها في هذه المرحلة كانت رفيقة العارفين في مجالس الصوفية، لأنها تعينهم على السهر، وبقاء ساعات الليل في تأمل، وعبادات، وقد ذُكر هذا كثيرًا في كتاب الأهدل.

(٢) يُذكر في عددٍ من المصادر أنَّ المتصوفة أول من سمّى القهوة بهذا الاسم، وأسهبوا في ذكرها في أشعارهم، للمزيد ينظر: ماجد عدنان الأهدل، "ديوان القهوة شعر قهوة البن من القرن التاسع الهجري"، ٥١ وما بعدها.

دائرة الوصف للقهوة في الشعر العربي؛ لاتساع حضورها في حياتهم، وكثرة شربها، وخروجها من بؤرة التحليل والتحريم التي أثيرت حولها في القرون الأولى.

والشاعر الفلسطيني محمود درويش من أبرز الشعراء المعاصرين الذين وظّفوا القهوة والمقاهي في شعرهم كثيرًا، حتى أصبحتا علامتين بارزتين في نصوصهم الشعريّة والنثريّة، وقد حمّلها الشاعر رسائلَ –اجتماعيّة، وسياسيّة، وإنسانيّة عامة– أراد إيصالها للعالم كله، والفلسطيني الذي يشاركه أكثر السياقات التكوينية المؤثرة في رؤيته الإنسانيّة والشعريّة خاصة. وقد لقيت نصوص القهوة، والمقهى في شعره تلقيًا واسعًا ومتنوعًا في الأوساط الشعبية؛ كل ذلك عزّز هذه الفكرة البحثيّة، وجاءت بعنوان: (القهوة والمقهى في شعر محمود درويش مقاربة نقديّة في ضوء نظرية الاتصال)؛ سعيًا للإجابة عن أبرز أسئلتها البحثيّة، ومنها:

- هل استطاع الشاعر توصيل رؤيته الشعرية للقهوة والمقاهي للمتلقي؟
- هل هناك ترابط بين السياقات التكوينية لشعريّة القهوة والمقهى في شعر الشاعر، ومقصديّة نصوصه اللغويّة؟
- ما الوسائل اللغوية التي استعان بها في صناعة المعنى الشعريّ، وإيصال رؤيته؟ وهل أسهمت في صناعة نص مفتوح التلقي، أم نص مغلق ذي كفاية اتصالية منخفضة؟
- بيان أثر وجود القارئ الداخلي في عملية التوصيل الأدبي للقارئ الخارجي.
- من أطراف الرسائل الأدبية في نصوص الشاعر؟ أو ما عناصر الاتصال؟ وما الوظائف اللغوية المهيمنة في النصوص؟
- كيف استقبل المتلقون نصوص القهوة والمقهى؟ وما إستراتيجياتهم في التلقي؟

وقام البحث على المنهج التحليلي المستعين بمعطيات نظرية الاتصال اللغويّة، ومعطياتها النقديّة؛ للكشف عن عناصر الاتصال في أبنية القهوة، والمقهى الشعريّة في كل دواوين الشاعر، وقد بدأ التحليل بالمرسل، ثم الرسالة، ثم المتلقي؛ لمعرفة الوظائف اللغوية التي استطاع الشاعر صناعتها في كل عنصر من هذه العناصر، والكشف عن الوظيفة المهيمنة بينها؛ للوصول إلى قياس -لغوي إجرائي- لدرجة التواصلية في نصوصه بحسب الكفاية الاتصالية لها.

ولما يحظى به شعر محمود درويش من مكانة أدبية؛ فقد تعاقبت عليه العديد من الدراسات التي تنوعت في الاتجاه، والأهداف، والمناهج، أما فيما تتقاطع مع هذا البحث فلم أجد -بعد البحث والاستقصاء- إلّا بحثين، ومقالة هي:

- القهوة وأبعادها الوجودية في شعر محمود درويش. مقالة مكونة من ٩٣٣ كلمة كتبها كريم الطيبي، نشرها في ١٠ أغسطس ٢٠١٦م في موقع ثقافات الشبكي التابع لوزارة الثقافة الأردنية.
- القهوة في شعر محمود درويش: دراسة دلالية. بحث مشترك لـ كشاورزي، كريم، وآخرون، منشور في مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها عام ٢٠٢٠م، والبحث مكون من ٢٢ صفحة نشرت في العدد ٥٣ في تخصص الآداب.
- قصيدة سرحان يشرب القهوة لمحمود درويش: دراسة دلالية، مقالة علمية مكوّنة من ٣ صفحات. نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية في ماليزيا لـ د. نور الحنيلة عصمت.

والدراسات مع اختلاف منهجيتها عن هذا البحث، أو قصرها، فإنّها موضع عناية في هذا البحث، ودخلت ضمن مدونته في المبحث الأخير؛ لقياس الأثر والتلقي،

والارتداد العكسي لنصوص القهوة، والمقهى في التلقي غير المباشر.

وليحقق البحث أهدافه؛ قُسّم إلى تمهيد عن نظرية الاتصال (المفاهيم والمعطيات)، ثم ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: تكوينية الرؤية وتشكّل السياق.
- المبحث الثاني: الرسالة الأدبية (البنى والوظائف والوسيلة).
- المبحث الثالث: المتلقي والارتداد العكسي.
- ثم خاتمة أوجزت فيها أبرز نتائج البحث، ثم ثبت المصادر والمراجع.

التّمهيد: نظرية الاتصال المفاهيم والمعطيات:

نظرية الاتصال واحدة من الأسس، والإجراءات النقديّة اللسانية التي "تعتمد على معايير علمية دقيقة تبدأ من المبدع مرورًا بالنص عبر الوسيلة الاتصاليّة، ونهاية بالمتلقي وما ينتج عنه من نص عكسي ارتدادي"(١). وقد تفرّعت نظرية الاتصال من الثنائية التي أسس لها (سوسير) ثنائية اللغة والكلام، فاللغة بوصفها نظامًا من الإشارات والدوال داخل عقل المجموع، والكلام بوصفه استعمالًا شخصيًّا محسوسًا، وطبقًا لهذه الثنائيّة تتكون على مستوى الشّعريّة ثنائية الأدب/ الكلام الأدبيّ.(٢) ومن أبرز من أسس لعلاقة اللغة بعمليّة الاتصال (رومان جاكبسون)، الذي حدّد عناصر الاتصال اللغوي الستة، التي تبدأ من المرسل وتنتهي بالمرسل إليه، على النحو الآتي:

		سياق		
مُرْسِـل	-----	رسالة	----	مُرْسَل إليه
		اتّصال		

وحدّد الوظائف السّت الأساسيّة للتواصل اللفظي بحسب عناصر الاتصال السِّتة في الخطاطة الآتية:

	مرجعيّة	
انفعاليّة	شعريّة	إفهاميّة

(١) مراد مبروك، "من صوت الذات إلى سلطة النص"، (أروقة للدراسات والترجمة، القاهرة/ نادي نجران الأدبي، ط١، ٢٠١٤م)، ١٥.

(٢) ينظر: توفيق الزيدي، "أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث"، (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م)، ٤١.

فالوظيفة الانفعاليّة أو التعبيريّة تركّز على المُرسِل، وتعبّر مباشرة عن موقف المتكلّم تجاه ما يتحدّث عنه، وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين صادق أو خادع. أما إن كان التّوجه نحو المرسَل إليه هيمنت الوظيفة الإفهاميّة وتتجسّد في البناء التركيبي الذي يغلب عليه النداء، والأمر والاستفهام. وهناك رسائل تُوظّف في الجوهر لإقامة التواصل وتمديده، أو فصمه، وتُوظّف للتأكّد مما إذا كانت دورة الكلام تشتغل، أو لإثارة انتباه المخاطب، والتأكد من أنّ انتباهه لم يرتخِ فإنّ الاتصال في هذه الحالة يركز على الوظيفة الانتباهيّة. أما إذا كان الاتصال مركّزًا على السنن، فإنّه يَشْغَل وظيفة ميتالسانية، أو وظيفة الشّرح، مثال ذلك أن يتساءل المرسل إليه "ما تقول؟ إنني لا أفهمك..."، فالوظيفة هنا تخص السنن المعجميّة، وتكثر هذه الوظيفة في مرحلة اكتساب الطفل للغة الأم[١]، فارتبطت نظرية الاتصال اللغوية بالكفاية، أو الكفاية الاتصالية، وهي القدرة على استعمال اللغة في تفاعل اجتماعي يوائم بين المنطوقات، والمقاصد، وسياق الاتصال.[٢]

والصلة قوية بين نظرية الاتصال، ونظرية التلقي بمفاهيمها ومعطياتها التي تنبع بين طرفيها: المبدع والمتلقي، ومفهوم أفق التوقع الذي يبنيه المتلقي، الذي يعد أبرز مقاييس أثر الأعمال، واتصالها في طرف الإبداع الثاني المتلقي[٣] ، والوظيفة التواصلية للأدب حاضرة في طرح نقّادها؛ إذ "أنهى كل من (إيزر) و(ياوس) أفكاره النظرية الخاصة بالاستجابة، أو التّلقي بفقرات عن الاتصال. والاتصال الذي يرتبط به التلقي هنا هو

(١) رومان جاكبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون، "قضايا الشعرية"، (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨م)، ٢٧-٣١بتصرّف.

(٢) ينظر: مراد مبروك، "من صوت الذات إلى سلطة النص"، ٢١- ٢٢.

(٣) ينظر: روبرت هولب، تر: عز الدين إسماعيل، "نظرية التلقي"، (نادي جدة الأدبي الثقافي، جدة، ط١، ١٩٩٤م)، ١٦.

الاتصال الأدبي على وجه التحديد، وهو ما عرّفه (إيزر) بأنّه نشاط مشترك بين القارئ والنّص، يؤثر فيه كل منهما في الآخر، في عملية تنتظم من تلقاء ذاتها"(١).

فانطلقت نظرية الاتصال من هذه المعطيات، ثم أضافت على بُعد التفاعل بين القارئ والنص ثلاثة أبعاد، هي: بُعد المؤلف، وبُعد الوسيلة الاتصالية، وبُعد الارتداد العكسي؛ لتتشكّل أركان نظرية الاتصال الأدبي الخمسة، وهي:

المؤلف أو المرسل: ويُنظر إليه من زاوية الرؤية التكوينية له التي تتشكل من كافة السياقات غير النصيّة التي صنعت وعيه، والزاوية الأخرى هي علاقة الذات المبدعة بالموضوع، أو النص الإبداعي.

- النص: ويُنظر إليه من خلال ثلاثة أبعاد: الخاصية النّصية، التفاعل النّصي، البنية النصيّة.
- وسيلة الاتصال: وهي القناة التي تساعد على توصيل الرسالة النصيّة من المرسل إلى المتلقي.
- القارئ، أو المرسل إليه: وينظر إليه من خلال دوره، أو نوعه (قصديًّا، أو ضمنيًّا)، وإستراتيجية القراءة، وإستراتيجية الاتصال.
- الارتداد العكسي: ويتولّد من خلال مستويين: المباشر للبنية السطحية، وغير المباشر للبنية العميقة.(٢).

(١) روبرت هولب، "نظرية التلقي"، ٢١.

(٢) ينظر: مراد مبروك، "من صوت الذات إلى سلطة النص"، ٤٦-٤٧.

المبحث الأول: تكوينية الرؤية وتشكّل السياق

إنَّ النص الأدبيّ من منظور النقاد الألسنيين ليس هو موضوع الشعريّة، وإنّما موضوعها هو الوقوف على الخصائص النوعيّة للخطاب الأدبيّ، وهي ليست علمًا بالأدب الحقيقي، بل بالأدب الممكن، أي تهتم بالخصائص المجرّدة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي، أي الأدبيّة[١]، وهي نتيجة تفاعل دلالي، ودالي بين البنية السطحية اللغوية للنص، وبنى عميقة سياقية تحيط به، "وقد ارتكز (تودوروف) في بلورته لهذه النمذجة على ما سماه العناصر الأربعة المشكّلة للمسار الأدبي: المؤلف، القارئ، العمل، العالم، كما ركّز على استخلاص درجة التأثير الذي أحدثته كل نظريّة على أحد تلك العناصر"[٢]، فـ"لكي تكون الرسالة فاعلة فإنها تقتضي بادئ ذي بدء سياقًا تحيل عليه وهو ما يُدعى أيضا المرجع"[٣].

وللكشف عن رؤية الشاعر الشعرية للقهوة والمقهى في تجربة محمود درويش، نقف على الأبعاد السياقية غير اللغوية التي شكّلت رؤيته التكوينية لها، وهي كما حدّدها (فان دايك) "مجموعة لامتناهية من السياقات الممكنة التي يستطيع أحدنا أن يكون له فيها أوضاع مخصوصة، ويتحدد السياق الواقعي بفترة من الزمان والمكان"[٤] والسياق عنده هو الموقف، أو البيئة الاجتماعيّة، والطريقة التي يفهم بها الناس بيئتهم الاجتماعيّة،

(١) ينظر: مراد مبروك، "من صوت الذات إلى سلطة النص"، ٢٤.

(٢) تزفيطان تودروف، تر: عبد الرحمن بو علي، "نظريّة الأجناس الأدبيّة دراسة في التناص والكتابة والنقد"، (دمشق، دار نينوى، ٢٠١٦م)، ١١٥.

(٣) رومان جاكبسون، "قضايا الشعرية"، ١١.

(٤) فان دايك، تر: عبد القادر قنيني، "النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م)، ٢٥٨.

تحدّد سياق خطاباتهم، وممارساتهم الاجتماعية بوساطة ما يُسمّى بالنماذج الذهنيّة(١).

ولأنَّ التواصل الأدبي شكلٌ من أشكال تطوير التواصل اللغوي الاجتماعي، ودلالات كلماته تُبنى من تضافر العلاقات اللغوية والسياقية التي تشكل القصديّة(٢)؛ فإنَّ قراءة فاعلية الاتصال في نصوص درويش التي وظفت القهوة والمقهى فيها، تنطلق أولًا من رؤيته الإبداعية لها، ومن ثَمَّ التركيز على البنية المتوسطة، التي لا تنفك عن منشئها الاجتماعي بكل مكوناته، فهي "بنية فكرية تتمثل في رؤية للعالم تتوسط ما بين الأساس الاجتماعي الطبقي الذي تصدر عنه، والأنساق الأدبية والفنيّة والفكرية التي تحكمها هذه الرؤية وتولّدها"(٣)، ومصطلح المبدع أعم وأدق في هذا السياق من المؤلف؛ إذ يمكن أن يكون المبدع مؤلفًا وليس العكس، فالمؤلف من يقوم بعملية التأليف، والجمع بين المتفرقة. في حين أن المتكلّم فهو من صنع المبدع في نصه الأدبي، يظهر بصفة الأنا المتحدثة في النص الأدبي التي من خلالها يعبر المبدع عمّا يريد، فهو تابع للمبدع، وقد يكون المبدع متكلمًا، وليس العكس(٤).

فالعمل الأدبي ليس ذاتيًّا خالصًا، فردانيًّا، بل هو انعكاس للسياقات المحيطة به من الدين، والسياسة، والمجتمع، والثقافة، والحضارة التي ينتمي لها، فالنَّص –على حد قول إدوارد سعيد– له أبٌ شرعيٌّ أكبر بكثير من المبدع، وأشمل رعاية من جميع الأطراف التي تحيط به، وهو العالم المحيط المكوّن من مختلف المؤسسات الاجتماعية، ومنها

(١) ينظر: نبيل أيوب، "النقد النّصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات"، (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١١م)، ٢٣٧–٢٣٨.

(٢) ينظر: صالح رمضان، "التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية"، (المركز الثقافي العربي/ نادي الرياض الأدبي، الدار البيضاء/ الرياض، ط١، ٢٠١٥م)، ١٣، ١٨٦. بتصرّف.

(٣) جابر عصفور، "نظريات معاصرة"، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م)، ١٠٨.

(٤) أسماء معيكل، "الأفق المفتوح نظرية التوصيل الروائي المعاصر"، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٣م)، ٢١.

السياسية كما رأى (فوكو)[١].

ومحمود درويش كغيره من الأدباء يبني رؤيته الأدبية بخصوصية رؤيوية وبنائية، مادتها الأولى السياقات المحيطة به. هذه السياقات المشتركة بين المبدع، والمرسل إليه المتلقي الأول في محيط المبدع كانت أول بواعث الإبداع الشعري عنده، ومحفزات الاتصال لديه، فالاتصال يرتبط بعملية التفاعل الإنساني، ويتأثر بجميع العوامل والمؤثرات والمتغيرات التي تتعرض لها عملية التفاعل تلك[٢]، وهي تمثّل آليات، ووسائل تأويلية تعينه على استقبال رسالة المرسل الأدبية. وهي التي تشكّل أسلوبيّته الشعريّة؛ "لأن الأسلوب يخضع لمقتضيات السياق المقامي"[٣]، ومن أبرز السياقات التي أسهمت في تشكل البُنى، والدلالات الأدبية للقهوة والمقهى في شعره: السياق الاجتماعي، والسياق السياسي، والسياق الثقافي.

- السياق الاجتماعي:

محمود درويش ابن فلسطين، المولود سنة ١٩٤٢م، وهو الابن الثاني لأسرة تتكون من ثمانية أبناء، الابن الأكبر فيها هو أحمد، وكان مهتمًّا بالأدب، والكتابة الأدبية، وعنه أخذ محمود بدايات اهتمامه بالأدب، ولا يوجد من يهتم بالأدب في الأسرة غيرهما، فالأب فلاح يمتلك أراضيَ في قرية البروة، والأم لا تقرأ، ولا تكتب، والدها مختار قرية

(١) ينظر: إدوارد سعيد، تر: محمد عصفور، "العالم والنّص والناقد"، (دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠١٧م)، ١١، ١٢.

(٢) ينظر: جودت شاكر محمود، "الاتصال في علم النفس"، (دار صفاء، عمان، ط١، ١٤٣٤هـ)، ٣٠.

(٣) مصطفى لطفي، "اللغة العربية في إطارها الاجتماعي"، (بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٧٦م)، ٥١.

الدامون[١].

شهد درويش أحداث الاحتلال منذ بدايات طفولته، ففي عام ١٩٤٨م حلّت المأساة على قريته الصغيرة (البروة)، ووصفها قائلًا: "**وكان عمري يومها ست سنوات... يخيّل إليّ أنَّ تلك الليلة وضعت حدًّا لطفولتي بمنتهى العنف، فالطفولة الخالية من المتاعب انتهت. وأحسست فجأة أنّني أنتمي إلى الكبار**"[٢]، ثم هدمها اليهود لاحقًا وهو في السجن، وهو يعيش حياة مليئة بالمتاعب المادية، والتّمزق المعنوي[٣]، وقد جاء بعدها محمود درويش برؤيته، وأدواته الشعرية الجديدة، معبرًا عن كل تلك الأبعاد، والمعاني بأسلوبه الشعري الخاص، فهو القائل: "**إنني أبحث في الأنقاض عن ضوء وعن شعر جديد**"[٤]، فكان صوته الشعري واحدًا من أجمل الأصوات الشعرية في المرحلة الجديدة في الشعر الثوري، سماها رجاء النقاش (مرحلة الأمل والتفاؤل والتمرّد والثورة)[٥].

هذه التنشئة والظروف الاجتماعية التي عاشها، والتي تشبه حياة الكثير من الفلسطينيين، أسهمت في إعطاء نصوصه الشعرية سلطة الحياة والبقاء؛ لأنها نابعة من تجارب مشتركة في الوعي الجمعي الفلسطيني، وتعبّر عن صوته الثوري والإنساني؛ فاللغة -كما يعرّفها (سوسير)- "إنتاج اجتماعي لقوى الكلام"[٦]، فاللغة الشعرية تتكيف مع المواقف، والمعطيات الاجتماعيّة، وتُعبّر عنها بذاتية أدبية، وقد اتّخذ درويش من القهوة،

(١) ينظر: رجاء النقاش، "محمود درويش شاعر الأرض المحتلة"، (أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة، ط١، ٢٠١١م)، ١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، ٩٩.

(٣) المرجع نفسه، ٩١.

(٤) المرجع نفسه، ٨٣

(٥) المرجع السابق، ٨٩

(٦) فرديناند دي سوسير، تر: عبد القادر قنيني، "محاضرات في علم اللسان"، (أفريقيا الشرق، المغرب، ط٣، ٢٠١٦م)، ٢٣.

والمقهى في العديد من نصوصه وسيلة لغوية، ورمزًا يعكس فلسطين الوطن، بكل ما فيه من تعدد أديان، وما يقاسي من احتلال، وفقد، وحنين؛ باعتبار القهوة واحدة من أبرز مكونات هُويته، وأدوات اتصال الأنا بالآخر، ففي لحظات شرب القهوة، والاجتماع ببعض أطياف المجتمع الفلسطيني في المقهى يُتاح للشاعر تصوير الهم الفلسطيني، ورؤيته لأوضاع مجتمعه، ومن شواهد ذلك قصيدة (سرحان يشرب قهوة في الكافتيريا)، إذ قال(١):

ونافذتان على البحر يا وطني تحذفان المنافي.. وأرجع
(حلم قديم–جديد)
شوارع أخرى اختفت من مدينته (أخبرته الأغاني
وعزلته ليلة العيد أن له غرفة في مكان).
ورائحةُ البُنِّ جغرافيا
ورائحة البن يدْ
ورائحة البن صوت ينادي.. ويأخذ
رائحة البن صوت ومئذنة (ذات يوم تعود).
ورائحة البن ناي تزغرد فيه مياه المزاريب ينكمش
الماء يوماً ويبقى الصدى .
وسرحان يحمل أرصفةً ونواديْ ومكتبَ حجز التذاكر
سرحان يعرف أكثر من لغة وفتاه. ويحمل تأشيرة
لدخول المحيط وتأشيرة للخروج ولكنّ سرحانَ

(١) محمود درويش، "الديوان، الأعمال الأولى ٢، ديوان أحبك ولا أحبك"، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م)، ٩٥.

قطرة دم تفتّش عن جبهة نزفتها.. وسرحان
قطرة دم تفتّش عن جثة نسيتها.. وأين؟
ولست شريداً.. ولست شهيداً
ورائحة البن جغرافيا.
وسرحان يشرب قهوته ..
ويضيع

سرحان في هذا النص تتحوّل هويته الفرديّة إلى جماعية، فهو رمز معادل لكل فلسطيني يرجو السلام، والاستقرار الاجتماعي في وطنه، بعيدًا عن قلق التشرد، والشهادة التي يقاومها برائحة البن التي أصبحت في هذا النص معادلًا موضوعيًّا لكل معاني الحياة الآمنة المستقرة، فرائحة البن تعادل جغرافيا/ وطن له هويته الواضحة في جغرافية الأرض، وأيضًا هي يد/ أمان وتكاتف اجتماعي؛ لأن القهوة رمز للضيافة الفلسطينية، وهي أيضًا صوت/ أحاديث تجمع الأنا مع الآخر أثناء شرب القهوة، وهي أيضًا صوت مئذنة/ الهوية الإسلامية لفلسطين، وهي أيضًا ناي/ صوت الحياة التي يحلم بها الفلسطيني، لكنّ هذا البُن بكل هذه المعاني يشربها سرحان "سرحان يشرب قهوته" فيضيع! وهذا التناقض يعكس الصراع الذي يحيا فيه المواطن الفلسطيني.

فالأنا الفلسطينية في نصوص القهوة والمقهى تمثل الكل، والهم الفلسطيني؛ إذ يجد في المقهى مكانًا يجمع هموم، وآلام ولحمة الشعب في لحظات شرب القهوة، لحظات المتنفس لهم، فقال[1]:

مقهى وأنت مع الجريدة جالسٌ
لا. لست وحدك. نصف كأسك فارغٌ

(١) محمود درويش، "ديوان كزهر اللوز أو أبعد، قصيدة مقهى وأنت مع الجريدة"، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م)، ٢٥.

والشّمس تملأ نصفها الثاني ...
ومن خلف الزجاج ترى المشاة المسرعين
ولا تُرى ولكن لا تُرى
كم أنت حرٌّ أيها المنسي في المقهى!
فلا أحد يرى أثر الكمنجة فيك،
لا أحدٌ يحملق في حضورك أو غيابك
...
في الركن منسيًّا، فلا أحد يُهين
مزاجك الصّافي
ولا أحد يفكّر باغتيالك
كم أنت منسيٌ وحرٌّ في خيالك

فالمقهى في هذا النص، أحد محطات الخلوة التي يجلس فيها الفلسطيني خارج بلاده، وأحد منتديات الحوار، وإثبات الذات الفلسطينية بهويتها، وحقوقها، وآلامها. ويجسّد الشاعر معنى الوحدة، والوحشة التي فرضها عليه الواقع السياسي على وطنه، والتي لا تشبه هويته العربية الفلسطينية الاجتماعية بطبعها، والتي ألفت شرب القهوة في أجواء جماعية، مليئة بالأحاديث، والسؤال عن الأحوال الشخصية، فأصبح المقهى في الغربة يحمل المعاني المباينة لها: "**أيها المنسي في المقهى، لا أحد يرى، لا أحد يحملق، لا أحد يهين مزاجك**"، ثم يصور الصراع الذي يعيشه في هذا المقهى بين الحاجة للوطن، والشعور بالحنين له، وبين الأمان، والحرية: "**لا أحد يفكر باغتيالك، كم أنت منسيٌّ وحر في خيالك**".

وقد كرر هذه المعاني، وجعل من المقهى بمؤثثاته رموزًا لتجسيد معنى الغربة، أو

الفقد الذي فُرض على المجتمع الفلسطيني، فقال[١]:

لم يشعر بنقصٍ في المكان،
المقعد الخشبي، قهوته، وكأس الماء
والغرباء، والأشياء في المقهى
كما هي،

وفي أبنية تصويرية أخرى صوّر تفاصيل المدينة الفلسطينية، ورموز هويتها المعيشية، وكان المقهى واحدًا من أبرز معالمها، وأماكنها العامة الأساسية في بنية المجتمع اليومية، فقال[٢]:

لنا شارع ههنا
وبريدٌ
وبائع خبزٍ
ومغسلة ثياب
وحانوت تبغٍ وخمر
وركن صغير
ورائحة تتذكّر/
ها نحن نشرب قهوتنا بهدوءٍ أميرين
لا يملكان الطواويس، أنتِ أميرة نفسكِ

بل إنّ القهوة في بعض نصوصه رمز التآخي، والتآلف الاجتماعي في فلسطين، فالقهوة تجمع الفلسطينيين في لقاءاتهم، وجلساتهم الاجتماعية، رغم الموت المحيط بهم؛

(١) محمود درويش، "ديوان كزهر اللوز أو أبعد، قصيدة لم ينتظر أحدًا"، ٣٣.
(٢) محمود درويش، "ديوان لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي"، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩م)، ٦٩.

إذ قال في قصيدة (اللقاء الأخير في روما)[١]:

"ستقتلني كي يعود العدو إلى
بيته/ بيتنا وتعود إلى لعبة الكهف ماذا صنعتَ بقهوة أمي
وأمك؟ ماذا جنيت لتغتالني يا أخي".
صباح الخير يا ماجد
صباح الخير والأبيض
قم اشرب قهوتي. وانهض
فإنَّ جنازتي وصلت. وروما كالمسدس

فالقهوة في العديد من نصوص درويش مرتبطة بالأم، وشعور الأمان، والتآخي الذي يمنحه وجودها كقوله[٢]:

وأشياء أمي الصغيرة
رائحة البن في ثوبها حين تفتح باب النهار لسرب الدجاج

وفي نص آخر وظف القهوة رمزًا؛ لتصوير تعدد الأديان في المجتمع الفلسطيني، وطبيعة الحياة التي يحياها بين المقاومة للاحتلال، وهدنة السلام المؤقتة التي يسترق لحظاتها؛ لينعم بشرب قهوته، فقال في قصيدة (في البيت أجلس)[٣]:

كسلٌ خفيف الوزن يطهو قهوتي
والهال يصهل في الهواء وفي الجسد

(١) محمود درويش، "الديوان، الأعمال الأولى ٢، حصار لمدائح البحر"، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م)، ٩٥.

(٢) محمود درويش، "الديوان، الأعمال الأولى ٣، هي أغنية هي أغنية"، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م)، ٣٩.

(٣) محمود درويش، "ديوان كزهر اللوز أو أبعد"، ٥١-٥٢.

وكأنني وحدي أنا هو وأنا الثاني
رآني واطمأن على نهاري وابتعد
يوم الأحد
هو أول الأيام في التوراة، لكنَّ
الزمان يغير العادات: إذ يرتاح
رب الحرب في يوم الأحد

فأحسن الشاعر توظيف تلك المكونات الاجتماعيّة للمجتمع الفلسطيني في رفع الكفاية التواصليّة لنصوصه التي وظف فيها القهوة والمقهى؛ إذ رفع من مستوى التوافق بين النص الأدبي المرسل، الذي عدّه صوت الشعب الفلسطيني، وبين سياقاته الاجتماعيّة الحاضنة له، والمعينة على فهم أبعاد رسالته الشعريّة.

- **السياق السياسي:**

المكون السياسي واحد من أبرز المكونات للأبعاد الاتصاليّة في نصوص درويش الموظّفة للقهوة والمقهى، فمحمود درويش لم يظهر فجأةً، ولم تظهر مدرسته الشعرية بلا مقدمات، بل يرتبط بحركة النضال الفلسطيني التي تمتد جذورها إلى جيلين: جيل المقاومة عام ١٩٣٦م، وجيل الموجة الثورية ١٩٤٨م، حتى لُقِّب بشاعر القضية الفلسطينية. اتّخذ من شعره وسيلةً؛ لنقل صوت المقاومة؛ فبعض أشعاره كانت تترجم إلى العبرية، مما يثير هجوم بعض النقاد اليهود، فكان درويش على وعي تام بأهمية الأدب بوصفه وسيلة احتجاج[١]؛ إذ قال: "**إنهم يخافون مضمون هذا الأدب. ويدركون أن وصول هذا الأدب إلى الجمهور اليهودي سيحطّم حواجز. فالأدب العربي هنا هو أدب احتجاج على وضع غير عادل**"[٢].

(١) رجاء النقاش، "محمود درويش شاعر الأرض المحتلة"، ١١٣.
(٢) المرجع نفسه.

ولم يكتفِ بتسجيل الرؤية الشعرية، وتصوير الرفض والمقاومة للاحتلال الصهيوني، بل يحاول أن يرى انعكاساتها على الواقع الإنساني، فمعظم ما صدر من شعراء فلسطين بعد هذا التاريخ هو صدى الجرح، وتعبير عن المأساة، وتصوير للتشتت الذي أصاب الفلسطينيين(١).

حتى أصبح رفض الاحتلال بؤرة مركزيّة في تجربته الشعريّة يدور في فلكها أكثر شعره، ومنها شعرية المقاهي والقهوة، التي وظفها وسيلةً لإيصال معاني سطوة الاحتلال، وما جرّه من فقد للأهل، أو الأرض، ووحشة المنفى أو السجن التي فرضها عليهم، ومنها قصيدته (إلى أمي)(٢):

أحنُّ إلى خبز أُمي
وقهوةِ أُمي
ولمسةِ أمي....
وتكبرُ فيّ الطفولةُ
يوماً على صدر يومِ
وأعشق عمري لأني
إذا مُتُّ،
أخجل من دمع أُمي!

فوظّف الشاعر التداعي الحر في تسجيله بعض مشاهد الحياة اليوميّة الصباحيّة لحياته التي تشبه حيوات أكثر أفراد شعبه، أهم عناصرها الأم والاستمتاع بعطائها الحسي والمعنوي، فقرن بين رموز الحياة، والعيش الأساسية وبين القهوة؛ للتعبير عن القضيّة

(١) ينظر: المرجع نفسه، ٤٧– ٥٤ –٨١ بتصرّف.

(٢) محمود درويش، "الديوان، الأعمال الأولى ١"، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩م ديوان عاشق من فلسطين"، ١٠٦.

الأساسيّة، وتجسيد شعور الحنين الذي يشبه مشاعر كثير من أفراد مجتمعه، فأجاد فهم السياق الاجتماعي لذاته، ولأفراد شعبه، ثم واءم بين رسالته الأدبيّة، والسياق المحيط به فأعلى من درجة الكفاية التواصلية.

وفي سياق آخر، صوّر الهدف والحلم العربي الفلسطيني (السلام)، والتحرير من الاحتلال الذي ينتشر في أرجاء الوطن، ويهيمن على تفاصيل مجتمعه، واختار القهوة العربية الرمز الفني الذي يجعل من رائحتها المنتشرة في الأفق تعبيرًا عن الهوية العربية – مجازًا عن الجزء فلسطين– التي لن تنسلخ، أو تُطمس بفعل الاحتلال، فقال[1]:

لنا حلمٌ واحدٌ: أن يمر الهواء

صديقًا، وينشر رائحة القهوة العربية

فوق التلال المحيطة بالصيف والغرباء ...

وفي كثير من نصوصه ينقل للمتلقي رؤيته الخاصة للمقاهي في البلدان التي عاش فيها بعيدًا عن وطنه؛ ويرى من خلالها أبعادًا سياسيّة، وإنسانيّة واسعةً بعينه الفلسطينيّة، فيصف مقاهي باريس، التي تستثير في خياله صورًا، ومعانيَ لوطنه التي صنعها الاحتلال، أو حرمها منها، فيقارن بين مقابر الشهداء الفلسطينيين في وطنه، والمقابر في باريس[2]:

للمقابر هيبة الهواء وسطوة الهباء تشيع

صديقك ممدوح، وتنتظر دورك ...

إلى أن قال:

فمنها ما يبدو لك أنه راحة النائم. ومنها

(١) محمود درويش، "الأعمال الجديدة الكاملة ١، ديوان لماذا تركت الحصان وحيدًا"، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩م)، ٣٢٥.

(٢) محمود درويش، "ديوان أثر الفراشة، يوميات"، (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط٢، ٢٠٠٩م)، ١٤٣.

ما يحرم النائم من التطلع إلى سمائه
المدفونة. ومنها، كالمحاذية لساحة التروكاديرو
في باريس، ما يجعل النائم جزءًا من وتيرة
الحياة. فهو قريب من المقاهي والمتاحف
ومواعيد الأحياء، الحياة في متناول قبره
الرخامي. وحوله من تنوع الزهر والشّجر

فقبر الشهيد في وطنه محاط بالصمت، والفراغ، والخواء، وهو سلسلة لقبور لا متناهيّة، أما القبور في باريس محاطة بالحياة، والصخب. ووظف المقاهي جزءًا من وتيرة الحياة المستمرة التي تصل بين مكان الموتى (القبور)، والأحياء من حولهم، وهو ما يفتقده الفلسطيني، وأيضًا في مقاهي باريس قال[١]:

في حانوت خبز، على ناصية شارع باريسي
ضيّقٌ ... أحتسي قهوتي الأولى صباحًا
تختلط رائحة الخبز برائحة القهوة، وتوقظان
فيَّ شهيّة على حياة طازجة.. حياة

فالمقاهي الباريسيّة التي أصبحت خيارًا مفروضًا عليه –بسبب النفي، أو رحلة الاغتراب في بناء الذات– تختلف عن المقاهي الفلسطينيّة التي تُثير الجلوس فيها الحنين، وشعور الفقد لبعض مرتاديها الذين غيبهم الاحتلال، ففي باريس المقاهي ملأى بالتفاصيل، وتثير في جالسيها الحياة، فأراد أن يوصل لمتلقي نصه –لا سيما الفلسطيني الذي يُعدّ المتلقي الضمني لأكثر نصوصه– هذه الصورة لمقاهي باريس، المفارقة لبعض مقاهي وطنه التي أصبحت محاطة بالموت والفقد.

(١) محمود درويش، "ديوان أثر الفراشة"، ٢٦٠-٢٦١.

- **السياق الثقافي:**

أسهمت المكونات الثقافية في هويّة درويش الإنسانيّة، والأدبيّة، في تحديد موقفه تجاه الحياة، وما فيها من قضايا، ومن أبرزها قضية الاحتلال لوطنه فلسطين، وقد تشكّل ذلك البعد الثقافي في شخصيته بفضل عوامل عدة، ظهرت في تحولات رؤياه الشعريّة القوميّة، والوطنيّة، والأدبيّة، والذاتيّة، والوجوديّة أحيانًا، فشكّلت قنوات اتصال بينه وبين المتلقي لكل تلك الأبعاد، والمهتم بها. وقد عزّز هذا الاتصال في شعره كثيرًا من خلال التوظيف الرمزي لرموز المؤثرات التي صنعت السياق الثقافي في نصوصه الشعرية المصوّرة للقهوة أو المقهى، ويمكن إجمال تلك المؤثرات في الآتي:

- الموروث الشعبي الفلسطيني، والاتصال المباشر بالشعب، وهمومه، والوعي بتنوع عناصره البنائية.
- المعرفة الأدبيّة، والصلات الفنية بأبرز شعراء العرب المعاصرين، وتأثره بالشعر الجديد وأعلامه.
- عمله وكتابته في عدة منظمات تحرير، والاعتقالات المتكررة له، وسفره لعدة دول عربية وغيرها.

تلاقت هذه المؤثرات في شخصيته، وفكره، ورؤيته؛ فأسهمت في الإثراء اللغوي والثقافي في شعرية القهوة والمقهى التي عكست رؤيته، ومن تلك تصويره لأحد مقاهي القاهرة في النيل، وتوظيفه لنجيب محفوظ أشهر رموز الأدب العربي عامة، والمصري خاصة، الذي تميّز في اتجاهه الواقعي الاجتماعي، فجاء توظيفه في سياق مقهى المركب متماهيًا مع الأبعاد الدلاليّة التي أرادها الشاعر، فقال في قصيدة (في مركب على النيل)[1]:

(١) محمود درويش، "ديوان أثر الفراشة"، ٢٤٠.

مركب على النيل يوم الثلاثاء قهوة
وشاي ودخان سجائر وكلام عن الدنيا
التي لا نعرف غيرها أما ما يتخيله كل
واحد من المتحلقين حول نجيب محفوظ عما
وراء الدنيا، فيتقاسمه سرًّا مع طيور
تحلق فوق نهر الأبدية، وهو هو

وفي سياق آخر صوّر مقاهي بيروت، ووظّف أحد رموزها الثقافيّة والأدبية (أنسي الحاج) الذي يعدّ أحد رموز الحداثة الشعريّة، التي تأثر بهم درويش في دواوينه الثلاثة الأخيرة، "إنه يصل إلى القدرة على (الإيحاء) وهذه القدرة الفنيّة تحل محل التعبير المباشر"(١)، فقال في قصيدة (في بيروت)(٢):

ترقى إلى شرف العبث. بيروت محرومة
من نسيان جرحها، ومحرومة من تذكّر
غدها المتروك لرمية نرد في لعبة بلا
قواعد، كتجريبية شعر ما بعد الحداثة
في مقاهيها الخالية من الرواد. لا أحد
يربح والكل خاسر حتى لو قال صديقي
أنسي الحاج "والرابح يخسر والخاسر
يربح" بيروت الحزينة تخذّر حزنها

فاستخدم المقاهي في بيروت مكانًا رمزيًّا للتعبير عن حالة العبث، والشتات والحزن

(١) رجاء النقاش، "محمود درويش شاعر الأرض المحتلة"، ١٣٥.
(٢) محمود درويش، "ديوان أثر الفراشة"، ٢٦٣.

التي يعيشها المجتمع بعد الحرب، والنكبات، فكانت المقاهي الخالية من الرواد انعكاسًا لها، وشاهدًا على تلاشي معنى الحياة الآمنة فيها.

ومن أكثر المؤثرات في تكوين ثقافته الشعريّة عامة، وبواعث التصوير للقهوة والمقهى في شعره الأبعاد المجتمعيّة، والهويّة الفلسطينية الخاصة بكل عناصرها: الدينية، والمعيشية، والحضارية، والشعبية...، ومن ذلك إحدى صوره التي جسّد فيها هموم شعبه، وقضاياه، التي يريد من خلالها رسالةً تصل إلى المتلقين في كل العالم –لا سيما أصحاب السلطة، والقرار السياسي في حل قضيّة وطنه– جاعلًا من القهوة الصباحيّة أولى عتبات تلك المطالب، رمزًا للسكينة والأمان التي افتقدها شعبه؛ ليرفع من درجة الكفاية الاتصاليّة لرسالته الأدبيّة، فقال في قصيدة (نزل على البحر)[1]:

ونريد أن نحيا قليلًا لا لشيء
بل لنرحل من جديد
لا شيء من أسلافنا فينا ولكنّا نريد
بلاد قهوتنا الصباحيّة
ونريد رائحة النباتات البدائية
ونريد مقبرة خصوصية
ونريد حريّة

وفي صورة أخرى أراد إيصال أقسى معاني الدمويّة التي بثّها الاحتلال في أرجاء وطنه، وقلوب شعبه فقال في قصيدة (سنة أخرى فقط)[2]:

فلنا حق بأن نحتسي القهوة بالسكر لا بالدم
أن نسمع أصوات يدينا وهما تستدرجان الخجل الباكي

(١) محمود درويش، الديوان، الأعمال الأولى ٣، ديوان "هي أغنية هي أغنية"، ٢٤.
(٢) محمود درويش، الديوان، الأعمال الأولى ٢، "حصار لمدائح البحر"، ٤٩٥.

وفي سياق آخر صوّر في قصيدة (مأساة النرجس ملهاة الفضة) تعدد الأديان في وطنه، التي كان يرجو أن تكون وسيلة لتعدد الآراء، وقبول الفلسطيني المتعدد بهوياته المختلفة أمام الآخر الذي لا يستجيب لنداءاته، فقال(١):

من فِضّة الملهاة، كانوا يسألون ويسألون:
ماذا سنحلم حين نعلم أن مريمَ امرأة؟
كانوا يشمّون الحشائش وهي تفتح في الجدار ربيعها وجروحهم
وتعيدهم في كل منفى. لسعة القُراص تشبه لسعة الأفعى
ورائحة الحبق
هي قهوة المنفيّ.. ممشى للعواطف حين تمشي في منازلها...
وصلنا!

فلم تلقَ الهويات الفلسطينية باختلافاتها العقائدية، واتّحادها الشعبي ومطالبها بالحريّة من الاحتلال إلا السخريّة، والرفض، فكانت النتيجة "**قهوة المنفى**".

وعليه، يظهر أنَّ السياقات غير اللغويّة –خارج النص– أسهمت في صناعة البنية اللغوية لنصوصه، ورؤيته الشعرية الخاصة للقهوة والمقهى، فعكست تلك السياقات من جهة، ورفعت درجة الكفاية الاتصالية بينه وبين المحيط الاجتماعي، والسياسي، والثقافي من جهة أخرى.

(١) محمود درويش، الديوان، الأعمال الأولى ٣، ديوان "أرى ما أريد"، ٢١٩–٢٢٢.

المبحث الثاني: الرسالة الأدبية (البنى، والوظائف، والوسيلة)

إن المتأمل والفاحص لدواوين محمود درويش يرى أن القهوة والمقهى شكّلا علامة مهيمنة في رسالته الأدبيّة، وأحسن توظيفهما في بناء سياق لغوي، ومقامي عالي التواصليّة، فغالبًا ما يُلحظ في أبنيتها اللغويّة تبادل كلامي بين ذاته الشاعرة المرسلة – التي مثّلت الذات الفلسطينيّة كثيرًا– وبين الآخر الموجه إليه الكلام/ الرسالة، الذي يستقبلها، ويملأ فراغاتها النصيّة، ويكمل إنتاج المعنى فيها محدثًا (ارتدادًا عكسيًّا)[١] لتلك الرسالة.

ولكي تحقق رسالة درويش الأدبيّة كفاية تواصليّة عاليّة؛ فإنه يفترض فيها وجود مرسل إليه، يستقبل هذه الرسالة، ويكمل بناء حلقتها الدائرية التي تبدأ من الرسالة ثم تعود إليها.

ففي بناء الرسالة الأدبيّة يراعي المرسل الوظائف الست لها، بحسب مقاماتها، ويُحسن توظيف وسائلها اللغويّة النصيّة: الداخليّة، والخارجيّة، كما يتعين عليه بناء حلقة الكلام ذات الشكل الدائري بحسب (سوسير) التي تتحقق من خلال افتراض وجود شخصين الأول يرسل، والآخر يكمل طرفا الدائرة[٢]، ولكل دائرة من رسائله وظيفة لغويّة بحسب مقاصد الشاعر، والنسق البنائي لها، والعلامات اللغوية المهيمنة في النص.

وقد تحقق هذا في نصوص الشاعر؛ إذ تشمل أكثر من وظيفة: شعريّة، أو تعبيريّة،

---

(١) الارتداد العكسي: هو تبادل كلامي بين متكلم محدث لملفوظه موجّه إلى متكلّم آخر، يتلقى الرسالة ويكمل إنتاج المعنى. للمزيد ينظر: يوسف تغزاوي، "استراتيجيات تدريس التواصل باللغة مقاربة لسانية تطبيقيّة"، (عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٥م)، ١٥. وفي المبحث اللاحق تفصيل عن الارتداد العكسي، واستقبال نصوص القهوة والمقهى في تجربة الشاعر.

(٢) ينظر: فرديناند دي سوسير، "محاضرات في علم اللسان"، ٢٥.

أو تنبيهية، أو غيرها مما جعل دوائر الشاعر الكلامية عن القهوة والمقهى واسعة في مبناها، ووظائفها، وتلقيها. ومنها أحد نصوصه التي وظّف فيها المقهى مكانًا لبنيتها السرديّة، التي بنى فيها حوارًا بينه وبين ذاته والأنا التي تشعر بضياع هويتها، والتي تمثّل الأنا المشتركة للشعب كله. فقال محاورًا ذاته في قصيدة (هو هادئ وأنا كذلك)[١]:

هو هادئٌ وأنا كذلك
يحتسي شايًا بليمونٍ،
وأشرب قهوةً،
هذا هو الشيء المغاير بيننا
...
أفكر هل هو المرآة أبصر فيه نفسي؟
ثم أنظر نحو عينيه ولكن لا أراه
فأترك المقهى على عجلٍ.
أفكّر: ربما هو قاتلٌ، أو رُبما
هو عابر قد ظنَّ أني قاتلٌ
هو خائف، وأنا كذلك!

فالنص يجسّد صراع الأنا، وانشطار الهويّة في أرض فلسطين التي يعيش فيها الموت مجاورًا للحياة، والخوف مقابلًا للأمان، وكان المقهى في النص مكانًا لهذا الصراع، بين (هو) الضمير العائد على الأفكار والمخاوف والأسئلة والصراع، وبين الأنا الفلسطينية، والخاصية النصيّة للنص قائمة على الصور الحسيّة المدركة بالحواس الخمس "**يحتسي، أشرب، أطالع، لا يراني، الرائي والمرئي، أدندن...**" شكّلت هذه الصور المجسّدة

(١) محمود درويش، "الأعمال الجديدة الكاملة "١، ٩١.

للحالة الشعوريّة للشاعر في الزمن الآني، الحاضر سلسلة متعاقبة من الصور المثيرة لحواس المتلقي، والمعززة لاتصاله بها.

ورفع الشاعر درجة التواصلية في البينة النصيّة من خلال تكرار بعض البُنى اللغويّة، مثل: الضمائر، والأسئلة، والبنية التقابليّة الضديّة بين (هو) و(أنا الشاعر)؛ إذ شكّلت علامات مهيمنة في البنية النصيّة للنص، وعزّزت الوظيفتان الانفعاليّة، المعبّرة عن الذات الشاعرة وهمومها، والانتباهيّة الموجّهة لمتلقي النص الذي يريد أن يستثير شعوره بتلك الصورة التي تجمع بين المعنى وضده داخل الأنا الواحدة.

وفي مواضع متكررة يُلحظ أن محمود درويش يؤسس البنية النصيّة لنصوصه المصوّرة للقهوة أو المقاهي بالصلة بينها وبين (الجريدة)، وغالبًا ما يربط بينهما بالغربة، أو النفي؛ لتشكل تلك البُنى الثلاثة: (القهوة، والجريدة، والغربة) تفاعلًا نصيًّا داخليًّا، تشكّل المعنى الشعريّ، وتصنع وظيفة النص اللغوية، ومنه قوله في قصيدة (لم ينتظر أحدًا)[1]:

ولم يشعر بنقص في المكان،
المقعد الخشبي، قهوته، وكأس الماء
والغرباء، والأشياء في المقهى
كما هي،
والجرائد ذاتها: أخبار أمس، وعالمٌ
يطفو على القتلى كعادته/
ولم يشعر بحاجته إلى أمل ليؤنسه
كأنْ يخضوضر المجهول في الصحراء
أو يشتاق ذئب ما إلى جيتارةٍ،
لم ينتظر شيئًا، ولا حتى مفاجأة

(١) محمود درويش، "ديوان كزهر اللوز أو أبعد "، ٣٣.

فتأسست الخاصيّة اللغوية للنص على الفراغات النصية بين عددٍ من الدوال: "**المقعد الخشبي، قهوته، كأس الماء، الغرباء، الأشياء في المقهى، والجرائد**" التي كانت مؤثثات للمقهى في صورته من جهة، وعناصرَ لصورته الذهنيّة في زمنها الحاضر من جهة أخرى. والشاعر حاول من خلال البنية النصيّة للنص إيصال حالاته الشعورية (سيكولونصية) والبنى الاجتماعيّة المتضادة (سيسونصيّة) في واقعهم المعيش، فنقل إحساسه النفسي بالزمن النفسي الطويل في أحد مقاهي الغربة، ذلك الطول الذي جعله يتأمل في تفاصيله الصغيرة التي تُثير تخيّله؛ فتتعدى الصور من ذاكرته القويّة المتعلقة بالماضي. وكانت الجرائد –بصيغة الجمع– رمزًا للاتصال مع العالم بما تحويه من أخبار، وآراء، ومعلومات؛ لتخرجه من دائرة الوحدة إلى أفق التواصل مع الآخرين، ولكنها كانت رمزًا لغويًّا أحسن توظيفه لنقل الثنائيات الضديّة التي تكتظ بها أرض وطنه، فالموت أصبح ماءً يطفو على سطحه العالم، والحياة المخضرة أصبحت مجهولة، ومفقودة في صحراء الشقاء التي يحيون فيها، والغدر، والخيبة أفقدتهم حق الحياة الهانئة، فكانت النتيجة رفض الاتصال بالآخر، وتوجيه رسالة اليأس من ذاته إلى متلقٍّ ضمني يحاوره في النص " **ولم يشعر بحاجته إلى أمل ليؤنسه/ لم ينتظر شيئًا، ولا حتى مفاجأة**"، فحقق من خلال رسالته الشعرية تلك عدّة وظائف لغوية: الانفعاليّة المعبّرة عن ذاته المرسلة، ومشاعره وهمومه، والشعرية الأدبية، والانتباهيّة من خلال تكرار النفي الدالة على الخيبة، والإفهاميّة الموجّهة للمتلقي الذي يريد أن يفهم شعوره ويشاركه الإحساس بها، وفي سياق آخر كرّر الصلة بين العناصر الثلاثة: المقهى، والجريدة، الغربة قائلًا[١]:

مقهى وأنت مع الجريدة جالسٌ
لا، لست وحدك. نصف كأسك فارغٌ
والشمس تملأ نصفها الثاني

(١) محمود درويش، "ديوان كزهر اللوز أو أبعد "،٢٥.

...

مقهى، وأنت مع الجريدة جالس
في الركن منسيًّا، فلا أحد يهين
مزاجك الصافي،
ولا أحد يفكر باغتيالك
كم أنت منسي وحر في خيالك

فأصبحت علامات مهيمنة في البنية النصيّة في رسالته الأدبية معتمدًا التقنيات اللغويّة ذاتها لرفع درجات الوظائف التواصلية: الانفعالية، والانتباهيّة، والإفهاميّة، بالإضافة إلى الوظيفة الشعريّة، فأحسن التوظيف العكسي في بناء الحوار بين الشاعر وذاته، فهو المخبر عن ذاته "**مقهى وأنت مع الجريدة جالسٌ**"، وهو السائل ضمنيًّا سؤالًا محذوفًا تقديره (أكنت وحدك؟)، ثم يرتد لذاته مجيبًا: "**لا، لست وحدك**"، ثم يرفع درجة انتباه المتلقي الضمني بوصفه المدهش الانزياحي لكأس القهوة، فلم تكن كأسًا عاديّة، فـ"**نصف كأسك فارغٌ والشمس تملأ نصفها الثاني**" والشمس في هذا السياق خرجت من دائرة الدلالة المعجميّة إلى معانٍ غير مباشرة؛ لتدل على الحقيقة المطلقة، والحق الواضح للفلسطيني في أرض وطنه، والتي يتمسك بها، ويشربها يوميًّا كقهوته؛ ليُفهم المتلقي –من خلال رسالته الاحتجاجية هذه– مدى رفضه للاحتلال، ويحقق الكفاية الاتصاليّة بين المعنى الذي يريد إيصاله، والصورة المجسّدة له.

وليرفع الشاعر من درجة التواصليّة؛ عزّز الوظيفة الانتباهيّة لرسالته من خلال المفارقة بين الحريّة التي يُنعّم بها في المقهى، وفكرة الاغتيال، والقتل التي تلازمه؛ لأنه فلسطيني. وأيضًا من خلال الاستفهام التعجّبي " **كم أنت منسي وحر في خيالك**" المؤكد لدلالة المفارقة، جاعلًا منه خاتمة مفتوحة التأويلات لنصه.

وفي سياق آخر يؤسس بنية المقهى في رسالته الشعريّة، من خلال خاصية التفاعل

النصيّة ذاتها بين أهم بُنيتين: القهوة، والغربة؛ المجسّدة لحالاته الشعوريّة: الخوف، والقلق، والحنين، والأمل... والبُنى الاجتماعيّة المتضادة في واقعه. ومنه أحد نصوصه التي وظّف فيها صورة المقهى في أحد شوارع الغربة معادلًا موضوعيًّا لتجربة الحب المتأرجحة بين الوصل، والغياب. فقال في قصيدته (كمقهى صغير هو الحب)[١]:

كمقهى صغير على شارع الغرباء–
هو الحب .. يفتح أبوابه للجميع.
كمقهى يزيد وينقص وفق المناخ:
إذا هطل المطر ازداد رواده
وإذا اعتدل الجو قلّوا وملّوا
...
مقهى صغير هو الحب .. أطلب كأسي
نبيذٍ وأشرب نخبي ونخبك.

وأيضًا قوله[٢]:

نهايات هذا الممر الطويل على باب إحدى المدن
سأرمي مفكرتي في مقاهي الرصيف، سأجلس هذا الغياب
على مقعد فوق إحدى السفن

وفي مواضع عدة أحسن الشاعر تعزيز الوظيفة الانتباهيّة، بتوظيفه لبعض الرموز التراثيّة –لا سيما الدينية منها–؛ لاستثارة الهويّة، وصناعة خطاب ثوري غير مباشر يوجهه للمتلقي الفلسطيني أولًا، ثم العالم كله ثانيًا. ومن أبرزها ملحمته التاريخية (ملهاة

(١) محمود درويش، "ديوان كزهر اللوز أو أبعد "،٧٥.
(٢) محمود درويش، "الديوان، الأعمال الأولى ٣، ديوان أرى ما أريد"، ١٨١.

النرجس، ملهاة الفضّة) التي استدعى فيها رموزًا تاريخيّة، ودينية، وسياسيّة شكّلت علامات فارقة في تاريخ العرب والمسلمين، ومن ذلك قوله[1]:

أتذكرون؟

أيام غربتنا هناك؟ ويرقصون على الحقائب ساخرين

من سيرة المنفى البعيد ومن بلاد سوف يهجرها الحنين

هل تذكرون حصار قرطاج الأخير؟
هل تذكرون سقوط صور
وممالك الإفرنج فوق الساحل السوري، والموت الكبير
في نهر دجلة عندما فاض الرماد على المدينة والعصور؟
"ها قد عدنا يا صلاح الدين"..
فابحث عن بنين.
كانوا يعيدون الحكاية من نهايتها إلى زمن الفكاهة
قد تدخل المأساة في الملهاة يوما
قد تدخل الملهاة في المأساة يوما...
في نرجس المأساة كانوا يسخرون
من فضة الملهاة، كانوا يسألون ويسألون:
ماذا سنحلم حين نعلم أن مريم امرأة؟
كانوا يشمون الحشائش وهي تفتح في الجدار ربيعها وجروحهم
وتعيدهم من كل منفى. لسعة القراص تشبه لسعة الأفعى

(١) المرجع نفسه، ٢١٩-٢٢٢.

ورائحة الحبق

هي قهوة المنفي... ممشى للعواطف حين تمشي في منزلها...

وصلنا

فالنص في أعلى درجات الاتصال اللغوي بين الشاعر، والمتلقي الضمني في النص، الذي يشاركه الحوار، والمتلقي خارج النص، الذي قدّم له صورةً حسيّة عن المشهد المخزن في وطنه، فكثّف الشاعر العناصر النّصيّة التي رفعت درجة الوظيفة الانتباهيّة في الرسالة الشعريّة، والإفهاميّة الموجّهة للمتلقي، فالأولى تشكّلت في التناص، والرموز التراثية، والقصص التاريخية التي تمثّل عناصرَ في الهُويّة الجمعيّة المشتركة للعرب والمسلمين، والتي امتلأ بها النص في محاولة منه لاستثارة هذه الهُوية، والذاكرة الإنسانيّة الإسلاميّة المليئة بالبطولات، والتي يرجو استحضارها في هذا السياق، وفي الواقع المعيش، وهذه التقنية تعد احتجاجًا ورفضًا يريد إيصاله لمتلقي هذا النص. ومن تلك الرموز والأحداث: حصار قرطاج، سقوط صور، ممالك الإفرنج، غزو المغول على نهر دجلة، فتح صلاح الدين للأقصى، مريم أم المسيح عليه السلام...، ثم يهز وجدان المتلقي بصورة حسيّة تجمع بين الموت والحياة:

كانوا يشمون الحشائش وهي تفتح في الجدار ربيعها وجروحهم

وتعيدهم من كل منفى. لسعة القراص تشبه لسعة الأفعى

ورائحة الحبق

هي قهوة المنفي... ممشى للعواطف حين تمشي في منزلها...

فالموت أضحى في أرضه مثل النباتات السامة (القراص) التي تنمو وسط حشائش الحياة المخضرّة، وهي تشبه لسعة الأفعى في سرعتها وقوتها، ثم يعطف على المشبه به بمعطوف حسي فيه انزياح تركيبي ودلالي "**ورائحة الحبق**"، ثم يتعبها بجملة خبرية لازمة الفائدة "**هي قهوة المنفى**"، فهي ضمير عائد على كل تلك الرموز اللغوية، والأبعاد

الدلاليّة التي جسّدت الثنائية الضدية (الموت/ الحياة، والمأساة/ الملهاة).

كما كرر الشاعر الاستفهام التعجبي الاستنكاري، أبرزها قوله: "**ماذا سنحلم حين نعلم أن مريم امرأة؟**" والمقابلة في بنية النص بين المعاني، والدوال، لتتأسس البنية الدلاليّة للنص على ثنائيات ضديّة: الموت/ الحياة، المأساة/ الملهاة، الرقص/ البكاء...

كل تلك التقنيات اللغويّة التي أعلى بها درجة شعريّة رسالته، وأثار انتباه متلقيها هدفها الأساس، ووظيفها الأولى (الإفهاميّة) فهي الوظيفة المهيمنة في الرسالة أكثر من سواها؛ إذ يريد أن يوصل إليه عمق المعاناة، والخطر التي يحيا فيه المسلم في أرض فلسطين؛ ليشاركه الإحساس في أرض قصيدته.

ويمكن القول بعد هذه الشواهد إنَّ محمود درويش أحسن توظيف القهوة أو المقهى بوصفهما علامتين لغويتين مهيمنتين في العديد من رسائله الأدبيّة، ووسع دائرتها الدلالية، فأخرجها من المعاني الأوليّة إلى المعاني الثواني، واقترن أكثرها بأبعاد اجتماعيّة، أو سياسيّة، أو إنسانيّة عامة، وقد تكون القهوة أو المقهى مفتتحًا لصورة شعريّة، أو نهاية لها، ولكن الأكثر يجعل منها بؤرةً مركزيّة يدور النص، وأبعاده الدلاليّة في دائرتها.

ومما رفع مستوى الوظيفة الشعريّة لهما إخراجه لها من دائرة اللغة الكبرى، أو الاستخدام الجمعي، والاجتماعي لدوال القهوة ومدلولاتها إلى دائرة الكلام الخاص، أو الاستخدام الفردي[1]، فـ"إذا كانت اللغة تعتمد على استثمار الكلمات، وتوظيفها من أجل بناء الجمل؛ فإنَّ الفكر أو بالأحرى "لغة" الفكر تعتمد على استثمار المفاهيم،

(١) ثنائية اللغة والكلام أبرز الأدوات التي استغلتها المناهج النقديّة لا سيما المنهج الأسلوبيّ؛ لتفسير العمليّة الإبداعيّة في ضوء اللغة الموظّفة على مستواها، وعلاقتها بالذهن وبحيّز الاستعمال. للمزيد ينظر: خيرة بن علوة، "ستر المعنى في ضوء القراءة العكسيّة للعلاقات الاستبداليّة"، (عمّان: مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م)،٦٩.

وأحيانًا على إبداعها من أجل بناء الأفكار"[١]، فاستطاع الشاعر بناء تراكيبه النسقيّة الخاصة للقهوة والمقهى، متجاوزًا الوظيفة التواصليّة الأوليّة/ الحياتية للكلام، أو تسمية الأشياء بأسمائها إلى وظائف لغويّة أوسع. فتضمّنت نصوصه الشعريّة عددًا من الوظائف اللغويّة الست في رسالته الشعريّة ذات الأبعاد السياقيّة الواسعة، تمر بمراحلَ أربع يمكن إيجازها في الآتي:

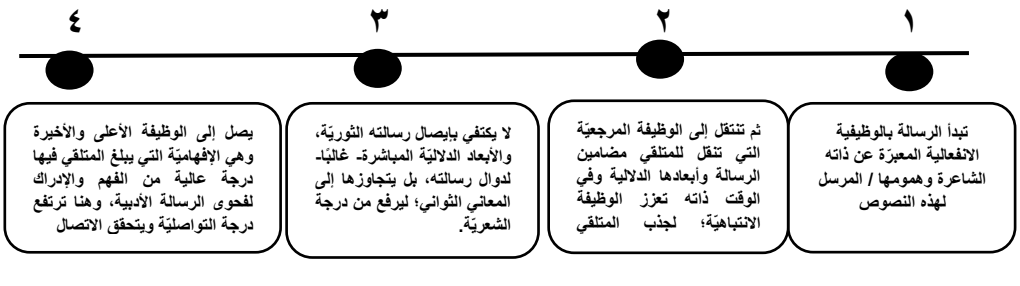

فالرسالة الشعريّة عند محمود درويش عامةً، ورسائل القهوة والمقاهي خاصةً لا تقف عند الوصف المباشر، أو البعد الذاتي للغة؛ لذا يلزم تجاوز دراسة لغة نصوصه في ذاتها، ولذاتها في هذا السياق، والنظر في البُنى التشكيلية، والدلاليّة للعلاقات الاستبداليّة والتوزيعية لدوال القهوة والمقهى مع بقية دوال النصوص الشعريّة، وفك وتركيب ثنائية هذه العلاقة؛ لاستكناه ما وراءها من وظائف لسانيّة، وسياقيّة.

فصنع محمود درويش شعريّةَ دوال القهوة، والمقهى في شعره من خلال تقاطع العلاقات الاستبداليّة بين الدوال ومدلولاتها الثواني، والتي تُدرك بالإيحاء والفهم بحسب المعرفة اللغويّة في الذاكرة الجمعيّة المشتركة، فهي علاقة اختياريّة/ غيابيّة يبنيها الشاعر بين الدال، ومدلوله خارج البناء اللغوي المحسوس/ الحاضر، "فالكلمات التي تشترك في

(١) فرانسوا ريكاناتي، تر: الحسين الزواي، "فلسفة اللغة والذهن"، (ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠١٦م)، ١٠.

أمر ما ترتبط معًا في الذاكرة... فالارتباطات التي تقع خارج الحديث لا يدعمها التعاقب الخطي، ويكون مكانها الدماغ: فهي جزء من الذخيرة الداخليّة للغة التي يملكها كل متكلم"(١). فتنتج نصوصه دلالات شعريّة متعددة الاحتمالات، فالدلالة في الشعر تتأرجح بين عدّة احتمالات، ويبقى النص ملهمًا وقادرًا على الإيحاء والتأثير؛ لأن الرؤية الكلية التي يستند إليها الشاعر في نظرته للحياة ومفارقاتها حاضرة بقوة في العمل الشعري، ونحن نكتشف هذه الرؤية من خلال حركة السياق داخل النص(٢).

فصوّر محمود درويش –من خلال توزيع تلك العلاقات اللغويّة في رسالته الشعريّة– البعد الإدراكي لذاته الشاعرة، وعلاقتها بالعالم من حوله، والبُعد التشكيلي في علاقته مع نصوصه الشعريّة، واختياراته اللغويّة، والبُعد التأثيري الاتصالي الذي يربط نصوصه بمتلقيها(٣)، وتتشكل تلك العلاقات الإيحائية لمدلول القهوة والمقهى، من خلال العلاقات التركيبية البنائية في المحور الأفقي السياقي، المتقاطعة محور العلاقات الاستبداليّة الدلاليّة؛ فتتسع دائرة الدلالة وتصبح دالةً على معانٍ أكثر، بحسب السياقات المؤسسة لها، وبحسب درجة التأثير والتلقي لنصوصه.

(١) سوسير، "علم اللغة العام"، تر: يوئيل يوسف عزيز، (دار آفاق عربية: بغداد، ط١، ١٩٨٥م)، ١٤٢– ١٤٣.

(٢) ينظر: سامي عبد العزيز العجلان، "قمر في أقاصي الكلام – قراءات نقدية في الشعر السعودي المعاصر"، (دار أدب للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٤٤هـ)، ١٦.

(٣) شعرية النص بحسب رأي القرطاجني، وكما شرحها جابر عصفور، تقوم على ثلاثة أبعاد: بُعد إدراكي، وبُعد تشكيلي، وبعد تأثيري. للمزيد ينظر: جابر عصفور، "مفهوم الشعر"، (دار التنوير، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م)، ١٥٩ وما بعدها.

المبحث الثالث: المتلقي، والارتداد العكسي

يعدُّ المتلقي/ المرسل إليه آخر عناصر الاتصال في أي رسالة، ومن دونه لا يتحقق، وتبقى الرسالة عند مرسلها دون استقبال وإدراك وتأثير. ويشغل المتلقي دورًا بارزًا في البنية اللغويّة والقصديّة في النصوص الشعريّة؛ لأنه كان حاضرًا –ضمنًا أو قصدًا– في ذهن المرسل أثناء صناعة رسالته، "وقد أشار اللغويون القدماء في التراث العربي إلى تأثير المرسل إليه على المرسل، عند إنتاج خطابه؛ إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللغوي... ولم يقفوا عند هذا الأمر، بل أبرزوا دوره أيضًا في سياق الخطاب، وأثر ذلك على الخطاب تداوليًّا"(١).

كما أنَّ المتلقي جزء من السياق المقامي، وشريك للمبدع في صناعة الأبعاد الدلاليّة، وتوسيع دائرة المعنى، والأفق التأويلي من خلال فهم وإدراك سياق النص، والمشاركة في إكمال فراغاته، وكشف مغاليق معانيه، وهو ما يُسمى في الخطاب النقدي بمسافة التوتر، أو الفجوة، "وهو الفضاء الذي تُشكّل فيه بنية من العلاقات المتشابكة بين النص والمتلقي. هذا الفضاء هو أيضًا تجسيد للفجوة، مشحون بها، مشغول بها"(٢)، فنجاح الاتصال في النصوص الشعريّة، وإعلاء درجة تواصليتها مرهون بدرجة كبيرة بفهم المتلقي لمقاصد النص، والتفاعل معها.

وقسّم النقاد إستراتيجية اتصال المتلقي وتفاعله مع النصوص إلى نوعين(٣):

- **الاتصال المتعادل بين النص والقارئ.**
- **الاتصال المنحرف بين النص والقارئ.**

---

(١) عبد الهادي الشهري، "استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداوليّة"، (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م)، ٤٧.

(٢) كمال أبو ديب، "في الشعريّة"، (مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م)، ٨٣.

(٣) ينظر: مراد مبروك، "من صوت الذات إلى سلطة النص"، ١٧٥.

الأول وهو ما يبتغيه الشاعر، ويتحقق من خلال فهم وإدراك متسق مع السياق اللغوي والمقامي للنص، يمكّن المتلقي من إكمال فراغاته، وتأويل دلالاته دون انحراف عن المقاصد الكبرى، والرئيسة التي أرادها الشاعر. أما الثاني فهو سلبي، "وأسبابه عدم إدراك القارئ لفهم النص، وانعدام السياق الضابط بين النص والقارئ"(١).

ويعدُّ هذا الاتصال بنوعيه ارتدادًا عكسيًّا، وقد انقسم إلى قسمين:

مباشر: ويعدُّ اتصالًا أوليًّا، يتحقق في النصوص ذات الدلالة القُربى إلى المباشرة، والتي تكون مدركة عند المتلقي العادي، ولا تحتاج إلى تأويل، أو فك وتركيب في البنى اللغويّة؛ للكشف عن البُعد الدلاليّ العميق في النص، بل غالبًا ما تكون مدركة إدراكًا أوليًّا، وكثيرًا ما يكون هذا النوع من الارتداد التواصلي في النصوص التي تُعبّر عن المجتمع، وتجسّد مشاعرَ مشتركة بين أفراده، فتردّد في هذه المجتمعات، ويتغنى بها، وتصبح شعارات في بعض خطبه، وأماكنه. ومنها قوله(٢):

أحنُّ إلى خبز أُمي
وقهوةِ أُمي
ولمسةِ أمي....
وتكبرُ فيّ الطفولةُ
يوماً على صدر يومِ
وأعشق عمري لأني
إذا مُتُّ،
أخجل من دمع أُمي!

وقوله:

(١) ينظر: مراد مبروك،" من صوت الذات إلى سلطة النص"، ١٩٧.

(٢) محمود درويش، "الديوان، الأعمال الأولى ١، ديوان عاشق من فلسطين"، ١٠٦.

مقهى وأنت مع الجريدة جالسٌ
لا. لست وحدك. نصف كأسك فارغٌ
والشّمس تملأ نصفها الثاني ...

وهذا النوع من الارتداد العكسي يبدأ أولًا من الدهشة التي يحققها النص في نفس متلقيه، ثم من القدرة الكفاية على التعبير عن مشترك جمعي مثل الوحدة، والألم، والحنين للأم والوطن، والشعور بالاغتراب...، وهذا النوع من التلقي الأكثر تداوليًّا لنصوصه، فالمتلقي العادي يفهم المعنى، والدلالة السطحيّة، وتصله رسالة الشاعر ومقصده. والمتلقي في هذا الاتصال المباشر يكون مندهشًا ومستمتعًا، وليس منتجًا، أو مكملًا لفراغات النص، بل يحافظ على البنية اللغوية لها، ويردّدها في شعاراته الثوريّة، أو يكتبها في جدران مقاهيه، ومؤثثاتها.

– **غير مباشر**: ويُعدُّ اتصالًا ثانويًّا؛ إذ ينتقل المتلقي هنا إلى مرحلة لاحقة، وأكثر عمقًا؛ إذ يتجاوز الاتصال المباشر بسطح النص إلى عمقه الدلالي، ويكون منتجًا، ومشاركًا في إكمال فراغات النص، وهذا النوع يتحقق في الدراسات النقديّة، والمقالات الأدبيّة، أو الثقافيّة، أو السياسيّة. وهذا النوع من الارتداد يناسب النصوص التي تتعدّد وظائفها اللغويّة، فلا تقتصر على الوظيفة التواصلية المباشرة، وتكون الوظيفة الشعريّة مهيمنة على ما سواها من وظائف، فالنصوص التي تضم رموزًا لغويّة، أو تراثية، وتتجاوز المعاني المباشرة للدوال للقهوة والمقهى إلى الضمنية غير المباشرة؛ تحتاج إلى وسيط بينها وبين المتلقي العادي، وهو الناقد، وقد ساعد على تحقيق الوظائف الاتصالية بكفاية عالية في هذا النوع أن الوسيلة الاتصالية لنصوص الشاعر عن القهوة والمقهى كلها كانت مكتوبة، ومطبوعة في دواوين؛ مما يقلل فرص التشويش في استقبال نصوصه، كما لو كانت شفاهيّة، أو منقولة عبر وسيط أقل كفايةً.

ويدخل فيها كل المقالات والدراسات النقديّة التي كُتبت عن القهوة والمقهى في

شعر محمود درويش، ومنها هذه الدراسة، ومنها أيضًا:

م	الدراسة	الأبعاد والوظائف اللغوية التي ركزت عليها
١	**القهوة وأبعادها الوجودية في شعر محمود درويش**. مقالة مكونة من ٩٣٣ كلمة كتبها كريم الطيبي، نشرها في ١٠ أغسطس ٢٠١٦م في موقع ثقافات الشبكي التابع لوزارة الثقافة الأردنية. **https://thaqafat.com/2016/08/61315**	تناول الأبعاد الدلالية للقهوة في شعره، ومكانتها، وطقوسها اليومية في حياته، وخلصت المقالة إلى نتيجة مفادها أن القهوة ارتبطت عند محمود درويش بالعزلة والوحدة، ولا شك في أن هذه المعاني تتواشج مع صفاتٍ نفسية أخرى تسببت فيها الاضطرابات الوجودية التي رافقت حياة الشاعر.
٢	**القهوة في شعر محمود درويش: دراسة دلالية**. بحث مشترك منشور في مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها عام ٢٠٢٠م. والبحث مكون من ٢٢ صفحة نشرت في العدد ٥٣ في تخصص الآداب. https://cutt.us/cZlBl	لم يتسنَّ الحصول على نسخة من البحث، ولكن يبدو من عنوانه، واختصاصه أنه يركز على السياق الدلالي لنماذج مختارة من شعر الشاعر، وليس كله؛ لأن الشواهد الشعريّة في كل شعره أكثر من صفحات البحث بكثير.
٣	**قصيدة سرحان يشرب القهوة لمحمود درويش: دراسة دلالية**، مقالة علمية مكوّنة من ٣ صفحات. نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية في ماليزيا لـ د. نور الحنيلة عصمت. وهي أستاذة في قسم اللغة العربية في الجامعة. http://irep.iium.edu.my/94810/	المقالة من شواهد تلقي شعرية القهوة من الناطقين بالعربية لغةً ثانية، وهذا يدل على ارتفاع درجة التواصلية بين الشاعر/ المرسل، والمتلقين؛ لتحقق درجة عالية من الكفاية اللغوية في نصوصه التي منعت التشويش.

والمتأمل في نصوص محمود درويش عامة، وشعريّة القهوة والمقهى خاصة، يلحظ أن بنيتها اللغويّة ذات طابع سردي حكائي، لصورة كليّة مبنية على حوار ضمني، أو مباشر بين الذات الشاعرة ومتلقٍ لها كان حاضرًا في ذهن الشاعر أثناء صناعة نصوصه، وجعله شريكًا له في المبنى الحواري في تلك المقاهي المصوّرة. هذا المتلقي هو ما سماه (آيزر) القارئ الضمني، وهو الذي لا يقف عند حدود الفهم للمعنى المختبئ في النص، بل يتجاوزه للمعنى الذي ينشأ نتيجة التفاعل بين القارئ والنص، أي المعنى بوصفه أثرًا يمكن ممارسته، وليس موضوعًا يمكن تحديده، وهذا التفاعل بين النص والقارئ وقدرته على إنتاج المعنى هو أساس نظرية الاتصال، وبنية الأدب الإبلاغية(١).

(١) ينظر، روبرت هولب، "نظرية التلقي"، ١٨-١٩.

وقد تجسّد حضور هذا المتلقي المباشر القصدي، أو الضمني من خلال الضمائر المتصلة، أو المنفصلة العائدة على متلقٍّ متكرر في أكثر نصوصه، وهو الفلسطيني في وطنه، الذي يقاسي الحروب، والاحتلال، والفقد، وخارج وطنه الذي يعاني الغربة، والحنين؛ ولأن محمود درويش كان هذا الفلسطيني في مراحل عدة من حياته، فرضتها عليه ما ذكرناها في المبحث الأول، فإنّه أول المتلقين لنصوصه، والحاضرين فيها ضمنًا، وتصريحًا، فكانت ذات بُعد ذاتي في المقام الأول، ويعدُ أول مفاتيح وإستراتيجيات تلقّي نصوصه.

ويمكن إيجاز بعض أنماط عناصر الاتصال الأربعة: المخاطِب، والمخاطَب، والرسالة، والسياق في بعض نصوصه –والتي تكشف الأبعاد الثلاثة الرئيسة: البعد الإدراكي الذي يربط الشاعر بالعالم، والبعد التشكيلي الذي يصوّر علاقته بالعمل، والتأثيري الجامع بين النص والمتلقي– في الجدول الآتي:

المرسل/ المخاطِب	المرسل إليه/ المخاطَب	سياق النص	النص الذي وردت فيه
الأنا الشاعرة حاضرة بضمير منفصل (نحن) عائد على المشترك الجمعي لكل الفنانين في بلده، ذوي الحس المرهف تجاهه	الذات الفلسطينية الجمعيّة التي تقاسي الاحتلال	الحب- الانتماء للوطن- الاغتراب المقاومة والرفض	– لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي – في مركب على النيل
الذات الشاعرة المغتربة	الفلسطيني، الفاقد لصديقه في أرض وطنه	صراع الخلود، والموت فالحياة في الوطن المليئة بالموت، والغربة عنه مكتظة بالحياة دون أنيس	– فاكهة الخلود
الذات الشاعرة المحبة	المرأة	الحب/ الرغبة	– حوض خزامى – كمقهى صغير هو الحب
الذات الشاعرة المغتربة	أنا الشاعر	الحنين للوطن، والتفكير الوجودي في بدايات الحياة ونهاياتها	– حياة مبتدئة – مقهى وأنت مع الجريدة – لم ينتظر أحدًا – هو هادئٌ وأنا كذلك – رباعيات – تأملات سريعة في مدينة قديمة وجميلة – قصيدة بيروت
الذات الشاعرة المغتربة	شعراء بيروت الحداثيون	سياق الحرب والعبث الذي طال بيروت	– في بيروت
الذات الشاعرة	الفلسطيني الذي يشعر بغربة عن الذات في وطنه	سياق الترقب والقلق من غارات الحرب في وطنه	– في البيت أجلس – متتاليات لزمن آخر – تأملات سريعة
الذات الشاعرة العائدة على كل الفلسطينيين	كل العالم	الرفض للاحتلال، والرغبة في السلام	– سنونو التتار – نزل على البحر
الذات الشاعرة التي تقاوم الاغتيال	العدو	الاغتيال والحرب	– يعانق قاتله

المرسل/ المخاطِب	المرسل إليه/ المخاطَب	سياق النص	النص الذي وردت فيه
الشاعر المسجون	الأحباب والأصدقاء خارج السجن	رفض الاحتلال والحنين للحرية	– أربعة عناوين شخصية – اللقاء الأخير في روما
الذات الشاعرة	الفلسطيني الشهيد	مقاومة الموت	– سنة أخرى فقط – الحوار الأخير في باريس (لذكرى عز الدين قلق)

وتبقى دلالات هذه النصوص بحسب سياقاتها، وبقية عناصر اتصالها، رسالةً غامضة (Message ambigu) على حد قول (أمبرطوإيكو)؛ إذ يُقرُّ أنَّ النص ينتج اعتمادًا على تعاون المؤلف والقارئ، وهو منفتح على مجموعة لا نهائية من التأويلات، فالنص مفتوح، ولا يقتصر دور القارئ على التلقي الانفعالي، ولكنه يتجاوزه ليمارس دورًا إبداعيًّا وتأويليًّا[١].

(١) ينظر: خديجة غفيري، "سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي"، (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١٢م)، ٢٧ بتصرّف.

الخاتمة

أولًا: شكّلت القهوة والمقهى علامتين لغويتين مهيمنتين في شعر محمود درويش، منذ دواوينه الأولى إلى الأعمال الأخيرة، وأحسن الشاعر توظيف البُعد الاجتماعي لهما، بوصفهما رمزين لمشاركة الأحاديث، واستقبال الأهل والصحب، وأحد مكونات الصباح المنعّم، الآمن، المستقر.

ثانيًا: أسهمت السياقات غير اللغويّة –خارج النص– في صناعة البنية اللغوية لنصوصه، ورؤيته الشعرية الخاصة للقهوة والمقهى، فعكست تلك السياقات من جهة، ورفعت درجة الكفاية الاتصالية بينه، وبين المحيط الاجتماعي، والسياسي، والثقافي؛ لأنها كانت أبرز منابع الصور التصوريّة لها، ثم عادت إليها في بنية شعريّة ذات كفاية اتصاليّة عالية، وكانت الصور السمعيّة، والبصريّة، والاسترجاعيّة الاستذكاريّة التي كانت أساسًا للإدراك والوعي أولًا، ثم الشعري.

ثالثًا: كَثُر توظيف محمود درويش للقهوة والمقهى في شعره توظيفًا رمزيًّا؛ ففنجان القهوة، وأماكن شربها موظفة في بنية تواصليّة أدبيّة عالية، كانت شكلًا من أشكال التواصل اللغوي غير العادي، فهي وسيلة لغويّة شعريّة لرسالة اجتماعية، أو سياسية، أو ثقافيّة، أو كلها معًا –وهذا الأكثر– أراد إيصالها للمتلقي الضمني في نصوصه من جهة، أو المتلقي خارجها.

رابعًا: حققت شعرية القهوة والمقهى في شعر الشاعر درجةً عاليةً من الاتصال الأدبي، تجلّى في نوعين من التلقي، والارتداد العكسي: المباشر، وهو الأكثر، ومنه ما يتحقق في الاتصال الإنساني العام بين الشاعر، والأوساط الشعبية في وطنه، أو الإنسانية عامةً خارجها؛ إذ أصبحت بعض نصوصه عن القهوة والمقهى شعارات تُردّد لدى المتلقين غير المتخصصين في اللغة، أو نقدها، وتحليل خطابتها؛ مما يؤكد أن الرسالة الشعريّة لهما نجحت في رفع درجة الكفاية

الاتصالية. وآخر غير مباشر، وهو الأقل تجلى في الدراسات اللغويّة لنصوصه الشعريّة عن القهوة والمقهى، ومنها هذا البحث.

خامسًا: لوحظ أنَّ الرسالة الشعريّة للقهوة أو المقهى في نصوص محمود درويش تبدأ من ذاته الشاعرة، إلى الآخر، ولم يوظف في كل نصوصه مرسلًا غيره، فالقهوة قهوته، والمقهى ما كان يجلس فيه هو، وكلامهما رمزان لذكرياته، وانتماءاته، ثم ينطلق منها إلى فضاءات دلالية أرحب.

سادسًا: لوحظ أن القهوة والمقاهي في شعره كانت وسائلَ اتصال رمزيّة، تربطه بأهله، بدءًا بأمه، ثم الأصدقاء، وصولًا إلى كل وطنه فلسطين، لا سيما في سياقات الغياب، والفقد، والاغتراب، وفي هذا دلالة على أن القهوة، ومقاهيها تحتل مكانةً اجتماعيّة اتصاليّة في ثقافة الشاعر.

سابعًا: ضمّت الرسائل الشعريّة للقهوة، والمقهى في شعره وظائفَ لغويّة عدة، تبدأ منه بوصفه المرسل، وهي الوظيفة الانفعاليّة، أو التعبيريّة، إلى المتلقي في دورها الإفهامي، عبر الوظيفة المرجعيّة حينًا، والشعريّة حينًا آخر، وقد تحققت تلك الوظائف الاتصاليّة في المبنى النصي للرسالة الشعريّة من خلال بعض التقنيات اللغويّة، مثل: ضمائر الخطاب، والأسئلة، والنفي، والطباق، والفراغات النصيّة بين بعض الدوال؛ ليرفع درجة الانتباهيّة لدى المتلقي، ويحفزه على التفاعل معها، والارتداد العكسي لها.

المصادر والمراجع

المصادر:

درويش، محمود:

الأعمال الجديدة الكاملة ١، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩م.

ديوان أثر الفراشة، يوميات، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط٢، ٢٠٠٩م.

ديوان كزهر اللوز أو أبعد، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.

ديوان لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩م.

الديوان، الأعمال الأولى ١، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.

الديوان، الأعمال الأولى ٢، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.

الديوان، الأعمال الأولى ٣، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.

المراجع:

أبو ديب، كمال، **في الشعريّة**، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٧م

الأهدل، ماجد عدنان، **ديوان القهوة شعر قهوة البن من القرن التاسع الهجري**، الكويت: دار صوفيا، ٢٠٢٢م.

أيوب، نبيل، **النقد النّصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات**، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠١١م.

بن علوة، خيرة، **ستر المعنى في ضوء القراءة العكسيّة للعلاقات الاستبداليّة**، عمّان: مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م.

تزفيطان تودروف، تر: عبد الرحمن بو علي، **نظريّة الأجناس الأدبيّة دراسة في التناص**

والكتابة والنقد، دمشق: دار نينوى، ٢٠١٦م.

توفيق الزيدي، **أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث**، تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.

ثغزاوي، يوسف، **إستراتيجيات تدريس التواصل باللغة مقاربة لسانية تطبيقيّة**، الأردن: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٥م.

الجباري، مشهور عبد الرحمن، **شعر القهوة البن في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، دراسة موضوعية**، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، ع١، ٢٠٠٢م.

رمضان، صالح، **التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية**، الدار البيضاء/ الرياض: المركز الثقافي العربي/ نادي الرياض الأدبي، ط١، ٢٠١٥م.

روبرت هولب، تر: عز الدين إسماعيل، **نظرية التلقي**، جدة: نادي جدة الأدبي الثقافي، ط١، ١٩٩٤م.

رومان جاكبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون، **قضايا الشعرية**: الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط،١، ١٩٨٨م.

سعيد، إدوارد، تر: محمد عصفور، **العالم والنّص والناقد**، بيروت: دار الآداب، ط١، ٢٠١٧م.

سوسير، **علم اللغة العام**، تر: يوئيل يوسف عزيز، بغداد: دار آفاق عربية، ط١، ١٩٨٥م.

الشهري، عبد الهادي، إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداوليّة، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٤م.

الطيبي، كريم، **القهوة وأبعادها الوجودية في شعر محمود درويش**، مقالة منشورة في موقع ثقافات الشبكي التابع لوزارة الثقافة الأردنية،**https://thaqafat.com/2016/08/61315**تاريخ زيارة الموقع ١/ ٤/ ١٤٤٥هـ.

العجلان، سامي عبد العزيز، **قمر في أقاصي الكلام**، الرياض: دار أدب للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٤٤هـ.

عصفور، جابر، **مفهوم الشعر**، بيروت: دار التنوير، ط٣، ١٩٨٣م.

عصفور، جابر، **نظريات معاصرة**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

عصمت، نور الحنيلة، **قصيدة سرحان يشرب القهوة لمحمود درويش: دراسة دلالية**، مجلة الجامعة الإسلامية في ماليزيا. **http://irep.iium.edu.my/94810/** تاريخ زيارة الموقع ١/ ٤/ ١٤٤٥هـ.

غفيري، خديجة، **سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي**، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط١، ٢٠١٢م.

فرانسوا ريكاناتي، تر: الحسين الزواي، **فلسفة اللغة والذهن**، الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٦م.

فرديناند دي سوسير، تر: عبد القادر قنيني، **محاضرات في علم اللسان**، المغرب: أفريقيا الشرق، ط٣، ٢٠١٦م.

كشاورزي، كريم، وآخرون، **القهوة في شعر محمود درويش: دراسة دلالية**، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها عام ٢٠٢٠م، ع ٥٣. **https://cutt.us/cZlBl** تاريخ زيارة الموقع ١/ ٤/ ١٤٤٥هـ.

لطفي، مصطفى، **اللغة العربية في إطارها الاجتماعي**، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٧٦م.

مبروك، **مراد، من صوت الذات إلى سلطة النص**، القاهرة/ نادي نجران الأدبي: أروقة للدراسات والترجمة، ط١، ٢٠١٤م.

محمود، جودت شاكر، الاتصال في علم النفس، عمان: دار صفاء، ط١، ١٤٣٤هـ.

معيكل، أسماء، **الأفق المفتوح نظرية التوصيل الروائي المعاصر**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٣م.

النقاش، رجاء، **محمود درويش شاعر الأرض المحتلة**، القاهرة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط١، ٢٠١١م.

Bibliography

Abu Deeb, Kamal. "On poetics" (in Arabic) (1st ed.). Beirut: Mu'assasat al-Abhath al-'Arabiyyah, 1987.

Al-Ahdal, Majed Adnan. "The diwan of coffee: coffee poetry from the 9th century hijra", (in Arabic) (1st ed.). Kuwait: Dar Sufiya, 2022.

Al-Ajlan, Sami Abdulaziz. "A Moon in the Farthest Reaches of Speech" (in Arabic). 1st ed. Riyadh: Adab Publishing and Distribution, 2023.

Al-Jibari, Mashhur Abdulrahman. "Coffee Poetry by Ibn in the 10th Hijri/16th Century, A Thematic Study" (in Arabic). Journal of Al-Quds Open University for Research in Humanities and Social Sciences, issue 1, 2002.

Al-Naqqash, Raja. "Mahmoud Darwish, Poet of the Occupied Land" (in Arabic). 1st ed. Cairo: Atlas for Publishing and Media Production, 2011.

Al-Shehri, Abdulhadi. "Discourse Strategies: A Pragmatic Linguistic Approach" (in Arabic). 1st ed. Beirut: Dar Al-Kitab Al-Jadid Al-Muttahidah, 2004.

Altaybi, Karim. "Coffee and Its Existential Dimensions in Mahmoud Darwish's Poetry" (in Arabic). Article published on Thaqafat website, affiliated with the Jordanian Ministry of Culture. https://thaqafat.com/2016/08/61315. Accessed April 1, 2024

Asfour, Jabir. "Contemporary Theories" (in Arabic). Cairo: Egyptian General Book Organization, 1998.

Asfour, Jabir. "The Concept of Poetry" (in Arabic). 3rd ed. Beirut: Dar Al-Tanwir, 1983.

Ayyub, Nabil. "Textual Criticism and Discourse Analysis: Theories and Approaches" (in Arabic). (1st ed.). Beirut: Maktabat Lubnan Nashirun, 2011.

Bin Alwah, Khaira. "Concealing Meaning in Light of the Inverse Reading of Substitutional Relations" (in Arabic), (1st ed.). Amman: Al-Waraq Publishing and Distribution. 2014.

Darwish, Mahmoud. "The complete new works" (in Arabic), (1st ed.). Beirut: Riyadh al-Rayyes Books, 2009.

Darwish, Mahmoud. "As far as almond blossoms or beyond" (in Arabic), (1st ed.). Beirut: Riyadh al-Rayyes Books, 2005.

Darwish, Mahmoud. "I don't want this poem to end" (in Arabic), (1st ed.). Beirut: Riyadh al-Rayyes Books, 2009.

Darwish, Mahmoud. "The butterfly effect, diaries diwan" (in Arabic), (2nd ed.). Riyadh al-Rayes Books and Publishing, 2009.

Darwish, Mahmoud. 'The Diwan: the early works" (in Arabic) (Vols. 1-3). Beirut: Riyadh al-Rayyes Books, 2005.

DE SAUSSURE, Ferdinand. "Writings in general linguistics" (in Arabic). Oxford University Press, 2006.

Francois, Recanati. "Philosophy of language and of the mind" (in Arabic), Gallimard, 2008.

Ghafiri, Khadijah. "The Authority of Language between the Acts of Authoring and Receiving" (in Arabic). 1st ed. Casablanca: Africa East, 2012.

Holub, Robert. "Reception theory" (in Arabic). Routledge, 2013.

Ismath, Nurul Hanilah Mohd, "Mahmoud Darwish's Poem "Sarhan Drinks Coffee": A Semantic Study". Journal of the International Islamic University Malaysia, issue. 13 (2021): 117-121.

Jakobson, Roman. "Linguistics and Poetics" (in Arabic) In Style in Language, edited by Thomas A. Sebeok, 350-377. Cambridge, MA: MIT Press, 1960.

Keshavarz, Karim. "Coffee in Mahmoud Darwish's Poetry: A Semantic Study" (in Arabic). Iranian Scientific Association for Arabic Language and Literature Journal, no. 53, 2020.

Lutfi, Mustafa. "The Arabic Language in Its Social Context" (in Arabic). Beirut: Arab Development Institute, 1976.

Mabrouk, Murad. "From the Voice of the Self to the Authority of the Text" (in Arabic). 1st ed. Cairo/Najran Literary Club: Arwiqa for Studies and Translation, 2014.

Mahmoud, Jawdat Shakɔr. "Communication in Psychology" (in Arabic). 1st ed. Amman: Dar Safa, 2013.

Muʿayqil, Asma'. "The Open Horizon: The Theory of Contemporary Narrative Communication" (in Arabic). 1st ed. Beirut: Arab Institution for Studies and Publishing, 2013.

Ramadan, Salih. "Literary Communication from Pragmatics to Cognition" (in Arabic). 1st ed. Casablanca/Riyadh: Arab Cultural

Center/Riyadh Literary Club, 2015.

Saʿīd, Edward. "The world, the text, and the critic" (in Arabic). Harvard University Press, 1983.

Saussure, Ferdinand de. "Lectures on General Linguistics" (in Arabic). (3rd ed). Morocco: Africa East, 2016.

Thaghrawi, Yusuf. "Strategies for Teaching Communication in Language: An Applied Linguistic Approach" (in Arabic). 1st ed. Jordan: Alam Al-Kutub Al-Hadith, 2015.

Todorov, Tzvetan. "The Theory of Literary Genres: A Study in Intertextuality, Writing, and Criticism" (in Arabic). Dar Ninawa, 2016.

Zaydi, Tawfiq. "The Impact of Linguistics on Modern Arabic Criticism" (in Arabic). Dar Al-Arabiya Lil-Kitab, 1984.

المجاز وتعدد النسق

دراسة تطبيقية في قصيدة (اللحن الحزين) لرهف المبارك

The Function of "The Figurative Language in Poetic Text in Light of the Multiple Formats

An Empirical Study of the (Sad Melody) Poem by Rahaf Al-Mubarak

د. علي بن محسن مشعوف

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الفنون والعلوم الإنسانية بجامعة جازان

البريد الإلكتروني: abuyazan1401@hotmail.com

ملخص البحث:

ارتبطت الوظيفة الفنية لمباحث علوم البلاغة بالنسق الذي انطلقت منه الرؤية النقدية في تحليل النصوص، وبناء على ذلك تتعدد الوظائف البلاغية للظاهرة الواحدة بحسب الطريقة المتبعة في كل منهج من مناهج القراءة والتحليل.

هذه هي فكرة الدراسة، وقد اخترت مسألة (المجاز) لتكون مثالاً للتطبيق على هذا البحث، فقد حظي المجاز باهتمام الباحثين منذ نشأة الفكر اللغوي، بالإضافة إلى أن الحديث عنه هو حديث عن دلالات اللفظ العربي، ومَضَامِينِهِ، وطرق استنباطه. كما أسهمت الدراسات الحديثة بنصيب كبير في توظيف المجاز، واستظهار قيمته، وفق مبادئ لسانية ومعرفية جديدة عن الوظيفة البلاغية له في التراث العربي.

وسوف يلقي البحث الضوء على هذه القضية، ولذلك فقد جاء في مقدمة ومبحثين وخاتمة، تناولت في المقدمة مدخلًا عن الموضوع، ومنهج البحث، وأسئلة الدراسة. وتناولت في المبحث الأول: وظيفة المجاز في ضوء تعدد النسق. وفي المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية في قصيدة (اللحن الحزين) للشاعرة الإماراتية رهف المبارك بعد التعريف بها. ثم خاتمة تبرز أهم النتائج المتعلقة باختلاف قيمة المجاز في قراءة النص الشعري في ضوء تعدد الأنساق.

الكلمات المفتاحية: المجاز، رهف المبارك، تعدد النسق، الاستعارة.

Abstract:

The technical function of rhetoric studies was associated with the format from which the critical vision of texts analysis originated. Accordingly, the rhetorical functions of the research core are several according to the methodology followed in each method of reading and analysis curricula. This is the idea that the current study adopts. The issue of (Figurative Language) was selected to be an applicable example of this suggested study. The figurative language has gained a great share of studies and interest since the linguistic thought was known. Additionally, talking about figurative language is just talking about the semantics of the Arabic vocabulary, implications and the methods of inferences.

The modern studies have contributed greatly in the function of the figurative language and showing its value in the light of new cognitive and linguistic principles about its rhetorical function in the Arabic heritage. The current study sheds light on this issue. The study includes an introduction, two chapters and a conclusion. The introduction handles an overview of the topic of the study, research methodology, the questions of the study.

The first chapter tackled: the function of the figurative language in the light of the multiplicity of formats. The second chapter included: the empirical study of the (Sad Melody) Poem by the Emirati Poet, Rahaf Al-Mubarak. The conclusion highlights the most important findings related to the difference of the value of the figurative language in reading the poetic text in the light of the multiplicity of styles.

Keywords: Metaphor- Multiple Patterns -Rahaf Al-Mubarak Poetic, Metaphor.

مقدمة:

نشطت في العصر الحديث الدراسات البينية على نحو ملحوظ، وقد أفاد هذا النوع من الدراسات في الوقوف على المقارنات الإجرائية بين وظائف المباحث والمسائل في كل علم، حيث "تُعد الخلفيات الفلسفية لفروع المعرفة الإنسانية أساسًا مكينًا في التفريق بين علم وآخر، لذا لا ينبغي أن يعول على تشابه مباحث العلوم بغية التوحيد بين أصولها الفكرية، وإنما علينا أن نفهم طبيعة الأسس التي بني عليها هذا العلم أو ذاك –إذا أردنا الجمع بين النتائج–؛ حتى يتسنى لنا أن نفهم المدى الإجرائي الذي يعمل فيه كل علم"(١).

أسئلة الدراسة:

يجيب هذا البحث عن السؤال الآتي:

هل يعد تعدد الأنساق المنهجية في قراءة النص سببًا في تعدد نتائج القراءات النقدية؟ وكيف يمكن تطبيق ذلك على مبحث المجاز في النص الشعري؟

هدف البحث:

يهدف البحث إلى استجلاء أثر القراءات المتعددة على النص الواحد، وما ينتج عنه من تعدد نتائج التحليل، والموازنة بين هذه النتائج.

منهج البحث:

بما أن هذا البحث يقع في الجانب المقارن للوظيفة البلاغية بين عدة مناهج قرائية، فقد اختار المنهج الوصفي المقارن حيث يعتني بدراسة الظواهر ووصفها، ثم الوصول إلى مجموعة من التفسيرات أو البراهين وتوظيف المقارنة المنهجية بين الرؤيتين التحليليتين،

(١) السيد، إبراهيم سعيد، القراءات البلاغية وتعدد الدلالة، ط/ دار النابغة مصر، الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ، ٢٠٢١م، صـ١.

مع التطبيق على نموذج شعري يوضح أبعاد المقاربة.

خطة الدراسة:

جاء هذا البحث في مقدمة ومبحثين على النحو الآتي:

المبحث الأول: وظيفة المجاز في ضوء تعدد النسق. تناولت فيه المقارنة بين وظائف المجاز في ضوء البلاغة العربية والمناهج النقدية الحديثة.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية في قصيدة (اللحن الحزين) حيث استكشاف وظيفة المجاز في النص الشعري في ضوء أنساق نقدية متعددة.

الخاتمة وأبرز النتائج.

المبحث الأول: وظيفة المجاز في ضوء تعدد النسق

يعد المجاز من المباحث المهمة في الفكر البلاغي منذ نشأته، وذلك لما يتوافر فيه من خاصية الانتقال بين الدلالات الوضعية ودلالات أخرى جديدة بواسطة القرائن المفسرة، وكان محل عناية كل من يشتغل بالدرس اللغوي والأدبي والبياني...إلخ؛ ولذلك فإن "الكلام في الحقيقة والمجاز لا يغنى فيه القول المقتضب والعبارة الموجزة؛ لأنهما من أمهات المسائل التي تتفرع عليها قضايا كثيرة في علم البيان"(١).

لكنني هنا أهدف إلى استجلاء النقطة الجوهرية التي يريدها البحث، وهي التحقق من صحة الفرضية العلمية التي ترى أن اختلاف القراءة البلاغية يؤدي إلى اختلاف القيمة الفنية بحسب معطيات التأويل، فـ"اتصال البلاغة العربية باللسانيات الحديثة أسفر عن ميلاد اتجاهات جديدة في تناول الدرس البلاغي ووظيفته، مثل: البلاغة في ضوء المقاربة النصية، تلك التي نشأت من اتصال البلاغة باللسانيات النصية، وكذلك ظهور البلاغة الحجاجية، والبلاغة العامة، والبلاغة السياسية...إلخ، حيث أعيد النظر في علاقات بعض المعارف الإنسانية من حيث القيمة والماهية"(٢).

وتتجلى أهمية هذا النوع من الدراسة في أنه يوازن بين تأويلات متعددة تجاه الظاهرة الواحدة، على اعتبار أن كل منهجية في التأويل تمثل نسقًا معينًا في الأصول النظرية والإجراءات التطبيقية؛ لأن فعل القراءة فعل يعتمد على أطر ثقافية ومنهجية، كما يختلف تلقي الأشياء باختلاف الذوات والعقليات.

لكن قبل ذلك عليَّ أن أبين معنى (النسق) ومعنى (الوظيفة البلاغية). جاء في كتب اللغة أن هذا اللفظ بمعنى النظام المطرد، وهو "ما كان على نظام واحد عام في

(١) عبد البديع، لطفي، فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث، مكتبة لبنان، ناشرون، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، صـ٣.

(٢) السيد، إبراهيم سعيد، القراءات البلاغية وتعدد الدلالة، صـ ٨٨.

الأشياء"[١]. وجاء في القاموس المحيط: "نسق الكلام: عطف بعضه على بعض، والنسق محركة: ما جاء من الكلام على نظام واحد"[٢].

أما مفهوم النسق اصطلاحًا فقد تتعدد التعريفات لفظًا، بينما يتحد أو يتقارب المفهوم فيما بينها، إذ ذهب بعض الباحثين إلى أن النسق هو "مجموعة الوحدات المترتبة ترتيبًا مخصوصًا، والمتصل بعضها ببعض اتصالًا به تنسيق، لكي تؤدي إلى غرض معين، أو لكي تقوم بوظيفة خاصة"[٣]. فعلى هذا الاعتبار فإن كل منهج نقدي يتسم بمجموعة من السمات الخاصة التي تجعل منه نظامًا مستقلا في القراءة والتأويل، ولذلك ورد أن الأنساق هي "مجموعة من الآراء والنظريات الفلسفية، ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا منطقيًّا حتى صارت ذات وحدة عضوية منسقة ومتماسكة"[٤].

ولذلك نجد دي سوسير يمثل النسق بشبكة من العلاقات والعناصر اللسانية التي تكتسب قيمتها بترابطها فيما بينها، لا مستقلة عن بعضها[٥]، بينما ذهب آخرون إلى أن الأنساق عبارة عن: "مجموعة من القوانين والقواعد العامة التي تحكم الإنتاج الفردي

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ٥ / ٨١.

(٢) الفيروزابادي، مجد الدين، القاموس المحيط، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م، دار الكتب العلمية بيروت، صـ ٩٣٨. وينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ، ١٠/ ٣٥٢.

(٣) خليفة، عبد اللطيف محمد، ارتقاء القيم، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٠، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ١٩٩٢، ص٣٥.

(٤) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٧٩م، المجلد الثاني، صـ ٣٦١.

(٥) ينظر: س رافندران، البنيوية والتفكيك، تطورات النقد الأدبي، ترجمة خالدة حامد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، صـ ١٧، ١٨.

للنوع، وتمكنه من الدلالة"[١]. فإذا اعتبرنا هذا في الدرس النقدي، فإن النسق يعني النظام القائم على التماسك بين الأشياء، وهكذا تكون كل قراءة نقدية ذات نظام معين، وذات طريقة محددة تتبع إجراءات منتظمة ومتفقة في الأهداف.

أما عن مصطلح (الوظيفة البلاغية) فهو مصطلح يحتاج إلى تحرير؛ حيث أشارت بعض الدراسات إلى أن "الوظيفة البلاغية من المصطلحات التي لم تحظ بدراسات كثيرة –على أهميتها– في نطاق العناية بالمصطلحات البلاغية، وإن كان لها تسميات عدة في كتب البلاغة العربية مثل: (الأثر، القيمة، الفائدة، السر، الغاية، الغرض)"[٢]. ويعرفها أحد الباحثين الوظيفة البلاغية بأنها: "الآثار المترتبة على وجود ظاهرة بلاغية ما، في مادة لغوية معينة كما قدمها البلاغيون العرب القدامى تنظيرًا وتطبيقًا"[٣].

ويذكر حمادي صمود أهميتها في الدرس البلاغي قديمًا عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) إذ يقول: "وتحتل الوظيفة، وهي في مصطلحه (الغاية) و(مدار الأمر) حجر الزاوية في هذا البناء؛ لأنها مولد اللحمة ومحرك التفاعل بين هذه الأطراف، بل إنها الهدف الذي تسعى هذه الأطراف إلى تحقيقه، والعلة في وجود ظاهرة الكلام جملة: على أساسها تضبط مقوماتها ويرتسم للمتكلم الخط الذي يسير على هديه ليتم له غرضه. ومن هنا

(١) "لما كان النسق تشترك في إنتاجه الظروف الاجتماعية والثقافية من ناحية، والإنتاج الفردي للنوع من ناحية أخرى، وهو إنتاج لا ينفصل هو الآخر عن الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة، فإن النسق ليس نظامًا ثابتًا وجامدًا، إنه ذاتي التنظيم من جهة، ومتغير يتكيف مع الظروف الجديدة من جهة ثانية، أي إنه في الوقت الذي يحتفظ فيه ببنيته المنتظمة يغير ملامحه عن طريق التكييف المستمر مع المستجدات الاجتماعية والثقافية". السلمي، علي، تحليل النظم السلوكية، مكتبة غريب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، صـ ٣٢، ٣٣.

(٢) السيد، إبراهيم سعيد، القراءات البلاغية وتعدد الدلالة، صـ ٩٠.

(٣) عبد اللطيف، عماد، تحليل الخطاب البلاغي دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، ط/كنوز المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ– ٢٠١٤م، صـ ٩١.

يتنزل الحديث عنها منزلة المقدمة والمدخل للإحاطة بتفكيره البلاغي"[١].

ومن ثم سيهتم هذا البحث بوظيفة المجاز بين البلاغة العربية والدراسات اللسانية والنقدية الحديثة، ليقف على الفروق المهمة بين كل منظور علمي، ثم يطبق هذه الرؤية على تحليل نصي شعري لاختبار هذه الفروقات الوظيفية للمجاز في ضوء تعدد الرؤى والمناهج.

١–وظيفة المجاز في التراث البلاغي:

كان أرسطو في التراث اليوناني يعتبر المجاز "نقلا تحويريًّا أو تعبيريًّا"[٢]. ولعل هذه النظرة كانت قريبة من بعض الجهود العربية حول المجاز، فقد رأى بعضهم أن المجاز قائم على مبدأ التغير الدلالي، أي أن الإنسان يرتبط بما يطرأ على مجتمعه من تغييرات دلالية في الألفاظ بما يتفق مع طبيعة عصره، ولذا ينشئ مجازات تلبي حاجاته وتعبر عن أغراضه مع تغير الزمان والمكان. وهذا المبدأ تابع لمبدأ الاتساع وتعدد مذاهب القول، وهو ما أشار إليه عبد القاهر حينما قال: "اعلم أن لهذا الضرب اتساعًا وتفننًا، لا إلى غاية إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز"[٣].

كما كان للمجاز عدة تأويلات وجوانب تأصيلية عند أهل اللغة والبلاغة، منها على سبيل المثال: الاستعمال عند العرب، حيث يذكر ابن قتيبة أن "للعرب المجازات

(١) صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد المتحدة– بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م، صـ ١٦٩.

(٢) خالفي، حسين، تحولات النسق البلاغي الغربي بين التراث والتجديد، مجلة فصول، مج ٢٦، ع/ ١٠١، خريف ٢٠١٧م، صـ٢٤٩. وينظر: فن الشعر لأرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة– بيروت، (د.ط)، صـ٥٨– ٥٩.

(٣) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، تحقيق محمود شاكر، الطبعة الثالثة – ١٩٩٢م صـ٦٦.

في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه"[١].

ولذلك فإن المجاز له طريقة في الإبداع ووظيفة في التأويل، وهذا ما قصده ابن جني (ت ٣٩١هـ). حينما ذكر أن "المجاز –باعتباره اصطلاحًا بلاغيًا– لا يتحقق إلا بتحقق ثلاثة عناصر أساسية هي: النقل، والعلاقة، والقرينة"[٢]. وما يهمنا في هذا الإطار أنه عدَّد كثيرًا من صور المجاز حيث يقول: "ومن المجاز كثير من باب الشجاعة في اللغة من الحذف، والزيادات، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف"[٣].

وبناء على ذلك نجد أن اللغويين يعتبرون التغير الدلالي من طرق اتساع الكلام، كما اعتبر بعضهم أبواب الحذف، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف، كلها داخلة في باب المجاز.

ولعل أبا الفتح ابن جني قد أشار إلى أن هناك ثلاث وظائف جامعة للمجاز، وذلك في حديثه عن الاستعمالات والتنظيرات السابقة عليه، فقد عالج ابن جني مفهوم الحقيقة والمجاز، ثم نص على أن هناك ثلاث وظائف للمجاز هي:

–الاتساع.

–التوكيد.

–التشبيه.[٤]

(١) الدينوري، ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، صـ ٢٢.

(٢) بقشي، عبد القادر، قضية المجاز وأبعادها البلاغية والكلامية، مجلة جذور ٢ النادي الأدبي الثقافي بجدة، سبتمبر ٢٠٠٥، صـ ١٧٠. وينظر: ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الأولى، بيروت: دار الهدى، ١٩٥٥. صـ ٤٤٢/٢.

(٣) بقشي، عبد القادر، قضية المجاز وأبعادها البلاغية والكلامية، صـ ١٧٤.

(٤) ابن جني، الخصائص، ٤٤٢/٢.

وممن سبقه إلى ذلك سيبويه، لكنه لم يتحدث عنه بلفظه، وإنما يتحدث عنه بمعناه؛ "فقد ذكر أن العرب إنما تفعل ذلك على سبيل الاتساع والإيجاز في كلامها، فقد تنبه إلى أن الفعل قد يُستعمل لفظه ولا يراد معناه، وقد عقد لذلك بابًا، قال: هذا باب استعمال الفعل في اللفظ، لا في المعنى؛ لاتساعه في الكلام، وللإيجاز والاختصار"(١)، وقد أشار بعض اللغويين إلى مثل ذلك حيث يقول: "العرب قد تنقل الألفاظ عن معانيها القديمة إلى معانٍ جديدة"(٢).

وكان المجاز حاضرًا في العقل التحليلي عند القدماء، فنجد الفراء في (معاني القرآن) يتحدث عن المجاز معلقًا على قوله تعالى: "**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين**"(البقرة: **١٦**)، فيقول: "ربما قال القائل: كيف تربح التجارة وإنما يربح التاجر؟ وذلك من كلام العرب، ربح بيعك، وخسر بيعك، فحسن القول بذلك؛ لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة"(٣).

وظهور استعمال (المجاز) بوصفه عنوانًا جامعًا لكتاب –أول ما ظهر– كان عند أبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه (**مجاز القرآن**)، لكنه استعمله من منطلق لغوي بحت، ولذلك فإن المجاز عنده هو "الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذي حدده علماء البلاغة لكلمة المجاز فيما بعد، أي أن

(١) السيرافي، أبو سعيد المتوفى ٣٦٨هـ، شرح كتاب سيبويه، تحقيق/ أحمد مهدلي، وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٨م، ٢/ ١٠٤. و: العساسفة، المثنى مد الله، المجاز دراسة في النشأة والتطور، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، مج ٤١، ملحق ٢، ٢٠١٤هـ، صـ ٨٣٥.

(٢) العساسفة، المثنى مد الله، المجاز دراسة في النشأة والتطور، صـ ٨٣٦.

(٣) الفراء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، القاهرة: دار الكتب، (د.ت)، صـ ٨٢.

أبا عبيدة يكاد يستعمل المصطلح في معناه اللغوي العام"[١].

وكان أبو عبيدة يستعمل المجاز بمعنى الطريق المؤدي إلى التأويل وبيان المراد، فمن ذلك تعليقه على قوله تعالى: "**وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا**"(**الأنعام:٦**) حيث يقول: "مجاز السماء هنا مجاز المطر، يقال: مازلنا في سماء أي في مطر، وما زلنا نطأ السماء أي: أثر المطر"[٢].

وكان لمفهوم (التوسع) أهمية كبرى لدى العلماء العرب الأوائل بمختلف توجهاتهم في الدرس اللغوي **نحوًا** وصرفًا وبلاغةً؛ بل هو عند البلاغيين غاية في الأهمية والاكتناز، إذ يعد أساس العمل البلاغي وركيزته، وقد احتل من مؤلفاتهم المركز الذي تدور في فلكه بقية المبادئ الأخرى[٣].

إذًا فالتوسع هو المجال الرحب والمنطلق الرئيس في تعدد التأويل واتساع الرؤى والتوليد الدلالي، "ويأتي جواز التوسع في النص ذاته، فاللغة الماثلة فيه تصبح بحكم النسق البلاغي المقام بين عناصرها، ومجيئها على هيئة من التركيب معينة، يعد مؤشرًا يحيلنا على العناصر الغائبة ويدلنا عليها. وبذلك يحمل النص دافع تأويله لازدواج وظيفة مكوناته، إذ يدل صريح لفظها على معنى، وتدل كلها على معنى آخر"[٤].

ويستكمل تلك الرؤية عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في (أسرار البلاغة)، حينما تحدَّث عن المجاز وأقسامه، والاستعارة المفيدة وغير المفيدة، وما يحسن منها وما

(١) زايد، علي عشري، البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، ط/مكتبة الآداب، الطبعة السابعة ٢٠٠٩م، صـ٢٤. وينظر: المثنى، أبو عبيدة، مجاز القرآن، مقدمة المحقق، الطبعة الثانية، دار الفكر ومكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٠، صـ ١٨، ١٩.

(٢) المثنى، أبو عبيدة، مجاز القرآن، صـ١٨٦.

(٣) ينظر: صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب صـ ٩٣.

(٤) السابق، صـ ٩٨.

لا يحسن، ولذلك تتأكد لدينا تلك النظرة التي ترى أن نظرية البلاغة العربية بلغت أوج ازدهارها في القرن الخامس الهجري على يد عبد القاهر الجرجاني.

ومع مجيء القرن السابع وظهور الاتجاه التقعيدي المعتمد على المنطق واستنباط القواعد الكلية، وضبط المسائل والمباحث، فيظهر لنا كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، ويقسِّم المجاز إلى خمسة أقسام: "خال عن الفائدة...ومجاز في حكم الكلمة بالزيادة أو النقص، وعقلي، وقد ذكره في علم المعاني، ومرسل مفيد، واستعارة"(١).

ثم يطالعنا العلوي بحديث مهم عن المجاز حيث يرى أن "سر البيان وجوهره لا يظهر إلا باستعمال المجازات الرشيقة، والإغراق في لطائفه الجميلة الرائقة، وأسراره الدقيقة كالاستعارة، والكناية، والتمثيل، وغيرها من أنواع المجاز، وكلما كان المجاز أوقع فالفصاحة والبلاغة أعلى وأرفع"(٢). وبذلك يربط المجاز بفصاحة الكلام وبلاغة التعبير.

أما عن وظائف المجاز –في ضوء هذه الرؤية– فنجد أن بعض الباحثين يشيرون إلى أن "الشاعر يتخذ (المجاز) وسيلةً للتوسع، والتجسيد، والتفخيم، والتأكيد، والخطاب بالهيئة المتحركة، والصورة المرسومة الحية المؤثرة بدلاً من الخطاب المباشر المحدود التأثير، كما يتخذه وسيلة للشحن، والتكثيف في المعاني، مقابل اختزال الألفاظ، حيث البلاغة تكمن في هذا التكثيف وهذا الاختزال"(٣).

وذهبت بعض النظريات إلى أن الإنسان منذ أن بدأ "يعي ما يحيط به، رأى

(١) السبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق خليل إبراهيم خليل، ط/دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الأولى ٢٠٠١م، مج٢، صـ ٢٤٣.

(٢) العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠، ١/٤٤. وينظر: المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز دراسة نقدية في لغة الشعر، مجلة جامعة أم القرى، ٢٠٠٣، مج ١٦، ع ٢٨، صـ ٩٧٩.

(٣) عبد الجليل، محمد بدري، المجاز وأثره في الدرس اللغوي، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٦، صـ٤٤.

حاجته ماسةً إلى التعبير عن هذه الأمور المحيطة به، فأطلق على كل منها اسمًا خاصًّا، فهذه: شمس، وذاك: قمر، وهذا: نجم، وتلك: سماء، وهذا: حجر، وتلك: شجرة، وهكذا"(١)، ثم تتبادل العلاقات بين الألفاظ من عدة جهات كالاستعارة وغيرها، فتنتقل الألفاظ من دلالتها الحقيقية إلى استعمالات أخرى مجازية.

٢– الوظيفة الفنية للمجاز في الدراسات النقدية الحديثة:

هل اتفقت النظرة العلمية لوظيفة المجاز في الدراسات الحديثة مع نظيرتها في التراث العربي، أو كان بينهما اختلاف؟ وكيف انعكس ذلك على القراءة والتأويل؟ هذا هو السؤال الذي تعنى به هذه الجزئية.

وفيما يأتي عرض لبعض الوظائف التي يمكن رصدها للمجاز في الدرس الحديث على النحو التالي:

أ– (الانزياح الشعري والتكثيف):

ارتبط مفهوم المجاز عند المحدثين بالأسلوب، فما كان يدخل قديمًا تحت عنوان الصور البيانية والاتساع والكناية...إلخ، أصبح يعادله في الدرس الحديث مصطلحات الانزياح والانحراف والعدول وإعادة البناء، وبخاصة عند (**جان كوهن**) وغيره من النقاد الغربيين المحدثين(٢)، وحينئذ "تتعدى اللفظة وظيفتها المرجعية وتتجاوز دلالتها الأولى أو دلالتها الذاتية الوضعية إلى دلالات أخرى قد يصعب حصرها. وتكون مهمتها الأولى ليس الشرح والتحديد فقط، وإنما الإسقاط والإيحاء بالمعنى وتسمية الشيء بما يتولَّد عنه"(٣).

(١) شيخ أمين، بكري، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، الجزء الثاني علم البيان، ط/ دار العلم للملايين، الطبعة السابعة يوليو ٢٠٠١م، صـ٦٣.

(٢) ينظر: المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز دراسة نقدية في لغة الشعر، صـ ٩٧٧.

(٣) السابق نفسه.

لقد قام تمييز كوهن لمعنى (الشعرية) على مبدأ (الخرق)[١]، وهو ما يميز النص الشعري عن اللغة التواصلية، فوظيفة اللغة الشعرية عنده "غير تواصلية كما هو شأن النثر، بل إن دلالتها تكتسي بالدرجة الأولى طابعًا انفعاليًّا وإيحائيًّا يتجاوز الدلالة التصريحية المرتبطة بلغة النثر"[٢].

وبذلك يكون المجاز عند كوهن وغيره من المحدثين مرتبطًا بفكرة التوسُّع في أساليب اللغة، وليس مقتصرًا على الجوانب التخييلية فحسب، فالانزياح أو العدول عن نمط أسلوبي إلى آخر يعدُّ من قبيل الاتساع المجازي عند المحدثين، وهذا بالطبع يخالف النسق البلاغي العربي وفهمه لقضية المجاز.

ب– الوظيفة الرمزية:

ذهب بعض المحدثين إلى أن المجاز يتعلَّق بالغموض والإخفاء والرمز أكثر من ارتباطه بالتغيير الدلالي، لذلك فهو يؤدي وظيفة التكثيف والاختصار، وهذا ما اعتبره الناقد الفرنسي هنري موريه "لعبة فكرية لذيذة في حد ذاتها"، حيث تؤدي إلى غموض المعنى أو خفائه، ويفرض على المتلقي جهدًا معينًا للكشف عنه والعثور عليه أو معرفة أبعاده وسبر أغواره، فيكون لهذا الكشف وهذا الوصول بُعده، كما يقول (موريه) نفسه – قد استحق الثواب وحظي بلذته الأخرى"[٣].

كذلك ربط المؤلف والمبدع الفرنسي (مالارميه) بين المتعة التي تحصل للمتلقي عند القراءة والتلقي، وبين الخيال الشعري الخصب، فهو "يصرّح على سبيل المثال بأن "تحديد الشيء وتسميته والتصريح به في الشعر يعني الاستغناء عن ثلاثة أرباع المتعة

(١) ينظر: سمير، حميد، النص وظله، ط/ نادي نجران الأدبي، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، صـ ٢٤.

(٢) السابق نفسه.

(٣)المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز، صـ٩٨١، ٩٨٢.

التي تتيحها القصيدة، والتي تنشأ عن الارتواء بالتخمين التدريجي. أما الإيحاء بالشيء وإثارته فهذا ما يسحر الخيال"(١).

بالإضافة إلى ذلك نجد أمبسون في كتابه (سبعة أنواع من الإبهام)، يميِّز بين الغموض والإبهام، "وبين الإبهام واللبس، وفرق بين الغموض الإيجابي الذي تتجسَّد فيه أصالة التجربة وعمقها ودقة الفكر وروعة الإبداع البلاغي أو البياني، وبين الغموض السلبي أو ذلك التعقيد والتشويش والالتواء أو التداخل في المعنى، الناشئ في الأصل عن التردد والاختلاط الفكري، أو العجز والقصور الثقافي، أو عن ضعف اللغة ومخالفة أنظمتها وقوانينها"(٢).

وهنا يقفز الإبهام إلى التصوُّر الشعري في النصوص الإبداعية، بعكس ما عليه الفكر البلاغي في التراث العربي، حيث انتقال اللفظة من معنى لآخر بقرينة مفسرة، أما الترميز والإبهام عند هؤلاء فيعد أوسع من البنية المجازية في التراث البلاغي.

وذهب بعض الباحثين إلى التأكيد على أهمية السياق في تحديد دلالة الرمز وقيمته الفنية، "فهو يعطيه –غالبًا– تكثيفًا أكبر من أي مصطلح مجازي آخر؛ لأنه ينطلق في آفاق أرحب. والاستعارة أقرب من التشبيه إليه، بل إنها لا تبلغ عمقها الكافي إلا إذا كانت رمزًا"(٣).

(١) شلش، علي، في عالم الشعر، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، صـ ٦٨.

(٢) المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز دراسة نقدية في لغة الشعر، صـ١٠٠١. وينظر: طعمة، عبد الرحمن، اللغة والمعنى والتواصل. النموذج العرفاني وأبعاده التداولية، كنوز المعرفة، عمان الأردن، ١٤٤١هـ، صـ ٢٦ وما بعدها.

(٣) الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في النقد الشعري دراسة في النظرية والتطبيق، دار جرير– عمَّان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م، صـ ٩٨.

جـ– الوظيفة التعبيرية:

لا شك أن البلاغة العربية والأسلوبية يلتقيان في دراسة المجاز، لكنهما يختلفان في طبيعة النظر إلى وظيفته التعبيرية. وفي الوقت الذي نؤمن فيه بأن "الأسلوبية لا يمكن أن تكون بديلاً عن النقد الأدبي والبلاغة"(١)، فإننا نؤمن في الوقت نفسه بأن الأسلوبية تهتم بمستويات تحليلية مهمة كانت البلاغة وحدها تعنى بها في السابق، غير أن الدرس الأسلوبي بوصفه علمًا ألسنيًّا قد استطاع أن يعمق من تحديد هوية النص اللغوية.

وقد تعددت المدارس الأسلوبية في العصر الحديث، ومن أهمها: الأسلوبية التعبيرية، وعلى رأسها شارل بالي، الذي "انطلق مفهومه للأسلوبية باعتبارها حدثًا في نتاج جماعي قديم في نطاقها وقواعدها وبلاغتها، واهتم بالقيم والتغيرات اللغوية الحادثة على مستوى اللغة المنطوقة التي تكشف عن قيم أسلوبية، واهتم باللغة المكتوبة لاحتوائها على قيم عاطفية تبرز قيمًا أسلوبية"(٢).

وقد اعتمدت الأسلوبية التعبيرية على تحليل عدة مستويات يتم من خلالها رصد السمات والبصمات الأسلوبية للكاتب أو للنص، وهذه المستويات هي: (الصوت، والمعجم، والدلالة بالإضافة إلى ظاهرة الصورة والمجاز)(٣).

وهذا يعني أن مباحث البلاغة في الأسلوبية سوف تتحول إلى مكونات تعبيرية، نستكشف بها سمات اللغة في النصوص، دون انغماس في تحليل الصور المجازية على

(١) ينظر: مخلوف، ربيع، المجاز بين التأصيل البلاغي العربي والنظريات الأسلوبية الحديثة، رسالة دكتوراة جامعة باتنة الجزائر– ٢٠١٧م، صـ٦٥.

(٢) المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز دراسة نقدية في لغة الشعر، صـ ٩٧٨. وينظر: المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، طبعة الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، (د.ت)، صـ ٦٥.

(٣) ينظر: المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز دراسة نقدية في لغة الشعر، صـ ٩٧٨.

وظائف النسق القديم، وإنما على أسس الاختيار والعدول باعتبارهما مكونين من مكونات النسق الأسلوبي، وبناء عليه تقترب نظرية كوهين من هذه الوظيفة وبخاصة في حديثه عن الانزياح الشعري.

الوظيفة القصدية:

اهتمت الدراسات الحديثة بالمجاز بوصفه أداة من أدوات تحرير المعنى، والخروج به عن حيز اللغة البحت إلى حيز الاستعمال وتحقيق قصد المتكلم، وقد درست التداولية اللغة "في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية، أو تراكيبها النحوية، وهي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم"(١). وذهب بعض الباحثين إلى أن التداولية "تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها كلامًا محددا صادرًا عن متكلم محدد، وموجهًا إلى مخاطب محدد بلفظ محدد في مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرض محدد"(٢)، وبناء على ذلك فهي ألصق بالاستعمال منها بالبحث اللغوي الخالص.

وقد نظرت التداولية للمجاز من أربع عناصر: الوضع اللغوي، والقصد الكلامي، وإلغاء قانون المرجعية والعلاقات المنطقية، والافتراض المسبق(٣). والمراد بالوضع اللغوي أن المجاز أداة لتحرير "المعنى وإطلاق سراحه من قيد التواضع، ونصعد للمعاني ونرتقي

(١) مزيد، بهاء الدين محمد، من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي.. تبسيط التداولية، الطبعة الأولى، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٠م.

(٢) صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، طبعة دار الطليعة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.ص٢١.

(٣) مزرقط، سعاد، البعد التداولي للمجاز عند الجاحظ. البخلاء أنموذجًا، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ٢٠١٦م، ص١٥.

بها من عالمها المادي المحسوس، وهذا ما تقوم عليه التداولية، فهي تدرس اللغة في حيز الاستعمال"(١).

والمراد بالقصد الكلامي أن المنشئ يرتب كلامه وفق مقصد محدد، وأن "المتلقي لابد أن يتوقف على قصد المتكلم في السياق الذي يحكمه"(٢). والمراد بإلغاء قانون المرجعية والعلاقات المنطقية أن الجملة المجازية تتجاوز هذه العلاقات، وعلى هذا المبدأ أيضًا تقوم التداولية"(٣). أما الافتراض المسبق فيراد به "ما يقتضيه اللفظ ويفترضه؛ إذ إنه في كل تواصل لساني لابد أن يقوم على معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل"(٤).

ومن ثم فهناك عناصر اشتراك بين مبحث المجاز والتداولية، حيث إنهما لا يعترفان بالحدود المنطقية واللغوية، وأنهما يعتمدان على تحديد قصد المتكلم، وأنهما كذلك يعتمدان على أن للمتلقي افتراضات مسبقة(٥).

وقد ذكر بعض الباحثين أن "المنظور التداولي للخطاب يسعى دومًا إلى الإجابة عن أسئلة محورية تجسد أهم هذه الأسئلة: من يتكلم؟ إلى من يتكلم؟ ماذا يقول؟ كيف يقول؟ ماذا يقصد؟ هل هناك فرق بين القول والقصد الذي يريد؟ أين يقول؟ متى يقول؟

(١) السابق نفسه.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق نفسه.

(٥) هاشم، حسين عودة، التداولية والمجاز دراسة إبستمولوجية، مجلة جامعة ذي قار، كلية الآداب، شباط ٢٠١٢م، صـ ٢٦٧.

وهذه الأسئلة متصلة اتصالاً وثيقًا بتداولية العمل اللغوي"[١]. وبناء عليه يكون للمجاز وظيفة تداولية يحددها الاستعمال[٢]، لكن يظل هناك حد فاصل بين المجاز والتداولية وهو أن المجاز أداة تعبيرية، أما التداولية فهي أداة لفهم التعبير[٣].

هـ–الوظيفة الإدراكية:

قدمت الدراسات المعرفية بعض الدراسات المهمة التي كتبها باحثون غربيون مثل لايكوف، وجونسون في كتابهما: **(الاستعارات التي نحيا بها)**، حيث يؤدي البحث إلى نتيجة بتجاوز الفكرة القائلة بأنها تمثل الاستعارة أمر مرتبط بالخيال الشعري والزخرف البلاغي، وكونها تتعلق بالاستعمالات اللغوية غير العادية، وليس بالاستعمالات العادية[٤]، ولذلك فإن فالمسألة ليست متعلقة بطريقة إنشاء الأدب، بل بنوع الممارسات الذهنية في النص.

ومن هنا كانت "الوظيفة المعرفية لهذا النمط من التفكير الاستعاري ناتجة عن أنواعها الاتجاهية، أو البنيوية، أو الانطولوجية، والكيفية التي ينتظم بها النسق والتصورات عبر هذه الأنواع من الاستعارات"[٥].

ولذلك فإن التحليلات البلاغية الحديثة التي تهتم بالبنى اللغوية والأنساق الخطابية

(١) بوقرة، نعمان، الخطاب والنظرية والإجراء، مطبعة جامعة الملك سعود، (د.ط)) ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م، صـ ١٠٤.

(٢) هاشم، حسين عودة، التداولية والمجاز دراسة أبستمولوجية، صـ ٢٦٧.

(٣) السابق نفسه.

(٤) ينظر: لايكوف، جورج، وجونسون، مارك، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، ط/دار توبقال الطبعة الثانية ٢٠٠٩م، صـ٢١.

(٥) حاوي، صلاح، الاستعارة بوصفها مدخلا معرفيًّا، مجلة فصول، مج ٢٦، ع/ ١٠١، خريف ٢٠١٧م، صـ ٢٨٠.

"تكشف عن نظام وعن معنى كامن للتجارب الإنسانية حول العالم، بمعنى أن طريقة بنائها للعالم تؤثر في فهمنا وإدراكنا لهذا العالم"(١).

وبناء على ذلك لن تكون قراءتنا للمجاز قراءة مهتمة بالجانب اللغوي التأويلي فقط، بل بالمعارف المتقاطعة، "وكل هذا يجعل من الحقل البلاغي المعاصر مجالاً لتداخل المعارف والعلوم، أي مجالاً لتقاطع العديد من المعارف والأنساق الإنسانية، وأي تحديد لمجال ما دون آخر هو تغافل عن الطاقة الكامنة وراء المجاز والاستعارة؛ لأنهما وراء تجديد وتفعيل الكثير من المفاهيم اللغوية"(٢).

(١) خالفي، حسين، تحولات النسق البلاغي الغربي بين التراث والتجديد، مجلة فصول، مج ٢٦، ع/ ١٠١، خريف ٢٠١٧م، صـ ٢٥٨– ٢٥٩.

(٢) السابق، صـ ٢٥٩.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية في قصيدة (اللحن الحزين) لرهف المبارك[١].

جاءت هذه القصيدة في ديوان: (شواطئ الفجر) ضمن المجموعة الكاملة الموسومة بـ(مسارات الضوء وعناقيد الحب)، وهو الديوان الثاني في الكتاب، حيث تبحر فيه الشاعرة وحيدة تغالب حرقة الأشواق ولوعة الفراق كلما طافت بنظرها على الجبال والسهول، تستدعي ماضيها، وتتأمل حاضرها، وآهاتها لا تكاد تنقطع وهي تمر على الصحاري والمروج، فتجدب جنان إبداعها وتخصب، ويتعاقب عليها الليل والنهار فيشرق فرقد آمالها ويغرب.

وهي بين طموح الأمنيات وتردي الواقع المليء باليأس والشقاء فيما يحيط بها، تقاوم متمسكةً ببقايا رمق، جامعةً فتات ما تحطم من قلبها الجريح، تهدهده ليطيب نفسًا وينهض؛ فالحياة ما زالت مستمرة في نظرها، وفي حاجة إلى مزيد من الإصرار

(١) رهف المبارك شاعرة وأديبة إماراتية، وعضو لجنة التحكيم باتحاد وكتاب وأدباء الإمارات، وعضو رابطة الأديبات الإماراتيات، حائزة على جائزة المرأة الإماراتية في الآداب من نادي سيدات الشارقة، وحائزة على جائزة أنجال الشيخ هزاع بن زايد لشعر الطفل العربي ٢٠٠٣م، وحاصلة على جائزة أفضل كتاب مطبوع محليًّا بمعرض الشارقة للكتاب ٢٠٠٩م، ولها عدة إصدارات شعرية وأدبية وتربوية، ولها مجموعات شعرية خاصة بأدب الأطفال، وقد تناول شعرها مجموعة من النقاد والأدباء بالدراسة والتحليل داخل الإمارات وخارجها. حصلت على جائزة القصة القصيرة للأطفال ٢٠١١، ٢٠١٢م في دورتها الثانية والثالثة من وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع وتنمية الوعي المجتمعي بالإمارات. ينظر: المبارك، رهف، ديوان مسارات الضوء وعناقيد الحب، إصدار مركز الدراسات والوثائق – رأس الخيمة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى ٢٠١٠م، صـ٢١١. وينظر: الشعرية النسوية المعاصرة التناسل والكثافة، مجدي خواجي، ط/دار النابغة للنشر والتوزيع– طنطا مصر، الطبعة الأولى ٢٠٢٢م، صـ ٧٣.

الذي يغذيه الحب والحنين [1].

وقد قمت بتحليل القصيدة منطلقًا من البحث عن وظائف المجاز التي تحددها أنساق الدراسات النقدية، بحثا عن موازنةٍ بين النتائج التي يمكن استخلاصها من تأويلات مختلفة. وفيما يأتي عرض للقصيدة مع التحليل.

تقول الشاعرة:

"يَا رَعْشَةَ الوُجْدَانِ كَمْ ثَوَّرْت أَمْواجَ القَصِيد
قَدْ مَاجَ بَحْرُ الشَّوْقِ يَجْرِفُنِي إلى الشَّطِّ البَعِيد
حَيْثُ النَّوَارِسُ حَائِمَاتٌ حَوْلَ أَكْوَاخِ السُّعُود
حَيْثُ النَّدَى فَوْقَ الزُّهُورِ الحُمْرِ أَشْجَاهُ النَّشِيد

***

مَا لِي أَرَاكِ حَدِيقَتِي قَدْ صِرْتِ عُشًّا لِلسُّكُون
أَيْنَ الطُّيُورُ؟ أَهَاجَرَتْ!
فِلَمَنْ هُنَا تَرَكُوا الغُصُون؟
وَلِمَنْ رَحِيقُ الوَرْدِ غَضًّا إنْ تَضَوَّعَ بِاللُّحُون؟
مَا عَادَ فِيكِ حَدِيقَتِي مَا يُطْرِبُ القَلْبَ الحَزِين

***

بِالْأَمْسِ يَا لِنَسَائِمِ الأَمْسِ الْمُعَطَّرَةِ الرَّخِيَّة!
كَانَتْ بِهِمْ دُنْيَايَ أَعْيَادًا مُشَعْشَعَةً بَهِيَّة
كَانُوا وَصَارَ الأَمْسُ طَيْفًا مِنْ خَيَالَاتٍ شَجِيَّة

(١) المبارك، رهف، مسارات الضوء وعناقيد الحب، مقدمة ديوان شواطئ الفجر، صـ ٦٣.

***

ظَمَأٌ تَفَشَّى فِي دَمِي بَيْنَ الضُّلُوعِ الوَاهِنَاتِ
أَطْوِي بِهِ يَوْمِي كَسَائِرَةٍ عَلَى جَمْرِ الفَلَاة
حَتَّى إِذَا نَامَ الوَرَى أَيْقَظْتُ شَمْعَ الذِّكْرَيَات
(وَبَكَيْتُ حَتَّى خِلْتُ أَنِّيّ حُزْنُ كُلِّ الكَائِنَات)" (١).

***

١–المجاز ووظائف الاتساع والمشابهة والتأكيد:

يؤدي المجاز هنا وظيفة مهمة في نقل المعاناة التي تريد الشاعرة أن تنقلها إلينا، وبناء عليه تظهر وظيفة (المشابهة والمحاكاة)، حيث تأتي الأساليب مصورة ومقربة لهذه المشاعر، فتظهر لدينا في البيت الأول: (رعشة الوجدان – ثوَّرْت أمواجَ القصيد) وهي صورة تحاكي نفس الأديبة، حيث تتفاعل فيها المفردات للتمثيل، فتعطي المجردات (الواجدان) صفة المحسوسات (رعشة)، ليؤديا إلى نتيجة واضحة وهي اندفاع الدفقة الشعورية في ثوب لغوي شعري، حيث (تثور أمواج القصيد).

وقد "بحث أرسطو قديمًا في المجاز تحت عنوان (الابتكار في الأسلوب)، إذ كان يرى أن الكاتب أو الشاعر إنما يلجأ كل منهما إلى المجاز ليدل على أفكار جديدة، فحين يطلق الشاعر على الشيخوخة الغصن الذابل يثير فينا فكرة جديدة بهذه المقارنة...وعند أرسطو نجد أن المجاز يكسب الكلام وضوحًا وسموًّا وجاذبية، لا يكسبها إياها شيء آخر"(٢).

(١) المبارك، رهف، مسارات الضوء وعناقيد الحب، ديوان شواطئ الفجر، صـ ٩٩، ١٠٠.
(٢) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونج مان، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، صـ٦٥.

نجد أفق التصوير –في النص– يبتكر لنا صورًا مجازية من أجل محاكاة ما يدور في نفس الشاعرة من معاناة الفراق، فيأتي قولها: (**ماج بحر الشوق يجرفني إلى الشط البعيد**)، وهنا تنضم إلى وظيفة المشابهة وظيفة أخرى هي التوكيد، فـ(بحر الشوق يجرفني) تُحمل على المجاز وتُحمل على التشبيه بإضافة المشبه به إلى المشبه، والتقدير: (الشوق كبحر)، فإذا جاءت لفظتا (ماج) + (يجرفني)، رجح التعبير المجازي، فإذا بنا أمام صورة مفعمة بالحركة والتمثيل والحياة، حتى ليخيل إلينا أن هناك ماءً للشوق، وأنه ماء هادر يَحمِل ويَنقل؛ لترنو عين الشاعرة إلى مهوى الفؤاد (الشط البعيد).

ومن أجل ذلك يحصل التتابع التصويري المجازي بأساليب مثل: (**النوارس حائمات حول أكواخ السعود**)، ثم (**الندى فوق الزهور الحمر أَشْجَاهُ النشيد**) لتَكْمُل لدينا الصورة المجازية مؤكدة هذه التمثلات، (فللسعود أكواخ)، تحوم حولها طيور النورس، والندى يتحد مع الشاعرة فيدخل في حالة من (الشجن) تفاعلاً مع هذه الآلام (النشيد).

وبناء على ما سبق نجد أن المجاز مرتبط بالاتساع في الكلام، وحصول المشابهة عند إرادة التصوير، وتوكيد المضامين عبر نسج خيوط متشابكة للصورة، وهذه "الوظيفة اللغوية الحيوية للمجاز هي التي جعلت البلاغيين العرب في الحقيقة يعتبرونه (امتدادًا أو اتساعًا أو عبورًا)، حيث يمتد المجاز باللغة ويكسب ألفاظها وصيغها وعباراتها أبعادًا دلالية وإيحائية متجددة، ويجعلها في خلق وتناسل وتكاثر مستمر، ويعبر بها إلى آفاق متسعة لا تعرف الحدود. فالتجدد والانبثاق والتدفق الذي يحدثه المجاز في اللغة ويجدد به حيويتها، هو الذي جعلهم أيضًا يعدونه نوعًا من (الابتكار أو الابتداع والاختراع)؛ حيث تتجسَّد فيه أو من خلاله صور الخلق اللغوي والخيالي الفني الثري الجديد اللامتناهي"[1].

(١) المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز دراسة نقدية في لغة الشعر، صـ ٩٧٧.

ومنه ما يتجلى كذلك في ختام هذه القصيدة، حيث تقول:

ظَمَأٌ تَفَشَّى فِي دَمِي بَيْنَ الضُّلُوعِ الوَاهِنَاتِ
أَطْوِي بِهِ يَوْمِي كَسَائِرَةٍ عَلَى جَمْرِ الفَلَاة
حَتَّى إِذَا نَامَ الوَرَى أَيْقَظْتُ شَمْعَ الذِّكْرَيَات
(وَبَكَيْتُ حَتَّى خِلْتُ أَنِّي حُزْنُ كُلِّ الكَائِنَات)[١].

والكثافة المجازية في البيت الأخير **(وبكيت حتى خلت أني حزن كل الكائنات)** هو عبارة عن توقيع أخير للشاعرة جمعت فيه ولخصت كامل معاناتها التي توزعت على أجزاء النص المتفرقة السابقة، فهو إذن بيت القصيد.

إن هذه الآلام قد تحولت إلى حالة من العطش الشديد، لكنه عطش يتفاعل ويتحرك وينتقل ويوهن، (تفشى في دمي بين الضلوع الواهنات)، وهو لا يبرح يفارق ذلك الجسد الضعيف، بل يتمادى في توسعه حتى أصبح ملتبسًا بالمكان والزمان (أطوي به يومي)، فإذا هدأ في آخر الليل وتركها، فإن ذلك لا يعني انتهاء المعاناة، بل تظل الآلام مسترسلة عبر قناة وجدانية أخرى (الذكريات)، ويبدو هذه المرة أنها الذكريات الجميلة، ولذا قامت هي بإيقاظها من مرقدها، لكنه إيقاظ خافت لا يحس به الخلق، فجعلت للذكريات (شمعًا). فهو إيقاظ خافت لا يحس به أحد.

إن هذه الطريقة في التعبير والتصوير تحرك الذهن، وتحمل القلب والنفس على التفاعل، ولذلك ذكر عبد القاهر أن "المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر يتجلى لك، بعد أن يُحْوِجَكَ إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر والهمة في طلبه، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد. ومن المعروف في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى،

(١) المبارك، رهف، ديوان شواطئ الفجر، ص ١٠٠.

وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف، ولذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ"(١).

ومما يؤيد ذلك ويؤكده أيضًا ما يزخر به النص من عبارات العيش في الماضي، والانصراف إلى لحظاته وتفاصيله التي تشكلت في النص ما بين تساؤلات تُطرح: (أين الطيور؟) (أهاجرت؟) (فلمن هنا تركوا الغصون؟) (ولمن رحيق الورد غضًّا قد تضوع باللحون؟)، وبين اجترار لذكرياتٍ في فلك الماضي تدور رحاها ولا تقف عن النزيف متخذةً من كلمة (الأمس)، والفعل الماضي الناقص (كان) أداةً للتعبير عن الأسى والحزن على مفارقة ذلك الماضي المبلل بالأشجان والذكريات: (بالأمس يا لنسائم الأمس المعطرة الرخية)، (كانت بهم دنياي أعيادًا مشعشعة بهية)، (كانوا وصار الأمس طيفًا من خيالات شجية)، في كل تلك الحلقات المتصلة شجًى وحزنًا نجد المجاز ماثلاً.

٢-المجاز والوظائف البلاغية الحديثة:

إذا حاولنا أن نقرأ النص الشعري ذاته من زوايا أخرى غير هذه الزاوية التي ركزت على (الاتساع والمشابهة والتوكيد) فلابد أن نستحضر أنساق هذه الرؤى حتى تكون قراءتنا صحيحة.

النسق الأسلوبي:

تعد الأسلوبية منهجًا ذا نسق لغوي في بحث المستوى الصوتي والتركيبي والمعجمي والدلالي، وقد عدها بعضهم: "ممارسة قبل أن تكون علمًا أو منهجًا، أساسها البحث في طرافة الإبداع وتميز النصوص، وطابع الشخصية الأدبية لكل مؤلف مدروس"(٢).

(١) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، دار المدني بجدة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.، صـ ١٣٩.

(٢) الطرابلسي، محمد الهادي، تحاليل أسلوبية، عالم الكتاب، سلسلة دراسات أدبية ونقدية، تونس، ٢٠٠٦م، صـ٧.

بناء على النسق الأسلوبي سنجد أن الشاعرة عمدت إلى مجموعة من الحقول الدلالية التي وظفت في الصورة المجازية، وهي تعد من الحقول الأساسية في تكوين المعجم، وعن طريقها تختزل الوحدات المعجمية التي يتكون منها النص بصفة كلية في عدة مقاطع محورية، تربطها علاقات متعددة كالترادف، والتماثل على سبيل المثال، أو كعلاقة العام بالخاص(١). "فهذه العلائق جميعها تتردد بنسب مختلفة في نص معين، وكلما ترددت بعض الكلمات بنفسها أو بمرادفاتها أو بتركيب آخر يؤدي معناها كونت حقلا، أو حقولا دلالية"(٢).

فمن ذلك:

–حقل الطبيعة والجمادات: (الشط البعيد – أكواخ – الحديقة – جمر الفلاة – النسائم – الندى – العش).

–حقل الكائنات الحية: (الورى – الزهور – الطيور – الغصون – الورد – الضلوع الواهنات – القلب الحزين – النوارس – لكائنات).

–حقل الوجدانيات: (رعشة الوجدان – بحر الشوق – أشجاه – تضوع باللحون – خيالات شجية – تفشى في دمي – حزن – السعود – الطيف – شمع الذكريات).

وبناء على ذلك تتكون الصور المجازية عبر التقاء حقول مختلفة فتتراكب منها علاقات جديدة تحدث بصمة تعبيرية، تجعلنا نكتشف أن المجاز كان أداةً من الأدوات المهمة في تكوين النسيج الشعري في القصيدة.

كما أننا نجد شيئًا من الجدة والابتكار والطرافة في الصور المجازية، فنحس بإزاء

(١) ينظر: مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٩٩٢، صـ ٥٨.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(ثورت أمواج القصيد) ذلك التتابع القوي الصادر من نفس هائجة، تضطرب فيها المشاعر وتتحرك، فتناسب ذلك الاضطراب مع **(رعشة الواجدان)**، لما في الرعشة من التحرك المضطرب، وجاءت متفقة أيضًا مع تلك الصورة الفريدة: **(حائمات حول أكواخ السعود)**، وهكذا الشأن في كل مقطع.

ب–الوظيفة الرمزية للمجاز في النص:

بناء على **الوظيفة الرمزية للمجاز**، وما تقوم به من غموض شفيف يحتاج إلى شيء من التأمل، سنجد أن الشاعرة تلجأ إلى تداخل المجاز مع التورية، فقولها (حول أكواخ السعود) يجعلنا نتساءل: أترمز الأكواخ إلى فكرة خيالية، أم أنها ترتبط دلاليًّا بالأماكن التي تتضمن مفردات (سعد)، أم العائلات والقبائل التي تنتسب إليها، أو حسن الطالع والسعد الوجداني، ومن ثم يكون لكلمة (السعود) أكثر من تأويل ودلالة، فهي مكان، أو عائلة، أو السعود الوجداني...إلخ.

كما أن المتأمل في أكثر العبارات من واقع السياق الذي تزخر به المفردات والجمل؛ يدرك أن الشاعرة حمَّلت الألفاظ حمولاتٍ دلاليةً يمكن – من خلال الرمز في البناء اللغوي– أن نقرأ العاطفة المستترة خلف الكلمات والتعبيرات اللغوية المنتشرة في أرجاء النص، والتي جاءت مفعمَة بدلالات الشجن والحزن، ومنها:

- يا رعشة الوجدان.
- قد ماج بحر الشوق.
- أشجاه النشيد.
- قد صرت عشا للسكون.
- فلمن هنا تركوا الغصون.
- ظمأ تفشى في دمي بين الضلوع الواهنات.
- كسائرة على جمر الفلاة.

- وبكيت حتى خلت أني حزن كل الكائنات.

إذا فـ(الشجن/ الحزن) هو الطابع السائد في النص، والقيمة المعنوية المسيطرة عليه؛ وذلك من خلال ما توحي به السياقات والدلالات المعجمية لكل مفردات الجمل في النص.

ويمثل المجاز في النص أيقونة رمزية تحمل كثيرًا من الدلالات المضمرة التي تتجلى عبر اللغة الشعرية المكثفة، "ذلك أن النص يقوم بدور فعال في عملية التواصل والترميز الفنيين، بمعنى أنه ينقل الموضوعات الخارجية ويحولها إلى لغة، مما يجعل عملية الترميز تسير من الموضوعات إلى الكلمات. وبما أن النص يقوم بهذه العملية، فإنه يتوقع وجود متلق افتراضي، يفك شفراتها، ويجعل العملية تسير من الكلمات إلى الموضوعات"(١).

جـ– النسق المعرفي:

من الوظائف المعرفية للمجاز في القصيدة أننا نقوم ببعض العمليات الإدراكية عبر التفكير بالمجاز، فيكون وسيلة للتصور الذهني وتحديد مجالات الاستعارات، فمن ذلك مثلاً: الاستعارة التصورية (الجدال حرب)، حيث تعكس هذه الاستعارة في لغتنا اليومية عددًا كبيرًا من التعابير فقولنا (الجدال حرب)، جملة تصويرية تنبني عليها مجموعة من الاستعارات الذهنية المرتبطة بمجالها التفكيري مثل:

١–لايمكن أن تدافع عن ادعاءاتك.

٢–لقد هاجم كل نقاط القوة في استدلالي.

٣–أصابت انتقاداته الهدف.

٤–لقد هدمت حجته.

٥–لم أنتصر عليه يومًا في جدال.

٦–إذا اتخذت هذه الاستراتيجية ستباد.

(١) سمير، حميد، شعرية التواصل في التراث الأدبي تنظير وتطبيق، ط/النادي الأدبي الثقافي بجدة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م، صـ٥٢.

٧–إنه يُسقط جميع براهيني.

...بهذا المعنى تكون استعارة الجدال حرب من بين الاستعارات الموجودة في ثقافتنا والتي نحيا بها"[١]. ومعنى هذا أن البلاغة "بوصفها مفهومًا تصوريًّا تكون جزءًا من نظرية المعرفة، حيث واجهنا الاستعارة بوصفها تطابقًا (هذا هو ذاك)، وليس مغادرة اللفظ لدلالته التي وضع عليها في الاصطلاح اللغوي"[٢].

وبناء عليه تختلف وظيفة الاستعارة في هذا التصور عن البلاغة العربية، فالأخيرة تبحث في المجاز بوصفة أداة من أدوات التعبير القائم على الاتساع والمشابهة والتأكيد، وهذه قيم فنية تتحقق في الخطابات الأدبية شعرًا ونثرًا، أما الاتجاه المعرفي فينظر إلى الاستعارة على أنها أداة للتفكير، وليست متعلقة بالإبداع فحسب، غير أنها في التصور البلاغي العربي كما أسلفت قائمة على الاتساع في المجاز، وذلك من خلال النظرة التأملية الشمولية الممتزجة بالتجارب التي تمثل النموذج المعرفي القائم على الخبرة والممارسة، وبذلك تعطي هذه الوظيفة المعرفية للشعر مكانته العليا، ودوره المعرفي الذي يجد صداه في وجدان المتلقي المتمرس بالتجربة ذاتها.

وكلما زادت القيمة المعرفية للنص الشعري بين المتكلم والمتلقي، كان أدعى للسيرورة والتمثل به في كل ما يتقاطع أو يتوافق معه في شتى النواحي المعنوية، كون النص يعد في الوقت ذاته مصدرًا من مصادر المعرفة الإنسانية وجدانيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، وهذا ما يؤكده أصحاب الاتجاه المعرفي في بحثهم للاستعارة، حيث إنهم لا يعدونها

(١) لايكوف، وجونسون، الاستعارات التي نحيا بها، صـ ٢١، ٢٢. وينظر: صبرة، أحمد، المجاز في الدراسات الغربية، التركيب التأويل رؤية العالم، مؤسسة الانتشار العربي – بيروت – الطبعة الأولى ٢٠١٦م، صـ ١٨٠.

(٢) حاوي، صلاح، الاستعارة بوصفها مدخلا معرفيًّا، مجلة فصول، مج ٢٦، ع/ ١٠١، خريف ٢٠١٧م، صـ ٢٨٩.

"عملية نقلية نقوم فيها باستبدال معنىً أصلٍ بمعنىً آخر يناسبه على وجه التوسع والتحسين، إنها عكس ذلك مكون من مكونات معمار الذهن، نفكر بواسطتها... إنها تفاعل بين طرفين نشيطين معًا"(١).

فالمشاركة من قبل المتلقي هي نقطة الانطلاقة الثانية للنص الأدبي بعد تكوينه من قبل المؤلف، فلا يكون المعنى وقفًا على مؤلفه تفسيرًا وتأويلا، لأن المؤلف ذاته يدرك تمامًا تلك الفراغات التي سيتم ملؤها من قبل المتلقي عندما يسبح في فضاءات النص، وبين فراغاته، والمسكوت عنه من أنحاء ذلك النص، فيتم من خلال تلك العملية إنتاج متجدد لذلك النص، يكون المؤثر الأكبر فيه هو المتلقي ذاته وليس المؤلف.

ونحن هنا نتساءل: هل الطبيعة التكوينية للمتلقي بجميع خلفياتها الثقافية والاجتماعية والذهنية والمعرفية هي المؤثرة في نتيجة القراءة للنص، أو أن المنهج الذي يتبعه المتلقي في القراءة ويسير عليه هو المؤثر الوحيد في نتائج تلك الدراسة ومحصلتها.

ونلمح في القصيدة أن الشاعرة تستعمل عبارة (رعشة الوجدان)، فهذه الاستعارة تستدعي أن الوجدان له اهتزاز وحراك داخلي، وربما يظهر ذلك على الجوارح، وهنا يستدعي: رعشة الحب، ورعشة الطرب للشوق المتكتل في ثنايا أوردة الجسد ومخيلته حسيًّا ومعنويًا. تقول الشاعرة:

"يَا رَعْشَةَ الوُجْدَانِ كَمْ ثَوَّرْت أَمْواجَ القَصِيد
قَدْ مَاجَ بَحْرُ الشَّوْقِ يَجْرِفُنِي إلى الشَّطِّ البَعِيد
حَيْثُ النَّوَارِسُ حَائِمَاتٌ حَوْلَ أَكْوَاخِ السُّعُود

(١) سليم، عبد الإله، بنيات المشابهة في اللغة العربية مقاربة معرفية، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠١، صـ ٧٤.

حَيْثُ النَّدَى فَوْقَ الزُّهُورِ الحُمْرِ أَشْجَاهُ النَّشِيد

هنا إدماج النص المحسوس (الرعشة) بالمعنوي المجرد (الوجدان)، فالرعشة مجال عام مطلق يقتضي (الخوف، أو المرض، أو شدة البرد)، لكن يلتحق بها الألفاظ التي تدخلها في فضاء خاص، فننتقل إلى إدراك نوع تَصوُّرِي معين تقدمه الصورة عبر الالتحام بالإطار المعرفي للصورة الأخرى: (تثوير أمواج القصيد)، ومن هنا يدرك الذهن أنها رعشة منسجة مع هزة الإبداع، وليست رعشة تحقيقية تصيب الجسد عبر دلالة المجردات (الوجدان)، بما يجعلها لحظة ميلاد التعبير الأدبي عن الأحاسيس والعواطف.

قَدْ مَاجَ بَحْرُ الشَّوْقِ يَجْرِفُنِي إِلى الشَّطِّ البَعِيد

ماج: الاضطراب + بحر (اتساع + عمق + خطر + تيه + غرق).

ماج: الحركة + الشوق (تدفق + اندفاع + رغبة + تحفز).

وعبر اندماج مفاهيم (البحر) بمفاهيم (الشوق) يتولد لدينا أن الموج والحراك والاضطراب داخل النفس المبدعة يرتبط بمعاني المجالين؛ فالشوق رغبة مصحوبة بمخاطرة، واندفاع مرتبط بعمق، وهذه المخاطرة وهذا الاندفاع يجسدهما الانجراف (يجرفني) ووصف مكان الرسو بـ(البعيد).

وبناء عليه فالمقطع فيه عدة مجازات يمكن للمتلقي من خلالها الدخول إلى العوالم الذهنية للإنتاج، وهي عوالم "تفترض أن الدماغ ما دام قادرًا على توليد آلاف الجمل بناء على النظرية التحويلية؛ فإنه قادر – من ثمَّ – على توليد آلاف المجازات من خلال الفضاء الذهني المبتكر في الدماغ، ولذا فسنجد – وفق هذه الرؤية – أن المجازات ملك للجميع، لأنها من وسائل التعبير عن الأطر المعرفية في الذهن، بالإضافة إلى كونها طريقة تفكير مبنية على معارف ماثلة في العقل البشري، وبذلك سينتقل التحليل من الفضاء النصي إلى الفضاء الذهني"[(١)].

(١) السيد، إبراهيم سعيد، القراءات البلاغية وتعدد الدلالة، صـ١٨٥، ١٨٦.

ثم يأتي بيان الحيثيات المكانية لهذا الشاطئ البعيد (حيث النوارس)، (حيث الندى)، بالإضافة إلى أن النوارس والندى من مفردات الطبيعة الهادئة واللطيفة، تمتزج فيها عناصر الحركة (الطيران) وعناصر السكون والصفاء (الندى)، ثم تأتي مفردات (السعود) (الزهور الحمر) لتزيد الطبيعة ألقًا تكوينيًّا، لكنها لا تخلو من ظلال الحزن الماثل في القصيدة (أشجاه القصيد). "ولا بد هنا من الإشارة إلى الفعل الإرادي في تكوين الموقف، وتكوين الصورة الجديدة الناشئة عن العلاقة بين الأطر، فالأمر ليس أمرًا آليًّا، بحيث ينتج عن تشابه الأطر تشابه الوسائل والنتائج عند المبدعين من العلماء والأدباء والفنانين، أو حتى مجرد الإنسان العادي، وكأن هذه الحركة العقلية حركة آلية ذاتية"(١).

إن الشاعرة تبني صورها بناء على انتقاء مفردات مجازية تتفاعل في أطر إدراكية تجعل الذهن يربط بين مفرداتها ومكوناتها الدلالية، بما يجعل من المجاز أداة للتكثيف، "وعليه يصبح للصورة الشعرية ملمحان اثنان، فهي من الناحية البنيوية شمولية، ومن الناحية الوظيفية تكثيفية، فإذا كانت الشعرية تكثيفًا للغة، فإن الصورة الشعرية تكثيف للشعرية"(٢).

(١) علي، أحمد يوسف، الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م، صـ١٧.

(٢) كوهن، جون، اللغة العليا: النظرية الشعرية، ترجمة أحمد درويش، ط/ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة سنة ١٩٩٥م، صـ ١٤٥.

الخاتمة وأهم النتائج

عرضت في هذه الدراسة فكرة مهمة وهي أن اختلاف النسق المنهجي يستلزم بالطبع اختلافًا في نتائج التحليل والكشف، وقد درست هذا من خلال رصد المجاز ووظائفه ودلالاته في قصيدة شعرية للشاعرة الإماراتية رهف المبارك، عبر المقارنة بين البلاغة العربية وبعض مذاهب التحليل النقدي الحديث.

ويمكن ذكر أبرز النتائج فيما يأتي:

أولاً: يمكن القول بأن تباين نتائج الدراسات للنصوص وفق أنساق متعددة جزئي بعض الشيء؛ وقد يكون كليًّا في بعض الأحيان، وفق للتقارب أو التباعد بين المكونات والمنطلقات لتلك الأنساق المختلفة.

ثانيًا: ترتبط الوظيفة الفنية للمجاز في النص الأدبي بالنسق الذي انطلقت منه الرؤية النقدية في تحليل النصوص، حيث تعددت الوظيفة البلاغية للمجاز بحسب الطريقة المتبعة في كل منهج من مناهج القراءة والتحليل.

ثالثًا: قدمت الدراسات الحديثة إسهامات مهمة في الحديث عن وظيفة المجاز، واستظهار قيمته، وفق مبادئ لسانية جديدة، تختلف مع بعض وظائفه في التراث البلاغي العربي.

رابعًا: يعد النسق عند اللغويين شبكةً من العلاقات والعناصر اللسانية التي تكتسب قيمتها بترابطها فيما بينها، لا مستقلة عن بعضها، حيث إن مصطلح النسق يعني النظام القائم على التماسك بين الأشياء، وهكذا تكون كل قراءة نقدية ذات نظام معين، وطريقة محددة تتبع إجراءات منتظمة ومتفقة في الأهداف.

خامسًا: كان من أهم التعريفات التي قدمها الباحثون للوظيفة البلاغية هو التعريف

الذي يرى أنها "الآثار المترتبة على وجود ظاهرة بلاغية ما، في مادة لغوية معينة كما قدمها البلاغيون العرب القدامى تنظيرًا وتطبيقًا".

سادسًا: تحليل المجاز في النص الشعري من زاوية البلاغة العربية أسفر عن أن المجاز يرتبط بالاتساع في الكلام، وحصول المشابهة عند إرادة التصوير، وتوكيد المضامين عبر نسج خيوط متشابكة للصورة، وهذه الوظيفة اللغوية الحيوية للمجاز هي التي جعلت البلاغيين العرب يعتبرونه (امتدادًا أو اتساعًا أو عبورًا).

سابعًا: اختلفت وظيفة الاستعارة في المناهج الحديثة عن البلاغة العربية، فالدراسات الحديثة تنظر إلى الاستعارة على أنها سمة أسلوبية للكاتب، أو آلية رمزية شعرية، أو أنها أداة للتفكير، وليست متعلقة بالإبداع فحسب، غير أنها في التصور البلاغي العربي –كما تقدم– تقوم على الاتساع في المجاز، وذلك من خلال النظرة التأملية الشمولية الممتزجة بالتجارب التي تتمثل النموذج المعرفي القائم على الخبرة والممارسة.

التوصيات:

١–يوصي البحث بأن فكرة هذه الدراسة يمكن البناء عليها والاستفادة منها في دراسة أوسع وأشمل (ماجستير) عن مدى الاختلاف والاتفاق لنتائج تعدد الأنساق والرؤى في دراسة النصوص الأدبية، لكن بشكل موسع يشتمل على عدة جوانب بيانية، وكذلك عدة نصوص أخرى مختارة.

٢–يمكن أيضًا استجلاء مدى الاختلاف والاتفاق في النتائج من خلال بحث آخر يقوم بتتبع القراءات لنصوص تراثية أو حديثة بعينها تكررت حولها الدراسات والأبحاث بصورة واضحة في مدونة النقد العربي.

٣–ضرورة إدراك مقاصد المصطلحات النقدية واستعمالاتها بين النقد العربي قديمًا وحديثًا، حيث إن استعمال بعضها عند النقاد حديثًا قد لا يكون منطلقًا من معنى المصطلح واستعمالاته في المدونة النقدية قديمًا، وإنما يكون ترجمة لمعنى واستعمال آخر في مدونة النقد العالمية.

المصادر والمراجع

إبراهيم، إبراهيم عوض، المجاز ومجاز المجاز وأثرهما في التغير الدلالي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠١٨.

أرسطو، فن الشعر لأرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة– بيروت، د.ت.

بقشي، عبد القادر، قضية المجاز وأبعادها البلاغية والكلامية، مجلة جذور ٢ النادي الأدبي الثقافي بجدة، سبتمبر ٢٠٠٥.

بوقرة، نعمان، الخطاب والنظرية والإجراء، مطبعة جامعة الملك سعود، (د. ط)، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، دار المدني بجدة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ– ١٩٩١م.

الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، والخانجي– الطبعة الثالثة ١٩٩٣.

ابن جني، أبو الفتح، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الأولى، بيروت: دار الهدى، ١٩٥٥.

حاوي، صلاح، الاستعارة بوصفها مدخلا معرفيًّا، مجلة فصول، مج ٢٦، ع/ ١٠١، خريف ٢٠١٧م.

خالفي، حسين، تحولات النسق البلاغي الغربي بين التراث والتجديد، مجلة فصول، مج ٢٦، ع/ ١٠١، خريف ٢٠١٧م.

خليفة، عبد اللطيف محمد، ارتقاء القيم، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٠، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ١٩٩٢.

الدينوري، ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

الرباعي، عبد القادر، الصورة الفنية في النقد الشعري دراسة في النظرية والتطبيق، دار جرير – عمَّان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

زايد، علي عشري، البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها، طبعة مكتبة الآداب، الطبعة السابعة، ٢٠٠٩م.

س رافندران، البنيوية والتفكيك، تطورات النقد الأدبي، ترجمة خالدة حامد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

السبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق خليل إبراهيم خليل، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

السلمي، علي، تحليل النظم السلوكية، طبعة مكتبة غريب، القاهرة. ١٩٧٥م.

سليم، عبد الإله، بنيات المشابهة في اللغة العربية مقاربة معرفية، طبعة دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

سمير، حميد، شعرية التواصل في التراث الأدبي تنظير وتطبيق، طبعة النادي الأدبي الثقافي بجدة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

سمير، حميد، النص وظله، ط/ نادي نجران الأدبي، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

السيد، إبراهيم سعيد، القراءات البلاغية وتعدد الدلالة، طبعة دار النابغة مصر، الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ، ٢٠٢١م.

السيرافي، أبو سعيد (ت٣٦٨هـ) شرح كتاب سيبويه، تحقيق/ أحمد مهدلي، وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

شلش، علي، في عالم الشعر، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

شيخ أمين، بكري، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، الجزء الثاني علم البيان، طبعة دار العلم للملايين، الطبعة السابعة، يوليو ٢٠٠١م.

صبرة، أحمد، المجاز في الدراسات الغربية، التركيب التأويل رؤية العالم، مؤسسة الانتشار العربي – بيروت– الطبعة الأولى ٢٠١٦م.

صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، طبعة دار الطليعة الطبعة الأولى ٢٠٠٥.

صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت، المجلد الثاني، ١٩٧٩م.

صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد المتحدة– بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.

الطرابلسي، محمد الهادي، تحاليل أسلوبية، عالم الكتاب، سلسلة دراسات أدبية ونقدية، تونس ٢٠٠٦م.

طعمة، عبد الرحمن، اللغة والمعنى والتواصل..النموذج العرفاني وأبعاده التداولية، طبعة كنوز المعرفة، عمان الأردن، ١٤٤١هـ.

عبد البديع، لطفي، فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث، مكتبة لبنان، ناشرون، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

عبد الجليل، محمد بدري، المجاز وأثره في الدرس اللغوي، بيروت: دار النهضة العربية، (د.ط) ١٩٨٦م.

عبد اللطيف، عماد، تحليل الخطاب البلاغي دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، طبعة كنوز المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ– ٢٠١٤م.

عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونج مان، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

العساسفة، المثنى مد الله، المجاز دراسة في النشأة والتطور، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، مج ٤١، ملحق ٢، ٢٠١٤هـ.

العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار

الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م.
علي، أحمد يوسف، الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م.
الفراء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، طبعة دار الكتب– القاهرة، (د.ت).
الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
الفيروزبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت– الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٣٦هـ– ٢٠١٥م.
القزويني، الإمام جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد خفاجي، بيروت: دار الجيل، (د.ت).
كوهن، جون، اللغة العليا: النظرية الشعرية، ترجمة أحمد درويش، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة سنة ١٩٩٥م.
لايكوف، جورج، وجونسون، مارك، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، طبعة دار توبقال الطبعة الثانية ٢٠٠٩م.
المبارك، رهف، مسارات الضوء وعناقيد الحب، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الإمارات، الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
المثنى، أبو عبيدة معمر، مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، الطبعة الثانية، دار الفكر ومكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٠م.
محمد، بهاء الدين، من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي.. تبسيط التداولية، الطبعة الأولى، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٠م.

مخلوف، ربيع، المجاز بين التأصيل البلاغي العربي والنظريات الأسلوبية الحديثة، رسالة دكتوراة جامعة باتنة الجزائر– ٢٠١٧م.

مزرقط، سعاد، البعد التداولي للمجاز عند الجاحظ. البخلاء أنموذجًا، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ٢٠١٦م.

المعتوق، أحمد، الشعر والغموض ولغة المجاز دراسة نقدية في لغة الشعر، مجلة جامعة أم القرى، ٢٠٠٣م.

مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٩٩٢م.

ابن منظور، محمد بن مكرم جمال الدين، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

هاشم، حسين عودة، التداولية والمجاز دراسة أبستمولوجية، مجلة جامعة ذي قار، كلية الآداب، شباط ٢٠١٢م.

Bibliography:

Ibrahim, Ibrahim Awad, Al-Majāz wa Majāz Al-Majāz wa Atharuhima fi Al-Tagayyur Al-Dilāli, Journal of the Faculty of Arts, Cairo University 2018.

Aristotle, The Art of Poetry by Aristotle (in Arabic), translated by: Abd al-Rahman Badawi, House of Culture - Beirut.

Buqshi, Abdul Qadir, The Case of Metaphor and Its Rhetorical and Verbal Dimensions (in Arabic), Al-Judhour Journal 2, Jeddah's Literary and Cultural Club, September 2005.

Bougherra, Noman, Discourse, Theory, and Procedure (in Arabic), King Saud University Press, 1436 AH - 2015.

Al-Jurjani, Abdel-Qahir, Asrar Al-Balaghah, investigation by Mahmoud Shakir, Dar Al-Madani, Jeddah, first edition 1412 AH - 1991.

Al-Jurjani, Abdil-Qahir, Dalāʾil Al-I'jāz, investigated by Mahmoud Shakir, Al-Madani Press, and Al-Khanji - Third Edition 1993.

Ibn Jinni, Abu Al-Fath, Al-Khasa'is, investigated by: Muhammad Ali Al-Najjar, first edition, Beirut: Dar Al-Huda, 1955.

Hawi, Salah, Al-Isti'ārah as a Cognitive Approach (in Arabic), Fosoul Journal, Vol. 26, P/101, Fall 2017.

Khalifi, Hussein, Transformations of the Western Rhetorical Pattern between Heritage and Modernity (in Arabic), Fosoul Journal, Vol. 26, P/101, Fall 2017.

Khalifa, ʿAbd al-Latif Muhammad, Irtiqā Al-Qiyam, 'Ālam Al-Maʿrifah Series, No. 160, Kuwait, National Council for Culture, Arts and Literature, 1992.

Al-Dinawarri, Ibn Qutayba, Taʾwīl Mushkil Al-Qurʾān, investigation: Al-Sayed Ahmed Saqr, second edition, Cairo: Dar Revival of Arab Books.

Al-Rubāi, ʿAbd al-Qādir, The Artistic Image in Poetic Criticism, A Study in Theory and Practice (in Arabic), Dar Jarir - Amman, first edition 2009.

Zayed, Ali Ashry, Arabic Rhetoric, Its History, Sources and Methodology (in Arabic), published by / Library of Arts, Seventh Edition, 2009.

S. Ravendran, Structuralism and Deconstruction, Developments in Literary Criticism (in Arabic), translated by Khaleda Hamid, House of General Cultural Affairs, Baghdad, first edition, 2002.

Al-Subky, Bahā al-Din, 'Arūs Al-Afrāh fi Sharh Talkhīs Al-Miftāh,

investigation by: Khalil Ibrahim Khalil, second edition, Beirut: Dar Al-Kutub Al-ʿĀlami, 2001.
Al-Sulami, Ali, Behavioural Systems Analysis (in Arabic), Gharib Library, Cairo.
Saleem,ʿ Abd al-Ilāh, Similar Structures in the Arabic Language, A Cognitive Approach (in Arabic), Dar Toubkal Publishing, first edition 2001.
Sameer, Hāmid, The Poetics of Communication in the Literary Heritage, Theorization and Application (in Arabic), Published by / Cultural Literary Club in Jeddah, first edition 1430 AH - 2009.
Samir, Hamid, The Text and its Shadow (in Arabic), edition / Najran Literary Club, Arwaqa Foundation for Studies, Translation and Publishing, first edition, 2013.
Al-Sayyid, Ibrahim Saʿeed, Rhetorical Readings and Multiplicity of Connotation (in Arabic), Dar Al-Nabigha Egypt, first edition 1442 AH, 2021.
Al-Sirafi, Abu Saeed. Sharh Kitāb Sibawayh, investigation / Ahmad Mahdali, and Ali Sayyid Ali, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, first edition 2008.
Shalash, Ali. in the world of poetry (in Arabic), Dar Al-Maʿārif edition, Cairo, 1980.
Sheikh Amin, Bakri. Arabic Rhetoric in its New Form (in Arabic), Part Two, The Science of the Al-Bayān, Published by / Dar Al-Ilm Lil-Malāyeen, Seventh Edition, July 2001.
Sabra, Ahmad, Metaphor in Western Studies Al-Tarkeeb, Al-Tahweel (in Arabic), Ruhyah Al-ʻĀlam, Muassasah Al-Intishār Al-ʻArabi, - Beirut - First Edition 2016.
Sahrāwi, Masoud, The Pragmatics of Arab Scholars: A Pragmatic Study of the Phenomenon (Speech Verbs) in the Arab Linguistic Heritage (in Arabic), Dar Al-Talee'a Edition, first edition 2005.
Saliba, Jamil, The Philosophical Lexicon (in Arabic), The Lebanese Book House, Beirut, Volume Two, 1979.
Samoud, Hammadi, Rhetorical Thinking Among the Arabs, Its Foundations and Its Development to the Sixth Century (in Arabic), Dar Al-Jadeed Al-Muttahidah House - Beirut, third edition, 2010.
Al-Tarabulsi, Muhammed Alhadi, Tahaleel Ousloubiyya, literature and critical studies, Ālam Al-Kutub, Tunisia, 2006.
Toʿma, Abdul Rahman, Language, Meaning and Communication, The Gnostic Model and Its Deliberative Dimensions (in Arabic),

Kunūz Al-Maʿrifah, Amman, Jordan, 1441 AH.
Abd al-Badih, Lutfi. The Philosophy of Metaphor between Arabic Rhetoric and Modern Thought (in Arabic), Library of Lebanon, Publishers, first edition 1997.
Abdul Jalil, Muhammad Badri, Metaphor and Its Impact on the Linguistic Lesson (in Arabic), Beirut: Arab Renaissance House, 1986.
Abdul Latif, ʿImād, Rhetorical Discourse Analysis, A Study in the Formation of Concepts and Functions (in Arabic), ed / Treasures of Knowledge, first edition 1435 AH - 2014.
Abd el-Muttalib, Muhammed, Rhetoric and Stylistics (in Arabic), The Egyptian International Publishing Company, Long Man, first edition 1994.
Al-Asasifah, Al-Muthanna Mad-Allah, Metaphor, A Study in Genesis and Evolution (in Arabic), Dirasat Journal, University of Jordan, Vol. 41, Appendix 2, 2014 AH.
Al-Alawi, Yahya bin Hamzah, Al-Tiraz al-Mutadammin li Asrār al-Balagha wa ‘Uloum Haqāiq Al-I’jāz, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, 1980.
Ali, Ahmad Youssuf, Al-Istiʿārah Al-Marfoudah fi Al-Mawrouth Al-Balāgi wa Al-Naqdi, Cairo Library of Arts, second edition 2009.
Al-Farra', Ma’āny Al-Qur'an, investigation: Ahmad Youssuf Najati, Cairo: Dar Al-Kutub.
Al-Farahidi, Al-Khalil Bin Ahmed, Kitāb Al-ʿAin, investigation: Mahdi Al-Makhzoumi, Dr. Ibrahim Al-Samarrai, Al-Hilal Library and House.
Al-Fayrouzabadi, Al-Qāmous Al-Muheet, Chapter Al-Qāf, Fasl Al-Noun, Article Nasq, Al-Risala Foundation, Beirut, second edition, 1987.
Fuyoud, Bassiouni Abd al-Fattah, The Science of Al-Ma’āni, A Rhetorical and Critical Study of the Issues of Al-Ma’āni (in Arabic), Al-Mukhtar Foundation for Publishing and Distribution, Cairo, vol. / 4, 1436 AH - 2015.
Al-Qazwini, Imam Jalal Al-Din, Al-Īḍāḥ fi ‘Uloum Al-Balāghah, investigation: Muhammad Khafaji, Beirut: Dar Al-Jil.
Cohen, John, The Higher Language: Poetic Theory, translated by Ahmed Darwish, vol. / Supreme Council of Culture, Cairo in 1995.
Lakoff, George, and Johnson, Mark, Metaphors We Live By, translated

by Abdul Majeed Jahfa, edition / Dar Toubkal, second edition 2009.

Al-Mubarak, Rahaf, Masārāt Al-Dawh wa ʿAnāqād Al-Hubb, Deewān Shawātih Al-Fajr, Studies and Documentation Center, Ras Al-Khaimah, UAE, first edition 2010.

Muhammad, Bahā al-Din, From the Verbs of Language to the Rhetoric of Political Discourse.. Simplification of Deliberativeness (in Arabic), first edition, Shams for Publishing and Distribution, Cairo 2010.

Makhlouf, Rabih, Metaphor between Arabic Rhetorical Origination and Modern Stylistic Theories (in Arabic), Ph.D. thesis, University of Batna, Algeria - 2017.

Al-Muthanna, Abu ʿUbaida Muammar, Majāz al-Qur'an (Arabic), investigation: Muhammad Fouad Sezgin, second edition, Dar Al-Fikr and Al-Khanji Library, Cairo 1970.

Morqut, Souad, The Pragmatic Dimension of Metaphor for Al-Jahiz..Al-Bukhalā as a case study (in Arabic), Master's Thesis, Faculty of Arts, Kasdi Merbah University, Algeria, 2016.

Al-Maʿtouq, Ahmad, Poetry, Mystery and the Language of Metaphor: A Critical Study of the Language of Poetry (in Arabic), Umm Al-Qura University Journal, 2003.

Miftah, Muhammad, Poetic Discourse Analysis, Intertextuality Strategy (in Arabic), Arab Cultural Center - Casablanca, second edition 1992.

Ibn Manzour, Muhammad bin Mukaram Jamal al-Din, Lisan al-Arab, Beirut, Dar Sadir, third edition, 1414 AH.

Hashim, Husain ʿAwdah, Pragmatics and Metaphor, An Epistemological Study (in Arabic), Journal of Dhi Qar University, College of Arts, February 2012.

تمثلات الحضور البيئي
في رواية (الوسمية) لعبد العزيز مشري
مقاربة في ضوء النقد البيئي

Representations of environmental presence in the novel (Al-Wasmiyyah) by Abdul Aziz Mishri
An approach in light of Environmental Criticism

د. تهاني بنت قليل أحمد الجهني

أستاذ الأدب والنقد المساعد بقسم اللغة العربية بجامعة طيبة

البريد الإلكتروني: tahaniar23@gmail.com

الملخص

تَرُوم هَذِه الدِّراسة رَصْد تمثُّلَات اَلحُضور البيئيّ فِي رِواية الوسْميَّة لعبد العزِيز مَشرِي بِاعْتبارهَا مِن الرِّوايات السُّعوديَّة التِي ظهر فِيهَا التَّوَجُّه البيئيّ، بهدف الكشف عن هذه التمثلات من خِلَال أبْعادهَا الفكْريَّة والثَّقافيَّة والْأدبيَّة، واعْتمدتْ الدِّراسة مَنهجِيًا على الاسْتقْراء والْوَصْف والتَّحْليل فِي ضَوْء النَّقْد البيئيّ، وقُسِّمت بعْد التَّمْهيد اَلذِي جاء عن النَّقْد البيئيّ، ورواية الوسْميَّة، إلى مَبْحَثين: الأوَّل: عن التَّمثُّلات البيئية: الفكْريَّة والثَّقافيَّة، الثَّاني: عن التَّمثُّلات البيئية: الأدبيَّة، ثمَّ خَاتِمة تَضمنَت أَبرَز النَّتائج وَالتِي مِنهَا: أنَّ التَّمثُّلات الفكْريَّة والثَّقافيَّة قد ظَهرَت مِن خِلَال المكون البيئيّ والْوَعْي وتحوُّلاته فِي الرِّواية، بيْنمَا ظَهرَت التَّمثُّلات الأدبيَّة مِن خِلَال خطاب الحكي والْحوار والصُّورة البلاغيَّة. كما ظهر الوعْي البيئيّ فِي أبْعادهَا الأيديولوجية، والسِّسْيولوجيَّة، والسَّيْكولوجيَّة، بالإضافة إلى ما أَتَاحه عُنْصُرا الزَّمَان (الوسْميَّة) والْمكان (قَريَة الوادي) من ظُهُور المعْيار الزَّمكانيّ على مُستَوَى تمْثيلات بِيئيَّة حَدَثيَّة وحواريَّة وَصورِية.

الكلمات المفتاحية: النّقد البيئي، الوسميّة، التمثّلات البيئية، الطبيعة، الإنسان، الإيكولوجي.

Abstract

This study aims to monitor the representations of the environmental presence in the novel al-Wasmiyyah by Abdul Aziz Mishri, as it is one of the Saudi novels in which the environmental orientation appeared, with the aim of revealing these representations through their intellectual, cultural and literary dimensions. The study relied methodologically on induction, description and analysis in light of environmental criticism. It was divided into an introduction and two sections and a conclusion. The introduction dealt with environmental criticism and the narration of al-Wasmiyyah. The first section: about environmental representations: intellectual and cultural, the second: environmental representations: literary. The conclusion included the most prominent findings, some of which are: that intellectual and cultural representations appeared through the environmental component and awareness and its transformations in the novel, while literary representations appeared through narrative discourse, dialogue, and rhetorical imagery. It also showed environmental awareness in its ideological, sociological, and psychological dimensions, in addition to what the elements of time (nominalism) and place (the valley village) allowed for the emergence of the spatio-temporal standard at the level of environmental representations in events, dialogue, and images.

Keywords: Environmental Criticism, al-Wasmiyyah, environmental representations, nature, humans, ecology.

المقدمة

المتتبّع لِلْعلاقة بَيْن البيئة والْأَدب يَجدُها حَاضِرة ومتعدِّدة التَّمظْهرات مُنْذ العصْر الجاهليّ وَمرُورًا بِالنَّصّ الأدَبيّ فِي عُصوره المتتالية، وَحتَّى وقْتنَا الرَّاهن حَيْث زَادَت مِساحَات اَلحُضور مَا بَيْن اَلسرْدِي والشِّعْريّ، وَتَعددَت جِهَات التَّناول، وَتَعقدَت بِتعقُّد العلاقة بَيْن الإنْسان وبيئَته. ويبْحث النَّقْد البيئيّ فِي هَذِه العلاقة، فالْبيئة وَاسِعة وَشامِلة لِلْمحِيط مِن حوْلنَا بِكافَّة مكوناته الإنْسانيَّة والْمادِّيَّة، الطَّبيعيَّة والْكوْنيَّة، وتعدُّد التَّمثلات لِلْبيئيّ اِسْتتْبعه تَعدُّد العلاقات وتعدُّد أبْعادهَا وَقيمِها الدَّلاليَّة بَيْن الإنْسان والْبيئة، وَتَناول هَذِه العلاقات فِي اَلنَّص الأدَبيّ يَرتَبِط اِرْتباطًا وثيقًا بِوَعي الكاتب البيئيّ وتوجُّهاته البيئيَّة فِي اَلنَّص، واَلتِي يَنبَغِي أن تَتَجاوَز حُدُود التَّفاعل والتَّأمُّل الجماليّ، وتعيد تَمْثِيل هَذِه العلاقة وتُظهر جوانبها الأخرى الفكرية والثقافية، كونها لا تنفك عن الفِكْر الثّقَافِي الموْروث والمتَجدد بالإضافة إلى الجَانب الأدَبي في توظِيفها.

وقد اِسْتوْقف الباحثة جدّة المقاربات النَّقْديَّة اَلتِي تَتَناوَل النَّقْد البيئيَّ فِي الأدب، وَهِي مع ذَلِك مَا تَزَال دِراسَات مَعدُودة وبخاصَّة فِي مُدَونَة الأدب السُّعوديّ الرِّوائيَّة اَلثرِية بِالتَّجارب ذات التَّوَجُّه البيئيّ اَلتِي لَمْ تُدرَس بعد، وَكَان ذَلِك داعيًا لِلاهْتمام بِهَذه المدوَّنة والْبَحْث فِيهَا عَمَّا يُمثِّل هَذِه الأعْمال. وَتعَد بعض أَعمَال الكاتب السُّعوديّ عَبْد اَلعزِيز مَشرِي مِن أَبرَز الأعْمال ذات التَّوَجُّه البيئيّ، التِي يَتَجلَّى مِن خِلالِهَا العلاقة بَيْن البيئيّ والرِّواية وبخاصَّة أَنهَا تُمثِّل مَرْحَلة التَّحَوُّل مِن حَيَاة القَرْية إلى حَيَاة المدينة[1]، وَتدُور فِي مُحيطٍ زِراعيٍّ تَتَجلَّى مِن خِلاله الصُّورة الخضْراء لِلْبيئة. والرَّاصد لِذَلك ستظْهر لَه بِشَكل وَاضِح بدَا مِن عَناوِين أعْماله التِي تَدُل على مَلامَح بِيئيّة كـ"الوسْميَّة"، و"اَلغُيوم ومنابتُ الشَّجر"، و"رِيح الكادي"، و"بَوْح السَّنابل".

(١) ينظر: محمد صالح الشنطي، **في الأدب العربي السعودي وفنونه واتجاهاته ونماذج منه**، (حائل: دار الأندلس للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٦م)، ص. ٥٠٣.

وتُعدُّ رواية (الوسْميَّة) مِن الرِّوايات الَتي تَجلَّت فِيهَا عَلاقَة الرِّواية بِالْبيئة فِي تمثُّلَات مُتَعددَة، وَتروم هَذِه الدِّراسة رَصْد هَذِه التَّمثُّلات، وَمِن هُنَا كان تَساؤُل الدِّراسة عن: ما تمثُّلَات الحضور البيئيّ فِي رِواية الوسْميَّة؟؛ بُغيَة الكشْف على التَّمثُّلات البيئيَّة فِيها مِن خِلَال أبْعادهَا الفكْريَّة والثَّقافيَّة والْأدبيَّة. وإماطة اللثام عن تشكلات الوعي البيئي في الرواية، وتكْمن أَهَميَّة هَذِه الدِّراسة فِي الكشْف عن التَّوَجُّه البيئيّ فِي الرِّواية السُّعوديَّة وتمثُّلاته وَالقِيم الَتي تتضَمنها فِي نَمُوذَج رِوائيّ ظهر فِيه هَذِه التَّمثُّلات وَهُو رِواية (الوسْميَّة)، وَمِن جِهة ثَانية تَقدِيم مُقَاربَة نَقدِية ضِمْن تَوجُّه نَقدِي يُعَد مِن التَّوجُّهات النَّقْديَّة الحديثة فِي النَّقْد وَهُو (النَّقْد البيئيّ)، وَمِن جِهة ثَالِثة تَسلِيط الضَّوْء على الأعْمال الأدبيَّة السُّعوديَّة والْكتَّاب السُّعوديِّين الَّذين ظهر عِنْدهم التَّوَجُّه البيئيّ فِي الكتابة الأدبيَّة ومنْهم عَبْد الَعزِيز مَشرِي. ولَا يُوجَد دِراسة – على حدّ عِلْمِي – أُفردت لتمثُّلَات الحضور البيئيّ فِي رِواية الوسْميَّة لَعبَد الَعزِيز مَشرِي أو بَقيَّة رِوايَته وَقصَصِه على الرَّغْم مِن وضوح الوعي البيئيّ فِي كِتَابَاتِه ومِنْ كَثْرَةِ الدّرَاسَاتِ التِي تَنَاولَتْ إِنْتَاجَه الأدَبِيّ، أمّا دِراسة فَاطِمة الَقرْنِي المعْنونة بـ (البيئة الكوْنيَّة فِي الرِّواية السُّعوديَّة : دِراسة فِي ضَوْء النَّقْد البيئيّ) فكان اسْتشْهادهَا بِرواية الوسْميَّة فِيمَا لَا يزيد عن نِصْف صَفحَة مُعتمدَة فِي ذَلِك على تَأْوِيل الظَّواهر اللُّغويَّة. وَمِن أَبرَز الدِّراسات الأخرى السَّابقة عن رِواية الوسْميَّة على سبيل المثَال لَا الحصْر:

-دراسة معجب الزهراني "لغة المعيش في لغة الرواية: دراسة للأصداء الشعبية في رواية "الوسمية"، مجلة الآداب، س٣٦، ٣،٤، (١٩٨٨م).

- دراسة مصطفى كامل سعد "تحولات المكان في روايتي الوسمية والغيوم ومنابت الشجر للكاتب السعودي عبد العزيز مشري"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الثقافة الجديدة، ع٥٥، إبريل (١٩٩٣م).

-دراسة أحمد سماحة، "الوسمية: أسئلة الرواية أفق النص"، علامات في النقد،

ج٨٦، (٢٠١٦م).

–دراسة هشام بنشاوي، "عبد العزيز مشري هجاء الأسفلت والإسمنت في رواية "الوسمية". الجوبة، ع٦٤، (٢٠١٩م).

– دراسة ساري بن محمد الزهراني، "الخطاب السردي في رواية الوسمية لعبد العزيز مشري: دراسة نقدية". مجلة كلية دار العلوم، ع١٢٥، (٢٠١٩).

–دراسة بدرية ابراهيم عبدالعزيز السعيد، "بنية الزمن في النص الروائي: ثلاثية عبدالعزيز مشري أنموذجا". مجلة العلوم العربية والإنسانية بجامعة القصيم، مج١٤، ع١، (٢٠٢٠م).

وقد حرصت هذه الدِراسة على رصد حضور التَّمثُّلات البيئيَّة فِي رواية الوسمية كما حددها النّقاد البِيئيون، لتشْمَل بذلك النّواحي الفِكريّة والثّقافيّة والأدَبيّة، وَمِن أهمّ المراجع اَلتِي اِعْتمَدتْ عليْهَا الدِّراسة بَعْد رِواية (الوسميّة) لَعبَد اَلعزِيز مَشرِي، كِتَاب (النَّقْد البيئويّ) لِجَرج جِرارْد، ترجمة: عزيز صُبْحِي جَابِر، مراجعة: د. أَحمَد خِريس، (هَيئَة أَبُو ظَبْي لِلثَّقافة والتُّراث (كَلمَة)، (١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م). وكتاب (النَّقْد البيئيّ مُقدمَات، مُقاربات، تطْبيقات)، ترى: نَجَاح الجبيْلي، ط ١، (البصْرة: شهْريَار، ٢٠٢١م). وكتاب (النَّقْد البيئيّ مَفاهِيم وتطْبيقات) أبو المعاطي الرمادي وَآخرون، ط ١، (الشَّارقة: دار الانْتشار العرَبِيّ، ٢٠٢٢م). واعْتمدتْ الدِّراسة مَنهجِيا على الاسْتقْراء والْوَصْف والتَّحْليل فِي ضَوْء النَّقْد البيئيّ، وقُسِّمت بَعْد التَّمْهيد اَلذِي جاء عن النَّقْد البيئيّ، ورواية الوسْميَّة، إلى مَبْحَثين: الأوَّل: عن التَّمثُّلات البيئية: الفكْريَّة والثَّقافيَّة، وَتَمثلَت فِي مَطلَبين: الأول: عن اَلمكون البيئيّ، والثاني: عن الْوَعي البيئيّ وتحوُّلاته، والمبحث الثَّاني: عن التَّمثُّلات البيئية: الأدبيَّة، وَتَمثلَت فِي ثلاثة مطالب: الأول: البيئة فِي خطاب الحكي، والثاني: الْبيئة فِي الحوَار، والثالث: الْبيئة فِي الصُّورة البلاغيَّة، ثمَّ خَاتِمة تَضمنَت أَبرَز النَّتائج وَالتِي مِنهَا: أنَّ التَّمثُّلات الفكْريَّة والثَّقافيَّة قد

ظَهرَت مِن خِلَال اَلمكون البيئيّ والْوَعْي وتحوُّلاته فِي الرِّواية، بيْنمَا ظَهرَت التَّمثُّلات الأدبيَّة مِن خِلَال خطاب الحكي والْحوار والصُّورة البلاغيَّة. وقد ظهر تَعدد مَظاهِر اَلمكون البيئيّ. وعُمْق سُلوكيَّات الوعْي البيئيّ فِي أبْعادهَا الأيديولوجية، والسِّسْيولوجيَّة، والسَّيْكولوجيَّة، بالإضافة إلى ما أَتَاحه عُنْصُرا الزَّمَان (الوسْميَّة) والْمكان (قَريَة الوادي) من ظُهُور المعْيار الزَّمكانيّ على مُستوَى تمْثيلات بِيئيَّة حَدَثيَّة وحواريَّة وَصورِية ممّا أظهر قوة الحضور البيئي في الرواية على اختلاف تمثلاته.

التمهيد

أوَّلا: النَّقْد البيئيّ:

اتجَهت نظريَّات النَّقْد الأدَبِيّ فِيمَا بَعْد الحداثة إِلى مَا هو خارج اَلنَّص، وَكَان لِتطوُّر الدِّراسات المعْرفيَّة حَوْل الأدب دَوْر كبير فِي تَوجِيه الأنْظار نَحْو مَفاهِيم ذات عَلاقَة، كالثَّقافة والتَّأْويل والتَّاريخ والْمجْتمع والْبيئة، وَغَيرهَا، وقد كان لِبَعض هَذِه المفاهيم رُؤًى نَقدِية سَابِقة غَيْر أنَّ تبلْورهَا اَلنقْدِي جاء فِيمَا بَعْد الحداثة، وَمِن المفاهيم اللَّافتة فِي علاقتهَا بِالْأَدب مَفهُوم البيئة اَلذِي أَنتَج لِلنَّظريَّة النَّقْديَّة مَا يُسمَّى بـ "النَّقْد البيئيّ" (Environmental Criticism) أو " النَّقْد الإيكولوجيّ " (Ecocriticism)، وَهُو كمَا يُوحي مُسَماه يُرَكِّز على عَلاقَة الأدب بِالْبيئة، ويوسِّع مَفهُوم (العالم) فِي النَّظريَّة الأدبيَّة اَلذِي كان مُرادِفًا لِلْمجْتمع، لِيشْمل اَلمحِيط البيئيّ بِكافَّة تفاصيله[1].

ظهر النَّقْد البيئيّ فِي أَواخِر السَّبْعينيَّات مِن القرْن العشْرين فِي الثَّقافة الأنْجلو سِكْسونيَّة فِي الولايات المتَّحدة الأمْريكيَّة وبريطانْيَا ضِمْن مُؤسَّساتهمَا الأكاديميَّة ومعاهدهمَا الجامعيَّة، وَيرجِع مُصطَلَح "النَّقْد البيئيّ" تحْديدًا إِلى مَقَال لِويلْيام رُوكارْتْ فِي عام ١٩٧٩ م بِعنْوَان "الأدب وَعلِم البيئة: تَجرِبة فِي النَّقْد البيئيّ"، حَيْث يُعَد "أَوَّل من اِسْتعْمل مُصطَلَح النَّقْد البيئيّ لِدراسة العلاقات المْوجودة بَيْن الأدب والْبيئة، بِمَا فِيهَا المكَان، والطَّبيعة، والْأَرْض، والْحياة "[2]. وَترجِع بِدايَات الوعْي البيئيّ إِلى مَا قَبْل ذَلِك حَيْث يُمثِّل كِتَاب "ربيع صَامِت" لِراشِيل كارْسون، اَلذِي نَشرَه عام ١٩٦٢ م، بِداية المذْهب البيئيّ اَلحدِيث. بيْنمَا تَأسسَت "جَمعِية دِراسة الأدب والْبيئة" فِي عام ١٩٩٢م،

(١) ينظر: شيريل غلوتفيلتي، تر: هاجر بوكنانة، "دراسات أدبية في عصر الأزمة البيئية"، **مجلة النقد الأدبي (سرود)**، ع (٧)، (شتاء ٢٠٢٣م)، ص.٧-٢٢.

(٢) جميل حمداوي، **نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة**، شبكة الألوكة، ص. ٢٩٦. استرجعت بتاريخ ٣٠/ ٢/١٤٤٥هـ من موقع www.alukah.net.

وَهِي أَوَّل مُنَظمَة مِهْنية لِلنُّقَّاد البيئيّين فِي الولايات المتَّحدة الأمريكية[١].

والنَّقْد البيئيّ لَه طَابَع مَعرِفِي ثَقافِي تَلتَقِي فِيه حُقُول المعْرفة مِن النَّظريَّة الأدبيَّة والثَّقافيَّة بِالْفلْسفة وَعلِم الاجْتماع وعلْم النَّفْس وَغيرِهم مِن المعارف[٢]، وقد أَتَاح لَه هذَا الطَّابع الاسْتفادة مِن كثير مِن الدِّراسات المعْرفيَّة اَلتِي تَنَاولَت مُعَالجَة الأدب لِلْعالم الطَّبيعيّ، وَكَان لَهَا دَوْر كبير فِي تَطورِه، وَذلِك مِثْل دِراسَات الأدب الأوروبِّيّ الرِّيفيّ، وَأَدَب الطَّبيعة الأمريكي[٣]، هادفًا من هذا الالتقاء المعرفي "إلى استكشاف الأبعاد البيئية للأدب"[٤]، وَذلِك مِن مُنطَلَق دَوْر اَلقِصة والْأَدب فِي لَفْت النَّظر لِلاهْتمام البيئيّ وتوْجيهه لِاسْتيعاب المشاكل البيئية[٥]، التي "تقتضي تحليلاً ثقافيًا وعلميًا في آن؛ لأنها نتاج تفاعل المعرفة البيئوية مع انعكاساتها الثقافية"[٦].

وتتعَدَّد تعْريفات النَّقْد البيئيّ، وَمِن ذَلِك تعْريفه بِأَنه: "النَّقْد اَلذِي يَدرُس العلاقة بَيْن الأدب والْبيئة المادية"[٧]، وتعْريفه بِأَنّه: "دِرَاسة الطّبيعة أو الأشيَاء الطّبيعيّة في

(١) ينظر: بيبا مارلاند، "مقدمة في النقد البيئي"، **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات**، ترجمة: نجاح الجبيلي، (البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م)، ص.١٠.

(٢) ينظر: جرج جرارد، تر: عزيز صبحي جابر، **النقد البيئوي**. (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م)، ص. ١٢.

(٣) ينظر: لويس ويسلنج، تر: عبد الرحمن طعمة، الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان، **مجلة فصول**، ع (١٠٢)، (٢٠١٨)، ص ص. ٣٦٦-٣٨٦.

(٤) لورنس بيل وآخرون، تر: معتز سلامة، "الأدب والبيئة". **مجلة فصول**، ع (١٠٢)، (٢٠١٨)، ص. ٣٣٦-٣٦٥.

(٥) ينظر: **المرجع نفسه**.

(٦) جرارد، **مرجع سابق**، ص. ١١.

(٧) جرارد، **مرجع سابق**، ص. ١٥.

الأَدب.."[١]، وتعْريفه بِأَنه: "دِراسة العلاقات بَيْن الإنْسان والطَّبيعة فِي الأدب والْفيلْم والْأَنْواع الثَّقافيَّة الأخرى"[٢]، وغيْر ذَلِك مِن التَّعْريفات اَلتِي تُرَكِّز فِي مضْمونهَا اَلْعام على عَلاقَة البيئة بِالْأَدب والثَّقافة، أو وظيفة الطبيعة في النَّص، وبشكْل أَكثَر تحْديدًا لِلْمصْطلح فَهُو نَقْد "يَهتَم بِدراسة النُّصوص والْخطابات الأدبيَّة والْإبْداعيَّة فِي ضَوْء نَظَرِيَّة بِيئيَّة إِيكولوجيَّة، تَبحَث عن مَكانَة البيئة، أو الطَّبيعة، أو المكَان، أو الأرْض، أو الحيَاة دَاخِل الإبْداع الفنِّيّ، وَذلِك بِالتَّنْظير والتَّحْليل والْقراءة والْفَحْص والدِّراسة، بُغيَة رَصْد رأي الكتَاب والْمبْدعين والْمثقَّفين تجاه البيئة"[٣]. وتبعًا لذلك "يريد الناقد البيئي أن يتتبع الأفكار والتمثيلات البيئية أينما ظهرت، لكي يرى بشكل أوضح نقاشًا يبدو وكأنّه يحدث"[٤]، وتتبع التمثيلات يقودنا إلى الكشف عن الروابط والصلات بين البشري وغير البشري في النّص الأدبي.

وَهذَا يَعنِي أنَّ هذَا النَّقْد يَتَتبَّع نُصوصًا أَدبِية تَتسِم بِسمات بِيئيَّة، أو مَا يُطلَق عليْه (اَلنَّص الأَدَبِيُّ البيئيّ) وَيعرّفه الدُّكْتور أَبُو المعاطي الرَّماديَّ بِأنّه: "هُو اَلنَّص اَلذِي يَعرِض المشْكلات البيئيَّة ويقدِّم لَهَا اَلحُلول، وينْشر الوعْي البيئيّ، الصَّادر عن أديب يَحمِل همًّا بِيئيًّا، ووعْيًا إِيكولوجيًّا، ويؤمِّن بِأنَّ الطَّبيعة الفطْرِيَّة هِي السِّيَاج الأمْثل لِسلامة الإنْسان على سَطْح الأرْض، يُبْرِز فِيه إِحسَاس الكاتب بِالْبيئة وبالْمخاطر البشريَّة المغيرة لتكْوينهَا الطَّبيعيَّ اَلفطْرِي، وَأثَر هَذِه المخاطر على الحيوان وَعلَى الإنْسان المتعالي على

(١) معجب العدواني، "مدخل إلى النقد البيئي"، **النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات**، تحرير: أبو المعاطي الرمادي، ومعجب العدواني، (الشارقة: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٢٢م)، ص. ١٤.

(٢) إيرين جيمس وأريك موريلا، "مقدمة للنقد البيئي ونظرية السرد"، **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات**، ترجمة: نجاح الجبيلي، (البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م)، ص.٢٣.

(٣) حمداوي، **مرجع سابق**، ص. ٢٩٧.

(٤) العدواني، **مرجع سابق**، ص. ١٤.

الطَّبيعة مِن حَولِه، الظَّانَّ أَنَّه مَركَز الكوْن وَكُل مَا حَولَه وجد لِخِدْمَته"[١]. و يَتضِح مِن هذَا التَّعْريف السِّمَات الفكْريَّة المكوِّنة لِلنَّصِّ الأدَبِيِّ البيئيِّ، ودوْره الثَّقافيّ والتَّوْعوي.

ثانيًا: رِواية (الوسميّة):

رِواية الوسميّة لِلْكاتب والْفنَّان التَّشْكيليِّ السُّعوديِّ عَبْد اَلعزِيز مَشرِي، وَهُو أحد أَبرَز الأدباء السُّعوديِّين، الَّذين صدر لَهُم عدد من الرِّوايات والْمجْموعات القصصيَّة، وَمِنهَا: مَوْت على اَلْماء (النَّادي الأدَبِيُّ بِالرِّياض ، عام ١٤٠٠)، والزُّهور تَبحَث عن آنيَّة (نَادِي جازان الأدَبِيّ، ١٤٠٧)، بَوْح السَّنابل (نَادِي الطَّائف الأدَبِيّ، ١٤٠٨)، وَمِن الرِّوايات: اَلغُيوم ومنابتُ الشَّجر (مُخْتارات فُصُول المصْريَّة ١٤١٠)، رِيح الكاري (المؤسَّسة العربيَّة لِلدَّارسات والنَّشْر، ١٤١٣)، (الوسميّة، دار شُهْدِي، القاهرة، ١٤٠٥)، وَغَيرهَا .

وَتحكِي رِواية الوسميّة قِصَّة أَهْل قَريَة الوادي الَّذين تَأخَّر عَليهِم نُزُول مطر الوسميّة، فأصابهم اَلهَم والْقَلق لِارْتباط فِلاحتهم وزراعتهم لِأرْضِهم بِه، ثُمَّ اِسْتبْشارهم بِنزوله وانْشغالهم بِالْفلَّاحة والزَّرْع وحساباته وَحرصِهم عليْه وحمايتهم لَه مِن المعْتدي، وكتابتهم لِلْمواثيق مِن أَجْل ذَلِك، ثُمَّ حَاجتِهم إِلى شقِّ طريقٍ يَمُر على مزارعهم ونقاشهم فِي هذا الأمْر، وانْتهائهم إِلى التَّضْحية بِجزْء مِن زَرعِهِم اَلذِي بَذلُوا اَلجُهد فِيه، وتنازل المتضرِّرين مِن أَصحَاب المزارِع مُقَابِل اَلْمال.

والتَّجْربة الإنْسانيَّة فِي هَذِه الرِّواية تَجلَّت فِي "عَالَم مَصَاغ بِصورة أَولية بِشَكل طَبيعِي وبالتَّالي بِشَكل ثَقافِي: مُتعَة الوفْرة، أَحزَان الحرْمان، آمال اَلوُجود المتناسق،

(١) أبو المعاطي الرمادي، **النص الأدبي البيئي**، مقالة منشورة في جريد الجزيرة الثقافية الجمعة/السبت ٠٩-١٠ جمادى الآخرة ١٤٤٥ العدد ١٨٥١٣-https://www.al-jazirah.com/2023/20231222/cm6.htm تاريخ الدخول ١٢/٩/١٤٤٥هـ.

ومخاوف الفقْدان والْكارثة"[1]، وَهذَا النَّوْع مِن التَّعْبير الأدَبِيّ هُو مَا يَرتَكِز عليْه النَّقْد البيئيّ، ويبْحث عَنْه النُّقَّاد البيئيّون. فالْعالم اَلأُولى فِي الرِّواية هُو عَالَمَ القرْية بِطبيعته الزِّراعيَّة الأوَّليَّة الفطْريَّة، والْإنْسان فِيهَا هُو إنسَان القرْية بِبساطته وفطْرَته فِي علاقَته بِالْأَرْض والزَّرْع وإدْراكه لِأَثر الظَّواهر الطَّبيعيَّة عَليهِم جميعًا، وَمِن هُنَا فقد حضر مع هذَا العالم تشَكله الثَّقافيَّ والْوجْدانيّ فِي مَخاوِف الجفَاف وَتدمِير الزَّرْع، ثُمَّ مُتعَة الوفْرة فِي مَوسِم الوسميّة بَعْد هُطُول المطر، وآمال اَلوُجود المتناسق بِشقِّ اَلطرِيق المجاور لِزرْعِهم، وَالذِي سيسهِّل عَليهِم حياتهم.

(١) مايكل ب.كوهين، "النقد البيئي تحت المنظار"، **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات،** ترجمة: نجاح الجبيلي، (البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م)، ٤٤.

تمثُّلَات الحضور البيئيِّ فِي رِواية الوسْميَّة

تَنقَسِم تمثُّلات الحُضور البَيئي فِي رِواية الوسْميَّة إِلى قِسْميْنِ: الأوَّل: تمثُّلَات فِكْريَّة وثقافيَّة ظَهرَت مِن خِلَال اَلمكون البيئيّ، والْوَعْي البيئيّ فِي الرِّواية، والثَّاني: تمثُّلَات أَدبية ظَهرَت مِن خِلَال خطاب الحَكِي والْحوار والصُّورة البلاغيَّة فِي الرِّواية، وَفِيمَا يَلِي تَوضِيح ذَلِك:

المبْحث الأوَّل: التَّمثُّلات البيئية: الفكْريَّة والثَّقافيَّة:

وَهِي التَّمثُّلات اَلتِي تَجلَّى مِن خِلالِهَا التَّوَجُّه والْوَعْي البيئيُّ فِي الرِّواية فِكْريًّا وثقافيًّا، وَيتضِح ذَلِك مِن خِلَال المطلبين التَّاليين:

المطْلب الأوَّل: اَلمُكون البيئيّ فِي الرِّواية:

لَقد تَوَافرَت فِي رِواية الوسْميَّة عَناصِر التَّوَجُّه البيئيّ وَالتِي مِن خِلالِهَا ظهر اَلمكون البيئيّ فِي العمل الأدَبيّ، فالْبيئة والطَّبيعة حَاضِرة فِيهَا حُضُورًا يُوحي بِتضْمِين التَّاريخ الإنْسانيّ فِي التَّاريخ الطَّبيعيّ[(١)]، فَعَلاقَة الإنْسان بِالْمَطر والْأَرْض والزَّرْع عَلاقَة أَولية يَتَداخَل فِيهَا التَّاريخان على مرّ اَلعُصور وَعلَى اِختِلاف الأماكن وَهذَا مَا جعل الشَّأْن الطَّبيعيّ يُصَاحِب الشَّأْن الإنْسانيّ فِيهَا، فالْمَطر وَفلاحة الأَرْض وَزرعها يُصَاحِب شقَّ اَلطرِيق والتَّضْحية بِالْمزْروعات. وَمِن جِهة أُخرَى ظَهرَت المسْؤوليَّة الإنْسانيَّة فِيهَا نَحْو البيئة، وتمثّل ذَلِك فِي عِنايتهم بِزرْعِهم، وحمايتهم لَه مِن المعْتدين، بِالْإضافة إِلى كَوْن اَلحِس البيئيّ فِيهَا لَم يَكُن ثابتًا، بل فِي حال صَيرُورة حَيْث اِنتقَل مِن حَالَة تَرقُّب نُزُول المطر مِن أَجْل الزَّرْع والْقَلق بِشَأن ذَلِك إِلى الحرْص والْحفاظ على الزَّرْع ثُمَّ تَحوَّل ذَلِك إِلى التَّضْحية بِه بِأيْديهم مِن أَجْل شقّ اَلطرِيق اَلذِي يَصلُهم بِالْمدينة لِقضاء حوائجهم.

(١) ينظر: **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات**، ترجمة: نجاح الجبيلي، (البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م)، ص.٥٠.

وَفِي ضَوْء هذَا التَّوَجُّه البيئيّ ظهر اَلمكون البيئيّ، وَالذِي تمثل فِي[1]:

١ – البيئة غَيْر البشريَّة فِي اَلنَّص:

تَشكلَّت البيئة غَيْر البشريَّة فِي اَلنَّص فِي إِطارَيْنِ: الأوَّل: ثَابِت وَهُو المكَان (قَريَة الوادي)، والثَّاني: مُتَحرك وَهُو الزَّمَان (الوسْميَّة) وَهُو مَوسِم مطر أَوَّل اَلربِيع، وَسُمي بِذَلك لِأَنه يسم الأَرْض بالنبات[2]، فالْمكان مَكَان رِيفيٌّ تظْهِر فِيه مَلامِح البيئة الطَّبيعيَّة بِشَكل أَوضَح مِن أيْ مكان آخر، حَيْث الأَرْض ذات الغطَاء النَّباتيّ الأخْضر على اِمتِداد البصر، والْمواشي والدَّواب، وَعيُون اَلْماء، وَغَيرهَا. وَهذِه البيئة تَتَفاعَل فِيمَا بيْنهَا وَإِن كَانَت سَاكِنة ويتفاعل مَعهَا الإنْسان كمؤثِّرات ومكوِّنات لِحياته البشريَّة، إِلَّا أنَّ اَلقُوة المؤثِّرة فيهِما هُو الزَّمَان بِسماته الطَّبيعيَّة، فالوسْميَّة يَرتَبِط بِهَا الزَّرْع اَلذِي هُو مِحوَر حَياتِهم اَلفعْلِي وَالذِي مِن أَجلِه تَقوَى صِلاتِهم بِبقيَّة الظَّواهر الطَّبيعيَّة كمواسم المطر وحسابات النُّجوم وَغَيرهَا، ومَا بَيْن هذيْنِ المكوَّنيْنِ (المكَان والزَّمان) تَكونَت التَّفاصيل البيئيَّة غَيْر البشريَّة وبخاصَّة مع بَساطَة الحيَاة الرِّيفيَّة واعْتمادهَا على الحيوانات بِشَكل كبير فأعْمَال الفلاحة يَقُوم بِهَا الثّور[3]، والاسْتسقاء يَكُون مِن اَلعُيون والْقنوات

(١) استضاءت الدراسة في رصد هذا المكون بدراسة لورنس بويل "طبيعة التمثيل البيئي" والمشار إليها في كتاب **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات**، ترجمة: نجاح الجبيلي، (البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م)، ص.٥٠، وذكرها معجب العدواني، "مدخل إلى النقد البيئي، في كتاب **النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات**، تحرير: أبو المعاطي الرمادي، ومعجب العدواني، (الشارقة: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠٢٢م)، ص.١٨.

(٢) ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، (القاهرة: دار المعارف، د.ط، د.ت)، (وسم)، ٤٨٣٨.

(٣) ينظر: عبد العزيز مشري، **الوسمية**، (الدمام: دار أثر للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٩=٢٠١٩م)، ص.٤٥.

والْآبار[١]، وأعمال النّقل تقومُ بها الجمَال والحمير[٢]، وطعامهم من دواجنهم وأغنامهم وزرعهم[٣]، وتطوفُ بينهم قططُهم وفئرانهم[٤]، ويتوقون الحيَّات والثَّعابين ويحْتمون مِن الشَّمْس الحارقة[٥]، ويحمون زرعَهم من رعي الأغنامِ فيه[٦]، وطرقهم بين مزارعِهم محفوفة بالصخورِ والحصى[٧]، وهبوب الرياحِ وغيْم السماءِ[٨]، فضْلا عن صُنُوف الزَّرْع والنَّباتات المذْكورة فِيهَا، وَمِن ذَلِك على سبيل المثَال قَوْل الرَّاوي: "اِستوَت الحنْطة، وسنْبل الشعِير إِلى جَانبِها. . .أَمَّا العدس فظهرتْ حُبوبه خَضْراء مُمتلئَة... سَتمُر بِشحوب واصْفرار، أو اِخضِرار، فَنضُوج ..."[٩].

ويلْحظ أنَّ الطَّبيعة أو البيئة غَيْر البشريَّة تَشكلَت تُشَكلًا كَوَّن سَرْد الرِّواية بِكلِّ تفاصيله، فالْحضور هُنَا لِلْبيئة الطَّبيعيَّة، بِصفتِهَا فاعلًا مُؤَثرًا على البشَريّ وغيْر البشَريّ، وبصفتهَا مَفعُولًا بِه تَحْت تَصرُّف البشَريّ، وبصفتهَا عاملًا مُساعِدًا فِي حَياتِهم، وَمِن جِهة أخرى عاملًا مُعيقًا لَهُم فِي بَعْض المواضع، كُلُّ ذَلِك كان فِي غِيَاب لِلْآلة وملامح المدنيَّة.

٢ – الانْشغالات البيئيَّة والانْشغالات البشريَّة فِي الرِّواية:

(١) ينظر، **الوسمية**: ص. ٥٩-٦٩.
(٢) ينظر، **الوسمية**: ص. ٦٩-١٠٢.
(٣) ينظر، **الوسمية**: ص. ٤٥.
(٤) ينظر، **الوسمية**: ص. ٦٢.
(٥) ينظر، **الوسمية**: ص. ٩٤.
(٦) ينظر، **الوسمية**: ص. ٧٤.
(٧) ينظر، **الوسمية**: ص. ٧٩
(٨) ينظر، **الوسمية**: ص. ٩٥.
(٩) **الوسمية**: ص. ٩٥.

فِي الرِّوايات ذات الوعْي البيئيّ لَا يَنفَك الانْشغال البشَريُّ عن الانْشغال البيئيّ فِي الرِّواية ولَا يَنفَرِد أَحَدهمَا فِي اَلنَّص، فالانْشغال البيئيُّ يَصنَع الانْشغال البشَريُّ، اَلذِي بِدوْره يُحَاوِل السَّيْطرة على البيئيّ، وَفِي رِواية (الوسْميَّة) نَجَدهمَا يتبادلان السَّيْطرة، فَتارَة يُسيْطِر الانْشغال البيئيُّ على البشَريّ، وَتارَة يُسيْطِر الانْشغال البشَريّ على البيئيّ، فالْأَرْض هِي محوَر الانْشغال فِي الرِّواية وارْتَبط بِهَا بَقيَّة الانْشغالات اَلتِي لَم تَتَجرَّد مِن صِفة البيئيّ فِي كُلّ أحْوالهَا. فالانْشغال بِالْمَطر فِي كُلّ مَراحِله كان لِتأْثيره على الأرْض، وعليْه تَقُوم بَقيَّة الانْشغالات، فالانْشغال بِفلَّاحة الأرْض وَبذرِها، وبِالزَّرْع، وحمايته، وبِسَقي المواشي، وَغَيرهَا، كُلهَا اِنْشغالات يَتَداخَل فِيهَا البيئيّ بِالْبشْري، يقول الراوي: "منذ الصباح، مذ صاح الديك عند أول خيط أبيض من الفجر، كان النّاس قد توزعوا في الوديان، يسقون زرعهم.. وكان فرحان قد جاء (بماطور) يعمل بالبنزين، ذهب الجميع وقتها يتفرجون عليه، كان حديث النّاس: (ماطور يطلع الماء من البئر. يحتاج إلى سلم طويل من الحبال الجيدة، ويحتاج إلى صينية خشبية تحمله، تربط بالحبال الوثيقة وتكون قريبة من الماء.. تشترك في إنزالها أيدي الرجال)"[1]. يُصوِّر هذَا اَلمقطع فِي بِدايَته أحد مَشاهِد الحيَاة اليوْميَّة لِأَهل القرْية، وَهِي حَيَاة يصْنعهَا الانْشغال البيئيّ، وَتقُوم عليْه، وَيأْتِي (الماطور) ويصوِّر (رمْزيًّا) تَدخُّل البشَريّ فِي البيئيّ وتعامله معه.

ويُلحظ أنّ الْعلاقة بَيْن الانْشغالين عَلاقَة سَبَبيَّة قَائِمة على المصْلحة والانْتفاع، فَكُلّ أَعْمَالِ أَهْلِ اَلْقَرْيَةِ اَلْإِيجَابِيَّةِ فِي اَلتَّعَامُلِ مَعَ اَلْبِيئَةِ، كَانَتْ لِمَصْلَحَتِهِمْ وَانْتِفَاعَهُمْ، وَحين تعارض ذَلِكَ مَعَ مَصْلَحَتِهِمْ، تغيّر موقفهم، وظَهَرَ أَقْوَى اِنْشِغَالٍ بَشَرِيّ مُؤَثِّر وَمُنَاقِضٍ لِلِانْشِغَالَاتِ اَلسَّابِقَةِ عَلَيْهِ، وَهُوَ (شَقُّ اَلطَّرِيقِ)، وَكَانَ اِنْشِغَالاً بَشَرِيًّا مُدَمِّرًا لِسِلْسِلَةِ اَلِانْشِغَالَاتِ اَلْبِيئِيَّةِ اَلسَّابِقَةِ لَهُ، لِيَتَجَلَّى مِنْ خِلَالِ هَذَا اَلْحَدَثِ اَلْوَجْهُ اَلْآخَرُ لِلِانْشِغَالِ اَلْبَشَرِيِّ تُجَاهَ اَلْبِيئِيّ، اَلَّذِي اِسْتَوْجَبَ اَلتَّضْحِيَةَ بِالزَّرْعِ كَمُكَوِّن بِيئِي كَانَ

(١) **الوسمية**: ص ٤٧

اِنْشِغَالاً مُؤَثِّرًا وَمُحْمِيًّا فِي حَيَاتِهِمْ طيلة الرواية.

٣ – المسْؤوليَّة البيئيَّة (أخْلاقيَّات اَلنَّص تجاه البيئة):

تَمثلَت المسْؤوليَّة البيئيَّة فِي رِواية الوسميّة فِي (قِيمة الحماية) لِلْبيئة الطَّبيعيَّة مِمَّا هُو غَيْر بَشرِي دائمًا، وَمِمَّا هُو بَشرِي أحْيانًا، ويمثِّل الزَّرْع اَلمكون البيئيّ اَلذِي حَظِي بِهَذه القيمة، فِي صِيغتِهَا الجماعيَّة وَذلِك فِي مَوقِف أَهْل قَريَة الوادي مِن حدث دَهْس الزَّرْع وتدْميره مِن قِبل أَغنَام أَهْل قرية الجبل ومَا تَرتَّب على ذَلِك مِن إرسَال المراسيل والشَّكْوى وَعقَد الصُّلْح وكتابة المواثيق لِحماية الزَّرْع مِن الاعْتداء، وتحمل كِتابة المواثيق فِي طَياتِها التَّأْكيد على الحماية مِمَّا هُو غَيْر بَشرِي بِاتِّفَاق الجماعة. أَمَّا اَلمَوْقِف الثَّاني فَكَان شَكوَى الأرْملة حَمِيدَة لِلشَّيْخ مِن الاعْتداء على زرْعهَا مِن قِبل بَعْض النَّاس، وَنظَر الشَّيْخ فِي أَمْر شكواها[١]، دُون أن يَكُون لِذَلك مَواثِيق ومعاهدات كَالتِي قام عليْهَا جَماعَة الرِّجَال بَيْن القرْيتيْنِ، ويسْتوْقفنَا فِي هذَا الحدث أنَّ الاعْتداء على زَرْع اِمرأَة يُشعر بِتداخل البيئيّ والنِّسْويّ فِي هذَا اَلمَوْقِف وَفِي المقابل لَم يَكُن الاعْتداء على عُمُوم الزَّرْع بِفعْل المواشي وَإِنمَا بِفعْل البشر أيْضًا، والْحَدث يَحمِل إشارَات إِلى أنَّ الزَّرْع حِين يَرتَبِط بِامْرَأة تَتَضاعَف هامْشيته وضعْفه مُقَابِل مَركزِية الذُّكوريّ وَقوتِه، وهذا يندرج تحت مصطلح "النسوية البيئية" حيث تسيطر الثقافة الذكورية على المرأة والطبيعة[٢]. وَأَمَّا اَلمَوْقِف الثَّالث فَتَمثَّل فِي شقّ اَلطرِيق وَهُو قَرَار وَفعَل بَشرِي يَندَرِج تَحْت زَحْف الملامح المدنيَّة على اَلقُرى الرِّيفيَّة، وَتَرتَّب عليْه قَصدِية تَدمِير الزَّرْع بِفعْل جَماعِي مِن أَبنَاء القرْية أَنفسِهم.

وَمِمَّا يَلحَظ تَراجُع قِيمة الحماية لِلزَّرْع فِي حالتَيْنِ، اَلأُولى: اِرتِباط الحدث بِامْرَأة، والثَّانية: كَون الحدث بِقرار جَماعِي ذُكوريٍّ، وَهذَا يَعني أَنهَا –أي الحماية– لَم تَتَوافَر إِلَّا ضِدَّ مَا هُو غَيْر بَشرِي، مِمَّا يَشِي بِسلْطة البشَريّ الذُّكوريّ على البيئيّ فِي الرِّواية.

(١) ينظر: **الوسمية**: ص. ٩٣.

(٢) ينظر: معجب العدواني، **مرجع سابق**، ص ٢١.

٤– الطَّبيعة كصيْرورة فِي الرِّواية:

لم تكن الطَّبيعة فِي الرواية مجرد إِطار ثابت لِلنَّشَاط البشَريّ فِي الرِّواية، بل أخذتْ مَوقِع الفاعل (كالْمَطر)، والْمفْعول بِه (كالْأَرْض والزَّرْع) فِي تمظْهراتهَا المخْتلفة، وَهِي ذات كَينُونة مُتَحولَة فِي الرِّواية، وتحوُّلهَا يَأْتِي مِن عَجْز الإِنْسان عن السَّيْطرة على بَعْض مظاهرهَا كتأخُّر نُزُول المطر، يقول الراوي: "مضت أيام طويلة وقاسية ومحاطة بالجفاف"(١) ثُمَّ نُزوله، يقول: "انتشرت غمامة مثل الكحل تبعثر شيء من الرذاذ الخفيف..."(٢)، ثم توقفه، يقول: "قطرات أشجار الطلح، والعرعر، واللوز والحماط، بالماء تنازى القطر على جذوعها، وتحتها كانت جرداء...وكانت طرية..."(٣) ثُمَّ مَوسِم البذْر ثُمَّ مَوسِم الزَّرْع ثُمَّ مَوسِم الحصَاد، يقول: "مرت أيام سبعة وثمانية بذور الشعير والقمح والعدس في أديم الأرض، غطوا عليها التراب الندي. قعدوا زمانًا يعدون فيه الأسابيع، حسب التنجيم وإحصائيات النجم البارد ونجم الثريا، وكم بقي على سقوط المطر قبل الحصاد..."(٤)، وهكذا طيلة الرواية التي تتمحور حول العلاقة بالبيئة وهي في حالة صيرورة وتحول، وقد أَكْسبَهَا هذَا التَّحَوُّل دَوْر الفاعل فِي الرِّواية فهيَ صانِعة الحدث وهي حياتهم تحولها همهم الأكبر، وهذا ما جعلهاَ مَادَّة الحوَار كمَا ستشير الدِّراسة إِلى ذَلِك فِي المطالب التالية – إِن شاء اَللَّه –.

المطْلب الثَّاني: الوعْي البيئيّ فِي الرِّواية وتحوُّلاته:

الوعْي بِصفة عَامَّة هُو "سُلُوك اِجْتماعيٌّ يَتسِم بِالْإِدْراك اَلعمِيق مِن جَانِب

(١) **الوسمية**: ص ١٥.
(٢) **الوسمية**: ص ١٧.
(٣) **الوسمية**: ص ٢٣.
(٤) **الوسمية**: ص ٢٧.

الفرْد أو الجماعة وَتَرجمَة هذَا الإدْراك إلى نمط مِن السُّلوك الفعلي"[١]، فتمثُّلات الوعْي هِي تمثُّلَات سُلوكِيَّة فِعْليَّة مِن قَبْل الفرْد أو الجماعة تجاه البيئة، أَمَّا الوعْي البيئيّ فَيعرِف بِأَنه: "شِحْنَة عَاطفِية ووجْدانيَّة تَتَحكَّم فِي اَلعدِيد مِن مَظاهِر السُّلوك عِنْد الإنسان"[٢]، كما يُعرّف بأنّه: "إدرَاك الفرْد القائم على إِحْساسه ومعْرفته بِالْعلاقات والْمشْكلات البيئيَّة مِن حَيْث أسْبابهَا، وآثارهَا، ووسائل علاجها"[٣]، ونلْمح مِن هذيْنِ التَّعْريفيْنِ تَعدُّد عَلاقَة الإنْسان مع البيئة فَهِي مَعرفِية وَعقلِية ووجْدانيَّة يَتِم التَّعْبير عَنهَا بِالسُّلوك اَلفرْدِي والْجماعيّ.

وَفِي رِواية (الوسْميَّة) اَلتِي تَدُور أحْداثهَا فِي مُجتَمَع القرْية حَيْث أُسلُوب الحيَاة اَلفطْرِي اَلقرِيب مِن الطَّبيعة، وحيْث تَخفِت مَلامِح الحيَاة المدنيَّة، فَإِن الوعْي السُّلوكيَّ على بساطَته يَتسِم بِالْعمْق، اَلذِي جاء مِن الأبْعاد اَلتِي تَرفِد سُلوكيَّات الجماعة مِن أَجْل البيئة، وتتجَلَّى هذه الأبْعاد فِي ثَلاثَة: الأوَّل: أيديولوجي، والثَّاني: سِسْيولوجيّ، والثَّالث: سيْكولوجيّ. أَمَّا اَلبُعد الأيديولوجي فَتَمثَّل فِي الرِّواية مِن خِلَال مُعْتقدات الجماعة حَوْل العلاقة مع البيئة، والْأفْعال القائمة على هَذِه المعْتقدات، وَهذِه المعْتقدات جَاءَت ذات

(١) محمد عبد السلام محمود عجمي، الوعي البيئي لدى طلاب جامعة الأزهر، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر، ١٩٩٤م، ص. ٥٤، نقلًا عن سوزان يوسف بغدادي، "التحديات المعاصرة الداعية للنهوض بالوعي البيئي دراسة تشخيصية"، **مجلة كلية التربية بجامعة بورسعيد**، ع١٤، (يونيو ٢٠١٣م)، ص. ٩٠٧.

(٢) مجدي عزيز إبراهيم، معجم مصطلحات ومفاهيم التعليم والتعلم، (القاهرة: عالم الكتب، د. ط، ٢٠٠٩م)، ص. ١١٦٠، نقلًا عن سوزان يوسف بغدادي، "التحديات المعاصرة الداعية للنهوض بالوعي البيئي دراسة تشخيصية"، **مجلة كلية التربية**، ع(١٤)، جامعة بورسعيد، (يونيو ٢٠١٣م)،ص. ٩٠٧.

(٣) إياد البنا، **مستوى الوعي بمخاطر التلوث البيئي لدى معلمي المرحلة الأساسية في قطاع غزة**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية –غزة، ١٤٣٢هـ=٢٠١١م، ص. ٢٣.

طَابَع دِينيّ، وطابع شَعبِي، أَمَّا الدِّينيُّ فَتَمثَّل فِي إقامة الشَّعائر الدِّينيَّة، فَأَمام عَجْز الإنْسان عن فَهْم الكوْن والطَّبيعة مِن حَولِه يَحضُر الدِّينيُّ بِمعْتقداته وشعائره، وتمثِّل ذَلِك فِي صَلَاة الاسْتسْقاء، والابْتهال إلى اَللَّه بَعْد صَلَاة العصْر بِطَلب الغيْث، يَقُول الرَّاوي بَعْد تَأخُّر اَلفقِيه: " قال أَبُو صَالِح: يَا جَماعَة الخيْر ... أَذنت، ومَا جاء اَلفقِيه! قال مُسْفِر: تُوَكل على اَللَّه ... تُؤمَّم بِنَا. صَلَّى بِالْمصلِّين ... سلَّم على مَلائِكة اَليمِين والْيسار. قال وَهُو يَمسَح على لِحْيته القصيرة: قَولُوا مَعِي ... بِحقِّ طُهر هَذِي الصَّلَاة: اللَّهمَّ أَغِثنَا ... غيْثًا كريمًا ... إِنَّك اَلكرِيم اَلرحِيم قَالُوا كُلهُم: آمين"(١). واللافت في الدعاء بساطة الصيغة وإجمال الرجاء، ويتناسب هذا مع كون الداعي رجلًا منهم حلّ محلّ الفقيه، ويوحي بالهم الجمعي للحدث.

وَممَّا يَتصِل بِالدِّينيّ فِي الوعْي البيئيّ إِخرَاج الصَّدَقة، يَقُول الرَّاوي: "مضتْ أَيَّام طَوِيلَة وَقاسِية ومحاطة بِالْجفاف، تَحولَت فِيهَا كُلُّ آمال النَّاس إِلى رَجَاء حارٍّ يَستعْطِف رَحمَة السَّمَاء. أَخذَت النِّسَاء يتصدَّقْن بِملابسهنَّ القديمة..."(٢). وقد جاء في الحديث النّبوي الشّريف قوله ﷺ: "... ولم يمْنعوا زَكَاة أَمْوالهم إِلَّا مُنعُوا اَلقُطر مِن السَّمَاء ولوْلَا البهائم لَم يُمْطروا" (٣) .

وكذلكَ تمثَّل الوعْي البيئيّ الدِّينيُّ فِي اِبْتهالهم إلى اَللَّه حِين نُزُول المطر وَذلِك بِترْدِيد كَلمَة (يَا كريم) على لِسَان كثير مِن شخْصيَّات الرِّواية، يَقُول الرَّاوي: "جاء صَوْت الرَّعْد عظيمًا رهيبًا، ونذيرًا بِالْخَيْر والْفَرج. قال كثير مِن النَّاس: (يَا كَرِيم) "ماء كَانَت تَنتظِره الأَرْض، وينْتظره النَّاس وينْتظره الرَّجَاء اَلطوِيل، والدُّعاء اَلمعلق بِالْأَمل، وَصَلاة الاسْتسْقاء، والْمرْسوم الملَكيُّ ... "، وَحتَّى صِغارهم كان يُردِّدون مع نُزُول المطر:

(١) **الوسمية**: ص. ١٢.

(٢) **الوسمية**: ص. ١٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩).

"أسْتغْفر الله"[١]. وكذَلِك تمثّل فِيمَا كان يُرَافِق أَفعَال البذْر والْحَرْث وحسابات مَوسِم الحصَاد مِن الابْتهال لِلَّه تَعالَى بِأن يَرعَى بِذرّهم ويبارك فِيه[٢].

وممارسة الشَّعائر الدِّينيَّة تقرُّبًا إِلى اَللَّه تَعالَى لِأَجل نُزُول المطر مَظْهَر مِن مَظاهِر الوعْي البيئيّ فِي الرِّواية، فمهْمَا بلغ الإنْسان مِن العلم والْقدْرة لَا يَستطِيع أن يَتَحكَّم فِي الكوْن والطَّبيعة مِن حَولِه؛ وكانتْ الشَّعائر الدِّينيَّة، الصلاة والصدقة والدعاء وَسِيلَة مِن وَسائِل طلب الرَّحْمة مِن الخالق جلَّ فِي عُلَاه حَتَّى لَا يُهْلِك مِن فِي الأَرْض. وهو يتفاعل من خلالها مع البيئة التي يشعر بعجزه عن السيطرة على مظاهرها المؤثرة في حياته.

وَأَمَّا اَلشعْبِي فيصوِّر قناعَات وممارسات النَّاس تجاه الأَشْياء اَلتِي لَا يسْتطيعون تفْسيرها، وقد يَتَداخَل هذَا المعْتقد مع الفعْل الدِّينِيّ، وليْس بِالضَّرورة أن يَكُون لِذَلك سند شَرعِي، وَمِن الأَمْثلة على ذَلِك فِي الرِّواية رَدَّة فِعْل النَّاس بَعْدم سُقُوط المطر على الرَّغْم مِن صَلَاة الاسْتسْقاء والدُّعاء والصَّدقة، ومحاولتهم تَفسِير ذَلِك بِقوْلِهم:

"قالوا، بعد صلاة الجمعة، إنّ سبب الجفاف.. قلوب النّاس ممتلئة بالحقد وبالضغينة ولا يظهرونها. رأوا أن يقرؤوا "الراتب" خلاصًا وتطهيرًا للقلوب.. اعترض البعض بأن "الراتب" لا يُقرأ إلا عندما يكون في القرية خائن أو مخرب لم يعترف بذنبه، حينها تجب قراءة الراتب (الفاتحة وبعض الدعاء بأن ينتقم الله منه أمام الجماعة في يوم أسود لم يكن يحسب له حسابًا) قال الفقيه: يا جماعة الخير.. نقرأ الراتب والأعمال بالنيات! هبط سكون احتلّ ساحة المسجد.. نظروا وهم جالسون إلى الأرض وتمتمت ألسنتهم بالفاتحة.. ثم قالوا جميعًا: اللهم آمين. وتفرقوا إلى شئونهم"[٣].

(١) **الوسمية**: ص. ٢١.

(٢) **الوسمية**: ص. ٢٧.

(٣) **الوسمية**: ص ١٥.

والنَّاس فِي القرْية يعْتقدون أنَّ المشاعر السَّيِّئة (الحقْد والضَّغينة) المخبّئة فِي اَلقُلوب، هِي السَّبب فِي الجفَاف، وَرأَى بَعضُهم أنَّ كَفَّارة ذَلِك قِراءة مَا يُسَمونَه الرَّاتب، على الرَّغْم مِن اِعْتراض بعْضهم بِأَنه لَا يُقرَأ إِلَّا عِنْدمَا يَكُون فِي القرْية خائن أو مُخَرب لَم يَعترِف بِذنْبه كمَا يعْتقدون ذَلِك، والرَّاتب بِمَا يَتَضمَّن مِن قِراءة لِلْفاتحة والدُّعاء بِنْيَة مُعَينَة أو لِطَلب بِعيْنه كَنزُول المطر، لَيْس لَه سند شَرعِي، وَإِنمَا اِعتِقاد مِنْهم بِأَنَّ هُنَاك ذنْبًا و "الرَّاتب" هُو اَلحَل مِن وُجهَة نَظرهِم.

وَأَمَّا اَلبُعد السسْيولوجيُّ فيظْهر مِن خِلَال رَدَّة الفعْل الاجْتماعيَّة أو السُّلوك الجماعيّ، وَمِمَّا تمثِّل فِيه وعْيهم بِحَال المطر إِذَا عاد بَعْد اِنقِطاع، واحْتمائهم مِنْه، فَسعيد الأعْمى فِي الرّواية حِينمَا سَمِع قَطَرات المطر أَمْر زَوجَتِه بِتغْطِية فتحَة السَّقْف حَتَّى لَا يَدخُل المطر إِلى البيْتِ، مؤكدًا أنّ المطر عندما يتأخر ينزل قويًا شديدًا، وقد ينزل معه البرد(١). وأيضًا يظهر فِي حِكَمِهم ومنها قول زوجة العم سعيد: "موت من ماء.. ولا موت من ظمأ"، والْمقولة تَدُل على إِيثارهم لِنزول المطر حَتَّى ولو كان معه الهلَاك، فَإِذَا كان المْوْتُ واقعًا فِي كُلِّ الأحْوال فلْيكن بِالاكْتفاء وليْس بِالْحاجة. كمَا تمثل الوعْي الاجْتماعيَّ أيْضًا فِيمَا بَعْد نُزُول المطر، فِي فِعْل الحرْث والْبَذْر وحسابات مَوسِم الحصَاد وَسقُوط مطر مَا قَبْل الحصاد(٢)، واستمرار اهتمامهم وسعادتهم بنزول المطر والسقيا على الرغم من حذرهم من الصواعق(٣). ويمثل كل ذلك الوعي بقيمة المطر والزرع وأهميته في

(١) **الوسمية**: ص. ١٨.

(٢) **الوسمية**: ص. ٢٧.

(٣) ينظر: **الوسمية**: ص. ٩٦.

حياة القرية للإنسان وللبهائم[١]، وَهذِه العلاقة تصالحيَّة – إِنَّ جاز التَّعْبير – وتحمل قِيمة التَّعْمير، وَالتِي يَندَرِج تَحتهَا أيْضًا قَيمَة الحماية لِلزَّرْع والْأَرْض وَالذِي ظهر فِي رَفضهِم حدث الاعْتداء على الزَّرْع وتدْميره، إِذ أتى القرْية رِجَال غُرَباء مِن قَريَة الجبل يقولون إِنَّ غنم أَهْل قَريَة الوادي تَعدَّت على حِماهم وَزرعِهم وأكلتْ مِنْه وأفْسدتْه، وَكذَلِك فِعْل بَعْض أَبنَاء القرْية بِاعْتدائهم على أبْنائهم، يَقُول أَحدُهم حِينمَا ذهب مُشْتكِيًا لِشَيخ القرْية وجماعته: "الأيَّام اَلأُولى مِن هذَا الأسْبوع . . . تَعدَّت غنمكم على حِمانَا، وهجمتْ على الزَّرْع . . . أَكلَت، وزهقتْ مِثْل مَا زَهقَت، وعيالكم اَللَّي يرْعوْنهَا . . . تعدَّوْا على عِيالِنَا وضربوهم..."[٢]، ولَا يَنتَهِي هذَا الحدث إِلَّا بِالتَّثبُّتِ مِن الأمْر، وإقامة مَجلِس صُلْح وكتابته وتعهُّدات بِعَدم حُدُوث ذَلِك مَرَّة أُخرَى[٣].

ويتجَلَّى مِن خِلَال البعْديْنِ السَّابقين اَلبُعد السَّيْكولوجيَّ فِي كِلَيْهِمَا، فالْقَلق مِن تَأخُّر نُزُول المطر والرجاء والْحَذر وَقْت نُزوله وَالحِرص عليْه كُلهَا دَوافِع نَفسِية أَظهَرت وعْيهم الأيديولوجي والسِّسْيولوجيَّ، وَمِمَّا يَلحَظ اِرتِباط اَلبُعد الأيديولوجي بِمَا هُو خَارِج عن سَيطرَة وتدخُّلات الإِنْسان مِن الطَّبيعة كَنزُول المطر وإِنْبَات الزَّرْع، وارْتباط اَلبُعد السِّسْيولوجيِّ بِمَا يُمْكِن لِلْإِنْسان التَّدَخُّل فِيه كأفْعَال الزِّراعة والْفلَّاحة والتَّوقِّي مِن المطر وغيْر ذَلِك، بيْنمَا اِرتبَط اَلبُعد السَّيْكولوجيُّ بِالْوعْيْنِ السَّابقيْنِ.

غَيْر أنَّ الوعْي التَّعْميريَّ – إِنَّ جاز التَّعْبير – فِي هَذِه الأبْعاد، وبعْد كُلِّ الابْتهالات وبذْل اَلجُهد والتَّعب والْحسابات تَحوَّل فِي الرِّواية، ومهد لإِرْهاصات هذَا

(١) ينظر: **الوسمية**: ص. ٢١.

(٢) **الوسمية**: ص.٧٤.

(٣) ينظر: **الوسمية**: ص. ٨٢.

التَّحَوُّل حدث مَوْت الشَّابِّ أَثنَاء مُحاولته لِتشْغِيل الماطور فِي البئْر، وَالذِي اِشْترَاه أَحدُهم مِن مَكَّة وَجلبِه لِلْقرْية لِيسْهل عَليهِم اِسْتخْراج اَلْماء مِن البئر[1]، فَهذَا الحدث يَحمِل دَلالَة ضِمْنيَّة لِمَا سَتجلِبه اَلآلَة وتمدُّن القرْية على الإنْسان حَيْث كَانَت سببًا فِي هَلاكِه لَيْس بِتصادمه مع الماطور بل بِاسْتنْشاقه لِدخَّانه اَلذِي أَدَّى إِلى اِخْتناقه وَموتِه دَاخِل البئْر، وَهذَا جَانِب سَلبِي لِلْآلة اَلتِي تُلوِّث البيئة، وقد تُؤدِّي إِلى هَلَاك الإنْسان. واللَّافتَ أنَّ أَهْل القرْية قَررُوا بَيْع اَلآلَة (الماطور)، ومنْح ثَمنِه لِأمِّ الشَّابِّ اَلذِي مات بِسَبب دخانها[2]، وفقدتْ بِذَلك معينَهَا وعائلهَا. ودلالات حدث بَيْع الماطور تَحمِل ضِمْنيًّا تَمسُّكًا بِقيمة الحيَاة دُون ضرر أو ضِرَار، وَكان اَلْمال عِوَضا عن الحيَاة فِي هذا الحدث.

والتَّحوُّل الأَكْبر فِي الوعْي البيئيّ لِأَهل القرْية ظهر فِي حدث شقُّ اَلطرِيق لِمرور السَّيَّارات وَالذِي مرَّ على زَرعهِم مِمَّا اِضْطرَّهم إِلى التَّضْحية بِأَجْزَاء مِن المزارع اَلتِي يَمُر بِهَا، وقد فعل هذَا رِجَال القرْية بِاخْتيارهم بَعْد تَردُّد مِن بَعضهِم، واشْتراطات التَّعْويض مِن بَعضهِم الآخر بِاعْتبار أنَّ المحْصول الزِّراعيَّ قُوَّتهم ورزْقُهم، وَمِمَّا دار فِي حِوارِهم حَوْل هذَا الأمْر ، قَوْل أَحدِهم : " . . . اَلخَط خَطنَا جميعًا مِثلَما قُلْت ونحْن تَعبِنا وَإِلَى السَّاعة بَعْد نَتعَب . . . لَكِن الواجب عليْنَا نُضحِّي فكرنَا قُلنَا ونتشاور قَبْل مَا نَخُط أَيدِينا فِيه وَأنَا فِي رَأيِي أنَّ رَاعِي البلَاد اَللَّي فِيهَا زَرْع اَللَّه يُعَينه لَازِم يَغمُض عَينَه شَويَّة هُو وَأنَا والثَّالث والرَّابع وكلنا..."[3]، واعترض أحدهم على ذلك فقال: "...لكن كيف يروح جهد الواحد منا في الوسمية والتعب؟!..كيف يروح زرعه وعرقه خسارة؟ عشان

(١) ينظر: **الوسمية**: ص. ٤٨،٤٧.

(٢) ينظر: **الوسمية**: ص. ٥٤.

(٣) **الوسمية**: ص.١١٢.

الخط؟ أنا أشوف أن المسألة ما هي مناسبة" ورد ثالث عليه: "إحنا قلنا كلنا عندنا زرع وعندنا بلاد ولا بد الخط يعدي على الكثير منا.. ولا بد نضحي"[١]، ثُمَّ ردِّ الشَّيْخ على اَلجمِيع بِتعْوِيض أَصحَاب الزَّرْع المتضرّر مِن مُرُور اَلطرِيق فِيه[٢]، وَهنَا أيْضًا يُكوّن اَلْمال مُقَابِل قِيمة الحيَاة. هَذِه الحيَاة اَلتِي كَانُوا حَرِيصِين عليْهَا مُنْذ قَلقهِم وَهمهِم بِسَبب تَأخُّر الوسمية، ثُمَّ فَرحهِم بِقدومهَا، وانْشغالهم بِأرْضِهم وَزرعِهم، وحمايتهم لَه.

ويُلْحظ أنَّ تَحوُّل الوعْي التَّعْميريّ تجاه البيئة كان ذَا بَعْد سِسْيولوجيَّ تطلَّبْتْهَا مَصالِح الحيَاة المادّيَّة لِلْجماعة، بيْنمَا اَلبُعدان الأيديولوجي والسِّسْيولوجيَّ كَانَا ثابتَيْنِ تجاه البيئة فِي الرّواية.

(١) **الوسمية**: ص. ١١٢

(٢) **الوسمية**: ص.١١٣

المبحث الثّاني: التَمثّلات البِيئية: الأدَبيّة:

المطْلب الأول: البِيئة في خِطَاب الحكِي:

يَتَداخَل اَلحْكِي مع السَّرْد فِي خِطَاب الحكِّيْ، وَالذِي يقصد بِه: كُلُّ خِطَاب يدْفعنَا إِلى اِسْتدْعاء عَالَمَ مُدْرِك كَواقِع مادِّيٍّ. أو رُوحي. وَهذَا العالم يقع فِي مَكَان أو زَمَان مُحدَّدِين، وَهُو يَعكِس غالبًا فِكْرًا مُحَددا لِشَخص أو مَجمُوعة مِن الأشْخاص بِمَا فِيهَا الراوي"[١]، وإذا كان السرد هو ذلك "الخطاب اللفظي الذي يخبرنا عن العالم"[٢]، فإنّ المحكي "هو ذلك العالم الذي يتضمن الفضاء والشخصيات والأحداث"[٣]، وَهُو اَلمَعْنِي فِي الرِّوايات ذات التَّوَجُّه البيئيّ، حَيْث تَستلْهِم عالمهَا مِن البيئة الطَّبيعيَّة، وَعادَة مَا تُركِّز هَذِه الرِّوايات على عُنصُر المكَان فِي صِياغة ملامحهَا البيئيَّة، إِلَّا أنَّ رِواية الوسْميَّة اَلتِي تُطِل على قَارئِها بِعنْوَان ذِي دَلالَة زَمَنيَّة أَتَاح ظُهُور المعْيار الزَّمكانيّ أو مَا يُسمَّى بالْكرونوتوب (Chronotope حَيْث اَلسمَة الطَّبيعيَّة والْعلاقة بَيْن الزَّمَان والمكان[٤]، "وما ينتج عنها من توليفات...من شأنها أن تؤطر حركية الأحداث والوقائع، وتضمن لها السير وفق خط معين"[٥]، وقد ظَهرَت الوسْميَّة كَزمَن فِي مَكَان سمح لَهَا بِظهور جماليَّاتهَا الطَّبيعيَّة وكانتْ (قَريَة الوادي) هِي المكَان والْبيئة الطَّبيعيَّة اَلتِي اِحْتضَنتْ الزَّمَان

(١) سعيد يقطين، **تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد التبئير)**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٣، ١٩٩٧م)، ص.٣٤.

(٢) يقطين، **المرجع السابق**، ص. ٣٤.

(٣) **المرجع نفسه**.

(٤) ينظر: جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار: **المصطلح السردي**. (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافي، ط١، ٢٠٠٣م)، ص. ٤٥.

(٥) بوريش منصور، وحمر العين خيرة، "سيميائية الكرونوتوب Chronotope في رواية (قوارير) لربيعة جلطي"، **مجلة (لغة كلام)**، ع (٠١)، (٢٠٢٠)، م ٠٢، ص.٢٢٤.

والشَّخْصيَّات والْأحْداث فِي تفاعلهَا مع بعْضهَا البعْض .

ويعاضد الملْمح الزَّمَنِيَّ اَلذِي بدَا مِن عَتبَة العنْوان، عَتبَة التّصدير فِي الرِّواية اَلتِي جاء فِيهَا: "جَاءَت الرِّيَاح الموْسميَّة . . . فاسْتيْقظتْ الفرْحة، وَجهَّز أَحبَاب الأَرْض وسائلهم لَلْوسْميَّة . . . فِيهَا: مَوسِم المطر، وَفِيهَا: مَوسِم الزَّرْع، وَفِيهَا نِتَاج مَا يُفْلحون، ومَا يعرقون"(١). وتكشف هذه العتبة للقارئ تفاصيل العنوان الزمني، وهي ملامح البيئة الطبيعية في تفاعلها مع الزمان والمكان والشخصية؛ لينتج عن ذلك أحداثها.

وَعلَى هذَا فالْمَدى الزَّمَنِيُّ لِلرِّواية أو مَا يَقُوم مَقَام الزَّمن الحقيقيّ منها(٢)، يُمثِّل فِي حدِّ ذَاتِه، ظَاهِرة مِن الظَّواهر الطَّبيعيَّة المؤثِّرة على الأَرْض والنَّاس فِي مَوسِم اَلربيع، وَيتسِم هذَا الزَّمن بِحيويَّته اَلتِي تُتيح ظُهُور الظَّواهر الطَّبيعيَّة كَفاعِل مُؤثِّر فِي النَّشَاط البشَريّ فِي الرِّواية. وقد صَاحَب ذَلِك ظُهُور الوعْي الزَّمَنِيّ مِن قبل الشَّخْصيَّات، وَكَان ذِا طَبِيعَة وِجْدانيَّة تَمثلَت فِي حَالَتِي: التَّرَقُّب والانْتظار والْقَلق لِتأخُّر نُزُول المطر المرْتبط بِهَذا الزَّمن تحْديدًا وَهُو بِداية الربيع، يَقُول الرَّاوي فِي الفصْل الأوَّل المعنْون لَه بـ "اِنتِظار" يَصِف حَالَة النَّاس والْعمّ سعيد: "كان القاعدون معه يغوصون فِي مَعَان كَثِيرَة لِلانْتظار. رَاحَت تصوُّراتهم فِي اَلبعِيد، تَعدَّت مَعنَى الانْتظار، واسْتَوتْ جميعَهَا عِنْد سُقُوط المطر، مطر "الوسْميَّة" المحْتجب فِي هذَا الزمان"(٣). وَكذَلِك حَالَة الاسْتبْشار والارْتياح بِنزوله: "اِنْتشَرتْ غَمامَة كالْكحْل... تَبعثَر شَيْء مِن الرَّذَاذ اَلخفِيف، وتصايحتْ النَّاس بِحبٍّ وَحذَّر: (أَبشِروا ... أَبشِروا)"(٤)، ويتبين ممّا سبق الوعي الزمني بمعادل الحياة الريفية –

(١) **الوسمية**: ص. ٥

(٢) ينظر: جيرار جينت، تر: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، **خطاب الحكاية**، (د. ب: المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، ١٩٩٧م)، ص.٤٦.

(٣) **الوسمية**: ص. ٧.

(٤) **الوسمية**: ص. ١٧.

إن جاز التعبير– وهو المطر.

أمّا المكان في الرواية فهو الفضاء الجغرافي الذي دارت فيه الأحداث، وهو "ذلك المكان الذي تصوره قصتها المتخيلة"(١)، وللفضاء الجغرافي كما ترى جوليا كريستيفا دلالة حضارية يتشكل من خلالها العالم القصصي، وترتبط بثقافة معينة أو رؤية خاصة للعالم(٢). وَفِي رِواية الوَسْمِيَّة واستنادًا إلى عنوانها الزمني يمكن القول إنّ المكان جاء تابعًا للزمن فيها إلى الحد الذي يستحيل فيه انفصاله عنه، فلا يمكن للزمن الروائي أن يؤدي دوره منفصلًا عن المكان، ومن جهة أخرى لَعِب المكَان دوْرًا كبيرًا في تَحدِيد ثَقافَة الجماعة ورؤْيتهَا لِلْعالم، وَالتِي اِرْتبَطتْ بِالْبيئة الرّيفيَّة الزِّراعيَّة مُمْثلَة بِقرْية الوادي، حَيْث يُمْثِّل المطر والزَّرْع والْأَرْض الزِّراعيَّة ثَوابِت فِكْريَّة وشعوريَّة فِي حَيَاة الجماعة، وكانتْ فَضَاء مُناسِبًا لِظهور العلاقة بَيْن الظَّواهر البيئيَّة والْأَرْض والْإِنْسان فِي الرِّواية، حَيْث يَرتَبِط أَهْل اَلقُرى –عادةً– بِمهْنة الزِّراعة والْفلَّاحة والرَّعْي، كمَا أَتَاح هذَا المكَان ظُهُور تَفاصِيل حَيَاة يَومِية تَعتَمِد على البيئة الطَّبيعيَّة بِشَكل كُلِّي، وَكذَلِك ظُهُور العلاقة القائمة على التَّصالح والانْسجام بَيْن الإِنْسان والْبيئة، وساعد أيْضًا على ظُهُور الوعْي بالبيئة والْأَرْض، وواجبهم نحْوهمَا، وَمِن جِهة أُخرَى فِي القرْية تَقلصَت مَلامِح الحيَاة المدنيَّة اَلتِي تَمتَد على حِسَاب البيئيّ عَادَة، وظهورهَا المحْدود –كمَا ذكر سابقًا– كان فِي موْقفَيْنِ: الأوَّل: حَادِثة مَوْت شابّ مِن شَبابِهم، والثَّاني: قرارهم التَّضْحية بِزرْعِهم.

وأمّا الأحداث فمفهومها يعني "الانتقال من حالةٍ إلى أخرى في قصةٍ ما"(٣)، وإذا

---

(١) ينظر: حميد لحميداني، **بنية النّص السردي من منظور النقد الأدبي**. (بيروت: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩١م)، ص. ٥٦ نقلًا عن Kristeva: le texte du roman. Mouton. 1976.p182

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ص. ٥٤.

(٣) **معجم السرديات**، محمد القاضي وآخرون، (تونس: دار محمد علي للنشر، ط١، ٢٠١٠م)، مادة (حدث)، ص. ١٤٥.

أخذنا برأي بعض السرديين في "أنّ الأحداث المترابطة في قصة تكوّن فعلًا"[١]، فإن سِلْسلة الأحْداث المحْوريَّة والْمسْؤولة عن التَّحوُّلات فِي رِواية الوسْميَّة تَندَرِج تَحْت ثَلاثَة أَفعَال مُؤَثرَة فِي البيئة: الأوَّل: نُزُول المطر بَعْد تَأخرِه ومَا اِرتبَط بِذَلك مِن أَحدَاث قبلية ذات طَابَع أيْديولوجيٍّ وَشعبِي، وَمِن ذَلِك على سبيل المثَال قَوْل الرَّاوي فِي حدث الجفَاف وتأخُّر اَلقطر: " مضتْ أَيَّام طَوِيلَة وَقاسِية ومحاطة بِالْجفاف، تَحولَت فِيهَا كُلُّ آمال النَّاس إِلى رَجَاء حارٍّ يَستعْطِف رَحمَة السَّمَاء، أَخذَت النِّسَاء يتصدَّقْن بِملابسهنَّ القديمة. أَخرَجن الرِّجَال حبَّ اَلذرَة المكْنوز فِي بُيوتِهم مؤونتهم، فَجعلَت مِنْه زوْجاتهم طبيخًا لَذيذًا بِالْمِلْح والْبهار، وقَدمْنَه فِي الغذَاء والعشاء"[٢]. والفعل الثاني المؤثر: أعمال الحرث والزرع والسقاية وما ارتبط بها من أحداث العناية بالزرع وحمايته من الاعتداء عليه، يقول الراوي: "خلف ثيرانهم.. الناس يعملون... يحين وقت القيلولة والغذاء. يربطون ثيرانهم وحميرهم في جذوع الشجر"[٣]. وقوله: "منذ أول الصباح، مذ صاح الديك عند أول خيط أبيض من الفجر، كان الناس قد توزعوا في الوديان، يسقون زرعهم..."[٤]. وَالفِعل الثَّالث اَلمؤثر: شقُّ اَلطرِيق ومَا اِرتبَط بِه مِن أَعمَال حَفْر الأَرْض والتَّضْحية بِجزْء مِن الأَرْض المزْروعة فِي مَوسِم الوسْميَّة، يَقُول الرَّاوي: "هَاجَت الأَصْوات، علَا اَلرنِين، تَشمرَت السَّواعد، عصبَت العمائم، وَحمل اَلجمِيع أَشيَاء مِن عِدَّة الشُّغْل فِي أَيدِيهم، مرُّوا، وَقْت طُلُوع الشَّمْس، بِبَيت الشَّيْخ ... رمى بِجبَّته بالْكَمر وأَخْرج مِن بَيتِه عِدَّة شَغْل، كَثِيرَة وَجَديدَة ..."[٥].

(١) **المرجع نفسه.**
(٢) **الوسمية:** ص. ١٥
(٣) **الوسمية:** ص. ٢٧.
(٤) **الوسمية:** ص. ٤٧.
(٥) **الوسمية:** ص.٩٩.

واللَّافتَ أنَّ الطَّابع اَلْعام لِلْأَفْعال والْأَحْداث اَلتِي اِرْتَبَطتْ بِهَا هُو أَنَهَا سِلْسلة أَفعَال جَماعِية تَصوُّر بِشَكل وَاضِح تَفاعُل الإنْسان مع بِيئته، يَتَشارَك فِي فِعْلهَا أَهْل القرْية، أو يتماثلون فِيهَا، وَهذَا يَتَناسَب مع كَوَّن صِلة الإنْسان بِالْمظاهر الطَّبيعيَّة وبالْأَرْض فِي حقيقتهَا مُتماثلة ومتشابهة على اِختِلاف الزَّمَان والْمكان.

وَيتضِح مِمَّا سبق كَيْف صاغ التَّوَجُّه البيئيّ السَّرْد فِي الرِّواية مِن خِلَال عُنْصُره الرَّئيسيّ وَهُو المكَان فِي تفاعله مع الزَّمَان والْأَحْداث، أَمَّا الشَّخْصيَّات فلَا نَجِد فِي الرِّواية شَخصِية أَمسَكت بِزمام السَّرْد أو الأَحْداث بل طغتْ فِيهَا مَلامِح الجماعة على مَلامِح الفرْد المحْوريّ، وَهذَا يلَائِم لِتصْوِير الحيَاة البيئيَّة الطَّبيعيَّة، فالطَّرف المناظر لَهَا والْمؤثّر فِيهَا هُو الجماعة أَكثَر مِن الفرْد، وَمِن جِهة أُخرَى يَدُل على أنَّ اَلمَوْقِف مِن البيئة والطَّبيعة كان موْقفًا جَماعِيًا و يَطغَى عليْه فِكْر وممارسات الجماعة أَكثَر مِن الفرْد، سَوَاء أَكَان هذَا اَلمَوْقِف إِيجابًا أم سلْبًا، أمّا الراوي فقد جاء عليمًا "كلي العلم"[(١)] بالشخصيات والأحداث، يسرد بضمير الـ(هو) الذي يتناسب مع كون الحدث في الرواية جماعي مؤثر على كل شخصياتها، وتتضاءل فيه مساحات الأنا والذات.

المطلب الثاني: البيئة في الحوار:

يُمثِّل الحوَار صَوْت الشَّخْصيَّات فِي الرِّواية، وَيُعرَف بِأَنه "عَرْض لِتبادل شِفاهيٍّ بَيْن شخْصيَّتيْنِ أو أكثر"[(٢)]، وهو "أسلوب من أساليب القص"[(٣)]، التي توظف للوصف

(١) آمنة يوسف، **تقنيات السرد في النظرية والتطبيق**، (ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ ،٢٠١٥م)، ص. ٤٢.

(٢) جيرالد بيرس، ترجمة: عابد خزندار، **المصطلح السردي**، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافي، ط١، ٢٠٠٣م)، ص. ٥٩.

(٣) القاضي وآخرون، **مرجع سابق**، ص. ١٥٨

أو السرد أو الحجاج[١]. وهو في رواية الوسمية يزاحم أسلوب السرد وفعل الحكي، وجاء ذا طابعٍ جماعي في كثيرٍ من المواضع[٢]، حَيْث يَدُور بَيْن أَكثَر مِن شَخصِين، وَمَدار حِوارِهم الظَّواهر الطَّبيعيَّة والْبيئة الزِّراعيَّة، وأبْرز المظاهر الطَّبيعيَّة اَلتِي دار حوْلهَا الحوَار هُو المطر فِي كُلِّ مَراحِله، مَرْحَلة تَأَخُّر نُزوله[٣]، وَمَرحلَة نُزوله[٤]، وحوارهم عن أيام الجفاف[٥]، وكذلك حوارهم حين أُعتدي على زرعهم[٦]، و حوار حميدة مع الشيخ وتظلمها ضد من دهك زرعها وشق الطريق وسطه[٧]، وحوارهم حول أثر شق الطريق مزارعهم وتضرر زرعهم الذي تعبوا فيه في الوسمية بهذا الطريق[٨]، وحوارهم لإقناع الرافضين لمروره على زرعهم[٩]. وقدْ جَاء الحِوار بلُغةٍ بسيطةٍ تقْترِبُ من العَامِية، وهي مَع ذَلك مُعْبرة عَنْ وعْيهم الفِطْري بِبيئتِهم، وهِي تُناسِب الجَانِب الاجْتِماعِي في شَخْصِيات الرّوايَة وهو الجَانِب الظَاهر مِنها.

واللَّافتَ أنَّ الحوَار لَم يُسْهِم فِي دَفْع حَرَكَة الأحْداث بِشَكل وَاضِح، ولَا رَسْم مَلامِح الشَّخْصيَّات، وَإِنمَا تركّز حَوْل وَاقعِهم اَلذِي يعيشونه، وَهُو فِي كُلِّ مَراحِله يَدُل على اِرْتباطهم البيئيّ بِأَهم مُؤثِّرَين فِي حَياتِهم، وهما: المطر، والزَّرْع، اللَّذَان يرْبطانهم

(١) للاستزادة ينظر، هند الطويلعي، **الحوار في الرواية السعودية**، (عرعر: دار رشم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٣م)، ص.٥٦.

(٢) ينظر: **الوسمية**: ص. ١٤،١٣/ ٤٨-٥١/ ٧٤-٧٦.

(٣) ينظر: **الوسمية**: ص. ١٠، ١١/١٢- ١٥.

(٤) ينظر: **الوسمية**: ص. ١٨.

(٥) ينظر: **الوسمية**: ص. ٢٨.

(٦) ينظر: **الوسمية**: ص ص. ٧٤-٧٥.

(٧) ينظر: **الوسمية**: ص. ٩٣.

(٨) ينظر: **الوسمية**: ص. ١١٣،١١٢.

(٩) ينظر: **الوسمية**: ص. ١١١-١١٦.

بِالْأَرْض، كمَا يَدُل على تحوُّلَات وَعيهِم البيئيّ فَفِي بِداية الرِّواية دلَّ حِوارهم على قَلقهِم مِن تَأخُّر المطر، وَفِي وسطهَا دلَّ حِوارهم على رَفضهِم لِلاعْتداء على الزَّرْع، وَفِي آخر الرِّواية دلَّ على تَقبلِهم لِلتَّضْحية بِالزَّرْع مُقَابِل شقّ اَلطرِيق، ومقابل اَلْمال.

وعليْه فالْحوار كَذلِك أَسهَم فِي تمثل البيئيَّ ك(هُم) جَماعِي فِي جميع المراحل، وَفِي كُلِّ الأحْداث، وَمِن جِهة أُخرَى أَظهَر وَعيُهم فِي التَّفاعل معه.

المطلب الثالث: البِيئة في الصّورة (البلاغية):

تَعُد الصُّورة البلاغيَّة على اِختِلاف تمثيلاتهَا البيانيَّة مُكَونًا أَساسِيًا مِن مُكونَات اَلنَّص الأدَبِيّ، وتُعرّف بأنّها: "كل حيلة لغوية يراد بها المعنى البعيد للألفاظ، أو يغير فيها الترتيب العادي لكلمات الجملة أو الحروف الكلمة، أو يحل فيها معنى مجازي محل معنى حقيقي، أو يثار فيها خيال السامع بالتكنية عن معان يستلزمها المعنى المألوف للفظ"(١).

وقد شاع عِنْد العرب قديمًا وحديثًا الصُّور المسْتلْهمة مِن البيئة المحْسوسة فِي أَبسَط مُسْتوياتهَا التَّشْبيهيَّة والاسْتعاريَّة، وَهِي مُتناثرة فِي مُدَونَة الشِّعْر العرَبِيّ اَلقدِيم وتمثِّل مُكَونا أَساسِيا فِي الشِّعْر الجاهليّ والْأنْدلسيّ والرُّومانْسيّ. وفي النّص الروائِي يَتَميْز هَذَا الصّنفُ مِن الصّورِ بعَالمِيته وشَعْبيته ودَيْمومتِه، فالنّاس في المجتمَعَات عَلَى اخْتِلافِ ثَقَافَتِهم وطَبيعَة مَنَاخِهم وبِيئتِهم، يسْتَمِدونَ تشْبِيهاتِهم واسْتِعَاراتِهم مِنْ مُحيطِهم البيئي(٢)،وإضافة إِلى قِيمتِهَا الجماليَّة تَتَعدَّد أبْعادهَا المؤْضوعيَّة؛ لِتكْشف عن أَبعَاد نَفسِية، أو اِجْتماعيَّة، أو ثَقافِية، أو شَعبِية، أو بِيئيَّة تُسْهِم فِي تَصوِير مُكونَات الرِّواية على مُستوَى المكَان أو

(١) أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، (القاهرة: عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩=٢٠٠٨م) ١/ص.١٣٣٤.

(٢) ينظر: ستيفن أولمان، تر: رضوان العيادي ومحمد مشبال، **الصورة في الرواية**، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٦م)، ص. ٢٤٥.

الشَّخْصيَّات أو غَيْر ذَلِك، فِي حِين تَتَضاءَل القيمة الجماليَّة لَهَا فِي كثير مِن الأَحْيان لِتتجَلَّى دلالَات أُخرَى لَهَا.

والصُّور البلاغيَّة فِي رِواية الوسْميَّة مُسْتلْهمة مِن البيئة الطَّبيعيَّة الَتِي يعيش فِيهَا أَهْل القرْية (نَبَات وحيوَان وَسَماء وحجارة)، وَهِي بَعِيدَة عن التَّكَلُّف والرَّمْزيَّة والْغموض، وتعْتَمد التَّشْبيه الَبسِيط لِلتَّعْبير عَمَّا تُريد وَصفَه وتصْويره، وَمِن ذَلِك على سبيل المثَال لَا الحصْر: وصف الرَّاوي الدُّخَّان الَذِي يصْنعه أَبُو جَمْعان فَقَال: "وَجمَع رَأسُها المفْتوح مِثْل زُهرَة اللوز"(١)، وقوله "لا يفقدون أو يتغالطون في أحذيتهم المتناثرة مثل السحالي أمام باب المسجد"(٢)، وقوله: "خرجت نسوانهم إلي كما النجوم"(٣)، وقوله: "انتشرت غمامة مثل الكحل"(٤). وَهذِه التَّشْبيهات تَتَناسَب مع مُجتَمَع أَهْل القرْية وَبَساطَة الرِّيف، ومع الفكْر الحسِّيّ لَهُم، فلَا أَبعَاد فَلسفِية ولَا تجْريديَّة فِيهَا، وَهِي تَدُل على قُوَّة علاقتهم بِبيئتهم واسْتلْهامهم مِنهَا وحضورهَا فِي ذِهْنهم ووجْدانهم، فَهِي إِلى جَانِب كوْنهَا مُكوَّن وَاقعِهم، فَهِي مُكوَّن لخيالهم وصورِهم.

تبين ممّا سبق أنّ التمثلات البيئية كانت حاضرة على المستويين الفكري والثقافي والأدبي حضورًا فاعلًا فكريًا وثقافيًا وأدبيًا، ويدل على وعي بيئي كبير في الرواية.

(١) **الوسمية**: ص. ٨.

(٢) **الوسمية**: ص.١٦.

(٣) **الوسمية**: ص. ٣٤.

(٤) **الوسمية**: ص. ١٧.

الخاتمة

أهمَّ النَّتائج اَلتِي اِنتهَت إِليْهَا الدِّراسة، مَا يَأْتِي:

١ – التَّمثُّلات البيئيَّة فِي رِواية الوسْميَّة تمثُّلَات فِكْريَّة وثقافيَّة وتمثُّلَات أَدبِية.

٢ – ظَهرَت التَّمثُّلات الفكْريَّة والثَّقافيَّة مِن خِلَال اَلمكون البيئيّ والْوَعْي وتحوُّلاته فِي الرِّواية.

٣ – ظَهرَت التَّمثُّلات الأدبيَّة مِن خِلَال خطاب الحكي والْحوار والصُّورة البلاغيَّة فِي الرِّواية.

٤– أَسهم التَّوَجُّه البيئيّ فِي رِواية الوسْميَّة فِي ظُهُور اَلمكون البيئيّ فِي الرِّواية.

٥– تَعددَت مَظاهِر اَلمكون البيئيّ فِي الرِّواية فهناك البيئة غَيْر البشريَّة وهناك الانْشغالات البيئيَّة والْمسْؤوليَّة البيئيَّة وَكوَّن البيئة فِي حَالَة صَيرُورة فِي الرِّواية.

٦– تَمثلَت المسْؤوليَّة البيئيَّة فِي الرِّواية فِي قِيمة الحماية مِمَّا هُو غَيْر بَشرِي دائمًا، وَمِمَّا هُو بَشرِي أحْيانًا.

٧ – اِرتِباط البيئة بِالْمرْأة أَضفَى عليْهَا هَامشِية فِي التَّعامل.

٨ – لَم تَكُن البيئة بِمظاهرهَا الطَّبيعيَّة مُجرَّد إِطَار فِي الرِّواية، بل أَخذَت مَوقِع الفاعل اَلمؤثر فِي الحيَاة كـ (المطر)، والْمفْعول بِه كـ (الأَرْض والزَّرْع).

٩ – يَكمُن عُمْق سُلوكيَّات الوعْي البيئيّ فِي أبْعادهَا الأيديولوجية، والسِّسْيولوجيَّة، والسَّيْكولوجيَّة.

١٠ – اِرتبَط اَلبُعد الأيديولوجي فِي الوعْي البيئيّ بِمَا هُو خَارِج عن سَيطرَة الإِنْسان مِن مَظاهِر الطَّبيعة، وارْتَبط اَلبُعد السِّسْيولوجيُّ بِمَا هُو تَحْت سيْطرَته بيْنمَا ارتبَط اَلبُعد السَّيْكولوجيُّ بِالْوعْيِيْنِ السَّابقيْنِ.

١١– تَحوُّل الوعْي التَّعْميريّ تجاه البيئة تَطلبه تَحوُّل الإِنْسان إِلى الحيَاة المدنيَّة.

١٢ – أَتَاح عُنْصرا الزَّمَان (الموْسميَّة) والْمكان (قَريَة الوادي) ظُهُور المعْيار الزَّمكانيّ

على مُستوَى تمْثيلات بِيئيَّة حَدَثيَّة وحواريَّة وَوصفِية.

١٣ – أَسهم الحوَار فِي ظُهُور أُسلُوب الحيَاة الجماعيّ المرْتبط بِالْبيئة، وأظْهر أنَّ البيئة بِتمظْهراتها المتعدِّدة هِي هَمهَم.

١٤ – الصُّورة البلاغيَّة تشكُّلاتهَا بَسِيطَة تَنتَمِي لِلْبيئة الطَّبيعيَّة الحسِّيَّة، وأبْعادهَا الدَّلاليَّة والسَّرْديَّة خَافِتة، إِلَّا أَنهَا كَانَت إِحْدى التَّمثُّلات البيئيَّة فِي الرِّواية.

المصادر والمراجع

أولمان، ستيفن، تر: رضوان العيادي ومحمد مشبال، **الصورة في الرواية**، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٦م.

ابن منظور، جمال الدين، **لسان العرب**، القاهرة: دار المعارف، (د. ط)، (د. ت)

برنس، جيرالد، **المصطلح السردي**، ترجمة: عابد خزندار: القاهرة: المجلس الأعلى للثقافي، ط١، ٢٠٠٣م.

بغدادي، سوزان يوسف، "التحديات المعاصرة الداعية للنهوض بالوعي البيئي دراسة تشخيصية"، **مجلة كلية التربية** بجامعة بورسعيد، ع (١٤)، (يونيو ٢٠١٣م)، ص.٩٠٢-٩٢٦.

البنا، إياد، **مستوى الوعي بمخاطر التلوث البيئي لدى معلمي المرحلة الأساسية في قطاع غزة**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية بغزة، ١٤٣٢هـ=٢٠١١م.

بيل، لورنس وآخرون، تر: معتز سلامة، الأدب والبيئة، **مجلة فصول**، ع (١٠٢)، (٢٠١٨م)، ص. ٣٣٦-٣٦٥.

جرارد، جرج، تر: عزيز صبحي جابر، مر: د. أحمد خريس، **النقد البيئوي**، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣٠هـ=٢٠٠٩م.

جينت، جيرار، تر: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي، **خطاب الحكاية**، د. ب: المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، ١٩٩٧م.

جميل حمداوي، نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، شبكة الألوكة، استرجعت بتاريخ ٣٠/ ٢/١٤٤٥هـ من موقع www.alukah.net.

الشنطي، محمد صالح، **في الأدب العربي السعودي وفنونه واتجاهاته ونماذج منه**، حائل: دار الأندلس للنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٦م.

الطويلعي، هند، **الحوار في الرواية السعودية**، عرعر: دار رشم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٣م.

عجمي، محمد عبد السلام محمود، **الوعي البيئي لدى طلاب جامعة الأزهر**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الأزهر، ١٩٩٤م.

العدواني، معجب، "مدخل إلى النقد البيئي"، **النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات**، تحرير: أبو المعاطي الرمادي، ومعجب العدواني، الشارقة: مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ٢٠٢٢م.

عمر، أحمد مختار، م**عجم اللغة العربية المعاصرة**، القاهرة: عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م.

غلوتفيلتي، شيريل، ترجمة: هاجر بو كنانة، دراسات أدبية في عصر الأزمة البيئية، **مجلة النقد الأدبي (سرود)**، ع (٧)، (شتاء ٢٠٢٣م)، (٧-٢٢).

القاضي، محمد وآخرون، **معجم السرديات**، تونس: دار محمد علي للنشر، ط١، ٢٠١٠م.

كوهين، مايكل، "النقد البيئي تحت المنظار"، **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات**، ترجمة: نجاح الجبيلي، البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م.

لحميداني، حميد، **بنية النّص السردي من منظور النقد الأدبي**، بيروت: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١ ،١٩٩١م.

مارلاند، بيبا، "مقدمة في النقد البيئي"، **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات**، ترجمة: نجاح الجبيلي، البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م.

مشري، عبد العزيز، **الوسمية**، الدمام: دار أثر للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٩هـ=٢٠١٩م.

منصور، بوريش، وخيرة، حمر العين، "سيميائية الكرونوتوب Chronotope في رواية

(قوارير) لربيعة جلطي"، **مجلة (لغة كلام)**، ع (٠١)، م (٠٢)، (٢٠٢٠م)، (٢٢٣-٢٣٢).

موريلا، إيرين جيمس وأريك، "مقدمة للنقد البيئي ونظرية السرد"، **النقد البيئي مقدمات، مقاربات، تطبيقات**، ترجمة: نجاح الجبيلي، البصرة: شهريار، ط١، ٢٠٢١م.

ويسلنج، لويس، تر: عبد الرحمن طعمة، الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان، **مجلة فصول**، ع (١٠٢): (٢٠١٨م)، (٣٦٦-٣٨٦).

يقطين، سعيد، **تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد التبئير)**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٣، ١٩٩٧م.

يوسف، آمنة، **تقنيات السرد في النظرية والتطبيق**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ٢٠١٥م.

Bibliography

Awlmān, Stephen, tara : Raḍwān al-ʻAyyādī wa-Muḥammad Mashbāl, "The image in the novel" (in Arabic), Cairo: Ru'yah for publication and distribution, 1st ed., 2016.

Ibn Manẓūr, Jamāl al-Dīn, Lisān al-ʻArab, Cairo: Dār al-Maʻārif, (w. e), (w. d).

Barnas, Jerald, Narrative term, translated by: ʿĀbid Khaznadar: Cairo: Supreme Cultural Council, 1st edition, 2003.

Baghdādī, Sūzān Yūsuf, "Contemporary challenges calling for the advancement of environmental awareness: a diagnostic study" (in Arabic), Journal of the Faculty of Education at Port Said University, No. (14), (June 2013), pp. 902-926.

al-Bannā, Iyād, The level of awareness of the dangers of environmental pollution among basic stage teachers in the Gaza Strip, (in Arabic), unpublished master's thesis, Islamic University of Gaza, 1432 AH - 2011.

Bell, Lawrence et al., Trans.: Muʿtaz Salama, Literature and Environment, (in Arabic) Fusoul Journal, issue. (102), (2018), p. 336-365.

Gerrard, George, Environmental Criticism, Trans: Aziz Subhi Jaber, reviewed by: Dr. Ahmad Kharis, Abu Dhabi: Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage (Kalima), 1st edition, 1430 AH - 2009.

Jeneat, Gerard, Discourse narration, (in Arabic), Trans.: Muhammad Mutasim, Abdul Jalil Al-Azdi, Omar Hali, Khattab Al-Hikaya, Supreme Council of Culture, 2nd edition, 1997.

Jamīl Ḥamdāwī, Naẓarīyāt al-Naqd al-Adabī wa-al-Balāghah fī Marrḥalat mā baʿda al-Ḥadāthah, Shabakah al-Alūkah, retrieved on 30/2 / 1445h from www. alukah. net.

al-Shanṭī, Muḥammad Ṣāliḥ, fī al-Adab al-ʻArabī al-Saʻūdī wa-Funūnih wa-Ittijāhātihi wa-Namādhij minhu, Hail: Dār al-Andalus, 4th ed., 2006.

Al-Tuwaila'i, Hind, Dialogue in the Saudi Novel (in Arabic), Arar: Dār Rasham for Publishing and Distribution, 1st edition, 2023.

ʿAjami, Muhammad ʿAbd al-Salam Mahmoud, Environmental Awareness among Al-Azhar University Students (in Arabic), unpublished doctoral dissertation, Faculty of Education, Al-Azhar University, 1994.

Al-ʿAdwani, Muʿjab, "Introduction to Environmental Criticism", Environmental Criticism Concepts and Applications (in Arabic),

edited by: Abu Al-Maati Al-Ramadi, and Muʿjab Al-Adwani, Sharjah: Arab Diffusion Foundation, 1st edition, 2022.

ʻUmar, Aḥmad Mukhtār, Muʻjam al-Lughah al-ʻArabīyah al-Muʻāṣirah, Cairo: ʻĀlam al-Kutub, 1st ed., 1429h - 2008.

Glotfelty, Cheryl, Literary Studies in the Age of Environmental Crisis (in Arabic), translated by: Hajar Bou Kenana, Journal of Literary Criticism (Sards), Issue. (7), (Winter 2023), (7-22).

al-Qāḍī, Muḥammad et al. Muʻjam al-Sardīyāt, Tunisia: Dār Muḥammad ʻAlī lil-Nashr, 1st ed., 2010.

Cohen, Michael, "Environmental Criticism Under the Scope", Environmental Criticism, Introductions, Approaches, Applications, Translated by: Najah Al-Jubaili, Basra: Shahryar, 1st edition, 2021.

Laḥmīdānī, Ḥamīd, The structure of the narrative text from the perspective of literary criticism (in Arabic), Beirut: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 1st ed., 1991.

Marland, Pippa, "Introduction to Environmental Criticism", Environmental Criticism: Introductions, Approaches, Applications, Translated by: Najah Al-Jubaili, Basra: Shahryar, 1st edition, 2021.

Mishrī, ʻAbd al-ʻAzīz, al-Wasmiyyah, Dammam: Dār Athar, 1st ed., 1439 AH - 2019.

Mansour, Burish, and Khayra, Hamar Al-Ayn, "Chronotope semiotics in the novel (Bottles) by Rabia Jalti" (in Arabic), (Lughat Kalam) journal, iss. (01), vol. (02), (2020), (223-232).

Morella, Erin James and Eric, "Introduction to Environmental Criticism and Narrative Theory", Environmental Criticism: Introductions, Approaches, and Applications (in Arabic), translated by: Najah al-Jubaili, Basra: Shahryar, 1st edition, 2021.

Wesling, Louis, Literature, Environment, and the Post-Human Question (in Arabic), Trans.: Abdel Rahman Tohme, Fosoul journal, iss. (102): (2018), (366-386).

Yaqṭīn, Saʻīd, Analysis of narrative discourse (time, focal narrative) (in Arabic), Beirut: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, 3rd ed., 1997.

Yūsuf, Āminah, Narrative Techniques in Theory and Practice (in Arabic), Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing, 2nd edition, 2015.

تقنياتُ السَّردِ وجمالياتُ غَزْلِ الذكريات في القصَّةِ القَصيْرةِ جدًا
مجموعة "مَنْسِيَّة" لشيمة الشمّري نموذجًا

Narrative Techniques and Aesthetics of Spinning Memories in the Very Short Story The "Forgotten" collection by Shaima Al-Shammari as a case study

د. وفاء أحمد جابر أحمد

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المشارك بكلية اللغات والعلوم الإنسانية بجامعة القصيم

البريد الإلكتروني: w.ahmed@qu.edu.sa

ملخص البحث:

يحاول هذا البحث الولوج إلى عوالم الوجع الإنساني في القصة القصيرة جدا، خلال مجموعة "منسية" للقاصة شيمة الشمري، ورصد أهم تقنيات السرد التي اتكأت عليها القاصة في تذكر قصصها، كما تهدف الدراسة إلى كشف الإيحاءات والإيماءات الخفية التي تختبئ خلف كلمات القاصة ومشاهدها التصويرية، التي تومئ إلى فكرها ومشاعرها تجاه مواقف معينة، وقد ارتكز البحث على مجموعة من التقنيات (عتبات النص – التكثيف والحذف – المفارقة – الرمز والتشخيص والتجسيد – التصوير المشهدي) وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج السيميائي؛ لأنه من أكثر المناهج النقدية التي تعين الناقد على فك شفرات النص، وتعطي له مجالا أرحب لتحليل النصوص وتأويل معناها.

أهم نتائج البحث:

- اهتمت الكاتبة بهموم المرأة وصراعها مع الرجل واحتل ذلك مساحة كبيرة من هذه المجموعة القصصية.
- توضّح قراءة العتبات أن غلاف المجموعة القصصية جاء تعبيراً عن حساسية موضوعات تلك القصص، إذ هي موضوعات شائكة ليس من السهل ولوجها فضلا عن الحديث عنها.
- تميزت الومضات القصصية لهذه المجموعة بالإيجاز والاختصار والاتكاء على الإضمار والحذف من أجل تنشيط ذاكرة المتلقي واستحضار خياله ومخيلته.
- تميز أسلوب الكاتبة باللغة البسيطة السهلة لتقيم جسرا بينها وبين المتلقي، وتصل إلى روحه وتمتعه، بدلا من أن تقف الكلمات الصعبة عند أذنه فتقلقه.

- اعتمدت الكاتبة في أغلب قصصها على المنولوج أكثر من الديالوج، ولاءم ذلك فكرة المجموعة والاسترجاع الذاكراتي.
- اعتمدت الكاتبة في هذه المجموعة القصصية على تقنية عين الكاميرا؛ لتصور لنا عبر قصصها مشاهدا متقطعة من حياة بطلتها (الأنثى) ليقرأها المتلقي وكأنه يراها.

الكلمات المفتاحية: (تقنيات السرد – الاسترجاع الذاكراتي – عتبات النص – التكثيف – الرمز – عين الكاميرا).

Abstract

This research attempts to penetrate the worlds of human pain in the very short story, through the collection "*Mannsiyyah*" (Forgotten) by the storyteller Shaima Al-Shammari, and monitor the most important narrative techniques that the storyteller relied on in spinning her stories. The study also aims to reveal the hidden suggestions and gestures that hide behind the storyteller's words and her pictorial scenes. Which refers to her thoughts and feelings regarding certain situations. The research was based on a set of techniques (text thresholds - condensation and deletion - paradox - symbol, diagnosis and embodiment - scenic photography). In this study, I relied on the semiotic approach; Because it is one of the most critical approaches that helps the critic to decode the text, and gives it a wider scope to analyze texts and interpret their meaning.

Most important findings:

-The writer paid attention to women's concerns and their conflict with men, and this occupied a large space in this collection of stories.

-Reading the Thresholds makes it clear that the cover of the short story collection was an expression of the sensitivity of the topics of those stories, as they are thorny topics that are not easy to approach let alone talk about.

-The narrative flashes of this collection were characterized by brevity and reliance on connotation and deletion in order to stimulate the recipient's memory and evoke his imagination.

-The writer's style is distinguished by simple, easy language to build a bridge between her and the recipient, and to reach his soul and please him, instead of making difficult words that worries him.

-In most of her stories, the writer relied on monologue rather than dialect, and this fit the idea of group and memory recall.

-In this collection of short stories, the author relied on the camera eye technique to depict for us, through her stories, intermittent scenes from the life of her (female) heroine so that the recipient can read them as if they were seeing them.

Keywords: (Narrative techniques - memory retrieval - text thresholds - condensation - symbol - camera eye).

مقدمة

حمداً لله، وصلاةً وسلامًا على رسول الله، وبعد، فهذا البحث يهدف إلى الوقوف عند بعض تقنيات السرد الجمالية، في القصة القصيرة جدًا، إذ تمتاز القصة القصيرة جدا دون الأجناس الأخرى ببنيتها السردية المكثّفة، التي تقوم على الإيجاز الشديد من الناحية التشكيلية، وتنفتح فيها الرؤية دلاليًّا وتأويليًّا لتعبر عن الهموم الذاتية، والاجتماعية، والإنسانية، ومادة البحث هي المجموعة القصصية: (منسية)، للقاصة السعودية شيمة الشمري[١].

(١) شيمة الشمري كاتبة وأديبة سعودية، تكتب القصة القصيرة والقصة القصيرة جداً، لها العديد من المجموعات القصصية من بينها (منسية) وتعد هذه المجموعة آخر مؤلفاتها إلى جانب مؤلفات أخرى، منها: (عرافة المساء) و(أقواس ونوافذ) وهي حاصلة على جائزة الشارقة للمرأة الخليجية عام ٢٠١٨م وحاصلة على درجة الدكتوراه في تخصص: «الأدب والنقد الحديث» من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ٢٠١٧ تعمل عضو هيئة التدريس في كلية الآداب والفنون في جامعة حائل ٢٠٠٩م.

من مؤلفاتها:

(منسية) قصص قصيرة جدا، صدر عن دار تكوين للطباعة والنشر ٢٠٢١

(ربما غداً) مجموعة قصصية صدرت عن نادي المنطقة الشرقية الأدبي

(أقواس ونوافذ) مجموعة قصصية صدرت عن دار المفردات ٢٠١١

(عرافة المساء: قصص بحجم القلب) مجموعة قصصية صدرت عن النادي الأدبي بمنطقة الباحة ومؤسسة الانتشار العربي ٢٠١٤

(خلف السياج) قصص قصيرة جداً. صدرت عن نادي تبوك الأدبي الثقافي ومؤسسة الانتشار العربي ٢٠١٦

(ما زلت عالقة) قصص قصيرة جداً

(شاعر الجبل) صدر عن دار المفردات ٢٠١٣

=

وقد قدمت الكاتبة في هذه المجموعة القصصية وجبة خفيفة لمحبي هذا النوع من القصص في ثلاث وأربعين قصة (أربعين ق.ق.ج، وثلاث ق.ق) في مئة وخمس صفحات، تنضوي تحت باب واحد وهو عنوان المجموعة (منسية).

وتحاول الكاتبة في هذه المجموعة القصصية، استعادة الزمن الماضي بفعل الذاكرة؛ لبناء منظومة من الوعي تعينها على العيش بحاضر جيد، والإفادة من الماضي لرسم مستقبل أفضل وبنائه؛ ومن هنا فإن البحث يحاول معرفة سبب هذا الانشطار الذاتي، هل هو وسيلة لإصلاح الحاضر، والتعامل مع المستقبل بوعي والإفادة من أخطاء الماضي؟ أم أنه مجرد اهتمام بالحاضر وجذوره المستمدة من الماضي؛ لعدم الانشغال بالمستقبل؟

وتناولت الكاتبة من خلال هذه المجموعة تجارب إنسانية، حاولت من خلال مخيلتها الإبداعية التعبير عن وجهة نظرها حيال تلك القضايا التي عرضتها، وبذلك أكسبت الحدث القصصي قيمة عندما عبرت عن تجارب إنسانية.

وكان جل اهتمام الكاتبة في هذه المجموعة حياة الأنثى، بمراحلها المختلفة وجوانبها المتعددة وقد ركزت على سرد الذكريات المؤلمة التي تخص الأنثى وعلاقتها بالرجل، فعبرت عن ثنائيات متعددة خلال هذه العلاقة كالحب والكره، والخير والشر، والفرح والحزن، والتفاؤل والتشاؤم؛ وتظهر الأنثى خلال هذه النصوص شخصية مأزومة متخبطة متخمة باليأس والألم، تعاني من تفكك الذات وعذابات النفس،

=

(التعالي النصي في القصة القصيرة الخليجية) صدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة عام ٢٠١٨.

وحصلت شيمة الشمري على المركز الأول في جائزة الشارقة الثقافية للمرأة الخليجية ٢٠١٨ فئة الدراسات.

ينظر: شيمة – الشمري/https://ar.wikipedia.org/wiki

فجاءت قصصها محملة بملامح البوح والاعتراف (سرد الذات)، وقدمت الكاتبة الأنثى في صورة انهزامية نمطية أمام الرجل.

وقد أجادت الكاتبة التعبير عن تلك الموضوعات التي تتسم بالخصوصية؛ فالمرأة وحدها هي أصدق من يعبر عنها؛ لأنها هي أكثر من يعرف مشاعر المرأة حيال تلك المواقف والأحداث، ولها خبرتها ورؤيتها الأنثوية، التي تجعلها تتقن عرض هذه الموضوعات أفضل من الرجل، وتتسم معظم كتابات القاصة بالتعبير عن موضوعات الأنثى، وهي تباهي بذلك فتقول: "يتهمني بعضهم بأن كتاباتي تفوح منها رائحة الأنثى، وأرد عليهم: زيدوني تهما زيدوني! فما أجملها من تهمة، وهل أنا إلا أنثى؟ وأفخر بذلك، ولعلي خرجت عن السياق الذي حدده الرجل للأنثى وصورها من خلاله" (١).

وجدير بالذكر أنه لا توجد دراسات سابقة لهذه المجموعة، وتعد هذه الدراسة هي أول دراسة للمجموعة القصصية "منسية" وسوف أركز على دراسة التقنيات السردية، البارزة في المجموعة القصصية محاولة استكناه الملامح الجمالية واستنطاقها.

تنتهج هذه الدراسة نهج المقاربة السيميائية (٢)، وهي من أكثر المناهج النقدية

(١) شيمة الشمري: حكايتي من القصة القصيرة، الجوبة، مركز عبد الرحمن السديري الثقافي، ع ٣٩، ٢٠١٣ م، ص ٣٧.

(٢) يدل مصلح السيمياء على علم الإشارات، وأشار إلى ذلك فيصل الأحمر في شرحه لمعجم السيمياء، فقال:" معنى المصطلح علم الإشارات وهو العلم الذي اقترحه دي سوسير كمشروع مستقبلي لتعميم العلم الذي جاءت به اللسانيات" (فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العبية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف. ط١ ٢٠١٠، ص١١.، والسيميائية بحسب تعريف تشارلز بيرس هي "الدستور الشكلاني للإشارات" انظر: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ترجمة: طلال وهبة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١ =

التي تعين الناقد على فك شفرات النص، وتعطي له مجالا أرحب لتحليل النصوص وتأويل معناها عن طريق الإيغال في الرمز، فالناقد السيميائي لا يقدم معنى واحدا للنص بل يستنطق كثيرا من المعاني المحتملة، فالنص من وجهة نظره، عبارة عن مجموعة من العلامات، والدلالات، والشفرات، التي يحاول فك طلاسمها.

وجاء البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث، وقد جاء التمهيد للحديث عن القصة القصيرة جداً، المفهوم والرؤية، وعرض لمفهوم الاسترجاع الذاكراتيّ ودواعيه، ثم قمت بالوقوف على أهم تقنيات السرد في مجموعة "منسية": (عتبات النص– تقنية التكثيف والحذف– تقنية المفارقة– الرمز والتشخيص والتجسيد– التصوير المشهدي) ثم تكون الخاتمة وتلخّص أبرز النتائج التي وقفت عليها الدراسة، مردوفة بثَبَتِ المصادر والمراجع التي استندنا إليها.

=

٢٠٠٨.ص ٢٣.، وقد تعددت مسميات السيميائية، فتعرف بالسيميائية والسيميولجية، والسيموطيقا، وعلم الإشارت. ولكن السيميائية هي المصطلح الأكثر شيوعا، وقد بذل الباحثون العرب جهودا كبيرة في نشر وإرساء قواعد هذا المنهج في النقد العربي، منهم سعيد بن كراد، طلال وهبة، ميجان الرويلي، حنون مبارك، وغيرهم.

وتسعى السيميائية للوصول إلى البنيات العميقة المختبئة في النص، عن طريق فكه وتركيبه مرة أخرى، فتقوم على التعامل السيميولجي مع النص في سياقه اللغوي، وتستهدف الانفتاح على النص عن طريق الغوص في أعماقه وفك شفراته ومحاولة اكتشاف مكنوناته، وما يريد أن يوصله الكاتب للمتلقي بطريقة غير مباشرة باستخدام العلامات والإشارات والرموز.

ويعد المنهج السيميائي من أقدر المناهج النقدية لدراسة النصوص وتحليلها؛ حيث إن النص مليء بالفجوات والفراغات التي تغري القارئ على حلها وفكها وملأ فراغاتها بطريقة جديدة غير تقليدية.

التمهيد:

أولاً: القصة القصيرة جدًا: المفهوم والعناصر.

برزت القصة القصيرة جدًّا وتواترت نصوصها وسط جدل نقدي محتدم حول استقرار بنية النوع الأدبي ورسوخها وتحقق بنية النص وتجددها، وفي خضم تلك الجدلية النقدية شقت القصة القصيرة جدّا طريقها، وفرضت واقعها الإبداعي، واحتلت مكانًا بارزًا في خارطة الإبداع السردي العربي، مزودة بأحقيتها في التعبير عن تسارع إيقاع العصر وهموم الإنسان المعاصر.

١- ولعل التنظير لمفهوم القصة القصيرة جدًّا وتأسيس بنيتها النوعية المفارقة لغيرها من البنى الإبداعية الأخرى قد وجد ضالته في التيار النقدي المتنامي منذ بداية القرن العشرين، الذي هَدَفَ أتباعُه إلى تحطيم نظرية الأنواع الأدبية، وتأسيس بنية النص المتفرد، مرددين بأنه لا توجد أنواع أدبية مستقرة؛ بل توجد نصوص أدبية متجددة، وأن بنية النوع الأدبي لم تعرف الاستقرار في أي عصر من العصور، وإنما كانت تُخترق دائمًا بنصوص طليعية غير مألوفة وتقليدية، وتبدأ دورة الاختراق والخروج عن المألوف والمعتاد من جديد.

يقول رينيه ويلك: "لا تحتل نظرية الأنواع الأدبية مكان الصدارة في الدراسات الأدبية في هذا القرن العشرين، والسبب الواضح لذلك هو أن التميُّز بين الأنواع الأدبية لم يعد ذا أهمية في كتابات معظم كُتاب عصرنا، فالحدود بينها تعبر باستمرار، فالأنواع تخلط أو تمزج، والقديم منها يترك أو يحور وتخلق أنواع جديدة أخرى إلى حد سار معها المفهوم نفسه موضع شك، وقد شن بنديتو كروتشه هجومًا على المفهوم لم

تقم له بعده قائمة "[١].

واختلف الموقف النقدي الذي قوبلت به النصوص القصصية القصيرة جدّا بين مؤيد، ومعارض، ومتردد في قبول هذه البينة السردية المحدثة، وكثرت المصطلحات الدالة عليها حتى بلغ عددها قرابة عشرين مصطلحًا[٢]، ولا نريد الإسهاب في عرض هذه المواقف النقدية المتباينة، أو مناقشة مدى دقة تلك المصطلحات، لاسيما بعد ذيوع مصطلح (القصة القصيرة جدّا)؛ لأننا ننوي الانطلاق من النقطة التي اتفق عليها معظم الباحثين، وهي أن هذه النصوص تشكل بينة مكتملة، يمكن دراستها وَفقًا للمعايير النصية التي وضعها علماء اللسانيات النصية، فالنص يعرف بأنه "أي فقرة مكتوبة أو منطوقة مهما كان طولها، شريطة أن تكون وحدة متكاملة "[٣].

ومن الخصائص النوعية التي تغطي جوانب التشكيل والرؤية في القصة القصيرة جدا: القصصية، والتكثيف، والمفارقة، والرمز، والتشخيص، وخصوصية البداية والنهاية، والجرأة في التعبير عن الهموم الذاتية، والاجتماعية، والإنسانية المعاصرة بالإضافة إلى عناصر البناء السردي: الشخصيات، والأحداث المتنامية، والحوار،

(١) رينيه ويلك: مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، سلسة عالم المعرفة، الكويت، ط ١، ١٩٨٧م: ص ٣٧٦

(٢) أشهر هذه المصطلحات هي: القصة القصيرة جدّا ـ القصة الومضة ـ القصة اللقطة ـ القصة المكثفة ـ القصة
الكبسولة ـ ق ق ج ـ القصة البرقية ـ القصة الفلاش ـ النكتة القصصة ـ القصة الجديدة ـ الخاطرة القصصية ـ
المغامرة القصصية ... يراجع: أحمد جاسم الحسين، القصة القصيرة جدّا: ص ٢١

(٣) روبرت دي بو جراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٠٦

والزمان والمكان بطريقة خاصة تبقي على جوهرها السردي مع التخلص من كافة الاستطرادات والجزئيات غير المهمة، "فتنامي الأحداث – مثلاً – يحضر حضورًا واضح المعالم في القصص التي لا تتجاوز خمس عشرة كلمة، ولكنها لا تأخذ كل جزء من أجزاء التنامي بكل تجلياته؛ بل يكفيها كلمة واحدة تشير إلى وقوع تقدم في الحدث وتطوره. إنها ترصد لحظة التغيير، لحظة اشتعال الفتيل، ولا تعنى بالجزئيات من أبعاد وصفية ومسببات، فالحدث يقدم وهو في لحظة توثبه من حالة إلى حالة، وهي تحتاج من هذا التوثب إلى كلمة أو كلمات قليلات تحيل إلى مرجعية إيحائية. من ثمّ قادها إلى حوار قصير –قد تحتاجه–، مكثف إلى أقصى حدود التكثيف، يعطي من جهة، ويخفي من جهة أخرى.

شخوصها –أيضًا– مقدمون وهم في لحظة فاعلة، تحول أو تغير، وهي ليست معنية بتقديم أوصاف مفصلة عن الشخوص إلا بقدر ما يخدم الإيحاء، وكثيرًا ما تقبض على لحظة مصيرية في رؤيتهم وفكرهم وسلوكهم، ممّا يؤمن لهم المحافظة على شيء من التوهج الذي يقودها لحياة أطول وأثر ممتد في ظل قصر كلماتها .... كذلك فلا تُعنى القصة القصيرة جدًّا بتقديم الصراع مع خلفياته ومسبباته؛ بل هي معنية أكثر بتقديمه لحظة ذروة تصعيده، مع إشارات تلميحية تحمل في طياتها كثيرًا من الكوامن الباعثة لهذا التصعيد"(١).

وتقوم المفارقة على "توتر الأضداد وتناقضها وعدم اتساقها، وتشير إلى الاختلاف الجوهري بين الحقيقة والمظهر، كما تكمن جمالياتها في تصعيد درامية النص عن طريق التصوير الساخر، والإشارة المكثفة، وإدهاش المتلقي، ومفاجأته بغير ما

(١) ينظر: أحمد جاسم الحسين، القصة القصيرة جدّا: ص ٣٤، ٣٥

يتوقع، وتجسيد انقلاب الأوضاع، وعدم منطقية كثير من الأحداث المعاصرة "[١]، ولذلك فهي من الخصائص النوعية المميزة لهذه البنية السردية المكثفة.

وقد اهتم النقاد والبلاغيون قديمًا وحديثًا ببدايات النصوص ونهايتها؛ لأهمية هذه المواضع في جذب انتباه المتلقي للتفاعل مع البنية التشكيلية والدلالية للنص، وإن تكثيف البنية السردية في القصة القصيرة جدّا يتطلب جهدًا كبيرًا ومهارة فائقة من المبدع لإحكام تشكيل البداية والنهاية تشكيلاً لافتًا وجاذبًا لانتباه المتلقي، "ويفترض أن القصة القصيرة جدًا لا تعبأ بنهاية تقدّم أشياءها وتلخص القصة؛ بل هي خاتمة مفتاحية، أعني بها تخدم أحداث القصة ظاهريّا؛ لتفتح باب التحليل والتأويل والمساءلة، فهي دافعة للسؤال ومضيفة لمدلولات جديدة، مثلما هي واخزة ومحيّرة، متحركة وليست سكونية، وهذا يجعل التعامل معها ومع البداية تعاملاً لا يخلو من صعوبة، ويحتاج إلى شغل كثير، حتى تصير تقنية لها كبير أثر، وكثير خصوصية"[٢]، ولا شك أن هذه ميزة تعكس الزخم الثقافي الذي يميز كتاب القصة القصيرة جدا.

والذي تمتاز به بنية القصة القصيرة جدًّا جرأة الطرح، واتساع الرؤية، وكثافة التشكيل "فالجرأة تحمل دعوة مبطنة لإعادة النظر في كثير مما اعتدنا عليه، حيث أنهكت كثيرٌ من الأمور ببلادة التكرار، والجرأة أيضًا تحمل دفقًا تجديديًا لا يحمل تخريبًا، بقدر ما يحمل إعادة مساءلة لكثير من البدهيات، مما قد يكشف جوانب خفية كثيرة ... وجود الجرأة يفرض على القاص مهمة جديدة تجاه المتلقي لا تتمثل في قوله ما يحس به ذلك المتلقي؛ بل تحويل أحاسيسه إلى واقع ملموس ونص مكتوب يقبض عليه بالكلمات، وبذلك تكبر مهمة الأديب ليثير النص استشرافًا للمستقبل،

(١) أسامة البحيري: مقارنات في السرد العربي، نادي الباحة الأدبي، السعودية، ط١، ٢٠١٢م: ص ٢٠٧.

(٢) ينظر: أحمد جاسم الحسين، القصة القصيرة جدّا: دار التكوين، دمشق، ٢٠١٠م، ص ٤٨.

وكشفًا لخفايا الواقع، وتنبؤًا بالقادم من الأحداث"[١]، بالإضافة إلى التعبير الملِحّ عن الهموم الذاتية والاجتماعية والإنسانية .

ثانيا: السرد الذاكراتي في مجموعة "منسية".

تنطلق الكاتبة في هذه المجموعة –كما ذكرتُ في مقدمة البحث– من مبدأ تخليد الذكريات، وتعتمد في ذلك على الاسترجاع الذاكراتي (السرد الذاكراتي)، أو الفلاش باك[٢]، ويعد السرد الذاكراتي أحد أهم تقنيات السرد، وبوسعنا أن نقول: إنه الركيزة الأساسية التي بُنيت عليها هذه المجموعة، فالمجموعة القصصية استرجاعية بامتياز.

وتعد الذاكرة أحد أهم مصادر التوثيق والتأريخ؛ فهي تؤدي دورا هاما في استدعاء الأحداث؛ فيكون السرد بمثابة مخطوطات يعاد فيها إنتاج الماضي من خلال هذه الذاكرة المؤرشفة، ويسافر فيها الكاتب بين الماضي والحاضر والمستقبل عن طريق الاسترجاع والاستباق، وفيها يتقمص الكاتب دور المؤرخ.

والباعث الحقيقي للاسترجاع وتدوين الذكريات والأحداث والمواقف، هو الخوف من النسيان، الذي يدفع الكاتب للتدوين وإنقاذ الذكريات من براثن النسيان، ويحتاج الكاتب في هذا إلى ذاكرة يقظة غير معطوبة، تسترجع أحداث الماضي المخزون في الذاكرة؛ لذا فالكتابة الذاكراتية ضد النسيان، وهي تقترب كثيرا من كتابة السيرة الذاتية.

وأثناء الاسترجاع يعيش الكاتب انشطارا ذاتيا بين الماضي الغائب والحاضر

(١) أحمد جاسم الحسين: القصة القصيرة جدا: ص ٣٦.

(٢) الفلاش باك:Flashback مصطلح روائي حديث يعني: الرجوع بالذاكرة إلى الوراء البعيد أو القريب، راجع: آمنة يوسف: تقنيات السرد (في النظرية والتطبيق) دار الحوار، سوريا ط: ١٩٩٧م، ص، ٧١.

الراهن، وتكون الذات متأرجحة بين العالم الخارجي والعالم الداخلي، وخلال السطور التالية سوف أقوم بتوضيح فكرة تخليد الذكريات التي بثتها الكاتبة في ثنايا مجموعتها القصصية، فقد حاولت عن طريق أبطال قصصها أن تستدعي أدق التفاصيل في حياتهم، متحفزة للخلاص منها في الحاضر والمستقبل.

والعودة إلى الماضي وإلى الوراء، يتطلب دوافعَ وحوافزَ تدفع الإنسان إلى تذكر بعض الأحداث والمواقف بعينها؛ لارتباطه بها، الأمر الذي يؤدي إلى إحياء المشاعر والذكريات الفائتة، وتسمى حوافز الاسترجاع، "ويقصد بالحوافز تلك الأسباب والدوافع التي تؤدي إلى سيولة توالي الأحداث في السرد، وارتباطها مع بعضها، فالأحداث على اختلاف أنواعها ينبغي أن تكون متسقة ضمن نظام يجمعها في علاقات محددة، ويبرر وجود كل منها في موقعها بحيث يمهد السابق اللاحق ويكون اللاحق نتيجة كذلك، البواعث التي تدفع الشخصيات للقيام ببعض الأفعال"(١).

والناظر لقصص هذه المجموعة يجد أن بواعث الاسترجاع في هذه المجموعة تتمثل في (الروائح – بعض الذكريات المادية كالهدايا، بعض العبارات من أشخاص راحلين..)، ففي قصة (لا تنم): "ماتت جدتي، حزنت لفقدها كثيرا، بقلب مكسور وعين دامعة نمت، يا إلهي!! الآن فهمت مقولة جدتي التي كانت تكررها: لا تنم وأنت حزين؛ سيتحول حزنك إلى غول يرافق أحلامك كل مساء!"(٢) كان الباعث هنا على الاسترجاع تذكر كلمات الجدة العالقة بمسامعها، التي سرعان ما تذكرتها عندما تشابه الموقف، تلك الجدة التي لا أثر للشوائب في قلبها، فهي تخاف عليهم من مرارة الحزن ومرافقته لهم، إذا خلو للنوم والحزن يدمي قلوبهم. ويظهر الاستباق هنا

(١) طاهر مصطفى علي، نور فاضل بكر: الاسترجاع الذاكراتي في مجموعة بخور للقاصة ابتسام عبد الله، مجلة ديالى للبحوث الإنسانية، العراق، العدد ٩٨ المجلد ١، ٢٠٢٣ م، ص ٢٤٦.

(٢) شيمة الشمري: منسية: ص ٤٥.

في القصة في تنبؤ الجدة بمصير من ينام حزينا: (سيتحول حزنك إلى غول).

وتظهر محفزات الذاكرة واضحة جلية في قصة: (لذة الأسرار): "**الندم** الذي نشعر به ولا نصرح للطرف الآخر، **قراءة محادثة قديمة** ما زلنا نستلذ بحروفها، **الحب** الذي يهرب منا، الضحكة التي نطلقها بعد استرجاع **ذكرى قديمة، عبارات الحنين** التي نتراجع عن إرسالها في آخر لحظة، ماذا لو غادرتنا تلك الأسرار الصغيرة؟!"[(١)]، فكما نلاحظ أن القصة تمور ببواعث الاسترجاع والتذكر، وهكذا نجد كثيرا من هذه الحوافز في أثناء قصصها.

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٨٥.

المبحث الأول: عتبات النص:

١ – الغلاف

اهتم الدرس السيميائي بـ "عتبات النص" كونها تشكل مدخلا فنيا وإبداعيا يقود إلى دهاليز النص المُنجز، وتتبع ومضاته الإشراقية، وترابطاته اللفظية والدلالية، فهي تلك المداخل التي تتخلل النص "المتن" وتكمله وتتمه" (١) وأول ما يلفت انتباه المتلقي في مجموعة "منسية" للقاصة شيمة الشمري هو الفضاء الخارجي للمجموعة القصصية، ويبدأ ذلك الفضاء الخارجي من صورة الغلاف، وما ترمز إليه، ثم عنوان المجموعة بالإضافة إلى العناوين الداخلية للنصوص، وهذه الأشياء تحتاج من المتلقي أن يمعن النظر فيها ليدرك دلالاتها ويفك شفراتها، ويربطها بنصوص المجموعة.

أما عن غلاف المجموعة؛ فقد اختارته الكاتبة بدقة وبراعة، وكان انعكاسا لمحتوى المجموعة، بكل ما يحويه من ألوان وتشكيل تجريدي، "والفن التشكيلي على اعتباره لغة تعبيرية يحاول الفنان من خلالها إيصال مشاعره وأفكاره، فإنه يستخدم لهذا الغرض الخط واللون، وهما العنصران اللذان تتشكل من خلالهما اللوحة الفنية من خلال النظر إليها والتمعن في تفاصيلها، وبدَهيًّا أن يرتبط هذا بشكل أو بآخر بحالتنا النفسية والظروف التي نمر بها، فقد تؤثر فينا الألوان الباردة أو الدافئة، فنشعر أنها تمثلنا أو تحاكي واقعنا، وقد تثير فينا العديد من المشاعر والذكريات، أو قد نمر أمامها دون أن تؤثر بنا على الإطلاق"(٢)؛ فكان اللون البني لعنوان المجموعة واسم الكاتبة،

(١) محمد الهادي المطوي، فن التعالي النصي والمتعاليات النصية، المجلة العربية للثقافة، تونس، ع٣٢، ١٩٩٧م، ص ٩٥.

(٢) حسام ياغي: الألوان ودلالاتها في الفن التشكيلي: كي نفهم اللوحة، دمشق ٢٠٢٢ م. https://www.syria.tv/175691

"ويثير فينا هذا اللون الحنين إلى الماضي وهو لون الأرض والخشب والصحراء" [١]، وجاءت الخلفية فاتحة بالألوان الأزرق والرمادي والبرتقالي، وكأن اللون الأزرق يعبر عن فضاء الذكريات الذي تدور فيه الكاتبة "ويرمز هذا اللون إلى الصدق والإخلاص وتعزيز الاسترخاء الجسدي والعقلي، ولا يفضل أن يثير ضجةً أو يحصل على لفت الانتباه، ومن منظور علم النفس يدل اللون الأزرق على الأمن الداخلي والثقة بالنفس كما أنَّه يسعى إلى السلام والهدوء فوق كل شيء" [٢]، واللون الرمادي الذي يتسمُ بالحيادية، يظهر تأرجح ذاتها بين الماضي والحاضر، واللون البرتقالي الذي يعلو وجه المرأة ويغطي رأسها، جاء معبرا عما يسكن الكاتبة من ضعف وخوف وشتات، حيث إن "اللون البرتقالي يُعبّر عن الحزن والضعف والخوف"[٣]، ويبرز على غلاف المجموعة تشكيل تجريدي باللون الأسود، لصورة امرأة، واختيار المرأة تحديدا به إيحاء من الكاتبة أن تكون المرأة هي الشخصية البارزة في هذه المجموعة، ولم يظهر من صورة المرأة إلا وجهها، ولم يكن وجها كاملا، بل اختفت منه بعض الملامح، كالعين والأذن اليسرى، وهذا تلميح على أن الجزء المختفي متلاش في الماضي، وكأنها تعيش منفصمة عن الواقع، جزء في الحاضر وجزء متلاش في الماضي، فهي تعيش في عالم منفصل عن الآخرين؛ أو لنقل هناك هوّة سحيقة بينها وبين الحاضر الذي تعيش فيه، فهي تحاول إيجاد عالم متخيل تعيش فيه بذاكرتها، كذلك ظهرت هذه المرأة مغمضة العينين، مائلة برأسها للوراء، وكأنها تحاول أن تسترجع الذكريات، وبذلك تكون صورة الغلاف

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) صديقة معمر: شعرية الألوان في النص الجزائري المعاصر فترة (١٩٨٨-٢٠٠٧م) رسالة ماجستير، جامعة منتوري – قسطنينة: ٢٠١٠م ص ١١٦.

متلائمة جدا مع اسم المجموعة، ومضمونها.

أما عن الغلاف الخلفي فقد كُتب عليه اسم الكاتبة ونبذة مختصرة عنها، وأهم مؤلفاتها، وتظهر دار النشر وسنة النشر أعلى الصفحة، كما كتب أسفل الصفحة مواقع التواصل الخاصة بالكاتبة.

٢– عنوان المجموعة:

أما عن العنوان الرئيس للمجموعة القصصية: "منسية"، فيومئ بالذكريات والمواقف التي تمتلئ بها ذاكرة القاصة ورغبتها في تخليدها، ويعد العنوان "النواة الدلالية المركزية التي تتفرع منها بقية الدلالات في النصوص المنجزة داخل العمل الفني، وهو بمثابة كلمة المرور التي يستطيع الناقد من خلالها الولوج إلى أعماق النص البعيدة الأغوار المعتمة المناطق، وفك شفراتها المجهولة وطلاسمها المخبوءة" (١) والعنوان ملائم جدا لمحتوى قصص المجموعة ومضمونها، وكأن الكاتبة حاكت خيوطها النصية؛ لتصنع نسيجا مترابطا ينتمي إلى عنوان المجموعة.

والمتأمل لعنوان المجموعة يتهيأ له في أول وهلة أن فكرة النسيان التي تقصدها الكاتبة هو نسيان حقيقي، ولكن عند قراءة نصوص المجموعة نجد أن النسيان، نسيان كاذب لا حقيقي؛ بل إنه ليس هناك نسيان على الإطلاق، وهذه هي المفارقة التي تبني عليها الكاتبة سردها.

فقد حاولت الكاتبة غزْل ذكرياتها داخل نصوص المجموعة؛ لتكون مرايا الذاكرة، وتلك الذكريات التي تشتعل وتتوهج داخلها، ما هي إلا مواقف وأحداث مرت بها، وتحاول استحضارها واسترجاعها، فهي تتحدث عن شيء منسي، إذن هو

(١) حمود بن خلف الدغيشي: سيميائية العنوان " الأشجار لا تفارق مواطنها الأولى" لـ سماء عيسى، مجلة كلية دار العلوم، القاهرة، ٢٠١٧، ع ١٠٢، ص ٧٢٩.

ذكرى، وطالما تذكرته الكاتبة واستحضرته؛ فهو حقيقة ليس بمنسي، لأن الإنسان الذي يحنط شيئا أو ينقش تمثالا أو يرسم لوحة أو يكتب ذكريات، يهدف من وراء كل ذلك له الخلود، لا الفناء والنسيان، وهذا ما فعلته الكاتبة.

وقد استطاعت الكاتبة بطريقة جميلة أن تصنع عالما من الماضي (الذكريات) تعيش به في حاضرها، ورغم ادعائها أنها هذه الذكريات منسية، إلا أنها في الحقيقة قابعة في ذهنها، لا تفارقها، ملتحفة بظلالها؛ فنراها تلتقط لحظة معينة، وتعبر عنها بشكل جميل جدا كأن تقول: "صغيرتي خفت عليها من الوباء وضعتها في لوحة..." فتلك اللحظة حاضرة، ولكن عندما تضعها الكاتبة في لوحة فهي تريد أن تجعلها في طي النسيان ولكنه نسيان كاذب، إذ أنها تحاول أن تخلدها سرديا بحيلة فكرة النسيان.

وثمة تأويل متاح، فلعل عنوان المجموعة "منسية" يخص ذكريات كل إنسان وخاصة المرأة، إذ إن كل الذكريات ربما تنسى، وتكون "منسية"، ولعل الكاتبة تعني ذكريات الإنسان في كل زمان وباختلاف المجتمعات.

وما يعزّز هذه القراءة التأويلية إهداء الكاتبة بقولها: "إلى كل هؤلاء الذين يقاومون بؤس هذا العالم بالكتابة والرسم والفن والموسيقا..".

فهي تهدي هذا الإهداء لكل من يتسلحون بالكتابة والرسم والفن والموسيقا.. في مقاومة بؤس العالم وشقائه، وقد أشارت إلى هذه الأسلحة داخل قصصها، فذكرت الرسم والألوان واللوحات [١]، وتعلن بذلك انضمامها وتعاطفها معهم، حين تتسلح هي بالكتابة لتقاوم هذا العالم البائس.

(١) ذكرت القاصة أدوات الرسم والنحت والكتابة والموسيقا وما ينتج عنهما من لوحات وتماثيل ونقوش ومذكرات وسيناريو وأغان، في أكثر من قصة (لوحة – ابتسامة للبيع – لوحة – مصير – دوائر – رجل من ورق – نقش – معادن – تمثال- سر).

٣– العناوين الفرعية:

يعد العنوان العتبة الرئيسة لأي عمل فني، ومن خلاله يمكن للقارئ فهم النص وتأويله، والناظر لعناوين المجموعة القصصية يتساءل، هل تنتمي هذه العناوين إلى عنوان المجموعة الرئيس؟، أم جاءت مبتورة لا علاقة لها به؟ ومن خلال دراسة هذه المجموعة تبين أن بعض العناوين جاء امتدادا لعنوان المجموعة الرئيس (ابتسامات غائبة – منسية – حكايات من زمن الجدات – نقش – لوحة – تمثال – هذيان)، وبعضها لا علاقة له بعنوان المجموعة مثل: (حيوات – قبل أن – صرخات – عين – مصير...)

أما عن علاقة عناوين النصوص بمتنها، فقد تلاءَم عنوان كل قصة مع متنها؛ فكان العنوان بمثابة اختزال للنص بأكمله، فهو يبرز للقارئ دلالة النص منذ الوهلة الأولى، ويعد هو المفتاح التأويلي الذي يجلي مكامن النص ويهيئ القارئ لفك شفرات النص وفهم مغاليقه، وقد اختارت الكاتبة عناوين نصوصها بمعايير دقيقة حققت الهدف المنشود من اختيارها.

فعلى سبيل المثال [١]، نجد ذلك حاضرًا في قصة (بطل) يقول: "لقد طلبوا مني "السيناريو" بأسرع وقت، وكنت فعلا قد بدأت بكتابته.. إلا أن البطل خذلني واختفى!"[٢].

ففي هذه القصة، كان العنوان امتدادا للنص، فالنص يحكي عن البطولة، ولكنها بطولة زائفة فهناك مفارقة بين معنى البطولة الحقيقي ومعناه السردي في القصة؛ فقد أخلف هذا البطل وعده وخذل البطلة واختفى، مما أدى إلى امتعاض البطلة

(١) ستتضح علاقة عناوين قصص المجموعة بمتنها، أثناء تحليل النصوص، في الصفحات القادمة.
(٢) شيمة الشمري: منسية: ص ٣١.

لشعورها بالخذلان بسبب تراخيه وعدم تحمل المسؤولية، ونلحظ أن القاصة حافظت على جوهر القص المتمثل في التوتر، والعقدة، والحل، ونلحظ التكثيف بداية من العنوان مرورا بالشخصيات والأحداث المختزلة ثم انتهاء بنهاية القصة المؤلمة المثيرة للدهشة، فبرعت الكاتبة في اختيار عنوان القصة، الذي كان بمثابة تمهيدا للنص، وتهيئة للقارئ لفهمه وفك شفراته، وقد أبرز النص الشخصية في تناميها التراجيدي، وانتقالها من مرحلة الثقة إلى مرحلة الخذلان.

المبحث الثاني: تقنية التكثيف والحذف

تعكس نصوص المجموعة وعي الذات المبدعة بخصائص بنية القصة القصيرة جدّا تشكيليًا ودلاليًا وتداوليًا، وأولى هذه الخصائص التكثيف، فنصوص هذه المجموعة تعتمد على التكثيف والإيجاز في البنية التركيبية لقصص المجموعة كلها، فهناك –على سبيل المثال– خمس وعشرون نصًّا عنوانه لا يزيد عن كلمة واحدة مفردة، أي (٦٣ %) من عناوين هذه المجموعة مثل: لوحة، شعر، عين، مصير، دوائر، سر... ولا تزيد العناوين الثنائية والثلاثية على (١٤) نصا مما يشكل (٣٦ %) من عناوين هذه المجموعة مثل: ابتسامات غائبة، لقاء غرباء، رجل من ورق، وجاءت قصة واحدة يتكون عنوانها من (٤) كلمات، وهي: حكاية من زمن الجدات ويمتد التكثيف والإيجاز إلى بنية النصوص ذاتها؛ فنجد عددًا كبيرًا من نصوص هذه المجموعة يتكون من سطرين أو ثلاثة إلى الستة أسطر فهناك (١٩) قصة لا تتعدى خمسة أسطر، وست قصص تتكون من ستة أسطر، كذلك عدد الشخصيات، فقد جاءت تسع قصص اقتصرت على شخصية واحدة، و(٢٣) قصة تتكون من شخصيتين، وست قصص تضم أحداثها ثلاث شخصيات، وجاءت قصتان بلغ عدد الشخصيات فيهما أربع أشخاص بواحدة، وخمس بالأخرى.

ويؤدي التكثيف "دورًا محوريًا في توهج التشكيل اللغوي والسردي في بنية القصة القصيرة جدًّا، واتصافه بقدر كبير من الشعرية بالاعتماد على الإيجاز الشديد، والاستغناء عن الزوائد اللغوية غير المهمة التي تعوق تنامي الحدث وتصعيده دراميًّا، وترك مساحات تأويلية واسعة للمتلقي يتفاعل بها مع النص، ويعيد بها إنتاجه، وهو مطلب حرصت عليه المدارس النقدية ما بعد البنيوية، حيث طورت دور القارئ في التواصل الأدبي، مشددة على الطبيعة النشطة والخلاقة للقراءة، فثمة مجرى مختلف من

التساؤل يتأسس على تحليل النص من وجهة نظر القارئ"[١]، وتصبح دلالة النص عملية تفاعلية متصلة بين التشكيل النصي وبين وعي القارئ.

وتستند القصة القصيرة جداً إلى مكون الإضمار والحذف: (وهما من صور التكثيف)، باعتبارهما من أهم الأركان الجوهرية للقصة القصيرة جداً، وينتجان –كما هو معلوم– عن طريق وجود نقط الحذف، والفراغ الصامت، وظاهرة التلغيز.

وهكذا، يستعمل كاتب القصة القصيرة جداً تقنية الحذف من أجل التواصل مع المتلقي، قصد دفعه إلى تشغيل مخيلته وعقله، لملء الفراغات البيضاء، وتأويل ما يمكن تأويله.

ويستعين القاص غالباً بالإيجاز والحذف لدواع نفسية واجتماعية وأخلاقية وفنية. كما أن ذكر بعض التفاصيل الزائدة، التي يعرفها القارئ، تجعل من العمل الأدبي حشواً وإطناباً. لذلك، يبتعد الكاتب عن الوصف، ويستغني في الكثير من النصوص عن الوقفات الوصفية والمشهدية، التي قد نجدها حاضرة في القصة القصيرة العادية أو النصوص الروائية[٢].

وعند تصفح القصص القصيرة جداً في مجموعة (منسية)، نجد التزام الكاتبة بعلامات الترقيم؛ حيث تضع النقطة، والفاصلة، والفاصلة المنقوطة، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب، ولم تتحرر الكاتبة من علامات الترقيم؛ كما يفعل بعض كُتَّاب القصة القصيرة جداً.

(١) نقلا عن أيمن بكر، السرد المكتنز، سلسلة كتابات نقدية، هيئة قصور الثقافة، ط١، ٢٠٠٢م: ص ٣١

(٢) ينظر: جميل حمداوي: القصة القصيرة جداً: أركانها وشروطها، دار نشر المعرفة، الرباط، ط: ١، ٢٠١٣م، ص: ٣٢-٣٣.

أما الحذف والإضمار، فهما حاضران بقوة، ولا تكاد تخلو منهما قصة؛ وذلك من أجل تحقيق التكثيف اللغوي، والغموض الفني المقصود الذي تعمد إليه القاصة عن سبق إصرار وترصد، إيماناً منها بأن النص الجيد لا بد من أن يكون غامضاً؛ بحيث لا يهب نفسه للقارئ بسهولة؛ لذا نراها في نصوصها القصصية القصيرة جداً تتحاشى التصريح والوضوح الذي يجعل القارئ يصل إلى المعنى بدون أدنى مشقة، ودون أن يكلف نفسه عناء التفكير واستخدام العقل في اقتراح الأجوبة المناسبة ومشاركة السارد في بناء المعنى، وبالتالي يصل القراء جميعهم إلى استخلاص معنىً واحد؛ فيموت النص نتيجة لذلك. بل إن القارئ –كما يعتقد الكاتب– مُطالب بأن يسهم في بناء النص من خلال ملء الفراغات والبياضات التي يتركها القاص عمداً، قصد استدراج المتلقي لممارسة لعبة التأويل.

ومجموعة (منسية) ليست معنية بتقديم أوصاف منفصلة عن تلك الشخصيات الفاعلة إلا بقدر ما يخدم الإيحاء والتكثيف والحذف، ويعمق للسرد فاعليته وحيويته من خلال تشكيل النصوص من جمل فعلية قصيرة ترصد الحدث، وتعكس نموه وتطوره، وتبرز انتقالاته المفاجئة أو المفارقة، وهذا حتى لا يطول النص وتزيد مساحته، فيجد القارئ نفسه في قلب الحدث متفاعلا معه، ويتضح ذلك في نص (عين) "فرحتي لم تكتمل بزراعة عين لي – عوضا عن عيني المعطوبة إثر حادث شنيع – فعيني الجديدة لا تشاركني أحزاني؛ فما زلت أبكي بعين واحدة.. "[1].

يبدو التكثيف في اختيار العنوان وهو عبارة عن كلمة واحدة: (عين) وكذلك حجم القصة الذي لا يتجاوز الثلاثة أسطر، واستخدام الجمل الفعلية القصيرة التي تعكس نمو الحدث وتطوره (تكتمل..، تشاركني ....، أبكي..).

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٢٥.

فقد تعرضت البطلة إلى حادث مؤلم، فقدتْ إثرَه عينها واستبدلوها بعين أخرى جديدة –على حد وصف الكاتبة– وبطريقة غير مباشرة تحدث المفارقة، والمفارقة هنا مؤلمة حين يكون غياب الفرح، لأنها لم تجد العين التي تبكي بها والتي كانت تشاركها الآلام والأحزان، وهذا دليل على أن صنع الإنسان لا يصل أبدا لصنع الخالق، وقد قدمت الكاتبة المشهد الدرامي، وكأنه يحدث الآن؛ ليجد القارئ نفسه في بؤرة الحدث متفاعلا مع البطلة القصة.

كما يظهر التكثيف في القصة السالفة الذكر من خلال رسم الشخصية والإيجاز الشديد، والتلميح دون التصريح، والإيماء والإشارة دون ذكر أية تفاصيل أو وقوف عند جزئيات؛ فالقصة القصيرة جدًا "عين" بطلتها شخصية واحدة فقط هذه ناحية، والناحية الأهم أن الكاتبة كثّفت بشدة أحداث القصة، فهي لم تذكر سبب هذا الحادث ومن الذي زرع لها عينا جديدة؟ وما الذي يجعلها تبكي دوما؟ فالقاصة لم تذكر أية تفاصيل، لكنها أشارت إليها في لمحات خاطفة، ليأتي الدور على القارئ فيملأ الفراغات، ويسدّ البياضات، ويعيد إنتاج العمل من جديد حسب رؤيته، فالنص مفتوح للعديد من التأويلات، وخاصة بعد وضع الكاتبة لنقاط بنهاية القصة.

كما يظهر التكثيف في خلو القصة السابقة تمامًا من الحوار، وعدم ذكر الزمكانية؛ ليوحي بأن مثل هذه القصة تحدث في كل زمان ومكان، وهكذا نرى معظم قصص هذه المجموعة يَبرز فيها الإيجاز والتكثيف بوصفهما عنصرين مهمّين في البنية السردية.

وتوظف الكاتبة جُملاً فعلية بسيطة ذات محمول فعلي واحد؛ مما يجعل قصصها تفيض بالحركة والحيوية، ويبدو ذلك جليًا في قصة (ثُقب)إذ تقول: "لقد فقدتك.. وها أنا أعيش بثقب كبير في قلبي.. كلما تنفست صرختُ، وطارت العصافير التي

تسكنه"(١).

فقد استمر تدفق الأفعال في القصة وتدافعها بقوة من بدايتها حتى نهايتها دون توقف (فقدتك، أعيش، تنفست، صرخت، طارت) وعبرت هذه القصة عن صراع الأرواح البشرية العاشقة، وتجاذبها بين ثنائية الراحة والشقاء، أو تأرجحها بين ثنائية القرب والبعد.

ويعلو في هذه القصة صوت واحد هو صوت الساردة بضمير المتكلم (أنا) (٢) مصورة مشهد الفقد وتصف هذه الشخصية الممزقة التي تعاني من فقد حبيبها الذي غاب عنها وتركها بقلب مثقوب، وتبدو هيمنة الضعف واليأس على الشخصية، وتنهي القاصة القصة بمشهد تطاير العصافير الساكنة بقلبها بسبب ذعرها من علو صرخاتها، والمتلقي هنا يجد نفسه أمام لحظة نفسية مؤلمة ومشهد يثير الشفقة على هذه البطلة، وقد ابتعدت الكاتبة في هذه القصة عن الاستطرادات الوصفية، وأسقطت بعض التفاصيل، فهي لم تذكر ما سبب الفراق؟ ومن تسبب فيه هو أم هي؟ كذلك لا يوجد حوار بينهما، ولم تذكر الزمان أو المكان.

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٣٣.

(٢) كان السارد في معظم القصص ساردا مشاركا يتحدث بضمير المتكلم (أنا)، ويقوم بمهمة السرد ويكون بطل القصة وهنا تتلاشى المسافة بين السارد والشخصية، وهذا ملائم جدا للفكرة التي تبنتها المجموعة القصصية؛ فالكاتبة توهم المتلقي أنها تقص أحداثا وقعت لها بالفعل، وأنها متلبسة بالشخصية ، وتمتلك زمام المعرفة بها، وهذا يجعل القارئ أكثر التصاقا بالنص "إن صوغ القصة عبر ضمير المتكلم يكون غالبا معادلا لإسقاط الذات على الموضوع، أي النظر إلى الموضوع ليس كما هو، وإنما من وجهة نظر الذات فقط" انظر : عبد الله رضوان: البنى السردية دراسة تطبيقية في القصة القصيرة الأردنية، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين، ط١، ١٩٩٥م، ص١٧.

من كل هذا نجد أن القاصة اهتمت بالتكثيف وضغط العبارات بأكثر ما يمكن من المعاني عن طريق الأفعال التي تسعى بدورها إلى تكثيف المعاني، والتكثيف هو العنصر الأساس الذي يحدد بنية القصة القصيرة جدا، ويجعل وحدتها متماسكة بإيجاز الأحداث، وتجميعها في أفعال رئيسة وأحداث نووية مركزة بسيطة، مع التخلي عن الوظائف الفرعية المكمّلة، والابتعاد عن الأوصاف المسهبة، وهذا يلائم بناءها المكتنز.

المبحث الثالث: تقنية المفارقة

ويُقصد بالمفارقة في القصة القصيرة جداً "لجوء القاص إلى إبراز تناقض ما (تعارض ما، تقاطب ما) بين المنظومات الموضوعية، أو البنى الفنية التي تشكّل النص، سعياً إلى تعميق الإحساس بالظاهرة التي يتبناها القاص"(١). وهذا التناقض لا يلبث أن نتبين حقيقته(٢).

ومن ثمّ فتعد المفارقة سمة مميزة لبنية القصة القصيرة جدّا، وتقوم على توتر الأضداد وتناقضها وعدم اتساقها، وتكمن جمالياتها في تصعيد درامية النص عن طريق التصوير الساخر، والإشارة المكثفة، والإدهاش للمتلقي ومفاجأته بغير ما يتوقع، وتعتمد نصوص المجموعة على المفارقة التشكيلية والدلالية بشكل أساسي وهي تتشكل على مستويين:

أ ـ المفارقة الدلالية بين العنوان والنص السردي؛ حيث يقود العنوان ذهن القارئ في اتجاه دلالي يشير إليه دال العنوان، في حين أن النص يرشح بعد قراءته دلالة أخرى مفارقة لدلالة العنوان بما يعمق فاعلية الدهشة والمفاجأة في نفس المتلقي.

ب ـ المفارقة التشكيلية والدلالية بين بداية النص وخاتمته بما يخالف أفق توقعات القارئ ويصدم رتابة تلقيه، ويحفزه على إعادة قراءة النص عدة مرات.

ففي نص (شامة): "وجدتني شامة في منتصف خده كما تمنيت ...سعادتي كانت لحظات؛ لأنه بدا مستاءً ويطيل النظر في المرآة.. ويبحث عن حل لهذه الشامة الطارئة! في اليوم التالي كنت أحترق على يد طبيبته.. شطرتني نصفين ليسهل انتزاعي

(١) السابق: ص ٨٤.

(٢) سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: ١، ١٩٨٥م، ص: ١٦٢.

... بادرتُه بابتسامة وضمَّادة.. ورمتني في السلة! أنا الآن لست شامته.. ولست أنا.. مصلوبة ومشطورة ومحترقة!!!"[١].

تبرز المفارقة بين البداية الرومانسية الحالمة لمشهد الحب، والخاتمة السوداوية المؤلمة لنهاية المشهد؛ ففي بداية القصة تتحول البطلة إلى شامة بوجه حبيبها كما تمنّت، فهي تتمنى قربه بأي شكل كان حتى ولو كانت مجرد شامة بوجهه ومعروف أن الشامة سمة من سمات الجمال، فهي تريد أن تضفي عليه جمالا، والقارئ هنا يعي مدى حبها له، كما يطبع في ذهنه أنها شخصية انهزامية تقلل من مكانتها، وعلى الرغم من هذا الحب الأفلاطوني وهذا التفاني ومحاولة إلغاء الذات ودمجها في ذات من تحب، تحدث المفاجأة والإدهاش وكسر أفق التلقي والتوقع؛ إذِ يرفض المحبوب وجودها وقربها ويتخلص منها، فيحدث عكس ما تتوقعه البطلة والقارئ، أيضا، فقد كان الغدر جزاء الحب والوفاء، وتظهر في القصة فكرة الرفض وعدم التأقلم مع الأشياء الجديدة (بدا مستاء يطيل النظر المرآة – يبحث عن حل)، وثنائية القرب (الذي تسعي إليه هي)، والبعد (الذي يفعله هو)، ومن هنا نلحظ المفارقة المؤلمة بين بداية القصة ونهايتها، كذلك تظهر في نهاية القصة الذات الأنثوية المبددة، فقد ذبحت بسكين الرفض والتخلي، ويظهر ذلك من خلال وصفها: (كنت أحترق – رمتني – مصلوبة – مشطورة – محترقة).

كما نلحظ في القصة عنصر التكثيف؛ فالحوار شديد الاختصار والاقتضاب، وبطلاها امرأة ورجل وطبيبته، لم تشر إلى ملامحهما، والزمان غير محدد، أما المكان فقد اكتسب أهمية خاصة في هذه القصة، فالمكان هو خد الرجل الذي احتل بؤرة السرد، ليس بوصفه أو ملامحه الشكلية، لكنه يعد الفضاء الحكائي للقصة الذي شهد

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٣٧.

أحداثها، وشهد مشاعر الحزن والألم والإهانة للبطلة في تشكيل بارع ومميز.

وفي نص (لقاء غرباء): "متى أقابل ذلك الغريب الذي لا أعرفه ولا يعرفني، يبتسم لي وابتسم له، يعزمني على فنجان قهوة، أوافق دون تردد، نجلس حول طاولة صغيرة، يحكي لي عن أشياء لم أسمع بها قبل .... ننهي حديثنا ونتوادع دون أن أسأله حتى عن اسمه، ودون أن يسألني عن وسيلة للتواصل، فقط نلوح لبعضنا بابتسامة، ونفترق، غرباء التقينا.. وغرباء نفترق!"(١).

نجد العنوان يجذب انتباه القارئ، والعنوان يخالف دلالة النص التي تعكس تفاصيل هذا اللقاء المليء بالدفء والقرب والارتياح، وتبرز المفارقة أيضًا بين عنوان النص ومتنه، فالنص يحكي عن لقاء لم يتم! وهذا ما لوح به السطر الأول فيه، ويسير النص في حقل الأمنيات والآمال والخيالات التي تعيشها البطلة عن هذا اللقاء، وتستخدم الكاتبة هنا تقنية الاستباق (لم تظهر هذه التقنية بكثرة في المجموعة القصصية)، فهي تستبق الأحداث وتسردها كأنها تعيش فيها، ويبدو الانسجام التام والسعادة والارتياح والقرب بين بطلي القصة، خلال سيل من الأفعال اللاهثة (يبتسم، ابتسم، يعزمني، أوافق، يحكي، أحكي، يتابعني ...) مبرزة الفعل (هو) ورد الفعل (هي)، إلى أن تأتي الخاتمة التي تعمق الحرمان وتجسد المفاجأة الصادمة، والدهشة المؤلمة؛ فقد عاش القارئ جوا من الرومانسية مع بطلي القصة في لقائهما الأول، ثم يفاجأ بالفراق! فقد أفسدت هذه النهاية على القارئ متعته، واندماجه مع أحداث اللقاء.

وفي نص (قبلة فراق) نجد العنوان بدلالاته ومعانيه المصاحبة يفارق تشكيل النص الذي يتحدث عن الصبر والأمل والانتظار والترقب لبطلة القصة، تقول: "تبرر

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٢٩.

قائلة: عندما قبلته لأول مرة، بعد حب دام سنتين، شعرت وكأنني أقبل الحائط! (تبحث لي عن كلمات لتصف لي ...) ثم تنظر إلي وتكمل: بل إنني لم أشعر بشيء.. لا شيء! حتى تلك المشاعر التي كانت تميد بداخلي تجاهه خمدت فجأة!"[١].

فالعنوان يصطدم مع المتن فالقبلة في العنوان قبلة فراق، وفي المتن كانت للمرة الأولى، ومن هنا تحدث المفارقة، فالبطلة تترقب تلك اللحظة منذ زمن بعيد دام لسنتين، تترقب هطول غيمة حب على شفتيها بكل شوق ولهفة، ولكن تأتي النهاية الصادمة التي جنتها هذه الذات الأنثوية المرهفة.

وقد التقطت الكاتبة هذه اللحظة الزمنية التي طبعت القبلة على شفتي البطلة كما رصدتها عينها، وهنا لم تسرد الكاتبة الأحداث بضمير (الأنا) وإنما هي ترصد رد فعل بطلة القصة لما حدث وتحاول إيصال حالة الصدمة والوجوم واللامبالاة التي سيطرت عليها من خلال حوار دار بينهما، وقد أضفى الحوار جانبا من الحركية والفاعلية، وكسر الرتابة، وأعطى الشخصية دورا كبيرا في التعبير عن نفسها، وعن موقفها من الحدث.

وهناك حذف وإسقاط لأحداث كثيرة مرت بين هذه المرأة والرجل خلال هاتين السنتين فلم تذكرها الكاتبة وانتقلت إلى الحدث مباشرة؛ لتدفع القارئ لإعمال ذهنه وتخيل العلاقة بينهما، فقد يسأل القارئ نفسه كيف لحب دام سنتين أن يخلو من القُبل؟؟ بالطبع هذا حب جامد!! ولماذا انطفأت كل هذه المشاعر داخل البطلة وخمدت فجأة؟؟!! أتتخلى عن حبها لمجرد قبلة وتعزم على الفراق؟؟!! أم أنها كانت على أمل أن تزهر معه أنوثتها، وحدث ما لم يكن في حسبانها؟!!! فلم تجد الذات في

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٥٣.

صدمتها، وتشظيها وانطفائها مخرجًا إلا في الفراق.

من المفارقات عند القاصة كذلك قصة (باقة حب) التي تشعرنا بالتناقضات والصراعات الداخلية في النفس البشرية، وأن كل شيء –تقريبا– في حياتنا يحمل الشيء ونقيضه، كما في هذه القصة، فباقة الحب التي يتهاداها المحبون تعبيرا عن الحب، هي نفسها التي تُصنع من قَتْلِ الورود واقتصاصها وتشويهها، تقول: "تعجبني تلك الشجرة الصغيرة.. التي أزهرت ورودها الجميلة، كقصة حب بدأت للتو... ويعجبني أيضا المقص الكبير الذي أحمله بيدي"(١).

إن الناظر في قصص الكاتبة يُلاحظ أن القاصة انشغلت، في كثير من قصصها، بالحديث عن التناقضات والمفارقات، التي تحفل بها حياة كثير من الناس في مجتمعها. فهي تلتقط صوراً من واقع المجتمع، وهو ما جعل الكاتبة تجد نفسها مُرغمة على التسلح بالحس النقدي الساخر، واللهجة التهكمية للكشف عن عيوب بعض البشر واختلالاتهم. ولا عجب، فقد اتخذ الأدباء منذ القدم السخرية وسيلتهم لنقد العيوب البشرية والاجتماعية.

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٦٧.

المبحث الرابع: الرمز والتشخيص والتجسيد

يسهم كلٌ من الرمز والتشخيص والتجسيد في إبراز شعرية التشكيل اللغوي في القصة القصيرة جدًّا، من خلال اللغة الموحية غير المباشرة؛ فنجد على سبيل المثال أن المبدعة أنسنت بعض الجمادات، كما في قصة (حيوات): "أنا الصغير الذي يتهادى من الجوع، أنا العجوز تنتظر رغيفها قرب التنور الساخن، أنا التنور الذي يصرخ ويثور دون أن يشعر به أحد، أنا العجينة التي تغيرت ملامحها لترضيكم، أنا تلك الرائحة التي غادرت التنور لتعرقل مسيرة المارة، أنا تلك الحياة المملة التي تسعى إلى دهشة ما في غضون كل هذا!"(١).

أنسنت القاصة "التنور ـ العجينة ـ الرائحة ـ الحياة" وجعلتها تفعل وتصرخ وتثور وتتغير ملامحها، وتعرقل، وتسعى.. والنص برمته يمثل صراع الأرواح البشرية والأشياء المادية في معترك هذه الحياة حتى الحياة نفسها تتمرد على رتابتها وتسعى إلى الدهشة، وتظهر الشخصيات والجمادات كلها متعبة مجبرة على فعل أشياء لا تروق لها، وتجسد القاصة في هذا النص فاعلية القهر والضجر والثورة وتأثيره التشكيلي والدلالي في بداية النص ووسطه وخاتمته مستعينة بتفاصيل التشكيل الفانتازي ومفرداته الغرائبية، حين أنسنت هذه الجمادات وعبرت عن ثنائية القهر والثورة، وأهم ما في هذه القصة قيامها على فكرة التوالد: (الصغير– العجوز) (التنور– العجينة – الرائحة) وهذا التوالد رغم ما فيه من تواصل ظاهر، غير أنه أيضا يحمل دلالة التلاشي والفقد، وقد عبرت القاصة عن ذلك في نهاية القصة.

ويفيض الحزن والفقد والشعور بالضجر في نص (صرخة روح)، حيث تقول: "وصلنا مزرعتنا النائية، ثم تقاسمنا مهام الترتيب والتنظيف وتجهيز المكان؛ لقضاء إجازة

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ١١

يفترض أن تكون سعيدة.. أخذت مهمة الحديقة، وبدأت بإزالة الحشائش الضارة، وقص بعض الأغصان المتفرعة بشكل عشوائي، في المساء وفي وقت متأخر توقظني صرخات مفزعة، كانت الأشجار تطرق نافذتي مطالبة بأجزائها المبتورة "(١).

فنرى المبدعة ترسم رؤيتها من خلال شخصيات القصة الواقعية والخيالية (الإنسان – الأشجار) فقد أنسنت الأشجار وجعلتها تصرخ وتتمرد وتحتج على ما فعلته البطلة ببتر أجزائها، كما لجأت إلى الإيماء والرمز: (في المساء – في وقت متأخر– صرخات مفزعة – مطالبة..) تعبيرا عن الرفض والاحتجاج، وإيماء لفكرة الاغتصاب وانتزاع الأشياء، المختبئة في صورة صرخات الأشجار المفزعة، وكأن هذه الأشجار أناس تشعر وتحن وتأن لفقد أشلائها، وليس فقد الأشلاء فقط مدعاة للحزن، وإنما تعبر القصة عن فكرة الحرمان والفقد عموما، بطريقة جمالية يتداخل فيها الواقع بالخيال، فقد يعيش الإنسان بكامل أعضائه سليما معافى، ولكنه يفقد روحه، يفقد ثقته بمن حوله..، فيعيش يئِن ويصرخ صرخات لا صوت لها على ما أفقدته إياه تلك الحياة القاسية، وكل ذلك عبرت عنه الكاتبة بصرخات الأشجار، وكأن ما افترضته الأعماق اللاوعية لذات الكاتبة عبر آلية الفقد، يؤكد أن الذات الساردة، محملة بكثير من الألم والوجع جراء فقد ما.

وفي قصة (ريشة) يظهر الترميز والإحالة بشدة فتقول: "مات عصفوري الصغير، قالت لي أمي: لقد صعد إلى السماء.. بعد أيام وأنا ألعب وأحفر في الحديقة، وجدت ريشة من عصفوري! عدت إلى أمي وأنا أصرخ: لقد أعاده الله إلي.. لقد عاد عصفوري.." فالعصفور هنا قد يكون "الابن" أو "قريب مفقود" والريشة التي وجدت هي بقايا الذكريات التي دوما ما تحفظ لنا سيرة الراحلين، والغريب أن ريشة واحدة

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٤١

من هذا المفقود أصبحت هي العصفور بأكمله في القصة! وهذا إشارة إلى فكرة العجز، عجز الإنسان حين يستحيل عليه إعادة ما فقد؛ فيرضى ببقاياه!

ومما يلفت أنظارنا في تلك المجموعة كثرة الرمز والإيماء تعبيرًا عن هموم الإنسان، ومشكلاته وسلبياته وتعريضًا ببعض سلوكيات البشر السيئة من فشل في تربية الأبناء بكبتهم وحرمانهم من الانطلاق وأخذ قسط من الحرية؛ فعلى سبيل المثال نقرأ قصة (دوائر) التي ترمز لفكرة الفكاك والفرار من التقييد: "منذ وضعت يدي على الدوائر في تلك اللوحة، وأنا أشعر بارتياح وانطلاق، رغم أن أهلي لا يكفون عن مناداتي والبحث عني!"(١).

فبطلة القصة تشعر أن روحها مكبلة، وتريد أن تنطلق؛ فتختط لنفسها مسارا تنطلق فيه من الخارج صوب الداخل –عكس المتوقع– لتعيد بناء ذاتها وترممها، في إطار فكرة الحرية التي تبحث عنها؛ فهذا النص يعد انعكاسا لِلْهم الذي تعيشه البطلة وفكرة الفرار التي تسيطر على مخيلتها، والفكاك من التقاليد الموروثة الجاثمة على صدرها، التي تعوق حركتها وطموحها، وتكبل روحها الواثبة، في زمن السرعة والانطلاق، وتتضح فكرة الثنائيات الضدية في هذا النص؛ فهي في الظاهر تحبس نفسها داخل لوحة، لكنها في الحقيقة، تبحث عن الحرية والانطلاق داخل دوائر هذه اللوحة.

وقد أجادت الكاتبة اختيار الدوائر لتنطلق البطلة في مساراتها التي لا تنتهي فكلما انتهت بدأت من جديد، وكانت اللوحة (العنصر المكاني) بمثابة البؤرة التي تجمعت فيها أحلام البطلة، فهي تبحث في داخلها عن تحقيق ذاتها، وكسر القيود التي تكبلها، فتنطلق داخل دوائر هذه اللوحة، واثقة من نفسها، ولا تشعر مطلقا بالخوف من أن تتوه داخل مسارات هذه الدوائر، وإنما تشعر بالارتياح والطمأنينة، غير مهتمة

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٤٧

بنداءات أهلها رغم سماعها لهم، لكنها ترفض العودة إليهم، وترفض حريتهم الزائفة، فهي سعيدة منطلقة داخل لوحتها.

ومن النماذج السيئة التي سلّطت عليها الكاتبة الضوء وكشف حقيقتها ذلك النموذج الرامز في قصة بعنوان (لوحة)، الذي يرمز لفكرة تسلط الرجل وتحكمه في المرأة، وضعفها أمامه تقول:

"أنا أمامه خجلى.. فقط أريد أن يسدل فستاني إلى ساقي على الأقل، هو لا يبالي.. ويستمر بتحريك فرشاته الباردة على جسدي.. أنا متعبة متخشبة منذ أيام، ولا أستطيع الصراخ.. كم أتمنى أن أخبره أن رائحته مقززة وأني أكرهه كثيرا.. كل هذا لن يحدث، فهو لم يرسم لي شفتين بعد!!"(١).

فالمبدعة تنقل لنا على لسان البطلة هذا البوح الوجداني (مونولوج)(٢) الذي تعبر

(١) شيمة الشمري منسية: ص ٢١.

(٢) المنولوج: حوار طويل تفضي به شخصية واحدة وليس موجها لأشخاص آخرين، وإذا كان الحوار غير منطوق ذي الصوت العالي للشخصية، فإنه يشكل مونولوجا داخليا وإذا كان منطوقا فإنه يشكل منولوجا خارجيا ومناجاة للنفس. انظر: جيرار برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢٠٠٣، ص ١٣٦.
ويعد الحوار الداخلي أهم التقنيات التي اعتمدت عليها الكاتبة في إبراز شخوصها وسماتهم الفكرية والاجتماعية، والتعمق داخل ذواتهم، والكشف عن دواخلها، وتعريف القارئ بأفكارهم الشخصية، وأحاسيسهم ومشاعرهم، وخاصة إذا كانت الشخصية متأزمة غامضة، وقد ناسب الحوار الداخلي شخصيات هذه المجموعة القصصية، وما تعانيه من ألم وقهر ووجع، فتلك الشخصيات بحاجة ماسة لمناجاة نفسها والبوح، والتعبير عما بداخلها تجاه قضية معينة، أو موقف معين، بجانب أن هذا البوح يجعل الشخصية تتأمل المواقف وتعيد تقييمها، وتحكم على نفسها سلبا أو إيجابا، وكل هذا يجعل القارئ يقترب من الشخصية، ويعرف دواخلها، ويعمق العلاقة بينهما، إلى أن يصل إلى الهدف المنشود من القصة.

فيه عن علاقة الرجل بالمرأة وترمز لفكرة التسلط الذي يمارسها الرجل على المرأة، ويحرمها من أبسط حق من حقوقها وهو الكلام، وخاصة إذا كان مع شخصية انهزامية ضعيفة كشخصية البطلة، فالقصة تومئ لفكرة التسلط بإخراس الأفواه وكبت الحريات والمنع من حق التعبير عن الآراء ولو بالكلام، وتعد هذه القصة قطعة من الحياة عبرت عنها الكاتبة، وهي فكرة اجتماع اثنين لا رابط بينهما ولا انسجام، فنتج عن ذلك الكره والبرود والجمود بينهما، وقد أحسنت الكاتبة وضع هذه القصة في لوحة، لتختزل من خلالها كثيرا من المعاني، لا يتسع لها بناء القصة القصيرة جدا، بالإضافة إلى المسكوت عما لا يجوز التعبير عنه، والاكتفاء بالتلميح، تعويلا على ذكاء القارئ، ونلاحظ أن الألم يشيع بين ثنايا الجُمل (رائحته مقززة– أنني أكرهه كثيرا– أنا متعبة– هو لا يبالي ...) إلى أن نصل لنهاية القصة ليعلو صوت القهر والاستبداد في السرد المشفر في (فهو لم يرسم لي شفتين بعد!!) وقد كثّفت المبدعة اللغة تكثيفًا متميزًا، فاستحالت القصة نصا صامتا تعطلت فيه دلالة القول ولغة الكلام، حيث دلّت تلك العبارة الموجزة على مدى قسوة هذا الرجل، وبشاعة سلوكه وقهره لها، واستحالة انعتاق المرأة من عبودية الرجل.

وهكذا نرى أن الكاتبة قد تعرضت لمشاكل المرأة وهمومها، وتوقفت عند المسكوت عنه بكل جرأة ووضوح لعلها تستطيع أن تعبر عما يختلج في نفسها من شعور المرأة بالظلم والضعف والاستكانة، التي تزداد كلما ازدادت تجاربها الحياتية مع البشر مبتدئةً بذاتها، ثم علاقتها بالآخر، ثم علاقتها بالعالم المحيط به، وقد عبرت عن ذلك بطريقة بها ألم ووجع ودهشة وسخرية أحيانا، فلا تكاد تخلو معظم قصصها من علامة التعجب، كما أن معظم قصص المجموعة تنتهي بعلامة تعجب، تدل على دهشتها واستنكارها وسخطها على ما يقدمه النص، ولعل هذه القضايا التي أثارتها تُصلح حالها وحال المرأة من حولها، وتنير عقلها وتبث روح المعرفة والوعي فيها.

كما يلحظ كيف أسهم الرمز والتشخيص في إبراز شعرية التشكيل اللغوي في القصة القصيرة جدًا وذلك "من خلال اللغة الموحية غير المباشرة، والمهارة في استخدام الرموز الموجودة في التراث الثقافي المشترك بين المبدع والمتلقي، وإضفاء الصفات الإنسانية على الحيوانات والجمادات والأشياء، فترتفع تبعًا لذلك نبرة الشعرية في الخطاب السردي المكثف"(١).

(١) د. أسامة البحيري: مقارنات في السرد العربي، ص ٢٠٨

المبحث الخامس: التصوير المشهدي (تقنية عين الكاميرا)

للسينما دور هام وكبير في نقل أشكال السرد من نص مقروء إلى مشهد مرئي، بواسطة وسيلة هامة (الكاميرا) وهي الأداة السردية الأولى في السينما وتعتمد على الصوت والصورة في نقل الأحداث والشخصيات بدقة عالية لا يستطيع السارد نفسه نقلها، وترى فيرجينيا وولف: "أن الروائي يريد أن ننظر لما يشيده من عالم موهوم من التعبير في سياق نص مسرود، أما في السينما فلا نملك سوى أن نوجه أبصارنا نحو الشاشة لنتابع سيلا من الصور المعروضة، إلى أن ينتهي الحكي أو العرض السينمائي، فالروائي يجتهد لتجسيد السرد المحكي إلى هيئة العرض، أما الفيلم السينمائي فإنه هيئة الحكي يجسدها العرض" [(١)]، وإذا كانت الكاميرا هي الوسيلة الوحيدة التي تعتمد عليها السينما في تحريك الصورة ونقل اللقطات والمشاهد مرورا بالمونتاج والإخراج لعرضه سينمائيا، فإن السارد يمتلك عينا تشبه عين الكاميرا السينمائية، تقوم بالتقاط الصور والمشاهد لنقلها للمتلقي وكأنه يراها.

فعين السارد تشبه عين الكاميرا، فكلاهما تقوم بنفس العمل، إلا أن عين السارد تزيد عن عين الكاميرا بأنها تمتلك زاوية نظر ورؤى خاصة، فالكاميرا مهما بلغت دقة نقلها لا تستطيع أن تدخل في الشخصية وتغوص في أعماقها، وأقصى ما تتمكن من عمله أن تنقل ملامح الشخصيات المعبرة عن حالاتهم النفسية، أما السارد فهو يخزن اللقطات ويتابع جزئيات الحدث مرورا بالتبئير والاسترجاع وغيرها من الأدوات لتكوين المشهد إلا أنه يضيف لعينه الناقلة الراصدة، رؤيته الخاصة وتفاعله ووعيه تجاه المشهد الذي ينقله –حقيقة كان أم خيالا– فلا يتوقف على صعيد المشهد الظاهري فقط– كما تفعل الكاميرا.

(١) انظر فاضل الأسود: السرد السينمائي، الهيئة المصرية للكتاب، ط١، ١٩٩٦ م، ص١٤٠.

والمعروف أن القصة القصيرة جدا كما عرفها جميل حمداوي . هي: "جنس أدبي حديث يمتاز بقِصر الحجم والإيحاء المكثف والنزعة القصصية الموجزة والمقصدية الرمزية المباشرة وغير المباشرة، فضلا عن خاصية التلميح والاقتضاب والتجريب والنفس الجُمليّ القصير الموسوم بالحركية والتوتر وتأزم المواقف والأحداث، بالإضافة إلى سمات الحذف والاختزال والإضمار، كما يتميز هذا الخطاب الفني الجديد بالتصوير البلاغي الذي يتجاوز السرد المباشر إلى ما هو بيانيّ ومجازيّ ضمن بلاغة الانزياح والخرق الجمالي" (١)، وهذا الجنس الأدبي بتلك السمات الفنية من تكثيف واختزال وإيجاز ...يتعارض ويتقاطع جزئيا – لا كليا – مع تقنية عين الكاميرا، حيث إنها تحتاج لمساحة من التعبير الكتابي لرصد الأحداث والمواقف، فهذه التقنية ربما تكون أكثر تواؤما مع الفنون السردية المطولة كالرواية والقصص المطولة.

ورغم هذه الحدود التي تفرضها القصة القصيرة جدا على مبدعيها أثناء الكتابة، فإن القاصة استطاعت أن توسع من النطاق اللفظي الضيق والبناء المكتنز لهذا الجنس السردي، من خلال تقنية عين الكاميرا، فكانت هذه التقنية من أهم وأبرز التقنيات التي اعتمدت عليها القاصة في مجموعتها القصصية، بالإضافة إلى أن هذا يعد تحديا كتابيا منها، فهو من المآثر الجمالية في هذه المجموعة، ويحسب لها هذا التحدي، كما سنتبين من خلال تحليلنا لنماذج مختارة.

وقد اعتمدت الكاتبة في هذه المجموعة القصصية على كاميرا السرد، لتصور لنا عبر قصصها مشاهد متقطعة من حياة بطلتها (الأنثى) ليقرأها المتلقي وكأنه يراها.

وقد تبدو مشاهد هذه المجموعة القصصية، مبتورة لا رابط يربطها أو يصلها، بينما من يدقق النظر يجد أنها متماسكة مترابطة متراصة، وكأنها تتجمع وتتجاور وتتكامل

(١) جميل حمداوي: القصة القصيرة جدا جنس أدبي جديد، مجلة ندوة الإلكترونية للشعر المترجم، https://www.arabicnadwah.com/articles/veryshortstory-hamadaoui.htm

مكونة ما يشبه الرواية السردية، ويلاحظ تأثر الكاتبة في هذه المجموعة القصصية بحالة الفقد، التي تهيمن على ذهنها، فنجد صورة الفقد لفظا أو تلميحا طوال المسار السردي لمشاهد غالبية قصص المجموعة منذ القصة الاستهلالية للمجموعة حتى نهايتها، وكأنها لقطات سينمائية مجمعة لرصد هذه الظاهرة في كل لقطة.

ويتمثل هذا الفقد في فقد الأشخاص (الحبيب – الجدة – الابنة – الجنود) وغيرهم، وفقد الحيوانات (العصفور)، وقد يكون الفقد لأعضاء جسم الإنسان (العين، القلب) أو أجزاء في النباتات، وأحيانا يظهر الفقد فقدا معنويا كفقد الذات وفقد الهوية والحرية والشخصية، وفقدان الثقة بالآخرين، وفقدان بعض المشاعر وغيابها... ولاسيما أن فكرة المجموعة بأكملها تعبر عن فقد الذكريات ونسيانها.

وترى الباحثة أن أغلب قصص المجموعة عمدت فيها الكاتبة إلى غزلها ومزجها في نسيج واحد بحكمة وإحكام وحبكة عنقودية مكونة مشهدا يشبه المشاهد الروائية.

فقد ظهرت مشاهد فقد الأشخاص في القصص: (صاحب الوحمة الغامقة – قبل أن – مصير – ثقب – لا تنم) أما فقد الحيوانات فتجلى في قصة (ريشة – ثقب) ويظهر فقد أعضاء الإنسان في قصة (تملك – عين – مغارة) وكذلك الفقد في عالم النبات يظهر في قصة (صرخات روح – باقة حب) أما فقد الذات وضياعها فيبدو بوضوح في قصص كثيرة منها: (شامة – منسية – هذيان ...) كذلك ظهر الفقد المعنوي كفقد الحرية والثقة بالآخرين وفقد مشاعر الفرح الدفء والأمان والحب وغيرها في عدة قصص منها (ابتسامات غائبة – لوحة – بطل – نقش– دوائر – حكاية من زمن الجدات، معادن ...) وسوف أقوم خلال السطور التالية برصد عدد من اللقطات التي رصدتها عين الساردة، ولا يسعني ذكرها جميعا، وإنما سأذكر بعضا منها.

فتتوجه كاميرا السرد نحو الفقد على مجموعة مشاهد، فتشير الكاتبة في قصة "صاحب الوحمة الغامقة" إلى ملفوظ (الفقد) في لقطة بارعة: "ويكمل أنا لا

أفقدهن.. كان الجميع يضحك بعد سماعه، ثم ينصرفون من حوله.. من حين لآخر يفقد أهل البلدة شابة جميلة دون أثر.." (١)، ويرتبط الفقد هنا بالتملك حيث إن بطل القصة صاحب الوحمة الغامقة التي تتوسط صدره، التي يتخذها بوابة تعبر منها حبيباته كما يدعي، ليجدن أنفسهن حبيسات داخل غرفة صدره، ويعلو المشهد المخادعة والمخاتلة من بطل القصة لهؤلاء الفتيات الجميلات لاقتناصهن وتملكهن، وبراعته في اخفاء آثرهن عن الجميع.

ويظهر الفقد في قصة "مصير" (٢) مهيمنا على المشهد السردي: عندما هاجمنا الوباء خفت على صغيرتي.. حملتها وزرعتها في لوحة بإطار وردي على الحائط..." فهذه اللقطة المؤثرة تبين فقدا خفيا فرغم وجود صغيرتها في قلب اللوحة كما تصفها الساردة إلا أن حضورها زائف فهي ليس لها حضور ملموس، وكأنها أصبحت مجرد صور عالقة في قلب اللوحة.

ونجد الفقد بوضوح في لقطة مؤثرة في "ثقب" تبدو فيها شخصية الساردة ممزقة يهيمن عليها اليأس والضعف، فتضع المتلقي في بؤرة المشهد فتقول: "لقد فقدتك.. وها أنا أعيش بثقب كبير في قلبي.. كلما تنفست صرخت، وطارت العصافير التي تسكنه!" (٣) وقد زاد الأمر تصعيدا، في مشهد فقدٍ آخر متمثل في اللحظة التي رصدتها عين الساردة لمشهد تطاير العصافير.

وتستهل القاصة مشهد قصة (ريشة) بلقطة سردية تمور بمرارة الفقد فتقول على لسان بطلة القصة: "مات عصفوري الصغير.. قالت لي أمي: لقد صعد إلى

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٧.

(٢) شيمة الشمري: منسية: ص ٢٧.

(٣) شيمة الشمري: منسية: ص ٣٣.

السماء.." [١] فهذه اللقطة المؤلمة عميق أثرها على طفلة صغيرة لا تعي معنى الموت والفقد والفراق! وتحاول أمها أن تهدئ من روعها كما تفعل كثير من الأمهات حين تحاول إيصال فكرة الموت لصغارها، وعدم تمكنهم من رؤية موتاهم مرة أخرى.

وتواصل القاصة رصد مشاهد الفقد في أعين أبطال قصصها؛ ففي قصة (عين) نجدها تعبر عن غياب الفرح بفقدان عينها؛ فترصد عدسة عيني الساردة اللقطة البائسة: "فرحتي لم تكتمل بزراعة عين لي – عوضا عن عيني المعطوبة إثر حادث شنيع – فعيني الجديدة لا تشاركني أحزاني، فما زلت أبكي بعين واحدة" [٢]، وقد تكرر مشهد فقد العين في غلاف المجموعة، لتبرز صورة المرأة في الشكل التجريدي بدون عين –وسبقت الإشارة إلى ذلك–، كذلك كررت نفس اللقطة في قصة مغارة: "الحرب لم تقتلني، لكنها سرقت عيني اليسرى.. أنا بعين واحدة" [٣].

ولا يفوت عين الساردة نقل مشاعر الفقد في قصة "صرخة روح" في مشهد خيالي قريب من الفانتازيا، حين تصف حزن الأشجار وصراخها على أجزائها المبتورة، في حالة من الضجر والتمرد بعد أن قامت الساردة بقص بعض أغصانها: "في المساء وفي وقت متأخر توقظني صرخات مفزعة.. كانت الأشجار تطرق نافذتي مطالبة بأجزائها المبتورة!!" [٤].

ويتبلور مشهد الفقد في قصة "هذيان" وتسعى كاميرا السرد إلى التقاط ذيول أخرى لهذا الشعور، وتحاول القاصة أخذ لقطات متعددة مختلفة الزوايا لتكمل صورتها

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ١٥.
(٢) شيمة الشمري: منسية: ص ٢٥.
(٣) شيمة الشمري: منسية: ص ٥٩.
(٤) شيمة الشمري: منسية: ص ٤١.

في المشهد الخاصّ والمشهد العام للسرد، فتعبر الساردة عن شعور فقد الذات: "كنت أسير في الطرقات، كتائه بلا ملامح.. أبحث عن شيء ما.. لا أدري ما هو الآن.. لقد نسيته كما نسيت ملامحي على سطح وسادتي هذا الصباح!" (١)، والمشهد يعبر عن قمة الحزن والألم والضياع؛ فليس هناك شيء أقسى من فقد الإنسان لذاته! حين يشعر الإنسان بأنه يعيش بلا هوية متخبط ضائع يهيم على وجهه في طرقات الحياة بلا هدف أو طموح، وقد أنهت القاصة مشهدها السردي بلقطة بارعة تومئ بتلاشي الذات وضياعها حتى إنها نسيت ملامحها!!

وهكذا توالت اللقطات المرصودة بعين الساردة لمشهد الفقد من زويا متعددة ومختلفة، مكونة مشهدا كاملا متعدد اللقطات يشبه المشاهد السينمائية.

هذه هي لقطات متفرقة من عدة قصص لمشهد الفقد، وتظهر براعة الكاتبة أيضا في استخدام تقنية عين الكاميرا في قصص بأكملها تزدحم باللقطات المتتالية، فالساردة في قصة (نقش) ترصد عينها من قلب الحدث عدة لقطات تقول: "يمسك بي جيدا، ويستمر بحفر رأسي، صرخاتي وآلامي لا تسمع! يستمر بالطرق والحفر وتستمر أوجاعي.. ينتهي.. يتأملني بفرح وإعجاب محدثا نفسه: سيكون هذا أعظم نقش في معرضي المقبل! وأبقى أنا الحجر الأصم الذي لا حيلة له" (٢)؛ فقد وظفت الكاتبة الصورة البصرية في خدمة الصورة السردية منذ بداية النص؛ فبدأت بلقطة شاملة خاطفة للحدث دون تفصيل: "يمسك بي جيدا، ويستمر بحفر رأسي" وهنا يظهر المشهد في مخيلة القارئ لفنان تشكيلي ينقش تمثالا، ثم تقوم الساردة بعمل حركة تشبه حركة (زوم الكاميرا) للمشهد، وتبدأ بتفصيل أحداثه للمتلقي، فتضيق اللقطة تدريجيا فتقول: "صرخاتي وآلامي لا تسمع.." لتعبر عن معاناة المرأة المريرة مع

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٦٩.

(٢) شيمة الشمري: منسية: ص ٣٩.

تسلط الرجل، وتبدو البطلة أسيرة لتلك السلطة الذكورية.

وتبدأ عملية المونتاج بقطع لقطات من المشهد متمثلة في مراحل عمل هذا التمثال، ثم تنهي الساردة المشهد الأول بلقطة سريعة مُبأرة على البطل (الرجل) لتعلن نهاية المشهد بكلمة واحدة: "ينتهي..".

بعدها ترصد عدسة الساردة مشهدا آخر تصور فيه دناءة شخصية الرجل، مشكلا تفسيرا سيكولوجيا لشخصية البطل المتسلط المتحكم المتغطرس الأناني: "يتأملني بفرح وإعجاب محدثا نفسه: سيكون هذا أعظم نقش في معرضي المقبل!".

ثم تعود عينا الساردة للبطلة مرة أخرى وترصد رد فعلها تجاه ما فعله البطل بها، بعد أن أحالها تمثالا، ويسيطر على المشهد الصمت والسكون والذهول واللامبالة، وتنهي حركة الكاميرا الراصدة المشهد بلقطة تبرز الالتباس الحادث بين الخارج الصامت والداخل الصاخب في شخصية البطلة فتقول: "وأبقى أنا الحجر الأصم الذي لا حيلة له..".

وتتحفز كاميرا القاصة المزودة بطاقات سردية كثيرة؛ لتصوير لقطات متتالية تتداخل فيه الشخصيات وتتحرك باتجاه استكمال صورة المشهد ومضمونه في قصة "حكاية من زمن الجدات": "تحكي لي جدتي التسعينية عمرا مضى، تقول: لم أكن أعلم أن تلك (الدِّيَنَّا) التي تقف عند باب (حوشنا) محملة بالقماش والمعيشة، وحقيبة ذهب من أجلي! (جهازُك) وصل، هكذا قالوا.. انتزعوني بعدها من حضن أمي إلى بيتهم الكبير! بداية لم أستوعب الأمر.. ظننته عقابا لي؛ لأني لم أتقن طهي الطعام، أو لأني تراخيت في التنظيف والكنس! ثم فجأة تبتسم بتجاعيدها المحببة، عندما تذكر ابن الجيران الذي يحضر مع أمه لزيارتهم كل فترة، الذي صُدم بزواجها، كما صُدمت،

حتى أنه استفرغ كاسة الشاي عندما علم أنها من عطايا زواجها!" [1] فقد بدأت عدسة الكاميرا بتصوير شخصية الجدة وهي جالسة مع حفيدتها لتصور لها لقطات متشبثة في جدار ذاكرتها في لقطة مؤثرة تعبر عن عدم علمها بزواجها، وتحرك الجدة عين الكاميرا؛ لتصور مشهد أهلها وهم يضعونها أمام الأمر الواقع وأنه لا حيلة للفرار من الزواج: "جهازك وصل، هكذا قالوا.." ، ويعود السرد مرة أخرى ليلتقط مشهد حالة هذه الطفلة البريئة المذعورة (الجدة) التي لا تعرف عن مفهوم الزواج شيئا وينتزعونها بقسوة من حضن أمها، وتنتقل إلى بيت الزوجية الكبير على حد وصفها مقارنة بحجمها وعمرها، فتنفذ أوامر الأهل بكل خضوع دون حراك أو جدال، فهي لا تستطيع كسر القواعد أو مخالفة الأوامر؛ لأن هذا يعد نوعا من التمرد على الأغلال التي تطوق عنقها، وتسيطر عليها قناعاتها أن هذا مجرد عقاب لها، وما إن ينتهي هذا العقاب ستعود مرة أخرى لحضن أمها، ولا ينتهي المشهد قبل أن ترصد كاميرا السرد تصوير مشهد مختزل في ذاكرة الجدة لابن الجيران، وما اعتراه من دهشة وصدمة كما اعتراها، عندما علم بزواجها، لدرجة أنه استفرغ كاسة الشاي.

- ومما يلفت الانتباه في هذه القصة أن الكاتبة مسكونة بلغة مجتمعها وبيئتها فنراها تذكر (الدينا – حوشنا – كاسة)، وتستدعي المخزون التراثي من عصر الجدة لتلبسه ثوب الزمن الحاضر، وهذا دليل على تأثر الكاتبة بالبيئة والموروث الشعبي والتغيرات الاجتماعية، وقد منح ذلك فضاء دلاليا واسعا وبعدا وطنيا عميقا للنص، كما أنه يدل على قدرة الكاتبة على تنويع لغتها السردية، بما يتساوق مع الموقف والأحداث.

وربما كان زواج الكاتبة المبكر، هو الباعث على تصوير مشاهد هذه القصة؛

(١) شيمة الشمري: منسية: ص ٥١.

فقد صرحت بذلك خلال حديثها عن بدايات كتاباتها: "لم أسطع حتى اليوم تحديد سر اندفاعي نحو القلم، هل كان زواجي المبكر، وانتقالي من حياة إلى حياة أخرى مختلفة هو السبب... ربما كان لذلك أثرٌ في انكبابي على القراءة والانفراد بالذات، تعويضا عن قرب الأهل وزحام المدينة ووسائل الترفيه هناك، وهو انفراد فرضته علي هذه الحياة الجديدة التي لم أجد فيها سوى القراءة منفذا أمام عدم وجود منافذ أخرى"(١).

وبهذا يتضح لنا كيف أتقنت الكاتبة استخدام هذه التقنية السردية؛ لإضفاء ملمح جمالي على مجموعتها القصصية.

(١) شيمة الشمري: حكايتي من القصة القصيرة، الجوبة، مركز عبد الرحمن السديري الثقافي، ع ٣٩، ٢٠١٣ ص ٣٦.

الخاتمـــة

حاول هذا البحث استجلاء بعض الملامح الجمالية والتقنيات السردية، وفق منظور المقاربة السيميائية، وخلصت إلى نتائج أبرزها مايلي:

- توضّح قراءة العتبات أن غلاف المجموعة القصصية جاء تعبيراً عن حساسية موضوعات تلك القصص، إذ هي موضوعات شائكة ليس من السهل ولوجها فضلا عن الحديث عنها، فتحتاج إلى كثير من الحذر والتلطف حتى لا يقع من يتصدر لها في الخطأ أو المحاسبة، من ثم كانت القصص مجموعة من الانتقادات الاجتماعية، التي اتخذت أشكالا متعددة وأقنعة مختلفة؛ مما فتح فضاءات التأويل أمام القارئ، وجعل في كل قراءة قصدية مختلفة، تقبع خلف رموز واضحة، أو ما كان منها موغلا في الرمز صعب المأخذ يحمل دلالات مختلفة لا تنتهي فضاءاتها النفسية والوجدانية، فزئبقية الأسلوب تجذب القارئ للتكهن، وتشده للتأويل والتفسير في أكثر من وجه.
- هناك ترابط قوي بين المجموعة القصصية بداية من العنوان الرئيس، والغلاف الخارجي والعناوين الداخلية، وقد عكست كل هذه الأشياء ما تحتويه القصص من مضمون.
- جمعت القصة القصيرة جدًا عند الكاتبة بين خاصيتي الاختزال والتركيز، حيث شملت أكبر عدد ممكن من الأحداث والجمل في رقعة طبوغرافية محددة، ومساحة فضائية قصيرة جدًا، ولم يكن التكثيف فيها على مستوى تجميع الجمل والكلمات فحسب؛ بل ظهر كذلك على المستوى الدلالي الذي مكّن من وجود تأويلات عدة، وقراءات ممكنة ومفتوحة، وظهر في تقنية التكثيف عدم الإخلال بالرؤى أو الشخصيات، مما أظهر مهارته بجلاء.
- وظفت الكاتبة في نصها الأجناسي الجديد المجاز بكل أنواعه الاستعارية

والرمزية القائمة على الإغراب والإدهاش والومضات الموحية بألفاظ إنشائية أو واقعية تتطلب تأويلات دلالية عدة لزئبقيتها وكثافتها التصويرية بالأنسنة والتشخيص والتجسيد والحذف والانزياح والتخييل التي توحي بمكنونات دلالية كما نراه في مشاهد متنوعة.

- تميزت الومضات القصصية لهذه المجموعة بالإيجاز والاختصار والاتكاء على الإضمار والحذف من أجل تنشيط ذاكرة المتلقي واستحضار خياله ومخيلته.
- اهتمت الكاتبة بهموم المرأة وصراعها مع الرجل في هذه المجموعة القصصية لرصد هذه الشؤون الإنسانية والمشاعر الموارة بكل أبعادها، وقد أحكمت قبضتها على آلياتها السردية وأدواتها الفنية ببراعة وحذق، وجاءت قصص المجموعة كنوع من أنواع توعية المرأة.
- تميز أسلوب الكاتبة باللغة البسيطة السهلة لتقيم جسرا بينها وبين المتلقي، وتصل إلى روحه وتمتعه، بدلا من أن تقف الكلمات الصعبة عند أذنه فتقلقه، لذا آثرت أن تخاطبه بلغة أكثر سهولة، رغم ما تحمله هذه الكلمات البسيطة من دلالات عميقة، ولم تدخل الكاتبة العامية في قصصها.
- اعتمدت الكاتبة على السارد الشخصية، أو (أنا المشاركة) في معظم قصصها، ويعد هذا جرأة من الكاتبة، فتقمصها لدور البطلة هو مكاشفة وكشف عن المستور، وقد أدى ذلك إلى منح القصص الحيوية ودفع الملل عن المتلقي.
- معظم الذكريات التي استرجعتها الكاتبة عن طريق بطلاتها، ذكريات مؤلمة بائسة، راسخة أشلائها في ركام الذاكرة، فاسترجعت (الفراق – والفقد – والخوف – والوداع ...)
- اعتمدت الكاتبة في أغلب قصصها على المنولوج أكثر من الديالوج، ولاءم ذلك فكرة المجموعة والاسترجاع الذاكراتي؛ فشخصيات القصص بحاجة إلى

مناجاة النفس وتأمل الموقف وإعادة تقييمه، والحكم عليه سلبا أو إيجابا، وكل ذلك يقرب المتلقي من الشخصية، ويجعله يغوص في أعماق النص وصولا إلى الهدف المنشود.

- اعتمدت الكاتبة في هذه المجموعة القصصية على تقنية عين الكاميرا؛ لتصور لنا عبر قصصها مشاهد متقطعة من حياة بطلتها (الأنثى)؛ ليقرأها المتلقي وكأنه يراها، ويعد هذا تحديا كبيرا من الكاتبة؛ لقدرتها على توسيع النطاق اللفظي الضيق والبناء المكتنز لهذا الجنس السردي، من خلال تقنية الكاميرا.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

شيمة الشمري: منسية، شركة تكوين للطباعة والنشر واالتوزيع، جدة، ط١، ٢٠٢١م.

ثانيا: المراجع

أحمد جاسم الحسين، القصة القصيرة جدّا: دار التكوين، دمشق، ٢٠١٠م.

أسامة البحيري: مقارنات في السرد العربي، نادي الباحة الأدبي، ط١، ٢٠١٢م.

آمنة يوسف: تقنيات السرد (في النظرية والتطبيق) دار الحوار، سوريا ط١، ١٩٩٧م.

جيرار برنس: المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢٠٠٣.

جميل حمداوي: القصة القصيرة جداً: أركانها وشروطها، دار نشر المعرفة، الرباط، ط: ١، ٢٠١٣م.

جميل حمداوي: القصة القصيرة جدا جنس أدبي جديد، مجلة ندوة الإلكترونية للشعر المترجم، https://www.arabicnadwah.com/articles/veryshortstory-hamadaoui.htm

حسام ياغي: الألوان ودلالاتها في الفن التشكيلي: كي نفهم اللوحة، دمشق ٢٠٢٢م. https://www.syria.tv/175691

حمد الهادي المطوي، فن التعالي النصي والمتعاليات النصية، المجلة العربية للثقافة، تونس، ع٣٢، ١٩٩٧م، ص ٩٥.

حمود بن خلف الدغيشي: سيميائية العنوان "الأشجار لا تفارق مواطنها الأولى" لـ سماء عيسى، مجلة كلية دار العلوم، القاهرة، ٢٠١٧، ع ١٠٢، ص ٧٢٩.

دنيال تشاندلر: أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية،

بيروت، ط١ ٢٠٠٨.

روبرت دي بو جراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

رينيه ويلك، مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، سلسة عالم المعرفة، الكويت، ط ١، ١٩٨٧ م.

السرد المكتنز، سلسلة كتابات نقدية، هيئة قصور الثقافة، ط١، ٢٠٠٢م.

سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: ١، ١٩٨٥م.

شيمة الشمري: حكايتي من القصة القصيرة، الجوبة، مركز عبد الرحمن السديري الثقافي، ع ٣٩، ٢٠١٣م.

صديقة معمر: شعرية الألوان في النص الجزائري المعاصر فترة (١٩٨٨-٢٠٠٧م) رسالة ماجستير، جامعة منتوري – قسنطينة:٢٠١٠م.

طاهر مصطفى علي، نور فاضل بكر: الاسترجاع الذاكراتي في مجموعة بخور للقاصة ابتسام عبد الله، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، العدد ٩٨ المجلد ١، ٢٠٢٣ م.

عبد الله رضوان: البنى السردية دراسة تطبيقية في القصة القصيرة الأردنية، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين، ط١، ١٩٩٥م.

فاضل الأسود: السرد السينمائي، الهيئة المصرية للكتاب، ط١، ١٩٩٦ م.

فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، الدار العبية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف. ط١ ٢٠١٠.

شيمة الشمري https://ar.wikipedia.org

Bibliography

Sourc:

Shaima Al-Shammari. Forgotten, (in Arabic), 1st edition, Jeddah, Takween Printing, Publishing and Distribution Company, 2021.

References

Ahmad Jasim Al-Husain, The Very Short Story, (in Arabic), Damascus: Dar Al-Takween, 2010.

Osama Al-Buhairi. Comparisons in Arabic Narrative, (in Arabic), 1st edition, Al-Baha Literary Club, 2012.

Amna Yousouf. Narrative Techniques (in Theory and Practice), (in Arabic), 1st ed., Syria: Dar Al-Hiwar, 1997.

Gerard Prince: The Narrative Term (in Arabic), translated by: Abed Khazandar, 1st edition, Cairo, Supreme Council of Culture, 2003.

Jamil Hamdawi. The Very Short Story: Its Pillars and Conditions (in Arabic), 1st edition, Rabat, Knowledge Publishing House, 2013.

Jamil Hamdawi: The very short story is a new literary genre, Nadwa Electronic Magazine for Translated Poetry, (in Arabic) https://www.arabicnadwah.com/articles/veryshortstory-hamadaoui.htm

Husām Yaghi. Colors and their connotations in plastic art: in order to understand the painting (in Arabic), Damascus 2022. https://www.syria.tv/175691

Hamad Al-Hadi Al-Matwi, The Art of Textual Transcendence and Textual Transcendences (in Arabic), Arab Journal of Culture, Tunisia, iss. 32, 1997 AD, p. 95.

Hamoud bin Khalaf Al-Daghishi. The semiotics of the title "Trees Do Not Leave Their First Places" by Samaa Issa (in Arabic), Dār Al-Ulum College Journal, Cairo, 2017, iss. 102, p. 729.

Daniel Chandler. Foundations of Semiotics, translated by Talal Wahba, 1st edition, Beirut, Center for Arab Unity Studies, 2008.

Robert de Beaugrand, Text, Discourse, and Procedure, translated by: Tammam Hassan, 1st edition, Cairo World of Books, 1998.

René Wilke, Critical Concepts, translated by: Muhammad Asfour, 1st edition, Kuwait, World of Knowledge series, 1987.

The Compact Narrative, Critical Writings Series, 1st edition, Culture Palaces Authority, 2002.

Saʿeed Alloush. Dictionary of Contemporary Literary Terms (Presentation, and Translation), 1st edition, Beirut, Dār Al-Kitab

Al-Lubani, 1985.
Shaima Al-Shammari. My Story from the Short Story (in Arabic), Al-Jawba, Abdul Rahman Al-Sudairi Cultural Center, iss. 39, 2013.
Siddiqa Muammar. The Poetics of Colors in Contemporary Algerian Text, Period (1988-2007), Master's Thesis, Mentouri University - Constantine: 2010.
Tahir Mustafa Ali, Nour Fadel Bakr. Memory retrieval in Bakhour Collection by the storyteller Ibtisam Abdullah (in Arabic), Diyala Journal for Human Research, Issue 98, Volume 1, 2023.
Abdullah Radwan. Narrative Structures, an Applied Study in the Jordanian Short Story (in Arabic), 1st edition, Publications of the Jordanian Writers Association, 1995.
Fadil Al-Aswad. Cinematic Narrative (in Arabic), 1st edition, Egyptian Book Authority, 1996.
Faisal Al-Ahmar. Dictionary of Semiotics (in Arabic), 1st edition, Dar Al-Abiyah Al-Ulum Publishers, Al-Ikhtifa Publications, 2010.
https://ar.wikipedia.org/ Shaima Al-Shammari.

سيميائية العنوان المركب في رواية
(أرق النّار وقلق الماء "حكاية مْرا ونصف" لصالح بن رمضان)

The Semiotic of the Compound Title in the Novel "Fire Insomnia and Water Anxiety, Story of a Woman and Half" by Saleh bin Ramadan

د. عائشة بنت دالش بن حامد العنزي

أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

البريد الإلكتروني: adalonizy@pnu.edu.sa

المستخلص

يندرج هذا البحث ضمن البحوث المعنية بتأويل العتبات النصية تأويلا سيميائيا، ويُعنى بدراسة ظاهرة ثنائية العنوان أو العنوان المركب في رواية "أرق النار وقلق الماء – حكاية مرا ونصف" لصالح بن رمضان، ويبحث في العلاقة بين العنوانين من حيث الافتراق والاتفاق ومن حيث الدلالة السيميائية لهذا النوع من العنونة، ودوره في صنع الوعي بالخطاب المنتج، وبناء أفق انتظار يلائم هذه الثنائية الدلالية، ويستوعب هذا النوع من السرد. وينظر البحث إلى العلاقة الدلالية بين العنوان وبقية العتبات، وطرائق تشكل دلالاته الخاصة والعامة في النص ضمن أنساق انزياحية وثقافية امتدت من العنوان إلى النص كاملا.

وخلص البحث إلى مجموعة من النتائج، أهمها: إنّ هذا النوع من العنونة يخاطب متلقيين يشمل أحدهما الآخر ويفترق عنه في الوقت ذاته، ويخضع – بهذه الهيئة- للسياق الميتالغوي، ويوظّف التشكل البصري للغلاف والجمل الثقافية لصنع الدلالات السيميائية التي تتغلغل في النص الروائي، وتشكّل البناء السردي.

الكلمات المفتاحية: ثنائية العنوان -سيميائية العنوان –صالح بن رمضان- الرواية العربية-أرق النار- قلق الماء.

Abstract

This research falls within the research concerned with interpreting textual thresholds semiotically, and is concerned with studying the phenomenon of the dual title or the compound title in the novel "The Insomnia of Fire and the Anxiety of Water - Story of a Woman and Half" by Saleh Ben Ramadan. It examines the relationship between the two titles in terms of difference and agreement and in terms of the semiotic significance of this type of title, and its role in creating awareness of the productive discourse, and establishing spatial structure that fits this semantic duality and accommodates this type of narrative. The research looks at the semantic relationship between the title and the rest of the thresholds, and the ways in which its specific and general connotations are formed in the text within shifting and cultural patterns that extend from the title to the entire text.

The research yielded several findings, the most important of which are: this type of title addresses two recipients; one of which includes the other, and disagrees with the other at the same time, and is subject - in this form - to the metalinguistic context, and the visual form of the cover and cultural sentences are used to create the semiotic connotations that permeate the narrative text and form the narrative structure.

Keywords: dual meanings, title semiotics, Saleh Ramadan, Arabic novel, Fire insomnia, Water Anxiety.

المقدمة

يحمل العنوان هُوية المنجَز ويختزل الكثير من دلالاته وأنساقه، ويقف على ناصية معانيه المضمر منها والمصرح بها. والاهتمام بالعنوان والوقوف عنده، هو محاولة لسبر أغوار النص وفهم فضائه، وفي الدراسات الأدبية أخذ العنوان ودراسته الحيز الأكبر من دراسة العتبات، وهذه الدراسة تنحو النحو نفسه وتهتم بدراسة ثنائية العنوان في العمل الواحد. فمن المعلوم أن الكثير من المؤلفات تكتفي بعنوان واحد، والقليل منها- مقارنة بالأولى- تهتم بوضع عنوانين للعمل وهذا النوع من الاختيار لا يأتي اعتباطا، بل يخضع لمقصدية مؤلفه وغاياته المتعددة التي تخضع بدورها لسياقات كثيرة ومختلفة، ولعل وجود هذا النوع من العنونة شائع في الدراسات والبحوث العلمية؛ لاعتبارات كثيرة أهمها تخصيص الدراسة بزمان أو مكان أو فئة أو غيرها.

ورواية أرق النار وقلق الماء أحد الأعمال الروائية التي اختار لها مؤلفها وضع عنوانين امتاز الرئيس بالشعرية والانزياح، وبُنى الثاني على مفهوم مرجعي ثقافي قيمي. واختيار هذا النوع من العنونة، أوجد بعض الأسئلة التي يسعى هذا البحث إلى الإجابة عنها.

١- لماذا اختار المؤلف العنوان المركب ليكون دالا على روايته، وهل لهذا النسق ارتباط بالهوية الأكاديمية للروائي؟

٢- ما العلاقة بين مكوني العنوان؟

٣- ما علاقة العنوان- على هذه الهيئة- ببقية عتبات النص؟

٤-ماهي طرائق امتداد العنوان المركب في فضاء النص وأهم امتداداته السيميائية؟

أهمية الموضوع: أثبتت الكثير من الدراسات المعنية بدراسة العتبات أو

النصوص الموازية، أن للعنوان دورًا كبيرًا في إنتاج الدلالة وتوجيه قراءة الخطاب الأدبي، وفق المناهج المختلفة، ولكن ثنائية العنوان بوجه خاص لم تلق اهتماما خاصا – حسب علمي–، ولم تنفرد بدراسة خاصة بها في الرواية العربية، وإنما كان الالتفات إليها ضمن دراسة العنوان بعامة. ودراسة هذا الموضوع وفهم دلالته بعيدا عن ميدان الدراسات والبحوث التي يقبل فيها هذا النوع من العنونة– البحوث العلمية–؛ سيضيف نتائج ذات بال في هذا الميدان، وسيكشف العلاقة بين المكونين، على الرغم من اختلاف مساري العنوان بين التخييلي والمرجعي والفصيح والعامي، ثم سيُظهر طرائق مثول هذا العنوان–بشقيه– في متن النص، وأثره في صنع الأحداث ووصفها.

أهداف البحث: يسعى البحث لإظهار خصائص العنوان المركب في رواية أرق النار وقلق الماء؛ ويُعنى بأنساقه السيميائية، وأثره في إنتاج الدلالة الخطابية وعلاقته بفضاء الرواية والعتبات الأخرى، ويعنى بعلاقته الامتدادية مع المتنِ.

الدراسات السابقة: حسب علمي لم تدرس ثنائية العنوان أو العنوان المركب في هذه الرواية وبحثت عن دراسات مستقلة في هذا المجال ولم أحصل على نتائج، إلا إشارة د.أحمد الودرني في تقديمه للرواية؛إذ تحدث عن التفسير الفلسفي والأسطوري وبخاصة عند غاستون باشلار في تفسيره لشعر نوفاليس[١] وأسماها بـ: بعقدة نوفاليس جامعا بين أصل النار وإحدى الشهوات الفطرية للبشر.

وفيما يخص الرواية فقد درست في بحث منشور بعنوان: التقاطب المكاني

(١) صالح بن رمضان، "أرق النّار وقلق الماء (حْكاية مْرا ونصف)"، (ط١، الدار المتوسطية للنشر، تونس،٢٠١٦)، ص٥.

وحركة المعنى في رواية أرق النار وقلق الماء[١]، وهو يهتم بالتقاطب المكاني، ولا يتقاطع مع هذا البحث، ومقال آخر بعنوان: قراءة في رواية (أرق النار وقلق الماء)[٢]، لم تتعرض الكاتبة لعنوان الرواية إلا من حيث التناقض بين الماء والنار في إشارة سريعة في خاتمة المقال.

منهج البحث: اتجه البحث للكشف عن دلالات العنوان بجزئيه (الرئيس-الفرعي)، وفق المنهج السيميائي مستعينا -في مواضع منه -بالجمل الثقافية؛ لاستخراج العلامات السيميائية وبخاصة في العنوان الفرعي.

خطة البحث: بنيت الدراسة على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وثبت بالمصادر والمراجع.

التعريف بالمؤلف: الأستاذ الدكتور: صالح بن الهادي بن محمد بن رمضان، أستاذ الدراسات العليا في جامعة منوبة بتونس، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية له الكثير من البحوث والمؤلفات والمقالات العلمية، أشرف وناقش الكثير من الرسائل العلمية في الجامعتين، وغيرهما. عمل أستاذا زائرا في الجامعة الإسلامية. صدرت له أربع روايات[٣].

وقد احتوت المقدمة على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، ومنهج

(١) للباحثة الريم الفواز نشر في مجلة عجمان للدراسات والبحوث، مج ٢٠ ع١، ٢٠٢١م.
(٢) للباحثة أروى الحكمي نشر في مجلة قوافل، النادي الأدبي بالرياض، ع٣٥، ٢٠١٧م.
(٣) استفدت في هذه الترجمة ممّا هو معروف عن الدكتور، و: أروى أحمد الحكمي، الوصف في رواية (أم الحسن) لصالح رمضان، (دراسة إنشائية)، رسالة الماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إشراف: د. محمد القسومي، ١٤٣٩، ص٧.

البحث وهيكل الدراسة.

ويهتم التمهيد بكشف علاقة العنوان ببعض العتبات الأخرى وهي: الغلاف والإهداء والنص المقتبس من الرواية على الغلاف الأخير، والتقديم الذي اهتم بدلالات العنوان الرئيس وفق المفاهيم الفلسفية، وتم تقسيم المباحث إلى:

المبحث الأول: الدلالات السيميائية للعنوان الرئيس.

المبحث الثاني: امتداد العنوان الرئيس في متن الرواية.

المبحث الثالث: الدلالات السيميائية للعنوان الفرعي.

الخاتمة

ثبت المصادر والمراجع

التمهيد

العنوان هو أحد العتبات النصية أو النصوص الموازية، وهو "جزء لا يتجزأ من استراتيجية الكتابة لدى النّاص لاصطياد القارئ وإشراكه في لعبة القراءة"(١)، وقد حظيت هذه البنى النصية باهتمام الدارسين وعنايتهم، فهي مفاتيح المتن وموجهات قراءته؛ حيث تمنح المتلقي بعض دلالات النص وآليات ولوجه، وبها يستدل على ما يكتنزه من قيم شعرية وجمالية، وثقافية، ورمزية. وهذا ما جعل الباحثة، وهي تدرس العنوان- دون غيره من العتبات- تهتم بمعرفة علاقته ببقية العتبات في إنتاج المعنى، وبناء النسق الدلالي لثيمات العنوان الرئيس، ومثله الفرعي عبر قيمه الثقافية، فهي شبكة من المكونات تصنع خطابا يحيط بخطاب المتن ويضمر كثيرا من دلالاته.

أولا: علاقة العنوان بالغلاف.

الغلاف هو: "نص بصري ينبغي أن يرى المتلقي فيه مسارب دلالية تتقاطع مع الاتجاهات الدلالية"(٢) لبقية العتبات ومتن العمل، ولم يعد مكونا هامشيا يوضع لحفظ المتن، بل يعد حاملا للموجهات القرائية والفنية المساعدة في تلقي المتن(٣)، وهو من جهة أخرى يعدُّ علامة إشهارية تصنع التأثير وتسهم في صنع الدلالة الإيحائية للنص، أو بعضها.

(١) د. خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، دمشق، دار التكوين، ٢٠٠٧، ص ١٨٣

(٢) عمر عتيق، دراسة سيميائية في ديوان (تلاوة الطائر الراحل) لسامي المهنا، المجمع، ع٧، ٢٠١٣م، ص١٦٩.

(٣) محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، الرياض، النادي الأدبي بالتعاون مع المركز الثقافي بالدار البيضاء، ٢٠٠٨، ص ١٣٣

ويسميه جميل حمداوي بـ: الخطاب الغلافي[١] ، إشارة منه إلى العملية التواصلية التي تبنى عليه وتستدعي التأويل وفك الشيفرات، ويشير أيضا إلى أهمية هذه الخطوة عند دراسة العتبات وبخاصة العنوان، فالخطاب كما نعلم مبني على عملية إرسالية: مرسل ومتلقي ورسالة.

وينقسم الغلاف إلى: أمامي وخلفي؛ يحمل الأوّل، معرفات العمل: دار النشر وتاريخه – وعنوانه ولوحته الفنية بالإضافة إلى الهوية الأجناسية التي تشكل ميثاق قراءته، وطرائق تلقيه.

وتجنيس العمل بـ: رواية يفرض استدعاء الميثاق التخييلي وأدوات النقد الروائي. وأحداث الرواية تدور في قرية نفطة التونسية وكلها وقائع لم تخرج عن العوالم الممكنة، فهي انعكاس ومحاكاة لواقع تونس في منتصف القرن العشرين، ولواقع المرأة التونسية "التي تحاول التكيف مع واقعها المعاصر وصراعها مع الماضي، ما بين الأصول الموروثة والحاضر الذي يفرض تقاليده مع جيل الاستقلال"[٢] .

وتظهر العلاقة وطيدة بين العنوان والهوية الأجناسية- فيتلاءم مع الميثاق التخييلي و لا يخرم في الوقت ذاته توافقه مع عوالمه الممكنة التي اختارها الروائي من الواقع وعبر نظام لغوي حقق الواقعية في الرواية عبر الوصف والحوار الذي اختار له المؤلف التوافق مع واقع كل الشخصية ومستواها الفكري والاجتماعي وبخاصة بطلة الرواية ومراحل تحولاتها الفكرية، فجاء -بعضٌ منه- باللهجة العامية التونسية

(١) حمداوي، جميل، دلالات الخطاب الغلافي في الرواية، استرجعت بتاريخ: ٢٥/سبتمبر/ ٢٠٠٨، مقال على هذا الرابط: https://diwanalarab.com

(٢) كوثر تامن، "سيميائية العنوان في رواية عائلة من فخار لمحمد مفلاح، مجلة اللغة العربية، مج٢١ ع ٤٥ المجلس الأعلى للغة العربية، مج ٢١، ع٢٠١٩،٤٥م، ص ٢٥٥

ومتلازماتها في تلك الفترة، وهذا التوافق ينسجم –ضمن تجنيس العمل في الغلاف، وعلاقته بعنوان الرواية المركب– مع العنوان الفرعي: (حْكاية مْرَا ونصف) من جهة، ومن جهة أخرى يتفق مع العنوان الرئيس: (أرق النار وقلق الماء) المبني على الانزياح الذي يحقق الجانب التخييلي في تجنيس العمل، وهو الأصل في الأعمال الروائية كما هو معلوم؛ ولهذا أتى رئيسا. ويظهر أن كلمة رواية كتبت بالخط ذاته –الرقعة– وباللون ذاته –الأبيض– الذي كتب به العنوان الفرعي. واشترك في لون الخط اسم المؤلف: صالح بن رمضان، ودار النشر: الدار المتوسطية للنشر. وهذا يستلزم سؤالا، مفاده: ما الرابط بين المكونات الأربعة لتكون بلون واحد؟ من وجهة نظري أن كل ما ينتمي إلى تونس أعطي اللون الأبيض وهذا إقرار بأن العنوان الفرعي أقرب إلى المتن، وأن النسق الثقافي المحلي هو الغالب في الغلاف، ويمتد أيضا إلى المتن؛ لهذا كان الاستعمار الفرنسي حاضرا على المستوى الفكري والحضاري والاجتماعي، ومثله الوصف المكاني الدقيق للوطن المستقل، ويدعم هذا الرأي المساحة التي أعطيت للعنوانين، فالعنوان الرئيس أخذ مساحة أكبر وكتب بخط أكبر، وكأنه يوجه إلى مجتمع أكبر تجمعه الفصحى التي كتب بها العنوان، أمّا العنوان الفرعي فهو موجه للمجتمع التونسي الذي يتماهى مع متغيراته ويهتم بمعضلاته ومستجداته وقضاياه.

وكتابة اسم المؤلف باللون الذي كتب به العنوان الفرعي –كما مرّ– وبدون ألقاب أكاديمية أو إبداعية "صالح بن رمضان"؛ هي محاولة فصل بين الهوية الأكاديمية والهوية الجديدة –الروائي– ويقلص ما يمكن أن ترسمه الهوية الأولى –الناقد وأستاذ الدراسات العليا– في أفق انتظار المتلقي، ومن شأن هذا –في الحالتين– أن يبني ثقة بين المرسل والمستقبل، ويجعل الرواية –الرسالة– هي موضع الحكم ومناط الرأي، وهو في الوقت ذاته اقتراب من الطبقة الشعبية التي يتوجه إليها العنوان الفرعي.

أنتقل إلى **اللوحة الفنية** وعلاقتها بالعنوان، وهي علاقة بين النص اللغوي بمكونيه، والنص البصري، وسأبدأ بمحتويات هذه الصورة ودلالاتها، وأنطلق من اللون

الخلفي للغلاف الأمامي واختير له لون بنفسجي غامق جدا يتخلله شكل اللهب بلونه البرتقالي الممزوج بالأصفر ولون الماء الأزرق. أما اللوحة الموجودة في أسفل الغلاف فهي كرة ملتهبة تتخللها ألسنة اللهب وقطرات الماء متقاطعة معا، وفي داخلها رسمة لوجه امرأة بجوارها واحة فيها نخلة وجبال؛ المرأة ملثمة تمسك بيدها طرف لثامها و تلبس على جبهتها نوع من الحلي وألحظ أن ارتفاع صورة المرأة غلبت ارتفاع النخلة التي غلبت ارتفاع الجبال، وهذا الشكل التخييلي ضد ما هو معروف في الواقع، وهذا ملحظ يدعم تجنيس العمل، ويكثف دلالاته التي يفسرها المتن بل يحقق ثنائيتي العنوان معا؛ حيث يتحقق العنوان الرئيس المعني بالجانب التخييلي في العنوان المركب، فتظهر مكونات الصورة عكس أحجامها في الواقع، وتحقق صورة المرأة بهيئتها القروية الجزء الفرعي الواقعي من العنوان.

وكل ما في الغلاف من محتويات له علاقة جليةٌ لا تحتاج إلى جهد في اكتشافها، فكل مكونات العنوان موجودة ألوانا ورسوما في الغلاف (النار والماء والمرأة). أما كلمة (نصف) الواردة في العنوان الفرعي: (حكاية مرا ونصف)، فيتقاسمه معنى العطاء في النخلة، ومعنى الرفعة والمنعة في الجبل، وكلها قيم اجتمعت في بطلة الرواية واشتهرت بها؛ ولهذا كان لصورتها الفنية نصف مساحة الكرة، وأخذ بعين الاعتبار فضاء كفها الممسكة بلثامها بوصفها رمزا بصريا على تمسك بطلة الرواية بالقيم الإيجابية التي أثبتها المتن بعد ذلك، وهذه الصورة دالٌ بصريٌ مدلوله المفهوم الذهني الإيجابي عن كون المرأة نصف المجتمع، وبخاصة عندما تكون فاعلة ومؤثرة ومكافحة مثل بطلة هذه الرواية.

أما الغلاف الخلفي الذي يعد "العتبة الخلفية للرواية تقوم بوظيفة إغلاق الفضاء

الورقي"[1]؛ فالبياض يغلب مساحته ولم يتبق من اللون الغامق في الغلاف الأمامي إلا القليل وعلى جوانبه فقط، ويفيد مضمره البصري هذا المعنى: سيتلاشى غموض العنوان بعد قراءة متن الرواية، وهو استشراف له ما يبرره فالقارئ قبل أن يقتني العمل لن يطلع على محتوياته اطلاعا تراتبيا، بل سينتقل بين متعالياته النصية وفق قراءة سريعة، وافتراض انتقاله من الغلاف الأمامي إلى الخلفي مباشرة وارد بنسبة كبيرة، وهذا يجعل لهذه العلامة البصرية قيمتها في الجذب والتأثير. هذا ما يخص الجانب الميتالغوي في الغلاف الخلفي. أما النص المقتبس فلم يخرج عن معاني العنوان. وفي هذا الغلاف يظهر العنوان الرئيس: أرق النار وقلق الماء، دون العنوان الفرعي الذي ناب عنه النص المقتبس على لسان بطلة الرواية في مونولوج تحثّ نفسها وتوبخها على التقاعس والضعف، وكل دلالات الحوار تدل على قوة المرأة وطموحها ضد الجهل والقهر والظلم، وعرضت في هذا الحوار معاناة النساء والأعمال الشاقة التي يقمن بها في تلك الفترة، ومنه: "تهاطلت هذه الأسئلة الحارة الساخنة تنكر عليها طموحها (...) أين أنت من الفتيات البائسات اللاتي يسكن جوف الأرياف القصية ويخرجن فجرا لجلب الماء (...) أين أنت من جامعات الحطب (...)لا تقفي، لا تنتظري أن تعطيك الحياة شيئا جاهزا، لا تفتحي فمك للقمة باردة، كوني مبادرة، كوني قوية، انظري إلى المستقبل بعين جريئة لا تتسولي...غوصي داخل نفسك وابحثي عن قطرة نور...جمعت قواها الحائرة المتردّدة وانطلقت مسرعة تحت المطر تسابق الليل إلى أحد أزقة باب الجديد"؛ عُني هذا النص المقتبس بتحقيق دلالات العنوانين معا؛ ففيه إشارة إلى النار في عدة ألفاظ، منها: حارة، شعلة، حرّ، الحطب الأعشاب اليابسة،

(١) سارة بو طويل. "العتبات النصية في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية الإنسانية ع٢، مج ١٣، جامعة حسيبة بوعلي، الآداب والفلسفة، (٢٠٢١ م) :١٩١.

الأخشاب، والأخيرة كلها من مصادرها وأتت في الرواية لأجل إشعالها؛ وأتى الماء – بوصفه جزءا من العنوان– في: الماء، قطرة ،مطر، غوصي.

وآخر ما يقال في عتبة الغلاف وعلاقته بالعنوان أنّه: يجمع تطابق الدال البصري مع الدال اللغوي في نسق سيميائي واحد.

علاقة العنوان بالإهداء: نص الإهداء: "إلى روح أمي"

يلائم الإهداء فضاء العنوان الفرعي، بل والمتن بأكمله فهو حديث عن المرأة وكفاحها وقدرتها على التحمل والصبر، والإيثار والتضحية، والأم مثال هذا كله وأول من يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن هذه القيم، وجاءت كلمة (إهداء) بخط أسود غامق، والمفارقة أنه أخذ مساحة أكبر من نص الإهداء ذاته بحجم الخط ودرجة عمقه، فالنص يتكون من ثلاث كلمات، وأرى أن هذا الشكل يعكس مشاعر المؤلف، وبخاصة أنه يهديه إلى روحها، لا إليها! وهذا التشكيل البصري مبني على ضمور الخط الذي يحاكي فيه مشاعر الفقد وما يتركه من أثر، ولاسيما عندما يكون المفقود أمًّا، فالإهداء بلونه وحجم خطه يحاكي واقع المؤلف ومكانته الأكاديمية والإبداعية، أمّا نص الإهداء "إلى روح أمي"، فيحاكي الطفل الصغير الذي يتجرد من كل شيء إلا حاجته العاطفية لأمه، والتباعد في المسافة بين الإهداء ونصه، يثبت هذا، فهو –من وجهة نظري– معادل للصمت عند الإلقاء الشفهي. فهندسة المساحات النصية تصنع الدلالة وتنتج المعنى، وهذا ما حدث هنا.

وفي صفحة الإهداء ذاتها نجد اقتباسا لمقولة المهاتما غاندي: "حياتي هي رسالتي". والاقتباس من المقولات الشهيرة لا يعدّ بدعا في أعراف التأليف، وليس قارا أيضا، بل هو عرف اختياري، اختير له الزاوية اليسرى من صفحة الإهداء.

ونعلم أنّ غاندي كان رمز الحرية في الهند وكان ثائرا على الاستعمار البريطاني (سياسيا واجتماعيا)، يدعو إلى الحرية ونبذ العنصرية ووحدة الهند كان مقاوما طموحا

آثر الوطن والمواطن؛ ولهذا تعرض لمحاولة القتل مرارا[1]. واستحضاره عبر مقولة يصدق معناها على ما تركه من أثر وتاريخ له دلالته في هذا الموضع –الإهداء– الذي خصص لأعلى نماذج العطاء والكفاح والإيثار –الأم –. ويصدق على علاقة الأم بأولادها –تباعا– الأرق والقلق، أما علاقة نص الإهداء بالعنوان الفرعي للرواية "حكاية مرا ونصف"، فهي واضحة؛ إذ لا يحضر وصف إيجابي للمرأة إلا وكان للأم السهم المعلى منه، سواء جاء بالفصحى أو اللهجة العامية. وتحمل بطلة الرواية كل هذه القيم، فهي لم توصف بهذا الوصف إن لم تكن قادرة على التغيير والكفاح ومقاومة ما يعترضها من صعاب، لقد كانت –مريم– تحب وطنها وتضحي بدمها من أجل تونس –التي قاومت الجهل والاستعمار والفقر الذي لم يخل متن النص من ذكره والإشارة إلى آثاره –، كما فعل غاندي لوطنه. ويظهر هنا ضرب المثل عند تضمين العتبات بعض دلالات النص، فالعتبات تشير إلى المعنى قبل الولوج إلى المتن على مستويات متعددة ومختلفة، أمّا النص المقتبس فهو إشارة إلى المبدأ الذي اعتنقته مريم الـ (مرا) في العنوان الفرعي وبطلة الرواية بالمفاهيم السردية.

علاقة العنوان بالتقديم: قدّم للعمل د. أحمد الودرني، لم يكن التقديم تقليديا يشيد بالعمل ومؤلفه، كما هو معتاد، بل عمد المقدّم منذ البداية بوضع عنوان للتقديم، وهو: تجربة النّار ونداء الحلم في رواية " أرق النّار وقلق الماء" وابتدأ التقديم بنصٍّ أدبي مكتنزٍ بدلالات العنوان المركب يحوي كلّ أيقوناته، "مريم! أيتها المسافرة بين ألسنة اللهيب ... الواقفة بشموخ على قمم الألم إلى سحاب هتون ينقع الغلة ويطفئ حريق الفؤاد!

(١) معمولي وفاء، المهاتما غاندي وسياسة اللاعنف ١٨٦٩– ١٩٤٨م رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر (بسكرة)، إشراف: إبرير حمودي، ٢٠١٤م. مجمل الرسالة يحمل هذا المعنى

مريم! نخلة الواحة ولهب المصباح!! تنازل النّار(..) وتحلم بالحب"[١]، حاول التماهي مع فضاء العنوان والمتن والجمع بينهما في نص انزياحي مؤكدا ميله للعنوان الرئيس. وبعده مضى يشرح دلالات العنوان الرئيس عبر ما يسمى بـ : إيزوتوبيا[٢]، واهتم بإيزوتوبيا النّار، وقسّمها إلى محورين : أ- النار الحارقة، وأعطى أمثلة عليها من نصوص الرواية، ومنها: "أحسّت مريم بعمود من نار يخترق جوفها"[٣]، وكل أمثلته تظهر أن هذه النّار مرتبطة بحرقة الفقد والوجع. أمّا المحور الثاني فعنونه بـ: ب- النار الطبيعية، وهي من أمثلته مرتبطة بالأنثى الناضجة المغرية للرجل التي تشعل عاطفته ومن أمثلته التي اختارها المقدّم: "أخرجها والدها من المدرسة...أخرجها يوم سمع أحد أولاد العريش: يقول تبارك الله عليها بنت دار النّوي (اتصبّت)..عبارة محرجة لرجل مثل أبيها..كلمة تخرج من فم شابّ أو كهل لها رائحة شهوانية مزعجة تضع حدّا بين الطفولة والرشد"[٤].

وبعد إيزوتوبيا النار، تحدّث عن إيزوتوبيا الماء، وقسّمه، إلى ثلاثة محاور، وفقا لرمزية الماء في الرواية:

الماء/ الطبيعة: وقسّمه إلى الماء الظهير الذي يحمي الشخصية من الخطر، يقول

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٥

(٢) هو مصطلح سيميائي جلبه قريماس من مجال الفيزياء إلى علم الدلالة، ترجمها حمادي صمود بالبؤرة الدلالية. ينظر هامش الرواية ص٦

(٣) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٤٢

(٤)المرجع السابق، ص٣٥.

المقدّم: "هكذا يحول المطر بين مريم والخطر الذي قد يتأتى من أشرار القوم"(١)، أمّا ما أسماه الماء المعارض هو ما "يهدد حياة الشخصية وينذرها بموت الأحلام الجميلة... ماءٌ يجسد خطر الفناء"(٢) ويستشهد بنصوص من الرواية منها: "ويهيج البحر وتتكوّم الرياح...فوق الأمواج ويخرج من أعماقه تنين عظيم"(٣)

الماء/ الدموع: وفيه قسّم الدموع إلى انعكاسية(٤) وشعورية وشرح الثانية، لأنها هي الحاضرة في هذه الرواية وهي المقصود بالماء الذي يمثل بعضا من عنوانها، وهي المنبعثة بدافع الوجع والحزن أو الفرح وأعطى أمثلة من الرواية، كهذا النص: "لا سند لها سوى آهاتها ودموعها وحبها الجارف للعلم"(٥).

الماء/ الدم: يقول المقدّم: "تنعكس ظلال هذه الثنائية في أبلغ مقطع وصفي قائم على الدم شكّل خاتمة الرواية عندما جرى الاعتداء على مريم طعنا"(٦) ثم يستشهد بهذا النص: "أحسّت بوخز في جنبها الأيمن ...ظنت في اللحظة الأولى أنّه عود من الياسمين...ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة...قصة فيها من الخوف

(١) المرجع السابق، ص١٤.

(٢) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٤) هي: التي يفرزها تعرض العين لمهيجات، مثل: الأتربة ودخول مواد غريبة ...إلخ. ويوجد قسم آخر: الدموع الطبيعية التي تحمي العين وتبقيها رطبة، د. جود شحالتوغ، استرجع في تاريخ: ٢٥ / ٨ / ١٤٤٥/ الساعة السادسة صباحا على هذا الرابط: ما هي أنواع الدموع ووظائفها في الجسم | الطبي (altibbi.com)

(٥) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص١١٣.

(٦) المرجع السابق، ص٧.

على تونس وعلى أبنائها ما حوّل رائحة الدم الحار السائل من كبدها حبرا لزجا بنفسجي اللون يسيل على عتبات بيتها ليرسم حبّها لبرِّ تونس ولأبنائها"[١]، وبعد تفسير دلالتي النار والماء تباعا، فسّر مدلولًا آخر حضر كثيرا في المتن، وهو: الحلم؛ ولأن البحث هنا معني بعلاقة التقديم بالعنوان، ولم يرد الحلم صريحا في أحد العنوانين أعرضت عن ذكرها هنا.

وأخيرا؛ كان التقديم تحليلا لبنية العنوان الرئيس، وإظهار بعض من سماته، وأهتم أيضا بمفردة أخرى –الحلم–كان لها شأن وحضور سردي في الرواية، ولم أذكرها لأنها ليست ضمن خطاب العنوان.

(١) المرجع السابق، ص١٧، وص٤٩٠.

المبحث الأول: الدلالات السيميائية للعنوان الرئيس

أ- البنية التركيبية: ينهض العنوان الرئيس على جملتين اسميتين متعاطفتين غير تامتين في الظاهر؛ إذ حذف أحد ركني الجملة الإسمية، وهو المبتدأ والغالب أنه ضمير الرفع (هي)، فيكون التقدير: هي أرق النّار وقلق الماء، وأغلب الغالب أنه يعود إلى (مريم) بطلة الرواية، و "حذف المسند إليه هنا يتساوق مع الممارسة الاقتصادية للغة: دلائل أقل، دلالات أكثر (...) وغالبا ما تنزع اللغة في استعمالاتها إلى الاقتصاد؛ لتضيف قوة تدليلية إلى العلامة المائزة بالحضور"(١)؛ ولهذا "أتى العنوان هنا مشعا ومعبرا واسعا؛ لأن غياب عنصر -تصريحا- ينمي حركة الاستبدال، ويوسع دائرة الإحالات؛ ليكون أحدها هو المراد وقد يتعين بتحليل النص الذي يرافقه"(٢). أمّا من الناحية النحوية فقد جاء مركبا متمثلا بشبه جملة -مضاف ومضاف إليه- معطوفة على مثلها بحرف الواو، وقد صنع هذا العطف توازنا لغويا وبصريا في العنوان.

ب- التركيب الدلالي والانزياحي: يظهر في العنوان الرئيس الانزياح وتكثيف المعنى بأسلوب عميق يشير إلى بنية عميقة توحي بأنساق مضمرة يحمل المتن امتدادها والتصريح بها، وقد يكون الارتداد إلى العنوان عودة من النص هو خيار المتلقي، وهذا يحدث عندما يكتنز العنوان شيفرات تفرض العودة إليه بين الحين والآخر، وبهذا تبقى سلطة العنوان ماثلة أمام المتلقي بكل إيحاءاته ومفارقاته وغموضه، الذي يكشفه الامتداد والارتداد بينه والمتن.

ومتن الرواية يحمل ظلال العنوان ويشرحه، ولم ينفك عنه على الرغم من طول

(١) حسين، "نظرية العنوان"، ص ١٥٩.

(٢) أحمد مداس، السيمياء والتأويل: دراسة إجرائية في آليات التأويل وحدوده ومستوياته، الأردن، عالم الكتب الحديث، ٢٠١١، ص٥٣.

الرواية[١]، وكثرة أحداثها.

ويشير العنوان في (أرق النار وقلق الماء)، إلى الشخصية الرئيسة –بطلة الرواية– ويحدد "وظائفها وصفاتها المكثفة موحية ومشوشة لا تتضح معالمها الكلية إلا بتتبع آثارها في النص اللاحق"[٢].

وقد حدّ العنوان الفرعي من فضاء غموض الرمز في العنوان الرئيس وطمس كثيرا من تظليله، والتظليل في العنوان جزء من الوظيفة الإغرائية –إحدى وظائف العنوان– ولعل الروائي أراد الابتعاد عن التظليل، فصنع بدلا منه ألفةٌ تربطه بالقارئ وتبعد نصه عن التسليع، ورآها الأنفع لتلقي روايته؛ حيث كشف لقارئه في العنوان الفرعي بعضا من أسرار المتن مجملا عبر جملة ثقافية ماثلة في مقولة قارة في الحس الجمعي الشعبي تكتنز مجموعة من القيم، وهي في الغالب تأتي لمدح الأشخاص والأشياء، والأماكن والمشاعر وغيرها، وقد تأتي أيضا للذم، فهي على كل حال تفيد المبالغة، فيقال: شجاع ونصف، و:جبان ونصف. لكن العنوان –الفرعي– في الرواية بكل ما يحيط به ويتبعه من عتبات تغلّب المدح، وصيغته في العرف الثقافي الشعبي السائد تندُّ به عن الذم، والمتن أثبت ذلك.

ويظهرُ حرص الروائي على ضبط نطق العنوانين، وبخاصة العنوان الفرعي – حْكاية مْرا ونصف–، ولم يهمل ضبط بعض كلمات العنوان الرئيس –أَرقُ النار وقَلقُ الماء–، فهو بهذا يوجه قارئه إلى مقصدية بعينها، المصرح به منها: هو قراءة العنوان الرئيس بالفصحى، وقراءة الفرعي باللهجة العامية، وهو بهذا يصنع مضمرا يحتاج إلى

(١) بلغت صفحاتها ٤٩١ صفحة. من القطع المتوسط.

(٢) لطيف يونس حمادي الطائي، "سيميائية العنوان في ديوان شظايا ورماد لنازك الملائكة"، مجلة مداد الآداب ع ١٢، ص١٥٤.

مغامرة التأويل والبحث عن الأسباب، فهذا التوجيه يقتضي أن يكون للقراءة خصائص بعينها تشمل نطق الحروف وضبطها.

أَرقُ النار وقلق الماء: يحمل العنوان صفة الحركة والاضطراب، فالنار والماء في أوج اضطرابهما، وينذر بأمرين لا ثالث لهما: الغرق والحرق، وعندما يضع الروائي هذين المعنيين في مفتاح النص وعتبة الولوج نحو فضائه، فهو يضمّن العنوان الإيحاء بالموت، ويشير منذ البداية إلى النهاية وقد كان طعن مريم –بطلة الرواية– هو خاتمة النص. والمفارقة أنها لم تتعرض لأحدهما لكنهما كانا حاضرين في مشهد الختام، عبر بعض لوازمهما ومرادفاتهما عندما طعنت مريم: "أحسّت بوخز في جنبها الأيمن في البداية (...) ظنت في اللحظة الأولى أنّه عود من الياسمين (...)، لكن الوخز سرعان ما اتسعت رقعته، وغدا أشبه بوقع زيت حارق (...) ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة (...) قصة فيها من الخوف على تونس وعلى أبنائها ما حوّل رائحة الدم الحار السائل من كبدها حبرا لزجا بنفسجي اللون يسيل على عتبات بيتها ليرسم حبّها لبرّ تونس ولأبنائها"(١).

لا يخفى أن أصل خلق الثقلين هو النار والماء، كما في الآيتين التاليتين: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾(٢) و﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(٣)؛ فالنار والماء، هما باختصار أصل الحياة ومن أسباب الموت، والبداية والنهاية، والعلاقة بينهما تشير إلى مفارقة قائمة على أن نهاية كل منهما قد ترتبط بالآخر، فالنار بالماء تنطفئ وهو بها يتبخر، وهي من هذا الجانب مبنية على الضدية، وتختلف عن العلاقة بين المكونين الآخرين –الأرق والقلق–؛ إذ يفضي كلٌ منهما إلى الآخر، فيكتمل به ويشتمل عليه

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص٤٨٩.

(٢) سورة الرحمن :١٥

(٣) سورة الطارق: ٦

عند بناء حالة أو سياق بعينه.

وأرى أن إضمار الموت والحياة في بنية العنوان هو إشارة لتوازن ثالث يضاف إلى التوازن النحوي والصوتي، ولنا أن نتخيل الأرض التي كانت ضمن مكونات الغلاف، دون الحياة الماثلة في الحضور، والموت الماثل في الرحيل.

يبدو أنّ الروائي عندما اختار هذا العنوان أراده نصّا له وجهاته بحمولات دلالية عميقة وأفضية تتعالق مع المتن وتمهد له. وأحتاج بعد الإجمال أن أقف عند كل مكون من مكونات العنوان ودلالاته العامة؛

أولا– النار: للنار دلالاتها الكثيرة التي يخضع حضورها في كل نص لما يريده منشؤه، فهي: الحياة والموت والدفء، وهي الخير والشر[١] وهي الضياء، وهي الجزاء، بل تدخل –مجازا– في تشكيل المشاعر السلبية (الحزن – الفراق..ألخ) وكذلك تدخل في تشكيل المشاعر الإيجابية (الشوق، والحنان، العطف) وبعض طبائع البشر، كالغضب.

وللنّار ارتباط وثيق بـ"أساطير الموت والحياة.. وكذلك في الأديان حملت تقديسا عظيما عند بعض الديانات، ولاسيما عند بلاد فارس القديمة، فهي مصدر النور والخير في الزرادشتية (...)، لكننا نجدها تمثل عنصرا للعذاب إذا ما تعاظمت، وعنصرا للخير إذا ما كانت جذوة أو قبسا يدفع البرد أو الظلام عن الإنسان"[٢].

ويقسمها الودرني في تقديمه للرواية –نقلا عن باشلار– إلى نار حارقة/ هادمة، وأخرى طبيعية بانية، وربطهما بالنار عند غاستون باشلار في تفسيره لشعر

(١) من دلالاتها على الخير قوله تعالى: "آتيكم بقبس أو أجد على النار هدى" سورة طه، آية ١٠.

(٢) أحمد عوتر. "تأويل دلالات النار عند غاستون باشلار"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية ع ١٦، (٢٠١٨م): ٣٤٨

نوفاليس[١]، وأسماها: عقدة نوفاليس جامعا بين أصل النار وإحدى الشهوات الفطرية للبشر التي تعدّ ضمن النار الطبيعية البانية -تحفظ النوع البشري[٢]-وهي إشارة لها وجاهتها؛ فالرواية تقوم على عاطفة الحب الجامحة بين مريم وأحمد -زوجها- الذي بقيت وفيّة له بعد أنّ غيبه "الموت في غفلة من حبيبته مريم فاحترق فؤادها وهي تنتظر عودته...وتحترق شوقا إلى مائه لكن الحلق جفّ ونضبت العيون، فغدت كصبارة عطشى يشاكسها الفناء وينذرها بالزوال"[٣]. يدل هذا النص الذي لا يتجاوز الأسطر دلالة واضحة على التعالقِ بين النار والماء ومقتضياتهما، والنصوص المشابهة في المتن كثيرة.

وعلى ما سبق؛ تظهر علاقة النار القوية بوجود الإنسان، بدءا بأصل تكوينه (صلصال كالفخار)؛ ولهذا ذكر البعض ارتباط جزء من طبائع الإنسان إلى الفخار الذي خلق منه[٤]، ومرورا بعلاقة والديه الموجِدَة له بعد مشيئة الله، ثم بفوائدها في حياته، وأخطارها أيضا، وانتهاء بوصفها جزاءً له عندما يحيد عن الطريق المستقيم.

ثانيا: الماء: الماء أصل الحياة وسبب ديمومتها، وإلى وجوده يعزى بقاء المخلوقات، وهو المكون الأكبر من مساحة الأرض، وهذا يجعله أكبر دلالات النماء والازدهار على سطحها وثيمة الاخضرار والخصوبة بدءا بخلق الأرض وما تحوي مرورا بالماء الدافق كما في قوله تعالى ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[٥]، وانتهاء بحاجة المخلوقات

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء" ص٥.

(٢) ينظر: أحمد عوتر، "تأويل دلالات النار عند غاستون باشلار" ص ٣٥٤.

(٣) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٦.

(٤) ينظر: سعد عبد القادر. "النار في ديوان أفريقيا لناشع محيي الدين فارس، (دراسة دلالية تحليلية)"، مجلة الآداب ع٥، (٢٠٢٢): ١٤.

(٥) سورة الطارق: ٦.

إليه وارتهان وجودها بتوافره.

وحضوره في عنوان الرواية ارتبط –كما تقدم– بالاضطراب والحركة، وبعيدا عن توظيفه في متن الرواية، فالماء أنفع ما يكون وهو في حال الحركة، ونعلم أن الماء الآسن لا خير منه. وقد أشار الودرني إلى أصناف المياه نقلا عن باشلار في كتابه (الماء والأحلام) وهي: المياه العميقة –المياه السطحية– المياه الميتة، ويرى أن الماء في تجلياته يتبع حالة الشخصية والحلم الذي يسكنها(١).

وللماء في القرآن الكريم حضور بمساحة كبيرة أغلب الغالب منها معان إيجابية –كما سبق–؛ فهو الخير والغيث في الحياة ومن أعظم مكونات الجنة؛ حيث الخلود والنعيم المقيم. ويبقى الغرق والموت والعذاب إحدى دلالاته السلبية.

وله في شرعنا دلالات تعبدية؛ إذ لا ينعقد قبولها إلا بالماء، بوصفه أداة الطهارة عند البدء بها، ولبعض المياه قيمتها الدينية وأعني ماء زمزم وماله من دلالات ورموز وفضل في عقيدتنا الإسلامية، بل كُرم الماء قبل خلق الكون، يقول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٢). وللماء أيضا دلالات تعبدية عند غيرنا؛ ففي الثقافة اليهودية تصنف المياه على أربعة أصناف: مياه الخلق، مياه الطوفان، مياه الغسل، مياه تطهير اليهود، وعند المسيحيين أيضا ما يعرف بالتعميد أو الغمر، ومعناهما –تباعا–: رش الماء وسكبه على الشخص أو تغطيسه به في بعض الكنائس؛ لدلالة التطهير ذاتها، ومثلهم الصابئة الذين يضعون المولود بعد مرور خمسة وأربعين يوما على

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص١٣.

(٢) سورة هود: ٧.

ولادته في ماء حتى ركبتيه؛ ليُذهب دنس الولادة(١).

وبعد عرض بعض الدلالات الوجودية والتعبدية لهذا المكون الوجودي –النار والماء–أعرج إلى دلالته الأدبية التي لم تقل أهميتها ووجودها عن الدلالات الأخرى؛ حيث لجأ الكثير من الأدباء –إن لم يكن الجميع– إلى اشتقاق دلالاته المختلفة الكثيرة المتقاربة حينا والمتباعدة حينا آخر المترادفة والمتناقضة المولدة للمعاني الأدبية التي تنجز عبر أدبيتها الواقع الممكن الذي تصنعه النصوص الأدبية التخييلية وتعكسه المرجعية، فهو المدد الدلالي المتشكل وفق خصوصية كل نص ومبدعه، وهذا التأثير لا يقف عند عصر دون عصر ولا أمة دون أمة ولا جنس أدبي دون آخر، ومعظم المكونات الأدبية مبنية على المعنى الانزياحي الملائم لفضاء الأدب، المعني غالبه بالرمزية والإيحاء الصادر من منشئ النص وفق ما تصنعه تجربته الإبداعية ومعاناته الآنية عند تكوّن نصه، ولثقافته وإيديولوجيته أيضا يدٌ تطول وتقصر عند كتابة النص، وعلى الجانب الآخر –جانب التلقي– ينتج النص مرة أخرى بمعايير أخرى وآليات تحليل تتفق أو تختلف مع آليات إنتاجه الأولى. وهذه السيرورة الأدبية تعطي مكونات النصوص دلالاتها الانزياحية وتصنع أفضيتها مع كل قراءة جديدة؛ ولهذا فللماء أو النار أو غيرهما في كل نص فضاؤه الانزياحي المحكوم بسياقات إنتاجه وعلاقاته بالمكونات الأخرى داخل النص الأدبي. ولو نظرنا إلى مجمل دلالات الماء ورموزه الإيجابية نجدها في: الطهر والحب والفرح والأمل والحياة والعطاء، وغيرها. أمّا الدلالات السلبية فتكون في: الموت، الغضب، الخوف، الدمار، وغيرها.

إن إعادة بناء العالم عبر اللغة الذي ينجزه الأديب في نصه يقوم على مواضعات عديدة لا تشمل –في رأيي– الانزياح والرمزية إلا من حيث المفهوم الكلي، وإلا لما

(١) أزهار العاصي وضياء لفتة، "رمزية الماء في رواية (كاهنات معبد أور)". مجلة المحور، ع٢٥، القسم الأول، ٢٠١٨م. ص١١٢.

اختلف نصٌّ عن نصٍّ، وفاق أديبٌ أديبا؛ ولهذا فلرواية (أرق النار وقلق الماء) عالمها اللغوي الذي اتخذ من دلالتي الماء والنار منطلقا رمزيا من العنوان متشعبا داخل متن الرواية بقيمهما الرمزية والسردية. وكونه الأول أو الرئيس في العنونة يدل على قيمة الدلالة الانزياحية التي لا تنفك عنها حتى في أقرب الأجناس الأدبية إلى الواقع، وفي أهم موضع في العمل الأدبي.

المبحث الثاني: امتداد العنوان الرئيس في المتن

معلوم أنّ "العنوان نص، ولكنه نصٌّ ناقص يتضمن فجوات وفراغات في بنيته التي تفجر الأسئلة في لقاء العنوان بالمتلقي، وأيّ عنوان يُدفَع للمتلقي على نحو مكتمل، سوف يكون بديلا للنّص"(١). وفي هذه الرواية استطاع الكاتب أن يصنع من العنوان الرئيس خطابا يثير الأسئلة، ويمهد للبحث عن أجوبته ودلالاته بين أروقة الرواية. ولم يستطع العنوان الفرعي أن يغني المتلقي في هذا إلا فيما يزيد شغفه للمعرفة، والبحث عن أوجه العلاقة بين العنوانين.

وقد ذكر خالد حسين(٢) أنواع العلاقة بين العنوان والمتن، وحدده ضمن ثلاث علاقات، وهي بإيجاز:

١-**العلاقة الامتدادية:(توليد النص من العنوان):** ويسميها بـ(الذرة البدائية) أو (البيضة الكونية)، التي تكون قابلة للانفجار وتوليد النص أو الامتداد اللغوي في الفراغ؛ إذ لا يكف عن التضخم والتوسع عبر السيرورة التاريخية في الزمان والمكان. وهذا الانفجار الكتابي يشكّل مدار النص ومجاله الاستراتيجي في المنظومة الثقافية(٣). وقد اعتمد في هذا العلاقة على بعض آراء النقاد(٤)؛ حيث يراها أقرب إلى ما يسمى بالنظام النحوي بـ (المركب الإسنادي)، فالعنوان يكون في موضع المسند إليه وتكون الأفكار الواردة في النص مسندات(٥). ويرى أيضا أن علاقة العنوان بالنص -وفاق مفهوم الامتداد-

(١) حسين، "نظرية العنوان"، ص٢٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص٤٥.
(٣) حسين، "نظرية العنوان"، ص٤٦.
(٤) مثل: جان كوهين - محمد مفتاح
(٥) حسين "نظرية العنوان"، ص٤٧.

أقرب إلى ما يسمى في البلاغة بـ(بالإيجاز والإطناب) أو علاقة الكل بالجزء أو الغموض بالوضوح أو المجهول بالمعلوم[١].

٢– **العلاقة الارتدادية:(من النص إلى العنوان)**: وهي عكس العلاقة السابقة، فالعنوان وفق هذه العلاقة تابع للنص وتالٍ له في التشكل، ومتأخر عنه في الزمان؛ وعليه سيكون العنوان خلاصة النص، فيأتي البحث عنه بعد الانتهاء من كتابة المتن؛ حيث يكون المؤلف تحت ضغوط تكثيف النص في عنوان أو اسم يفترض أن يعبر عن النص بمجراته وخرائطه واتساعه[٢].

٣–**العلاقة التجاورية**: وهي علاقة يستقل فيها النص عن العنوان، والعنوان عن النص، وتقوم على الاتصال الماثل في المجاورة، والانفصال الماثل في اختلاف بنية كل منهما عن الآخر فكل منهما مستقل عن الآخر وهذه العلاقة – مقارنة بما مضى– تعطي العنوان قيمته، وتجعله نصا له كينونته الخاصة وحضوره الأنطلوجي المختلف، فيتأثر بالمتن ويؤثر فيه دون أن يتبع أحدهما الآخر[٣]. وعليه سيكون العنوان "بنية مستقلة لها اشتغالها الدلالي الخاص"[٤].

وهذا الاختلاف والتنوع في العلاقة بين العنوان والمتن يصنع مستويات تواصل مختلفة يتطلب كلٌ منها آليات تَلَقٍّ وآليات تحليل تميزه عن غيره. وتصنيف الرواية وفق هذه المستويات يضعها ضمن العلاقة الامتدادية بنسبة كبيرة، فللنار والماء حضور كبير

(١) المرجع السابق، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٥٠.

(٣) حسين، "نظرية العنوان" ص٥٣.

(٤) محمد فكري الجزار، "العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبي"، (د–ط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م) ص٣٥.

وطاغٍ يظهر أنهما أسس الهندسة السردية ومادة تشكل المتن ومعماريته؛ ولهذا سأهتم في هذا المبحث بانتشار العنوان الرئيس في المتن؛ حيث استطاع الكاتب أن يجير الدلالات الواقعية والرمزية لمكوني العنوان الرئيس ويجعلهما يسيران داخل النص متظافرين أو متقاطعين أو متضادين في صنع فضاء الرواية ومكوناتها اللغوية والقيمية وتفصيلاتها الدقيقة التي تستمد منهما البناء والإيحاء. وعلينا أن ننظر –بدءا– إلى تلازمهما وما له من أبعاد دلالية تؤثر على الأفعال السردية وتسير حركة الأحداث، وبعده أنتقل إلى انفراد كل منهما بصنع مساحته الدلالية الخاصة به.

أولا –التلازم الدلالي بين المكونين: أول ما يلحظ القارئ تلازم المكونين ومشتقاتهما ومقتضياتهما، وما يرتبط بهما واقعيا ومجازيا في مواضع كثيرة من الرواية، وتحول العلاقة الجدلية بينهما في مساحات كبيرة من الرواية إلى علاقات أخرى كتعاضدهما في إتمام المعاني واقعية –كانت– أو مجازية، والتكامل بينهما في صنع الحدث السردي وتحولاته. وأول هذه العلاقات بين مكوني العنوان هي علاقة السببية وهي أكثر العلاقات الدلالية وضوحا، منذ بداية السرد؛ حيث ابتدأت الرواية بدخول الكهرباء إلى نفطة –إحدى قرى تونس–، "قرر أقليم شركة الكهرباء بالجريد (...) بنفطة بمدّ خط كهربائي إلى الحي"[1]، ومعلوم علاقة الماء بتوليد الكهرباء، إنه الحضور المضمر المخاتل لهذا العنصر الذي قامت عليه الرواية وحملت دلالاته وأهمها النور والحرارة اللتان يتميز بهما الكهرباء وليستا من دلالات الماء المتعارف عليها، بل هما دلالات العنصر الآخر –النار– هذه البداية التي تجمع العنصرين معا بوصفهما سببا ونتيجةً، وقد بقيت هذه العلاقة قائمة في بقية النص، مع استبدال ركني العلاقة. هذا المنطلق السردي يضع في أفق انتظار المتلقي افتراضا دلاليا تتلاشى معه ضدية

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٢٥.

المكونين، ويستقيم به تلازمهما، وهذا التلازم يتجلى في مواضع عديدة في المتن، ومنه: "ففهمت أن الشعب التونسي يتحرك هو أيضا غضبا للنكسة... ولكنها أحست، وهي ترى الأوداج الحمراء المنتفخة والشفاه المرتجفة (...) أن ذلك السيل الهادر لم يكن يغضب للقضية العربية فقط"(١)، الغضب هو النار أو منها، وهذا المعنى مشاع في الأعراف؛ والنار هنا –أو الغضب– هي التي أخرجت تلك الحشود البشرية التي استعارت لها، وهي تصفها بإحدى تشكلات الماء –السيل الهادر– إن التلازم الدلالي هنا مجازي مبني على السبب والنتيجة. ومنه قولها: "كأنّ بابا من أبواب جهنم فتح عليها في المنام، فتدفقت منه رياح سموم عاتية مغبرّة جفّ لها ريقها"(٢)، جهنم –رياح سموم، ذهنيا تتبع الكون الدلالي للنار، بينما تندرج: تدفقت – جف – ريقها لعنصر الماء، العلاقة هنا ذاتها –علاقة السببية–، لكنها قائمة بين التخييل المتمثل في الحلم والواقع أو عاطفة الخوف التي تقترن سيميائيا بجفاف الريق، كان أمام السارد العديد من الرموز الدالة على هذه العاطفة بعيدا عن الماء، ومنها: ارتعدت فرائصها، أو بلغ قلبها حنجرتها وغيرها من دوال عاطفة الخوف، المتعارف عليها، لكنه حاد عن ذلك كله واشتق أسلوبه من عناصر العنوان وفق استراتيجية اختارها لبناء عالم روايته.

وقد يأتي هذا التلازم بإضمار أحد المكونين وذكر بعض متلازمات الآخر، مثل "فقامت مريم مسرعة إلى الموقد، وملأت الطست وشرعت تعدّ لحبيبها ماء حارا (...) فيستعيد بذلك شيئا من نشاطه"(٣)، لم يصرح بذكر النّار لكنها وجدت عبر التصريح بأحد مقتضياتها (الموقد) وذكر تأثيرها في الماء –المكون الآخر–، وفي

(١) المرجع السابق، ص٣٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦.

(٣) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٣٢.

ومواضع أخرى لا يصرح بالمكونين بل يذكر صفة أحدها وتأثير الآخر كقوله: "وكان الحر فظيعا في ذلك اليوم من شهر جويلية والسموم تلفح جسد نفطة الغض"(١)، في كلمة (غض) هنا إيحاء لتأثير العنصر الغائب -الماء- وأحيانا يجمع بين خصائصهما في معانٍ انزياحية، ومنه "كان حب أحمد لها يرويها.. كان جمال جبينه ينيرها"(٢) الارتواء والإنارة من خصائص مكوني: الماء والنار، وفي بعض المواضع يُعنى بالجمع بينهما ووصف أحدهما بالآخر، يقول واصفا الأمطار أهم أشكال الماء ومصادره "تهاطلت هذه الأسئلة الحارة الساخرة بأمطار نارية"(٣)، إن هذا النص القصير الانزياحي الذي لم تتجاوز كلماته السبع كلمات ذكر فيه: المطر والنار والحارة وتهاطلت، إنه مشبع بالماء والنار ومقتضياتهما يدل -وغيره كثير-(٤) على تغلغل عنوان الرواية بكل تشكلات عنصريه في نسيج متنها وبناء أحداثها، ويصنع الدينامية السردية، ويسهم في تشكيل مشاعر بطلة الرواية -مريم-؛ حيث لا يبعد وهو يصف عطفها على أطفال الملجأ عن هذين العنصرين "أحست بأنّ دم الأمومة الفائر في عروقها قد طغى في جسمها كله، وأنها أصبحت قادرة على منحهم جميعا ما يحتاجون إليه من حنان"(٥) في هذا المثال تظهر مقتضيات العنصرين؛ فالدم يقتضي الماء، وهو أحد أهم أشكاله في الرواية، واستخدام هذه المفردة يعلي من شأن هذه العلاقة ويجعلها مساوية لعلاقة النسب الحقيقي أو علاقة الدم. ولثنائية الدم والماء علاقة

(١) المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٤) على سبيل المثال لا الحصر ينظر الصفحات التالية: ٢٤٧- ٣٨٤- ٤٧١- ٤٤٨-٣٠٣-٣٠٩- ٤٠٨.

(٥) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ١٧٩.

تبادلية تجعل لاستخدام أحدهما موضع الآخر بعدا دلاليا له أثره وفق السياق[١]؛ أما كلمة الفائر فهي تقتضي عنصر النار وتدل عليه، وللنار دورها في خلق الإنسان– كما سبق–، فالراوي في هذا المقطع أراد عبر مكوني العنوان رفع علاقة الشخصية المحورية بأيتام الملجأ، فالمدلول هنا –الأمومة رغم تباعد النسب– تشكله الطريقة الثقافية في "رؤية الأمور"[٢]، عبر دال يمزج بين عنصري العنوان.

ومن أمثلة التلازم –أيضا– بناء دلالة أحدهما على عكس خصائص المكون الآخر، فالحرق –مثلا– هو من خصائص النّار وكل ما يمتّ إليها بصلة، وليس من خصائص الماء أو متلازماته، ولكن الحوار بين البطلة وإحدى شخصيات الرواية يعكس هذا المفهوم الماثل في هذا الشاهد: "يشعلون النّار ويقولون من أين جاء الدخان أليس كذلك؟ يحرقون ببرد الثلج"[٣]. ومثل هذا ينطبق على وصف الأمطار أو الدموع بالنارية، وهذا تكرر في أكثر من ثمانية مواضع مختلفة في الرواية[٤]، وهذا التواتر الوصفي الذي تخلل الرواية يؤكد هذه البنية التبادلية بين هذين العنصرين و يُظهر قصدية التماهي بينهما في متن الرواية، فلسارد العديد من الخيارات في صنع دوالّه السردية، فالأمطار قد توصف بالكثير من الصفات الحسية والمجردة، لكنه ندّ عنها جميعا، واختار المسار السردي الذي أسس له منذ العنوان، وصنع عالمه اللغوي وفق مكونيه، فوصف الماء الماثل بالمطر والدمع بالعنصر الآخر –النار–، وهذا يتبع ما

(١) عطية محمود حسانين، "رؤية دلالية في ثنائية التناوب بين الماء والدم في الشعر العربي"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ع٢، (ديسمبر٢٠١٩ م): ٢١٩.

(٢) دانيال تشاندلر، "أسس السيميائية"، تر: طلال وهبة، (ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢م)، ص ١٢٠.

(٣) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٤٦٦.

(٤) ينظر الصفحات التالية: ٢٤٧– ٣٨٤– ٤٧ –٤٤٨– ٣٠٣– ٣٠٩ و–٤٠٨.

يسمى بـ: فاعلية الاختيار؛ إذ "يسعى المتكلم إلى اختيار الوحدات اللغوية التي تلبي مقاصده وفق السياقات التي يتخاطب فيها مع الآخرين (..) ويتم الاختيار وفق سلم متدرج من الحرية"(١).

ثانيا– امتداد دلالات الماء وتشكلاته في المتن:

حضر هذا العنصر حضورا كبيرا وشارك بهيئته الرئيسة وبمشتقاته ومتلازماته في صنع الأحداث أو وصفها. وعند النظر إلى أشكال حضوره في الرواية يظهر الشمول وقدرة السارد والشخصيات وقبلهم الروائي على إيجاد فضاء مائي –إن صح التعبير– يتقاسم مع الفضاء الآخر –النّاري– متن الرواية كما تقاسما العنوان. وقد تقصيت أهم أشكال الماء واتضح لي سيطرة بعضها سيطرة تامة، وهي: المطر – الدموع – الدم — الريق – البرد أو الثلج – ماء الطبيعة: البحر — الجداول – البرك والنوافير – الوديان، ولم يهمل أشكال الماء المصنعة والمعبأة كذلك في الأوعية البلاستيكية، ومياه القلل أيضا، ولم يعرض عن ذكر الآسن منها كالمستنقعات. وبعيدا عن المعاني التقريرية التي تعد عناصر أساسية في تحديد دلالة الماء، فله — ومثله– سلسلة من المعاني الإيحائية التي تضاف إلى المعاني الأساسية(٢)بعد انفصالها عن مدلولاتها واكتسابها مدلولات أخرى، فتمنح الملفوظ معاني مختلفة في مسار سيميائي يسعى لتحقيق مقصدية المؤلف. وفي التالي سأذكر أهمها:

أ– **الطهر**: وأتى هذا الدال ضمن الدلالات التي أتت بمعناها الحقيقي والرمزي؛ ولأن الثاني هو المعنيّ هنا، سأقف عند هذا المثال: "كانت أمطار أكتوبر

(١) جمال حضري. "سيميائية النصوص: عرض وتطبيق منهجي". (ط١، بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،٢٠١٥م). ص:٢٢.

(٢) سعيدبنكراد، "السيميائيات والتأويل (مدخل لسيميائيات ش.س.بورس)". (ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،٢٠٠٥م) ص١٠.

الغزيرة مغرب ذلك اليوم تتهاطل (...) ولكنها تمنت أن تمتزج تلك الأمطار بدموعها المنسكبة في فؤادها فتطهرها من ضعفها القديم، وتصنع منها امرأة حديدية قوية... تشرّف عصر الاستقلال الجديد"[١]، المطر الممتزج بالدموع هو القوة التي تطّهر المرأة التونسية المتمثلة في هذه الرواية بمريم القروية؛ من الضعف وكل ما ينتجه أو ينتج عنه، مثل الجهل والانكسار وفقد الطموح والإرادة، وقد تحقق لمريم ما تمنته؛ إذ أكملت تعليمها وانتقلت إلى العاصمة تونس ثم انتقلت إلى فرنسا، وبذلت الجهد والمال وقتّرت كثيرا على نفسها، وفضلت السهر والتعب والجوع على النوم والراحة والشبع وتجاوزت الكثير من الصعاب وشرار البشر؛ لتعود إلى وطنها طبيبة. إذن الطهر المعهود الذي يوكل إلى الماء ليس هو المراد هاهنا، بل المراد –وعبر شخصية مريم– هو القوة والعلم، وهذا تماس مع العنوان الفرعي كذلك –حكاية مْرا ونصف–. وبما أن التأويل "لا يكترث ولا يقف عند حدود تعيين الأشياء في دلالاتها المباشرة المنطوية على ذاتها، بل هو انخراط في صلب الرمزي الثقافي انطلاقا من معان إضافية لها القدرة على التدليل والإحالة على قيم دلالية ممكنة خالقة لسياقاتها الخاصة"[٢]؛ فمريم بوصفها شخصية غير نمطية في السياق الزماني والاجتماعي التونسي في تاريخ أحداث الرواية، استطاعت التغلب على التكوين الداخلي للأنثى الماثل في الدموع، وعلى ما واجهها من مثبطات خارجية سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية ماثلة في الشاهد بالمطر، وكلاهما

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٩٨.

(٢) عبد الله بريمي، "السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج وبول ريكور"، (ط١، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠١٠م) ص ٢٤.

يمثلان عنصر الماء.

ب- **الفرح**: وهذا المعنى يظهر في انهمار الماء مطرا يكشف توقفه عن نقيضه: الحزن -نار الثكل-، وهذا المعنى وجدته في قوله: "في تلك اللحظات سمعت المرأتان صراخا قادما من الجيران، فوقفت العجوز (...) وقد كف المطر تماما وأرهفت السمع ثم خاطبت مريم: الصراخ قادم من جيراننا (...) قضت مريم بقية تلك الليلة في الجنازة، وهي تستمع إلى رثاء الأم الثكلى"[١] جملة: "كف المطر تماما" لم تأت اعتباطا، وذكرها من عدمه لن يغير في الأحداث شيئا، لو لم يكن للمطر في المثال -بل الرواية بأكملها- دلالة عميقة تنسج ضمن استراتيجية أرادها الروائي. توقف المطر أو الفرح، فيبدأ مباشرة مشهد الفقد، وهو أعلى مراتب الحزن الإنساني، وبخاصة عندما يكون المفقود ابنًا. وفي موضع آخر من الرواية يُستحضر موقف مرتبط بالحس المشترك أو فرح العمر الذي يشترك فيه جميع المسلمين، وأعني أداء فريضة الحج؛ حيث يستقبل الحجاج عند عودتهم بالاحتفالات وفقا لأعراف كل شعب، ولم يغب الماء في هذا، بل حضر عبر ماء زمزم؛ لتتعاضد كل دوافع الفرح في هذا المثال: "ذهب إلى الحج والناس كلهم فرحون بذلك، وعاد واستقبلوه (...) وذهبنا نحن وهنأنا ياسمينة، وفرحت بنا، وأعطتنا من ماء زمزم"[٢]، وضمن هذه الدلالة أيضا: "وتمتعت مريم بأكلة البركوكش على وقع المطر"[٣]، شمل المطر الفرح بمتلازمات لفظية مختلفة في الدلالة عليه، فهو الأعم أو بمعنى المتعة كما في الشاهد السابق، أو اللذة، وأتت في هذا الشاهد: "كانت تتلذذ بالنظر إلى

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ١٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٣.

الوسطية وعش الحمام الذي تربيه مبروكة، وتتأمل المطر ينزل رذاذا"[١]؛ فهما فرح للفرح ذاته فالاستمتاع بالمطر –اللذة– له بعد انفعالي يختلف عن البعد النفعي، فهو "بمعنى حاصل ما تطابق بين الإرادة التي تسقطها الذات، والقدرة التي يبدو أنها منبعثة من الموضوع"[٢]، فالبعض يفرح بالمطر؛ لأجل الفائدة.

ت– **الأمومة: الأمومة** هي إحدى أيقونات الماء الظاهرة في أمومة مريم لأيتام الملجأ، يقول السارد عن أحدهم: "في قصص الأطفال كان يقرأ عن حنان الأمومة فلا يفهمه ولا يحس به وهو الآن كأنه يكتشفه...وكانت هي نفسها تحسّ كذلك بمقدمات تيار من الحنان يتسلل إليها...تيار يسري في ذاتها المتعطشة إلى نوع من الأمومة...كما يسري ماء الجدول البارد على رمال واحة نفطة"[٣]، الأمومة – معنويا– هي: ارتواء من ماء بارد، بينما الحرمان منها يعدّ عطشا. وغالبا ما يتكرر هذه الأيقونة عندما يجتمع هذا الثلاثي: الماء – مريم – أطفال الملجأ أو بعضهم، ومنه هذا المثال: "وأخذت تجمع ما تهاطل من الثمار في فؤادها ... وتمسحها بدموعها الفضية وتوزعها على أبنائها، وهم يقفزون حولها"[٤]، ناب عن الماء في هذا الشاهد أحد أشكاله – الدموع – وأحد الصفات الملازمة لشكل آخر، وأعني –الهطول– المرتبطة بالمطر.

(١) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٢) ألجير داسو غريماس وجاك فونتيني، "سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالاتالنفس)"، تر: سعيد بنكراد. (ط١، بيروت، الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦م)، ص٥.

(٣) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ١٥٢.

(٤) المرجع السابق، ص٢٣٧.

ثالثا: امتداد دلالات النار وتشكلاتها في المتن:

شارك هذا المكون الماء في بناء الهُوية الدلالية للنص وصنع خصوصيته السيميائية عبر أشكاله المختلفة وتجلياتها على الحقيقة، وذكر متعلقاتها وآلاتها، وكل ما يمت لها بصلة، ومنها:

الكهرباء، **النور**، الشعاع، المرجل، الفحم المتوهج، الإحراق، الشعلة، الشموع، الشمس، الفوانيس، الوقود، الحرارة في المكان وفي الفضاء والجسد، آلات إشعال النار كالولاعة.

وكل هذه المظاهر، ومثلها مظاهر الماء قد تحضر في أي رواية؛ فهي جزء من متطلبات العالم الواقعي الذي تعنى به الرواية وتعكسه، لكنها في هذه الرواية نسق سردي امتد من العنوان وتشعب في المتن، وكان ضمن مقصدية مؤلف الرواية منذ العنوان والغلاف، وما يتبعه من عتبات، فغلب حضوره وكان ركيزةً في صنع الأحداث.

أما الدلالات السيميائية الممتدة للنار ومشتقاتها في المتن، فمنها:

١-**الفرح**: ويظهر في هذا الشاهد: "وكان ذلك النور المنبعث من المذياع يوهمها بأنهم فعلا هناك (...) فتحس بأنس ساحر"[١]، ومثله: "وإنهم يحتفلون بأعياد الميلاد (...) ويشعلون الشموع"[٢].

٢-**الدهشة**: وهذا يظهر في هذا الشاهد: "في تلك الأمسيات الشتوية الطويلة نام الأطفال جميعهم بعد أن أخذوا نصيبهم من (..) والخرافات الدافئة"[٣].

٣- **تجلي الحقيقة**: ويظهر في هذا الشاهد: "أنيس وحده عيناه كانت أكثر

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٨٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٥١.

اتقادا... كانتا ترسلان أشعة حارة تنفذ إلى قلبها وتخبره أنه يتذكر أشياء"[١].

٤- **الغنى والاكتفاء:** وهذا يظهر في هذا الحوار بين مريم –بطلة الرواية– وإحدى موظفات دار الأيتام: "خذي أكثر إن شئت؟ جيبي مازال حارا، فالراتب تسلمناه أمس"[٢]. وكما ذكرت في دلالات الماء للروائي أن يختار غير الأسلوب الذي اختاره لو لم يكن يسير وفق منوال دلالي وضع أسسه منذ العنوان، وسار عليه واختار له أدواته اللفظية والأسلوبية، وآلياته السياقية الموافقة للتوجه السيميائي المراد.

٥- **الأمومة:** يتفق المكونان في الدلالة على هذه العاطفة التي ترتبط بالدفء كثيرا، ولعل هذا الشاهد على لسان بطلة الرواية يختصر ما يمكن أن يقال في هذا الموضع: "ابني حبيبي أنيس (...) وضمته إلى صدرها بقوة وتنشّقت رائحته بكل ما تتسع له رئتاها من الهواء الحار الأمومي"[٣].

رابعا– النسق السيميائي العام: وبعد عرض الدلالات السيميائية الخاصة للماء والنار –متلازمين ومنفردين– الظاهرة في مواضع عديدة من الرواية؛ اتجه إلى النسق الضام المرتبط بالبنية العامة العميقة التي استحوذت على النص، وجُيرّ لأجلها الكثير من مكوناته. وقد تشّكل هذا النسق من دلالتين يستأثر كل من المكونين بدلالةٍ يعدُّ حضورها في أي موضع نصي إشارة إلى الدلالة الأخرى للمكون الآخر؛ لتظافر الدلالتين في بناء هذا النسق، وهو نسق بُني على اتصال كل مكون من مكوني العنوان –النار والماء– بدلالة عامة ارتبطت به في الخطاب كاملا على الرغم من

(١) المرجع السابق، ص١٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٨.

(٣) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٤١٣.

التحويلات السردية[١] في أحداث الرواية بين الشخصية المحورية –مريم– وكثير من القيم التي اتصلت بها أو انفصلت عنها.

وهذا النسق السيميائي يرتبط بواقع تونس واستشراف مستقبلها في الحقبة الزمنية التي عُنيت الرواية بتحيين أحداثها، فالنار دالٌ مدلوله واقع تونس وحاضرها آنذاك، والماء دالٌ مدلوله المستقبل المنتظر بعد تلك الحقبة وويلاتها. وقد شاركت في بناء هذه الدلالة مشتقات الماء والنار ومقتضياتهما، وممّا يدعم هذا التأويل أنّ الرواية بدأت بأحد أشكال النّار أو القائم مقامها في كثير من مجالات الحياة، وهو الكهرباء –كما ذكرت سابقا– وختمت بهما معا: "رائحة الدم الحار السائل"[٢].ومثل كل الدلالات السابقة رسخ هذا النسق بكثير من الشواهد، وسأذكر في التالي بعضها:

١– "في أواخر ١٩٦٠ قرر إقليم شركة الكهرباء، بالجريد (...) بمد خط كهربائي إلى الحي، وبتدشين أول فانوس عمومي ينشر النور في أرجاء المصابحة وأزقة الزعيبيين، ولكن هذه اللفتة الجميلة لم تلق صدى في الحي، ولم تبعث فيه الأنس المأمول؛ لأن ظلام الموت خيم عليه منذ الصباح الباكر، موت فتاة في مقتبل العمر (...) وأحزنت هذه الحادثة جميع سكانه، وخاصة شبانه وفتياته، ولكنها كانت أشد وقعا على صديقتها مريم النوي"[٣]. الكهرباء كما ذكرت سابقا هي من النار المتولدة من نقيضه –الماء–، واختيار التاريخ المثبت في الشاهد يدل على النسق السيميائي المراد؛ إذ يدل هذا التاريخ على قربه من تاريخ استقلال تونس

(١) أعني بالتحويل الوصلي والتحويل الفصلي، ينظر: رشيد بن مالك، "من المعجميات إلى السيميائيات"، (ط١، عمان: دار مجدولاي للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م)، ص ٢٢٧.

(٢) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٤٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥.

عن الاستعمار الفرنسي ١٩٥٦، فالفانوس أو الكهرباء –مشتقات النار– هو واقع تونس بعد الاستقلال الذي لم يعط الأنس المأمول منه – حسب الشاهد–؛ إذ لم يفرح الشعب التونسي الفرحة التي تتوافق مع هذا الحدث، وبعد التعميم بدأ يخصص فئة الشباب والفتيات، فهم المعنيون بالتغيير وهم الطامحون لمجتمعات متحضرة مستقرة، ثم خصص ما خصصه وتوقف عند مريم النوي بطلة الرواية التي عانت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وما أحدثته الأحزاب المتصارعة كالشيوعية والتعاضدية وغيرها، وتجاوزتها بنجاحها الذي انتهى على يد سارق، في دلالة أخرى على الوضع الاقتصادي، والاجتماعي والأمني .

٢– "قبيل الغروب بساعة في أول أيام رمضان دفنت المتلوي شابها الأول أحمد حميدة في جبّان الطرابلسية، وظل ابنها الثاني الناصر السلامي بدشرة أولاد معمر ينتظر ساعته، وجسمه ينزف من كل مكان (...) ما أن عاد الناس من الجبان حتى شاع الخبر أن قناة الماء التي تصل حي الطرابلسية برؤوس العيون عبر الكبانية والمحطة قد داستها عجلة شاحنة كبيرة، وكانت من الفخار فانفجرت، وانقطع الماء عن الحي كله في أول أيام رمضان"[١] مات شاب في أول أيام رمضان فانقطع الماء عن الحي في اليوم ذاته، هذه إشارة أخرى إلى أن الماء –سيميائيا– هو المستقبل، والمستقبل ماثل دائما في الشباب، ومنهم أحمد حميدة زوج البطلة، والناصر السلامي، ويثبت ما ذهبت إليه بعد ذلك قوله: "وكان بالحي حنفيتان عموميتان"[٢]، والفخار يشير بشكل غير مباشر إلى النّار الدالة على الواقع

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه.

المتدهور المهدد بالانفجار.

٣- "وقالت لها: ابني علي -كما تعلمين- كان تاجر أقمشة في نفطة، ورث الدكان عن أبيه من قبل الاستقلال ...وكنا والحمد لله نعيش مستورين (...)، ولكن منذ ستة أشهر أو أكثر سمع علي أن لهيب التعاضد -تسمعين الخبر- ستمتدّ ألسنته إلى تجارة الأقمشة، وأنهم سيجبرونهم على الدخول في التعاضضدية مع بقية تجار سوق علقمة، ضحكت مريم وقالت: تقصدين التعاضدية خالتي مبروكة؟"(١). كلمتي لهيب وألسنة التي وصفت بهما التعاضد، الذي كان آنذاك يقلق مضاجعهم وينذر بتقسيم تجاراتهم وأملاكهم، وهذا الوصف دليل على النسق المبني على دلالة النار والماء -حاضرا ومستقبلا-.

٤- "كان البيت الذي أجره أحمد صغيرا، فيه غرفتان ومطبخ، وبه كهرباء، ولكن ينقصه سنبور الماء، وهو كسائر سكان الطرابلسية يتردد عليه السقاء (الحناني) مرة كل يومين (...) ولم يكن يؤثر فيها قول أحمد وهما يتجولان في الحي العصري مساء الأحد: انظري الماء المتدفق بغزارة يسقي العشب الصناعي، ونحن الماء المر من السقا... وأحيانا نخشى الموت عطشا"(٢). لهذا المثال دلالاته المتعددة، منها الفساد الاقتصادي والاجتماعي وتحصّل غير الكفؤ على ما يستحقه من هو أفضل منه، وهذا المعنى أشارت إليه الرواية في كثير من المواضع، وما يهمني هنا ما أنا منه بسبيل، دلالة النار -الكهرباء- على الواقع، ودلالة الماء على المستقبل، والماثل في: "ولكن ينقصه سنبور الماء"، وأيضا قوله: "وأحيانا نخشى الموت عطشا"، الماء هو المطلب وهو

(١) المرجع السابق، ص١٦٤.

(٢)ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص٣٨.

المنتظر كحال المستقبل، وشرطه أن يكون عذبا؛ ليروي عطش حاضرهم ويطفئ لهيب ناره، ويكون بحجم انتظارهم وصبرهم وكفاحهم.

٥- "كانت لحظات التعارف بين مريم وأطفال المأوى لحظات ساحرة دافئة لذيذة جدا، كانت لحظات تواجد بين أرملة في مقتبل العمر تبحث عن بصيص نور تطل منه على عصرها"(١)، النور من فوائد النار، والنار هي ثيمة الحاضر، والأقرب في مثل هذا السياق أن تطلّ على المستقبل، فالأطفال أو اليافعون والشباب هم أقوى ركائزه، وهذا يشير إلى نظام سيميائي سردي حكم فضاء الرواية، ووجه اختيار أساليبها وألفاظها، وتنضيد أسيقتها على وجه مخصوص.

٦- "حين تفرستْ في ملامحهم الجديدة لاح لها من قسماتهم الغضة الصغيرة ما يشبه بداية حلم قادم من أصقاع بعيدة من الشمال مطالع ربيع ممطر"(٢)، اختلف هذا المثال عن سابقه، وهما معا يثبتان النسق العام، فالأطفال هم المستقبل وهذا المعنى القار، وفي هذا المثال هم مطالع الربيع الممطر، والجمع بين الدلالة الثابتة أو القارة ودلالة المثال يظهر أن المطر هو المستقبل.

٧- خاتمة الرواية وهذا المثال تحديدا "ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، بل نصف ابتسامة فيها من السخرية ما يكفي لكتابة قصة حياة (...) قصة من الخوف على تونس وعلى أبنائها ما حول رائحة الدم الحار السائل من كبدها حبرا لزجا (...)؛ ليرسم حروف حبها لأرض تونس"(٣)، اختار لهذا المثال

(١) المرجع السابق، ص ١١٣.

(٢) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ١٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩٠.

هذا الموضع؛ ليعطي لقارئه شيئا من المعنى الذي اختصت به الرواية، فالخوف على تونس أوجد أرق النّار وقلق الماء، وبالدلالة المقصودة: أوجد أرق الحاضر وقلق المستقبل.

كل هذه المواضع وغيرها كثير تُظهر النسق السيميائي السائد الذي تشكّلت وفقا له بنية الرواية من عنصري العنوان، ومشتقاتهما ومقتضياتهما، ونهضت على انفرادهما حينا، وتعاضدهما حينا ثانيا ودلالة أحدهما على الآخر عند غيابه حينا ثالثا، وكل هذا يشير إلى أن ثمة نظاما علاماتيا تشكّل وفق دوال بعينها، ابتدأت من العنوان وارتدّت إليه، ويجدر بي هنا أن أشير إلى ما ذهب إليه د.أحمد الودرني؛ حيث يرى أن "تجربة النار" هي "هو إشارة لما كابدته مريم من أجل التعليم"(١)، وهذا جزء ممّا ذهبت إليه، لكنه حصرَه في تجربة طلب العلم، أمّا تأويلي فهو حاضر تونس أو أرق النار، وهو يشمل تلك المدة لزمنية بكل تجارب طبقات الشعب وأفراده.

(١) المرجع السابق، ص ٩.

المبحث الثالث: دلالات العنوان الفرعي

أشرت سابقا إلى العنوان الفرعي في علاقته بالعنوان الرئيس، وذكرت أنّه يحمل دلالة المدح بالنظر إلى سياق الرواية، وقد أتى باللغة العامية بينما جاء العنوان الرئيس بالفصحى، وهذا –كما سبق– دلالة على أن العنوان الرئيس بهذه اللغة موجّه إلى مجتمع أكبر؛ مجتمع اللغة العربية ومن عانى منهم من الاستعمار وما بعده، وأتى العنوان الفرعي باللهجة العامية بإشارة رمزية مخصوصة إلى تونس دون غيرها، وإن اتفقت بعض اللهجات العربية في نطق هذه العبارة؛ لأن سياق الرواية: المكان والزمان، والأحداث والشخصيات والحوار بالعامية يؤكد هذا التفسير؛ ولهذا اختار كلمة حكاية التي تعدّ –في مفهوم من مفاهيمها الذي يميز بينها وبين القصة–، فـ "القصة جنس أدبي، خاضع للنقد (..) الحكاية تكاد تكون موروثًا شعبيًّا، تولع به القصاصون الشعبيون، (القصخون)، ولا يندرج ضمن الأجناس الأدبية كونه لا يخضع لمعايير النقد"[(١)]. بهذا التعريف اقترب من المعنى الدلالي الذي ذهبت إليه في علاقة العنوان الفرعي بالرئيس والفئة التي يُعنى بها كلٌ منهما ويرمز إليها.

وللحكاية تعريف آخر –ضمن تعاريفها الكثيرة– ينحو النحو ذاته في تفسير العلاقة بين العنوانين سيميائيا، ويهتم بالتفريق بين الأحداث والوقائع وطرائق سردها[(٢)]، فيشير الأول للحكاية، ويحيل الثاني إلى القصة، أو أي جنس أدبي؛ كالرواية أو القصة القصيرة جدا وغيرهما، وبمعنى آخر: الفرق بين المتن والمبنى

(١) مؤمن الوزان، "الفرق بين القصة والحكاية"، استرجعت بتاريخ ١٣/ ربيع الآخر/ ١٤٤٣هـ من هذا الموقع: 3muminalwazan.com/1829

(٢) نعمان بوقرة، "المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب (دراسة معجمية)". (ط١، عمان – الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩م) ص ٥.

الحكائيين، وممن فرّق بينهما توماشفسكي الذي يرى أنّ المتن هو مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، أمّا المبنى الحكائي فهو الاحداث ذاتها مع مراعاة نظام ظهورها في العمل(١)، فالمبنى هو المعني بالأدوات الفنية، وفق الجنس الأدبي، وميثاقه القرائي.

وعليه؛ تبقى الأحداث والوقائع المشتركة تدين للبناء الفني أو السردي بالتمييز والتمايز بينها(٢)، وصنع بعضا من تأثيرها. ولعل في هذا الرأي تفسيرا لرمزية العلاقة بين العنوانين، فيشير العنوان الرئيس إلى المبنى الحكائي وآليات التشكل السردي، بينما يشير العنوان الفرعي إلى المتن الحكائي، وهذا التركيب يجمع كل دلالات الماء والنار – في العنوان الرئيس– ويسقطها على العنوان الفرعي، ولم يضع العنوان الفرعي بين قوسين، فيعلن –بهذه العلامة البصرية– التبعية المطلقة والمطابقة التامة بين العنوانين أو مفهوم التفسير، الذي لم يقصده المؤلف حيث أبقى مسافة دلالية تستوعب علاقة الافتراق بينهما كما استوعبت الاتفاق، فهو يريد بالرئيس والفرعي العموم والخصوص –كما سلف–؛ فكل وطن عربي وصف مقاومته الاستعمار وما خلّفه وراء بطريقته واضعا حدود خصوصيته أنساقا متعددة، أحدها –دون ريب– النسق الثقافي الذي وظّف في الرواية توظيفا سيميائيا، فمريم هي تونس –في تلك المدة الزمنية– التي قاومت كل القيود التي أراد المستعمر الفرنسي والأحزاب المتناحرة بعده؛ صدّ طموحها وعرقلة مسيرها وتشويه جمالها بالفساد. مريم هي تونس بما مرت به من مراحل حتى الانعتاق من الاستعمار، ويقابله في الرواية حصولها على شهادة الطب وعملها طبيبة(٣)، ولكن ما حدث بعد ذلك من أحداث داخلية، كانت الطعنة التي

(١) توما شفسكي، "نظرية المنهج الشكلي". (ط١، المغرب: مؤسسة الأبحاث العربية والشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٢م) ص١٨٠.

(٢) وهذا تابع لرأي الجاحظ في قضية اللفظ والمعنى.

(٣) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص٤٣٧.

وجهت إلى خاصرتها، وهي في طريقها إلى عملها[١]. واختارت أن يكون هذا الحدث، في تونس بعد عودتها من فرنسا وحصولها على الشهادة العلمية؛ مسايرا الحدث التاريخي، واعتراف فرنسا بتونس دولة مستقلة، وهذا الاستقلال هو دلاليا الشهادة التي حصلت عليها بعد الكفاح، وفي فرنسا تحديدا. ونغّص فرحة هذا الاستقلال ما حدث من اضطرابات وفساد، فكانت الطعنة بغرض السرقة إشارة إلى تدهور الأوضاع الأمنية والاقتصادية معا، وفي الرواية تصريح بهذا في مواضع كثيرة[٢]. ومن الضروري هنا أن أشير إلى ما قاله الدكتور الوردني في تقديمه حول هذه الدلالة: "هكذا تتضخم الرغبة في إظهار المفاتن فتختصر مريم الجميلة صورة تونس الجميلة"[٣]، لكنه في سياق الحديث عن الهاجس الجنسي عند مريم، التي رآها تريد إغراء الرجال[٤]، وفسر علاقتها بأحد أطفال الملجأ[٥] بعقدة أوديب وعقدة نوفاليس[٦]، وأختلف معه في هذا التأويل.

والحديث عن هذه الدلالة يستلزم الحديث عن دلالة أخرى كانت حاضرة منذ بداية السرد حتى آخره لم تظهر في العنوانين، لكنها كانت إشارة لها أهميتها في المتن والمبنى معا، وهي تثبت أن مريم سيميائيا هي تونس في الحاضر والمستقبل أو النار والماء كما ورد في العنوان الرئيس؛ وأعني الحلم الذي كان مكونا رئيسا في الرواية دون العنوان، ومرتبطٌ ارتباطا وثيقا بالعنوان الفرعي.

(١) المرجع السابق، ص ٤٨٩.
(٢) من أمثلتها ينظر ص ٢٠٥.
(٣) المرجع السابق، ص١٢.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص١٠.
(٦) المرجع نفسه.

فـ "الحلم بناء تخييلي وظيفته أن يلبي حاجةً أو رغبةً، أو أن يسدَّ افتقارا ويكون ذلك إما في اليقظة وإما في النوم، فهو إذن نشاط حلمي تقوم به الشخصية الروائية ضمن نشاطاتها المختلفة باختلاف برامجها القصصية"(١)، والحلم في الرواية يتمثل في أحمد زوج مريم الذي كان طيفه يلاحقها من بداية الرواية، وكان نهايتها، فقد كان موته في أحد المناجم كغيره من طبقة العمال الكادحة التي هضمت حقوقها(٢)، ولم يُعدّ لهم ما يضمن سلامتهم.

ويتسق الحلم هنا مع قلق الماء –أو المستقبل– وينتظم ضمن دلالته السيميائية، فطيف زوجها هو الماء المنهمر حينا والمحتبس حينا آخر، والذي يرد ظمأها إلى الرجل الذي أحبته وظلت تنتظره والدماء تنزف من جسدها(٣)، بينما كان الفقد هو أرق النار –أو الحاضر–؛ إنها تحاكي حاضر تونس الجريحة التي تنتظر المستقبل المزهر، وبهذا ينقسم إلى الدلالتين معا ولو نظرنا إلى علاقته الدلالية بالعنوان الفرعي، فقد فسرت – سابقا– جملة: (مُرا ونصف) في سياق الثقافي المدحي، وهنا سأذهب إلى تفسير آخر ضمن النسق الثقافي –أيضا– يقودنا بدوره إلى مفهوم سيميائي يحمله هذا العنوان الفرعي بالنظر إلى جملة أخرى: (النصف الآخر)، ويقصد بها الزوج أو الزوجة، عندما ينطقها، أحدهما، وبما أن الجملة الثقافية "مفهوم يمس الذبذبات الدقيقة للتشكل الثقافي الذي يفرز صيغه التعبيرية المختلفة"(٤)، وباعتبار هذا المعنى يكون مضمن العنوان: حكاية مريم وأحمد، وسيميائيا: حكاية تونس وانتظار المستقبل المزهر. ونهاية

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص٤٩٠.

(٤) عبد الله الغذامي، "النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية". (ط٥، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢م)، ص٧٣.

السرد يؤيد ما ذهبت إليه: "تقدّمت نحو السيارة السوداء الفخمة التي ستزف فيها إلى زوجها أحمد مرة أخرى.. ناولها أحمد مشموم فل كبيرا ومدّ لها كفه (...) ابتسمت له، وسلّمته المشموم وتقدّمت وأمسكت زوجها من ذراعه... زوجها الذي انتظرته وانتظرته و انتظرته حياتها كلها ولاتزال تنتظره..."(١)، ما في هذا النص من اختيارات لفظية يذهب على أن مريم هي تونس وأحمد هو المستقبل المزهر المنتظر ويشير في (مرة أخرى) في قوله: "ستزف فيها إلى زوجها أحمد مرة أخرى" إلى أن المرة الأولى كانت الاستقلال –الحاضر– الذي اغتيلت فرحته، فيكون العوض بمستقبل يبنى بسواعد المخلصين من أبناء تونس، ويدل حديث بطلة الرواية مع فضيلة زميلتها مشرفة دار الأيتام على هذا المعنى: "أختي فضيلة قولي بالله عليك إذا كانت تونس الآن هكذا ونحن في بداية الاستقلال والبناء والتأسيس فكيف ستصبح بعد نصف قرن؟!!!

ابتسمت المشرفة وأجابتها بكل ثقة واطمئنان: –ستصبح سويسرا أفريقيا إن شاء الله طبعا ... سي لحبيب يقول: سأجعل من تونس كاليفورنيا العرب"(٢).

(١) ابن رمضان، "أرق النار وقلق الماء"، ص٤٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٠.

الخاتمة

تظهر الدراسة العلاقة الوطيدة بين عنواني الرواية، واتساق دلالتهما السيميائية التي تؤصل حاضر تونس ومستقبلها ضمن أنساق انزياحية وثقافية؛ فالعنوان الرئيس انقسم إلى الحاضر والمستقبل معبرا عن الأول بـ "أرق النار"، وعن الثاني بـ "قلق الماء"، بينما صنع العنوان الفرعي سيميائيته ضمن جملتين ثقافيتين انطوى تحت كل منهما نسق ثقافي يحمل الدلالة السيميائية ذاتها، فالأول ظاهرٌ في ملفوظ العنوان –حكاية مرا ونصف–، وجاء الثاني مضمنا يتكئ على مفهوم الحلم الذي كان ضمن ثلاثية قام عليها السرد في هذه الرواية، وأقصد: النار والماء والحلم، فجاء معبرا عن النصف بالرجل الذي كان يأتي على هيئة حلم يعبر عن مستقبل تونس المؤمل به الرقي و تجاوز الحاضر بكل سلبياته.

وامتدّت العنونة المركبة في تفاصيل الخطاب كاملا وانتظمت في بنيته، واتخذت مفردتا العنوان الرئيس تشكلات متعددة بدلالات سيميائية مختلفة اندرجت كلها في النهاية تحت نسق عام يحمل دلالة الحاضر والمستقبل.

وأخيرا؛ استطاع الروائي أن يعنون روايته بالتماهي مع العنونة الأكاديمية بوصفه أكاديميا يعمل في البحث والإشراف؛ مع الاختلاف عنها بالرمزية والإيحاء واللذين لا يقبلهما البحث العلمي، ويحتاجهما العمل الأدبي ومؤوله.

المصادر والمراجع

المصادر:

ابن رمضان، صالح، "أرق النّار وقلق الماء (حْكاية مْرا ونصف)"، ط١، الدار المتوسطية للنشر، تونس،٢٠١٦م.

المراجع:

ألجير داس وفونتيني، غريماس وجاك. "سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس)"، تر: سعيد بنكراد. ط١، بيروت، الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦م.

بريمي، عبد الله. "السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج وبول ريكور". ط١، الشارقة، دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠١٠م.

بنكراد، سعيد. "السيميائيات والتأويل (مدخل لسيميائيات ش.س.بورس)". (ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،٢٠٠٥م).

بوقرة، نعمان. "المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب (دراسة معجمية)". ط١، عمان – الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩م ،١٥.

توما شفسكي. "نظرية المنهج الشكلي". (ط١، المغرب: مؤسسة الأبحاث العربية والشركة المغربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٢م) ص١٨٠.

الجزار، محمد فكري. "العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبي". (د–ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م).

حسين، خالد حسين. "في نظرية العنوان: مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية". (ط١، دمشق، دار التكوين،٢٠٠٧م).

حضري، جمال. "سيميائية النصوص: عرض وتطبيق منهجي". (ط١، بيروت، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠١٥م).

شاندلر، دانيال. "أسس السيميائية ". (ط١، تر: طلال وهبة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨م).

الصفراني، محمد. "التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث (١٩٥٠-٢٠٠٤م". (ط١، الرياض، النادي الأدبي بالتعاون مع المركز الثقافي بالدار البيضاء، ٢٠٠٨م).

الغذامي، عبد الله محمد. "النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية". (ط٥، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢م).

مالك، رشيد. "من المعجميات إلى السيميائيات". (ط١، الأردن، دار مجدولاي للنشر والتوزيع،٢٠١٢م).

مداس، أحمد. "السيمياء والتأويل (دراسة إجرائية في آليات التأويل وحدوده ومستوياته). (ط١، الأردن، عالم الكتب الحديث،٢٠١١م).

الرسائل:

أروى الحكمي، الوصف في رواية (أم الحسن) لصالح رمضان، (دراسة إنشائية)، رسالة الماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أشراف: د. محمد القسومي، ١٤٣٩هـ.

وفاء، معمولي، المهاتما غاندي وسياسة اللاعنف ١٨٦٩- ١٩٤٨م، رسالة ماجستير، جامعة خيضر، محمد، (بسكرة)، إشراف: إبرير حمودي، ٢٠١٤م.

الأبحاث:

بوطويل، سارة، العتبات النصية، في رواية الأسود يليق بك لأحلام مستغانمي، الجزائر، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية الإنسانية، جامعة حسيبة بوعلي، الآداب والفلسفة، ع٢، مج ١٣، ٢٠٢١ م.

تامن، كوثر، سيميائية العنوان في رواية "عائلة من فخار" لمحمد مفلاح، الجزائر، مجلة

اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، مج ٢١، ع٤٥، ٢٠١٩م.
حسانين، عطية محمود، رؤية دلالية في ثنائية التناوب بين الماء والدم في الشعر العربي، ماليزيا، كلية معارف الوحي، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد الثاني، السنة الحادية عشرة، ديسمبر٢٠١٩ م.
الطائي، لطيف يونس حمادي، سيميائية العنوان في ديوان شظايا ورماد لنازك الملائكة، مجلة مداد الآداب، ع١٢.
عبد القادر، سعد، النار في ديوان أفريقيا لناشع محيي الدين فارس، دراسة دلالية تحليلية، مجلة الآداب، العدد ٥، ٢٠٢٢م.
عتيق، عمر، دراسة سيميائية في ديوان (تلاوة الطائر الراحل) لسامي المهنا، المجمع، ع٧، ٢٠١٣م.
لفتة والعاصي، ضياء وأزهار، رمزية الماء في رواية (كاهنات معبد أور)، الكرك، الأردن، ٢٥، القسم الأول، ٢٠١٨م.

المقالات:

حمداوي، جميل، دلالات الخطاب الغلافي في الرواية، استرجعت بتاريخ: ٢٥/سبتمبر/ ٢٠٠٨، مقال على هذا الرابط: https://diwanalarab.com
الوزان، مؤمن. "الفرق بين القصة والحكاية" استرجعت بتاريخ ١٣/ ربيع الآخر/ ١٤٤٣هـ من هذا الموقع: muminalwazan.com/1829

Bibliography

First- Resources

Bin Ramadan, Saleh, Fire Insomnia, Water Anxiety (Story of Mara and a Half) (in Arabic), (1st edition, Al-Dar Al-Mutawasiteeah for Publications).

Second-References:

Aljeer Das and Fonti, Gremacs and Jack. "Semantics of Desires'' (From the Things Statues to the Human Statues) translated by: Trasaeed Binkrad. 1st Ed., Beirut, Tunisia, United new book, 2006.

Bermi, Abdullah. "The Interpretive Process in Hermeneusia Hance George and Paul Recor'' (in Arabic). Ed 1, Sharja, Ministry of Cultural and Media, 2010.

Benkrad, Saeed. "Semiotic and Interpretation'' (Introduction to Semiotic Sh, S, Boris). (1st ed., Casablanca, Arab cultural center, 2005).

Boqarah, Norman. "The Basic Concepts of the Text Linguistics and Discourse Analysis'' (Lexical Study) (in Arabic). 1st Edition. Amman-Jordan: Modern Books' World, 2009).

Toma Shevsky. ''Formatic Method Theory'' (in Arabic). (1st Edition, Morocco: The Arab Research Foundation and United Moroccan Publishers Company, 1982, p180.

Al-Jazzar, Muhammad Fekry. "The Title and the Semiotics of literature Communication'' (in Arabic). (Cairo General Egyptian Book Authority, 1998).

Husain, Khalid Husain. "In the theory of the title: An Interpretive Adventure in Text Thresholds Matters" (in Arabic). (1st Edition, Damascus, Dar Altakween, 2007).

Hadari, Jamal. "Semiotics of the Texts: Systematic Presentation and Application'' (in Arabic). (1st ed., Beirut: Majd institution for Studies, Publishing, and Distributions, 2015.

Sandler, Daniel. "Semiotic Foundations". Translated by:Talal Wahbah, 1st ed., Beruit, Arab Unity Studies Centre,2008).

Al-Safrani, Muhammad. "Visual Representations of Modern Arabic Poetry. (1950-2004)" (in Arabic) 1st ed., Riyadh: Literature Club in collaboration with Cultural Centre in Casablanca, 2008.

Al-Gadhami, Abdullah, Muhammad. "Cultural Criticism: Reading in

Arabic Cultural Styles" (in Arabic). (5th ed., Casablanca. Arabic Cultural Center, 2012).

Malik. Rasheed. "From Lexicography to Semiotics" (in Arabic). (1st ed., Dar Majdolee for Publications and Distribution, 2012).

Madas, Ahmed. "Semiotics and interpretation (a procedural study of the mechanisms, limits, and levels of interpretation) (in Arabic). (1st ed., Jordan, Modern Book World, 2011).

Third- Thesis:

Wafaa, Mamoli. "Mahatma Gandhi and the Politics of None-Violence 1869-1948" (in Arabic). Master Thesis. Khadir University, Mohammad, (Baskrah). Supervised by: Ibreer Hamodi, 2014.

Fourth-Researches:

Bou Taweel, Sarah. "Text Thresholds, In the novel Black Suits You by Ahlam Mostghnami" (in Arabic). Algeria, The Academy for Social and Human Studies, Haseeba Bo Ali University. Arts and Philosophy. issue 2, vol. 13, 2021.

Tamen, Khawtharr. "Semiotic of Title in ''Family Made from Pottery'' novel. Mohammad Meflah (in Arabic). Algeria, Arabic Language Journal, Supreme Council for Arabic Language, Vol. 21, iss. 45, 2019.

Hassanin, Atiyyah Mahmoud. "Semantic Vision in Polarity of Shifting between Water and Blood in Arabic Poetry" (in Arabic). Malaysia, Vol. 2, Eleventh year, December 2019.

Al-Ṭāʾī, Lateef Younus Hamadi. "The semiotics of the title in the collection of fragments and ashes by Nazik al-Malaika" (in Arabic). Medad al-Adab Journal, iss. 12.

Abd Al-Qadir, Saʿd. "Fire in African Collection by Nashie Muhyi Al-Deen Faris, An analytical semantic study" (in Arabic). Al-Ādāb journal, Volume 5, 2022.

Ateeq, Omar. "Semiotic in the (Recitation of the Departed Bird'' Collection by Sami Almahna, the complex, iss.7, 2013.

Lafta and ʿĀsi. "Light and flowers, the symbolism of water in the novel (Priestesses of the Temple of Awr)" (in Arabic). Karak, Jordan, 25, first section, 2018.

Fifth-Articles:

Hamdawi, Jameel. "Semantics of the Cover Discourse in the novel" (in Arabic), Retrieved on date 25/ September/ 2008, Article on this Link: https://diwanalarab.com

Al-Wazān,Muamin. "The Difference between Story and Narration" (in Arabic). Retrieved on 13/ Rabb'a AlAaker/ 1443 on this link: muminalwazan.com/1829/.

قراءة تحليلية تقويمية للكتاب الثالث من سلسلة العربية للعالم في ضوء معايير إعداد كتب تعليم العربية لغة ثانية

An Evaluative Analytical Reading of the Third Book of the Arabic for the World Series in Light of the Standards for Preparing Books Teaching Arabic as a Second Language

د. مشاعل بنت ناصر آل كدم

أستاذ مساعد بقسم الإعداد اللغوي بمعهد تعليم اللغة العربية للناطقات بغيرها

بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

البريد الإلكتروني: mnalkadam@pnu.edu.sa

الملخص

هدفت هذه الدراسة إلى التحقق من مدى مراعاة سلسلة العربية للعالم الكتاب الثالث، لأسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية. وذلك من خلال معرفة المعايير التي يجب أن تقوم عليها كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية، وطريقة بناء السلسلة للكتاب الثالث وإخراجه، وكيف قدَّم المحتوى اللغوي، وكيفية عرضه للمحتوى الثقافي، وكيف جاءت أنشطته وتدريباته، ومواده التعليمية المصاحبة له. وانطلاقاً من أهمية كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية، وجب الوقوف عليها؛ لإبراز جوانب القوة فيها وتعزيزها، وحصر جوانب الضعف لتقويمها وتطويرها وتحسينها بعد تحليلها. وعليه جاءت الدراسة في مبحثين: الأول نظري، ذكرت فيه الباحثة مفهوم التقويم، وأهمية تقويم كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وأسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها. أما المبحث الثاني فتناول الجانب التطبيقي، ويقوم على تحليل وتقويم الكتاب (عينة الدراسة) من خلال عدة محاور، تتمثل في: إعداد الكتاب وإخراجه، والمحتوى اللغوي، والمحتوى الثقافي، والأنشطة والتدريبات، والمواد المصاحبة. وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لتقويم الكتاب (عينة الدراسة) في ضوء أسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية. وخلصت الدراسة إلى عدد من النتائج، أبرزها: أن الكتاب الثالث من سلسلة العربية للعالم قدم مهارات وعناصر اللغة في نظام تكاملي متدرج في الوحدة التعليمية، وأنه لم يبرز الثقافة العربية أو السعودية وقيمها، إلا في موضوعات محددة، ولم يُفعِّل الشريك اللغوي، وأغفل الرحلات الثقافية، والزيارات

الميدانية، التي لها دور كبير في إكساب المتعلم اللغة، وتمكينه منها. وأوصت الدراسة بضرورة إعادة النظر في محتوى الكتاب، والقيام على تحديثه وتطويره، بما يتناسب مع أحداث العصر الحالي، وإجراء التعديلات اللازمة على نصوصه، وصوره، وأنشطته، وإبراز الثقافة العربية والسعودية، وقيمها من خلالها.

الكلمات المفتاحية: إعداد الكتاب، العربية للعالم، المحتوى اللغوي، المحتوى الثقافي، تحليل المحتوى، تقويم المحتوى.

Abstract:

This study aimed to verify the extent to which the Arabic for the World Series, Book Three, takes into account the principles and standards for preparing books teaching Arabic as a second language. This is through knowing the standards upon which books teaching Arabic as a second language must be based, the way the series was built and produced for the third book? how it presented the linguistic content? how it presented the cultural content? and how its activities, exercises, and accompanying educational materials came about? Based on the importance of books teaching Arabic as a second language, it is necessary to review them, highlight and enhance its strengths, and identify its weak aspects in order to evaluate, develop and improve them after analyzing them. Accordingly, the study consisted of two sections: the first a theoretical, in which the researcher mentioned the concept of evaluation, the importance of evaluating books teaching Arabic to non-native speakers, and the foundations and standards for preparing books teaching Arabic to non-native speakers. The second section deals with the applied aspect, and is based on analyzing and evaluating the book (study sample) through several axes, namely: preparing and producing the book, linguistic content, cultural content, activities and exercises, and accompanying materials. The study adopted a descriptive analytical approach to evaluate the book (study sample) in light of the foundations and standards for preparing books teaching Arabic as a second language. The study concluded with a number of findings, most notably: that the third book of the Arabic for the World series presented language skills and elements in a gradual, integrated system in the educational unit, and that it did not highlight Arab or Saudi culture and its values, except in specific topics, it did not activate the linguistic partnership, and neglected cultural excursions and field visits, which have a major role in providing the learner with the language and empowering him with it. The study recommended the necessity of reconsidering the content of the book, updating and improving it in a way that suits the events of the current era, making the necessary amendments to its texts, images, and activities, and highlighting Arab and Saudi culture and its values through them.

Key Words: Book preparation, Arabic for the World, linguistic content, cultural content, content analysis, content evaluation.

المقدمة:

يعد الكتاب التعليمي عنصراً أساسيا، وأحد ركائز مكونات المنهج الرئيسية في أي مرحلة تعليمية، وتتحقق أهداف العملية التعليمية المراد تحقيقها من خلال محتواه اللغوي والثقافي، إضافة إلى باقي مكونات المنهج من أنشطة، وتدريبات، وطرق تدريس، ومصاحبات(١).

فإعداد الكتاب التعليمي، أو المواد التعليمية، واختيارها من أصعب الأمور التي تواجه معديها، وذلك لأن أيّاً منها يحتاج إلى مجموعة من المعايير والمواصفات التي تجعل العملية دقيقة وعلمية(٢) .

إذ يشكل الكتاب التعليمي لمتعلم العربية لغةً ثانية، وسيلةً أساسيةً وأداةً مهمةً في العملية التعليمية، تعينه على تحقيق أهدافه التعليمية وتلبي حاجاته؛ لذا ينبغي على مُعدّي كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها وسلاسلها أن يعتنوا بجودتها ومدى فعاليتها في التعليم، لكي تحقق نواتج التعلم المرجوة، فقد أشارت بعض الدراسات السابقة التي قامت بتقويم كتب ومناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، إلى الحاجة الماسة لإجراء مزيد من الدراسات في هذا الجانب لتحسينه؛ كي تواكب التطور المعرفي الذي نشهده في عصرنا الحالي، وفقاً لمعايير مناسبة، وتحقيقاً للأهداف المرجوة من الكتاب التعليمي.

وانطلاقا من أهمية كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية، فقد بات من الضروري تقويمها وتطويرها وتحسينها بعد تحليلها، والوقوف على جوانب القوة فيها؛ لتعزيزها،

(١) ناصر عبد الله الغالي، وعبد الحميد عبد الله، "أسس إعداد الكتب التعليمية لغير الناطقين بالعربية". (دار الاعتصام، ١٩٩١)، ٧.

(٢) محمود كامل الناقة، ورشدي أحمد طعيمة، " الكتاب الأساسي لتعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى إعداده– تحليله– تقويمه". (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٩٨٣)، ٢٧.

وجوانب الضعف؛ لمعالجتها وتلافيها، ومن هذا المنطلق قامت الدراسة الحالية بالتحقق من مدى مراعاة سلسلة العربية للعالم "الكتاب الثالث" لأسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية. وذلك من خلال معرفة المعايير التي يجب أن تقوم عليها كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية، وطريقة بناء سلسلة العربية للعالم للكتاب الثالث وإخراجه، وطريقته في تقديم المحتوى اللغوي من مهارات، وعناصر لغوية، وعرضه للمحتوى الثقافي، والأنشطة والتدريبات، والمواد المصاحبة.

وقد جاءت هذه الدراسة في مبحثين تسبقهما مقدمة، وتعقبهما خاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع، وسنعرض ذلك كما يلي:

المقدمة: وتضمنت مشكلة الدراسة، وأهميتها، وأهدافها، وخطتها، والمنهج المتبع فيها، والدراسات السابقة.

المبحث الأول: الجانب نظري، ويشتمل على:

١- مفهوم التقويم.

٢- أهمية تقويم كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

٣- أسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي: ويتثمل في تحليل وتقويم سلسلة العربية للعالم "الكتاب الثالث"، من خلال المعايير الآتية:

١- المعيار الأول: إعداد الكتاب وإخراجه.

٢- المعيار الثاني: المحتوى اللغوي.

٣- المعيار الثالث: المحتوى الثقافي.

٤- المعيار الرابع: الأنشطة والتدريبات.

٥- المعيار الخامس: المواد المصاحبة.

الخاتمة: وتشمل النتائج، والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة، ومقترحاتها.

قائمة المصادر والمراجع: وتضم الكتب والدراسات التي استفادت منها الدراسة.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في وجود العديد من الكتب والسلاسل والمناهج التعليمية المهتمة بتعليم اللغة العربية لغة ثانية التي تختلف في بنائها ومحتواها التعليمي واللغوي والثقافي عن كتب وسلاسل ومناهج تعليم اللغة العربية لأبنائها الناطقين بها؛ لما لتلك الكتب من خصوصية تعليمية ولغوية وثقافية تميزها عن غيرها من الكتب، إذ يُشكل الكتاب التعليمي لمتعلم العربية لغةً ثانية العنصر الأساسي للعملية التعليمية، وعليه لا بد أن يُقدم هذا الكتاب بعناية، وفقاً للأسس والمعايير الخاصة ببناء كتب وسلاسل متعلمي اللغة العربية لغةً ثانية، لما من شأنه أن يسهم في جودة بنائه وإخراجه؛ تلبية لحاجات وأهداف متعلم العربية لغةً ثانية.

وبناء على ذلك تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس الآتي:

ما مدى مراعاة سلسلة العربية للعالم "الكتاب الثالث" لأسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية لغة ثانية؟

ويتفرع من هذا السؤال الأسئلة الفرعية الآتية:

١. ما المعايير التي يجب أن تقوم عليها كتب تعليم اللغة العربية لغة ثانية؟
٢. كيف جَاء بناء الكتاب الثالث في سلسلة العربية للعالم وإخراجه الفني؟
٣. كيف قَدم الكتاب الثالث في سلسلة العربية للعالم المحتوى اللغوي؟
٤. كيف قدّم الكتاب الثالث في سلسلة العربية للعالم المحتوى الثقافي؟
٥. كيف قَدم الكتاب الثالث في سلسلة العربية للعالم أنشطته وتدريباته؟
٦. هل قَدم الكتاب الثالث في سلسلة العربية للعالم المواد المصاحبة له؟

وبناء عليه، فقد جاءت هذه الدراسة الفاحصة لسلسلة العربية للعالم "الكتاب الثالث"؛ للتحقق من مدى تطبيقه لهذه الأسس والمعايير، والوقوف على نقاط القوة

وتعزيزها، وحصر نقاط الضعف؛ سعياً إلى تقويمها، وحث القائمين عليه لتطويره.

أهمية الدراسة وأهدافها:

الكتاب الجيد هو الذي يحرص مؤلفوه على إشباع حاجات وميول متعلميه، من خلال اختيار مادته العلمية واللغوية، وفق أسس ومعايير علمية[١]، ومن ثَمّ يُحكم على جودة الكتاب من خلال ما تعكسه نواتج تعلم المتعلمين، وأثره عليهم علمياً [٢]. وعليه تنبع أهمية الكتاب من دوره الفعال في إنجاح العملية التعليمية، وكونه وعاء للمادة التعليمية التي تُعد من أهم وسائل تحقيق الأهداف، وإذا كان الكتاب التعليمي يحظى بتلك الأهمية، كان لا بد من الاهتمام بجودته، وتوافُق شروطه ومواصفاته وأسسه وأحكامه التي ينبغي توافرها فيه مع المعايير السليمة المتعارف عليها؛ وصولاً إلى تعليم وتعلم فاعل يقودان إلى عملية ناجحة[٣] . وتهدف هذه الدراسة إلى مساعدة القائمين على كلٍ من:

١- تحليل وتقويم كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

٢- تأليف كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، في بنائها، وإعدادها.

كما أنها تهدف إلى التعرف على مدى مراعاة سلسلة العربية للعالم "الكتاب الثالث" لأسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية، محاوِلةً تقديم بعض التوصيات والمقترحات التي تسهم في تحسين الكتاب -عينة الدراسة-.

---

(١) الغالي، وعبد الله، "أسس إعداد الكتب التعليمية لغير الناطقين بالعربية"، ٧٥.

(٢) ختام محمد الوزان، ونادية مصطفى العساف، ودلال محمد العساف، "تحليل كتب المستويات الثلاثة المبتدئة في مركز اللغات بالجامعة الأردنية في ضوء أسس إعداد الكتب التعليمية للناطقين بغير العربية"، مجلة دراسات ٧٣ (٢٠١٨): ١٣.

(٣) محمد إبراهيم الفوزان، "تقويم كتاب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها "العربية للعالم" في ضوء معايير الكتاب التعليمي الجيد"، مجلة العلوم التربوية ٢١، (٢٠١٩): ٢٩٤.

عينة الدراسة ومنهجها:

تتمثل عينة الدراسة في سلسلة العربية للعالم "الكتاب الثالث"، واتبعت الباحثة في هذه الدراسة المنهج الوصفي؛ لتقويم الكتاب –عينة الدراسة– في ضوء أسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

الدراسات السابقة:

مما لا شك فيه أن موضوع تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، بوصفها لغةً ثانية، موضوع قد تناوله عدد من الباحثين بالدراسة، إلا أن موضع هذا البحث يختلف عنها في موضوعه، وهو الكتاب الثالث من سلسلة العربية للعالم، ومن تلك الدراسات:

١– دراسة (التميمي، ٢٠٢٠)[١]: الكتب التعليمية، واتجاهاتها في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها (كتاب العربية بين يديك الجزء الأول أنموذجاً)، هدفت إلى تحديد الأسس التي يقوم عليها إعداد المناهج وإخراجها، ومعرفة مدى التزام الكتاب الأول، طبعة ٢٠٠٧ من سلسلة العربية بين يديك، بهذه الأسس. واستخدم الباحث المنهج الوصفي، وكان من أبرز نتائج الدراسة اهتمام الكتاب بمهارة القراءة، ووجود تنوع في تدريبات الكتاب ما بين أسئلة موضوعية، وتوصيل، وإكمال الفراغ.

٢– دراسة (الفوزان، ٢٠١٩)[٢] : تقويم كتاب اللغة العربية للناطقين بغيرها "العربية للعالم" في ضوء معايير الكتاب التعليمي الجيد، التي هدفت إلى

(١) خالد حفظي التميمي، "الكتب التعليمية، واتجاهاتها في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها (كتاب العربية بين يديك الجزء الأول أنموذجا)". مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ٤٨ ، (٢٠٢٠):١٨٧–٢٠٠.

(٢) محمد إبراهيم الفوزان، "تقويم كتاب اللغة العربية للناطقين بغيرها "العربية للعالم" في ضوء معايير الكتاب التعليمي الجيد". مجلة العلوم التربوية٢١، (٢٠١٩): ٢٨٩–٣٣٨.

تقويم الكتاب الثاني من سلسلة العربية للعالم المقرر على طلاب المستوى الثاني من متعلمي اللغة العربية الناطقين بغير العربية بمعهد اللغويات العربية بجامعة الملك سعود، وذلك في ضوء مجموعة من المعايير الحديثة للكتاب التعليمي الجيد. قام الباحث ببناء المعايير التي تتعلق بمقدمة الكتاب وأهدافه ومحتواه وصوره ورسوماته وأساليب تقويمه وإخراجه الفني، واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، وقام بتحليل الكتاب في ضوءها، وقد توصل البحث إلى عدة نتائج من أبرزها؛ أن جودة كتاب العربية للعالم تحققت بدرجة كبيرة في أهدافه وصوره ورسوماته وإخراجه الفني، في حين تحققت جودة الكتاب بدرجة متوسطة في مقدمته ومحتواه وأنشطته وأساليب تقويمه، وقدم في ضوء هذه النتائج عددًا من التوصيات.

٣- دراسة (فراج، ٢٠١٧)[(١)]: العربية بين يديك لتعليم العربية للناطقين بغيرها: دراسة نقدية لغوية تربوية في ضوء اللسانيات التطبيقية. هدفت الدراسة إلى تحليل الكتاب الأول من سلسلة العربية بين يديك؛ لتحديد طريقة بناء المؤلفين للكتاب، وطرق تقديم المفردات والنصوص والقضايا النحوية والأسلوبية، ونسبة الأخطاء النحوية والإملائية والأسلوبية والاجتماعية، وأثرها في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها. واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي من خلال تحليل الأخطاء وتحليل المحتوى. وكان من أبرز نتائج الدراسة عدم وجود تدريبات وأسئلة في مستوى الفهم، والاستيعاب، والتحليل، وكان التركيز على مستويات التطبيق المباشر، والمعرفة، والتذكر.

(١) خالد خميس فراج، "العربية بين يديك لتعليم العربية للناطقين بغيرها: دراسة نقدية لغوية تربوية في ضوء اللسانيات التطبيقية". مجلة لساننا، ٢، (٢٠١٧): ١٨٨-٢١٢.

٤- دراسة (الفوزان، ٢٠١٦)[١] عنوانها: تقويم محتوى كتاب تعليم العربية للناطقين بغيرها "العربية بين يديك" من وجهة نظر المدرسين والطلاب بجامعة الملك سعود. هدفت الدراسة إلى تقويم الكتاب الثالث من سلسلة كتب العربية بين يديك من وجهة نظر المدرسين والمعلمين والطلبة. واستخدم الباحث المنهج الوصفي، وكان من نتائج الدراسة أن نظرة المعلمين للكتاب نظرة سلبية أكثر من الطلبة، كما أظهرت النتائج اتفاق المعلمين والطلبة على توافر بعض المعايير المحددة في الاستفتاء الذي صممه الباحث، وفي ضوء تلك النتائج أوصى الباحث بضرورة إعادة النظر في محتوى الكتاب الثالث من سلسلة العربية بين يديك؛ ليلائم الفروق الفردية للطلبة، وحاجاتهم اللغوية.

٥- دراسة (العليمات، الربابعة، والعلي، ٢٠١٥)[٢]: تقويم الكتاب السادس في تعليم العربية للناطقين بغيرها في الجامعة الأردنية، التي توصلت إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المعلمين والطلبة في تقييمهم للكتاب في المقدمة، والأهداف، والوسائل التعليمية، والتقييم، ومصاحبات الكتاب، والإخراج، وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المعلمين والطلبة في تقييمهم لمحتوى الكتاب، وطريقة عرضه، وتدريباته، والانطباع العام، وأوصت الدراسة بضرورة إعادة النظر في الكتاب؛ بهدف تقويمه، والارتقاء بمستواه، وزيادة فاعليته.

---

(١) محمد إبراهيم الفوزان، "تقويم محتوى كتاب تعليم العربية للناطقين بغيرها "العربية بين يديك" من وجهة نظر المدرسين والطلاب بجامعة الملك سعود". مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية ٧، (٢٠١٦): ١٥٩-١٨٣.

(٢) فاطمة العليمات، ومحمد العلي، وإبراهيم الربابعة، "تقويم الكتاب السادس لتعليم العربية للناطقين بغيرها في مركز اللغات في الجامعة الأردنية من وجهة نظر المعلمين والطلبة". مجلة أبحاث لسانية،٣١، (٢٠١٤)، ٧٣-١٠١.

٦- دراسة (العليمات، ٢٠١١)[١]: تقويم الكتاب الثاني لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في المعهد الدولي لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في الجامعة الأردنية من وجهة نظر المعلمين والطلبة. هدفت الدراسة إلى تقويم كتاب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها المقرر لتدريس المستوى الثاني في المعهد من وجهة نظر مُدَرِّسِي هذا الكتاب والطلبة الذين يدرسونه، وذلك للوقوف على مستوى إعداده وإبراز جوانب القوة والضعف فيه، في ضوء مجموعة من المعايير العالمية لتأليف الكتب التعليمية. وكان من نتائجها: أن فقرات الأداة روعِيت في كتاب المستوى الثاني بدرجة مرتفعة حسب درجة المعيار التي اعتمدته الدراسة. وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين الأساتذة والطلاب في تقييمهم لكتاب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها المقرر لتدريس المستوى الثاني.

٧- دراسة (شعيب، ٢٠٠٩)[٢]: تحليل كتب اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، سلسلة العربية بين يديك نموذجاً، هدفت الدراسة إلى تحليل سلسلة العربية بين يديك للوقوف على عدد ونوعية المفردات والتراكيب ومدى شيوعها، وتقويمها، ومدى ملاءمة المحتوى للطالب المتعلم وثقافة المجتمع، والتأكد من ترابط الموضوعات، وكذلك الوقوف على الطريقة الملائمة في تدريسها، والتعرف على المعينات المصاحبة، والوقوف على مرشد المعلم ومدى ملاءمته لهم. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وكان من أبرز نتائجها أن الزمن المخصص للسلسة مناسب، وأنها تقدم تدريبات متنوعة تراعي الفروق الفردية بين

(١) فاطمة العليمات، "تقويم الكتاب الثاني لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في المعهد الدولي لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في الجامعة الأردنية من وجهة نظر المعلمين والطلبة". مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية ٣، (٢٠١١): ٩٣٩-٩٥١.

(٢) أبو بكرعبدالله شعيب، "تحليل كتب اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، سلسلة العربية بين يديك نموذجاً".(رسالة دكتوراه، الخرطوم: جامعة النيلين، ٢٠٠٩):١-٢٦١.

الدارسين، وتتبع نظاماً ثابتاً في توزيع الدروس، وفي تقديم تدريبات العناصر اللغوية والمهارات، وترد المفردات والتراكيب في النص، ثم تتكرر في بقية الدروس، وهذا يؤدي إلى تثبيتها وحفظ المفردات.

ما يميز الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة:

الدراسات السابقة تهتم جميعها بسلاسل وكتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها على اختلاف توجهها؛ فمنها ما يعنى بتحليل أو تقويم المحتوى، ومنها ما يقوم على بناء وإعداد قوائم معايير لتقييم تلك الكتب أو المناهج التعليمية، ومنها ما اعتمد على استبانات للتحليل والتقويم، ونلحظ أن البعض منها اتبع المنهج الوصفي التحليلي، والبعض الآخر اتبع المنهج الوصفي التقويمي.

فالدراسة الحالية تتفق مع الدراسات السابقة في أنها: اهتمت بتحليل، وتقويم سلسلة العربية للعالم الكتاب الثالث، في ضوء معايير وأسس إعداد كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية، واعتمدت المنهج الوصفي.

أما ما تميزت به الدراسة الحالية عن تلك الدراسات فهو أنها تناولت موضوعاً جديداً لم يسبق أن دُرِس من قبل –على حد علم الباحثة–، وهو الكتاب الثالث من سلسلة العربية للعالم، حيث تناولته بالدراسة والنقد، فأبرزت جوانب القوة فيه؛ لتعزيزها وتطويرها، وكشفت عن مواطن الضعف؛ لتصحيحها، وتفاديها، وتجنب الوقوع فيها مرة أخرى عند إعداد كتب وسلاسل أخرى من كتب تعليم العربية للناطقين بغيرها.

المبحث الأول: الجانب النظري

أولاً: مفهوم التقويم:

التقويم في اللغة: من الفعل (قوّم)، واستعمل الفعل في الشعر، فيقل: استقام الشعر: اتزن. وقوّم درْأه: أزال عِوَجه[١]. ويُطلق التقويم في اللغة على: التسوية، والتعديل، والتصحيح، ووضع قيمةٍ لشيءٍ ما، ومن ذلك قولهم: قوَّم فُلانٌ المُعْوجَّ: سوَّاه، وعَدَّلهُ، وأزال عِوَجَه، نحو: قوَّم فلانٌ الطريقَ المنحني: أزال عِوَجه، وقوَّمَ الأخطاءَ: صَحَّحها، وقوَّمَ السِّلْعَةَ ونحوَها: سعَّرها، ووضع لها ثمناً[٢] .

أما في الاصطلاح فيعني: إصدار الأحكام على المحتوى التعليمي أو العلمي، وتحديد مدى جودته واتساقه، ومدى قدرته على تحقيق أهدافه؛ بهدف معالجة جوانب الضعف، والقصور فيه[٣] . إذ إنه يشتمل على تقويم جميع عناصر المنهج، ومكوناته؛ لقيامه بالتحقق من مدى صحة ما يتعلق بها من أهداف، ومحتوى، وأنشطة، وما إلى ذلك؛ للكشف عن جوانب القصور؛ لتلافيها، وجوانب القوة فيها لتعزيزها[٤] .

ويعرّف أيضاً[٥] بأنه مجموعة من الإجراءات التي يتم بواسطتها جمع بيانات خاصة بفرد، أو مشروع، أو ظاهرة، ودراسة هذه البيانات بأسلوب علمي للتأكد من مدى

(١) لسان العرب، ابن منظور، (قوّم)، دار المعارف، القاهرة، ج٥، (ص٣٧٨٢).

(٢) أحمد مختار عمر وآخرون، "معجم اللغة العربية المعاصر". (القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٨)، ٣: ١٨٧٥.

(٣) ماهر إسماعيل صبري ومحب محمود الرافعي، "التقويم التربوي أسسه وإجراءاته". (الرياض، مكتبة الرشد، ٢٠٠٨)، ٩٤.

(٤) حسن شحاتة، "المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق". (القاهرة، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٣)، ٢٣.

(٥) رشدي أحمد طعيمة، "المرجع في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى". (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٨٦)، ٢٢٨.

تحقق أهداف محددة سلفاً؛ من أجل الحكم عليها، واتخاذ قرارات بشأنها.

كما عُرِّف[١] تقويم المنهج بأنه تحديد مدى قدرة المنهج على تحقيق أهدافه، وبيان أثره في المتعلمين. ويتم ذلك على المستويين الداخلي، والخارجي بتقويم العلاقة بين عناصر المنهج من خلال أهدافه، ومدى تحققها من خلال المحتوى، ومدى مناسبة طرق التدريس لتحقق الأهداف، وأساليب التقويم المستخدمة، ومناسبتها لأهداف المنهج، وذلك من خلال فحص عناصر المنهج، وإبراز العلاقة بينها، وتحديد أشكال التكامل بين المهارات، والعناصر اللغوية للوحدات التعليمية.

لقد تعددت مفاهيم التقويم وتنوعت، فمن خلال اطلاع الباحثة على الدراسات السابقة وتعريفاته التي قدمها الكثير من الباحثين على اختلافها وتمايزها، ارتأت أن تضع تعريفاً ترى أنه أشمل وأنسب لدراستها الحالية، وهو أنه يعني: تقويم الكتاب من خلال التحقق من مدى كفاءة الكتاب، أو المنهج التعليمي، والحكم عليه من حيث إخراجه الفني، وأهدافه، ومحتواه اللغوي والثقافي، وأنشطته، وتدريباته، ومصاحباته؛ باستخدام أسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية لغةً ثانية، وتقديم مقترحات وحلول لتحسينه، وتطويره.

ثانياً: أهمية تقويم كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها[٢] :

يكتسب تقويم كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، بوصفها لغةً ثانية، أهميته من خلال الآتي:

١. أنه يساعد القائمين على تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في معرفة الكتب

(١) رشدي أحمد طعيمة، "المرجع في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى"، ٢٣٥.

(٢) صالح سبوعي. "تقويم كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بجامعة السلطان الشريف علي الإسلامية: سلسلة مهارات لغة القرآن الكريم للجمهور (الاستماع والكلام نموذجاً)". مجلة لسانيات اللغة العربية وآدابها،٢، (٢٠١٩)، ٢١.

المستخدمة، ومدى مناسبتها للبرامج التعليمية.

٢. أنه يساعد في تحديد المعايير والأسس العلمية للحكم على أي كتاب، بعيداً عن الرأي الشخصي، أو التخمين.

٣. أنه يساعد الجهات العلمية، والمعنية بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في اختيار واعتماد الكتب المناسبة للبرامج التعليمية في ضوء نتائج عمليات التقويم.

٤. أنه يساعد معلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها على معرفة نقاط القوة والضعف في الكتب المعتمدة لديهم؛ لتعزيز نقاط القوة، وتلافي نقاط الضعف، واستدراكها، بما يتناسب مع أهداف البرنامج التعليمي.

ثالثاً: أسس ومعايير إعداد كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها:

عندما يعتزم المؤلفون تأليف أي كتاب لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، فلا بد لهم من أن يضعوا نصب أعينهم عدداً من التساؤلات التي ينبغي أن يُجيبوا عنها بعناية قبل تأليفه، ومِن تلك التساؤلات:

- لمن يؤلَّف الكتاب؟
- ما المستوى اللغوي الذي يؤلَّف له؟
- ما الأهداف التعليمية اللغوية التي يسعى الكتاب إلى تحقيقها؟
- ما طبيعة المحتوى الذي سيتضمنه الكتاب؟
- ما نوع التدريبات التي ستكون في الكتاب؟
- ما المواد التعليمية المصاحبة له؟
- ما الإخراج الفني للكتاب؟[١]

(١) ختام محمد الوزان، ودلال محمد العساف، ونادية مصطفى العساف،"تحليل كتب المستويات الثلاثة المبتدئة في مركز اللغات بالجامعة الأردنية في ضوء أسس إعداد الكتب التعليمية للناطقين بغير العربية"، ١٢- ٣٥.

إن هذه التساؤلات وغيرها من التساؤلات المنبثقة عنها، بحاجة إلى إجابة، ولتحقيق الإجابة عنها يجب علينا الاعتماد على أسس ومعايير واضحة عند تحليل وتقويم سلاسل وكتب تعليم العربية لغةً ثانية؛ للتحقق من مدى مراعاتها للمعاير التي يجب أن تقوم عليها؛ لتعين المتعلم على تحقيق هدفه من التعلم؛ فبعد اطلاع الباحثة، وإجراء دراسة مسحية لعدد من الدراسات السابقة التي قامت على تحليل وتقويم سلاسل وكتب تعليم العربية لغةً ثانية؛ وجدت أن البعض منها يستند لأسس ومعايير قام بإعدادها وتطبيقها القائمون بدراسات سابقة لها، وهي في مجملها تشترك في مضمونها، وتختلف في ظاهرها، وأقسامها من باحث إلى آخر، بحسب أهدافه، واحتياجاته البحثية؛ بُغية الوصول إلى نتائج بحثه الذي يريد إنجازه، أو يقوم الباحث ببناء قائمة أسس ومعايير جديدة من منظوره هو، يستند فيها أيضاً إلى دراسات سابقة ويعتمدها أداة لبحثه.

ومن هذا المنطلق ارتأت الباحثة أن تُجمل الأسس والمعايير؛ على الرغم من تنوعها، وتعددها لتتناسب وطبيعة هذه الورقة البحثية، وعليه فالأسس والمعايير التي ستعتمدها الباحثة في تحليل وتقويم سلسلة العربية للعالم –عينة الدراسة– هي:

- المعيار الأول: إعداد الكتاب وإخراجه.
- المعيار الثاني: المحتوى اللغوي.
- المعيار الثالث: المحتوى الثقافي.
- المعيار الرابع: الأنشطة والتدريبات.
- المعيار الخامس: المواد المصاحبة.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي: تحليل سلسلة العربية للعالم "الكتاب الثالث" وتقويمها

سلسلةُ العربية للعالم سلسلةٌ في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى من منشورات جامعة الملك سعود، وهي سلسلة أسهمت في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغير العربية، محلياً، وإقليمياً، وعالمياً، على حدٍ سواء، وتتكون هذه السلسلة من خمسة كتب:

الكتاب الأول ألَّفه د. حسن محمد الشمراني، والكتاب الثاني ألَّفه د. علي ماجد آل شريدة، والكتاب الثالث ألَّفه د. محمد عبد الخالق محمد فضل، والكتاب الرابع – بنسخته التجريبية– ألَّفه عطا المنان عبد الله محمد، ود. عبد المنعم عثمان أحمد شيخ، والكتاب الخامس –بنسخته التجريبية– ألَّفه د. ناصر عبد الله الغالي.

وجاءت الكتب الثلاثة الأولى من هذه السلسلة لأغراض عامة، في حين جاء الكتابان الرابع والخامس لأغراض خاصة، الأول منهما للعاملين في المجال الدبلوماسي، والثاني لرجال المال والأعمال. وقد بذل مؤلِّفو هذه السلسلة جهوداً عظيمة ومشكورة، من أجل تلبية حاجات متعلمي العربية، سواء أكانت لأغراضٍ عامة، أم لأغراضٍ خاصة.

وبهدف إثرائها، وتطويرها، واستمرارها، واعتمادها من قبل المؤسسات التعليمية في جميع أنحاء العالم لتعليم العربية لغةً ثانية؛ ستحاول هذه الدراسة تحليل الكتاب الثالث منها، وتقويمه في ضوء المعايير، والأسس السابق ذكرها.

المعيار الأول: إعداد الكتاب وإخراجه:

يشتمل على المحاور الخمسة الآتية؛ للتحقق من مدى اشتماله عليها، وتحققها في الكتاب عينة الدراسة، وهي: البيانات العامة للكتاب، ومكملات الكتاب، ومقدمة الكتاب وأهدافه، والصور والرسومات، والإخراج.

المحور الأول: البيانات العامة للكتاب، وهي كما يأتي:

- اسم المؤلف: د. محمد عبد الخالق محمد فضل.
- اسم المصمم والمخرج الداخلي: عبد الحميد الشايع.
- اسم مصمم الغلاف: أحمد الحربي.
- مسجلو المادة الصوتية: الإعلامي: بندر الغميز، وعبد الرحمن البواردي، والإعلامية: عبير الزحيفي، ومها سعود.
- الناشر: جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع عام ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

المحور الثاني: مكملات الكتاب:

- خريطة للكتاب توضح جميع موضوعات الوحدات التعليمية، والمهارات، والعناصر اللغوية التي سيتعلمها المتعلم.
- كلمة مؤلفي السلسلة، ومقدمة، وشكر وتقدير من مؤلف الكتاب لكل من شارك في إنجاز الكتاب.
- قائمة بمحتويات الكتاب، متسلسلة حسب تسلسل موضوعات الوحدات التعليمية، ومهاراتها، وعناصرها اللغوية، متبوعة بملاحقه.
- توضيح لآلية تقديم دروس الوحدة التعليمية المقدَّمة للمتعلم بجميع مهاراتها اللغوية وعناصرها.

المحور الثالث: مقدمة الكتاب وأهدافه.

بعد الاطلاع على مقدمة الكتاب اتضح أن هدف الكتاب هو تلبية الحاجات الأساسية لمتعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، ونلحظ أن أهداف الكتاب مشتقة من أهداف البرنامج العامة التي أُلِّفت من أجله -كما ذكر ذلك المؤلف في مقدمته-، وجاءت موزعة ضمن المستويات التالية: (تذكُّر، فهم، تطبيق، تحليل، تركيب)، وتتناسب

مع قدرات المتعلمين؛ محاولةً تطوير أدائهم.

إذ تميزت أهداف الكتاب بواقعيتها، وقابليتها للقياس، واشتمالها على جوانب معرفية، ومهارية، ووجدانية إلى حدٍ ما، ومما يؤخذ عليها: افتقارها إلى مهارات التفكير العليا، وعدم مناسبتها لقيم المجتمع، وعاداته.

كما حددت مقدمة الكتاب الفئة المستهدفة، والمستوى التعليمي للمتعلمين، حيث إن الفئة المستهدفة هم المتعلمون الراشدون، أما المستوى التعليمي للمتعلمين، فهو المستوى التعليمي لمن أنهوا المستويين الأول والثاني من هذه السلسلة أو ما يعادلها.

كما وضحت مقدمة الكتاب عدد وحدات الكتاب، وترتيب دروس كل وحدة، وأعطت فكرة موجزة عن مضمون الكتاب، واستُهل الكتاب بخارطة يتضح فيها موضوعات، وعناوين الكتاب الرئيسة التي تتناولها دروس الكتاب المختلفة، حيث إن كل وحدة تحتوي على المهارات اللغوية الأربع: الاستماع، والتحدث، والقراءة، والكتابة، إضافة إلى الألفاظ والتراكيب وأنشطة لغوية أخرى.

إلا أنها (أي المقدمة) لم تعمل على تحفيز الطلبة، وإثارة دافعيتهم، ولم توجههم إلى مصادر تعلم مساندة، وجاءت بأسلوب سردي مختصر.

وذكرت المقدمة أن كل وحدة دراسية استُهلت بمجموعة من الأهداف الخاصة بها، وأن الكتاب يتضمن ثلاثة اختبارات قصيرة، كنوع من الاختبار الذاتي، ويأتي كل اختبار منها بعد كل أربع وحدات تعليمية؛ بهدف مراجعة وتعزيز عملية التعلم لهذه الوحدات.

أما ما يتعلق بترتيب دروس كل وحدة تعليمية فذُكر في مقدمة الكتاب أنها بدأت بما قبل الاستماع، من خلال أنشطة متنوعة: ثنائية، أو جماعية؛ لممارسة مهارة التحدث، كمقدمة ومدخل تمهيدي لكل وحدة، وتتناول هذه الأنشطة موضوعاً من الموضوعات ذات العلاقة بعنوان الوحدة.

ثم تأتي بعد ذلك مهارة الاستماع (فهم المسموع)، وفيها يستمع المتعلم إلى

نصوص مختلفة، إذ يطلب منه استنتاج الأفكار العامة، أو أهم الأفكار التي استمع إليها، أو يحدد غرض الموضوع أو المتحدث، أو يدوِّن الملاحظات المهمة، أو يتوقع الأحداث المستقبلية. وقد أُلحق الكتاب بجميع نصوص الاستماع التي استمع إليها المتعلم حتى يعود إليها بعد تطبيقها وفي حال احتاج إلى ذلك.

أما مهارة القراءة فقد جاءت ليقرأ فيها المتعلم نصوصاً متنوعة، يُطلب منه فيها تحديد الأفكار الرئيسة والفرعية، أو يعرض معلومات وردت في الرسوم البيانية، أو يطبق بعض مهارات القراءة السريعة لتعينه على استنباط الأفكار العامة أو يمثل المعنى في القراءة الجهرية أو يطلق أحكامًا على ما يقرؤه، أو يتوقع وقوع الأحداث في ضوء ما قرأ، أو يحدد أهداف الكاتب أو يصنف الألفاظ، ويستخرج معانيها الاصطلاحية أو السياقية.

ويُقدَّم للمتعلم في القواعد والتراكيب اثني عشر درساً من دروس النحو الأساسية، وهي الجملة العربية، والمفاعيل الأربعة، والنعت، والفعل اللازم، والفعل المتعدي، والجموع الثلاثة، والمضاف إليه، والأفعال الخمسة، وتُقدم له نظرياً، ثم يستخدمها تطبيقياً.

ويدرس بعد ذلك في مهارة الكتابة التخطيط لعملية الكتابة، واستخدام أدوات الربط، وكيفية ملء الاستمارات، وماهية الفقرة والفكرة، وكيف يكتب المقدمة والخاتمة، وأساليب تنظيم العمل الكتابي، وكتابة المسودة، واستخدام المراجع والتوثيق، ولغة الرسائل الرسمية والبريد الإلكتروني، ثم كيفية تلخيص الموضوع الكتابي، تليها نشاطات وألعاب لغوية تعزيزية مختلفة، تختتم بها كل وحدة سواء كانت فردية، أم ثنائية، أم جماعية، وتعد بمثابة المراجعة لبعض ما ورد في الوحدة التعليمية، مثل: القواعد، والمحادثة، والكتابة.

والحقيقة أن ترتيب الدروس في تلك الموضوعات جاء متدرجاً، ومناسباً لمستوى المتعلمين، حيث روعي في ترتيبها المستوى العلمي والمعرفي والثقافي للمتعلمين وبناؤها على ما تم دراسته في المستوى السابق.

المحور الرابع: الصور والرسومات.

يُعد استعمال الصور في كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها أمراً مهماً في العملية التعليمية لما لها من أثر إيجابي في تسهيل عملية تعلُّم المتعلم بوصفها وسيلةً مُعِيْنة؛ إلا أنها قد لا تعبر تعبيراً دقيقاً عن المطلوب، كما أنها قد تُشكل لبساً للمتعلم من خلال خلفيته الثقافية، أو مفاهيمه المختلفة للمفردات المترادفة، أو المتضادة، وعدم التفريق بينها؛ لذلك ينبغي اختيارها بعناية فائقة حتى لا تعمل على تشتيت المتعلم، وتصرف انتباهه وتركيزه إلى منحى مغاير للهدف منها.

تضمَّن الكتاب الثالث من سلسلة العربية للعالم عدداً من الصور والرسومات المرتبطة بأهداف الوحدات التعليمية؛ إلا أنها قليلة، وقد يعود ذلك إلى مستوى المتعلم المتقدم، وجاء البعض منها صغير الحجم، والبعض منها يعد قديماً يحتاج إلى تجديد، ومواكبة للتطورات الحديثة، وهذا نموذج لبعض الصور والرسومات:

المحور الخامس: الإخراج.

لم يكن غلاف الكتاب الثالث من السلسلة جاذباً ومشوقاً للطلبة، (كما يظهر في المرفق)، بينما كانت عدد صفحاته وحجمه مناسبين للفئة المستهدفة، وكذلك نوعية أوراقه، فقد جاء في مئتين وسبع وخمسين صفحة، على ورق فاخر (مصقول) عالي الجودة لضمان وضوح محتوياته. كما أنه يحتوي على قائمة بمحتويات الكتاب تظهر فيها عناوين الوحدات الرئيسة بخط عريض بارز يميزها عن العناوين الفرعية له. كما يظهر تناسب المسافات بين الكلمات، وتناسبها بين الأسطر، وتماهي ألوان الكتاب فيما بينها، وتميز الكتاب بضبطه للكلمات بالشكل، وهنا تظهر عناية المؤلف بضبط الكلمات؛ نظراً لخصوصية تعليم العربية لغةً ثانية وأهميته، كما أن الكتاب استخدم علامات الترقيم المناسبة، وظهر خالياً من الأخطاء الطباعية، وهذا يدل على وضوح الكتاب، ويؤدي إلى سهولة فاعلية المتعلم، وسرعته في التعلم.

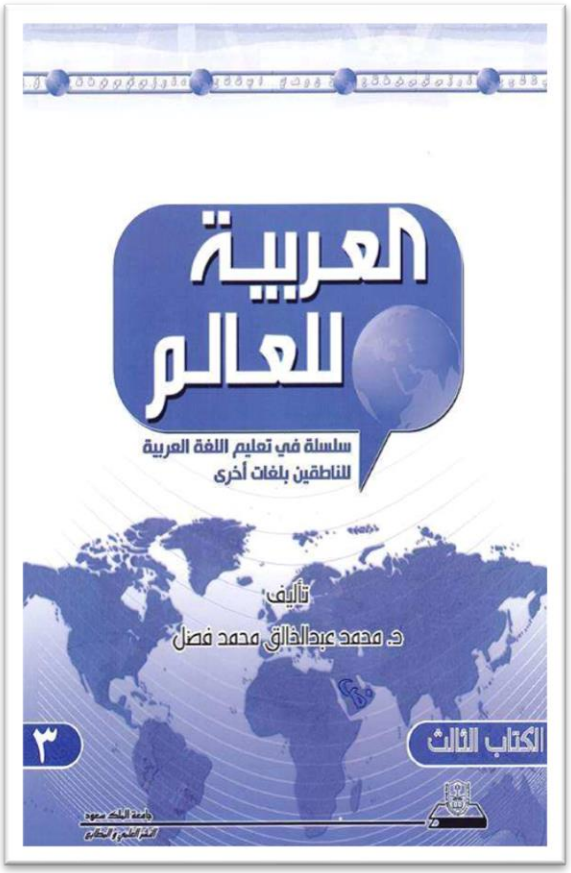

المعيار الثاني: المحتوى اللغوي.

جاء المحتوى اللغوي في هذا الكتاب متدرجاً بحسب مستوى المتعلمين اللغوي، فقد اشتمل على عدة مهارات، وعناصر، هي: مهارة الاستماع، ومهارة التحدث، ومهارة القراءة، ومهارة الكتابة، وعنصر القواعد، كما أهمل عنصري المفردات، والأصوات، وسوف نفصل ذلك كما يأتي:

١- مهارة الاستماع: نلحظ فيها أن المؤلف اكتفى بعرض صورة تمهيدية، أو رسم بياني لمناقشتها من قِبل المتعلمين، ثم يأتي بعد ذلك نص استماع واحد فقط، يليه أسئلة تتعلق به، يستمع له المتعلم ثم يجيب عن أسئلته، وقد يعود ذلك إلى أن متعلم العربية هنا قد وصل إلى مستوى متقدم من مستويات اللغة الذي لا يتطلب نصوصاً إضافية كالمستويات المبتدئة التي تدعو القائمين عليها إلى العناية بنصوص الاستماع التي تؤثر على مهارة فهم المسموع لدى المتعلم؛ إذ إنه بحاجة إلى الاستماع لنصوص إضافية كثيرة ومتعددة تساعده على التمكُّن من مهارة فهم المسموع، ومن أمثلة ذلك: في الوحدة الأولى، (انظر إلى الصورة، وناقش زميلك في محتوياتها، يليه: استمع إلى النص، ثم أجب عن الأسئلة التالية)، وفي الوحدة السابعة، (انظر أنت وزميلك إلى الرسم البياني، وتحدثا في الإجابة عن الأسئلة، يليه: استمع إلى النص التالي، ثم ضع علامة × أمام الحقائق التي لم ترد عن الرياض في النص). وهذه الأسئلة كان بإمكان المتعلم أن يستفيد منها بشكل أكبر لو كانت نصوص الاستماع أكثر مما هي عليه في الكتاب.

٢- مهارة التحدث: لقد قامت مهارة التحدث في الكتاب على تفعيل الحوارات بين المتعلمين، حول موضوع من الموضوعات التي تدور حولها كل وحدة تعليمية، وبحسب المواقف اللغوية، ويتحدث فيها المتعلم بتسلسل، وترابط للأفكار. وهذا هو ما ورد في تدريبات مهارة التحدث في الكتاب؛ إذ نلحظ أنها توظف مهارة التحدث توظيفاً حقيقياً، كما ورد في الوحدة الأولى، مثل: (في مجموعات أعد على زملائك ما

فهمته من النص الذي استمعت إليه، يليه: تحدث أنت وزميلك عن العلامات التجارية التالية)، والوحدة السابعة، مثل: (ماذا تعرف عن المدن التالية؟ وما رأيك فيها؟ تحدث عنها أنت وزميلك).

٣– مهارة القراءة: اشتملت على نصوصٍ حواريةٍ وسرديةٍ متدرجةٍ، وحقيقية معاصرة لتعزيز فهم الطلاب واكتسابهم للمهارات اللغوية اللازمة متنوعة الموضوعات والطول، أصلية مستمدة من اللغة العربية الأصيلة، تتناسب مع مواقف الحياة اليومية التي يحتاجها متعلم العربية لغةً ثانية، لتكسبه الكفاءة اللغوية التي تمكنه من استخدامها في بيئات متنوعة، وتساعده على توسيع مفرداته وتحسين قدراته على الفهم والقراءة.

وقد صممت تدريباتها على أن يطبق المتعلم بعض مهارات القراءة؛ لتمكنه من استنباط الأفكار العامة، أو يحدد الأفكار الرئيسة والفرعية، أو يَعرض معلومات وردت في الرسوم البيانية، أو يمثل المعنى في القراءة الجهرية، أو يُصدر أحكاماً على ما قرأه، أو يتوقع وقوع أحداث في ضوء ما قرأ، أو يحدد أهداف الكاتب، أو يصنِّف الألفاظ، ويستخرج معانيها الاصطلاحية أو السياقية. وجميع هذه التدريبات جاءت إما فردية، أو ثنائية، أو جماعية.

٤– مهارة الكتابة: يتناول المتعلم في كل وحدة تعليمية موضوعاً واحداً من موضوعات الكتابة كالتخطيط لعملية الكتابة، أو طريقة ملء الاستمارات، أو استخدام أدوات الربط، أو معرفة ما هي الفقرة والفكرة، أو كيفية كتابة المقدمة والخاتمة، أو كتابة المسودة، أو أساليب تنظيم العمل الكتابي، أو استخدام المراجع والتوثيق، أو لغة الرسائل الرسمية والبريد الإلكتروني، أو كيفية تلخيص الموضوع الكتابي.

وتأتي هذه الموضوعات متبوعة بتدريبات متنوعة، منها على سبيل المثال:

املأ الاستمارتين...، اكتب موضوعاً عن...، اكتب فقرة...، اكتب مقدمة مناسبة...، اكتب خاتمة...، اكتب رسالة إلى...، أعد كتابة الفقرة مع تصويب

الأخطاء...، اكتب تلخيصاً للنص...، وتأتي نهاية كل وحدة تعليمية أنشطة تعزيزية متنوعة سواء كانت فردية، أم ثنائية، أو جماعية تتعلق بموضوع الكتابة الذي تعلمه المتعلم، وقام بالتدرب عليه.

فمهارة الكتابة في هذا الكتاب تعد مستوى متقدم تهدف إلى تمكين المتعلمين من التعبير بطريقة صحيحة وجذابة، وتُعلمهم كيفية تكوين جمل معقدة وتَنظيم الأفكار بشكل منطقي وتعززها.

٥- القواعد: تعد أحد العناصر اللغوية المهمة، وتأتي بالنسبة لمتعلم اللغة العربية لغةً ثانية في هذا الكتاب من خلال اثني عشر درساً، في النحو الأساسي، وتُقدَّم له نظرياً في جمل متنوعة، أو فقرات، أو نصوص قصيرة، إذ تعد استكمالاً متدرجاً لما جاء في المستويات التي سبقت هذا المستوى في كتبٍ منفصلة، فيلاحظ من خلالها المتعلم، ويستنتج جميع هذه القواعد في كل وحدة تعليمية، ثم يطبقها في تدريبات متنوعة مرتبطة بموضوع الوحدة التعليمية، كما جاء في الوحدة الثالثة، مثل: (اقرأ الفقرة التالية...، استخدم الأفعال الواردة...، ضع خطّاً تحت...، حوّل ما بين القوسين إلى...)، وكما جاء في الوحدة السابعة، (اقرأ الفقرة...، اختر الفعل اللازم...، املأ الفراغ...، أكمل بوضع...). ثم تختتم الوحدة بأنشطة متنوعة تعزز كلّاً من المهارات والعناصر اللغوية التي تعلمها المتعلم.

من خلال ما سبق يتبين أن القواعد في هذا الكتاب تُوظَّف من قِبل المتعلم في هيئة تدريبات، وأنشطة متنوعة، كما أنها تُوظَّف في مهارتي التحدث، والكتابة، ولكن ما يؤخذ على الكتاب هو أنه غلب على هذه التدريبات النمط التقليدي، وكان الأنسب أن يستعمل الكتاب النمط التفاعلي الذي سيعمل على زيادة تفاعل المتعلم، وجذب انتباهه، وإخراجه من شعور الملل الذي يؤثر على تفاعله، وفهمه للقاعدة وتطبيقها.

٦- مفردات الكتاب: ألحق المؤلف مسرداً بالمفردات بحسب الوحدات التعليمية، ولكن ما نلاحظه في هذا الكتاب أن المؤلف لم يذكر أي شيء يتعلق بالمفردات

في الوحدة التعليمية، أو في مقدمته، فالمفردات جاءت في أنشطة، وتدريبات نصوص مهارة القراءة التي يوظفها المتعلم في كتاباته وحديثه، ويمارس استخدامها في سياقات حقيقية بهدف اكسابه مفردات متنوعة يستخدمها في الحياة اليومية. على سبيل المثال: صل بين الكلمة في (أ) وما يناسبها في (ب)...، ضع الكلمات والعبارات التالية في مكانها الصحيح...، ارجع إلى موضوع القراءة مرة أخرى واستخرج....

٧– الأصوات: بالنسبة لهذا العنصر، لم يتطرق له المؤلف في هذا الكتاب، ولعل سبب ذلك أن المتعلم قد درسها في المستوى المبتدئ، وأتقنها، ومن ثم فلا داعي لإعادتها هنا؛ كونها أولى العناصر التي يتعلمها متعلم اللغة الثانية.

من خلال النظر في **المحتوى اللغوي** للكتاب نجد أنه اشتمل على نصوصٍ حواريةٍ وسرديةٍ متنوعةِ الموضوعات، ومتدرجة، تتناسب مع مواقف الحياة اليومية التي يحتاجها متعلم العربية لغةً ثانية، وتُكسبه الكفاءة اللغوية التي تمكنه من استخدامها في بيئات متنوعة.

كما أن الكتاب استخدم المنهج التكاملي للوحدة التعليمية المتدرج في تقديمه للمهارات اللغوية، وعناصرها، وأتبعها بتدريبات اتصالية متنوعة تُظهر جوانب الضعف اللغوي عند المتعلمين، وتسهم في معالجتها، وتنميتها، كما أن الكتاب اهتم بتعليم القواعد، فأتاح المجال للمتعلم يتعرف، ويستنتج، ثم يطبق تلك القواعد في سياقات متنوعة.

المعيار الثالث: المحتوى الثقافي.

لكل ثقافة مضمون داخلي وإطار خارجي، فالمضمون الداخلي للثقافة يعني أسلوب الحياة الذي تتفرد به، ويميزها عن غيرها من الثقافات الأخرى، وأما الإطار الخارجي؛ فهو المركبات والعناصر التي تُكَوِّن النظام الثقافي، وهذا الإطار تشترك فيه جميع الثقافات.

فلكل ثقافة عادات وتقاليد، ونظام عائلي، فقد اتفق جميع الكُتاب والمفكرين

والمنشغلين بتعليم اللغات الأجنبية على تحديد عناصر الإطار الخارجي للثقافة الذي يتم عن طريقه تصنيفها في كل مجتمع.

ومن الأطر الخارجية للثقافة التي أعدها الكُتَّاب والمفكرون[١] :

١- إطار ويلسر wesler الذي وضع فيه الحد الأدنى للعناصر والمركبات الثقافية التي لا بد أن تتوافر في كل ثقافة.

٢- إطار بروكس Brooks الذي قدم تصنيفين للإطار الخارجي للثقافة مقسمة إلى قسمين: قسم خاص بالفرد، وآخر خاص بالمؤسسات؛ أحدهما موجز ذكر فيه عناوين فقط، والثاني مفصل شرح فيه كل ما يندرج تحت كل عنوان.

٣- إطار فينوكيرو Finocchiaro التي قدمت في كتابها (تدريس الإنجليزية كلغة ثانية) إطاراً آخر.

وترى الباحثة أن الإطار الأفضل والأشمل والأعم هو ذلك الإطار الذي يُبرز مظاهر ثقافة أي مجتمع بصورة دقيقة وواضحة، والذي ينبغي أن تقوم وتبنى عليه سلاسل تعليم اللغة العربية لغةً ثانية؛ لإظهار المحتوى الثقافي لكل ثقافة.

ففي هذا الكتاب حاول المؤلف إبراز الثقافة العربية من خلال الوحدات: الرابعة، والخامسة، والسابعة، والثامنة، والتاسعة، فقط؛ إذ عرض فيها لآيات قرآنية وأحاديث شريفة، وحكم عربية، وتطرّق لمدن عالمية عربية، وتحدث عن مشكلاتها، وسلَّط الضوء على مخترعين عرب برزوا في اختراعات متميزة، وفي مجال النقود والمال سلط الضوء على المرأة العربية اللبنانية تحديداً، وعلاقتها بالمال.

(١) رشدي أحمد طعيمة، "دليل عمل في إعداد المواد التعليمي لبرامج تعليم العربية". (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٨٥)، ٢٠٠-٢٠٨.

وترى الباحثة أنه كان من الأجدر أن يُبرز الكتابُ المظاهرَ الثقافية العربية والسعودية في المحتوى اللغوي، من خلال الحديث عن العلماء، والعباقرة، والمشاهير العرب، وعن إنجازاتهم في جوانب متعددة ومختلفة، كالمال والأعمال، والطب، والهندسة، وغيرها. فلم تعكس وحدات هذا الكتاب أغلب الجوانب الثقافية العربية بشكل عام، والسعودية بشكل خاص؛ إذ إنه لا يمكن لأي متعلم اكتساب أي لغة بمعزل عن ثقافتها.

فنجد المؤلف يعرض في الكتاب عدة موضوعات لا تعكس المستوى الثقافي العربي بشكل صحيح، فنجده يتحدث عن: البطالة، وجفاف المياه، والأمراض، والحروب التي أبادت البشرية، والتدخين، وهذه جميعها مشكلات اجتماعية واقتصادية.

ولهذا فإن الباحثة ترى أنه كان من الأجدر أن يتضَمَّن الكتاب قيماً ثقافية من واقع المجتمع العربي، أو السعودي، كالتسامح، والصبر، والرفق، والتعاون، وغيرها من الموضوعات التي تمثل ثقافة العرب وتعكسها، كما أن الكتاب لم يفعّل الانغماس اللغوي للمتعلمين من خلال الشريك اللغوي، أو الرحلات الثقافية إلى أشهر المعالم في المملكة العربية السعودية، أو الاحتفاء بالمناسبات الثقافية، أو الاجتماعية، سواء كانت عربية أم عالمية، كالاحتفاء باليوم العالمي للغة العربية، أو اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية، وزيارة المعارض المهمة كمعرض الكتاب، أو التطرق لإنجازات المملكة العربية السعودية في شتى المجالات، كالتعليم، والعمران، والمال والأعمال، وغيرها. وهذا كله يكسب المتعلم الاطلاع على العلوم والمعارف المتنوعة التي تساعده في تعلم اللغة العربية لغةً ثانية، والتمكن منها.

المعيار الرابع: الأنشطة والتدريبات.

جاءت الأنشطة والتدريبات متنوعة ومتعددة ومتدرجة في هذا الكتاب؛ تبعاً

لتدرج مستوى المتعلمين، ومراعيةً للفروق الفردية بينهم، فنلاحظ أنها جاءت بعد كل مهارة من المهارات اللغوية وعناصرها، وكانت مرتبطة بموضوعاتها، فنجدها تحاول التركيز على فهم المتعلم لكل مهارة من المهارات والعناصر، بالتطبيق، والتدريب في صلب موضوع الوحدة التعليمية؛ تعزيزاً لما تعلمه فيها، ومن ذلك على سبيل المثال:

نجد في مهارة الاستماع الأنشطة التالية: (استمع إلى النص، ثم أجب عن الأسئلة التالية)، وفي مهارة التحدث: (في مجموعات أعد على زملائك ما فهمته من النص الذي استمعت إليه، تحدث أنت وزميلك عن ... إلخ)، وفي مهارة القراءة: (أجب باختصار...، ما المقصود بعبارة..، ما الفرق بين..، صل بين الكلمة في (أ) وما يناسبها في (ب)...، ضع الكلمات والعبارات التالية في مكانها الصحيح...).

وإضافة إلى هذه التدريبات والأنشطة نجد أن المؤلف وضع أنشطة وتدريبات متنوعة تختتم بها كل وحدة تعليمية، سواء كانت فردية، أم ثنائية، أم جماعية، لتعزيز ومراجعة جميع ما سبق تعلمه من قبل المتعلم في هذه الوحدة.

إلا أن ما يؤخذ عليها أنها جاءت بطريقة تقليدية ليس فيها تشويق، أو تفاعل، أو إثارة للدافعية لدى المتعلمين، وجذب انتباههم، ولم تُعَرِّض المتعلم لمواقف حقيقية يمارس من خلالها اللغة سواء داخل الصف أم خارجه؛ لتساعده على التمكن من اللغة، مثلاً: كأن يقوم المتعلم بإجراء مقابلة مع ناطق بالعربية، سواء في البيئة التعليمية، أم خارجها، أو يعد استبانة، أو يذهب إلى صفوف متعلمين ناطقين بالعربية ويقوم بمهام يكلفه بها الأستاذ، ...وهكذا.

المعيار الخامس: المواد المصاحبة.

لتحقيق أهداف كتب وسلاسل تعليم اللغة العربية لغةً ثانية يُستحسن إعداد مواد

تعليمية مصاحبة لها، يوظفها المعلم والمتعلم في العملية التعليمية. وقد لوحظ أن المواد السمعية لنصوص فهم المسموع أُلحقت بالكتاب مكتوبةً، ليعود إليها المتعلم بعد التطبيق مع المعلم؛ للمراجعة، وتعزيزاً لما تعلمه. كما أنه أُلحق بالكتاب مسرد آخر خاص بالمفردات المتعلقة بموضوعات الكتاب، ووحداته.

إلا أن ما يؤخذ على الكتاب أنه لم يتوفر له أي معجم، أو كتاب للقراءة الإضافية يعتمد فيها المتعلم على نفسه، أو كتاب للمحادثة يحتوي على حوارات مختلفة في مواقف حياتية تواصلية متنوعة، أو كتاب لمزيد من التدريبات يتدرب فيها المتعلم على مهارات وعناصر اللغة، أو موقع إلكتروني. وهذه المواد جميعها مساعدة وداعمة للمتعلم ولجودة العملية التعليمة.

الخاتمة:

أولاً: النتائج:

توصل البحث إلى عدد من النتائج التي تحتوي على جوانب تَميز بها الكتاب وجوانب أخرى تحتاج إلى إعادة نظر لتطويره وتحسينه، وهي كالآتي:

مميزات الكتاب:

١- قُدمت مهارات وعناصر الكتاب اللغوية من خلال نظام تكاملي متدرج في الوحدة التعليمية.

٢- تميز الكتاب بضبطه للكلمات بالشكل؛ لما لتعليم العربية لغةً ثانية من خصوصية لدى غير الناطقين بها، بشكل خاص.

٣- فُعلت الحوارات والمناقشات في مهارة التحدث بين المتعلمين من خلال تدريباتها المكثفة.

٤- تنوع نصوص مهارات القراءة، وتناسبها مع المواقف الحياتية اليومية.

ملاحظات لتطوير الكتاب:

١- إعادة النظر في غلاف الكتاب لجذب وتشويق متعلمي اللغة العربية لغةً ثانية.

٢- لم يُصحب الكتاب بمواد تعليمية؛ مثل: موقع إلكتروني، وكتب إثرائية لمهارتي القراءة، والتحدث، وكتب للتدريبات، والأنشطة، ومعجم؛ لتعين المتعلم على الممارسة، والتعلم الذاتي.

٣- عدم توظيف الزيارات الميدانية، والرحلات الثقافية المتعلقة بموضوعات الوحدات، من خلال الأنشطة اللاصفية التي من شأنها تعزيز ما تعلمه المتعلم.

٤- قلة الصور والرسومات المصاحبة لمهمات الكتاب، وقِدمها، وصِغَر حجم

بعضها الآخر.

٥- لم تَبرز الثقافة العربية، أو السعودية، وقيمها إلا من خلال موضوعات، ووحدات محددة.

٦- تقليدية الأنشطة والتدريبات لهذا الكتاب، إذ إنها لم تُعَرِّض المتعلم لمواقف حقيقية يمارس اللغة من خلالها.

ثانياً: التوصيات:

في ضوء نتائج الدراسة، توصي الباحثة بالآتي:

١- ضرورة تحديث وتطوير الكتاب بما يتناسب مع أحداث العصر الحالي، وإجراء التعديلات على محتوى الوحدات التعليمية من نصوص، وصور، وأنشطة.

٢- توفير مواد تعليمية مصاحبة للكتاب تُسهم في تعليم وتعلم الطلبة، وتدعمهم لغوياً، مثل: كتاب إثرائي يثري مهارة القراءة، وكتاب آخر يُثري مهارة التحدث من خلال تضمين حوارات حياتية لمواقف تواصلية مختلفة ومتنوعة، وكتاب يتدرب فيه المتعلم على مزيد من مهارات وعناصر اللغة؛ حتى يعزز ما تعلمه، وتوفير موقع إلكتروني تفاعلي يكون مساعداً وداعماً للمتعلم في العملية التعليمة.

٣- تفعيل الأنشطة اللاصفية من خلال الزيارات الميدانية، والرحلات الثقافية، والشريك اللغوي.

٤- تفعيل أنشطة حقيقية واقعية ينفذها الطلبة في مواقف حياتية صفية، ولا صَفِّيَّة.

٥- إبراز الثقافة العربية، والسعودية، وقيمها من خلال المحتوى اللغوي للكتاب.

٦- إجراء المزيد من الدراسات التي تقوم على تحليل وتقويم كتب، وسلاسل تعليم العربية لغةً ثانية، وإفادة القائمين عليها بأبرز نتائجها؛ للإفادة منها.

الدراسات المقترحة:

١- إجراء دراسات تقويمية لسلاسل أخرى في تعليم العربية للناطقين بغيرها غير الدراسات المذكورة في الدراسة الحالية.

٢- دراسة تطور النموذج اللغوي في الكتابين الأول والثاني من سلسلة العربية للعالم.

٣- دراسة جدوى "سلسلة العربية للعالم" في تعليم الدبلوماسيين العربية بوصفها لغة ثانية من وجهة نظر المتعلمين.

المصادر والمراجع:

التميمي، خالد حفظي. "الكتب التعليمية، واتجاهاتها في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها (كتاب العربية بين يديك الجزء الأول أنموذجا) ". مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ٤٨ ، (٢٠٢٠):١٨٧-٢٠٠.

سبوعي، صالح. "تقويم كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بجامعة السلطان الشريف علي الإسلامية: سلسلة مهارات لغة القرآن الكريم للجمهور (الاستماع والكلام نموذجاً)". مجلة لسانيات اللغة العربية وآدابها،٢، (٢٠١٩)،١٨-٤٢.

شحاتة، حسن. " المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق". (القاهرة، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٣).

شعيب، أبو بكرعبدالله. "تحليل كتب اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، سلسلة العربية بين يديك نموذجاً".(رسالة دكتوراه، الخرطوم: جامعة النيلين، ٢٠٠٩).

صبري، ماهر إسماعيل و الرافعي، محب محمود. " التقويم التربوي أسسه وإجراءاته".(الرياض، مكتبة الرشد، ٢٠٠٨).

طعيمة، رشدي أحمد. "المرجع في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى". (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٨٦).

طعيمة، رشدي أحمد. "دليل عمل في إعداد المواد التعليمي لبرامج تعليم العربية". (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٨٥).

العليمات، فاطمة و العلي، محمد و الربابعة، إبراهيم. "تقويم الكتاب السادس لتعليم العربية للناطقين بغيرها في مركز اللغات في الجامعة الأردنية من وجهة نظر المعلمين والطلبة". مجلة أبحاث لسانية،٣١، (٢٠١٤)، ٧٣-١٠١.

العليمات، فاطمة. "تقويم الكتاب الثاني لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في المعهد الدولي لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها في الجامعة الأردنية من وجهة نظر

المعلمين والطلبة". مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية ٣، (٢٠١١): ٩٣٩-٩٥١.

عمر، أحمد مختار وآخرون. "معجم اللغة العربية المعاصر". (القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٨).

الغالي، ناصر عبد الله وعبد الله، عبدالحميد. "أسس إعداد الكتب التعليمية لغير الناطقين بالعربية". (دار الاعتصام، ١٩٩١).

فراج، خالد خميس. "العربية بين يديك لتعليم العربية للناطقين بغيرها: دراسة نقدية لغوية تربوية في ضوء اللسانيات التطبيقية". مجلة لساننا، ٢، (٢٠١٧): ١٨٨-٢١٢.

الفوزان، محمد إبراهيم. "تقويم كتاب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها "العربية للعالم" في ضوء معايير الكتاب التعليمي الجيد". مجلة العلوم التربوية ٢١، (٢٠١٩): ٢٨٩-٣٣٨.

الفوزان، محمد إبراهيم. "تقويم محتوى كتاب تعليم العربية للناطقين بغيرها "العربية بين يديك" من وجهة نظر المدرسين والطلاب بجامعة الملك سعود". مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية ٧، (٢٠١٦): ١٥٩-١٨٣.

لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، ج٥، ١٩٩٧م.

الناقة، محمود كامل و طعيمة، رشدي أحمد. " الكتاب الأساسي لتعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى إعداده- تحليله- تقويمه". (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٩٨٣).

الوزان، ختام محمد والعساف، ونادية مصطفى و العساف، دلال محمد. "تحليل كتب المستويات الثلاثة المبتدئة في مركز اللغات بالجامعة الأردنية في ضوء أسس إعداد الكتب التعليمية للناطقين بغير العربية". مجلة دراسات ٧٣ (٢٠١٨):١٢- ٣٥.

Bibliography:

Al-Alimat, Fatima, Al-Ali, Muhammad and Al-Rababa, Ibrahim. "Evaluation of the Sixth Book of Teaching Arabic to Speakers of Other Languages at the Language Center at the University of Jordan from the Point of View of Teachers and Students", (in Arabic) Journal of Linguistic Research, 31, (2014), 73-101.

Al-Alimat, Fatima. "Evaluating the second book for teaching Arabic to non-native speakers at the International Institute for Teaching Arabic to non-native speakers at the University of Jordan from the point of view of teachers and students". (in Arabic) Journal of Studies, Humanities and Social Sciences 3, (2011) 939-951.

Al-Fawzan, Muhammad Ibrahim. "Evaluating the book on teaching Arabic to non-native speakers "Arabic for the World" in light of the standards of a good educational book" (in Arabic), Journal of Educational Sciences 21, (2019): 289-338.

Al-Fawzan, Muhammad Ibrahim. "Evaluating the content of the book Teaching Arabic to Non-Native Speakers "Arabic in Your Hands" from the point of view of teachers and students at King Saud University" (in Arabic). Al-Hikma Journal for Educational and Psychological Studies 7, (2016): 159-183.

Al-Ghali, Nasser Abdullah and Abdullah, Abdul Hamid. "Basics of preparing educational books for non-Arabic speakers" (in Arabic) (Dar Al-Etisam, 1991).

Al-Tamimi, Khaled Hefzy. "Educational books and their trends in teaching the Arabic language to non-native speakers (The Arabic book in your hands, part one, as an example)" (in Arabic). College of Basic Education Journal of Educational and Human Sciences, 48, (2020) 187-200.

Al-Wazzan, Khatam Muhammad and Al-Assaf, Nadia Mustafa and Al-Assaf, Dalal Muhammad. "Analysis of the books for the three beginning levels at the Language Center at the University of Jordan in light of the principles of preparing educational books for non-Arabic speakers" (in Arabic). Dirasat Journal 73 (2018): 12-35.

Farraj, Khalid Khamis. "Arabic in your hands for teaching Arabic to non-native speakers: a critical linguistic and educational study in the light of applied linguistics" (in Arabic). Lisanununā journal, 2, (2017) 188-212.

Ibn Manzur, Muhammad bin Mukarram. "Lisan al-Arab". Dar al-Maaref, Cairo, vol. 5, 1997.

Omar, Ahmad Mukhtar and others. "Contemporary Arabic Language Dictionary" (in Arabic). (Cairo, World of Books, 2008).

Sabri, Mahir Ismail and Al-Rafii, Mohib Mahmoud. “Educational evaluation, its foundations and procedures” (in Arabic). (Riyadh, Al-Rushd Library, 2008).

Seboui, Saleh. “Evaluation of books teaching Arabic to non-native speakers at Sultan Sharif Ali Islamic University: Holy Qur’an language skills series for the public (listening and speaking as an example)” (in Arabic). Journal of Arabic Linguistics and Literature, 2, (2019), 18-42.

Shehata, Hassan. “Curriculum between theory and practice” (in Arabic). (Cairo: Arab House for Books, 2003).

Shuaib, Abu Bakr Abdullah. “Analysis of Arabic language books for speakers of other languages, the Arabic series in your hands as an example” (in Arabic). (PhD dissertation, Khartoum: Al-Nilein University, 2009).

Taima, Rushdi Ahmad. “A work guide for preparing educational materials for Arabic teaching programs” (in Arabic). (Mecca: Umm Al-Qura University, 1985).

Taima, Rushdi Ahmad. “The reference for teaching Arabic to speakers of other languages” (in Arabic). (Mecca: Umm Al-Qura University, 1986).

Al-Nāqah, Mahmoud Kamil and Taima, Rushdi Ahmad. “The basic book for teaching Arabic to speakers of other languages: its preparation, analysis, and evaluation” (in Arabic). (Makkah Al-Mukarramah: Umm Al-Qura University, 1983).

١٣٨١
١٩٦١

The Islamic University Journal of Arabic Language and Literature

Apr - Jun
2024

Issue
12